المستشار محمد مرشدي بركات

جمال عبد الناصر

كما لم تعرفه من قبل

حقائق وأسرار



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **جمال عبد الناصر كما لم تعرفه من قبل**

المؤلف : محمد مرشدي بركات

رقم الإيداع : 2018 /3250

الترقيم الدولي: 978-977-8565-65-27-2

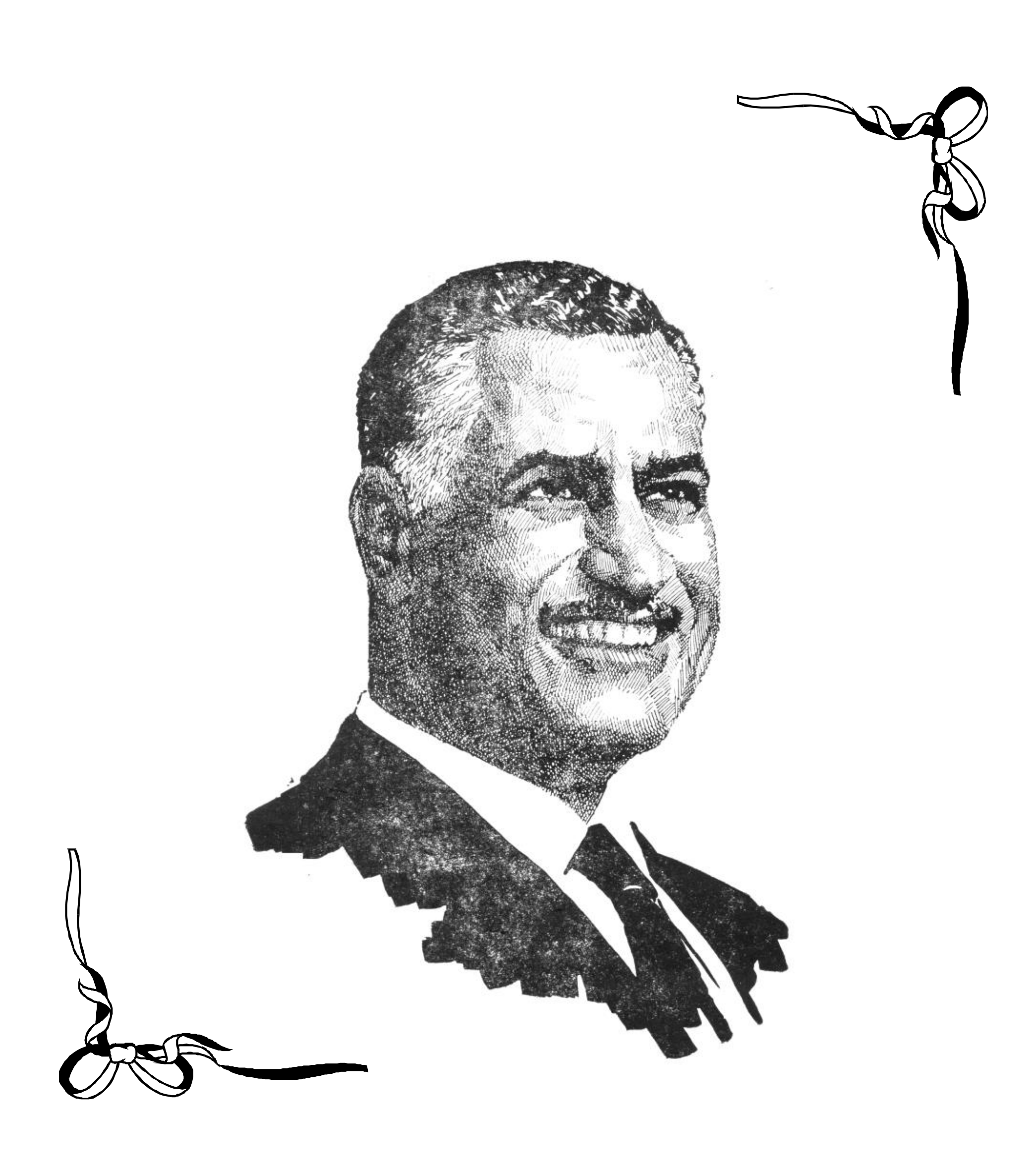
الطبعة الأولى 2018



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com



إهداء

إلى روح والديَّ الكرام .. طيب الله ثراهما...

....

إلى كريمتي الأستاذة سارة بركات وكيل النيابة ...

....

إلى نجلي المستشار خالد بركات القاضي بمجلس الدولة ... الذي كان له الفضل بعد الله في خروج هذا الكتاب - وغيره - إلى النور..

....

وإلى ابن شقيقتي المستشار خالد محمد عبد الله بركات والذي عهدته دائمًا دمث الأخلاق بارًا بوالدته أبيًا وفيًا بأسرته برمتها ...

إليهم جميعًا أهدي هذا الكتاب .

المستشار محمد مرشدي بركات

المقدمة

شب عن الطوق، وزكا عوده، وهو يكره الإنجليز الذين ناءوا على مصر بكلكلهم، وعاثوا في أرضها الطاهرة فسادًا وإفسادًا.

عبر جمال عبد الناصر عن غضبته وكراهيته لبريطانيا منذ أن كان صغيرًا غض الإهاب حيث كان عندما يرى الطائرات في السماء يصيح قائلًا: «يا عزيز يا عزيز داهية تاخد الإنجليز».

وقاد عبد الناصر ثورة 23 يوليو مع زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأضحى بعد قليل قائدًا لمصر وزعيمًا لها، ولم يستطع أحد أن ينافسه في ذلك.

أذكر أن الرئيس محمد نجيب كان قد كتب مقالاً في مجلة الهلال بعنوان «نمر الثورة جمال عبد الناصر»، وبالفعل كان عبد الناصر نمر الثورة، بل أسدها، والتف الشعب بجميع طوائفه حوله.

توسد جمال عبد الناصر عرش الزعامة على مصر وهو يؤمل أن يعمل جاهدًا على نهضتها وإسعاد شعبها، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد خاض حربًا ضروسًا من أجل كرامة مصر حتى وقع الاعتداء الثلاثي على البلاد بعد تأميم شركة قناة السويس.

وما إن أهل عام 1964 حتى واجهت مصر عقبة كئودًا، فقد تعرضت للحصار الاقتصادي من دول كثيرة وأثر ذلك في موارد البلاد واستنزف طاقتها الاقتصادية، حيث حدث إبان هذه الفترة عجز في محصول القمح الذي كنا نستورده من أمريكا والاتحاد السوفيتي، ولسوء العلاقة بين مصر وأمريكا التي رفضت إعطاءنا القمح كنوع من الضغط علينا.. ولم يكن الاتحاد السوفيتي لديه فائض من القمح.. وأمام الحاجة الملحة إلى القمح اللازم لقوت الشعب رأى جمال عبد الناصر ضرورة بيع

جزء من رصيد مصر من الذهب لشراء القمح، ولم تكن ثمة وسيلة أخرى أمامه لاجتياز هذه الأزمة.

اعترض البعض على ذلك، فرد عبد الناصر عليهم وقال: «إذا لم يُبَع الذهب الآن فمتى يباع؟». وهكذا كان جمال عبد الناصر يمضي في سنوات حكمه، وعينه على مصر وشعبها.

كان جمال عبد الناصر زعيمًا فذًّا لم تنجب الأمة العربية مثله، عاش ومات وهو يحلم بطرد الصهاينة الذين احتلوا صحراء سيناء، وكان يشرف على إعداد الجيش المصري لخوض الحرب ضد إسرائيل، كما كان صاحب فكرة حرب الاستنزاف التي كبدت إسرائيل خسائر فادحة في جنودها وأسلحتها.

وبذلك كسر أخطر مبدأ من مبادئ الردع وهو التأثير النفسي، وأخذ يشن حرب الاستنزاف، حيث كانت الوحدات الفدائية المصرية تضرب داخل إسرائيل، وكانت هناك خسائر جمة لإسرائيل جراء هذه الحرب التي تناولناها بالتفصيل في صفحات هذا الكتاب، وطبقًا لمصادر الرسمية كانت خسائر إسرائيل 234 قتيلًا و265 جريحًا من العسكريين، و370 قتيلًا و330 جريحًا من المدنيين.

ويقول الدكتور نبيل راغب صاحب كتاب «ناصر 67: شهادة إسرائيلية» إن هذه نسبة مخيفة لدولة تعدادها 2.5 مليون، وهي تساوي 200.000 قتيل، 100.000 جريح لدولة في حجم الولايات المتحدة.

ولا ينسى التاريخ أن الجيش المصري عبر إلى أرض سيناء تحت ستار حائط الصواريخ الذي أنشأه عبد الناصر عام 1970، وهو العام الذي توفي فيه.

كما لا ينسى التاريخ أيضًا أن الله قد حفظه إبان حرب فلسطين عندما أصابته رصاصة قاتلة ولكن الله نجاه منها لأن إصابتها له حدثت بطريقة تختلف عن إصابة بقية الناس بالرصاص، فعندما انطلقت في صدره اصطدمت بالجدار المصفح في «حمالة» كان يرتديها فحدث لها شيء غريب لا يحدث عادة للرصاص

حيث انفصلت الرصاصة عن غلافها المعدني وطاشت عنه، ولم يدخل إلى صدره سوى غلافها المعدني فقط، ليحفظه الله لمصر[1].

وإنني إذ أقدم إلى القراء الأعزاء سواء من المعجبين بجمال عبد الناصر أو الشانئين له كتابي هذا ، الذي ضمنته آراء كوكبة من المفكرين والأدباء الذين أحبو جمال عبد الناصر وكتبوا فيه ما نقلته في هذا الكتاب بعد أن أدليت براي في جمال عبد الناصر.

فقد دبَّجت يراعة أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد كتابًا قيمًا عن الزعيم سعد زغلول، معنونًا باسم «سعد زغلول سيرة وتحية»، وها أنا ذا أنسج على منواله وأقدم لكم هذا الكتاب الذي بين أيديكم وهو سيرة وتحية لجمال عبد الناصر في ذكراه المئوية.

المستشار محمد مرشدي بركات

(1) راجع يوميات جمال عبد الناصر في 67 – عبد الله السناوي – ص57.

الفهرس

جمال عبد الناصر كما رأيناه ورآه الآخرون........ 11
القيادة فن وأخلاق........ 17
مقاييس الزعامة........ 23
جمال وقادة العالم........ 27
هكذا كانت مصر........ 33
ثائرًا في المرحلة الثانوية........ 41
من نحن .. وماذا نريد ..؟........ 53
كيف فاجأ عبد الناصر صديقه هيكل ليلة 23 يوليو........ 61
الثورة........ 65
حياة عبد الناصر الشخصية........ 75
فلسفة جمال عبد الناصر........ 77
13 ضابطًا غيروا مصر........ 97
مخاوف الجيش صنعت حركة يوليو ومخاوف الشعب حولتها إلى ثورة........ 105
23 يوليو وأهدافها مشروع لم يكتمل........ 109
بعد 65 عامًا وثائق المخابرات البريطانية لإفشال ثورة يوليو........ 113
تأميم المصالح الأجنبية في مصر........ 115
حلم الوحدة العربية........ 119
جمال عبد الناصر.. وعبد الحكيم عامر........ 129
الزعيم كاتبًا ومكتوبًا عنه........ 131
«الثورة المضادة» لثورة يوليو 1952م........ 137
العدوان المسلح على مصر........ 141
لماذا حاربنا في اليمن ؟........ 177
عدوان 5 يونيو 1967م........ 185
فرنسا تنفي محمد الخامس إلى كوستاريكا وصوت العرب يبدأ المعركة الإعلامية ضد القرار ... 189
اليسار في مصر والوطن العربي........ 193
إضراب عام في سوريا.. وخمس دقائق حدادًا الساعة 12 ظهرًا تضامنًا مع مصر........ 197
خطاب عبد الناصر في عيد الثورة بعد النكسة........ 201
شهادة تاريخية عن حرب الاستنزاف........ 219
عبد الناصر يكشف علاقته بالإخوان........ 247
العرب وعبد الناصر........ 251
حرب الاستنزاف ... في التاريخ........ 263
من الذبح إلى الكابوس........ 303

عبد الناصر والإسلام.......... 307
أشهر الطغاة في تاريخ البشرية.......... 311
الزعيم ... وهو !.......... 333
عصر الشعوب... وعصر القياصرة الرأسماليين!!.......... 337
الإنسان في قلب الزعيم.......... 341
ماذا تبقى من تجربة ناصر الثرية ...؟.......... 349
أحمد بهاء الدين ... يحكي حكايته مع جمال عبد الناصر.......... 355
ناصر وإدارة تكافؤ الفرص 361
أيامي الأخيرة مع عبد الناصر 365
الإخوان وعبد الناصر .. من الاتفاق إلى الفراق.......... 375
جمال عبد الناصر ...وأنا.......... 383
ليس احتفالاً بل دروس للمستقبل 393
خارج الكهف .. الأصنام الأربعة.......... 397
لقد ظلمت عبد الناصر يا أسامة ..!.......... 401
سنحارب على الشواطئ.......... 405
«بصراحة» يرصد لقاءات عبد الناصر بجماهير الشعب العربي.......... 409
تسجيلات عبد الناصر السرية : نظام الحكم المقفول أدى إلى الهزيمة 4023
تشخيص حكم مصر في تسجيلات عبد الناصر السرية.......... 437
لماذا يتصدر الغلاف بعد 100 عام من ميلاده؟.......... 443
لأول مرة بعد 50 سنة : أسرار هزيمة يونيو بصوت عبد الناصر في تسجيلات سرية 451
ناصر 67 شهادة إسرائيلية 459
تركيز السلطة .. والرد عليها.......... 485
منظمة حدتو.......... 489
جمال عبد الناصر ذكرى عابرة للزمن.......... 493
عاش جمال عبد الناصر 497
كيف تحول جمال لأيقونة شعبية 499
كيف صنع عبد الناصر من الشباب المُدله رجالاً 503
زعماء الغرب ...اعترفوا بإعجابهم به رغم الخلافات.......... 507
عبد الناصر ... الرجل الإنسان.......... 511
لماذا أحب المصريين عبد الناصر رغم أخطائه 515
الأستاذ يكتب عن الزعيم.......... 519
رحلة قلم: عبد الناصر .. خبز الشعب وأحلامه.......... 529
هل كان عبد الناصر سعيد الحظ..؟.......... 533
ناصر والتنظيم السياسي المستقل.......... 543
جمال عبد الناصر .. كاريزما هزَمتْ مَنْ جسَّدها.......... 547
الوجه الآخر لـ«الثائر».......... 555

الانقلاب على عبد الناصر 563
عبد الناصر ... الزعيم الأسوأ حظًا........ 569
لمصلحة من أجهضتنا ثورة يوليو 1952م........ 575
متي نبرأ من داء العسكرة ..؟!........ 579
الطريف إلى الملك فيصل (1) 583
حوار مع الملك فيصل (2) 593
وجهًا لوجه للمرة الأولى 603
أصابع البوليس السياسي في حريق القاهرة........ 611
لماذا بدأ الحريق من كازينو أوبرا بالذات..؟ 619
القتل الحقيقي للممرضة الأمريكية........ 627
من وراء حريق القاهرة ..؟!........ 635
بيان إطلاق «اللجنة القومية لتنظيم مئوية جمال عبد الناصر» 661
العظمة 663
الشعر وثورة 23 يوليو 1952م........ 667
جمال عبد الناصر في الذاكرة الشعبية........ 681
جمال عبد الناصر .. حلم أمة........ 687
ردًا على عمرو موسى .. عبد الناصر الذي لا تعرفه ...!! 691
أوفياء وخونة في حياة جمال عبد الناصر........ 697
CIA–: 7 عقود من العمليات القذرة 705
أبي الذي في السماء ..! 711
هكذا تحدثت تحية عبد الناصر........ 713
تحية عبد الناصر .. الأيام الأخيرة في حياة عبد الناصر 719
الأسبوع الأخير في حياة الزعيم........ 735
الأربع وعشرون ساعة الأخيرة في حياة جمال عبد الناصر........ 745
عبد الناصر الراحل إلينا........ 755
45 عامًا على رحيل أغلى الرجال 761
47 عامًا على رحيل عبد الناصر .. وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال 769
سر بقاء عبد الناصر 100 عام بعد رحيله (1) 787
سر بقاء عبد الناصر 100 عام بعد رحيله (2) 793
الـCIA في سطور........ 799
نبذة عن المؤلف........ 801
ملاحق صور 817



■■ جمال عبد الناصر كما رأيناه ورآه الآخرون



1918 - 1970

كما رأينا جمال عبد الناصر في غضون عام 1959م وسجلنا هذا في مقالتين نشرتا بين دفتي كتاب حرصت وزارة التربية والتعليم على نشره في طبعتين، طبعة عادية لعموم الناس، وطبعة مصقولة وزعت على النخبة المثقفة التي اختارتها الوزارة لإرسال الكتاب إليها.

وكان من ضمن هذه النخبة صديق والدي الصدوق المستشار ممتاز نصار رئيس نادي قضاة مصر ورئيس محكمة النقض ورئيس حزب المعارضة في مجلس الأمة المصري، وقد سرني كثيرًا أن أرسل لي المرحوم المستشار ممتاز نصار خطابًا سلمه لوالدي لكي يعطيني إياه، قال فيه: لقد قرأت ما كتبته عن الزعيم جمال عبد الناصر وسررت سرورًا بالغًا بما قرأت بأسلوب يتميز بالوضوح والدقة والإعجاب الشديد بشخصية الرئيس وأنا أهنئك بما قرأت متمنيًا لك المستقبل السعيد المجيد.

.. قال الطالب محمد محمد مرشدي بركات، وهو الفائز بالجائزة الأولى لوزارة التربية والتعليم في بحثه عن الرئيس جمال العبد الناصر وموضوعه:

تحليل شخصية جمال عبد الناصر

كلمات المجد في لغة العرب كثيرة، ولكن أمجدها جميعًا كلمة السؤدد، فهي تدل على السيادة والرياسة، وعلى بُعد النظر والكياسة، وعلى النهوض بعظائم الأمور في غير صلف أو غرور.

والمشهور في معنى السؤدد أنه راجع إلى سواد الناس وعامتهم، فصاحب السؤدد يوصف بذلك إذا سوده الناس وهتفوا به، بيد أن حكيم العرب الأحنف بن قيس: «السؤدد من السواد..!» يريد أن السيد من أتته السيادة وهو في حادثة سنه، وسواد رأسه.

ومن الذين نالوا السؤدد في حداثة السن جمال عبد الناصر، الذي قاد ثورة، ورأس دولة، وتزعم أمة ولم يتجاوز الأربعين من عمره، وهي السن التي يقف فيها المرء بين مرحلتين، مرحلة الشباب، ومرحلة الرجولة، حيث يكون تفكيره قد نضج، واستعداده قد ظهر، وروحه المعنوية في أرفع درجاتها.

وهي السن التي تقترب من سن النبوءة والرسالة، سن الأربعين التي لم يخترها الله عبثًا، بل تقديرًا منه صائبًا، حتى يقوي صاحبها على مقابلة التيارات الدافقة، والريح العاصفة، بقلب ثابت، ونفس مطمئنة وعناد عجيب..! وكأنما كان هذا القائد الشاب مع موعد مع القدر، وعلى موعد مع التاريخ.

جمال والأحداث

فهو عظيم في مولده، عظيم في نشأته، عظيم في تفكيره، وهو عظيم في قيادته، عظيم في زعامته، عظيم في رجولته..!

فقد كان مولده إبان ثورة 1919م ولا هتاف في مصر من أقصاها إلى أقصاها إلا للحرية والاستقلال، ذلك الهتاف الذي دوى في جنبات الوادي فردد صداه الشرق بأسره.

فتفتحت عينا الطفل الصغير وكلمات التحرير تردد في آذانه، وتختلط بأفكاره فظلت الأغنية العذبة، والأنشودة الجميلة التي مست شغاف قلبه، فوعتها ذاكرته منذ براءة الطفولة، وميعة الشباب.

ولم يكن من إنجلترا من صنيع حينذاك إلا بذل ما في وسعها لتثبيت قدمها، وتوطيد

سلطانها فوق الأرض التي ظنت أنها ورثتها منذ قديم الأزل والزمـان، وفي ذمـة الله دمـاء الضحايا وأرواح الشهداء، فالغاية تبرر الوسيلة وليكن بعد ذلك ما يكون..!

فسارت حياة الطفل الصغير في ظل حياة مصرية قلقة، أهم ما تمتـاز بـه هـو طابعهـا، طابع الثورة وطابع التفكيـر في مسـتقبل سـعيد هـو الحريـة الكاملـة، والعـزة الشـاملة، والسيادة التامة.

الوطنية المبكرة

فلم يكن عجيبًا أن يتأثر الطفل بالجو المحيط به، والبيئة التي نشأ وترعرع فيها، فتؤثر فيه، وتبعث في قلبه حب الـوطن وتقديسـه إيـاه، والتعصـب لمصـريته عروبتـه، بحميـة قومية، ونعرة وطنية، لا يتطرق إليها اللجاج.

لم يكن عجيبًا أن يجلس الطفل الصغير مع والديه على مائـدة الطعـام، وبـدلًا مـن أن يأكل أخذ يتململ في مقعده وكأن شيئـًا يؤرقه، وشفتاه تهتزان وكأنه يريد أن يقول شيئـًا، ثم تتحرك الشفتان بالسؤال الرهيب..!

أبي.. لماذا نأكل نحن اللحم، والفلاحون الذين يكدون ويكدحون، ويربون الماشية ويرعونها لا يأكلون منها..؟

وتتوقف اللقمة في حلق الأب، وينظر إلى ابنه الصغير مبهوتـًا من السؤال الكبير الذي صدر منه، ثم يرد على الفيلسوف، وقد علت فمه شبه ابتسامة: «هكذا أرادوا لنا يا ولدي، هكذا أردوا».

وتشب ثورة في قلب الفتى الصغير، ويتردد على ذهنه سؤالان حائران: من هـم الـذين أرادوا..؟ وهل هناك من تعلو إرادتهم على إرادة الله..؟

وجاء الجواب..! ضبابًا قاتم اللون لم يـرو ظمـأه، ولم يشـبع نهمـه، وظـل السـؤالان حائرين مبهمين، يكتنفهما الغموض، حتى جاءه الرد المقنع، من جمال نفسه حـين حقـق للشعب «العدالة الاجتماعية».

ولم يكن عجيبًا أن يخرج والده ذات صباح فيجده يجلس القرفصاء أمام البيت، وهـو يحفر الأرض التي يرطبها الندى، يحفر فيها بكلتا يديـه بهمـة وعنـف، فينهـاه أبـوه عـن

ذلك، ثم يمضي لحاجته، وعندما يعود من عمله في الظهيرة يجد الحفرة الصغيرة قد اتسعت وازدادت عمقًا وأصبحت هوة عظيمة، فيسأله: «لقد قلت لك لا تحفر في الأرض، فلماذا مضيت في الحفر..؟

ويجيبه جمال الصغير: «أردت أن أعرف يا أبي ماذا تخبئ لنا هذه الأرض..؟ كيف تعطينا وإلى أين تأخذ منها..؟!

وهكذا تنفجر ينابيع الثورة والتأمل والتفكير الجاد العميق في قلب جمال وهو في تلك السن المبكرة من تاريخ حياته، فلا غرو أن وجدنا بعد ذلك ثائرًا متأملاً مفكرًا، ماضيًا في قوة وعم لا يعرف التردد ولا يؤمن بالهزيمة.

إيمان بالعروبة

هذا طفل عجيب..! هذا طفل عظيم..!

فلا غرو إذن أن نرى الوعي العربي الصادق يتسلل إلى نفسه، فينفجر في عروقه ويختلط بدمائه، وهو بعد ما يزال شابًا طريًا، مرهف الحس، غض الإهاب.

انظر إليه وهو يقول: «وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية، أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر في كل سنة احتجاجًا على وعد «بلفور» الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطنًا قوميًا في فلسطين اغتصبته ظلمًا من أصحابه الشرعيين».

ولا غرو أن نجده في هذه المرحلة من عمره ودراسته ينكب على دراسة مشكلات بلاده ومآسيها، وما تحويه في طياتها من زغل ومن أوصاب، ويمضي في الوقت نفسه في تثقيف ذاته، وتربية حواسه، وإنضاج شخصيته بالقراءة الواعية، والاطلاع الدائم على كتب الأدب والعلم، التي رأى فيها ضالته المنشودة، وغذاءه الدسم، لاغتراف الخير العميم، وبناء النفس على أساس ثابت مكين.

وظل الحال على هذا المنوال، مجهود موزع بين النشاط السياسي والنشاط الأدبي، حتى إذا ما أشرفت شمس عام 1935م ضرب جمال مثلاً آخر على بُعد نظره وقوة فكره ونضوج شخصيته.

نقطة البدء

فلقد قامت المظاهرات الصاخبة الهادرة، وعمَّ لهيبها أرجاء البلاد، ولم يكن من الطبيعي أن يتخلف الثائر الصغير الكبير عن بقية زملائه، فيشترك في صفوفهم، وينتظم في ركبهم، بل ويصبح زعيمًا من زعمائهم، ثم يصاب ويجرح، فيهدأ حتى يبرأ من جرحه، ويندفع إلى الميدان من جديد، ولكنه هذه المرة ميدان آخر غير ميدان السياسة، ذلك هو ميدان العلم والدراسة، فقد عرف جمال أن الواجب يقتضيه بل يحتم عليه أن يتفرغ أولاً لدراسته، فهي نقطة البدء، وقاعدة الارتكاز..!

وينال الثائر الفيلسوف شهادة الدراسة الثانوية في يونيو عام 1936م، ويلتحق بالكلية الحربية، ويتخرج في يوليو 1938م، يتخرج في يوليو ويقود ثورته في يوليو، عجيبة حقًا وفلتة من فلتات الزمن.

مبدأ القيادة

ويمسك الثائر المفكر ورقة، ويكتب فيها إلى أحد أصدقائه سطورًا خالدة يحدد فيها مبدأ القيادة، ويبين فيها صفة الزعامة في نظره واعتقاده، ألا وهي الأخلاق، فالأخلاق عنده هي الأساس الذي يجب أن تؤسس عليه نفسية القائد وتُبنى عليه شخصيته.

كان حينذاك في منقباد، والمعروف عن الموظفين في ذلك الوقت أنهم على استعداد للتحلي بكل الصفات الحسنة، والشمائل الكريمة إلا صفة النفاق، فهي الخلة التي لا يستطيعون المعيشة بدونها، ولا تستقيم لهم سبل الحياة بغيرها، وهي أبعد ما تكون عن أخلاقهم وصفاتهم..! وكان الواحد منهم يندفع إلى تملق رؤسائه ويشتط في تمجيد قواده ووضعهم في هالة من التقديس والتمجيد، لا لشيء إلا لكسب مودتهم والفوز برضاهم، ومن هنا يأتي الترقي، ويكون الإنعام.

ويسطر جمال إلى صديقه السطور التالية: «يسرني أن تعلم أن أخلاقي مازالت متينة، فطبعًا جمال الحاضر أو الموجود في منقباد، هو جمال الذي تعرفه من زمن بعيد، الذي يبحث عن آماله في الخيال، ولكنها تفر منه كالأشباح..!».

وحينما يُنقل إلى السودان في ديسمبر 1939م يمسك ورقة ثانية يؤكد فيها عن عزمه

المتين، وخـُلقه القويم، يقول فيها لصديق آخر: «كل عيبي هنا في العمـل، إني لا أعـرف الملق، ولا الكلمات المنمقة، ولا أتمسح بالأذيال؛ إذ أن شخصًا هذه صفاته يحـتم مـن الجميع، ولكن الرؤساء يسوؤهم ذلك الذي لا يتملقهم، وهـم الـذين اعتـادوا الـذي في كنف الاستعمار، أما أنا فقد صمدت ومازلت؛ ولذلك تجدني في عداء مستمر مع هـؤلاء الكبراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

▪▪ القيادة فن وأخلاق



1918 - 1970

رجل عظيم المولد، عظيم النشأة، عظيم التفكير، وهو بالتالي عظيم القيادة.

فعندما إن من أوجز وأشمل ما يُمكن أن يُقال عن القيادة الواعية السليمة أنها «فن وأخلاق».

نعم هي «فن»، وفي هذا الفن نبغ، ويستطيع أن ينبغ الكثيرون، أما من ناحية أنها «أخلاق» فهنا همزة الوصل التي لا يتمكن منها إلا من هم أهل لها، وأهلها في هذه الدنيا قليلون بل جد قليلين، وهنا أيضًا مفترق الطرق بين قيادة وقيادة.

وما أكثر القواد الذين تحللوا من الأخلاق في قيادتهم فكان الضلال حليفهم، والإخفاق السريع نصيبهم، لفقدهم شرطًا هامًا من أهم شروط القيادة، وما أقل القواد الذين تمسكوا بل تشبثوا بالأخلاق في قيادتهم، وعضوا عليها بنواجذهم، فكانوا نعم القواد، وكانوا نعم الرجال.

وجمال عبد الناصر عظيم في قيادته، عظيم في أخلاقه، فالقيادة عنده أخلاق قبل أن تكون فنـًا.

بين القيادة والزعامة

وهو بالتالي أيضًا عظيم في زعامته ورُب سائل يقول: وهل هناك فرق بين القيادة والزعامة..؟ ونقول: نعم، وإنه لفرق واضح جلي، فالقيادة نوع من أنواع الرياسة، وقد يكون الفرد قائدًا ولكنه لا يكون زعيمًا، والعكس هنا أيضًا صحيح، فقد يكون هذا الفرد نفسه زعيمًا ولكنه لا يكون قائدًا، وقد يجمع المرء بين الميزتين.

«فمونتجومري» مثلاً كان قائدًا، ولكنه لم يكن زعيمًا، وكذلك كان «روميل»، و«مالينوفسكي»، وأضرابهم من القواد المعروفين.

و«مكاريوس» مثلاً الأب الروحي لليونانيين، زعيم ولكنه ليس قائدًا، وكذلك كان «ماتزيني»، و«ديفاليرا»، وأمثالهم من الزعماء الآخرين.

وجورج واشنطون نختاره مثالاً للمرء الذي جمع بين الميزتين في آن واحد، فقد كان زعيمًا وفي الوقت نفسه قائدًا، فتزعم الأمة، وقاد الشعب، وكان مثالاً للقائد العظيم، فالزعامة تمتاز عن القيادة بتلك الشعبية الواسعة التي يحظى بها صاحبها بين قومه وعشيرته.

أسس الزعامة

فإذا سأل سائل: «إذا كان عبد الناصر عظيمًا في قيادته، فلماذا هو عظيم في زعامته..؟

لقلنا على الفور: «لأنه دخل المعارك، وغبَّر رأسه غبار معارك الدهر بعزم أقوى من الحديد، وقلب أين منه قلوب الصناديد..؟ فاجتث الفساد، وطهر أرض الكنانة من الاستعمار، وخلق وعيًا قوميًا، وحقق أملاً عربيًا، ورأى شعبًا لا يرتضي أن تقد منه القناة فأممها لصالح الشعب، واتجه إلى الإصلاحات الداخلية ينفث فيها من روحه، ويبعث فيها من لدنه، وتفاعل مع الشعب حتى بات كل مواطن لا يرى حرجًا في أن يفضي إليه بما يجول في خاطره، ويخطر في آماله..».

هذا ما يُقال دائمًا في تفسير عظمة جمال عبد الناصر، هو عظيم لأنه هزم الطغاة، وطرد البغاة، وأمم القناة، وقضى على الإقطاع وحقق العدالة الاجتماعية، وبنى جيشًا قويًا، وأقام سدًا قويًا، إلى آخر ما يُقال في تفسير عظمة الرجل، وهذا التفسير في رأينا، يحتاج إلى

الوضوح الذي لا مناص منه..!

الزعيم الصادق

فجمال عبد الناصر عظيم، وعظمته هذه تكمن في كلمة موجزة غابت في أذهان الكثيرين، تلك هي «الصدق الصريح في جميع الأقوال وجميع الأحوال».

نعم الصدق الصريح في جميع الأقوال وجميع الأحوال، فهذا الصدق سر زعامته، كما حلل أستاذنا العقاد شخصية محمد علي جناح، وأصل نجاحه في كل أفعاله وأعماله، فهو من الزعماء القلائل الذين يتبعون الصدق، ويرون في النجاح والتوفيق.

فليست الزعامة عنده هي زخرف القول وأعذبه، وليست الزعامة عنده هي أقوال طنانة، وألفاظ رنانة، وليست الزعامة عنده مكر وخبث ووعود كاذبة، لا تحقق للأمة نفعًا، ولا تفيدها بشعاع من روح، ولا نتاج من عقل.

ولكنها – كما قلنا– تكمن في تلك الخصلة النادرة بين جميع قادة الشعوب وزعمائها ألا وهي «الصدق الصريح في جميع الأقوال والأحوال»، فهو صادق مع الشعب في جميع أقواله ووعوده، ما قال قولاً إلا نفذه، وما وعد وعدًا إلى أنجزه، وما سار خطوة إلا والشعب يعلم إلى أين تتجه هذه الخطوة، ومتى تعود بالخير الموعود، والأمل المقصود، وهو صادق مع أعدائه وأصدقائه على السواء، وهي خلة يمتاز بها جمال، ويفخر دائمًا باتباعه لها.

عندما حضر نوري السعيد رئيس وزراء العراق الأسبق إلى مصر في سبتمبر 1954م وجرت بينه وبين جمال المفاوضات المعروفة بشأن ميثاق الضمان الجماعي، قال له نوري السعيد: «يجب أن نسأل الإنجليز والأمريكان عن رأيهم في ميثاق الضمان الجماعي، وما هي عيوبه، وما هي طلباتهم، وأردف نوري السعيد قائلاً: وإن الأتراك يطمعون في ضم الموصل إليهم، وإن حاجتنا إلى السلاح تستدعي أن نتفق مع إنجلترا وتركيا، بل ويجب أن نعمل تحالفًا يضم أمريكا وإنجلترا وإيران وباكستان، وبذلك توسع ميثاق الضمان الجماعي».

ورد جمال ردًا يكشف عن إيمانه بالعروبة، ردًا لا مواربة فيه ولا خداع، قال جمال: «إن

ميثاق الضمان الجماعي كفيل بالدفاع عن البلاد العربية بدون المساس باستقلالها، ويجب أن لا نفكر فقط في الدفاع ضد العدوان الخارجي، ولكن يجب أن نفكر في حماية استقلالنا من أطماع الاستعمار..».

وانفض الاجتماع بدون اتفاق، وكان السبب صدق جمال عبد الناصر وصراحته، وتم الحلف المذكور بدون مصر، ونمى وازدهر، ثم انتكس فجأة، وتلاشى كما تتلاشى فقاعات الماء، وانتصرت مصر بسياستها ونالت العروبة فوزًا أدبيًا لا يقدر بثمن، بصراحة جمال وصدقه، وهو صادق مع أصدقائه.

عندما كان العالم كله أو أكثره، وعلى رأسه أمريكا ووزير خارجيتها السابق دالاس، عندما كان العالم ينظر إلى مصر نظرة شك وارتياب، ويتهمها بأنها ترتمي في أحضان الشيوعية الحمراء، وتأخذ من مبادئها المقيتة، ونظمها البغيضة كان جمال عبد الناصر يجلس في باندونج مع شواين لاي رئيس وزراء الصين الشيوعية، وفي الوقت الذي ينشد فيه صداقته يقول له: أنني أحارب الشيوعية في بلدي.

وتمر السنون، وتتوالى الأيام، وتدور عجلة الزمن بما أقحم الأعداء وألقمهم من لاذع الواقع حجرًا، فإذا بجمال يقف موقفًا صلبًا عنيفًا من صديقه خروشوف الذي استباح لنفسه أن يدافع عن شيوعيي العراق، وهاجم الشيوعية هجومًا سافرًا لا رحمة فيه ولا هوادة، ثم هو في الوقت نفسه يحافظ على الحياد ويعقد معهم الصفقات، ويوقع الاتفاقيات، هذا رجل عجيب.. هذا رجل عظيم..! وهو بعد ذلك كله، وقبل ذلك كله عظيم في رجولته.

إنكار الذات

ورجولة عبد الناصر من نوع جديد وصفه كاتب فاضل، بأنه ينكر كل الإنكار ذلك المبدأ الذي ساد مصر ردحًا من الزمن امتد منذ عصر محمد علي إلى ما قبل ثورة 23 يوليو، والذي كان يقول: «كل شيء لي ولو كان على حساب الآخرين».

فلقد ثبت في قلبه مبدأ ثائر حر يقول: «كل شيء للآخرين ولو على حسابي»، وعندنا أنه وصف أصاب هدفه ومبتغاه، ووضح صفة هامة من صفات عبد الناصر ألا وهي القناعة، والزهد فيما يحيط به من أبهة الحكم وبهجة الرئاسة، فقد أصبح الرجل يحس

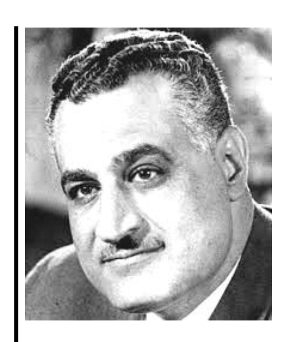
بسعادة لا تعادلها سعادة كلما أحس أنه يمنح ولا يمنع، ويعطـي ولا يأخـذ، ويبـذل ولا ينتظر، ويعمل في صوت هو صوت النبلاء، وهدوء هو هدوء الأقوياء.

وحدث في إحدى الأزمات السياسية العنيفة التي اتخذ فيها مجلـس الثـورة قـرارات خاصة برئاسة الجمهورية أن صمت جمال عبد الناصر ولم يتفوه بكلمة واحدة، وسُـئل في ذلك الوقت وكان يوم 26 مارس 1954م عـن رأيـه في الأحـداث الجاريـة فقـال: «لـن أسمح لأي شخص أن يجرني إلى معركة شخصية أنسى فيها الأهداف لأذكر شخصًـا، أو أنسى فيها الأهداف وأخدع وطني، أو أنسى فيها الأهداف وأستجدي هتافـًا..».

وتحدث إلى بعض الوفـود التـي قـدمت لتحيتـه ومبايعتـه، فقـال في صـوت مـؤمن: «أعاهدكم عهدًا أكيدًا أننا سنسير في طريقنا لا يفرنا مال ولا جاه، نعمل في سبيل المبادئ والمثل العليا لكم ومن أجلكم فقط»، ثم مضى يقول:

«وأنا أفخر دائمًا بأنني واحد من أهل بني مر، وأفخر أكثر وأكثر بأنني واحد من عائية فقيرة نشأت في بني مر، وأنا أقول لكم هذا الآن لأسجل، أسجل أنـا جمـال عبـد الناصـر الذي نشأ من عائلة فقيرة.. وأعاهدكم في نفس الوقت على أن جمال عبد الناصر الذي نشأ من عائلة فقيرة سيظل فقيرًا حتى الموت في هذا الوطن».

▪▪ مقاييس الزعامة



1918 - 1970

وهكذا نجد أمامنا رجلاً من طراز جديد من الرجال، رجلاً يختف في منهجه، وفي تفكيره، وفي نظرته إلى الحكم عن كثير من الرجال، رجلاً ينظر إلى الحكم على أنه تكليف وليس تشريفًا، رجلاً لا يعتمد على جاه، ولا يرتكز على سلطان اللهم إلا جاه النفس، وسلطان الضمير، رجلاً يفتخر بفقره، ولا يتباهى بغناه، رجلاً يؤمن أن الفرد هو الحاكم، والحاكم هو الفرد، رجلاً يصدع دائمًا بإيمانه بالله، ويجهر بثقته في الخالق، وفي الشعب، وفي نفسه.

وفي اعتقادنا أن هذا هو أول وآخر مقاييس الرجولة، ومقاييس الزعامة.

سأله مرة أحد كبار الصحفيين: ما هو السبب في قوة أعصابك..؟

فأجاب على الفور: إيماني بالله، وإيماني بالشعب، فهو يؤمن بالله وتوفيقه، وهو يؤمن بالشعب وقوته، وهو يؤمن بنفسه ومبادئه، وقدرته على تحقيق هذه المبادئ.

رأي الساسة في جمال

كتب «أرنولد توينبي» المؤرخ الأمريكي العظيم، وأعظم

المؤرخين المعاصرين في العالم، يقول: «إنه من عظماء العالم المعدودين، إنه رمز العرب وقائدهم في الكفاح والعمل على انتشالهم من الذلة والضعف».

وكتب عنه النائب البريطاني «ريتشارد كروسمان»: «هل تريدون أن تسمعوا رأيي في جمال عبد الناصر، إذ فاسمعوا هذه الحقيقة: إنه اليوم أعظم سياسي في العالم».

وكتب «روبرت ويرثي» كبير مراسلي صحيفة نيويورك تايمز: «إن كثيرًا من الصفات التي يتحلى بها جمال عبد الناصر تجعله بمعزل عن الزعيم السياسي العادي، فلم يمسسه هو أو أي شخص ممن يتعاونون معه تعاونًا وثيقًا أي شيء يشين السمعة ماليًا أو شخصيًا، وأهم صفاته التي تُعد خروجًا على المألوف، هي واقعيته العنيدة في نظرته إلى المسائل السياسية والاجتماعية، فهل من أحد يجرؤ على أن يتحداه..؟!

وكتب عنه «وليام كلارك» في افتتاحية الأوبزرفر البريطانية: «... إنه صورة فذة من صور الإيمان بالوطن، والطموح والرغبة في الإصلاح، وأكاد أجزم أن بينه وبين أوليفر كرومويل زعيم الثورة البريطانية التي خلعت الملك شارل الأول، وأعلنت الجمهورية في إنجلترا شبهًا كبيرًا، والفرق بينهما أن جمالاً عرف كيف يُرسي دعائم الجمهورية، على قواعد أصيلة ثابتة ستصمد بلا شك في وجه الزمن.

وقال عنه الجنرال الأمريكي «فان فليت»: «هذا الزعيم الفدائي الذي حقق لبلاده شخصية مرموقة، وحفظ لوطنه استقلاله القومي، وحقق أهدافه نحو الحرية والاستقلال، إنه رجل ، إنه صادق الوطنية، إنه بطل حقيقي، إنه إنسان فذ..!».

وقال عنه «دكتور ماكلين» مدير الجامعة الأمريكية: «إنه قائد الثورة المصرية الحقيقي، ومع هذا فهو من أرق الناس قلبًا ومن أشد المواطنين إخلاصًا وإيمانًا، وأنه يدخر أسمى الغايات لوطنه والبلاد العربية قاطبة، ثم هو إنسان متدين يعرى الله في نفسه وفي وطنه وفي مواطنيه».

وقال عنه الصحفي الألماني «هايتر هلفكن»: «لمست فيه رقة القلب والطيبة، وإن خشوعه وتدينه يقترنان بقوة غير محدودة، وإنه يؤمن إيمانًا راسخًا بأن لبلاده مكانًا عظيمًا تحت الشمس، ويتعين عليها احتلاله في هذه الآونة».

وقال عنه «رامبرو سانتا ماريا»: «لو لم يقم جمال عبد الناصر وزملاؤه الضباط الأحرار

بثورة 23 يوليو 1952م لإنقاذ مصر من المفاسد؛ لأصبحت مصر مستعمرة بريطانية، فقد كانت هناك خطة سرية وضعها الإنجليز منذ عام 1952م لاحتلال القاهرة بدعوى حماية أرواح الأجانب ومصالحهم، وبفضل رعاية الثورة لم يعد الفلاح المصري أداة مسخرة لخدمة الإقطاع، لقد هزت مشاعري إلى الأعماق تلك السياسة الوطنية الحكيمة التي يقودها جمال العزيم العالمي بالحق والعدل والحرية للوطن العربي، وغيره من الأوطان».

هذا بعض ما كُتب وقيل عن جمال عبد الناصر، وذاك هو الثائر العظيم في ميزان ساسة العالم وقادته، أما التاريخ فقد كتب عنه يقول نفس الكلمة التي قالها «أنورين بفيان» من قبل: «إن زعيم العالم العربي بلا جدال، وإنه بطل العالم الشرقي ضد الاستعمار الغربي..!».

ونضيف إنه رجل قلما يجود الزمن – للشرق– بمثله.

▪▪ جمال وقادة العالم

1918 - 1970

كان جورج واشنطون محرر أمريكا يمتاز بشجاعته وإقدامه، والمعروف عنه إنه ما تبوأ مكانته التي وصل إليها، وما استطاع أن يستحوذ على قلوب الأمريكيين على اختلاف آرائهم ونحلهم، ويتصدرهم في حرب الاستقلال الأمريكية، ويُنتخب قائدًا أعلى لجيش التحرير في الانتخابات التي جرت كما هو معلوم في 4 يونيو 1876م إلا بفضل ما امتاز به من ضروب الشجاعة والإقدام، فلم يكن واشنطون إلا فلاحًا صغيرًا يعيش عند «تل فرنون» على زراعة التبغ ورعاية الماشية، ولم يكن من الرجال ذوي السطوة والجاه، ولم يكن أفصح مواطنيه لسانًا، أو أغزرهم علمًا، وأكثرهم فضلاً، ولكنه كان أشجعهم قلبًا، وأقواهم نفسًا..!

فلا غرو أن انتخبوه زعيمًا، ونصبوه قائدًا وذلك لشجاعته الفائقة التي هي عندنا من ألزم مقومات الشخصية والزعامة.

وكان «جاريبالدي» محرر إيطاليا يمتاز بجرأة عظيمة مكنته أن يطيح بمترنيخ، وأن يكون لسان إيطاليا الناطق، وعقلها المدبر، وقائدها المفكر الذي كان له اليد الطولى في انتزاع سيادتها وتحقيق وحدتها..!

وكان «غاندي» زعيم الهند وأبوها الروحي، يمتاز بشمائل كريمة أبرزها التسامح

الذي جعله شعاره، والصبر الذي اتخذه دينه، ففتح ذلك له طريق المجد والزعامة الروحية النادرة التي قلما يوجد منها اليوم مثال.

وكان «محمد علي جناح» مؤسس دولة باكستان يتميز بتلك الخصلة النادرة جدًا بين جميع قادة العالم، وزعماء الأمم وهي الصدق، الصدق الصريح في جميع الأقوال والأحوال، ذلك الصدق الذي مهد له زعامة شعبية واسعة على أساس ثابت متين.

فلو جمعنا شجاعة واشنطون النادرة، وجرأة جاريبالدي الفائقة، وتسامح غاندي وصبره، وقوة جناح وصدقه، لاستطعنا بعد إضافة رجاحة العقل، وطهارة النفس، والدراية العميقة، والقدرة على تحمل المسئوليات في جلد وثقة، إلى آخر الصفات التي لا مندوحة لكل نفس عظيمة أن تتحلى بهم، أن نجمع وأن نجسم في صورة مرتبة واضحة مقومات جمال عبد الناصر رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي الذي حمل راية الجهاد، ومضى في قوة وعزم لا يحيد عنهما، يتبعه شعبه إلى مناط الأمل، وواحة الرجاء، فوصل إلى رجائه وحقق مبتغاه من حرية وعزة شاملة، وسيادة تامة لا مداراة فيها ولا خداع.

ثم استمر في طريقه يبني مجدًا، ويشيد صرحًا، ويبعث إيمانـًا في النفوس، فكان أوجز ما يمكن أن يُقال عنه أنه الزعيم الصادق الأمين الذي حقق لبلاده الفوز المبين، وكتب لها مجدًا سيظل خالدًا باقيًا على مر السنين، ولقد بنى هذا المجد على الإيمان، ولم يبنه على الصولجان، فاستطاع أن يسوس بلاده في الداخل والخارج سياسة رشيدة، ويقودها قيادة حكيمة أهم ما يميزها طابع الجد الكامل، والخلق العظيم..!

دعائم النجاح

إذن فلا مكان هنا للقول الذي ذكره الكاتب الأمريكي «كينو ورزي» صاحب كتاب زعماء الدول الجديدة، الذي صدر في الولايات المتحدة منذ أيام قلائل، وخصص فيه الكاتب جزءًا خاصًا أفرده للتحدث عن جمال عبد الناصر وأثره في نهضة أمة العرب خاصة، والشرق عامة، فكان مما قاله – ما معناه– أن الحظ تدخل تدخلاً كبيرًا في نجاح عبد الناصر.

صحيح أن الحظ يلعب دوره في حياة كل إنسان، وله أثره في كل منا، ولكن هذا الدور وتلك الآثار مرهونة بميقات، تنتهي بانتهاء ذلك الميقات وتزول بزواله، أما الذي يبقى

حقـًا فهو معدن الإنسان وشخصيته، وما تحمله هذه الشخصية في طياتها وأغوارهـا مـن مميزات أو نقائص، ومن حسنات أو عيوب.

فالإنسان باق ما بقيت شخصيته، حي ما حيـي معدنـه، أصـيل مـا اسـتطاع أن ينمـي مداركه، ويفرض نفسه كفرد له مقوماته وخصائصه، وليس للحظ هنا في الأغلب الأعـم إلا أثره المتبوع دائمًا بشخصية المرء المسبوق وبإرادته.

فليس نجاح عبد الناصر راجعًا إلى الحـظ إذن، ولـيس نجاحـه كمـا يقـول الـبعض: «فلتة لا يُقاس عليها، ومصادفة لا تقبل التكرار..»، ولكن سر نجاحه يكمن في مقومـات شخصيته، وخصال ذاته.

شجاعة القائد وجرأته

فهو شجاع، وشجاعته هذه خصلة فيه ميزته عن قرنائه وأترابه، وهي خصلة مغروسة في قلبه منذ بواكير الشباب.

ومما يُحكى عنه في هذا الصدد، أنه استـُدعيَ مرة لمقابلة إبراهيم عبد الهادي رئـيس وزراء مصر في ذلك الحين، وكانت الشبهات حامت حوله عـن قيادتـه لحركـة عصـيان حدثت في الجيش، ودخل جمال على رئيس الوزراء مرفوع الرأس، ثابت النفس، فجاذبـه إبراهيم عبد الهادي أطراف الحديث، فكان جمال في جميع أقواله ومناقشاته مـثلاً لـلأدب الممزوج بثقة النفس، وشجاعة القلب والاعتداد بالشخصية.

وفي هذا يقول جمال نفسه: «خرجت من عند إبراهيم عبـد الهـادي وكانـت في جيـب محفظتي ورقة صغيرة لو ضبطت معي لكانت لي حياة غير هذه الحياة».

وهو جريء..! وجرأته هذه هي إحدى مقومـات زعامتـه، فلقـد حوصـرت «عـراق المنشية» في حرب فلسطين 1948م، وكان ضربًا من الخطر أن يستمر جمال في تشبثه بهذا الموقع الذي عُين قائدًا له، ولكن صمد، وثبت، وقاوم مقاومـة تتسـم بـالجرأة الفائقـة، وجرح من جراء عناده، وأصيب إصابة كادت تودي بحياته ولكـن بعـد أن ألقـم العـدو حجرًا واضطره إلى أن يعترف بتلك المقاومة الباسلة التي أبداها الصاغ جمال عبد الناصر وجنوده.

إنسانية وفداء

وهو إنسان..! إنسان بالمدلول الصحيح لكلمة إنسان، فعندما وقع الاعتداء الثلاثي المشهور على مصر عام 1956م، وضربت البلاد بالقنابل والمدافع، وتعرضت للخطر المحيق، واضطر الكثير من المواطنين لترك القاهرة التي كانت تعيش تحت وابل لا ينقطع من غارات الأعداء، حماية للطفولة الغضة أو حفظًا للشيخوخة الفانية، رفض الرجل أن ينقل أسرته وأولاده إلى مكان آخر جديد، وفضل أن يظلوا في منزلهم بمنشية البكري بالعباسية، وقال: فليعيشوا تحت نار القنابل كما تعيش كل طبقات الشعب، فهم من الشعب فليتحملوا ويتعرضوا لما يتعرض له الشعب.

واستقل القائد الإنسان عربة مكشوفة ذهب بها إلى الأزهر الشريف ليعاهد الشعب عهد الخلود «سنقاتل سنقاتل ولن نسلم، وسأقاتل معكم إلى آخر قطرة من دمي..!».

ثم يستقل العربة ويذهب بها مع كثرة معارضيه إلى الإسماعيلية، إلى أرض المعركة ويختلط بأفراد الشعب وجنوده، ويستطلع مواقعهم، ويتدارس أحوالهم، ويبعث فيهم الثقة والإيمان، لقد شعر القائد إنه إنسان، وإنه فرد من أبناء الشعب له ما لها وعليه ما عليهم، وتلك لعمري إنسانية عظيمة، لرجل عظيم.

شخصية فذة

هذه هي مقومات شخصية جمال عبد الناصر التي جعلت منه زعيمًا لا للجمهورية العربية وحدها، بل للشرق العربي جميعه، وأنزلته منزلة رفيعة محاطة بالحب والتقدير والاحترام، وأحلته المحل الأول بين الزعماء والقادة وجعلته رمزًا لمجد العرب وقوتهم وتصميمهم على إعادة تاريخهم التليد، الذي يُعد مفخرة التاريخ كله في نقائه وجوهره وعظمته ورفعة شأنه، ذلك التاريخ يحفظ لهم أنهم - أي العرب- بنو باتحادهم وعلمهم وعدتهم إمبراطورية ضخمة شاسعة تمتد من المحيط إلى الخليج.

هذه هي مقومات جمال عبد الناصر، إدارة قوية، ونفس فتية، وجرأة نادرة، وشجاعة فائقة، وإنسانية مكتملة، وطهارة ضمير لا تشوبه الوصمات والأوضار، مقومات كانت العامل الأول في توفيقه وهداه..!

وهنا يبرز السؤال الذي لا بد من سؤاله: ما أثر تلك المقومات في سياسة عبد الناصر

وحكمه..؟

سياسته الداخلية

أما في السياسة الداخلية، فقد خلقت له زعامة شعبية واسعة وأضفت على شخصه سحرًا يسحر القلوب، ويشهدها إليها بذلك الرباط الأزلي الخالد، رباط الحب والإعجاب، وطبعت حكمه بطابع العدل والطمأنينة، فجعلت المواطنين جميعًا يشعرون بالثقة، الثقة بالنفس وباليوم وبالمستقبل، وأمن كل منهم على نفسه بعد أن كان قلقًا هائمًا في مفازات من الظلم والطغيان..!

سياسته الخارجية

وأما أثرها في السياسة الخارجية فقد تمكنت تلك المقومات التي امتاز بها جمال، وما لها من تأثير خارجي أن ترفع مكانة الوطن العربي، وأن تُعلي من شأنه، وتخلق له سياسة خارجية واضحة رائدها الحرية وشعارها السلام، وظهر ذلك جليًا في المؤتمرات والمحافل الدولية من باندونج إلى بريوني، إلى مؤتمرات الشعوب الآسيوية والإفريقية وغيرها.

وكان لهذا أثره على شعوب العالم المختلفة ولا سيما الذي مازال منها يرزح تحت نير الاضطهاد والاستعمار، فقد رأت في شخص عبد الناصر ملاذا تلوذ به، وملجأ تلجأ إليه إذا ما توجست الخيفة أو وقع بها جور من معتدين، وجعلته في الوقت ذاته مثلاً للقدرة، ورمزا للكفاح والنجاح.

هذا هو جمال عبد الناصر، رجل في أمة، وأمة في رجل..!

▪▪ هكذا كانت مصر



1918 - 1970

مثال صارخ يجسد وضع مصر قبيل ثورة 1952م.

الخديو توفيق -حاكم مصر- يعزل شيخ الأزهر ويزين شاطئ النيل بالأنوار أثناء مأدبة «سراي الجزيرة» لضباط الاحتلال[1]:

ينقل شفيق[2] الأجواء التي عاشتها القاهرة يوم 26 سبتمبر عام 1882م، وكانت امتدادا ليوم 25 سبتمبر، يقول في مذكراته: «في يوم 26 سبتمبر أقفلت الدواوين بسبب التشريفات، ففي صبيحة هذا النهار اتشح سمو الخديو بالملابس الرسمية، وتحرك ركابه إلى سراي الجزيرة بموكبه الحافل، وهرع العالم لتقديم واجبات التهنئة، فكنت ترى في ساحات السراي ألوفا من العربات ومئات من الخيل، وكان جسر قصر النيل زاهيا بالزينات، وقابل سموه حضرة البرنس محمود بك حمدي شقيقه، ومنصور باشا يكن ثم حضرات النظار، وبعد ذلك العلماء الأعلام وجميع مشايخ الطرق.

وتقدم الشيخ الإبياري وألقى خطبة بليغة، فشكر الخديو، ثم خاطبهم قائلاً: «أيها العلماء الزموا وظائفكم ولا

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، العدد (2316)، 2 أكتوبر 2017م، ص15.

(2) شفيق باشا: مؤرخ مصري عاش في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

تتعدوها، وتجنبوا السياسة والمفاسد فتنالوا رضاي، ومن خالف منكم فلا مفر لـه مـن عدلي، بل يعاقب أشد العقاب فإن لفظة علم لا تنقذكم من القصاص»، يؤكـد شـفيق، أن الخديو استدعى سلطان باشا رئيس مجلس النـواب الـذي كـان في صـفوف الثـورة في بدايتها ثم انقلب عليها وأصبح من أكبر مؤيدي الخديو والإنجليز، وخاطبه قائلا: «إنني أشكر إجراءاتك وصدق خـدماتك، وبرهانـا عـلى رضـاي عنـك أقلـدك الآن بالنيشـان المجيدي الأول الرفيع الشأن».

ويقول شفيق: «وضعه سموه (توفيق) بيده على صدر سلطان فتشـكر سـعادته، ودعـا لجنابه العالي بالنصر والتأييد وخرج بعد أن لبث بحضرته برهة».

خان سلطان باشـا الثـورة، ويؤكـد محمـد عبـده في مذكراتـه الصـادرة عـن «الهيئـة المصرية العامة للكتاب – القاهرة» أنه كان يوزع النقود باسم الخديو والسلطان العثماني كرشوة لرؤساء العربـان في غـزة والشـرقية ليتركـوا جـيش عرابـي ويلتحقـوا بـالجيش العثماني، ويقول: «عرف أن توزيع النقود باسم الإنجليز لا يفيـد، فأخـذ يوزعهـا باسـم الخديو والسلطان».

يؤكد شفيق أنه وبعد خروج سـلطان باشـا تشـرف الباشـوات حتـى غصـت القاعـة بعددهم فقابلهم سموه بنطق شريف ملخصه: من كان منكم غير موظـف فيلـزم أشـغال نفسه ويحافظ على واجباته وإياه والمخالفة، أما الموظف فعليه أن يقوم بحقوق وظيفتـه بإخلاص واستقامة، ثم انعطف إلى رستم باشا (رئيس مجلـس شـورى النـواب في عهـد الخديو إسماعيل من 18 مايو 1879م إلى 6 يوليو 1879م) وخاطب الجميع مشيرا إليه قائلا: «لو اقتديتم بسلوك هذا المخلص لأوقفتم شر العصاة (العرابيين)، فهو الشـخص الوحيد في ذوات مصر الذي رفض التوقيع ضد الحضرة الخديوية ولم يهله تهديد العصاة بل أجابهم بقوله: لست أقبل أبدا نكران نعمة مولاي».

توجه رستم باشا بالشكر إلى الخديو ودعا بحفظه وتواصـلت الاسـتقبالات حسـبما يؤكد شفيق قائلا: «وفد الجنرال ولسلي وعلى صدره النيشان العثماني من الدرجـة الأولى ومعه البرنس أرثر وكبار الضباط ورؤساء الجيش فمكثوا بحضرته مليا يتبادلون عبارات المودة، ثم دخل القناصل وكان ذلك ختام التشريفات.

رفض الخديو مقابلة بعض الشخصيات التي أبدت رغبتها في الحضور لتهنئته وهم حسب شفيق راغب باشا وعلي باشا صادق وإسماعيل باشا حقي ومرعشلي باشا ومصطفى باشا نائلي، وسبب رفضه أنه كان قد بلغه ميلهم للعرابيين.

تزين ميدان عابدين يوم 30 سبتمبر من عام 1882م، وذلك لاستقبال استعراض الخديو توفيق للجيش الإنجليزي، وكانت مصر وقتئذ تنتقل إلى سيادة الاحتلال الإنجليزى عليها منذ أن دخلها بعد هزيمة جيش عرابي في التل الكبير يوم 13 سبتمبر 1882م، وكان توفيق يواصل إصدار قراراته التي تساعد على بسط وهيمنة هذا الاحتلال، ومن أهمها قراره بحل الجيش المصري يوم 19 سبتمبر من عام 1882م.

ويذكر عرابي في مذكراته عن دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، دراسة وتحقيق الدكتور عبدالمنعم الجميعى: «صدر أمر الخديو بإلغاء الجيش المصري وصرف العساكر إلى بلادهم، ومحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش امدافع عن البلاد بصفته أنهم عصاة»، ويحدد الجميعي الهدف الأصلي من هذا القرار بقوله: «القضاء على العسكرية المصرية، وتشكيل جيش جديد تحت الإشراف الإنجليزي، وإلغاء الرتب العسكرية المعطاة في مدة الثورة العرابية».

وتقول لطيفة سالم في تعليقها على داود بركات في كتابه خمسون عامًا على الثورة العرابية - رؤية الأهرام: «أصدر الخديو أمره بحل الجيش على أساس أنه أيد الثوريين، وبالطبع جاء ذلك وفقًا لإرادة المحتل».

بعد 11 يومًا من قرار حل الجيش المصري، وقع الحدث المهين الذي عبر عن غروب شمس الكرامة والعزة القومية في نفوس أولئك الذين اجتمعوا لتكريم جيش الاحتلال، حسبما يقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي»، عن دار المعارف - القاهرة: «كما كان ميدان عابدين على النقيض تمامًا من اللحظة الوطنية التي كان عليها يوم 9 سبتمبر 1881م».

ويرصدها محمود الخفيف في كتابه «أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه» عن دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، قائلاً: «في الثلاثين من سبتمبر اصطف الجيش الإنجليزي في ميدان عابدين، في المكان نفسه، حيث وقف عرابي قبل ذلك بسنة وقفته

المشهورة ومعه الجيش المصري في التاسع من سبتمبر 1881م يسمع الخديو مطالب الأمة ويعلن مشيئتها، ولا تقع عينا توفيق الآن على جنود يتحدونه، بل تقع على جنود يحيونه ويحييهم رافعًا يده بالسلام العسكري، ولكم أثلج فؤاده أن يرى هذه القوة التي ظن أنها تسند عرشه، ولو أنه فكر قليلاً لفطن إلى أنها كانت تمتهن ذلك العرش، وكان الخديو في المقصورة التي أعدت له يرتدي ملابسه الرسمية، وكان يحيط به الوزراء والكبراء كذلك بأرديتهم الرسمية وأوسمتهم».

يذكر النقاش وقائع ما جرى في 30 سبتمبر المشؤوم، وكان يوم سبت قائلاً: «تم إعداد مقام للخديو في ساحة عابدين، وفوقه سرادق عظيم ليكون فيه أثناء عرض الجيوش الإنجليزية عليه»، ويضيف: «تم إعداد الميدان، ورفعت فوقه الألوية، وفرش بالبسط والأثاثات الثمينة، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أقبل الخديو بالملابس الرسمية، وعلى يساره محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار، وأمامه مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية، وعمر باشا لطفى ناظر الحربية والبحرية، ومن خلفه بقية النظار وبعض العلماء والذوات الذين لم يسجنوا ورجال المعية، وكلهم بالملابس الرسمية.

وكان الجنرال ولسلى، قائد القوات الإنجليزية في حربها ضد عرابي، والدوق أوف كنوت نجل الملكة، على ظهور الخيل بجانب المقام المذكور، وكثير من الضباط والياوران الإنجليز، وفي بدء الساعة الخامسة أخذت العساكر في المرور، واستمرت ساعة ونصفًا، وكانت موسيقى كل فرقة منهم تقف أمام المقام، وتعزف بألحانها العسكرية حتى يتم مرور فرقتها، ثم تليها الثانية ثم تليها الأخرى، وهكذا إلى أن تم مرور الجيش بأجمعه، وكان الجيش في مروره منقسمًا إلى قسمين، كل منهما مؤلف من الفرسان ورجال المدافع والمشاة، واكتمل مرورهم على هذا النظام والترتيب العسكريين قبل الغروب».

أخذت البهجة طريقها للخديو والحاضرين معه بما رأوه، حسبما جاء في عدد «الوقائع المصرية»، الأول من أكتوبر، أي في اليوم التالى للعرض، حيث قالت: «انشرحت صدور الحاضرين وأعجب الجناب الخديو المعظم بما رآه من مهارة رؤسائهم وضباطهم الإنجليز، وحُسن انتظام العساكر وكمال نظامهم، وشكر الكل لهم ما قاموا به من إخماد فتنة العصاة – رجال الثورة العرابية– وإطفاء ثورتهم».

ومثال ثان على بعض حكامها وما كانوا يفعلون ويأثمون.

تلألأت الأنوار في سراى الجزيرة، كما ازدان شاطئ النيل أمامها بالأنوار التي تبهر الأبصار، وذلك لاستقبال الضباط الإنجليز في المأدبة الكبيرة التي أقامها الخديو توفيق احتفالا بهم يوم 2 أكتوبر من عام 1882م، لهزيمتهم جيش عرابي في التل الكبير يوم 13 سبتمبر 1882م واحتلال مصر بعدها، وعرفانا لهم لأنهم حافظوا على عرشه.

كان «توفيق» يواصل احتفالاته عرفانا للاحتلال الذي حافظ على عرشه، وكان يصدر قراراته لتعزيز الاحتلال، والقضاء على ما تبقى من الثورة العرابية، وشهد يوم 2 أكتوبر حدثين في هذا، الأول هو إصدار أمر إلى الداخلية برجوع الشيخ محمد العباسي المهدي إلى مشيخة الأزهر بعد استعفاء الخديو للشيخ محمد الأنبابي في آخر استعراضه للجيش الإنجليزى يوم 30 سبتمبر 1882م، حسبما يؤكد أحمد عرابي في مذكراته الصادرة عن «الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة»، وكان «العباسي» شيخا للأزهر لكن تم عزله أثناء الثورة.

ووفقا لسليم خليل النقاش في الجزء الرابع من كتابه مصر للمصريين عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة»: كان عرابي من الساعين في فصل الشيخ العباسي، ويؤكد عبدالرحمن الرافعي في كتابه «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي» عن «دار المعارف- القاهرة»: لما قامت الثورة العرابية لم يكن الشيخ محمد العباسي من أنصارها، فاستهدف لغضب العرابيين وعزله من مشيخة الأزهر.

أما الحدث الثاني فكان تنظيم الخديو مأدبة كبيرة للضباط الإنجليز، ويقدم أحمد شفيق باشا في الجزء الأول من مذكراته وصفا تفصيليًا عن وقائع هذا اليوم، الذي كان طرفا فيه، ولهذا يبدي إعجابه به إلى حد الانبهار، يقول «شفيق» في مذكراته الصادرة عن «الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة»: أقام الخديو في 2 أكتوبر مأدبة كبيرة في سراي الجزيرة للضباط الإنجليز، وكانت أنيقة بالغة منتهى الإتقان والفخامة لم أشاهد لها نظيرا في مصر، فقد ازدان شاطئا النيل أمام القصر بالأنوار التي تبهر الأبصار.

يضيف شفيق باشا: «أقيمت في السلاملك الكبير الذي أنشأه إسماعيل باشا خصيصا لاستقبال الامبراطورة «أوجيني» على طراز قصر الحمراء في الأندلس، وزينه بالنقوش

العربية البديعة المموهة بالذهب على أشكال متنوعة، وأنشأ في بهوه الكبير حوضا فخما في وسطه تماثيل من الرخام تمثل أسودا قائمة على قاعدة عالية والماء يتدفق من أفواهها..».

يصل شفيق إلى اللحظة التي شاهد فيها الضباط الإنجليز قائلا: «كانت الأنوار الملونة الساطعة المنبعثة من جوانبه (سلاملك السراي) وقاعاته تتألق كالشمس المنيرة، وتنعكس أشعتها على تلك النقوش الذهبية البديعة، وتسطع في ضوئها الأوسمة والنياشين المتلألئة على صدور الضباط وأركان الحرب الإنجليز، فتزيد الحفلة بهجة والمنظر روعة وجلالا، وقد شاهدت ولسلي «قائد القوات الإنجليزية التي هزمت عرابي واحتلت مصر» وسيمور وعليهما الوشاح العثماني الأول، والجنرال «دروري لو» يحمل الوشاح العثماني من الدرجة الثانية، وكان أنعم بها عليهم الخديو».

يواصل شفيق: «تجلى الكرم العربي والأبهة الشرقية في هذه الوليمة الفاخرة النادرة بأجمل مظاهرها، حيث مدت موائد عديدة مزينة بالأزهار الجميلة، فبلغ إعجاب الضباط الإنجليز أعظم مبلغ، وأخذتهم الدهشة لهذا البهاء المتقن، هذا ما كان بداخل القصر أما حديقته على اتساعها، والتي كانت مضاءة بآلاف المصابيح، فقد اكتظت بالمغنين والمغنيات والموسيقات الأميرية والطبل والمزمار البلدي وكثير من الملاهي، وكانت الألعاب النارية تطلق من الضفة الشرقية للنيل، وفي الجملة فقد كانت هذه الحفلة من الروعة والأبهة بمكان يعجز الإنسان عن إيفائها حقها في الوصف».

يذكر شفيق باشا، أن أهالي العاصمة (القاهرة) شاركوا الخديو في الاحتفاء بالضباط الإنجليز، حيث أنابوا عنهم محمد سلطان باشا «رئيس مجلس النواب، الذي بدأ مؤيدا الثورة ثم خانها وأصبح من أكبر مؤيدى الخديو»، وأحمد السيوفي بك في مقابلة رياض باشا ناظر الداخلية للسماح لهم في تقديم هدية من الأسلحة الفاخرة إلى الأميرال سيمور والجنرالين ولسلى ودرورى لو، فسمح لهم بذلك، وقدمت الهدية لهم، حيث قوبلت بالشكر، وهي عبارة عن ثلاث سيوف مرصعة مقابضها بالحجارة الكريمة لكل منهم سيفه.

وفي 14 أكتوبر أقام ولسلي بسراي عابدين مأدبة للضباط الإنجليز والنظار المصريين وكبار الأعيان، وأقام له وللدوق أوف كنوت ابن ملكة إنجلترا رياض باشا مأدبة في يوم

19 أكتوبر 1882م.

يقول خامياكوف في إحدى قصائده «تحت ظلال القصر والحدائق»[1]:

تحت ظلال جدران القصر والحدائق الغناء

وبين وميض الأنوار وخرير الماء

مرتديًا أزهى ملابسه، هائمًا، يجلس السلطان

تحيط به الحسناوات من كل مكان

يهز رأسه، مستغرقًا في التفكير

تحف أوراق أشجار الجهنمية مع النسيم العليل

وتفوح رائحة العطر من الورد الأحمر القاني

ويظهر الهلال والنجوم في ظلمة الليل الحالك

وهنا يصف الشاعر حياة القصر المترفة التي يستطيع القارئ الروسي من خلالها أن يقارن حياته البائسة التي يعيشها في ظل الحكم القيصري، مما يدعوه إلى السخط وعدم الرضا عن تلك الحياة، والذي سيؤدي به في النهاية إلى النضال من أجل إيجاد ظروف ملائمة لحياة مترفة سعيدة.

فلننظر معًا كيف كانت مصر وهي تحتفل بمن ناء بكلكله عليها، وأعني الاستعمار الإنجليزي، فقد تم إعداد ساحات ميدان عابدين على نظام ووضع متفنن، يصفه سليم خليل النقاش في كتابه «مصر للمصريين»، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة: «رفعت فوقه الألوية البهيجة، وفرش بالبسط النفيسة والمفروشات الثمينة، حتى كان بهجة للأنظار وسحرًا للعقول»[2].

(1) د. محمد عباس محمد، ود. نادية إمام سلطان: بين روسيا والشرق العربي، قراءات في الأدب والثقافة، كتابات نقدية، وزارة الثقافة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،

(2) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ذات اليوم، العدد (2314)، بتاريخ 30 سبتمبر

وهاك مثالٌ آخر على ما كان من حكام مصر قبل الثورة، وكذلك قبيل ثورة 1919م التي رفعت اسم مصر في الخافقين بزعامة الزعيم الوطني سعد زغلول الذي قاله عنه غاندي زعيم الهند عقب هذه الثورة: إنني تتبعت ثورة 1919م وقائدها سعد زغلول وإنني سرت على خطاها، وعن سعد أخذت توحيد العنصرين ولكني لما أنجح كما نجح سعد زغلول فيه.. إن سعد ليس لكم وحدكم ولكنه لنا أجمعين.

نزلت عائلة الخديو توفيق في سراي الإسماعيلية بعد وصولها إلى القاهرة يوم 25 سبتمبر 1882م؛ لأن ولسلي (قائد قوات الجيش الإنجليزي الذي هزم عرابي) كان لا يزال يقيم في سراي عابدين، منذ أن دخل القاهرة في 15 سبتمبر بعد هزيمة جيش عرابي في التل الكبير يوم 13 سبتمبر[1].

عاد توفيق إلى القاهرة بعد عشرة أيام قضاها في الإسكندرية يتلقى التهاني لهزيمة عرابي واحتلال مصر، ويذكر أحمد شفيق باشا في الجزء الأول من مذكراته «مذكراتي في نصف قرن» الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة: «احتفلت الحكومة والأهالي برجوع سموه احتفالا باهرا فأقيمت الزينات ثلاث ليال على دور الحكومة ومنازل الأهالى، وأطلقت الألعاب النارية».

كان شفيق باشا من معية الخديو، وصار فيما بعد رئيس ديوان الخديو عباس الثاني ابن توفيق، ومن هذا الموقع يتذكر الأحداث، ويعترف: لما استقر المقام بالخديو في عاصمة ملكه أصدر أمره الكريم بمكافأة موظفي المعية الذين لازموه أثناء الحوادث العرابية، وكنت في جملة الذين شملتهم هذه المكافأة، فزيد مرتبي الشهري من اثنى عشر جنيها إلى عشرين.

2017م، ص15.

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ذات يوم، العدد (2310)، بتاريخ 25 سبتمبر 2017م، ص15.

▪▪ ثائرًا في المرحلة الثانوية



1918 - 1970

التحق ناصر في عـام 1929 بالقسـم الـداخلي في مدرسـة حلوان الثانوية وقضى بها عامًا واحدًا، ثم نقل في العـام التـالي (1930م) إلى مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية بعد أن انتقل والده إلى العمل بمصلحة البوسطة هناك.

وفي تلك المدرسة تكون وجدان ناصر القومي، ففي عـام 1930م استصدرت وزارة إسماعيل صدقي مرسـومًا ملكيًـا بإلغاء دستور 1923م، فثارت مظاهرات الطلبة تهتف بسقوط الاستعمار وعودة الدستور، ويحكي جمال عبـد الناصـر عـن أول مظـاهرة اشـترك فيهـا: «كنـت أعبـر ميـدان المنشـية في الإسكندرية حين وجدت اشتباكًا بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البـوليس، ولم أتـردد في تقريـر مـوقفي، فلقـد انضممت على الفور إلى المتظاهرين، دون أن أعرف أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون مـن أجلـه، ولقـد شـعرت أنني في غير حاجة إلى سؤال، لقد رأيت أفرادًا من الجماهير في صدام مع السلطة، واتخـذت مـوقفي دون تـردد في الجانـب المعادي للسلطة.

ومرت لحظات سيطرت فيهـا المظـاهرة عـلى الموقـف، لكن سرعان ما جاءت إلى المكان الإمدادات، حمولـة لـوريين

من رجال البوليس لتعزيز القوة، وهجمت علينا جماعتهم وأني لأذكر أني - في محاولة يائسة- ألقيت حجرًا، لكنهم أدركونا في لمح البصر، وحاولت أن أهرب لكني حين التفت هوت على رأسي عصا من عصي البوليس، تلتها ضربة ثانية حين سقطت، ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسي مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإفلات بالسرعة الكافية.

ولما كنت في قسم البوليس، وأخذوا يعالجون جراح رأسي، سألت عن سبب المظاهرة فعرفت أنها مظاهرة نظمتها جماعة «مصر الفتاة» في ذلك الوقت للاحتجاج على سياسة الحكومة، وقد دخلت السجن تلميذًا متحمسًا، وخرجت منه مشحونـًا بطاقة من الغضب».

ويعود ناصر إلى هذه الفترة من حياته في خطاب له بميدان المنشية بالإسكندرية في 26/ 10/ 1954م ليصف أحاسيسه في تلك المظاهرة وما تركته من آثار في نفسه: «حينما بدأت في الكلام اليوم في ميدان المنشية سرح بي الخاطر إلى الماضي البعيد، وتذكرت كفاح الإسكندرية وأنا شاب صغير، وتذكرت في هذا الوقت وأنا أشترك مع أبناء الإسكندرية، وأنا أهتف لأول مرة في حياتي باسم الحرية وباسم الكرامة، وباسم مصر، أطلقت علينا طلقات الاستعمار وأعوان الاستعمار، فمات من مات وجُرح من جُرح».

ولكن خرج من بين هؤلاء الناس شاب صغير شعر بالحرية وأحس بطعم الحرية، وآلى على نفسه أن يجاهد وأن يكافح وأن يقاتل في سبيل الحرية التي كان يهتف بها ولا يعلم معناها؛ لأنه كان يشعر بها في نفسه، وكان يشعر بها في روحه، وكان يشعر بها في دمه، لقد كانت تلك الفترة في الإسكندرية مرحلة تحول في حياة الطالب جمال عبد الناصر من متظاهر إلى ثائر تأثر بحالة الغليان التي كانت تعاني منها مصر؛ بسبب تحكم الاستعمار وإلغاء الدستور.

وقد ضاق المسئولون بالمدرسة بنشاطه ونبهوا والده فأرسله إلى القاهرة، وقد التحق ناصر في عام 1933م بمدرسة النهضة الثانوية بحي الظاهر بالقاهرة، واستمر في نشاطه السياسي فأصبح رئيس اتحاد مدرسة النهضة الثانوية.

وفي هذه الفترة ظهر شغفه بالقراءة في التاريخ والموضوعات الوطنية، فقرأ عن الثورة

الفرنسية وعن روسو وفولتير، وكتب مقالاً بعنوان «فولتير رجل الحرية» نشرها بمجلة المدرسة، كما قرأ عن نابليون والإسكندر ويوليوس قيصر وغاندي، وقرأ رواية «البؤساء» لفيكتور هوجو، و«قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز، وغيرها.

كذلك اهتم ناصر بالإنتاج الأدبي العربي، فكان معجبًا بأشعار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وقرأ عن سيرة النبي محمد ﷺ وعن أبطال الإسلام، وكذلك عن مصطفى كامل، كما قرأ مسرحيات وروايات توفيق الحكيم، خصوصًا رواية «عودة الروح» التي تتحدث عن ضرورة ظهور زعيم للمصريين يستطيع توحيد صفوفهم، ودفعهم نحو النضال في سبيل الحرية والبعث الوطني.

وفي عام 1935م في حفل مدرسة النهضة الثانوية لعب الطالب جمال عبد الناصر دور يوليوس قيصر؛ بطل تحرير الجماهير في مسرحية شكسبير، في حضور وزير المعارف في ذلك الوقت، كما وأنه بدأ في كتابة قصة «في سبيل الحرية» عن معركة رشيد 1807م لكنه لم يستكملها.

وقد شهد عام 1935م نشاطًا كبيرًا للحركة الوطنية المصرية التي قام فيها الطلبة بالدور الأساسي؛ مطالبين بعودة الدستور والاستقلال، ويكشف خطاب من ناصر إلى صديقه علي في 4 سبتمبر 1935م مكنون نفسه في هذه الفترة فيقول: «لقد انتقلنا من نور الأمل إلى ظلمة اليأس، ونفضنا بشائر الحياة واستقبلنا غبار الموت؛ فأين من يقلب كل ذلك رأسًا على عقب، ويعيد مصر إلى سيرتها الأولى يوم أن كانت مالكة العالم..؟! أين من يخلق خلقًا جديدًا لكي صبيح المصري الخافت الصوت، الضعيف الأمل، الذي يطرق برأسه ساكنًا صابرًا على اهتضام حقه، ساهيًا عن التلاعب بوطنه، يقظًا عالي الصوت عظيم الرجاء، رافعًا رأسه يجاهد بشجاعة وجرأة في طلب الاستقلال والحرية.

قال مصطفى كامل: «لو نقل قلبي من اليسار إلى اليمين، أو تحركت الأهرام من مكانها المكين، أو تغير مجرى النيل، فلن أتغير عن المبدأ»، كل ذلك مقدمة طويلة لعمل أطول وأعظم، فقد تكلمنا مرات عدة في عمل يوقظ الأمة من غفوتها، ويضرب على الأوتار الحساسة من القلوب، ويستثير ما كمن في الصدور، ولكن كل ذلك لم يدخل في حيز العمل إلى الآن».

وبعد ذلك بشهرين، وفور صدور تصريح صمويل هور – وزير الخارجية البريطانية– في 9 نوفمبر 1935م معلنـًا رفض بريطانيا لعودة الحياة الدستورية في مصر، اندلعت مظاهرات الطلبة والعمال في البلاد، وقادر ناصر في 13 نوفمبر مظاهرة من تلاميذ المدارس الثانوية واجهتها قوة من البوليس الإنجليزي، فأصيب جمال بجروح في جبينه سببته رصاصة مزقت الجلد لكنها لم تنفذ إلى الرأس، وأسرع به زملاؤه إلى دار جريدة الجهاد التي تصادف وقوع الحادث بجوارها، ونشر اسمه في العدد الذي صدر صباح اليوم التالي بين أسماء الجرحى.

وعن آثار أحداث تلك الفترة في نفسية جمال عبد الناصر قال في كلمة له في جامعة القاهرة في 15 نوفمبر 1952م: «وقد تركت إصابتي أثـرًا عزيـزًا، لا يزال يعلو وجهي فيذكرني كل يوم بالواجب الوطني الملقى على كاهلي كفرد من أبناء هذا الوطن العزيز، وفي هذا اليوم وقع صريع الظلم والاحتلال المرحوم عبد المجيد مرسي، فأنساني ما أنا مصاب به، ورسخ في نفسي أن عليّ واجبًا أفنى في سبيله، أو أكون أحد العاملين في تحقيقه حتى يتحقق، وهذا الواجب هو تحرير الوطن من الاستعمار، وتحقيق سيادة الشعب، وتوالى بعد ذلك سقوط الشهداء صرعى، فازداد إيماني بالعمل على تحقيق حرية مصر».

وتحت الضغط الشعبي؛ وخاصة من جانب الطلبة والعمال صدر مرسوم ملكي في 12 ديسمبر 1935م بعودة دستور 1923م.

وقد انضم ناصر في هذا الوقت إلى وفود الطلبة التي كانت تسعى إلى بيوت الزعماء تطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر، وقد تألفت «الجبهة الوطنية» سنة 1936م بالفعل على أثر هذه الجهود، وقد كتب ناصر شعوره في كتاب «فلسفة الثورة» فقال: «وفي تلك الأيام قدت مظاهرة ي مدرسة النهضة، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام، وصرخ ورائي كثيرون، ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهية لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور».

إلا أن اتحاد الزعماء السياسيين على كلمة واحدة كان فجيعة لإيمان ناصر، فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة 1936م التي قننت الاحتلال، فنصت على أن تبقى في مصر قواعد عسكرية لحماية وادي النيل وقناة السويس من أي اعتداء،

وي حال وقوع حرب تكون الأراضي المصرية بموانيها ومطاراتها وطرق مواصلاتها تحت تصرف بريطانيا، كما نصت المعاهدة على بقاء الحكم الثنائي في السودان.

وكان من نتيجة النشاط السياسي المكثف لناصر في هذه الفترة الذي رصدته تقارير البوليس، أن قررت مدرسة النهضة فصله، بتهمة تحريضه الطلبة على الثورة، إلا أن زملائه ثاروا وأعلنوا الإضراب العام، وهددوا بحرق المدرسة فتراجع ناظر المدرسة الإنجليزي في قراره.

ومنذ المظاهرة الأولى التي اشترك فيها ناصر بالإسكندرية شغلت السياسية كل وقته، وقد حكى لي أنه تجول بين التيارات السياسية التي كانت موجودة في هذا الوقت، فانضم إلى «مصر الفتاة» لمدة عامين، ثم انصرف عنها بعد أن اكتشف أنها لا تحقق شيئًا، كما كانت له اتصالات متعددة بـ«الإخوان المسلمين» إلا إنه قد عزف عن الانضمام لأي من الجماعات أو الأحزاب القائمة؛ لأنه لم يقتنع بجدوى أيًا منها، فلم يكن هناك حزب مثالي يضم جميع العناصر لتحقيق الأهداف الوطنية.

كذلك فإنه وهو طالب بالمرحلة الثانوية بدأ الوعي العربي يتسلل إلى تفكيره، فكان يخرج مع زملائه في كل عام في الثاني من شهر نوفمبر احتجاجًا على وعد «بلفور» الذي منحت به بريطانيا لليهود وطنًا في فلسطين، على حساب أصحابه الشرعيين.

ناصر في الكلية الحربية

لما أتم ناصر دارسته الثانوية وحصل على البكالوريا في القسم الأدبي قرر الالتحاق بالجيش، ولقد أيقن بعد التجربة التي مر بها في العمل السياسي واتصالاته برجال السياسة والأحزاب التي أثارت اشمئزازه منهم، أن تحرير مصر لن يتم بالخطب بل يجب أن تقابل القوة بالقوة، والاحتلال العسكري بجيش وطني.

تقدم ناصر إلى الكلية الحربية فنجح في الكشف الطبي، ولكنه سقط في كشف الهيئة؛ لأنه حفيد فلاح من بني مر وابن موظف بسيط لا يملك شيئًا؛ ولأنه اشترك في مظاهرات 1935م؛ ولأنه لا يملك واسطة، ولما رفضت الكلية الحربية قبول ناصر، تقدم في أكتوبر 1936م إلى كلية الحقوق في جامعة القاهرة، ومكث فيها ستة أشهر إلى أن

عُقدت معاهدة 1936م.

واتجهت النية إلى زيادة أعداد ضباط الجيش المصري من الشباب، بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية أو ثروتهم، فقبلت الكلية الحربية دفعة في خريف 1936م، وأعلنت وزارة الحربية عن حاجتها لدفعة ثانية، فتقدم جمال مرة ثانية للكلية الحربية، ولكنه توصل إلى مقابلة وكيل وزارة الحربية اللواء إبراهيم خيري، الذي أعجب بصراحته ووطنيته وإصراره على أن يصبح ضابطًا، فوافق على دخوله في الدورة التالية: أي في مارس 1937م.

لقد وضع ناصر أمامه هدفًا واضحًا في الكلية الحربية، وهو أن يصبح ضابطًا ذا كفاءة، وأن يكتسب المعرفة والصفات التي تسمح له بأن يصبح قائدًا، وفعلاً أصبح «رئيس فريق» وأسندت إليه منذ أوائل 1938م مهمة تأهيل الطلبة المستجدين، وطوال فترة الكلية لم يوقع على جمال أي جزاء، كما رُقيَ إلى رتبة أومباشي طالب.

تخرج جمال عبد الناصر من الكلية الحربية بعد مرور 17 شهرًا، أي في يوليو 1938م، فقد جرى استعجال تخريج دفعات الضباط في ذلك الوقت؛ لتوفير عدد كافي من الضباط المصريين، لسد الفراغ الذي تركه انتقال القوات البريطانية إلى منطقة قناة السويس.

وقد كانت مكتبة الكلية الحربية غنية بالكتب القيمة، فمن لائحة الاستعارة تبين أن جمال قرأ عن سير عظام التاريخ، مثل بونابرت والإسكندر وجاليباردي وبسمارك ومصطفى كمال أتاتورك وهندنبرج وتشرشل وفوش، كما قرأ الكتب التي تعالج شئون الشرق الأوسط والسودان، ومشكلات الدول على البحر المتوسط، والتاريخ العسكري، وكذلك قرأ عن الحرب العالمية الأولى، وعن حملة فلسطين، وعن تاريخ ثورة 1919م، ومن خطاباته إلى والده أحدهما يرجوه فيها سرعة إرسال مصاريف الكلية الحربية، وآخر يعبر فيه عن اضطرابه لمرضه.

ناصر يلتحق بسلاح المشاة

التحق ناصر فور تخرجه بسلاح المشاة، ونُقل إلى منقباد في الصعيد، وقد أتاحت له إقامته هناك أن ينظر بمنظار جديد إلى أوضاع الفلاحين، وفي عام 1939م طلب جمال

عبد الناصر نقله إلى السودان؛ فخدم في الخرطوم وفي جبـل الأوليـاء، وفي مـايو 1940م رُقيَ إلى رتبة الملازم أول.

لقد كان الجيش المصري حتى ذلك الوقت جيشـاً غير مقاتـل، وكـان مـن مصـلحة البريطانيين أن يبقوه على هذا الوضع، ولكـن بـدأت تـدخل الجـيش طبقـة جديـدة مـن الضباط الذين كانوا ينظرون إلى مستقبلهم في الجيش كجزء من جهاد أكبر لتحير شعبهم، وقد ذهب جمال إلى منقباد تملؤه المـُثل العليا، ولكنه ورفقاءه أصيبوا بخيبة الأمـل، فقـد كان معظم الضباط عديمي الكفاءة وفاسدين، ومن هنا اتجه تفكيره إلى إصلاح الجـيش وتطهيره من الفساد، وقد كتـب لصـديقه حسـن النشـار في 1941م مـن جبـل الأوليـاء بالسودان: «على العموم يا حسن أنا مش عارف ألاقيها منين واللا منين، هنا في عملي كـل عيبي إني دوغري لا أعرف الملق ولا الكلمات الحلوة ولا التمسح بالأذيال».

شخص هذه صفاته يُحترم من الجميع، لكن الرؤساء، الرؤسـاء يـا حسـن يسـوءهم ذلك الذي لا يسبح بحمدهم، يسوءهم ذلك الذي لا يتملق إلـيهم، فهـذه كبريـاء وهـم شبوا على الذلة في كنف الاستعمار، يقولون: كما كنا يجب أن يكونوا، كما رأينا يجب أن يروا، والويل كل الويل لذلك الذي تأبى نفسه السير على منوالهم، ويحزنني يا حسـن أن أقول إن هذا الجيل الجديد قد أفسده الجيل القديم متملقـاً، ويحزنني يا حسن أن أقـول إننا نسير إلى الهاوية: الرياء، النفاق الملق تفشى في الأصاغر نتيجة لمعاملة الكبار، أما أنا فقد صمدت ولا زلت، ولذلك تجدني في عداء مستحكم مستمر مع هؤلاء الكبار.

ناصر يخدم في منطقة العلمين

وفي نهاية عام 1941م بينما كان «روميل» يتقدم نحو الحدود المصرية الغربيـة، عـاد جمال عبد الناصر إلى مصر، ونـُقل إلى كتيبة بريطانية تعسكر خلف خطوط القتال بالقرب من العلمين.

ويذكر جمال عبد الناصر: «في هذه المرحلة رسخت فكـرة الثـورة في ذهنـي رسوخـاً تامًا، أما السبيل إلى تحقيقها فكانـت لا تـزال بحاجـة إلى دراسـة، وكنـت يومئـذٍ لا أزال أتحسس طريقي إلى ذلك، وكان معظم جهدي في ذلك القوت يتجه إلى تجميع عدد كبيـر من الضباط الشبان الذين أشعر أنهم يؤمنون في قراراتهم بمصالح الـوطن، فبهـذا وحـده

كنا نستطيع أن نتحرك حول محور واحد وهو خدمة هذه القضية المشتركة».

وأثناء وجوده في العلمين جرت أحداث 4 فبراير 1942م، حينما توجه السفير البريطاني – السير مايلز لامسيون– ليقابل الملك فاروق بسراي عابدين في القاهرة، بعد أن حاصر القصر بالدبابات البريطانية، وسلم الملك إنذارًا يخيره فيه بين إسناد رئاسة الوزارة إلى مصطفى النحاس مع إعطائه الحق في تشكيل مجلس وزراء متعاونـًا مع بريطانيا، وبين الخلع، وقد سلم الملك بلا قيد ولا شرط.

ويذكر ناصر إنه منذ ذلك التاريخ لم يعد شيء كما كان أبدًا، فكتب إلى صديقه حسن النشار في 16 فبراير 1942م يقول: «وصلني جوابك، والحقيقة إن ما به جعلني أغلي غليانـًا مرًا، وكنت على وشك الانفجار من الغيظ، ولكن ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خائفين، والحقيقة إني أعتقد أن الإنجليز كانوا يلعبون بورقة واحدة في يدها بغرض التهديد فقط، ولكن لو كانوا أحسوا أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم، ويقابلوا القوة بالقوة؛ لانسحبوا كأي امرأة من العاهرات.

أما نحن، أما الجيش فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الوضع والإحساس فيه، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن النساء واللهو، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا – مع ضعفهم الظاهر– ويردوا للبلاد كرامتها ويغسلوها بالدماء، ولكن إن غدًا لقريب، حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئـًا بغرض الانتقام، لكن كان الوقت قد فات، أما القلوب فكلها نار وأسى، عمومًا فإن هذه الحركة أو هذه الطعنة ردت الروح إلى بعض الأجساد، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها، وكان هذا درسًا ولكنه درسًا قاسيًا.

رُقيَ ناصر إلى رتبة اليوزباشي في 9 سبتمبر 1942م، وفي 7 فبراير 1943م عين مدرسًا بالكلية الحربية، ومن قائمة مطالعاته في هذه الفترة يتضح أنه قرأ لكبار المؤلفين العسكريين، من أمثال ليدل هارت، وكلاوز فيتز، كما قرأ مؤلفات الساسة والكُتاب السياسيين مثل كرومويل وتشرشل، وفي هذه الفترة كان ناصر يعد العدة للالتحاق بمدرسة أركان حرب.

وفي 29 يونيو 1944م تزوج ناصر من تحية محمد كاظم - ابنة تاجر من رعايا إيران- كان قد تعرف على عائلتها عن طريق عمه خليل حسين، وقد أنجب ابنتيه هدى ومنى وثلاثة أبناء هم خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم، لعبت تحية دورًا هامًا في حياته، خاصة في مرحلة الإعداد للثورة واستكمال خلايا تنظيم الضباط الأحرار، فقد تحملت أعباء أسرته الصغيرة عندما كان في حرب فلسطين، كما ساعدته في إخفاء السلاح حين كان يدرب الفدائيين المصريين للعمل ضد القاعدة البريطانية في قناة السويس في 1951م، 1952م.

نشأة الضباط الأحرار

شهد عام 1945م انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية حركة «الضباط الأحرار»، وقد بحثت كثيرًا علني أجد ولو ورقة واحدة عن هذا التنظيم بلا جدوى، وتذكرت إنه كان تنظيم سري، ومن الطبيعي أن ألا يسطر حرف واحد عنه حتى لا ينكشف أمره؛ لذلك فإنني أعتمد في هذا الجزء من الكتاب على ما ذكره ناصر بنفسه عن «الضباط الأحرار» فيقول: «لقد ركزت حتى عام 1948م على تأليف نواة من الناس الذين بلغ استياؤهم من مجرى الأمور في مصر مبلغ استيائي، والذين توفرت لديهم الشجاعة الكافية والتصميم الكافي للإقدام على التغيير اللازم، وكنا يومئذٍ جماعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين، نحاول أن نخرج مثلنا العليا العامة في هدف مشترك وفي خطة مشتركة».

وعقب صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في 1947م، عقد الضباط الأحرار اجتماعًا واعتبروا أن اللحظة جاءت للدفاع عن حقوق العرب ضد هذا الانتهاك للكرامة الإنسانية والعدالة الدولية، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين، وفي اليوم التالي ذهب ناصر إلى مفتي فلسطين، الذي كان لاجئًا يقيم في ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة، فعرض عليه خدماته وخدمات جماعته الصغيرة كمدربين لفرقة المتطوعين وكمقاتلين معها.

وقد أجابه المفتي بأنه لا يستطيع أن يقبل عرضه دون موافقة الحكومة المصرية، وبعد بضعة أيام رفض العرض، فتقدم ناصر بطلب إجازة حتى يتمكن من الانضمام

للمتطوعين، لكن قبل أن يُبت في طلبه أمرت الحكومة المصرية الجيش رسميًا بالاشتراك في الحرب، فسافر ناصر إلى فلسطين في 15 مايو 1948م.

لقد كان لتجربة حرب فلسطين آثارًا بعيدة على ناصر، فعلى حد قوله: «لم يكن هناك تنسيق بين الجيوش العربية، وكان عمل القيادة على أعلى مستوى في حكم المعدوم، وتبين أن أسلحتنا في كثير من الحالات أسلحة فاسدة، وفي أوج القتال صدرت الأوامر لسلاح المهندسين ببناء شاليه للاستجمام في غزة للملك فاروق.

وقد بدا أن القيادة العليا كانت مهمتها شيئًا واحدًا، هو احتلال أوسع رقعة ممكنة من الأرض بغض النظر عن قيمتها الاستراتيجية، وبغض النظر عما إذا كانت تضعف مركزنا العام في القدرة على إلحاق الهزيمة بالعدو خلال المعركة أم لا..؟ وقد كنت شديد الاستياء من ضباط الفوتيلات أو محاربي المكاتب، الذين لم تكن لديهم أي فكرة عن ميادين القتال أو عن آلام المقاتلين.

وجاءت القطرة الأخيرة التي طفح بعدها الكيل، حين صدرت الأوامر إليَّ بأن أقود قوة من كتيبة المشاة السادسة إلى عراق سويدان، التي كان الإسرائيليون يهاجمونها، وقبل أن أبدأ في التحرك نشرت تحركاتنا كاملة في صحف القاهرة، ثم كان حصار الفالوجا الذي عشت معاركه خلال ستة أشهر، حيث ظلت القوات المصرية تقاوم رغم أن القوات الإسرائيلية كانت تفوقها كثيرًا من ناحية العدد، حتى انتهت الحرب بالهدنة التي فرضتها الأمم المتحدة في 24 فبراير 1949م.

إنني أذكر كيف ساعدت قرارات مجلس الأمن اليهود على أن يحققوا أهدافهم، فكانوا يعززون مواقعهم وتمكنوا من خطوط الجيش المصري مستغلين قرارات الهدنة، رُقيَ جمال عبد الناصر إلى رتبة صاغ أثناء حرب فلسطين في 7 يوليو 1948م، وجرح مرتين أثناء الحرب ونقل إلى المستشفى؛ ونظرًا للدور المتميز الذي قام به خلال المعركة، فإنه مُنح نيشان «نجمة فؤاد العسكرية»، والمشبك في عام 1949م، وفي فلسطين شعر ناصر أن الشعوب العربية ضحية لمؤامرة أخفت عنها عمدًا حقيقة ما كان يجري وضللتها.

ويقول في كتابه «فلسفة الثورة»: «لقد كنت أحس إنني أدافع عن بيتي وأولادي، وكان

ذلك عندما ألتقي في تجـوالي بـين الأطـلال المحطمـة بـبعض أطفـال اللاجئـين تحـت الحصار، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في عمر ابنتي، وكنـت أراهـا وقـد خرجـت إلى الخطر مندفعة تبحث عن لقمة عيش أو قطعة قماش، وكنـت دائمًـا أقـول لنفسـي: قـد يحدث هذا لابنتي، كنت مؤمنـًا أن الذي يحدث في فلسطين يمكن أن يحـدث لأي بلـد في هذه المنطقة، مادام مستسلمًا للعناصر والقوى التي تحكمه.

وبعد رجوعه إلى القاهرة أصبح جمال عبد الناصر واثقـًا أن المعركـة الحقيقـة هـي في مصر، فبينما كان ورفاقه يحاربون في فلسـطين، كـان السياسـيون المصـريون يكدسـون الأموال من أرباح الأسلحة الفاسدة التي اشتروها رخيصة وباعوها للجيش.

وقد أصبح مقتنعًا أنه من الضروري تركيز الجهود لضرب أسرة محمـد عـلي، فكـان الملك فاروق هو هدف تنظيم الضباط الأحرار منذ نهاية 1948م وحتى 1952م.

▪▪ من نحن .. وماذا نريد ..؟[1]



1918 - 1970

من نحن..؟! هذا شيء لا يكاد يجهله من الناس أحد، فنحن قطعة من صميم هذا الشعب، تحمل صدورنا كل آلامه، وكل أمانيه، وتعيش فينا كل صفاته الطيبة.

ولم تكن ثكنات الجيش التي قضينا فيها حقبًا من عمرنا لتحجب صورة هذا الشعب الأبي عن أعيننا، أو تبعدها عن أحاسيسنا، فلقد كنا ونرى هذا الصورة في كل لحظة، في وجه أولئك الجنود الشجعان الذين امتلأت الثكنات بهم، كنا نرى في وجه هؤلاء الجنود صورة الشعب كاملة، بيأسه، وبؤسه، وصبره، وقدرته المذهلة على احتمال الشدائد والمكاره والآلام.

وحينما كنا نغادر ثكناتنا إلى بيوتنا لنستريح لحظة من آلام حملناها، لم تكن صورة الشعب لتغيب عن أعيننا، كنا نراها في وجوهنا حين نقف أمام المرآة لحظة، وكنا نراها في في وجوه آبائنا وأمهاتنا، وأخواتنا وأخواننا، وكنا نسمع الشكوى من الضيم، ومن الهوان اللذين أنزلهما الطغاة بالشعب الذي نحن قطعة منه تصك آذاننا، وتحملنا أمام أنفسنا مسئولية الإقدام على عمل عظيم ينقذ الشعب.

(1) جمال عبد الناصر: مجلة المصور، العدد (4747)، بتاريخ 30 سبتمبر 2015م، ص46، 47.

ولم تكن «البدلة الكاكي» التي نرتديها بقادرة على أن تحول بيننا وبين ذلك العمل العظيم، فليست هي إلا مجرد رداء اختارته الظروف لنا، كما اختارت للعامل بدلته الزرقاء، وكما اختارت للفلاح جلابيته، الزرقاء أيضًا؛ وربما تفرق هذه الأزياء المختلفة بيننا، ولكنها تفرقة لا تعدو المظهر، ذلك الرداء الذي يغطي أجسامنا، أما نفوسنا أما مشاعرنا، أما أرواحنا، أما آلامنا وآمالنا، فكلها واحدة، كلها معنا نبتت حين نبتنا جميعًا من هذه الأرض الطيبة، وكلها معنا ترعرعت حين ترعرعنا جميعًا فوقها، وكلها معنا توحدت، حين وجدت بيننا مياه النيل الخالد التي ندين بالحياة لها.

ولقد كنا – نحن رجال الجيش– نعيش في بحبوحة من العيش، كان الطغاة يحاولون أن يشتروا سكوتنا بالترقيات يغدقونها علينا، وبالأموال يبذلوها لنا، ولقد كان من الممكن لأولئك الطغاة أن ينجحوا فيما أرادوا، لو لم تكن قطعة من صميم هذا الشعب أذهلتنا آلامه عن ترقياتنا، وأنسانا ذله ما نحن فيه من سعة العيش ورخاء الحياة.

ولكن الطغاة لم ينجحوا رغم كل ما بذلوه لنا، وكل ما أغدقوه علينا، فلقد كان صراخ الشعب يدوي في أعماقنا بما لا يجعل للطغاة سبيلاً للتأثير علينا، وبقينا سنين طويلة ونحن نحمل هموم الشعب، ونجتر آلامه أقصد آلام أنفسنا، وآبائنا، وأمهاتنا، وذوينا، حتى إذا كان اليوم الثالث والعشرون من يوليو الماضي، خرجنا لنغامر بكل ما نحن فيه من بحبوحة العيش، ولنقامر أيضًا بالحياة نفسها، ولقد كانت دائمًا – أعني الحياة– أتفه من أن تعوق تقدمنا، أو تغلق على ثورتنا منافذ الانطلاق، وكان الله معنا فنجحنا وبقيت لنا الحياة.

لقد عرفت الآن – وما أظنك كنت تجهل– من نحن.. وبقى أن تعرف ماذا نريد..؟

وما نريده موجود في بواعث ثورتنا، وبواعث ثورتنا لا يمكن أن تكون قد نسيت.

أنها ذلك الضيم الذي كان الشعب يشرب كأسه حتى الثمالة صباحًا مساءً على أيدي قلة من أعدائه والدخلاء عليه.

وأنها ذلك الفقر الأسود الذي اجتاح أغلبية الشعب بغلظة لا ترحم، لحساب قلة من المترفين لم يتقنوا في الحياة شيئًا كما أتقنوا امتصاص الدماء.

وأنها ذلك الخوف الممقوت الذي سيطر على الناس إلى الحد الذي جعلهم يكادون

يخشون التحدث، حتى إلى أنفسهم، لكي لا تلمحهم من عيون الطغاة عين، أو تسمعهم من آذانهم أذن.

وأنها ذلك الضعف أو الاستضعاف الذي طوى الشعب طيًا، وجعله لا يكاد يصدق تاريخه القديم، ولا يكاد يثق بحاضره، ولا يكاد أن يكون في مستقبله أمل معروف.

من أجل هذا كله كانت ثورتنا، وبات مفهومًا أننا لم نرد بها إلا القضاء على كل هذا، ولقد بدأنا فألقينا بالملك الغشوم إلى عرض البحر؛ إذ كان ملكًا يمثل في نظر الشعل كل المعاني التي يمقتها، وكل الأخطار التي يخشاها، وكل المفاسد التي يحاول أن ينجو بنفسه منها.

ولقد كان هناك من يحبذ الخلاص من حياة ذلك الملك، ولكن ثورتنا التي كانت ولا تزال وستظل بيضاء طيبة أبت هذا على نفسها، أبت أن تريق قطرة واحدة من الدماء حتى ولو كانت دماء ملك غادر يبيحها الثأر لكرامة الوطن.

وكان هذا العمل الأول هو حجر الزاوية في كل ما نريد، فنحن نريد أن نكون شعبًا محررًا من الخوف، شعبًا يسود نفسه بنفسه.

ونريد أن نكون شعبًا محررًا من الفقر والعوز، لا يذل الإقطاعيون كرامته، ولا يتحكم السفهاء في عنقه، ولا يكيفون مصيره حسب ما تشاء لهم الأطماع الحقيرة، والهوى البغيض.

ونحن نريد أن نكون شعبًا حرًا قويًا يملك في يده زمام أمره، فلا يعبث بهذا الزمام محتل، ولا يشارك في إدارته دخيل.

ولم يكن هذا كله ولا شيء منه يمكن أن يتحقق، وهذا الملك رأس الحربة - حربة الفساد أعني- باق في مكانه ومن هنا بدأنا به، ولسوف نثني بالاستعمار، أما ما يقع في الطريق بين ذلك الملك والمستعمرين أسناده فليس إلا صفحات صغيرة في كتاب الفساد الأسود، وقد مزقنا - بحمد الله- الغلاف الأول لذلك الكتاب - أعني الملك- ولسوف نمزق الغلاف الثاني عما قريب، وبعد ذلك لا تستطيع أوراق الفساد - بعد نزع الغلافين والدبابيس التي تربطهما ببعضهما إلا أن تتهاوى واحدة في إثر الأخرى.

نحن نريد هذا بإخلاص وبعزم وبيقين، ولا نشك لحظة في أننا واصلون إلى ما نريد، فقد قالوا قديمًا «على قدر أهل العزم تأتي العزائم»، وأن لنا في عزيمتنا – نحن الشعب– ما يجعلنا نثق في أننا، أو في القليل، أولادنا سيتمتعون بحياة حرة كريمة، قوامها اعتزاز الفرد بنفسه، واعتزازه بعيشه، واعتزازه بالوطن الذي ينتسب إليه، ولكن أليس دون ذلك صعاب..؟!

نعم.. وألف نعم، هناك مئات من الصعاب يغرسها في طريقنا أولئك الذين يكرهون لنا أن نتمتع بشيء من هذا الذي نريده، وهناك مئات من الصعاب يغرسها في طريقنا أولئك الذين يكرهون لنا أن نتمتع بشيء من هذا الذي نريده، وهناك مئات من الصعاب يغرسها في طريقنا أولئك المستعمرون الذين يخشون لحظة ننقض فيها عليهم، ونصفي حسابنا معهم.

وهناك مئات من الصعاب يغرسها في طريقنا أولئك الذين اعتادوا من العيش رخاءه، ولم يعرفوا من التضحية حتى ولا قشورها، ولم يعد يهمهم إلا أن نفرش لهم الأرض ببساط وردي، وتمتلئ بطونهم حتى تختنق منهم الأنفاس.

ولكنا – ما مضينا بعيدًا– غالبنا قبل هذه المصاعب مصاعب أخرى خطيرة فقلبناها، وصارعنا قوى الظلم فصرعناها، مما يجعلنا نثق دون أن يكون في ذلك جنوح إلى الغرور أو ميل مع الزهو، إننا سنقهر ما جد وكل ما يجد من مصاعب، وأننا سنمضي في طريقنا قدمًا إلى تحقيق ما نريد، وأننا سنحققه عن آخره بعون الله الذي كان معنا في ماضينا، والذي نثق بأنه لا يزال معنا، وبأنه سيظل معنا لأننا نحن لن نتخلى عنه، ولن نتخلى عن قيم رسمها لنا، وكنا بها من أشد المؤمنين.

الذئب أرحم[1]

ونختار من كتب الدراسات النفسية كتابًا قيمًا عن نفسية الحيوان. إذا وجدت بين يدي كتابًا عن النفسية الإنسانية، وكتابًا عن طبائع الحيوان فقليلاً ما يساورني التردد في البدء بالكتاب الذي يعني شيئًا عن طبائع الحيوان.

(1) عباس محمود العقاد: يوميات العقاد، الناشر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ص80، 81.

ولا أميزه بالتقديم لأنني أفضل الحيوان على الإنسان، وإن جاز هذا في عرف المؤمنين بالتطور والقائلين باحترام الأجداد والأسلاف..! كما ذكر أستاذنا العقاد في كتابه اليوميات.

كلا..! لا أبدأ بطبائع الحيوان لأنها أفضل من خلائق الإنسان، ولكني أبدأ بها لأنها في رأيي كالمسودة التي تكشف لنا المقاصد الخفية قبل التنقيح والتعديل، وأبدأ بها لأنها أبسط من التركيبة الإنسانية التي تخدعنا ونغالط فيها أنفسنا، ولا خداع ولا مغالطة في طبائع الحيوان الأبكم، من طريق الكلام أو غير الكلام.

صاحب هذا الكتاب الدكتور كونراد لورنز مرجع موثوق به في لغة الطير والسباع وسائر الأحياء.

واسم كتابه «خاتم سليمان»؛ لأن سليمان الحكيم كان يعرف لغة الطير بفضل هذا الخاتم المعجز، وصاحبنا يحب أن يزعم أنه قد عثر بنسخة من الخاتم القديم مفرغة في قالب حديث يفهم أحياء هذا الزمن كما كان سليمان يفهم أحياء زمانه، ولا فرق في النهاية بين الفريقين.

وليس في المختصين بدراسة الحيوان من ينكر على الرجل دعواه، فإنه يستطيع أن يناغي كل طائر بلهجته وخصائص نطقه فيجيبه الطائر ويصدع بأمره، ويتفق أحيانًا أن يفاجئه بعضهم وهو يخاطب الأوز سهوًا بلغة البط أو البجع أو طيور الماء، فيسرع معتذرًا كأنه يخاطب إنسانًا بلسان غير لسانه: عفوًا.. عفوًا.. إنما أردت أن أقول كواك.. كواك..!

هذا السليمان الحديث يروي لنا تجاربه مع الأحياء الضارية المخيفة، والأحياء الوادعة الأليفة، ثم يخرج منها بنتائج محققة لا موضع فيها للفلسفة ولا للمجاز والكناية، وإنما هي صور حرفية لما رآه وأعاد رؤيته سنوات بعد سنوات.

من تجاربه أن الحمامة لا ترجع عن خصمها إذا حبست معه في قفص واحد حتى تجهز عليه، وأن السباع عامة تجري على سنة غير هذه السنة في صراعها مع أبناء نوعها، فلا يعتدي الذئب على الذئب الذي يقاتله إذا استسلم له هذا وطأطأ أمامه بعنقه ليكشف له مقتله، وهو قادر على قتله بعضة واحدة لو شاء.

ولكنه لا يشاء، ولم يحدث قط شذوذ عن هذه السنة في كل ما شاهده صاحب الكتاب أو سمع به من زملائه في هذه التجارب العلمية.

ولا يجزم الرجل بتعليل لهذه العادة العجيبة، ولكنه يقول على سبيل الترجيح إن سلاح الذئب مركب في جسمه، وإن كل تركيبة في جسم الحيوان فإنما يراد بها حفظ النوع، وتنتهي مهمتها إذا فرغ الحيوان من الدفاع عن نفسه، ولو أن الوحش قتل كل وحش من نوعه يستسلم له في صراعه لانقرض النوع بعد بضعة أجيال وانعكست الآية من تزويده بذلك السلاح.

وهنا يسمح العالم لنفسه بقليل من الفلسفة، فينتقل من عادة الحيوان إلى عادة الإنسان في الحروب بين القبائل والأمم، ويبدو له أن المصيبة مع هذا الإنسان أن سلاحه غير مركب في بنيته وأنه يصنعه بيديه ليقتل به عدوه، فلا يقتنع بالدفاع ولا يمنعه مانع أن يشتط غاية الشطط في استخدام السلاح.

وسألته صحفية نمساوية أن يكتب لها فصلاً عن «التسليح بن الإنسان والحيوان» فكتبه وختمه بهذه السطور..!

«سيأتي اليوم الذي تقف فيه الأمم فريقين متناجزين ويواجه كل فريق منهما فرصة سانحة للقضاء على عدوه، وسيأتي اليوم الذي ينقسم فيه نوع الإنسان بين معسكرين متناحرين، فهل تراه يسلك يومئذٍ مسلك الحمائم أو مسلك الذئب..؟».

وظاهر أن الأمل الوحيد مرتهن بحكمة الإنسان وإيثاره مسلك الذئب على مسلك الحمامة.

وصدق أبو العلاء حكيم كل زمان حيث قال:

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت ... في الصالحات كظلم الصقر والبازي

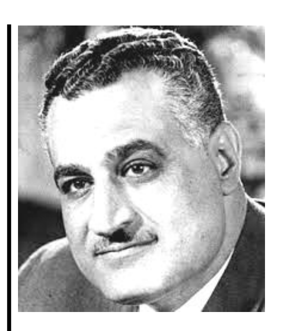
ولم يخل في حكمته من محاباة؛ لأنها على قول سليمان الحديث أظلم من الصقور والبزاة..!

وهكذا.. كان دأب المستعمر الإنجليزي مع مصر التي احتلتها عام 1882م عنوة واقتدارًا.. كانت إنجلترا تريد أن تفعل مع مصر ما فعله الذئب مع قرينه الذئب، تكشر

عن أنيابها وتحتل أرضها وتعيث بين أرجائها غدرًا وغلاً وعدوانـًا، والشـعب المصـري لها بالمرصاد لا يألو جهدًا في تحـديها، ومجابهتهـا، بـل محاربتهـا دون أن يكـون لديـه وتحت يديه السلاح البتار الذي يواجهها به سوى سلاح الوطنية، وحـب الـوطن الـذي تملكه ، واستقر في سويداء قلبه، واعتمل في عقلـه وبـذل في سـبيل ذلـك كـل مـرتخص وغال.

وكم سقط من الشهداء الأبرار، وسالت دماء الأخيار في سبيل ذلك، حتى إن مؤرخـًا كبيرًا وهو «عبد الرحمن الرافعي» سجل في كتابه في أعقاب ثورة 1919م: «أن عدد القتلى من الشهداء فاق عدد الجرحى ».

▪▪ كيف فاجأ عبد الناصر صديقه هيكل ليلة 23 يوليو [1]



1918 - 1970

نفاذه إلى عالم الكبار لم يكن بمحض الصدفة، وإنما جاء نتيجة روح المغامرة التي تحلى بها، والتي ميزته عن باقي زملائه من أبناء المهنة، فهو من قطع في سبيل الحصول على المعلومة عشرات الكيلو مترات، وهو من عرض نفسه لنيران الحرب رغبة في الانفراد، بعد أن قرر عيش حياة غير تقليدية، فظفر بمكانة لم يسبقه لها أحد من صحفيي الوطن العربي.

الصحفي محمد حسنين هيكل، أو «الجورنالجي» كما لقبه البعض، حرص على توثيق ما شهد عليه من أحداث بشكل دوري.

ولعل أبرز ما تركه لنا «الأستاذ» من توثيق لأهم مرحلة في تاريخ مصر الحديث، كان تسجيل صوتي مدته 20 ساعة مع الكاتب فؤاد مطر، الذي كان قريب الصلة بكل ما يجرى في مصر منذ 1962م، وفيه تعرفنا على بداية علاقة الصحفي الشاب محمد حسنين هيكل بالصاغ جمال عبد الناصر، والتي تحولت فيما بعد إلى صداقة وطيدة، كانت مصدر حنق باقي الصحفيين على «هيكل».

(1) عمر حسن: جريدة التحرير، تحت عنوان أحداث ووقائع، العدد (1573)، بتاريخ 25 يوليو 2017م، ص2.

في صيف عـام 1948م، وفي أثنـاء اشـتراك مصـر في حـرب فلسـطين، أصـدر وزيـر الحربية آنذاك محمد حيدر باشا قراره بألا يرافق الصـحفيون الجنـود في تلـك الحـرب، لكن «هيكل» استثنى نفسه من القرار، وركب الطائرة متجهًـا إلى عمـان، ومـن هنـاك إلى القدس، ومن القدس إلى بيت لحم، ومنها إلى الخليل، لينضم إلى قوات البطل أحمد عبـد العزيز، ويكون بذلك الصحفي الوحيد الذي كسر قرار وزير الحربية وسـافر مـن تلقـاء نفسه.

أثناء عودته إلى القدس برفقة البطل أحمد عبد العزيز داخـل سيارة «جيـب»، توقفـت السيارة بسبب معركة دائرة بين كتيبة مصـرية وأخـرى صـهيونية، قـرب منطقـة «عـراق سويدان»، فنزل من السيارة وتحـدث إلى الجنـود المشـاركين في المعركـة بعـد انتصـار الكتيبة المصرية، فأخبروه أن قائد العملية هو الصاغ جمـال عبـد الناصـر، رئـيس أركـان حرب الكتيبة السادسة.

ذهب هيكل لرؤية عبد الناصر، فوجده مستلقيًا على بطانية في استعداد للنوم، فجلس معه ثلث ساعة، ولم يحصل على معلومة تفيده كصحفي؛ لأن الأخير رفض أن يـدلي بـأي حديث لغضبه من تغطية الصحافة المصرية للحرب، لكنـه التقـى بـه مـرة أخـرى قبـل العودة إلى القاهرة، وسنحت الفرصة هذه المرة لتبادل الحديث؛ لأن عبـد الناصـر كـان مهتمًا بتحقيقات هيكل عن القضية الفلسطينية.

تجدد اللقاء بينهما بعد العودة إلى القاهرة، حيث تردد عبد الناصر على هيكل أكثر من مرة في مكتبه بـ«أخبار اليوم»، فبدأت العلاقة تتعمق بينهما إلى حد ما.

وفي يوم 18 يوليو 1952م التقى هيكل بعبد الناصر في منزل اللـواء محمـد نجيـب، لمناقشة أزمة حل مجلس إدارة نادي الضباط، وكان معه عبد الحكيم عامر.

وفي هذا المجلس دارت مناقشة حـول وضـع الجـيش، أكـد خلالهـا «هيكـل» عـلى ضرورة أن يحمي الجيش نفسه على الأقل من بـراثن الملـك فـاروق، فقـال جمـال عبـد الناصر: «هل يعني ذلك أن يقوم الضباط بانقلابات كتلك التـي حـدثت في سـوريا..؟»، فرد هيكل: «أنا لست مع فكرة القيام بانقلاب»، وبعد جدًال انتهت المناقشة.

ولم يكن يعلم هيكل آنذاك أن جمال عبد الناصر سيكون قائـدًا لحركـة الضـباط التـي

ستطيح بالملك بعد أيام قليلة.

وفي ليلة 23 يوليو 1952م، كان هيكل في منزل اللواء محمد نجيب، فحضر إليه ضابط من المخابرات يدعى سعد توفيق، واصطحبه إلى مبنى قيادة الجيش، وكان أول شخص التقى به هو عبد الحكيم عامر، والذي أخبره قائلاً: «خلاص، القاهرة كلها سيطرنا عليها».

وتابع عامر بقوله: «صاحبك مستينك فوق»، وبعدما صعد هيكل وجد أمامه جمال عبد الناصر، فسأله: «إيه اللي حصل..؟»، فأجابه ناصر: «يعني لسه مش فاهم..! مش مهم حصل إيه، المهم إننا صممنا ونفذنا وأكدنا إن في مصر شباب رفضوا المهانة واتحركوا»، وكانت هذه بداية علاقة هيكل الحقيقية بالسلطة في مصر، والتي امتدت حتى وفاته في فبراير الماضي.

ثورة 23 يوليو 1952م

يوم 25 يناير 1952م حدثت مواجهة بين القوات البريطانية وشرطة الإسماعيلية أدت إلى مقتل أربعين من رجال الشرطة المصرية بالرصاص، ودارت أعمال شغب في القاهرة في اليوم التالي، مما أسفر عن مقتل 76 شخصًا، بعد ذلك نشر ناصر برنامجًا من ست نقاط لمصر في مجلة روزاليوسف لتفكيك الإقطاع والقضاء على النفوذ البريطاني.

وفي مايو 1952م تلقى جمال عبد الناصر كلمة تقول إن الملك فاروق قد عرف أسماء الضباط الأحرار وسيقوم بإلقاء القبض عليهم، فقام عبد الناصر على الفور بتوكيل مهمة التخطيط للاستيلاء على الحكومة إلى زكريا محيي الدين بمساعدة وحدات الجيش الموالية للجمعية.

كان الضباط الأحرار يقولون إن نيتهم ليست تثبيت أنفسهم في الحكومة، وإنما إعادة إنشاء دولة ديمقراطية برلمانية، لم يعتقد عبد الناصر أن ضابطًا من ذوي الرتب المتدنية مثله (مقدم) من شأنه أن يكون مقبولاً من قبل الشعب المصري، واختار لذلك محمد نجيب ليكون قائدًا للثورة (اسميًا).

انطلقت الثورة يوم 22 يوليو وأعلن نجاحها في اليوم التالي، استولى الضباط الأحرار

على جميع المباني الحكومية، والمحطات الإذاعية، ومراكز الشرطة، وكذلك مقر قيادة الجيش في القاهرة، وكان العديد من الضباط المتمردين يقودون وحداتهم، ارتدى ناصر ملابس مدنية لتجنب القبض عليه عن طريق النظام الملكي، وفي خطوة لدرء التدخل الأجنبي، أخبر ناصر الولايات المتحدة والحكومة البريطانية قبل يومين من الثورة عن نواياه، واتفق معهما على عدم مساعدة فاروق، وتحت ضغط من أمريكا، وافق جمال عبد الناصر على نفي الملك المخلوع مع احتفال تكريمي يقام له.

■■ الثورة



1918 - 1970

ثورة 23 يوليو ثورة بيضاء، لم تتحول إلى أشلاء ودماء بل كانت ثورة عالمية استمدت عالميتها من عروبتها، فلم تصرفها النزعة الفردية عن النعرة العربية ، ولم تلهها مآرب الآحاد عن مصالح الجماعات.

لم تقع في المحظور وتحول كل مدن مصر إلى «مدينة الدم» على حد تعبير قصة آنا كينجسفرد **The City of Blood**، وتحولت من بعد كونها ثورة مصرية إلى ثورة عالمية كان لها تأثيرها على قارات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وأضحت رائدة الثورات في هاتيك القارات.

وأصبحت محفزة للحريات التي افتقدتها بلادنا منذ أن حط المستعمر عليها وعض عليها بنواجذه مستغلاً خيراتها، سالبًا حرياتها، ناهبًا ثرواتها الطبيعية التي تزخر بها أراضيها، نائيًا بكلكله على رقابها، وأعناق شعوبها، ملوثًا أرضها بأقدامه.

لم يعي المستعمر أن الحرية هي أثمن ما خلق الله للإنسان، بل وأيضًا للحيوان.

وهذه هي قصة أو رواية «الذئب الأبيض» التي كتبتها جاك لندن، وهي تحكي قصة ذئب حاولت إحدى العائلات أن تستأنسه مستخدمة معه شتى الطرق، بيد أنها باءت

بالإحباط وفشلت في مساعيها تلك، فقد ظل الذئب تواقـًا إلى الحرية مشتاقـًا إلى العودة إلى الأدغال والغابات ليعيش مع الحيوانات الأخرى.

تزامنت عودة عبد الناصر لمصر مع انقلاب حسني الزعيم في سوريا، وقد شجع نجاحه الواضح عبد الناصر في مساعيه الثورية، بعد فترة وجيزة من عودته، استدعى رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادي عبد الناصر لاستجوابه بشأن شكوك بأنه تم تشكيل مجموعة سرية من ضباط المعارضة، وقد نفى عبد الناصر هذه المزاعم بشكل مقنع، وكان عبد الهادي أيضًا مترددًا في اتخاذ تدابير جذرية ضد الجيش، خصوصًا أمام رئيس أركانه، الذي كان حاضرًا أثناء الاستجواب، وأفرج عن عبد الناصر في وقت لاحق، ودفع هذا الاستجواب عبد الناصر إلى تسريع أنشطة جماعته.

بعد سنة 1949م، اعتمد الفريق اسم «حركة الضباط الأحرار» قام عبد الناصر بتنظيم «اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار» وتألف من أربعة عشر رجلاً من مختلف الخلفيات السياسية والاجتماعية، بما في ذلك ممثلين عن الشباب المصريين، والإخوان المسلمين، والحزب الشيوعي المصري، والطبقة الأرستقراطية، انتخب ناصر رئيسًا للجنة بالإجماع.

في الانتخابات البرلمانية لسنة 1950م فاز حزب الوفد بأغلبية المقاعد، ويرجع ذلك إلى غياب جماعة الإخوان المسلمين، الذي قاطعوا الانتخابات، وبدأت الاتهامات بالفساد ضد سياسيي حزب الوفد تطفو على السطح، وانتشرت الشائعات والشكوك حولهم، مما جلب الضباط الأحرار إلى واجهة الحياة السياسية المصرية، وبحلول ذلك الوقت، كان عدد أعضاء الجمعية قد ارتفع إلى 90 عضوًا، ووفقـًا لخالد محيي الدين: «لم يعرف أحد جميع أعضاء، ومكانهم في التسلسل الهرمي للجمعية باستثناء عبد الناصر».

ورأى عبد الناصر أن الضباط الأحرار لم يكونوا على استعداد للتحرك ضد الحكومة، وظل نشاطه مقتصرًا لمدة تقارب العامين على تجنيد الضباط ونشر المنشورات السرية.

وفي 11 أكتوبر سنة 1951م ألغت حكومة الوفد المعاهدة البريطانية المصرية لعام 1936م، والتي أعطت السيطرة لبريطانيا على قناة السويس حتى سنة 1956م، ووفقـًا

لأنور السادات: «قرر عبد الناصر حينها شن حملة اغتيالات على نطاق واسع».

وفي يناير عام 1952م، حاول عبد الناصر وحسن إبراهيم قتل حسين سري عامر ببنادقهم الرشاشة، بينما كان يقود سيارته في شوارع القاهرة، وبدلاً من قتل الضابط، أصاب أحد المهاجمين امرأة مارة بريئة، وذكر ناصر أنه بكى لذلك، وجعله هذا الأمر يعدل عن رأيه.

كان سري عامر مقربًا من الملك فاروق، ورشح لرئاسة نادي الضباط، وكان ناصر مصممًا على استقلال الجيش عن النظام الملكي، وطلب من محمد نجيب الانضمام إلى الضباط الأحرار، عن طريق عبد الحكيم عامر، وكان محمد نجيب ضابطًا شعبيًا، قدم استقالته إلى الملك فاروق في عام 1942م، وأصيب ثلاث مرات في حرب فلسطين.

رئاسة مجلس قيادة الثورة

في 26 أكتوبر 1954م، حاول محمود عبد اللطيف أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين اغتيال عبد الناصر، عندما كان يُلقي خطابًا في الإسكندرية للاحتفال بالانسحاب العسكري البريطاني، كان المسلح بعيدًا عنه بـ 25 قدم (7.6 متر)، وأطلق ثماني طلقات، ولكن جميع الطلقات لم تصب ناصر، اندلعت حالة من الذعر بين الجمهور، لكن ناصر رفع صوته وطلب من الجماهير الهدوء وصاح بما يلي: «استقبال الحشود لناصر في الإسكندرية بعد يوم واحد من إعلانه الانسحاب البريطاني ومحاولة اغتياله، 27 أكتوبر 1954م».

ولد الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر في 15 يناير 1918م، وقد ولد في منزل متواضع يشبه منازل ملايين المصريين في 18 شارع أنواتي بحي باكوس بالإسكندرية، إلا أنه ينتمي لأسرة مصرية أصيلة نشأت في قرية بني مر التي تبعد ثلاثة كيلو مترات شمال شرق مدينة أسيوط، وهي إحدى قرى الصعيد الصغيرة، وكان والده موظفًا مصريًا صغيرًا في مصلحة البريد، ربى الأسرة بكاملها من راتبه الحكومي، بما يعني أن الأسرة بكاملها عاشت حياة متواضعة، مثل كل المصريين فشعرت بآلامهم، خاصة أن والده بحكم عمله كان دائم الترحال والانتقال من مدينة لأخرى، ومن قرية لأخرى، ومن محافظة أو مديرية لأخرى وفقًا لما كان يُطلق وقتها، وهو ما مكن الزعيم من التعرف

عن قرب على واقع الحياة المصرية، وعن حالة البؤس والفقر التي يعاني منها المصريون بوصفهم أبناء الأغلبية أو أبناء الـ 99.5٪ من سكان مصر كما تعود أن يصفهم[1].

والمتابع لسيرة جمال عبد الناصر يدرك مدى ولعه في شبابه بكتب التاريخ، وخاصة تاريخ العرب ومصر في القرن التاسع عشر، وإعجابه بشخصيتين أثرتا في حياته العملية بعد ذلك هما شخصية الرسول الكريم ﷺ؛ ولذا أدرك مبكرًا أن القيمة العليا للإسلام هي العدالة وليست المساواة، وأن المساواة في الحقوق والواجبات مجرد خطوة من خطوات أخرى لبناء نظام عادل، والشخصية الأخرى هي شخصية الزعيم الوطني مصطفى كامل الذي ألهب حماسه الوطني بمقالته النارية، وذلك دون أن ننفي تأثره بأفكار آخرين قرأ لهم وساهموا بقدر في تكوينه الفكري مثل علاقة الدين بالدولة التي كونها من كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي، وأفكار فولتير عن فساد الحكم والكنيسة معًا، وفيكتور هوجو وقصته عن «بائعة الخبز»، وتشارلز ديكنز وكتابه «قصة مدينتين»، وكلا الكاتبين أبدعا في وصف قسوة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لفقراء المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

كل هذه الأفكار ساهمت في تكوين الرؤية السياسية لعبد الناصر - رحمه الله- تلك الرؤية التي تكونت لديه شيئًا فشيئًا، والدليل على ذلك أن رؤيته لتحرير فلسطين تكون لديه أثناء حصار الفالوجا، كما عبر عن ذلك صراحة في كتابه «فلسفة الثورة» الصادر في عام 1954م أي بعد قيام الثورة بعامين فقط، مؤكدًا أن تحرير فلسطين يبدأ من تحرير العواصم العربية، وحتى نُلم بمختلف أبعاد رؤية عبد الناصر ينبغي أن نُلم بهذه الرؤية على المستويين الداخلي والمستوى الخارجي معًا.

فعلى المستوى الداخلي اتفق عبد الناصر مع مجلس قيادة الثورة على المبادئ الستة للثورة، وهي مبادئ انقسمت إلى ثلاثة مبادئ تستهدف إقامة مجتمع ودولة قوية مثل بناء جيش قوي، وإقامة ديمقراطية سليمة، وتحقيق العدالة الاجتماعية التي أصبحت اليوم مطلبًا من مطالب الحوكمة، والأهداف الثلاثة الأخرى تستهدف التخلص من عوامل

(1) السفير د. عزمي خليفة: في مجلة المصور، إصدار دار الهلال، العدد (4815)، 18 يناير 2017م، ص76 وما بعدها.

ضعف المجتمع والدولة، مثل التخلص من الاستعمار والرجعية وسيطرة الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، فقد أدرك عبد الناصر واقع مصر من التنقل مع والده عبر مديريات مصر وقراها، ولاحظ أن مشكلة مصر كانت تنقسم إلى بُعد داخلي يتطلب إعادة توزيع الثروة في البلد، وبُعد خارجي يتمثل في ضرورة تحقيق الاستقلال والقضاء على الاستعمار وأعوانه.

فإعادة توزيع الثروة كانت ضرورة اجتماعية حتمية؛ لأنه لاحظ أن 0.5٪ من سكان مصر يتحكمون اقتصاديًا في ثروة مصر، ويحرمون منها 99.5٪ من مجمل الشعب، فربط بين هذا التوزيع غير العادل للثروة وفساد الحياة السياسية وما أدت إليه من عدم استقرار سياسي، ونشأة نخبة سياسية من رجال المال والأعيان مرتبطة بالقصر وبالاستعمار البريطاني، وكان لحادث فبراير 1946م أثره الكبير على التوصل لهذه النتيجة حينما قبل النحاس باشا زعيم الوفد تشكيل الوزارة على فوهات مدافع الدبابات التي أحاطت بالقصر الملكي في عابدين، تنفيذًا لمطلب السفير البريطاني من الملك الأسبق فاروق، ولم يشفع لحزب الأغلبية المصرية أنه تعرض لمؤامرة الملك تارة والسفارة البريطانية تارة أخرى، ولم يتمكن من حكم البلاد طوال المرحلة الليبرالية من 1919م وحتى قيام الثورة في يوليو 1952م إلا سبع سنوات متفرقة رغم كونه أكبر الأحزاب شعبية.

وقد تمت إعادة توزيع الثروة من خلال قانون الإصلاح الزراعي، ثم استكمال ذلك من خلال مجانية التعليم فالذي تولى الإنفاق عليه الدولة، وهو وضع سائد الآن في أعتى الدول الرأسمالية مثل أمريكا وألمانيا وانجلترا وفرنسا، ثم استكمل إعادة توزيع الثروة من خلال أكبر عملية تصنيع، وأكبر عملية تمصير، ثم أكبر عملية تأميم، ورغم قسوة بعض هذه الإجراءات أو كلها إلا أن المتضرر هنا لا يزيد عن نصف في المائة من السكان، كما أن هذه الإجراءات كانت ضرورة لا بد منها لإعادة تشكيل بنية المجتمع المصري.

واتبع عبد الناصر منهج التخطيط الاقتصادي، وكانت الخطط الاقتصادية خمسية بهدف مضاعفة الدخل الوطني مرة كل عشر سنوات، ورغم حرب 1956م ونكسة

1967م إلا أنه نجح في بناء واستكمال أكبر مشروعين اقتصاديين في القرن العشرين وهما السد العالي ومجمع ألومنيوم نجع حمادي، إضافة للحديد والصلب وصناعة السيارات، وكان الوضع الاقتصادي أفضل كثيرًا من الأوضاع اليوم، فكل ما تقدم ساهم في تغيير التركيب الاجتماعي للمجتمع وساهم في تكوين طبقة وسطى استطاعت الحفاظ على الدولة المصرية قوية رغم أنها كانت تدفع مليون جنيه يوميًا على الجبهة، وإعادة بناء الجيش من 1967م إلى 1971م أي حوالي 2.5 مليون دولار يوميًا بمعايير ذلك الزمان.

أما عن الرؤية الخارجية فقد لعبت فيها القضية الفلسطينية دورًا محوريًا، فقد توصل خلال حصار الفالوجا إلى أن تحرير فلسطين لن يتم بالحرب فقط، وإنما سيبدأ بتحرير العواصم العربية أولاً؛ أي يكون القرار العربي الخاص بفلسطين واحدًا؛ أي يبدأ بالاتفاق العربي أولاً على أهمية ومركزية القضية الفلسطينية للسياسة العربية عامة، ورغم وفاته المبكرة إلا أنني اليوم أحمد الله على ذلك حتى لا يشاهد الأمة العربية التي سعى إلى بنائها وهي تقف ضد بعضها البعض.

فتجد دولاً خليجية مثل قطر تصطف مع دول غير عربية ضد دولة عربية شقيقة لها دورها العربي، وإحدى مكونات القوة الضاربة للدفاع عن الأمن القومي العربي بالتبادل مع العراق إلى جانب مصر وسوريا والجزائر، وليرى هواة الحكم في دولة أخرى وهم يدخلون بلدهم في عدة مشكلات في وقت واحد، وخرجوا من حفرة إلى منزلق إلى هوة سحيقة وهم لا يعرفون إلى أين المصير خلافًا لرؤيته السابق الإشارة إليها.

وهذا الوضع أسوأ كثيرًا مما واجه في حياته بما في ذلك نكسة 1967م، التي أوجد لها حلاً تمثل في حماية النظام الجمهوري الوليد في اليمن مقابل سحب الجيش المصري منها، وساعده في ذلك الملك فيصل - رحمه الله - بحسن إدراكه لمخاطر ترك مصر وسوريا والأردن لمواجهة نتائج النكسة بمفردهم فانضم للتعاون العربي، وتم تنظيم العلاقة بين دول المواجهة من جانب ودول الدعم من جانب آخر، والمهم أنه نجح في جعل فلسطين قضية العرب الأولى اعتبارًا من 1967م رغم أنه عام 1955م أكد للعرب جميعًا أنه زعيم هذه الأمة دون منازع على نحو ما سيأتي.

كان الركن الثاني لرؤية عبد الناصر في الشئون الخارجية فكرة دوائر أولويات سياسة مصر الخارجية، فالدائرة ذات الأولوية المطلقة هي الدائرة العربية باعتبارها البيئة

السياسية الاستراتيجية التي تؤثر بصورة مباشرة على نظام الحكم في مصر، تليها الدائرة الإفريقية؛ لأنه أدرك أن هدف الثورة الخاص بالتحرر من الاستعمار لن يؤتي ثماره إلا بتحرير كل شبر في العالم من الاستعمار، والأولوية لدول الجوار العربي في إفريقيا، وهو ما تحقق فإذا كانت موجة التحرير في إفريقيا قد اجتاحت القارة في الستينيات، فقد تم تحرير كل دول الخليج في مطلع السبعينيات، فإفريقيا ليست نهر النيل فقط، إفريقيا بالنسبة لمصر انتماء وحضارة وثقافة والأهم مسئولية، ولم يدرك ذلك سواه من زعماء مصر.

وحسنًا فعل الرئيس السيسي بتكوين جيش وأسطول الجنوب؛ لأننا تعودنا تاريخيًا فيما مضى أن يأتينا الخطر من الشمال والشمال الغربي، ورغم التنبيه مرارًا وتكرارًا إلى أن الخطر يمكن أن يأتي من الجنوب أيضًا، وفقًا لنظرية رئيس الوزراء البريطاني تشرشل للأمن القومي المصري حينما شبه نهر النيل بشجرة ضخمة جذورها في المنابع، وساقها في السودان (بلد ممر وليس منبع)، وأوراقها في مصر، ومن ثم فاختراق الأمن القومي المصري لن يأتي إلا من خلال الضغط على مصر في المنابع.

ومع انتصاف عام 1995م تأكدت هذه النظرية، فقد أوضحت التطورات حقيقتين: أولهما أن الخطر يمكن أن يأتي من الجنوب أيضًا، وكان ذلك نتيجة محاولة اغتيال الرئيس الأسبق مبارك في أديسا بابا، والثانية أن هذا التقدير تأكد فيما بعد حينما قررت إثيوبيا بناء سد النهضة بالمواصفات الحالية، مع الإصرار على ملء الخزان مرة واحدة، بدلاً من ملئه على سبع سنوات مثلاً، وكانت الأولوية الثالثة هي علاقاتنا الخارجية بالدول الإسلامية أو الدائرة الإسلامية.

والجدير بالذكر أن هذه النظرية للدوائر الثلاث للسياسة الخارجية التي صيغت عام 1954م؛ أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بتسع سنوات فقط مازالت الخارجية المصرية تتبعها للآن رغم كل التطورات التي حدثت عالميًا، ومنها سياسة الوفاق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، ثم تصدع الكتلة الشرقية وانهيار الاتحاد السوفيتي، وسيولة النظام الدولي التي بدأت بسيادة القطب الواحد لفترة قصيرة، ثم انتشار القوة في مراكز عديدة بالعالم، ثم التحول للنظام العالمي الشبكي الجديد، ولم

نفكر في صياغة رؤية جديدة للسياسة الخارجية على غرار ما فعلت دول عديدة، وفشلت دعوة أستاذنا جميل مطر في الدعوة لعقد مؤتمر لإعادة صياغة سياسة مصر الخارجية رغم الجهد الذي بذله بعض المهتمين بالأمر.

وكان الركن الثالث في سياسة الأمن القومي العربي، فقد حاول عبد الناصر ربط الأمن القومي العربي من حيث المحتوي بسياسته عن عدم الانحياز، فدعى الدول العربية إلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز إلا أن خلع الثورة للملك فاروق ومغادرته أرض مصر – إلى جانب عوامل أخرى- تركت في نفسية الأسرة المالكة السعودية مرارة استمرت لسنوات، وجاء دعم مصر لثورة اليمن فيما بعد لتزيد هذه المرارة، إلى أن جاء مؤتمر الخرطوم في نوفمبر 1967م ليتمكن أنور السادات الذي كان نائبًا لعبد الناصر من التخلص من هذه المشكلة عن طريق تأمين النظام الجمهوري في اليمن مقابل سحب جيش مصر من اليمن، فأصبح الطريق ممهدًا أمام السعودية لتشارك مصر والجزائر وسوريا في نواة الأمن القومي العربي إلى جانب العراق (تناوبت مع سوريا هذه العضوية لنواة الأمن القومي المصري حسب الظروف)، وباقي الدول العربية.

ولهذا فالموقف الحالي في المنطقة العربية ينذر بالخطر الجسيم؛ لأن سوريا والعراق معًا خارج معادلة الأمن القومي العربي، وبالتالي فالخليج مكشوف جزئيًا والشام مكشوف كليًا من الناحية الأمنية، والسعودية مشغولة بالوضع في الخليج بعد توقيع إيران اتفاقها النووي مع أمريكا في عهد أوباما، خاصة أن إيران تمددت إلى اليمن في خاصرة السعودية، أما الجزائر فوضعها في غاية الحساسية للظروف الصحية للرئيس بوتفليقة، ومحاولات واشنطون المستمرة لزيادة روابط الجزائر بمنطقة الساحل والصحراء ومقاومة الحركات الإرهابية المتوطنة في المنطقة.

في توقيت تسعى فيه تيارات الإسلام السياسي من ليبيا وتونس والدول الإفريقية جنوب خط التماس العربي الإفريقي، إعادة إحياء دورها بعد تأثرها سلبًا بخروج الإخوان من الحكم في مصر، مما أدى لتفتيت الجماعة نتيجة عدة صراعات أهمها صراعات بين أعضاء مكتب الإرشاد وبعضهم، وصراع آخر بين مكتب الإرشاد والتنظيم الدولي، وصراع ثالث بين شباب الجماعة والأجيال القديمة بمن فيهم أعضاء مكتب الإرشاد، وأخيرًا صراع رابع بين الجماعة ككل والمجتمع المصري بما في ذلك

خلافات بينها وبين مختلف تيارات الإسلام السياسي التي سبق وناصرتها من قبل.

وكان الركن الرابع في رؤية عبد الناصر لسياسة مصر الخارجية هو سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، بمعنى ضرورة انخراط مصر في قضايا العالم، وهو المقصود بالحياد الإيجابي، بمعنى عدم اتخاذ مواقف لا الشرق ولا الغرب، أما عدم الانحياز فيعني عدم الدخول في حلفي وارسو والأطلنطي، وعدم الانضمام إلى أي من التكتلات الدولية، وقد بدأت هذه السياسة بثلاث دول فقط هي مصر بقيادة عبد الناصر، والهند بقيادة نهرو، ويوغوسلافيا بقيادة تيتو، إلا أن العضوية اتسعت بالتدريج حتى ضمت مجموعة السبعة والسبعين إليها.

والجدير بالذكر أن هنري كسينجر أصدر واحدًا من أمتع الكتب بعنوان: «النظام الدولي» عام 2014م، واعتبر أن ظهور الإمبراطورية الإسلامية في القرن الرابع عشر إحدى عوامل تغيير النظام الدولي في ذلك الحين، كما اعتبر أن سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز كانت عاملاً آخر لتغيير النظام العالمي في عصر القطبية الثنائية، وهو ما يؤكد مدى تقدم نظام الأولويات الذي وضعه عبد الناصر لسياسة مصر الخارجية، وبعد نظره الذي عبره عنه هنري كسينجر بعد حوالي نصف قرن من وفاته في سبتمبر 1970م.

وكان الركن الخامس في سياساته الخارجية هو دعم حركات التحرر الوطني، ليس بحثاً عن زعامة كما يحلو للبعض الادعاء؛ ولكن لأن اتساع نطاق التحرر من الاستعمار يساعد على التحول إلى الاستقلال السياسي وتحرير العواصم العربية كما ذكرت تفصيلاً من قبل.

رحم الله عبد الناصر بعد نصف قرن من وفاته، فالزعامة تحتاج لرؤية بالدرجة الأولى، وهذه الرؤية قادرة على تحقيق الأهداف وفق مراحل معينة، وتحتاج لعقاب المخطئ وإثابة المجد لتحقيق العدالة الاجتماعية التي نص عليها ديننا الحنيف ولله الأمر من قبل ومن بعد.

■■ حياة عبد الناصر الشخصية



1918 - 1970

في سنة 1944م، تزوج عبد الناصر من تحية كاظم، البالغة من العمر 22 عامًا، ولدت لأب إيراني ثري وأم مصرية، وكلاهما توفيا عندما كانت صغيرة، تعرفت على ناصر من خلال شقيقها، عبد الحميد كاظم وهو صديق لعبد الناصر، وفي سنة 1943م بعد زفافهما انتقل الزوجان إلى منزل في منشية البكري، وهي ضاحية من ضواحي القاهرة، حيث عاشوا لبقية حياتهم.

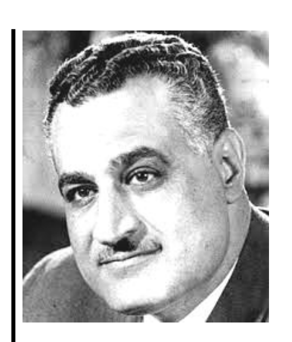
كان ناصر وتحية يتناقشان في السياسة أحيانًا في المنزل، ولكن غالبًا كان يفضل عبد الناصر إبقاء حياته المهنية منفصلة عن حياته العائلية، وكان يفضل قضاء معظم وقت فراغه مع أطفاله، لدى عبد الناصر وتحية ابنتان وثلاثة أبناء: هدى، منى، خالد، عبد الحميد، عبد الحكيم.

على الرغم من أنه كان من دعاة السياسة العلمانية، كان عبدالناصر مسلمًا ملتزمًا، قام بأداء فريضة الحج مرتين، وكان معروفًا بشخصيته الشريفة غير الفاسدة، مما زاد من سمعته بين مواطني مصر والوطن العربي، وكانت هوايات ناصر الشخصية هي التصوير، ولعب الشطرنج، ومشاهدة الأفلام الأمريكية، وقراءة الآداب العربية، اللغة الإنجليزية،

والمجلات الفرنسية، والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية.

كان لعبد النصر القليل من التصرفات الشخصية التي تسببت في مرضه، مثل التدخين والعمل لمدة 18 ساعة في بعض الأحيان، ونادرًا ما كان يقضي العطلات، تم تشخيص حالته بأنه مصاب بداء السكري في أوائل الستينيات، وكان أيضًا مصاب بتصلب الشرايين، وأمراض القلب، وارتفاع ضغط الدم، عاني عبد الناصر من نوبتين قلبيتين (في سنتي 1966م، و1969م)، وفرضت عليه الراحة في الفراش لمدة ستة أسابيع بعد النوبة الثانية، ذكرت وسائل الإعلام الرسمية أن غياب عبد الناصر عن الرأي العام في ذلك الوقت كان نتيجة الإنفلونزا التي اعتورته.

■■ فلسفة جمال عبد الناصر



1918 - 1970

من مذكرات شارل ديجول نقرأ فيها : إن القادة هم الذين يصنعون التاريخ، وهم الذين يصنعون المجد والعظمة لبلادهم.

جاء كتاب فلسفة الثورة الذي كتبه جمال عبد الناصر ينبؤ عن قائد محنك له إلمام كامل بالتاريخ.

يقول عبد الناصر:

.. إن هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ليست محاولة لتأليف كتاب..

ولا هي محاولة لشرح أهداف ثورة 23 يوليو وحوادثها..

إنما هي شيء آخر تمامًا..

إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف..

إنها محاولة لاكتشاف نفوسنا لكي نعرف من نحن وما هو دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات..

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي والحاضر، لكي نعرف في أي طريق نسير..

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف..

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا، لنعرف أننا لا نعيش في جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات..

هذا هو الذي قصدت إليه..

مجرد دورية استكشاف في الميدان الذي نحارب فيه معركتنا الكبرى؛ من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال..

قبل أن أمضي في هذا الحديث أريد أن أقف قليلاً عند كلمة «فلسفة».

إن الكلمة ضخمة وكبيرة.

وأنا أحس وأنا أقف حيالها إني أمام عالم واسع ليس له حدود، وأشعر في نفسي برهبة خفية تمنعني من أن أخوض في بحر ليس له قاع، ولا أرى له على البعد، من الشاطئ الذي أقف فيه، شاطئًا آخر أنتهي إليه.

والحق أني أريد أن أتجنب كلمة فلسفة في هذا الذي سأقوله، ثم أنا أظن أنه من الصعب عليَّ أن أتحدث عن فلسفة الثورة.

ومن الصعب لسببين:

أولهما: أن الحديث عن فلسفة ثورة 23 يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا، وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات.

إن كفاح أي شعب، جيلاً بعد جيل، بناء يرتفع حجرًا فوق حجر، وكما أن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب.

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه، وهو في نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال في ضمير الغيب، ولست أريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ، ذلك آخر ما يجري به خيالي.

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ، في دراسة قصة كفاح شعبنا، فإني سوف أقول مثلاً أن ثورة 23 يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر، منذ بدأ العصر

الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، وفي أن تكون لـه نفسـه الكلمـة العليـا في مصيره.

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذي تمناه، يوم تـزعم السـيد عمـر مكـرم حركـة تنصيب محمد علي واليًا على مصر، باسم شعبها، وقام بمحاولة لم تحقق له الأمـل الـذي تمناه، يوم حاول عرابي أن يطالب بالدستور.

وقام بمحاولات متعددة، لم تحقق له الأمل الذي تمناه، في فترة الغليان الفكري التـي عاشها بين الثورة العرابية وبين ثورة سنة 1919م، وكانت هذه الثـورة الأخيـرة - ثـورة 1919م بزعامة سعد زغلول- محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذي تمناه.

وليس صحيحًا أن ثورة 23 يوليو قامت بسـبب النتـائج التـي أسـفرت عنهـا حـرب فلسطين، وليس صحيحًا كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة.

وهذا اليوم - في حياتي أيضًا- أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة؛ فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودًا قبلهـا، وكانـت منشـوراتهم أول نـذير بتلـك المأسـاة، وكـان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الأسلحة الفاسدة.

بل إن هذا اليوم في حياتي أبعد من يوم 16 مايو سنة 1948م، ذلك اليـوم الـذي كـان بداية حياتي في حرب فلسـطين، وحـين أحـوال الآن أن أسـتعرض تفاصـيل تجاربنـا في فلسطين أجد شيئًـا غريبًا، فقد كنا نحارب في فلسـطين، ولكـن أحلامنـا كلهـا كانـت في مصر.

كان رصاصنا يتجه إلى العدو المرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنـا كانـت تحـوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه، وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز.

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين، واخترقا الحصـار إلى الفالوجـا، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعـين علينا أن نحاول إنقاذه، وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات:

«هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت..؟»

قلت: ماذا قال..؟

قال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي عينيه نظرة أعمق: لقد قال لي: اسمع يا كمال، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر.

ولم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر، وإنما التقيت أيضًا بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل، وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا.

وكانت الفالوجا محاصرة، وكان تركيز العدو عليها ضربًا بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعًا، وكثيرًا ما قلت لنفسي: «ها نحن هنا في هذه الحجور محاصرين، لقد غرر بنا، دفعنا إلى معركة لم نعد لها، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات، وتركنا هناك تحت النيران بغير سلاح».

وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال، وعبر الحدود إلى مصر، وأقول لنفسي: «هذا هو وطننا هناك، إنه فالوجا أخرى على نطاق كبير، إن الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك، صورة مصغرة، وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء، وغرر به، ودفع إلى معركة لم يعد لها، ولعبت بأقداره مطامع وشهوات، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح..!».

وأكثر من هذا، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين، ولم تكن التجارب هي التي قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره، بل إن الأعداء أيضًا لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله.

ومن أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عني ضابط إسرائيلي اسمه «يردهان كوهين»، ونشرتها له جريدة «جويشن أوبزرفر»، وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال:

«لقد كان الموضوع الذي تطرقه جمال عبد الناصر معي دائمًا هو كفاح إسرائيل ضد الإنجليز، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم في فلسطين، وكيف استطعنا أن نجند

الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم».

وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالبًا أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة 1923م - وقد عاد الدستور بالفعل- في سنة 1935م، وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر، وتألفت الجبهة الوطنية سنة 1936م بالفعل على أثر هذه الجهود.

وأذكر أنني في فترة الفوران كتبت خطابًا إلى صديق من أصدقائي - قلت فيه، وكان تاريخه 2 سبتمبر سنة 1935م:

«أخي... خاطبت والدك يوم 30 أغسطس في التليفون وقد سألته عنك فأخبرني إنك موجود في المدرسة، لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ** ﴾ فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم..؟

إن الموقف اليوم دقيق، ومصر في موقف أدق، ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت، فإن بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء..؟»

ثم مضيت في الخطاب إلى آخر، وإذن فمتى ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في أعماقي..؟

وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء، وتكلم أمامي منهم كثيرون، وتكلموا طويلاً.

ومن سوء الحظ أن أحدًا منهم لم يقدر لي أفكارًا، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه، وكفاياته الخلقية وحدها لعمل المعجزات، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود..!

وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمت بعدها أقول لهم: «إن كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة، إن واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله، ولو أنكم كأساتذة جامعات، فكرتكم في طلبتكم، وجعلتموهم - كما يجب- عملكم الأساسي،

لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن.

إن كل واحد منا يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كل جهده، لا تنظرو إلينا، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا في صفوف الجيش كجنود محترفين وإذن لبقينا فيه».

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ولم أشأ أن أقول لهم إنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذي دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم.

ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة في كلية أركان الحرب، وهذا دليل امتيازهم في ناحيتهم كجنود محترفين، وكذلك لما أشأ أن أقول لهم أن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، هم عبد الحكيم عامر، وصلاح سالم، وكمال الدين حسين، رقوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال بفلسطين.

لم أشأ أن أقول لهم شيئًا من هذا؛ لأني لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم إخوتي وزملائي..

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لي أزمة نفسية كئيبة، ولكن التجارب فيما بعد، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية، خففت من وقع الأزمة في نفسي، وجعلتني ألتمس لها كل أعذارًا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامي – إلى حد ما– الصورة الكاملة لحالة الوطن؛ وأكثر من هذا أعطتني الجواب على السؤال الذي قلت إنه طالما راودني ، وهو: «هل كان يجب أن نقوم – نحن الجيش – بالذي قمنا به في 23 يوليو..؟».

والجواب: نعم، ولم يكن هناك مهرب أو مفر..!

وأنا الآن أستطيع أن أقول إننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة، ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان:

- ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه.

- وثورة اجتماعية، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد.

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشري شعوب مرت بالثورتين، ولكنها لم تعثهما معًا، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين؛ أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معًا في وقت واحد.

وهذا التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفًا مختلفة تنافر تنافرًا عجيبًا، وتتصادم تصادمًا مروعًا.

إن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها في سبيل الوطن كله.

والثورة الاجتماعية، من أول مظاهرها، تزلزل القيم وتخلخل العقائد، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادًا وطبقات، وتحكم الفساد والشك ، والكراهية، والأنانية.

وبين شق الرحى هذين، قدر لنا أن نعيش اليوم في ثورتين: ثورة تحتم علينا أن نتحد، ونتحاب، ونتفانى في الهدف، وثورة تفرض علينا – برغم إرادتنا– أن نتفرق، وتسودنا البغضاء، ولا يفكر كل منا إلا في نفسه.

وبين شقي الرحى هذين – مثلاً – ضاعت ثورة 1919م ولم تستطع أن تحقق النتائج التي كان يجب أن تحققها.

ولقد تبدو كلمة «العمل الإيجابي» على الورق كافية لتحل المشكلة، ولكنها في الحياة، وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا، وفي المحن التي كانت تنشب أظفارها في مقدرات وطننا، لم تكن كافية..!

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الإيجابي في تقديري، ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الإيجابي وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضج أعصابي وحدي بالحماسة، وإنما علي أن أنقل حماستي كي تضج بها أعصاب الآخرين.

وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام، وصرخ ورائي كثيرون، ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء

واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور.

ثم أصبح العمل الإيجابي في رأيي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة بيوتهم واحدًا واحدًا تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة، ولكن اتحادهم على كلمة واحدة، كان فجيعة لإيماني، فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة 1936م.

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا فألهبته، وأشعلت النار في خلجاته، فبدأ اتجاهنا، اتجاه جيل بأكمله، يسير إلى العنف.

وأعترف - ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف- أن الاغتيالات السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على أنها العمل الإيجابي الذي لا مفر منه من الإقدام عليه إذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا.

وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله، ورحت أفند جرائمهم، وأضع نفسي موضع الحكم على أعمالها، وعلى الأضرار التي ألحقتها بهذا الوطن، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب أن يصدر عليهم.

وفكرت في اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا، ولم أكن وحدي في هذا التفكير، ولما جلست مع غيري انتقل بنا التفكير إلى التدبير، وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام، وما أكثر الليالي التي سهرتها، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة.

كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة، كانت لنا أسرار هائلة، وكانت لنا رموز، وكنا نتستر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به..!

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه، وما زلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته.

والحق أنني لم أكن في أعماقي مستريحًا إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا.

كانت في نفسي حيرة، تمتزج فيها عوامل متشابكة، عوامل من الوطنية ومن الدين، ومن الرحمة ومن القسوة، ومن الإيمان ومن الشك، ومن العلم ومن الجهل.

ورويدًا رويدًا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر، وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري وأحلامي في هذا الاتجاه.

كنا قد أعددنا العدة للعمل، واخترنا واحدًا قلنا أنه يجب أن يزول من الطريق، ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل، وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد إلى بيته في الليل، ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى إطلاق النار، ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم، ورتبنا تنظيم خطة الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح.

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ، وسار كل شيء طبقًا لما تصورناه.

كان المسرح خاليًا كما توقعنا، وكمنت الفرق في أماكنها التي حددت لها، وأقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول، وانطلق نحوه الرصاص، وانسحب فريق التنفيذ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة، وبدأت عمليات الإفلات إلى النجاة، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه.

وفجأة دوت في سمعي أصوات صريخ وعويل، وولولة امرأة، ورعب طفل، ثم استغاثة متصلة محمومة، وكنت غارقًا في مجموعة من الانفعالات الثائرة، والسيارة تندفع بي مسرعة.

ثم أدركت شيئًا عجيبًا، كانت الأصوات مازالت تمزق سمعي، الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة، لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسري الصوت، ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقني ويطاردني.

ووصلت إلى بيتي، واستلقيت على فراشي، وفي عقلي حمى، وفي قلبي وضميري غليان متصل، وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعي.

ولم أنم طول الليل، بقيت مستلقيًا على فراشي في الظلام، أشعل سيجارة وراء سيجارة، وأسرح مع الخواطر الثائرة، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني.

أكنت على حق..؟

وأقول لنفسي في يقين: دوافعي كانت من أجل وطني..!

أكانت تلك هي الوسيلة التي لا مفر منها..؟

وأقول لنفسي في شك: ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل..؟

أيمكن حقًا أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصنا من هذا الواحد أو من واحد غيره، أم المسألة أعمق من هذا..؟

وأقول لنفسي في حيرة: أكاد أحس أن المسألة أعمق، إننا نحلم بمجد أمة، فما هو الأهم: أيمضي من يجب أن يمضي، أم يجيء من يجب أن يجيء..؟

وأقول لنفسي وإشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة: بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء، إننا نحلم بمجد أمة، ويجب أن يبنى هذا المجد.

وأقول لنفسي ومازلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات: وإذن..؟

وأسمع هاتفًا يرد عليَّ: وإذن ماذا..؟

وأقول لنفسي في يقين هذه المرة: إذن يجب أن يتغير طريقنا، ليس ذلك هو العمل الإيجابي الذي يجب أن نتجه إليه، المسألة أعمق جذورًا وأكثر خطورة وأبعد أغوارًا.

وأحس براحة نفسية صافية، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة، تلك التي مازالت أصداؤها ترن في أعماقي.

ووجدت نفسي أقول فجأة: ليته لا يموت..!

وكان عجيبًا أن يطلع الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء..!

وهرعت في لهفة إلى إحدى صحف الصباح، وأسعدني أن الرجل الذي دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة.

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية، وإنما المشكلة الأساسية هي العثور على العمل الإيجابي.

وأنا أجلس أحيانًا في غرفة مكتبي وأسرح بخواطري في نفس هذا الموضوع أسائل نفسي: ما هو دورنا الإيجابي في هذا العالم المضطرب، وأين هو المكان الذي يجب أن نقوم فيه بهذا الدور..؟

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا، وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا، إن القدر لا يهزل، وليست هناك أحداث من صنع الصدفة، ولا وجود يصنعه الهباء.

ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان.

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً وليس مجرد كلام..؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضًا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد..؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالمًا إسلاميًا تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشهدها حقائق التاريخ.

وكما قلت مرة: إن القدر لا يهزل، فليس عبثًا أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها.

وليس عبثًا أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة، تراجع إلى مصر وآوى إليها فحمته مصر

وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه في عين جالوت.

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا، لا نستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها.

ولست أدري لماذا أذكر دائمًا عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكاري، وأنا جالس وحدي في غرفتي شاردًا مع الأفكار، قصة مشهورة للشاعر الإيطالي الكبير «لويدجي بيراندلو» أسماها: ست شخصيات تبحث عن ممثلين.

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه، وإن ظروف التاريخ أيضًا مليئة بأدوار البطولة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أدري لماذا يخيل إليَّ دائمًا أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورًا هائمًا على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به.

ثم لست أدري لماذا يخيل إليَّ أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به المطاف متعبًا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحدًا غيرنا لا يستطيع القيام به.

وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة، إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها، وتقوم بدور إيجابي في بناء مستقبل البشر.

وما من شك في أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطًا بنا، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن، وعشنا نفس الأزمات، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك.

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضًا بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني في حدود عواصمها، من مكة، إلى الكوفة، ثم إلى القاهرة، ثم جمعها الجوار في إطار ربطته كل العوامل التاريخية والمادية والروحية.

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجًا على وعد «بلفور» الذي منحت بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطنًا قوميًا في فلسطين اغتصبته ظلمًا من أصحابه الشرعيين.

وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت: لماذا أخرج في حماسة، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها..؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة.

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لما أصبحت طالبًا في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة.

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل، ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعًا في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض غريبة، وهو ليس انسياقًا وراء عاطفة، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس.

وأذكر يومًا عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة 1947م، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعًا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين، وذهبت في اليوم التالي أطرق باب بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان مايزال يعيش في الزيتون، وأقول له:

إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين؛ وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع، وهم تحت أمرك في أي وقت تشاء..!

وقال لي الحاج أمين الحسيني إنه سعيد بهذه الروح، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئًا.

ثم قال لي الحاج أمين: سوف أعطيك ردي بعد استئذان الحكومة، وعدت إليه بعد أيام، وكان رده الذي حصل عليه من الحكومة، هو الرفض.

ولم نسكت.. وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التي تحولت اليوم إلى مجلس قيادة الثورة.

وأذكر سرًا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار، كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزي القاوقجي، وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين.

ووضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير، وكانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية لا تملك طيرانًا يساعدها في المعركة ويرجح النصر إلى كفتها، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية، لكان ذلك عاملاً فاصلاً، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم..؟

ولم يتردد حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادي، وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصري بهذه المهمة، ولكن كيف..؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة – بما فيها سلاح الطيران– حذرًا متيقظًا، ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة.

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح الطائرات وإعدادها، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين، ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر، يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا إشارة سرية، فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الأرض المقدسة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق.

في كتاب «فلسفة الثورة» تناول عبد الناصر الدوائر التي ستتحرك فيها السياسة المصرية ومنها الدائرة الإسلامية التي تتداخل مع الدائرة العربية والدائرة الإفريقية، وتعد مصر جزءًا فاعلاً فيها.

لقد كان الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله وطيب ثراه، أحرص زعيم عربي ومسلم

على الإسلام، ونشر تعاليمه الداعية إلى العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس؛ لـذلك سجلت بعثات نشر الإسلام في إفريقيا وآسيا فترة حكمه أعلى نسب تحول نحو الإسـلام في التاريخ، حيث بلغ عدد الذين اختاروا الإسلام دينـًا بفضل بعثات الأزهر 7 أشخاص من كل 10 مستهدفين، وهي نسب غير مسـبوقة حسـب إحصـائيات مجلـس الكنـائس العالمي، وفي عهده صدر قانون بتحريم القمار ومنعه، كما أصدر عبـد الناصـر قـرارات بإغلاق كل المحافل الماسونية ونوادي الروتـاري والمحافـل البهائيـة، كمـا تـم إلغـاء تراخيص العمـل الممنوحـة للنسـوة العـاملات بالـدعارة التـي كانـت مقننـة في العهـد الملكي، وتدفع العاهرات عنها ضرائب للحكومة مقابل الحصول عـلى رخصـة العمـل والكشف الطبي.

في عهد عبد الناصر تمكنت المرأة من التعليم الديني، حيث تم افتتاح معاهد أزهريـة خاصة بهن، وأقيمت مسابقات عديدة في كل المدن لتحفيظ القرآن الكريم، وطبعت منـه ملايين المصاحف التي انتشرت في كل البلاد الإسـلامية، وأوفـدت البعثـات للتعريـف بالإسلام في كل إفريقيا وآسيا، كما تمت طباعة كل كتـب التـراث الإسـلامي في مطـابع الدولة طبعات شعبية لتكون في متناول الجميع، وكان جمال عبـد الناصـر رحمـه الله دائـم الحرص على أداء فريضة الصلاة يوميًا، والالتزام بكل الشعائر، كما كـان حريصًـا أيضًـا على أداء فريضة صلاة الجمعة مع المواطنين في المساجد، وأكرمه الله بالوفاة يوم الاثنين الذي وافق 27 رجب في ذكرى يوم فضله الديني عظيم ومعروف للكافة، إنه اليوم الـذي أسرى فيه الله بعبده ﷺ من البيت الحـرام إلى المسـجد الأقصـى، فسـبحان الله العظـيم الكريم.

ومع كل هذا الالتزام الديني الجلي بالإسلام منهجًا وسـلوكًا، كانـت علاقـة الـرئيس جمال عبد الناصر ممتازة بالنصارى، وقد أمر بأن يكون عدد الكنائس المبنية سنويًا خمـس وعشرين كنيسة بناء على تشاور مع البابـا كيـرلس السـادس الـذي ارتـبط معـه بصـداقة مشهودة، وأن يكون التصريح بها بتوجيه من البابا نفسه إلى الجهات الرسـمية، وسـاهمت الدولة مساهمة كبيرة في بناء كاتدرائية تليق بمكانة مصر (كاتدرائيـة العباسـية)، وحرصًـا على مصالح المصريين المسيحيين أمر الرئيس المرحوم بإذن الله جمال عبد الناصر بعقـد اجتماع أسبوعي بين وزير رئاسة شئون الجمهورية وسكرتير البابا لحـل كـل المشـاكل

التي قد تواجه الكنيسة وأتباعها، وبناء على أوامره كان يُعقد اجتماع أسبوعي كل يوم اثنين بين وزير شئون رئاسة الجمهورية وأسقف الخدمات سكرتير البابا، لبحث وحل أية مشاكل طارئة، وقام عبد الناصر بدعم توحيد الكنيستين المصرية والأثيوبية تحت الرئاسة الروحية للبابا كيرلس السادس.

بفضل تلك القيادة الرشيدة المستمدة من أصالة الشعب المصري العظيم، والمعبرة عن نسيجه الاجتماعي المبهر، لم تقع في عصر الزعيم الخالد جمال عبد الناصر حادثة طائفية واحدة بين المسلمين والمسيحيين، ولم تنتشر دعاوى تكفير الشريك في الوطن ومعاداته، كان هناك عدو واحد معروف ومحدد هو الاستعمار الإفرنجي الغربي، ورأس حربته المغروس في خاصرة المسلمين الكيان العنصري الهمجي الصهيوني؛ ولأجل مقاومة ذلك العدو ومواجهته الواجبة كان المشروع القومي لجمال عبد الناصر من أجل مصر قائدة العروبة والإسلام أولاً، وبها ومنها تكون نهضة العرب وعزتهم، دون تجني على إخوتهم وأبناء وطنهم العربي الكبير الأقباط والمسيحيين العرب الأقحاح، ذلك المشروع الذي تآمرت عليه الرجعية العربية المدعومة صهيونيًا، نفس الرجعية التي نراها كشرت عن أنيابها هذه الأيام مستقوية بالغرب المتصهين، الذي لم يتوقف منذ زمن عن الكيد للإسلام وأهله، فهل تنتبه الأمة لمشروع عبد الناصر ودوائره السياسية؛ لتعزيز روح المقاومة، من أجل غد يشرق على وطن عربي متألق ومزدهر بأهله..؟

في كتاب «فلسفة الثورة» تناول عبد الناصر الدوائر التي ستتحرك فيها السياسة المصرية ومنها الدائرة الإسلامية التي تتداخل مع الدائرة العربية والدائرة الإفريقية، وتعد مصر جزءًا فاعلاً فيها.

كان الخليفة الراشد أبو بكر الصديق هو أول من بدأ جمع القرآن الكريم في مصحف، وذلك بعد إلحاح من عمر بن الخطاب ﷺ بعد مقتل معظم حفظة القرآن في حروب الردة، والخليفة الراشد عثمان بن عفان هو صاحب أول مصحف تم جمع وترتيب سور القرآن الكريم به، والرئيس جمال عبد الناصر هو أول حاكم مسلم في التاريخ يتم في عهده جمع القرآن الكريم مسموعًا مرتلاً ومجودًا، في ملايين الشرائط والاسطوانات بأصوات القراء المصريين.

جمال عبد الناصر في سنة 1931م

كان عبد الناصر يتبادل الرسائل مع والدته، ولكن الرسائل توقفت في إبريل 1926م، وعندما عاد إلى الخطاطبة علم أن والدته قد ماتت قبل أسابيع، بعد ولادتها لأخيه الثالث شوقي، ولم يملك أحد الشجاعة لإخباره بذلك، وقد قال عبد الناصر في وقت لاحق: «لقد كان فقداني لأمي في حد ذاته أمرًا محزنًا للغاية، فقد كان فقدها بهذه الطريقة، وعدم توديعي إياها صدمة تركت في شعورًا لا يمحوه الزمن، وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجدد مضضًا بالغًا في إنزال الآلام والأحزان بالغير في مستقبل السنين».

وتعمق حزن بعد الناصر عندما تزوج والده قبل نهاية هذا العام. وبعد أن أتم جمال السنة الثالثة في مدرسة النحاسين بالقاهرة، أرسله والده في صيف 1928م عند جده لوالدته، فقضى السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة العطارين بالإسكندرية.

التحق جمال عبد الناصر بالقسم الداخلي في مدرسة حلوان الثانوية وقضى بها عامًا واحدًا، ثم نقل في العام التالي 1930م إلى مدرسة رأس التين بالإسكندرية بعد أن انتقل والده للعمل في الخدمة البريدية هناك، وقد بدأ نشاطه السياسي حينها، فقد رأى مظاهرة في ميدان المنشية بالإسكندرية، وانضم إليها دون أن يعلم مطالبها، وقد علم بعد ذلك أن هذا الاحتجاج كان من تنظيم جمعية مصر الفتاة، وكان هذا الاحتجاج يندد بالاستعمار الإنجليزي في مصر، وذلك في أعقاب قرار من رئيس الوزراء حينئذٍ إسماعيل صدقي بإلغاء دستور 1923م، وألقي القبض على عبد الناصر واحتجز لمدة ليلة واحدة قبل أن يستطيع والده إخراجه.

أمضى ناصر معظم وقت فراغه في القراءة، وخاصة في سنة 1933م عندما كان يعيش بالقرب من دار الكتب والوثائق القومية في مصر، قرأ القرآن، وأقوال الرسول محمد، وحياة الصحابة، والسير الذاتية للزعماء القوميين نابليون، أتاتورك، أرتو فون بسمارك، وغاريبالدي، والسيرة الذاتية لونستون تشرشل.

كان ناصر متأثرًا إلى حد كبير بالقومية المصرية، التي اعتنقها السياسي مصطفى كامل والشاعر أحمد شوقي، ومدربه في الكلية الحربية عزيز المصري، الذي أعرب عبد الناصر

عن امتنانه له في مقابلة صحفية سنة 1961م، وقد تأثر ناصر بشدة برواية «عودة الروح» للكاتب المصري توفيق الحكيم، التي قال فيها توفيق الحكيم أن الشعب المصري كان فقط بحاجة إلى الإنسان الذي سيمثل جميع مشاعرهم ورغباتهم، والذي سيكون بالنسبة لهم رمزا لهدفهم، وكانت هذه الرواية هي مصدر إلهام عبد الناصر لإطلاق ثورة 1952م.

في سنة 1937م تقدم عبد الناصر إلى الكلية الحربية لتدريب ضباط الجيش، ولكن الشرطة سجلت مشاركته في احتجاجات مناهضة للحكومة، فمنع من دخول الكلية، فالتحق بكلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا)، ولكنه استقال بعد فصل دراسي واحد وأعاد تقديم طلب الانضمام إلى الكلية العسكرية، واستطاع عبد الناصر مقابلة وزير الحربية إبراهيم خيري باشا وطلب مساعدته، فوافق على انضمامه للكلية العسكرية في مارس 1937م، وقد ركز ناصر على حياته العسكرية منذ ذلك الحين، وأصبح يتصل بعائلته قليلاً.

في الكلية التقى بعبد الحكيم عامر وأنور السادات وكلاهما أصبحا مساعدين هامين له خلال فترة رئاسته، وتخرج من الكلية العسكرية في شهر يوليو 1937م، رقي عبد الناصر إلى رتبة ملازم ثاني في سلاح المشاة.

في سنة 1941م طلب عبد الناصر النقل إلى السودان، وهناك قابل عبد الحكيم عامر، وكانت السودان حينها جزءًا من مصر، وقد عاد جمال عبد الناصر من السودان في سبتمبر 1942م، ثم حصل على وظيفة مدرب في الأكاديمية العسكرية الملكية بالقاهرة في شهر مايو من عام 1943م.

وفي عام 1942م سار مايلز لامبسون السفير البريطاني إلى قصر الملك فاروق وحاصره بالدبابات، وأمره بإقالة رئيس الوزراء حسين سري باشا، بسبب تعاطفه مع قوات المحور، ورأى ناصر الحادث بأنه انتهاك صارخ للسيادة المصرية، وقال عن ذلك: أنا أخجل من أن جيشنا لم يصدر أي رد فعل ضد هذا الهجوم.

تم قبول ناصر في كلية الأركان العامة في وقت لاحق من ذلك العام، بدأ ناصر بتشكيل مجموعة من ضباط الجيش الشباب الذين يملكون مشاعر القومية القوية، ظل

ناصر على اتصال مع أعضاء المجموعة من خلال عبد الحكيم عامر، وواصل عبد الناصر البحث عن الضباط المهتمين بالأمر في مختلف فروع القوات المسلحة.

كانت أول معركة لعبد الناصر في فلسطين خلال الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1948م، تطوع عبد الناصر في البداية للخدمة في اللجنة العربية العليا بقيادة محمد أمين الحسيني، وكان عبد الناصر قد التقى بالحسيني وأعجب به، ولكن تم رفض دخول قوات اللجنة العربية العليا في الحرب من قبل الحكومة المصرية لأسباب غير واضحة.

في مايو 1948م أرسل الملك فاروق الجيش المصري إلى فلسطين، وخدم ناصر في كتيبة المشاة السادسة، وخلال الحرب كتب عبد الناصر عن عدم استعداد الجيش المصري قائلاً: تبدد جنودنا أمام التحصينات، وكان ناصر قائد القوات المصرية المسئولة عن تأمين الفالوجا، وأصيب عبد الناصر بجروح طفيفة في القتال يوم 12 يوليو.

وبحلول شهر أغسطس كان عبد الناصر مع فرقته محاصرين من قبل الجيش الإسرائيلي، ولكن الفرقة رفضت الاستسلام، وأدت المفاوضات بين إسرائيل ومصر أخيرًا إلى التنازل عن الفالوجا إلى إسرائيل، وفقـًا لإريك مارجوليس الصحفي المخضرم، تحملت القوات المصرية القصف العنيف في الفالوجا، بالرغم من أنها كانت معزولة عن قيادتها، وأصبح المدافعون بما فيهم الضابط جمال عبد الناصر أبطالاً وطنيين حينها.

استضافت المطربة المصرية أم كلثوم احتفال الجمهور بعودة الضباط، رغم تحفظات الحكومة الملكية، التي كانت قد تعرضت لضغوط من قبل الحكومة البريطانية لمنع الاستقبال، وزاد ذلك من عزم عبد الناصر على الإطاحة بالملكية.

بعد الحرب، عاد عبد الناصر إلى وظيفة مدرسًا في الأكاديمية الملكية العسكرية، وأرسل مبعوثين إلى جماعة الإخوان المسلمين؛ لتشكيل تحالف معها في أكتوبر سنة 1948م، ولكنه اقتنع بعد ذلك بأن جدول أعمال الإخوان لم يكن متوافقـًا مع نزعته القومية، وبدأ الكفاح من أجل منع تأثير الإخوان على أنشطته.

أرسل ناصر كعضو في الوفد المصري إلى رودس في فبراير 1949م للتفاوض على

هدنة رسمية مع إسرائيل، ويقول عبد الناصر أنه اعتبر شروط الهدنة مهينة، وبخاصة لأن الإسرائيليين تمكنوا من احتلال منطقة إيلات بسهولة بينما هم يتفاوضون مع العرب في مارس 1949م.

هناك الكثير من الروايات التي تحدثت عن تسميم الرئيس جمال عبد الناصر، إلا أن أكثر ما آثار الجدل هو تصريح القيادي الفلسطيني عاطف أبو بكر المنشق عن تنظيم فتح المجلس الثوري جماعة صبري البنا، عندما صرح لقناة العربية ببرنامج الذاكرة السياسية مع الصحفي طاهر بركة، أن الرئيس عبد الناصر تعرض للتسميم خلال زيارته للخرطوم يوم 2 يناير 1970م لافتتاح معرض الثورة الفلسطينية، وأن صبري البنا مع جعفر النميري كانوا وراء تسميم الرئيس جمال عبد الناصر، وقد عُرض في البرنامج صورة لمجموعة من ضباط الموساد على رأسهم مايك هراري متنكرين بوصفهم صحافيين، في مؤتمر قمة اللاءات الثلاثة الذي عُقد في الخرطوم في عام 1967م بعد النكسة مباشرة.

رثا الشيخ محمد متولي الشعراوي جمال عبد الناصر فقال: «قد مات جمال وليس بعجيب أن يموت، فالناس كلهم يموتون، لكن العجيب وهو ميت أن يعيش معنا، وقليل من الأحياء يعيشون وخير الموت ألا يغيب المفقود، وشر الحياة الموت في مقبرة الوجود، وليس بالأربعين ينتهي الحداد على الثائر المثير، وقد كان البطل الماثل فلتة زعامة وأمة قيادة وفوق الأسطورة للريادة؛ لأن الأسطورة خيال متوهم وما فوق الأسطورة واقع مجسم، وللزعامات في دنيا الناس تجليات فليس الزعيم الذي يعمل لك بنفسه طوال عمره إلى نهاية أجله، لكن الزعيم الذي يعلمك أن تعمل بنفسك لنفسك طوال عمرك إلى نهاية أجلك، وعلى مقدار تسلسل الخير فيه يكون خلود عمره...».

▪▪ 13 ضابطًا غيروا مصر [1]

جمعتهم الثورة وفرقتهم الديمقراطية



1918 - 1970

أن يكون أحدهم ضابطًا ينتمي إلى تنظيم سري في صفوف القوات المسلحة، فهذا يعني أنه في انتظار مصير من اثنين لا ثالث لهما، فإما النجاح وتحقيق الأهداف المرجوة، أو الاستعداد للوقوف أمام المشنقة في انتظار تنفيذ الحكم ضده بتهمة قلب نظام الحكم، ولم يكن هذا ببعيد عن الضباط الأحرار، الذين حملوا أرواحهم على أكفهم وخاضوا أخطر عملية تغيير سياسي في تاريخ مصر، من الملكية إلى الجمهورية؛ إذ تحتم عليهم مواجهة نظام ملكي قائم برمته، تمتد فيه جذور الفساد حتى التغلغل، والخطأ لا بد أن تكون نسبته صفر، وعليه بدأ العقل المدبر بنسج خيوط خطته، التي تحولت إلى شبكة متينة أوقعت فيها نظام الملك فاروق، بدأ تنفيذها في ساعة الصفر ليلة 23 يوليو 1952م، في التقرير التالي نستعرض قصص (13) ضابطًا قاموا بثورة يوليو 1952م.

***

(1) عمر حسن: جريدة التحرير، تحت عنوان أحداث ووقائع، العدد (1573)، بتاريخ 25 يوليو 2017م، ص2.

(1) جمال عبد الناصر:

ضابط شاب برتبة «بكباشي» يبلغ من العمر 34 عامًا، امتلك من الجرأة والعزم ما يكفي للتدبير لقلب نظام الحكم، حالمًا بانتشال مصر من ظلام الملكية إلى شمس الجمهورية، حيث اجتمعت الخلية الأولى في منزله، يوليو 1949م بشكل سري، وضم الاجتماع ضباطًا من مختلف الانتماءات والاتجاهات الفكرية، وفي عام 1950م تم انتخابه رئيسًا للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، ثم رئيسًا للجنة تنظيم الضباط الأحرار، وحتى ليلة انطلاق الثورة في 23 يوليو 1952م لم يكن أحد يعلم بأسماء جميع المشاركين بالثورة سوى جمال عبد الناصر.

نجحت الثورة وتولى عبد الناصر منصب نائب رئيس الوزراء، ثم دب الخلاف بينه واللواء محمد نجيب، رئيس مجلس قيادة الثورة، والواجهة التي نفذت من خلالها الثورة إلى الشوارع؛ ليصدر المجلس قراره برئاسة ناصر باعتقال نجيب وإعفائه من منصبه مع تحديد إقامته حتى وفاته؛ ليتولى بعد ذلك جمال عبد الناصر منصب رئيس الجمهورية بعد نجاحه في اكتساب أرضية شعبية لدى المصريين.

(2) عبد الحكيم عامر:

صديق العمر، ورفيق كفاح جمال عبد الناصر، والرجل الثاني في حركة الضباط الأحرار؛ إذ كان مطلعًا دون غيره على أمور داخل التنظيم السري، ورافق ناصر في جميع تحركاته لترسيخ أقدام الحركة، وفي ليلة الثورة كان كظل جمال عبد الناصر، حتى أنهما تم إلقاء القبض عليهما بالخطأ على يد جنود موالين للحركة لم يتعرفوا عليهما، لكن سرعان ما تم تدارك الأمر، وانتقل الاثنان إلى مقر القيادة، حيث أشرفا على تنفيذ الخطة الموضوعة سلفًا.

كان عامر من أكثر المستفيدين بنجاح الثورة؛ إذ تمت ترقيته من رتبة صاغ «رائد» إلى رتبة لواء وهو لا يزال في الـ34 من العمر متخطيا 3 رتب عسكرية، كما عين وزيرًا للحربية في عام 1954م، واستمر تدرجه في الترقيات حتى وصل إلى رتبة مشير وهو لا يزال في الـ39 من عمره.

(3) محمد أنور السادات:

المصادر التاريخية تؤكد أن أنور السادات لم يكن أحد نجوم تنظيم الضباط الأحرار اللامعين، لكن دوره الذي حدد له في خطة السيطرة على القاهرة هو الذي منحه نجومية لمجرد أنه يجيد القراءة باللغة العربية الفصحى بصوت مميز، والأدهى أن البعض يؤكد تعمّد اصطحاب «السادات» لزوجته «جيهان» في ليلة الثورة إلى سينما الروضة، التي تعرض 3 أفلام في البرنامج الواحد، رغم علمه بمدى حساسية تلك الفترة، خاصة أن ناصر بعث له برقية يوم 22 يوليو قائلاً: «الثورة قد تحدد لقيامها ما بين 22 يوليو و5 أغسطس»، ولم يكتف بالذهاب إلى السينما فقط وإنما تعمد إثارة مشكلة وعمل محضر في القسم ليثبت حالة.

فسّر البعض ذلك التصرف على أنه محاولة للإفلات من مقصلة الملك التي كانت ستطيح برقاب الجميع إذا ما فشلت الثورة، إلا أن ذلك لم يحدث وصدرت الأوامر للسادات بالتحرك إلى مبنى الإذاعة في شارع الشريفين للسيطرة عليه، وإعلان بيان نجاح الثورة، ونفذ المهمة على خير وجه، وحصل على اللقطة التي تضعه في الصف الأول بتنظيم الضباط الأحرار في سجلات التاريخ، إلا أن الامتيازات التي نالها توضح ضآلة دوره في تنظيم الضباط الأحرار؛ إذ عين وزيرًا في عام 1954م، ثم انتخب عضوًا لمجلس النواب، كما انتخب رئيسًا لمجلس الأمة للفترة الثانية من 29 مارس 1964م إلى 12 نوفمبر 1968م، حتى اختاره ناصر نائبًا له في عام 1969م كإجراء روتيني اعتاد جمال عبد الناصر على اتخاذه مع أعضاء مجلس قيادة الثورة بين الحين والآخر[1].

(4) زكريا محيي الدين:

انضم زكريا محيي الدين إلى تنظيم الضباط الأحرار قبل قيام الثورة بحوالي 3 أشهر، وكان ضمن خلية جمال عبد الناصر؛ إذ شارك في وضع خطة التحرك للقوات، كما كان المسؤول عن عملية تحرك الوحدات العسكرية، وقاد عملية محاصرة القصور الملكية في الإسكندرية، وذلك في أثناء تواجد الملك فاروق الأول هناك.

لم يكن زكريا مجرد عضو بالتنظيم، بل كان أحد المقربين القلائل الذي وثق بهم

(1) راجع المستشار محمد مرشدي بركات، أنور السادات: سيرة ومسيرة – دار المعارف – القاهرة.

جمال عبد الناصر، ويتضح ذلك من المناصب التي أسندها له بعد نجاح الثورة، حيث عينه مديرًا للمخابرات الحربية، ثم وزيرًا للداخلية، ثم أسند إليه مهمة إنشاء المخابرات العامة، وصولاً إلى تعيينه في منصب رئيس الوزراء، حتى كلفه ناصر بتولي منصب رئيس الجمهورية بعد «نكسة 67»، لكنه تعرض لهجوم شديد واضطر إلى الاستقالة واعتزال الحياة العامة حتى وفاته.

(5) خالد محيي الدين:

كان من أوائل المنضمين لحركة الضباط الأحرار السرية في عام 1944م، ثم أصبح عضوًا في مجلس قيادة الثورة، إلا أنه كان يتعارض فكريًا مع جمال عبد الناصر، حتى أن الأخير وصفه بـ«الصاغ الأحمر»، في إشارة إلى توجهاته محيى الدين اليسارية، وحينما دعا «الصاغ» رفاقَه في مارس 1954م إلى العودة لثكناتهم العسكرية لإفساح مجال لإرساء قواعد حكم ديمقراطي، نشب خلاف بينه وجمال عبد الناصر ومعظم أعضاء مجلس قيادة الثورة، فاستقال على إثره من المجلس، وآثر - ربما تحت ضغوط من جمال عبد الناصر- الابتعاد إلى سويسرا لبعض الوقت.

(6) صلاح سالم:

حارب في فلسطين، وهناك تعرف على جمال عبد الناصر في أثناء حصار كتيبته في الفالوجة، وانضم إلى الضباط الأحرار، وكان عضوًا في اللجنة التنفيذية لمجلس قيادة الثورة، وفي ليلة الثورة كان متواجدًا في العريش، مكلفًا بالسيطرة على القوات هناك، وعرف عنه الشدة والصرامة في كل ما يخص الثورة.

وبعد نجاح الثورة، تولى سالم وزارة الإعلام «الإرشاد القومي» آنذاك، في الفترة من 18 يونيو 1953م إلى 7 أكتوبر 1958م، كما تولى الإشراف على صحيفتي الشعب والجمهورية، فضلاً عن رئاسته لمجلس إدارة دار التحرير للطباعة والنشر، ولكنه توفي مبكرًا عن عمر 41 عاما في 18 فبراير 1962م بمرض السرطان.

(7) جمال سالم:

كان من أشرس ضباط التنظيم وأكثرهم تطرفًا، وهو يكبر أخيه صلاح سالم بعامين، ووصفه السادات في مذكراته «البحث عن الذات» بقوله: «كان حاد المزاج، عصبيًا إلى حد

غير طبيعي، لا يهاب الدم، وهو ما دفع بالرئيس عبد الناصر في النهاية إلى الحد من اختصاصاته.

شارك جمال سالم في تنظيم الضباط الأحرار، شعبة سلاح الطيران، وبعد نجاح الحركة وسيطرتها على السلطة في مصر، اختير رئيسًا للجنة العليا للإصلاح الزراعي، والتي لعبت دورًا بارزا في تصفية ممتلكات كبار ملاك الأراضي الزراعية، كما ترأس محكمة الثورة التي أصدرت الحكم بالإعدام على عدد من قيادات جماعة الإخوان المسلمين، فضلاً عن دوره في نشوب الخلاف بين جمال عبد الناصر واللواء محمد نجيب، وأيضًا آرائه المتطرفة التي أوردها عدد من زملائه في مجلس قيادة الثورة في مذكراتهم، ومنها اقتراحه بإعدام جميع ضباط المدفعية الذين اعترضوا على بعض قرارات المجلس في يناير 1953م.

(8) حسين الشافعي:

كانت مهمة الضابط حسين الشافعي، الذي التحق بتنظيم الضباط الأحرار في سبتمبر 1951م، قيادة سلاح الفرسان لحساب الثورة بمدرعاته، ودباباته، وعرباته، حيث تولى قيادة الكتيبة الأولى للمدرعات التي أطاحت بالملكية ليلة 23 يوليو 1952م.

عين الشافعي بعد نجاح الثورة وزيرًا للحربية في عام 1954م، ثم وزيرًا للشئون الاجتماعية، وكان له أثر كبير في إدخال نظام التأمين الاجتماعي وإطلاق برنامجي «معونة الشتاء وقطار الرحمة»، اللذان ساعدا فقراء مصر.

ثم عمل وزيرًا للتخطيط، حتى تولى في عام 1961م وزارة شئون الأزهر، إلى أن اختاره جمال عبد الناصر نائبًا لرئيس الجمهورية في 1963م، فضلاً عن رئاسته محكمة الثورة، التي حاكمت الضباط الذين انضموا إلى التمرد الذي قاده وزير الحربية آنذاك، المشير عبد الحكيم عامر بعد هزيمة يونيو 1967م.

(9) يوسف صديق:

ربما أغفلت كتب التاريخ الحديث عن الدور الجوهري لهذا الضابط يوسف صديق، الذي بدأت علاقته بتنظيم الضباط الأحرار عندما تعرف على النقيب وحيد جودة رمضان إبان حرب فلسطين 1948م، ليعرض عليه الأخير بعد 3

سنوات الانضمام لتنظيم الضباط الأحرار، فلم يتردد لحظة واحدة في الموافقة، وقبل الثورة بأيام زاره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في منزله للتنسيق معه بشأن تحركه في ليلة الثورة.

تحدث عبد الناصر عن دور يوسف الكبير في الثورة، في العيد العاشر لها، وذكر قصة اعتقاله بواسطة قوات الثورة وسعادته لرؤية يوسف صديق الذي فك أسره على الفور، والسبب في ذلك التحرك المبكر الذي قام به بالخطأ، مما أوقع «ناصر وحكيم» في قبضة جنوده، ظنًا منهم أنهم ضد الثورة، فلم يكن يعرف الجميع أن عبد الناصر قائد التنظيم.

وعقب نجاح حركة الضباط الأحرار دعا يوسف صديق إلى عودة الحياة النيابية، وخاض مناقشات عنيفة من أجل الديمقراطية داخل مجلس قيادة الثورة، إلا أن دعوته قوبلت بالتجاهل، إلى أن تم اعتقاله وأسرته وإيداعه السجن الحربي في إبريل 1954م، ثم أفرج عنه في مايو 1955م، وحددت إقامته بقريته إلى أن توفي في 31 مارس 1975م.

(10) كمال الدين حسين:

كان عضوًا في اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار، كما شارك في وضع الخطة التفصيلية لتحرك قوات الجيش ليلة الثورة، فقاد سلاح المدفعية وألقى القبض على قائدها، ثم أصبح عضوًا في مجلس قيادة الثورة، وعين بعد نجاحها وزيرًا للشئون الاجتماعية عام 1954م، ثم وزيرًا للتربية والتعليم، ثم قائدًا لجيش التحرير في عام 1956م، إلى أن عين رئيسًا للوزراء في عام 1961م، لكنه تصادم مع عبد الناصر وقدم استقالته 3 مرات، وفي 14 أكتوبر 1965م صدر قرار بتحديد إقامته وزوجته في إحدى الاستراحات بالهرم.

(11) عبد اللطيف البغدادي:

انضم عبد اللطيف البغدادي لتنظيم الضباط الأحرار عام 1950م، وكانت مهمته في سلاح الطيران، وعقب نجاح الثورة حصد عددًا من المناصب؛ إذ عين مراقبًا عامًا لهيئة التحرير، ثم وزيرًا للحربية في عهد الرئيس محمد نجيب، ثم عين في 16 سبتمبر 1953م رئيسًا لأول محكمة للثورة، وفي 17 إبريل 1954م عين وزيرًا للشئون البلدية والقروية،

وظل يتدرج في المناصب إلى أن عينه جمال عبد الناصر نائبًا لـرئيس الجمهوريـة لشـئون الإنتاج، ومع دخوله عضوًا في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، ظـل بمجلـس الرئاسة لفترة ثم قدم استقالته واعتزل الحياة السياسية في مارس 1964م.

(12) عبد المنعم أمين:

انضم إلى تنظيم الضباط الأحرار مباشرة قبل بداية الثورة في 23 يوليو 1952م، وكان المسئول عن وحدات المدفعية المشاركة في الثورة، وبعد نجاح الثـورة وكانـت مهمتـه حصار قصر رأس التين بالإسكندرية؛ حيث يقيم الملك فاروق.

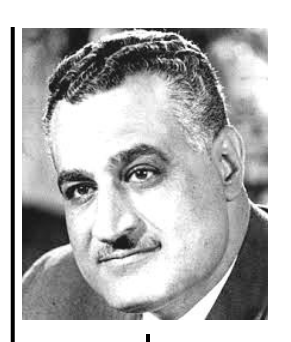
تولى بعد ذلك قيادة سـلاح الفرسـان، وسـلاح حـرس الحـدود، وكـذلك محافظـة أسوان، ويعد من الجنود المجهولة التي قلما تذكرها كتب التـاريخ فيمـا يخـص أبطـال ثورة يوليو 1952م.

(13) جمال حماد:

انضم لتنظيم الضباط الأحرار عـام 1950م عـن طريـق صـديقه الصـاغ أ.ح/ عبـد الحكيم عامر، واشترك في الفعاليات الأولى لثورة 23 يوليو 1952م، كمـا كتـب بنفسـه البيان الأول للثورة الذي ألقاه البكباشي أنور السادات صباح يوم 23 يوليو من مقر هيئة الإذاعة.

تولى جمال حماد بعدها منصب مدير مكتب القائد العام محمد نجيب، وبعـد الإطاحـة بالأخير من منصبه وتحديد إقامته اعترض، فتم انتدابه للعمل كملحق عسـكري لمصـر بين عامي 1952م و1957م في سوريا، لبنان، الأردن، والعراق، كما أطلق عليه «مؤرخ الثورة»، وبرحيله في 27 أكتوبر 2016م، يختتم قائمة الضباط الأحـرار الـذين أصـبحوا جميعا في ذمة الله.

▪▪ مخاوف الجيش صنعت حركة يوليو ومخاوف الشعب حولتها إلى ثورة[1]



1918 - 1970

أنا من الأحرار يا علي، من عاش عمره صغيرا وكبر على أرض مصر يجاورني الخطي يفهم هذا الهتاف، رغم أنه لم يكن هتافاَ في مظاهره في شارع، لكنها - هذه الجملة- هتفت بها أضلع الفنان المصري الصميم «كمال يس»، وهو يبوح بسره لابن الريس عبد الواحد، الضابط الذي رافقه رحلة عذابه في حب إنجي، لكن (يس) كانت مصر هي معشوقته وليست «إنجي»، فانضم لتنظيم الضباط الأحرار الذي نما وترعرع في قلب الجيش ليخرج منه ويحرر مصر ويغير شكلها منذ ٦٥ عاما.

هي حركة مباركة للتطهير، كما وصفها البيان الأول الذي صاغه الضابط جمال حماد، وقرأه على الأمة الضابط أنور السادات بصوته المميز، لكن بإمضاء اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة، ونذكر كلنا النداء الذكي في مطلعه: «بني وطني: اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم».

(1) أمير إبراهيم: جريدة التحرير، تحت عنوان أحداث ووقائع، العدد (1573)، بتاريخ 25 يوليو 2017م، ص3.

وسرد البيان ما برر به خروج الضباط على قياداتهم بأن هذه العوامل كان لها تأثير كبير على الجيش، وتسببت في هزيمة حرب فلسطين، وأوضح أن الفساد استمر بعد الحرب وتحول إلى مؤامرة من الخونة على الجيش، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، ولخص: «وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم».

وهي انقلاب قاده العسكر على الملك والحكم الشرعي، كما أحب أعداء ثورة يوليو آنذاك أن يلقبوها، وورث عنهم أعداء عبد الناصر وأعداء كل ما أنجزته ثورة يوليو للمصريين، ورثوا عنهم هذا المسمى حتى اليوم، كأن الملك كان منتخبا انتخابا حرا مباشرا من الشعب وجاء للحكم بشكل ديموقراطي، ولم يرثه عن أجدّاده الأتراك الذين عينهم المحتل العثماني لحكم مصر.

لكنها ثورة بحكم الشعب الذي ضم خطواته بعشرات الملايين إلى خطوات مجموعة الضباط التي خرجت ليلة ٢٣ يوليو من ثكناتها تحمل أرواحها أمامها، «إما الوطن وإما الموت»، وكتب لهم النجاح وكان محسوبا في تقديراتهم تماما كالفشل، لكن الخلود لم يكن في حساباتهم، ولم يدر بخلد واحد منهم، أن تذكرهم بلادهم وأمتهم وتذكر ما فعلوه بعد أن يرحلوا ويتركوا مسرح الحياة بالكامل.

كانوا أربعة عشر ضابطا من خمسة أسلحة بالجيش في الصف الأول للتنظيم، الذين طلب القصر رؤوسهم قبل الثورة بساعات، أولها سلاح المشاة ومنه جاء جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويوسف صديق ومحمد نجيب، ومن سلاح الطيران عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وجمال سالم، ومن سلاح المدفعية كمال الدين حسين وصلاح سالم، أما سلاح الإشارة فكان منه محمد أنور السادات وأمين شاكر، ثم من سلاح المدرعات حسين الشافعي وخالد محيي الدين، وهو الوحيد الذي على قيد الحياة من الأحرار، أطال الله عمره.

بعد ٦٥ عاما من الثورة ما زالت ولا يزال زعيمها جمال عبد الناصر حيا لم يمت، كلما هبت نسائم يوليو الساخنة كل عام تلف أرواح المصريين بذكرى لا تزال عبقة لفترة مجيدة عاشتها أجيال ما بعد الخمسينيات والستينيات من أقاصيص الأب والأم عن الزعيم الكاريزمي أو من حكاوي الجد والجدة عن حقوق استردت، ثم ذلك الموروث

الضخم من الأعمال الفنية حتى تلك التي هاجمت الثورة آنـذاك تسـتطيع أن تـرى اليـوم بشكل أوضح مدى شططها وبعدها عـن النقـد السـليم، واسـتهداف شخوصـها وعـلى رأسهم الزعيم عبد الناصر الذي تحول آنذاك إسقاطه الممـر الوحيـد لإسـقاط الثـورة، ليس في مصر وحسب، ولكن في سائر البلدان التي تأثرت بها، وهبت تطالب بحقوقها في الاستقلال والحرية وامتلاك الإرادة والسيادة على أراضيها.

حال الجيش المتردي كما أبرزه البيـان ومخـاوف تحـول مصـر إلى بلـد بـلا جـيش يحميها كانت –وما زالت– الهاجس الذي يوجع أي ضابط بالجيش المصـري ويدفعـه للتحرك، ليس مع أو ضد قيادات أو حكام، ولكن مع مصـلحة البلـد والشـعب، هزيمـة حرب فلسطين كانت وجعا للعسكريين عـادوا منـه ليجـدوا بلـدهم تمزقـه الصـراعات السياسية وحياة سياسية فاسدة، ومن فوقهم إدارة فاسدة للقصر والحاشية، وفي الخلفيـة تظلل البلاد مظلة الاحتلال البريطاني السوداء.

فمنذ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م تم إقصاء الجيش عن الحياة السياسية بنفي عرابـي ورفاقه، حتى عاد الحيش للاقتراب منهـا في أواخـر الثلاثينيـات، عنـدما نظـم الضـباط أنفسهم في لقاءات سرية هدفها تحقيق ما فشلت فيه الأحزاب السياسية ومعاركهـا التـي عطلت حصول مصر على استقلالها، وكان الضابط جمال عبد الناصر واحـدا مـن هـؤلاء الضباط الذين سرعان ما دخلوا في مواجهة مع الملك فاروق بعد هزيمة حرب فلسطين، والتي حملوه مسئولياتها، مسئولية هزيمة الجيش بصفقات السلاح الفاسد، فتكتلوا خلف اللواء محمد نجيب في انتخابات نادي الضباط وأسقطوا حسين سري مرشح الملك.

انقلاب الجيش كما حدث كان إذن تحركـا مشـروعا مـن فئـة اسـتقر في عقيـدتها أن سرطان السياسة الذي أفسد البلاد يتمـدد ليفسـد المؤسسـة العسـكرية، والمجتمعـات تتحمل فساد السياسة وتعالجه وتدخل في معارك معه من أجل التقدم والرفاهية والتنمية، لكن الأمم لا تتحمل فساد الجيوش؛ لأن ذلك يعني حتما سـقوطها ونهايتهـا، فأمـة بـلا سيف ودرع هي فريسة سـهلة ومسـتباحة لمـن يملـك القـوة – أي قـوة– ولا تقـوم ولا تستقيم لها قائمة، بل ويمحى تاريخها إن كان لها تاريخ.

تحول الانقلاب العسكري إلى ثورة مجيدة كان على أيدي المصريين وليس الضـباط

الأحرار، بعد أن ترسخ في عقيدتهم نفس دوافع الأحرار من خوف على بلادهم، وامتلأوا رغبة في التغيير أملا في مستقبل أفضل، الخوف على البلاد إذا أصبحت بلا جيش حرك الضباط، والرغبة في مستقبل أفضل لمصر والخوف عليها حرك المصريين ليقفوا وراء الجيش وحركته، فتحولت إلى ثورة شعبية اصطف خلفها الملايين جيلا بعد جيل حتى اليوم.

وعندما نزل ٣٠ مليونا للشوارع في يونيو ٢٠١٣م واستدعوا الجيش للنزول، لم يجدوا سوى صورة الزعيم جمال عبد الناصر يرفعونها بالشوارع والميادين، في رسالة تحمل معنى مشابها لما حدث بعد ١٩٥٢م، «المصريون يخافون على مصر بلدهم والجيش هو الحائط والمدد في خوفهم»، ووصلت الرسالة وهبَّ الجيش من أجل مصر ومن أجل شعبها.

قيمة جديدة يكشف عنها الزمن، قنوات التواصل والعلاقة بين شعب مصر وجيشها سر خاص يضرب بجذوره مع أسرار هذه الأمة التي دوّن بعضها على جدران معابده، واحتفظ ببعضها سرا يرثه جيلاً بعد جيل؛ لأنه ربما كان في جينات المصريين التي خلقهم الله بها ولن يستطيع مخلوق أو قوة أن يغير إرادة الله.

▪▪ 23 يوليو وأهدافها مشروع لم يكتمل [1]



1918 - 1970

في لحظة فارقة من تاريخ مصر قرّر مجموعة من ضباط الجيش تأسيس تنظيم عسكري أطلقوا عليه اسم «الضباط الأحرار»، وبمرور الوقت وجد التنظيم ظهيرًا شعبيًّا في كل مكان، فقرر الخروج على الملك والحكومة الموالية للإنجليز، وأطاحوا بهما خارج السلطة.

قضت ثورة 23 يوليو على الملكية والإقطاع، وحوّلت مصر من النظام الملكي إلى الجمهوري، ووزع القائمون على السلطة الأراضي على المعدمين وصغار المزارعين، وحققوا أهداف الثورة الأساسية، من العدالة الاجتماعية والمساواة وتضييق الفوارق بين الطبقات، وتمكنوا من إحداث ثورة على الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وبحكم تبنى الضباط الأحرار مشروع العدالة الاجتماعية الذي وضعته القوى الوطنية المصرية في الفترة من عام 1950م حتى عام 1952م، يرى البعض أن حركة الضباط تحولت إلى ثورة شعبية.

(1) أستاذ ربيع السعدني: جريدة التحرير، تحت عنوان أحداث ووقائع، العدد (1573)، بتاريخ 25 يوليو 2017م، ص2.

عبر مذكراته التي كتبها عقب خروجه عن الحكم، ووضعه قيد الإقامة الجبرية وأسرته بعيدًا عن الحياة السياسية لأكثر من 30 عامًا تحت عنوان «كنت رئيسًا لمصر»، أطلق اللواء محمد نجيب، أول رئيس مصري بعد التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري على ما حدث في 23 يوليو عام 1952م الانقلاب، مشيرا إلى أن لفظ «انقلاب» لا يعد إساءة لحركة الجيش ولا للضباط الأحرار.

الثورات لا تصنعها الجيوش

«الثورات تقوم بها الشعوب لا الجيوش»، هذا ما أكده الدكتور وحيد عبد المجيد، نائب رئيس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، وعضو منتدى الحياة الدستورية والعدالة للجميع، الذي وصف ما حدث في 23 يوليو 1952م بأنه: «اغتصاب للسلطة» واحتكار للحكم على مدى 65 عامًا، وديكتارتورية تخللتها بعض الحريات في فترات استثنائية، ولم يتحول يومًا ما إلى ثورة شعبية، حيث لم يكن هناك أي دور أو مكان للشعب في المعادلة السياسية.

كل ما حدث – حسب تعبير عبد المجيد– يتمثل في أن: 11 من ضباط الجيش استولوا على السلطة في مثل هذا اليوم بمقدمات حاضرة ومبشرة على العقود السابقة على عام 1952م، وطردوا الشعب نهائيا خارج المعادلة السياسية لما يقرب من 65 عامًا حتى الآن، ولم يتم إلغاء الطبقية الاجتماعية كما يردد بعض الناصريين، فقط انعكست الأوضاع وتم انتقال لقب الباشا من الإقطاعيين إلى الضباط، وذهب ملك وحل محله جيش من الملوك والجنرالات.

عزل الشعب

وأضاف عبد المجيد لـ«التحرير»: «أن السلطة التي حكمت البلاد عقب الإطاحة بالملك فاروق ألغت أي دور للشعب المصري، وكانت ترى أنها الدولة والشعب والمجتمع، ما أسهم في تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية بصورة كبيرة في غضون سنوات قليلة بدأت بنكسة 1967 واستمرت عقودًا طويلة».

وعقب 23 يوليو أعلن اللواء محمد نجيب، أحد قادة الضباط الأحرار في بيانه الأول إثر الإطاحة بالملك فاروق عن العرش أنهم ليست لهم مطامع في حكم مصر،

وهـدفهم القضـاء عـلى الفسـاد والرشـوة والمحسـوبية، ولكـن بعـد سـنوات قليلـة ظهرت الإنجازات على السطح لفترة قصيرة حتى تلاشت بعد ذلك.

وبدأت سياسات النظام الجديد تهتم بالفئات الأضعف (الأكثر فقرًا) من خـلال بنـاء المساكن لهم ورد الأراضي إلى الفلاحين، وتوفير العـلاج المجـاني والتـأمين الصـحي، وتحسين أوضاع التعليم بعد عقود من الجهل والمرض وتحسين أحوال المعدمين، وتم صدور قانون الإصلاح الزراعي وبعد سـنوات طويلـة مـن الفيضـانات تـم محاصـرتها بإنشاء السد العالي، وانتعشت الصناعة عبر إنشاء 1200 مصنع في مصر.

ويقول عبد المجيد: «إن حركة التاريخ لا يستطيع أحد أن يحدد لها مسـارًا أو يرسـم لها خطة شاملة، فالتحولات الكبيرة لم يتوقعها أحد قبلهـا في أي مرحلـة تاريخيـة، وبلـد بحجم مصر لا بد أن يجد له طريقًا نحو التقدم في يوم من الأيام».

ومن جانبه، أوضح الدكتور عماد جاد، عضـو لجنـة العلاقـات الخارجيـة بمجلـس النواب أن التعريف الدقيق لما حدث في 23 يوليو هـو «انقـلاب عسـكري» احتفـى بـه الشعب، وهو عكـس مـا حـدث في 25 ينـاير 2011م و30 يونيـو 2013م، حـين ثـار الشعب على نظام حسني مبارك وعزل محمد مرسي، وقام الجـيش بتـأمين الحمايـة لـه وتحقيق مطالبه من خلال خارطة الطريق التي تم الاتفاق عليها بمشاركة القوى الوطنيـة المصرية.

في المقابل كانت مصر قبل يوليو 52 عبارة عن مجتمع 99٪ منه فقراء و1٪ فقط هم من يمتلكون كل شيء في مصـر، وهـو مـا يتكـرر اليـوم ليعيـد التـاريخ نفسـه، حسـب إحصاءات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، الذي كشف عن أن 1٪ فقـط مـن رجال الأعمال يتحكمون في 48.5٪ من دخل مصـر، و15٪ يسـيطرون عـلى 86٪ مـن ثروات البلاد.

▪▪ بعد 65 عامًا

وثائق المخابرات البريطانية لإفشال ثورة يوليو [1]



1918 - 1970

*** عبد الناصر... المسلم الملتزم والمبدع المجتهد.. كيف اختفت الفتنة الطائفية وظواهر التكفير في عصره..؟**

لا أنكر احترامي العميق لجمال عبد الناصر، بالرغم من عدم اعترافي بالناصرية الحزبية، فلا حزب لعبد الناصر عندي سوى (تحالف قوى الشعب العربي العاملة المبدعة والمنتجة)، ويمكن صياغة هذا التحالف تحت أي مسمى لا يهمش الشعب وقواه الحية في اسم شخص، حتى وإن كان عبد الناصر نفسه، فهو لم يكن إلا مترجمًا مخلصًا لمشاعر الشعب العربي ومعبرًا صادقًا عن تطلعاته؛ لذلك كان عبد الناصر رمزًا خالدًا، وقدوة في المهارة والمسلك، لا ينكر نقاءه وكفاءته حتى أشد أعدائه حقدًا عليه.

لقد كان جمال عبد الناصر أنموذجًا مبهرًا للمواطن العربي المسلم الملتزم، والمبدع المجتهد، من يزايد على عمق إيمان جمال عبد الناصر ونصاعة إسلامه لا يمكنه أن ينكر أن جمال عبد الناصر كان أول مسلم في التاريخ يتم بأمره وفي فترة

(1) مجلة الأهرام العربي، مجلة أسبوعية، تصدرها مؤسسة الأهرام، السنة 20، العدد 1057، السبت 22 يوليو 2017م، القاهرة.

حكمه جمع القرآن الكريم في شرائط مسموعة مرتلاً ومجودًا، طبع منه مئات الملايين من النسخ التي انتشرت في جميع أنحاء المعمورة، وأن عدد المساجد التي بنيت في عصره زادت على عشرة آلاف مسجد، مساوية بهذا العدد ما تم بناؤه من مساجد منذ الفتح الإسلامي حتى قيام ثورة الضباط الوحدويين الأحرار المجيدة عام 1952م من ميلاد المسيح عليه السلام.

وانتشرت المساجد التي بنيت في ذلك العصر في جميع القارات، فأول مسجد بُنِيَ في أمريكا كان بأمر من عبد الناصر الذي لم يكن طائفيًا، والدليل أن عبد الناصر رحمه الله موَّل بناء أول مسجد للشيعة في أمريكا، وأن زوجته سيدة فاضلة من أصول إيرانية، وأنه مكن الإمام الخوميني من الإقامة في النجف الأشرف أيام عبد الرحمن عارف، ناهيك عن تطوير الأزهر الذي تحول إلى منارة علمية تخرج العلماء من جميع المذاهب في كل المجالات فقه وطب وهندسة، وكل صنوف الدراسات والعلوم التطبيقية والإنسانية، تشع بنورها على المسلمين في العالم أجمع، وأكبر دليل على ذلك مدينة البعوث التي تمتد على مساحة ثلاثين فدانًا يسكنها طلاب مسلمون من سبعين دولة من القارات الخمس، يدرسون ويقيمون إقامة كريمة كاملة مجانًا، وفي عهد عبد الناصر تم وضع موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي والتي ضمت كل علوم وفقه الدين الحنيف في عشرات المجلدات وتم توزيعها في العالم كله.

▪▪ تأميم المصالح الأجنبية في مصر



1918 - 1970

في 18 ديسمبر 1914م؛ أي في اليوم الذي وضعت فيه مصر تحت الحماية البريطانية، أي تحولت قسرًا إلى محمية بريطانية، كانت جملة الاستثمارات الأجنبية في مصر تبلغ حوالي 93 مليون جنيه مصري، منها 67 مليون جنيه موظفة في الأراضي الزراعية، مقابل 8 ملايين جنيه فقط لرؤوس الأموال المصرية، بالإضافة إلى أن مصر كانت مدينة للخارج في تلك الفترة بمبلغ 94 مليون جنيه، وهذا يعني أن الأجانب كانوا يملكون 92٪ من رؤوس الأموال الموظفة آنذاك في مصر.

وفي عام 1948م بلغ الرأسمال الإجمالي لمجموع الشركات العاملة في مصر ما يقرب من 118 مليون جنيه، يملك الأجانب منها 71 مليونًا و624 ألف جنيه مصري، ويملك المصريون منها 46 مليونًا و308 ألف جنيه؛ أي أن الأجانب كانوا يملكون حوالي 61٪ من رؤوس الأموال الموظفة، بينما لا يملك المصريون سوى 39٪ من جملة رؤوس الأموال(1).

(1) د. أنور عبد الملك: المجتمع المصري والجيش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص47 وما بعدها.

وهكذا يتضح لنا أن الطابع الغالب على رؤوس الأموال الموظفة في مصر كان للأجانب، ورغم كل الجهود التي قامت بها الرأسمالية المصرية، خصوصًا جهود طلعت حرب ومجموعة شركات بنك مصر واتحاد الصناعات، الذي كان على رأسه إسماعيل صدقي باشا، وخلاف ما يعتقده الكثيرون كانت السيطرة في القطاع الصناعي للرأسمال الأجنبي، خصوصًا في مجالات صناعة السكر والأسمنت والتقطير والأسمدة الكيماوية وغيرها.

ولم تكن الشركات التي ضمها أو أنشأها بنك مصر تمثل أكثر من 28٪ من مجموع رؤوس الأموال المصرفية المصرية حتى نهاية عام 1960م، وفي ظل هذه الحقيقة المرة نشأ وعي الضباط الثوريين الصغار: الاحتلال العسكري البريطاني من جهة، والسيطرة الأجنبية على الاقتصاد المصري من جهة أخرى.

لذلك قد لا يبدو لنا عجيبًا الآن، أن يسجل تاريخ يوم خطبة عبد الناصر في الأزهر عام 1956م ورفض الإنذار البريطاني - الفرنسي، ثلاثة إجراءات أخرى قام بها عبد الناصر فور عودته من الأزهر ولا يتذكرها أحد:

الإجراء الأول: استرداد كل منابع البترول المصري من الشركات الإنجليزية التي تحتكره، وتم الاستيلاء عليه في نفس اليوم، واعتبر عبد الناصر ذلك أمرًا مكملاً لتأميم قناة السويس.

والإجراء الثاني: كان هو فرض الحراسة على كل المصالح البريطانية والفرنسية في مصر، وكانت تشمل البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية، واعتبر جمال عبد الناصر أن وضع الحراسة على هذه المصالح هو تدعيم للاقتصاد الوطني أثناء المعارك الحربية.

والإجراء الثالث: الذي اتخذه عبد الناصر كان التحفظ على ممتلكات حوالي ستة آلاف من الأجانب معظمهم من اليهود، واعتبر جمال عبد الناصر أن هذه تصفية نهائية لما تبقى من عصر الامتيازات الأجنبية.

لقد كان المعنى العميق لهذه «التأميمات الجديدة» أن عبد الناصر قد وسع من جديد نطاق الحرب والمواجهة مع الغرب لتتعدى مجرد «تأميم» لمرفأ حيوي هو قناة السويس، ليشمل بإجراءاته الجديدة مجمل مصالح الدول الغازية وأفرادها وجالياتها

المقيمة في مصر، والتي كانت تسيطر على مواقع اقتصادية استراتيجية وحساسة في الدولة المصرية.

وهكذا تم تمصير 55 شركة فرنسية وبريطانية، بحيث انتقلت ملكيتها للدولة من خلال المؤسسة الاقتصادية، وهكذا دشن العدوان الثلاثي على مصر بداية ظهور القطاع الصناعي الوطني، لم يكن هناك إذًا مجال للتراجع أمام الغزو الأجنبي أو تهديداته..!! وكانت الفرصة سانحة لتحرير الاقتصاد المصري من الهيمنة الأجنبية، وضرب عبد الناصر ضربته وكان تأميم الشركات الأجنبية أحد الانتصارات «المنسية» لحرب السويس، فهل أخطأ عبد الناصر..؟!!

على أي قوى اجتماعية كان يستند عبد الناصر في قراراته بتوسيع نطاق المواجهة والحرب مع القوى الاستعمارية..؟!

إن تجربة النضال الوطني عام 1956م أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن لحظات النضال الوطني تستدعي كل مقومات الأمة على التوحد والتحالف في مواجهة الخطر الخارجي، ومن نفس المنطق كان قرار عبد الناصر بتوزيع السلاح على المواطنين؛ «لأن الجيش يجب أن يشعر أن الشعب معه في نفس الخندق»، وقد جرى بالفعل توزيع مائة وخمسين ألف قطعة سلاح، وقد اندمج في هذا النضال الوطني كثير من الوطنيين المصريين من مناصرى جماعة «الإخوان المسلمين»، والمنظمات الماركسية الذين هيأوا مسرح القتال لعمليات فدائية حقيقية، ونسوا كثيرًا من خلافاتهم واعتراضاتهم على عبد الناصر.

واللافت للنظر في وقائع هذه الأيام أن بعد كبار المسئولين في نظام عبد الناصر كانوا يعترضون على موقفه بتوسيع نطاق المواجهة، وبشكل خاص قراره بتوزيع السلاح على المواطنين، وذلك خشية أن يؤدي توافر السلاح في أيدي المواطنين إلى عواقب يصعب التنبؤ بها، وكان رد جمال عبد الناصر: «إنه يستبعد تمامًا حدوث شغب في هذه الظروف؛ لأن الشعب يغضب ويثور ويحطم إذا أحس أن الحكومة في ناحية، وهو في ناحية أخرى، وأما إذا أحس الشعب أنه هو والحكومة في نفس الموقف فإنه يتفاعل معها ولا ينقلب عليها»، وأضاف عبد الناصر: «إن المسألة مسألة ثقة ولا غير ذلك».

▪▪ حلم الوحدة العربية



1918 - 1970

عندما نجح جمال عبد الناصر في تحقيق أول وحدة عربية بن إقليمين عربيين هما مصر وسوريا، كان يعلم أن المعركة مع أعداء الوحدة العربية في الداخل والخارج قد بدأت، فمع هذه الوحدة بدأ الحلم الذي طال انتظاره وكأنه قد أصبح قابلاً للتحقيق في النهاية، فقد بدأت الأنظمة المعارضة للمشروع النهضوي العربي في الانهيار، فسقط الحكم الشمعوني في لبنان، وسقطت المملكة الهاشمية في العراق، وبدا أن هناك اتجاهًا قويًا داخل «الضباط الأحرار» العراقيين، الذين قاموا بالثورة يضغط باتجاه الالتحاق السريع بدولة الوحدة الناشئة، والتي كان من نتائجها المباشرة نزول القوات الأمريكية في لبنان والقوات البريطانية في الأردن، بعد أن اجتاحت عمان وبيروت مظاهرات عارمة يلهبها حلم الوحدة الذي فجره عبد الناصر.

وقد قدرت وكالات الأنباء آنذاك «رويتر» و«الاسشياتوبرس» أن عدد اللبنانيين الذين قصدوا بيروت باتجاه دمشق التي كان يزورها الرئيس عبد الناصر قد وصل إلى نصف مليون، أي أن نصف لبنان قد شارك واقعيًا في مواكب الرحلة إلى دمشق خلال فترة لا تزيد على أسبوعين، ومن ناحية أخرى تأججت الثورة في الجزائر وبدت الأمور

آنذاك وكأننا نسير نحو النصر النهائي للمشروع العربي، الذي بدأت ملامحه قريبة تداعب الخيال الشعبي، إن الوحدة المصرية السورية وقيام الجمهورية العربية المتحدة كشف بشكل فجائي وصاعق عن جوهر المشروع النهضوي العربي؛ أي الوحدة العربية، وكشف في ذات الوقت عن أعداء هذا المشروع الخارجيين والمحليين، استطاع محمد حسنين هيكل أن يكشف بالوثائق حالة الهوس والجنون التي انتابت هذه القوى بعد إعلان الوحدة المصرية السورية عام 1958م في كتابه «سنوات الغليان».

الوحدة وساعاتها الأخيرة[1]

كان أول رد قاله عبد الناصر للضباط الـ(22) الذين وصلوا القاهرة منتصف يناير 1958م مصرين على ألا يعودوا لدمشق إلا ومعهم اتفاق الوحدة، وهذه حقيقة لا بد من تسجيلها، إن الوحدة ليست بالعمل السهل، إن أملي أن نجعل مصر نموذجًا للعمل الوطني، وبرغم ما في ذلك من مشقة فإن هذا هو طريقنا الوحيد ليس للتطوير فقط وإنما للوحدة أيضًا، لقد بدأنا بالكاد بعد المعارك التي خضناها نوجه كل طاقتنا لبناء مصر، وأملي أن تكون مصر قاعدة قوية سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا لنضال باقي الشعوب العربية.

وآه لو أن عبد الناصر تمسك بما قال وأصر – على الأقل – على تأجيل الوحدة عدة سنوات إلى أن تنتهي مصر من تنفيذ خطتها الخمسية الأولى، ولكن الضباط السوريين استغلوا دعوة القومية العربية التي كان يرددها عبد الناصر وجاء ردهم: «تريد أن تعمل ذلك لمصر وتترك سوريا التي علقت آمالها عليك، إنك بذلك تتخلى عن دعوة القومية العربية كلها من أجل مصر وحدها وتترك سوريا التي عقلت آمالها على مصر».

وتحجج عبد الناصر بأن هؤلاء الضباط جاءوا إلى القاهرة دون علم الرئيس السوري شكري القوتلي، وأنه لا يمكنه المضي في موضوع خطير مثل الوحدة من وراء علم الرئيس السوري، وعلى الفور اتفق الضباط على سفر اثنين لدمشق عادا في اليوم التالي ومعهم صلاح البيطار وزير الخارجية الذي قال لعبد الناصر أن الحكومة السورية موافقة على إتمام الوحدة.

---

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، بتاريخ 8 أغسطس 2017م، ص20.

وكان رد عبد الناصر أنه يضع 3 شروط لذلك:

1- استفتاء شعبي على الوحدة في البلدين.

2- توقف تدخل الجيش في السياسة بكل الوسائل.

3- توقف نشاط الأحزاب وقبول حلها وعلى رأسها حزب البعث أكبر الأحزاب في سوريا.

وكان رد صلاح البيطار بصفته كادرًا كبيرًا في حزب البعث هذا أمر لا بد أن نعود فيه إلى قيادة الحزب، أما الضباط الـ(22) فكان ردهم سيادة الرئيس نحن نفعل ما تأمرنا به.

العبارة الشهيرة التي سلم بها القوتلي : **سوريا لعبد الناصر**[1]

بإعلان قيادة حزب البعث الموافقة على الوحدة تم توافر الشروط التي وضعها عبد الناصر، مما وفر للسوريين «اختطاف» الوحدة بين مصر وسوريا كما كانوا يهدفون لفترة انتقال يحلون فيها مشكلاتهم، في الوقت الذي شعر فيه حزب البعث الذي لولا موافقته ما تمت الوحدة أنهم أهدوا سوريا إلى عبد الناصر ليصبح زعيمًا عربيًا، وبالتالي على عبد الناصر أن يقدر ويطلق أيديهم في سوريا.

لم تستمر مباحثات الوحدة طويلاً، ففي أول فبراير جاء الرئيس السوري شكري القوتلي للقاء عبد الناصر، وفي احتفال جرى في قصة القبة تم فيه توقيع اتفاق الوحدة بين مصر وسوريا، كانت الابتسامات على الوجوه، وبعد أن وقع الرئيس عبد الناصر الاتفاق وقد سبقه للتوقيع شكري القوتلي، الذي بتوقيعه تنازل لعبد الناصر عن رئاسة سوريا، التفت شكري القوتلي إلى عبد الناصر وقال له بلهجته العامية وبطريقته المشهورة: «النص التالي أنقله من مقال بصراحة للأستاذ محمد حسنين هيكل في الأهرام بتاريخ 27 أكتوبر 1961م».

شكري القوتلي: هيه.، أنت لا تعرف ماذا أخذت يا سيادة الرئيس..؟ أنت أخذت شعبًا يعتقد كل من فيه أنه سياسي، ويعتقد خمسون في المائة من ناسه أنهم زعماء، ويعتقد

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، بتاريخ 9 أغسطس 2017م، ص20.

خمسة وعشرون في المائة منهم أنهم أنبياء، بينما يعتقد عشرة في المائة على الأقل أنهم آلهة.

أخذت يا سيادة الرئيس ناسًا فيهم من يعبد الله، وفيهم من يعبد النار، وفيهم من يعبد الشيطان، وفيهم من يعبد ...، وقال كلمة تتعلق بالمرأة لا يجوز وضعها على الورق.

ونظر جمال عبد الناصر إلى القوتلي وقال ضاحكًا.، لماذا لم تقل لي ذلك قبل أن أوقع الاتفاق بإمضائي «انتهى ما نقلته عن هيكل».

وفي يوم 22 فبراير جرى الاستفتاء الشعبي في البلدين وأعلنت نتائجه في اليوم التالي وبعد ساعات كانت الطائرة تقل عبد الناصر في رحلة غير معلنة إلى دمشق ليتعرف على الدولة التي أصبح رئيسًا لها، ويشهد عبد الناصر في دمشق ما لم يشهده من قبل، فقد أحاط به السوريون وحملوه في سيارته على أكتافهم..!

مؤامرة مدفوعة للانفصال(1)

تابع شهادتي عن ثورة يوليو، رغم أن من كان يزور سوريا في السنة الأخيرة للوحدة يمكنه الاستماع من بعض السوريين إلى عبارات عدائية مثل الاستعمار المصري لسوريا، إلا أن عبد الناصر فوجئ بانقلاب الانفصال في 28 سبتمبر 1961م.

كان السوريون يشكون في ذلك الوقت من عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني أو المخابرات السورية، الذي كان يفرض سلطاته على السوريين بطريقة بالغة، فأرسل عبد الناصر عبد الحكيم عامر نائبًا عنه إلى دمشق لتهدئة الأوضاع فازدادت المشكلات عددًا وحدة، وفي ذلك الوقت أمضيت شهرين في سوريا عرفت فيهما قوة السراج، فقد كان أمرًا عاديًا أن أعود إلى الفندق الذي أقيم فيه فأجد مندوبًا من مكتب السراج ينتظرني لأقدم له تقريرًا عن لقاءاتي بالوزراء.

وكما توقع البعض فإنه بعد أن كانت القومية العربية شعارًا، أصبحت بتحقيق الوحدة هدفًا واضحًا لأعدائها، يوجهون ضده مؤامراتهم، وفي الوقت الذي سافر فيه ألوف السوريين إلى مصر ومارسوا أنشطة تجارية ناجحة ازدهرت وبعضها بقى حتى اليوم، لم

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، بتاريخ 14 أغسطس 2017م، ص20.

يسافر من المصريين سوى عدد قليل كان أنشطهم بشهادة محمد حسنين هيكل القرداتية الذين يقومون بترقيص القرود.

وزادت أسباب الانفصال إلى أن جاءت القشة التي قصمت ظهر استمرارها عندما فاجأ عبد الناصر يوم 20 يوليو 1961م الإقليم الجنوبي (مصر) بعدد من القرارات الاقتصادية أخطرها إنزال اللافتات المكتوبة بأسماء أصحابها في مصر على 800 شركة مصرية في مختلف الأنشطة واستبدالها بلافتات تحمل كلمة العامة في إشارة أنها أصبحت ملك الدولة أو القطاع العام.

وفي سوريا فقد تناولت التأميمات 20 بنكًا، و51 شركة تأمين، و3 شركات خاصة من بينها الشركة التجارية الصناعية المتحدة المشهورة في سوريا باسم الشكرة الخماسية؛ لأنها تملكها أكبر وأغنى خمس عائلات سورية، وكان رغم أنها لم تكن حزبًا تفوق في نفوذها الأحزاب.

وبينما استسلم المصريون أصحاب الشركات التي أممت لقدرهم، فقد تسابقت أموال اتهم بدفعها أصحاب الشركة الخماسية والملك عبد العزيز آل سعود والملك حسين لشراء انقلاب عسكري يقصف عمر الوحدة.

الوحدة من جديد(1)

تابع شهادتي على ثورة يوليو كان ضروريًا أن أشير الخميس الماضي إلى ما حدث في العراق، ووصول الحكم إلى عبد السلام عارف في فبراير 1963م، فمنذ ذلك الوقت بدأ الحديث عن وحدة ثلاثية تجري بين مصر وسوريا والعراق، وكان قادة انقلاب الانفصال في سوريا وهم أصلاً لم يقوموا بانقلابهم ليحكموا، وإنما لإنهاء الوحدة وبالتالي لم يستمروا سوى شهور قليلة حتى قبل على معظمهم وتم سجنهم، وبدأت سوريا مرحلة جديدة بقيادة حزب البعث وراحت تغازل فيها عبد الناصر باستئناف ما انقطع.

وشجع وصول عارف للحكم في العراق السوريين، فبدأت في مصر يوم 14 مارس 1963م محادثات لتحقيق وحدة ثلاثية استمرت عشرة أيام بين وفود مصر برئاسة عبد

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، بتاريخ 21 أغسطس 2017م، ص20.

الناصر، والعراق برئاسة على صالح السعدي نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية، وسوريا برئاسة نهاد القاسم نائب رئيس مجلس الوزراء، وقد نشر الأهرام محاضرها كاملة على 26 حلقة من 21 يونيو إلى 22 يوليو 1963م، وذلك حتى نتهي نشرها قبل يوم من الخطاب الذي ألقاه عبد الناصر في 23 يوليو في العيد الـ(11) لثورة يوليو.

وتحكي المحاضر كيف صارح عبد الناصر الوفد السوري بالذات بما ارتكبه أيام الوحدة وندم السوريين وإلحاحهم على إعلان وحدة فورية لإنقاذ سوريا، لكن ممثل العراق صارح عبد الناصر بأنه مع أن الوحدة ضرورية لدعم نظام الحكم في العراق، إلا أن الظروف الاقتصادية والسياسية لا تسمح للعراق بتحقيق هذه الوحدة بالصورة التي تقترحها سوريا، وعلى هذا تم الاتفاق على الاكتفاء بتوقيع ميثاق يقر بإيمان الدول الثلاث بالوحدة واتفاقها على تأجيلها إلى أن يتم إعداد أسسها القوية.

لكن ما إن عاد الوفد السوري إلى دمشق حتى بدأ حزب البعث الهجوم على مصر، وفي خطابه يوم 23 يوليو 1963م الذي استغرق عدة ساعات، كان الخطاب كله عن لا أخلاقيات حزب البعث أنهاه عبد الناصر بقوله: خلاصة الكلام نحن نعتبر أن نظام حزب البعث القائم في دمشق الآن نظام لا وحدوي لا اشتراكي، ولا نعتبر أن حكومة سوريا التي وقعنا معها اتفاق الوحدة تمثل سوريا، وبذلك أغلق ملف الوحدة.

أوجاع التأميمات[1]

إذا كانت لسنوات تربيتي في مدينة دمياط تأثيرها الكبير على تقديري الشديد للقطاع الخاص، وكفاح أفراده في العمل الشريف الذي يؤدونه، فقد تربيت في مدينة عبارة عن خلية نشاط وعمل في صناعات الأثاث والأحذية والألبان والأسماك والأرز والتجارة والسياحة (مصيف رأس البر)، وفي أسرة متواضعة تعمل في صناعة الحلويات ومن معمل صغير راح ينمو حتى أصبح معملاً من ثلاثة أدوار وعربات تجوب الدلتا حاملة إنتاجها محققة ربحها الشريف.

ولم تكن الأسرة إلا نموذجًا لآلاف الأسر في كل مصر، ومن عاش سنوات الحرب

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام، 23 أغسطس 2017م، ص20.

العالمة الثانية بين عامي 1939م و1945م يذكر كيف أنه رغم إغلاق مـوانئ الاسـتيراد بسبب الحرب، فإننا لم نشعر بالحرمان من أي سلعة باستثناء الجاز أو الكيروسين الـذي كان أساس الإضاءة بلمبات الجاز وتشـغيل بـوابير الجـاز، الوسـيلة الأساسـية للطـبخ وتسخين الماء، فأصبح بيعه بكوبونات.

غير ذلك لم نحرم من أي شيء، وقد استطاع القطاع الخاص أن يعوض بجهده نقص لمبات الجاز والأكواب الزجاجية التي كنا نسـتوردها ونقـص السـكر بإنتـاج مـا عـرف بالجلوكوز، وهي مادة سكرية تنتج من البطاطس، ومن يقرأ كتاب الأسـتاذ عمـر طـاهر الذي أسماه «صنايعية مصر» يستطيع أن يعرف دور القطاع الخاص في مصر قديمًا، وهو دور لم يختلف، فقد كتب عمر طاهر عن الراحلين، بينما في خريطـة الأنشـطة المختلفـة حاليًا عشرات الأفراد الذين أقاموا عشرات المدن والمصانع وعمروا الصحاري، كانـت في شرم الشيخ والغردقة والساحل الشمالي حولوها إلى أجمل البقاع.

وأبدًا لم أستطع أن أجد سببًا مقنعًا للتأميمات التي صدرت في 20 يوليو 1961م، وأن يذهب أصحاب المصانع هـذا الصـباح إلى مصـانعهم فيجـدوها محاصـرة بالـدبابات، والحسابات في البنوك تم وضع اليد عليها، وحتى السيارة التي ذهـب بهـا إلى المصـنع لم يعد يستطيع أن يستقلها.

وكان تأثري كبيرًا بالفنان محمد فوزي الذي مازلنا نعيش على أغانيـه وأفلامـه، وقـد جمع كل ما كسب لإنشاء أول شركة في الـوطن العربـي للإسـطوانات، لكـنهم لم يرحمـوه ويقدروا كفاحه فأصيب بسرطان العظام وانخفـض وزنـه إلى 40 كيلوجرامًـا ومـات في حسرة أصابت آخرين كثيرين جرى تأميمهم.

الثورة على الأغنياء[1]

كان أخطر من الانفصال بين سوريا ومصر تأكد عبد الناصـر مـن أن الضـباط الـذين قاموا به قبضوا الثمن من الذين تم تأميمهم، فراح يخشى حدوث ذلك في مصر.

ويحكي عبد اللطيف البغدادي عضو مجلس قيادة الثورة في مذكراته، التـي تعـد مـن

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، تاريخ 30 أغسطس 2017م، ص20.

أصدق وأخطر المذكرات لشاهد مسئول كان يسجلها يومًا بيوم وينشرها مبكرًا عام 1977م في جزئين، أن عبد الناصر دعا إلى اجتماع تم في بيته يوم الخميس 12 أكتوبر 1961م حضره كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعي وزكريا محيي الدين وطبعًا البغدادي.

وأنقل من ص150 الجزء الثاني وما بعدها قول بغدادي بعد أن تحدثنا عما يدور من إشاعات قال جمال إن الرجعيين والانتهازيين وكذا الشيوعيين بدأوا يحاربون دفاعًا عن مصيرهم، فبصدور القرارات الاشتراكية في يوليو 1961م بدأت الثورة الاجتماعية وبذلك أحست الرجعية أن الميزات التي احتفظت بها من 1952م سيقضي عليها، ولا بد أن نقاتل حفاظًا عليها وستكون المعركة مريرة بيننا وبينهم، وأنهم يحاولون انتهاز فرصة اهتزازنا من صدمة سوريا والتأثير علينا عن طريق الشائعات.

ويقول البغدادي أن جمال استطرد قائلاً: «وما دام الأمر كذلك وأنهم يعدون للقيام بثورة فلنأخذ نحن المبادرة ونقوم نحن بعمل ثورة، وهذا الحل هو الذي وصلت إليه قبل يومين، بعد ما استعرضت كل الحلول الممكنة ولا أرى بديلاً له».

وتحدث بغدادي ومن بعده زكريا وكمال حسين وعبد الحكيم والسادات، وقد اختلفوا بين مؤيد ومعارض، وفي النهاية بعد أن تكلمنا جميعًا قال جمال: «الحقيقة هناك نقطة مهمة أثيرت وتحتاج إلى تفكير وهي أن الثورة غالبًا ما تقوم لتنتزع السلطة من الحاكم، فكيف نقوم بثورة والسلطة في أيدينا..؟»، وعلقت على ما ذكره بأننا نفتعل قيام ثورة وضررها سيكون أكثر من نفعها، وقال جمال إنها نقطة لها وجاهتها.

انتهى ما نقلته من مذكرات البغدادي، وهو إن عبر عن شيء فعن المخاوف التي حملها عبد الناصر بعد الانفصال من الأغنياء رغم تأميمهم جعله يفكر في ثورة جديدة ضدهم، أو بمعنى آخر إجراءات مشددة تمنع استخدامهم لأي فلوس تكون معهم..!

جرائم تصفية الإقطاع(1)

(30) مساء يوم 30 إبريل 1966م وقع حادث في قرية كمشيش مركز تلا بالمنوفية،

(1) صلاح منتصر: جريدة الأهرام تحت عنوان مجرد رأي، بتاريخ 13 سبتمبر 2017م، ص20.

كانت له أصداء واسعة في كل مصر، فقد قتل بطلق ناري المواطن صلاح حسين الناشط السياسي عضو الاتحاد الاشتراكي في القرية في مشادة، جرى تصويرها بأنها من تدبير عائلة الفقي التي تعد من كبار ملاك الأراضي بالمحافظة، ولصداقة القتيل بشقيق الرئيس أخذت القضية بعدًا سياسيًا، فقد أطلت عقدة الانفصال السوري الذي كان وراءه الإقطاع السوري.

وعلي الفور اقتحمت المباحث الجنائية العسكرية القرية، وتتبعت كل أفراد عائلة الفقي رجالاً ونساءً، وفي ساعات تمكنت من القبض على 314 شخصًا أودعتهم السجون، ووقعت ضدهم جرائم جاء عنها في تقرير كتبه المستشار عبد الحميد عمر (بعد نكسة 67): «إن الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية هي أسوأ فترة مرت بها مصر، فهي فترة ذبحت فيها الحريات، ووطئت فيها أجساد الناس بالنعال، وأقر الرجال فيها بالتسمي بأسماء النساء، ووضعت ألجمة الخيل في فم رب العائلة وكبير الأسرة، ولطمت الوجوه والرؤوس بالأيدي كما ركلت بالأقدام، والمحكمة لا يسعها إلا أن تسجل أن المخلوق الذي ينسي خالقه ويأمر الابن أن يصفع وجه أبيه أمام الناس هو مخلوق وضيع وتافه».

كان التصور أن الإقطاع عاد يطل برأسه فتقرر التنكيل بمن يفكر مجرد التفكير في رفع رأسه، وتم تشكيل لجنة عليا برئاسة المشير عبد الحكيم عامر أطلق عليها «لجنة تصفية الإقطاع» ضمت 38 شخصًا يمثلون كبار قيادات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي والقوات المسلحة والمخابرات، (كان منهم علي صبري وشعراوي جمعة وصلاح نصر وشمس بدران.

ومدت اللجنة عملها إلي كل مصر التي شهدت فترة بالغة من الرعب، فرضت فيها الحراسات علي من تريد، وصادرت ما شاءت من الأراضي والمحاصيل والعقارات، واستحدثت ما سمته «الإقطاع الوظيفي»، بحيث إذا ضمت أسرة عددا من القيادات الوظيفية البارزة، وكان لها وضع اجتماعي ومركز أدبي أو علمي متميز، اعتبرت أنها تمارس «الإقطاع الوظيفي»، وقامت بفصل عدد من أبنائها تحت مسمى «تصفية الإقطاع الوظيفي..!».

▪▪ جمال عبد الناصر.. وعبد الحكيم عامر



1918 - 1970

بعد نجاح انقلاب 23 يوليو الذي تحول إلى ثورة بعد ذلك بعد تأييد الشعب المصري له، وبعد أن تربع قادة الثورة على دست الحكم في مصر، واستقر قائدها الأول محمد نجيب في سويداء القلوب، وهتف الداني والقاصي باسمه وهللوا له وكبروا، وذاع اسمه في أرجاء الوطن كمحرر لمصر من براثن الطبقة الفاسدة التي كانت تحكمها، سقط محمد نجيب في براثن المؤامرات التي أدت في نهاية الأمر إلى إقصائه عن حكم البلاد، وانقلب عليه العباد رفقاؤه في الثورة ومن نهج نهجهم.

وكان الرئيس السادات قد أعد سلسلة من المقالات التي تهاجمه وتنال من شخصيته، كان من بينها كاتب هذه السطور في جريدة الجمهورية، التي أسسها جمال عبد الناصر حتى أهيل عليه تراب النسيان وتنكر له الزمان، وبقى في قصر زينب الوكيل قرينة الزعيم مصطفى النحاس لا يؤنس وحدته، أو يشاطره أزمته، أو يخفف من مصيبته أحد، وعاش وحيدًا مقهورًا بين كلابه وقططه التي عاش معها عقودًا طويلة لا يرى سوى جدران هذا القصر المهجور الذي ألقوا به بين سراديبه الحالكة الظلام، مع إنه لولاه لما نجحت الثورة.

ونحن نتساءل: هل ما قرأناه منسوبًا إلى أحد لـواءات الجـيش الكبـار الـذي ذكـر في حديث صحفي له أن الرئيس محمد نجيب كان من الإخـوان المسـلمين..؟ وأنـه ظلـم نفسه بانتمائه للإخوان المسلمين وأنه تحالف مـع أعضـاء ثـورة يوليـو، فحينمـا قامـت مظاهرة في الجامعة تهتف ضد الثورة وتوجهت إلى قصر عابدين خـرج لهـا مـن الشـرفة عبد الناصر ونجيب، وفجأة أشار نجيب للقيادي الإخواني عبـد القـادر عـودة مـن بـين صفوف المتظاهرين واستدعاه ليقف بجواره في شرفة القصـر، ثـم همـس نجيـب في أذن عودة بشيء فأشار عبد القادر عـودة للمتظـاهرين بالانصـراف، وعـلى الفـور انصـرفت المظاهرة ومن هنا بدأت تضح لعبد الناصر علاقة نجيب بالإخوان لضرب الثورة.

ثم توالت الاتصالات المريبة بينه وبين الإخوان وكان عبـد الناصـر وقتهـا مشـغولاً بالتفاوض على الجلاء، وتعلم ألا يحارب في جبهتين في وقت واحـد، وأن عبـد الناصـر حذر نجيب من هذا..(1).

وأنه أي الرئيس نجيب يعلم بالمؤامرة التي حيكت ضد جمـال عبـد الناصـر بـإطلاق الرصاص عليه وهو يخطب في ميدان المنشية بالإسكندرية ونجاه الله من هذه المؤامرة..

وهذا الذي ذكره سواء أكان اللواء الذي لا نتذكر اسـمه.. أو د. عـاطف الدسـوقي لم يقم دليل عليه.. وإلا لما أقدم الرئيس عبد الفتاح السيسي وهو الذي قضى على الإخوان وأزاحهم عن حكم مصر أن يطلق اسم الرئيس محمد نجيب على قاعدة عسـكرية كبيـرة سميت باسم محمد نجيب..

وقد نفى هذه الواقعة كثير من اللواءات الكبار الذين عاصروا هـذه الواقعـة، ومـنهم اللواءان أركان حرب فطيم محمد مسعود رئيس هيئة أركـان حـرب القـوات المسـلحة المساعد، واللواء أركان حرب محمد محمود السعدني أحد أبطال حرب أكتوبر.

---

(1) د. عاصم الدسوقي: جريدة اليوم السابع، العدد (2341)، 27 أكتوبر 2017م، ص7.

▪▪ الزعيم كاتبًا ومكتوبًا عنه ..

السياسة منعت عبد الناصر من أن يصبح أحد رواد الرواية في الوطن العربي[1]



1918 - 1970

لم يكن عبد الناصر مجرد ضابط قرر أن يثور على نظام ملكي فاسد، بل كان مثقفا وطنيا ومفكرا مهموما بشئون بلده، ينطبق عليه وصف الشاعر فؤاد حداد لبطل الثورة العرابية محمد عبيد؛ «وجبينه صاحب همّ بيفكر».

الثقافة عند عبد الناصر كانت مقترنة دائما بالثورة والتحرر والقيادة والحكم؛ لذلك عندما انبهر كان انبهاره برواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، المليئة بأفكار الثورة والاتحاد ضد الظلم، وعندما جرب حظه في التمثيل، جسد دور «يوليوس قيصر» في مسرحية شكسبير ضمن برنامج الحفلة التمثيلية السنوية لمدرسة النهضة عام 1935م، وعندما كتب لأول مرة كان عنوان المقال «فولتير.. رجل الحرية»، ونشر في مجلة نفس المدرسة حين كان الطالب جمال عبد الناصر حسين في السادسة عشرة من عمره.

ويبدو أن نداهة الكتابة ندهته، أو لعل أفكاره الوطنية الثورية الملتهبة ألحت عليه فلم يستطع إلا أن يفرغها على

(1) عمرو شوقي: جريدة اليوم الجديد، تحت عنوان في العمق، العدد (73)، بتاريخ 24 سبتمبر 2017م، ص9.

الورق، فكانت رواية «في سبيل الحرية» التي بدأها وهو في نفس السن لكنه لم يكملها، اكتفى بـ أربعة فصول من الرواية، إضافة إلى فصل خامس لم يكتمل، ثم تطوع العديد من الكتاب فيما بعد لإتمامها.

«في سبيل الحرية» كانت تتناول غزو الإنجليز لمصر فيما يعرف بـ«حملة فريزر»، أما الأسلوب فجاء مبشرًا بأديب جيد لو وضعنا في الاعتبار عمر الزعيم الراحل إبان كتابة تلك الرواية، وعمر فن الرواية نفسه وقتها..!

غير مخطئ من يقول إن السياسة قد تكون منعت عبد الناصر من استكمال مشروع روائي مبشر، ولتقرأ له بنفسك ما كتبه ضمن أحداث الرواية وهو لا يزال في سن المراهقة: «لقد كانت وداد – وهي من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة– ذات عينين سوداوين ناعستين، وشعر مسترسل على جبينها، ووجه مثل البدر وسط السحاب.. أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس في الشرفة مع والدته.. وراحت الحوادث الماضية تكر أمامه، فقد كان – بعكس أخيه إبراهيم– خاملا لا مكانة له في القرية».

لا نستبعد بعد ذلك أن يهتم عبد الناصر دون زملائه المقاتلين في حرب فلسطين 1948م بكتابة يومياته وسط نكبة فلسطين والعرب. ولا أن يصدر عقب الثورة كتابه الأشهر «فلسفة الثورة»، والذي انتشر أن الصحفي الراحل محمد حسنين هيكل هو من كتبه، وهو ما رد عليه هيكل قائلا: «نعم أنا كاتب الكتاب، لكنني لست مؤلفه»..! فقد أملى عبد الناصر أفكاره وخواطره عن الثورة على هيكل، الذي بدوره سجلها ثم فرغها وصاغها ونشرها على 3 حلقات عام 1953م بمجلة «آخر ساعة» التي كان يرأس تحريرها.

وشدد هيكل في لقاء عبر قناة الجزيرة على أن الزعيم الراحل أثنى على دوره في خروج هذا الكتاب للنور، على غلاف الطبعة الأولى منه، وما يؤكد أنها كانت فصولا صحفية، مطلع الفصل الثالث من «فلسفة الثورة»، والذي يقول: «مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة، أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت أكثر من ثلاثة أشهر حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة»؛ أي أن الفصل الثالث أو الحلقة الثالثة تأخر نشرها عن الحلقتين الأوليين.

هذا عبد الناصر كاتبا ومؤلفا، فكيف كان مكتوبا عنه..؟ سترى هنا الـرأى وعكسـه، الشيء ونقيضه، كتب تذهب لأقصى المديح وكتـب تبلـغ أقاصـي الـذم والهجـاء، أمـا الأغرب فكان الكتب التي تحمل تناقضاتها بـين طياتهـا، ككتـاب أنـيس منصـور «عبـد الناصر المفترى عليه والمفترِي علينا»، والـذي تشـعر مـن عنوانـه أنـه محايـد، لكنـك ستكتشف بعد أن تنتهي منه أن الشيء المحايد الوحيد فيه هو عنوانه..!

هيكل كتب كثيرا لكن يبقى الأهم «لمصر.. لا لعبد الناصر» الذي رد فيه على ثغرات هوجم من خلالها ناصر في عهد السـادات، كمذبحـة القضـاء، وحـرب الـيمن، وأزمـة الديمقراطية عام 1954م وغيرها، وهو من أصدق كتب هيكل، فلك ألا تصدق كتابـات «الأستاذ» عن ناصر في حياته، على اعتبار أنه سبق أن مدح الملك فاروق مـثلا في حياتـه، وانتقده بعد وفاته، وبالتالي ستكون كتاباته عن عبد الناصر بعد عام 70 أكثر صدقا.

وهنا يطرأ توفيق الحكيم على الذهن، بعـدما تـذكر فجـأة مسـاوئ الحقبـة الناصـرية عقب وفاة عبد الناصر، مع أنه ظـل مؤيـدا مبايعـا طـوال الخمسـينيات والسـتينيات..! فكتب «عودة الوعي»، الذي رد عليه محمد عودة بكتاب أقوى وأصدق بعنوان «الـوعي المفقود»، وهو كتاب بدأه عودة بقصة أو حكمة قد تلقيـك عـلى ظهـرك مـن الضـحك: «قال الموسيقار الشاب للمايسترو الكبير: بالنسبة لتوسكانينى الفنان فإنني أحني رأسي، وبالنسبة لتوسكانينى الإنسان، وخلع حذاءه وانهال عليه»، كثيرون رأوا توفيـق الحكـيم بنفس عين محمد عودة ونفس عين الموسيقار الشاب..!

وعندما ننتقل لما كتب عن الزعيم الراحل بالإنجليزية، سـنذكر هيكـل أيضـا، فـأول كتبه بغير العربية كان «عبد الناصر والعالم» عام 1971م، وتناول كل فصـل مـن الكتـاب علاقة عبد الناصر بواحد من القادة أو الزعماء أو الثوار، كجيفارا ونهـرو وتيتـو ودالاس وإيدن، وغيرهم.

ثم نأتي إلى «جمال عبد الناصر»، وهو اسـم كتـاب أنصـف الـزعيم الراحـل، للكاتـب الروسى «أجاريشيف»، والذي يقـول في أول صـفحة واصـفا مصـر قبـل ناصـر: «كـان المجتمع المصري أشبه بتورتة تزين مائدة الملك في الأعيـاد»، ويقـارن في آخـر صـفحة بين عدد من مشوا في جنازة ناصر، وعدد مـن ودعـوا جثمـان السـادات، 5 ملايـين هنـا

و600 فرد هناك..! فالكتاب صدر عام 1982م، بعد مقتل الرئيس الأسبق بشهور.

وإذا خرج من روسيا كتاب شهير مؤيد لـ«أبو خالد»، فلا شك سيخرج من الولايات المتحدة كتاب شهير معارض له، إنه «لعبة الأمم» لرجل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند، الذي حاول بكل ما أوتي من أحبار أن يشوه صورة قائد ثورة 23 يوليو، ويلصق به أنه «صناعة أمريكية»، لكن في النهاية أصبح الكتاب وثيقة إدانة لأمريكا ومخططاتها لاختراق أنظمة الحكم العربية.

الاهتمام المحلي والعالمي لا يقول سوى أن هذا الرجل حقا تأثيره فاق حدود المكان فتخطى مصر والوطن العربي إلى العالم كله، وفاق حدود الزمان فتخطى عام 1970م إلى 2017م، وإلا فلماذا كل هذا الحرص على مهاجمة عبد الناصر إلى الآن من الرأسماليين أمثال نجيب ساويرس والرجعيين أمثال عمرو موسى..؟

جمال عبد الناصر والفن «حب متبادل»[1]:

أثر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على الفن لم يكن من طرف واحد، بل كان كلاهما داعمًا للآخر، فالزعيم كان بحاجة لتعضيد قراراته بصورة أبسط مما تقدمها مؤسسة الدولة، والفن يحتاج لداعم قوي يرسخ قيمته في حقبة كان يعامل فيها وكأنه مجال موبوء لا يرتاده إلا المارقون، فخرج كلاهما رابحًا ومحققًا لأهدافه.

ذكاء عبد الناصر – الذي لا يختلف عليه حتى الأعداء– استغله على الوجه الأمثل في علاقته بالفن والثقافة، فحين قامت الثورة كانت مسيرة أم كلثوم على المحك، فإما أن تكمل وتظل على القمة كما كانت في العهد الملكي، وأما أن تحتجب بإرادتها أو بأوامر بعض الأصوات في مجلس قيادة الثورة، فكان لجمال القول الفصل باختياره للقرار الأول، لتصير بعدها «كوكب الشرق»، ولسان حال الثورة من خلال أغنياتها التي كان بعضها يُستهل باسم الرئيس: «يا جمال يا مثال الوطنية».

أما سينمائيًا فجرى استثمار الفن السابع لتعريف الشعب بالجيش من جهة، وحث

---

(1) محمد الزلباني: جريدة اليوم الجديد، تحت عنوان في العمق، العدد (73)، بتاريخ 24 سبتمبر 2017م، ص9.

الشباب على الالتحاق به من جهة أخرى، وذلك من خلال سلسلة أفلام إسماعيل ياسين في الجيش، والأسطول، والبوليس الحربي، والطيران، بعد الاستعانة بفطين عبد الوهاب مخرجًا، وعبد المنعم السباعي كاتبًا، وكلاهما كانا ضابطًا بالحربية.

وبالنسبة لشخصية الزعيم الراحل، فهناك عشرة أعمال جسدتها بعد وفاته، بداية من نبيل الحلفاوي في «دموع صاحبة الجلالة» عام 1993م، مرورًا بأحمد زكي في فيلم «ناصر 56» بعدها بثلاثة أعوام، ثم يعود الحلفاوي مرة أخرى ليجسد شخصية ناصر في مسلسل «أوراق مصرية» عام 1998م، وفي عام 1999م يقدمها رياض الخولي في مسلسل «أم كلثوم».

ويحكي الفنان رياض الخولي لـ«اليوم الجديد» عن كواليس تناوله لشخصية عبد الناصر في مسلسل «أم كلثوم» قائلاً: «وقت أن كانت المخرجة الكبيرة إنعام محمد علي تختار فريق العمل، كانت الأدوار كلها مرشحًا لها أكثر من فنان إلا شخصية عبد الناصر، قالت لي: ليس هناك أجدر منك بتقديم الدور، فقلت لها: لو مشهد واحد هاعمله».

وتابع الخولي: «كل من جسدوا شخصية ناصر في السينما والدراما أجادوا في تقديمها، بداية من رئيس جمهورية التمثيل، وكذلك مجدي كامل، وخالد الصاوي، مضيفًا: إتقاني للدور ناتج عن حبي شخص الزعيم، فأنا من أبناء جيل الثورة، التي لولاها ما كنت تعلمت أنا وكثير من أبناء جيلي».

▪▪ «الثورة المضادة» لثورة يوليو 1952م



1918 - 1970

ليس سرًّا أن ثورة 23 يوليو 1952م بقيادة عبد الناصر، تتعرض منذ سنوات وتحديدًا منذ جلس أنور السادات على مقعد الرئاسة، لانقلاب يستهدف شخص عبد الناصر - بالدرجة الأولى- وأيضًا معظم إنجازات هذه الثورة البيضاء.

ويردف الدكتور سعيد اللاوندي في كتابه سالف الذكر قائلاً: ولقد كشف هذا الانقلاب مُفكر مصري كبير هو الدكتور غالي شكري، عبر أطروحة للدكتوراه تقدم بها في باريس في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وكانت تحت إشراف شيخ المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك، الذي عاش في مصر في زمن عبد الناصر وعمل في جامعاتها، وكان عضوًا في المجمع اللغوي المصري، الأطروحة بعنوان: «الثورة المضادة في مصر» ولصاحبها الفضل كأول من وضع يده - فعلاً لا قولاً- على الخطوات المنظمة التي وضعها الرئيس السادات لكي يمحو عبد الناصر من ذاكرة المصريين..!

فتذكر الأطروحة أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن تتفجر - جدلاً ونقاشًا عميقًا- قضايا تشكك في جدوى مشروع بناء السد العالي وتحمله مسئولية «البوار الزراعي»، الذي تعانيه مصر في العقدين الأخيرين..! كما شغلت الناس

- عن عمد- قضية حرب اليمن ومشاركة مصر فيها جندًا وعتادًا، واتجه المخطط أيضًا إلى الاستخفاف بواحد من أهم إنجازات عبد الناصر وهو مجانية التعليم، والصحة والرعاية..!

أقول إن هذه الأطروحة التي حصل صاحبها على تقدير امتياز وتمت طباعتها وتبادلها مع الجامعات الفرنسية والأوروبية، قد فضحت هذه الثورة المضادة في وقت مبكر، لكنها كانت مؤشرًا نحو تنامي هذه الروح المعادية لكل المكتسبات التي حصلت عليها الطبقة المتوسطة المصرية، وطبقة الفقراء المعدمين التي كانت الفائز الأكبر طوال حكم عبد الناصر، ونستطيع أن نقول إن الثورة المضادة لثورة يوليو 1952م تشرنقت لبعض الوقت ثم خرجت علينا في صور جديدة.

وكلنا يعلم أن عودة الملك فاروق: كتبًا، ودراما، وتليفزيونًا، وسينما لم تأت من فراغ، وإنما جاءت مع سبق الإصرار والترصد، وما الكتابة عنه بهذه الرومانسية والنوستالجية «أي الشعور الغامر بالحنين إليه» إلا إحدى شباك هذا المخطط، إلى حد أن المواطن العادي طرح سؤال: إذا كان المليك الغالي فاروق بهذه الدرجة من الوعي السياسي، والحس الوطني اللامحدود، والعشق الخالص لمصر أرضًا وشعبًا وسماءً، فلماذا قامت ثورة يوليو من الأساس..؟

وغاب عن بال هؤلاء المشاركين في جريمة «الثورة المضادة» أن النظام المصري من زمن السادات وحتى اليوم، يستمد شرعيته الأولى من ثورة يوليو وقائدها، ولم لا ألم يخرج من عباءتها وملأ الدنيا ضجيجًا بمبادئها وشعاراتها، وإلا ما معنى أن الرئيس السادات كان لا يمل من تكرار عبارته التي كان يقول فيها: «إنني كنت شريكًا فعليًا في كل القرارات التي اتخذها عبد الناصر»، وكان يصر الرئيس السادات على أن يقرن اسم عبد الناصر بدعاء شهير هو: الله يرحمه..!!

وشملت هذه الحملة ضد عبد الناصر والثورة إلى جانب إيقاظ الملك الوسيم فاروق حديثًا تشكيليًا عن حرب 1948م، وصفقة الأسلحة الفاسدة؛ إذ ذهب أصحاب الثورة المضادة إلى أن الأسلحة كانت سليمة والفساد كان في الأشخاص وليس في العتاد، مع

التلميح في شيء من الخبث إلى قيادات الثورة المصرية..!

وعندما شعر المتآمرون على الثورة أن يقظة فاروق لم تكن أكثر من رصاصة طائشة في الهواء لم تنزعج منها حتى الطيور الغافية على الأشجار، لحقت بمحاولات عابثة سابقة لمحو عبد الناصر من الضمير المصري الحق، تميزت قلوبهم غيظًا وتفتقت أذهانهم عن محاولة عابثة أخرى هي الحديث كثيرًا وكثيفًا عن اللواء محمد نجيب واصفين إياه بأنه المفجر الحقيقي للثورة المصرية، إلى حد أن التليفزيون الرسمي المصري «القناة الأولى وقناة النيل للأخبار» عرض مثنى وثلاث ورباع، قراءة - وتعليقًا على الصور الأرشيفية- تتحدث فقط عن محمد نجيب، ولا وجود لعبد الناصر ورفاقه.

الغريب والعجيب أن خيوط هذه المؤامرة على ثورة يوليو من خلال هذه الثورة المضادة تتداخل وتتلامس، وتتشابك في اتجاهات عديدة بهدف واحد هو القضاء على عبد الناصر، وهيهات أن يتحقق لهم ذلك، ففيلم السادات الذي أشرفت على كتابة السيناريو له السيدة جيهان السادات بنفسها - حسبما اعترفت في حواراتها- والذي ظهر فيه عبد الناصر وكأنه مجرد كومبارس رديء، لم ينجح في أن يجعل الناس تنسى فيلم «ناصر 56»، بل وأن تبكي أمام بعض المشاهد التي جسدت حب وصدق ونزاهة هذا الزعيم المصري الخالد.

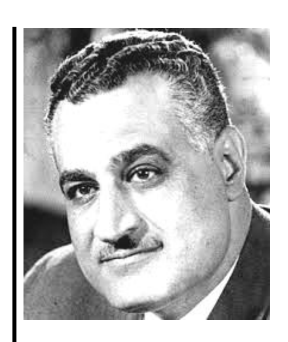
وعمل متحف كبير للسادات في القرية الفرعونية وآخر إلكتروني في مكتبة الإسكندرية، دفع الناس دفعًا للتزاحم داخل متحف صغير ومتواضع لعبد الناصر في ذات القرية، لكن كبير وعظيم بحب كل المصريين.

والخلاصة: أن مثقفنا وناقدنا الكبير صاحب الأطروحة لفت الأنظار بقوة - قبل ما يقرب من ثلاثين عامًا- نحو الثورة المضادة لعبد الناصر وثورته وإنجازاته العريضة، وها نحن اليوم نقر ونعترف بشيئين:

الأول: أن صاحب الأطروحة كان على حق عندما فضح المستور، ووجه سبابته نحو المتآمرين الذين تكاثروا وأصبحوا كغثاء السيل اليوم.

الثاني: أن عبد الناصر أكبر وأعظم من أن تناله هذه الرصاصات الحاقدة والطائشة؛ لسبب بسيط هو أنه يسكن قلوب أهل مصر الطيبين من فقراء ومعدمين، وتحمله الصبايا مع الجرار على رؤوسهن في ريف مصر، وتلهج ألسنة الآلاف من المرضى بالدعاء له في صمت، وهم يقفون مطأطئي الرأس أمام بوابات المستشفيات الاستثمارية التي تعتبرهم جرذانًا وصراصير، بعد أن اندثرت المستشفيات المجانية، أما الأطفال الصغار فعبثًا يغرسون عيونهم في كراسة المطالعة بحثًا عن كلمة عبد الناصر الشهيرة: «كلنا سيد في ظل الجمهورية».

▪▪ العدوان المسلح على مصر



1918 - 1970

رفضت الولايات المتحدة الأمريكية تمويل مشروع السد العالي، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أصدر قراره التاريخي من ميدان المنشية بالإسكندرية بتأميم شركة قناة السويس في 26 يوليو 1956م، هو الذي آثار حفيظة أعداؤه الذين تمثلوا في إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، وكان لسان حال جمال عبد الناصر يوم أن قرر ذلك وكأنه يردد قول ونستون تشرشل السياسي الداهية:

لا تستسلم أبدًا أبدًا أبدًا.

وكذلك كأنه يردد قولة تشرشل: إمضي قدمًا ولو كنت ماشيًا على الجحيم[1].

كما ألمعنا سابمقًا في ليلة الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) اقتحمت القوات الإسرائيلية المسلحة الأراضي المصرية، وأخذت الوحدات الميكانيكية التي اجتاحت شبه جزيرة سيناء تحث السير نحو قناة السويس، وعلى أثر اقتحام إسرائيل برزت على المسرح إنجلترا وفرنسا، ففي الحادي والثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) قام طيرانها بقصف

(1) علاء الخولي: ونستون تشرشل - مذكرات السياسي الداهية، مكتبة جزيرة الورد.

المدن المصرية الآمنة، وبعد بضعة أيام زجت قوات الإنزال الإنجليزية الفرنسية في منطقة قناة السويس.

وهكذا شهد العالم جريمة من أكبر الجرائم في التاريخ، لم يقتصر أثرها على تعريض كيان مصر، الدولة المستقلة، للخطر بل صدعت الانفراج الذي ساد العلاقات الدولية بعد توتر طويل، وتلبدت سماء عشرات البلدان بغيوم سوداء، منذرة بالويل، وباندلاع لهيب الحرب، وكانت خيوط هذه المؤامرة تمتد إلى مكاتب العسكريين والدبلوماسيين في لندن وباريس وواشطنون وتل أبيب.

في السادس والعشرين من أيلول (سبتمبر) سنة 1956م صرح وزير خارجية الولايات المتحدة في مؤتمر صحفي قائلاً: «عصير على أن أتصور مصر تأمم قناة السويس دون تحمل العواقب»، هكذا قابل الاستعمار الغربي تأميم مصر لشركة قناة السويس، فماذا يعني هذا العمل في الواقع، ولماذا استتبع مثل رد الفعل هذا من قِبَل المستعمرين..؟

في السادس والعشرين من تموز (يوليو) أعلن قرار الحكومة المصرية بتأميم شركة قناة السويس.

إن تأميم شركة قناة السويس هو خطوة قانونية مشروعة خطتها مصر، السالكة سبيل الاستقلال السياسي والاقتصادي، فهل كان بإمكان مصر التي أخذت تسير منذ سنة 1952م في طريق التطور المستقل، أن تمر مر الكرام بأعمال الأوساط الاستعمارية، هذه الأوساط التي بقيت مدة تقارب تسعين عامًا، أي حتى الآونة الآخيرة، تستغل سيطرتها على القناة لغرض استعباد مصر، إن حصول بريطانيا العظمى على جملة من أسهم شركة قناة السويس كان تمهيدًا ومقدمة لاحتلال البلاد كلها عام 1882م، وترتبط بمسألة القناة ارتباطًا مباشرًا تلك السياسة التي أدت إلى فرض الحماية على مصر.

وبحجة المحافظة على القناة رابط المستعمرون بجيوشهم في مصر، وكان وجود هذه الجيوش في مصر إحدى العوائق الخطيرة التي كانت تحول بين الشعب المصري وبين تحرره الوطني، إن «سلطنة السويس البريطانية الصغيرة» على حد التعبير ذي المغزى الذي أطلقته الجريدة الإسبانية «آربيا» على القناة تحولت إلى قلعة للسيطرة الأجنبية في

البلاد، وقد وضعت مصر ذات السيادة حدًا لهذه الحالة، تلك هي الناحية السياسية للقضية.

وأما ما يخص ناحيتها الاقتصادية، فبالإمكان تلخيصها على الوجه التالي: إن مصر غير قادرة على الدفاع عن استقلالها وتوطيده من غير أن تنشئ وتنمي صناعة خاصة بها، غير أن إنشاء الصناعة يتطلب الأموال اللازمة، أما الدول الغربية فإنها في الواقع قد امتنعت عن التسليف، بتقديمها شروطًا لا تتفق واستقلال مصر، وكان طبيعيًا جدًا أن تلجأ مصر في مثل هذه الحالة إلى تعبئة جميع مواردها المالية الداخلية، ومنها بطبيعة الحال عائدات قناة السويس التي تخص مصر شرعًا وقانونًا.

وقد كانت هذه العائدات، كما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر، تبلغ في العام 34 مليونًا من الجنيهات المصرية، وبهذا المبلغ تستطيع مصر أن تبني في كل سنة معملين يساويان في قوتهما معمل التعدين الذي وضع تصميم بنائه في حلوان، و34 مليون جنيه تساوي ما يقارب 10 بالمائة من مجموع النفقات المخمنة لتشييد مشروع «السد العالي» على النيل، هذا المشروع الذي تنظر إليه مصر باعتباره مهمة من أشد المهام الاقتصادية الضرورية إلحاحًا.

وكان لعمل الحكومة المصرية هذا أساس حقوقي ومعنوي وطيد الأركان، فقد أممت الحكومة شركة خاصة خاضعة لقوانين الدولة المصرية واستخدمت حقًا من شأن كل دولة ذات سيادة أن تستخدمه، فقد سبق لإنجلترا أن أممت بموجب القانون الصادر في غرة كانون الثاني (يناير) سنة 1947م صناعة الفحم، وبموجب القانون المؤرخ في أول نيسان (إبريل) سنة 1948م أممت المحطات الكهربائية، وأممت كذلك حسب القانون الصادر في الأول من آيار (مايو) سنة 1949م صناعة الغاز، وفي مستهل سنة 1952م أممت إنجلترا قسمًا من صناعة المعادن، وقد عزت الحكومة البريطانية كل ذلك إلى دواع اقتصادية، ولم يمار أحد في العالم كله الحكومة البريطانية في حقها في إجراء التأميم.

ولا يمكن أن يثير حق مصر المعنوي في تلك القناة وإدارتها أي لبس أو إبهام، فقد شقت القناة بأيدي المصريين، وهلك أثناء حفرها مائة وعشرون ألفًا من الفلاحين

المصريين، الذي سيقوا إلى العمل فيها سخرة، ومولت مصر قسمًا كبيرًا من أعمال حفر القناة ومن يطلع على تاريخ مصر، يعرف أتم المعرفة أن الصعوبات المالية التي واجهتها مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هذه الصعوبات التي أودت آخر الأمر باستقلال البلاد السياسي والاقتصادي جميعًا، إنما هي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بحفر قناة السويس وإنشائها، وعلى الرغم من هذا كله لم تصبح مصر مالكة لهذه القناة التي كلف شقها كل تلك الضحايا البشرية والمادية، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل لقد حرمت مصر فيما بعد حتى من أسهمها وحصتها في قناة السويس.

إن تأميم قناة السويس لم يؤثر أي تأثير على الملاحة الدولية عبر القناة، لقد صرح وزير التجارة المصري السيد أبو نصير قائلاً: «إننا بتأميمنا الشركة لم نحدث أي تغيير وتبديل في سير أعمالها ونشاطها، وستكون الملاحة مضمونة كالسابق لصالح العموم، إن أصحاب الأسهم وحملة الأسهم الأساسية سينالون التعويضات العادلة، وسيبقى جميع مستخدمي الشركة وعمالها في مناصبهم وأعمالهم، بدون أيما تمييز، سواء أكانوا أجانب أو مصريين».

وهذه الضمانة التي قدمتها الحكومة المصرية قد عززت بتدابير عملية، وبالرغم من الأعمال العدوانية والتخريبية المباشرة التي ارتكبتها بعض الدوائر الغربية، فقد ضمنت مصر بعد تأميم القناة الملاحة في قناة السويس ضمانة تامة، وفوق ذلك فقد زادت في نشاط الملاحة هناك، ولم تنقض الملاحة في القناة إلا بعد العدوان عليها.

تلك هي قضية تأميم شركة قناة السويس.

وأما الغرب فقد قابل هذا العمل بمنتهى الجفاء والحفيظة، وكان طبيعيًا أن يثير ذلك ثائرة المستعمرين على هذا النحو:

أولاً: لأن تأميم الشركة قد حرم حملة الأسهم الإنجليز والفرنسيين من أرباح طائلة، كانوا يبتزونها من استغلال طريق مائي يمر عبر الأراضي المصرية.

ثانيًا: أن التأميم قد عزز مواقع مصر المستقلة، التي أخذ دورها يتعاظم بصفتها قائدًا للعالم العربي، النافض عن كتفيه أغلال العبودية الاستعمارية.

وثالثًا: وهذا ما ينبغي أن نعيره فائق الأهمية، هو أن المستعمرين قد أفزعتهم هذه

السابقة، ففي عصر الحركة الصاعدة الظافرة التي تتحركها شعوب الشرق نحو التحرر من أغلال النظام الاستعماري، يمكن أن يكون نجاح مصر دافعًا وعامًا للنضال في سائر البلدان، ومنها البلدان التي تقع في القارات الأخرى.

وكان شن الحرب على مصر محاولة يائسة من المستعمرين القدماء أرادوا بها وقف وصد السير العاصف، سير الحركة التحررية الوطنية التي تتحركها الشعوب إلى الإمام، ومحاولة لإرعاب شعوب الشرق ووضع النير الاستعماري في رقابها من جديد، وكانت مصر أول ضحية للعدوان؛ ذلك لأنها بأعمالها الحاسمة ضربت مثلاً حسنًا في الدفاع عن حقوقها الوطنية وعن سيادتها.

وكانت المغامرة في مصر تستهدف زيادة التوتر الدولي، فالاحتكارات الاستعمارية وقد ساءها الانفراج الذي حصل في الوضع الدولي، حاولت عن طريق العدوان على مصر أن تعود بالعالم إلى الحرب الباردة، التي أحرزت إبانها أرباحًا طائلة.

قال جون فوستر دالس: «عسير على أن أتصور مصر تؤمم قناة السويس دون تحمل العواقب»، ولم يكن قوله هذا مجرد تهديد أجوف، وسواء أكان ذلك عن عمد أو غير عمد فإن وزير خارجية الولايات المتحدة قد أزاح الستار عن المؤامرة المبيتة.

في العشرين من شباط (فبراير) سنة 1955م قعد في السفارة البريطانية في القاهرة اجتماع حضره رئيس وزراء بريطانيا العظمى السير أنطوني إيدن، وكان مارًا في رحلة والرئيس جمال عبد الناصر، وهذا ما كتبته الجريدة المصرية المطلعة «آخر ساعة» عما دار بينهما من حديث: «سأل ناصر بصراحة: هل تنوي إنجلترا أن تقوم بأعمال حربية ضدنا..؟ فجلس إيدن بسرعة وقال بلهجة لا تدع مجالاً للشك: بريطانيا تقوم بهجوم عليكم..؟ إنه أمر سخيف ولا يمكن تصوره».

وبعد سنة وثمانية أشهر، عندما بدأت القوات المسلحة الإنجليزية والفرنسية تقذف حمم قنابلها على المدن المصرية، وأنزلت القوات في منطقة قناة السويس، استمر رئيس الوزراء البريطاني يؤكد أن إنجلترا لا تعتزم الهجوم على مصر، وإن القضية لا تعدو أعمالاً بوليسية، هدفها الفصل بين القوات الإسرائيلية والمصرية.

ومعنى ذلك أنه لم يقع أي عدوان، وأنه لم تجر من أجل ذلك أية تحضيرات دقيقة

خلال عدة أشهر، ومعنى ذلك أيضًا أنه لم تبيت قبل ذاك أية مؤامرة استعمارية فظيعة ضد مصر، وأما الحقائق فتنفي هذا الزعم الكاذب وتبطله كل البطلان.

فلو أردنا تحليل سياسة إنجلترا وفرنسا بعد تأميم مصر شركة قناة السويس، أبدا أمامنا في الحال جانبان، شكلان مختلفان للسياسة التي سارتا عليها، أولهما هو الاشتراك في المؤتمرات، وفي تنظيم «بعثة منزيس»، وما يدعى بـ«جمعية المنتفعين بقناة السويس»، وفي مباحثات مجلس الأمن، وأخيرًا في المفاوضات مع وزير خارجية مصر في هيئة الأمم المتحدة.

وكل هذا يعرض لنا بوجه عام، المحاولة التي بذلت للتوصل بالوسائل السياسية إلى حل مسألة قناة السويس وفقًا لمصالح الدوائر الاستعمارية، كل هذه الأعمال كانت تشفع بتصريحات لا حصر لها حول «الرغبة الراسخة عند إنجلترا وفرنسا في حل مسألة قناة السويس بالوسائل السياسية»، غير أنه كان للسياسة الإنجليزية الفرنسية في مسألة قناة السويس جانب آخر، هو الجانب الذي أعد وراء الكواليس وفي الكتمان، والذي تحاول الدعاية الاستعمارية إنكاره بكل عناد وصلف، ذلك هو الاستعدادات الحربية والتحضير للعدوان على مصر.

كتبت جريدة «نيوز كرونيكل» الإنجليزية تقول: «على أثر تأميم مصر لقناة السويس أنشئت في الحال لجنة خاصة من هيئة أركان الحرب العامة، بدأت تضع مشروعًا لاحتلال القناة»، وقد أكدت ذلك الجريدة الإنجليزية «الديلي ميل» منذ الثلاثين من تموز (يوليو) سنة 1956م؛ إذ كتبت قائلة أن ممثلي الغرب قد بحثوا مشاريع حربية لغرض تسوية في مصر.

ولكن هذه المشاريع لم توضع موضع التنفيذ في الحال، ولا يمكن أن يكون سبب ذلك، بطبيعة الحال، الرغبة في استنفاذ الإمكانات كافة لتسوية المسألة بالوسائل السلمية، فالقضية واضحة وهي كما كتب الصحافي الفرنسي «مارسيل فوريه» قائلاً: «إن هيئات أركان حرب كانت قد أخذت على حين غرة وفوجئت فامتنعت عن أن تأخذ على عاتقها المسئولية عن حملة غير مهيأة، وطلبت تأجيل الحوادث لمدة شهرين، فأمهلت هذه المدة».

وهناك مصادر أخرى تقول إنـه كـان يمكـن أن تبـدأ العمليـات الحربيـة الإنجليزيـة الفرنسية مباشرة بعد التأميم، إلا إنها أجلت في سبيل استكمال إعدادها، ففي الثاني عشـر من كانون الأول (ديسمبر) سنة 1956م جرت في البرلمان الإنجليزي، المحاورة التالية التي لا تخلو من الفائدة بين النائب العمالي زيلياكوس ووزير الطيران البريطاني بيرتش.

زيلياكوس: لماذا وجهت الحكومة الإنجليزية في بدء أزمة قناة السويس إلى الحكومة الفرنسية طلبًا بتأجيل العمليات الحربية في منطقة القناة ستين يومًا..؟

بيرتش: لم توجه الحكومة الإنجليزية إلى الحكومة الفرنسية طلبًا من هذا النوع.

زيلياكوس: هل بلغ علم الوزير، أن وزيـر الـدفاع الفرنسـي يـورجبس مونـوري قـد صرح في العشرين من تشرين الثـاني (نـوفمبر) أن طلبًـا كهـذا قـد طلـب في نهايـة تمـوز (يوليو)، وأن الحكومة الفرنسية قد وافقت، لهذا السبب بالذات عـلى تأجيـل العمليـات الحربية التي أرادت هي أن تبدأها فورًا..؟ فهلا عنى الوزير بأن تكون أقوالـه متفقـة مـع أقوال شريكه الفرنسي..؟

(تصفيق من المعارضة وصيحات «أجب») بريتش يصمت، وهـذا الصـمت أبلـغ في الإفصاح من أية كلمات.

إن المهلة التي منحتها السلطات العسكرية إنمـا نقضـت في إعـداد العـدوان إعـدادًا دقيقـًا، ثم سرعان ما حلـت المسـألة المتعلقـة بقاعـدة انطـلاق الهجـوم، ففـي الرابـع والعشــرين مــن تشــرين الثــاني (نــوفمبر) ســنة 1956م كتبــت المجلــة الإنجليزيــة «إيكونوميست» تقول: «منذ المراحل الأولى، رفضت فكرة الهجـوم عـلى السـويس مـن عدن كقاعدة لذلك الهجوم؛ لأنها فكرة غير عمليـة، وكـذلك عـدل عـن فكـرة مهاجمـة الإسكندرية من ليبيا، بالرغم من أن الشـائعات حـول هـذه الخطـة قـد طرقـت مسـامع الرئيس ناصر، فأرسل إلى الإسكندرية في الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) أحسن لـواء من ألويته المدرعة، وأما قبرص فهي أقرب القواعد إلى مصر، وأكد رؤساء الأركان إنهـا ضرورية لهم واختيرت مالطة قاعدة أخرى بعد قبرص.

وسرعان ما بدأت تعبئـة واسـعة للاحتيـاطيين مـن سـلاح الهندسـة والمواصـلات ورجـال تزويـد المدفعيـة والآليـات والتمـوين والتجهيـز، وأخـذت تـزج الوحـدات

العسكرية في جزيرتي قبرص ومالطة، ففي اليوم التالي لاختتام مؤتمر لندن للدول الاثنتين والعشرين حول مسألة قناة السويس كتبت جريدة «الديلي ميل» تقول: «كانت القوات المسلحة الإنجليزية والدبابات والأسلحة خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة ترسل كل يوم تقريبًا إلى المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وقد سمح رسميًا للقيادة الفرنسية أن ترسل قواتها المسلحة لترابط في القواعد الإنجليزية الواقفة في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وبدأ بسرعة زج القوات الفرنسية في جزيرة قبرص».

ولكن ما هو الموقف الذي اتخذته الولايات المتحدة..؟ إننا سنعالج بصورة خاصة في أحد الفصول القادمة السياسة الأمريكية أثناء العدوان المسلح على مصر، وسنسعى لنعرض ونكشف أسبابها الموضوعية، ومع ذلك ففي وسعنا الآن أن نقول أن الولايات المتحدة لم تكن دون سهم ونصيب في المؤامرة المبيتة المهيأة، لقد كانت الولايات المتحدة على علم بها.

وقد كتب أونيل مراسل جريدة «الديلي نيوز» يقول: «إن دائرة الاستخبارات المركزية في الولايات المتحدة الأمريكية قد أحاطت قبل وقوع الحوادث البيت الأبيض علمًا بالهجوم المقرر شنه على مصر، وهناك تصريحات عديدة ظهرت في الصحف الأمريكية قبل الهجوم على مصر، وهذه التصريحات لا تقتصر على أعلامنا بأن الدوائر الخاصة في الولايات المتحدة كانت على علم مسبق بالعدوان، وإنما تتحدث أيضًا عن ميل تلك الدوائر وتحريضها على العدوان.

وإليكم أحد تلك التصريحات، وقد أخذناه من المجلة الأمريكية «يونايتد ستيتس أند وورلد ريبورت» الصادرة في السابع عشر من آب (أغسطس) سنة 1956م، كتب المجلة تقول: «سوف لا نقوم في مستهل الحرب أمام الأسطولين الإنجليزي والفرنسي صعوبات كبيرة لاحتلال الميناء الرئيسي والقاعدة العربية البحرية المصرية، الإسكندرية، ومدينة بورسعيد الواقعة عند مدخل البحر الأبيض المتوسط المؤدي إلى قناة السويس، ويرى الخبراء العسكريون أن جنود المظلات الغربيين الذين ستلقيهم في السويس، الطائرات المحلقة من قواعدها في قبرص، أو في إفريقيا الشمالية الفرنسية، أو في أي مكان آخر، سيكون بإمكانهم تمامًا أن يحتلوا منطقة القناة، ومتى سقطت القناة في

أيدي الإنجليز، واحتلت الجيوش الغربية الإسكندرية والمطارات المصرية الرئيسية، استطاعت قوات غير كبيرة نسبيًا أن تدخل القاهرة».

لقد أظهرت الحوادث فيما بعد وخاصة بعد إعلان «مذهب إيزنهاور» أن الولايات المتحدة كانت تعير انتباهًا مباشرًا لعدوان إنجلترا وفرنسا على مصر، وأنها كانت تسير وراء أهدافها الاستعمارية.

لقد أعد الغرب عدوانه باذلاً جهودًا كبيرة، ولكن على الرغم من الاستعداد الذي جرى في سرعة كافية للقيام بالهجوم، فإن هذا الهجوم لم يشن في الموعد المضروب له سلفًا، ويمكن أن نذكر من بين الأسباب التي أدت إلى تأجيل جديد في الموعد السبب التالي: ذلك أن المبادرين إلى العدوان كانوا يسعون أن يقع الهجوم على مصر ونشوب العصيان المعادي للثورة في المجر في آن واحد، هذا العصيان الذي أرادوا له أن يهيئ لهم حسب رأيهم، الظرف الملائم لشن العمليات الحربية ضد مصر، ثم لا بد أن نشير إلى سبب هام آخر أدى إلى تأجيل موعد الهجوم حتى نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهو أن إسرائيل لم تكن قد أعدت بعد لتقوم بدورها الاستفزازي الذي أنيط بها.

في الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1956م، تكلم رئيس وزراء فرنسا «جي موله» أمام اجتماع للفريق البرلماني التابع للحزب الاشتراكي، مشيرًا إلى أن نتائج تأميم شركة قناة السويس، وقال: «إنه على الرغم مما قد يتبادر إلى الذهن، فإن مصر لم تنتصر»، وعندما سئل «جي موله» في اجتماع وزاري أن يوضح سبب تفاؤله حمل منتقديه على السكوت بقوله: «أن هذا سر من أسرار الدولة، وليس بإمكاني أن أزيد شيئًا على ما قلت».

وقد أظهرت الحوادث ماذا كان يعني رئيس الوزراء الفرنسي بكلمته ذات المغزى، «سر من أسرار الدولة» لقد كان الغرب يعد إسرائيل للظهور على المسرح.

ومع ذلك لم يكن بوسع حتى أولئك الذين يسلكون سبيل العدوان أن يتجاهلوا الرأي العام كل التجاهل، فالذريعة التي يتوسل بها إلى العدوان كانت ضرورية حتى لهتلر، ألم يزعم هذا أن هجومه على الاتحاد السوفييتي إنما كان ردًا على تحشدات الجيوش السوفييتية التي تتمركز – حسب دعواه– على الحدود الغربية السوفييتية، وكانت الحجة

والذريعة لازمتين كذلك لإنجلترا وفرنسا، ولا أسهل من أن تكون الذريعة هنا هي الحرب المصرية الإسرائيلية.

لقد أعلنت إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية في بيانهم الثلاثي الصادر سنة 1950م عزمها على زج قواتها في منطقة الشرق الأدنى في حالة نشوب عمليات حربية، وفي الوقت ذاته توجد معاهدة سنة 1954م الإنجليزية المصرية مادة تخول إنجلترا الحق في جلب قواتها إلى منطقة قناة السويس في حالة وقوع هجوم من الخارج على إحدى البلدان العربية أو تركيا.

ومنذ أوائل آب (أغسطس) سنة 1956م اشتدت استعدادات إسرائيل للهجوم على مصر، وفي الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1956م كتب الصحفي الإيطالي «ماركو تشيزاريني مغورزا» الذي كان في بيروت أثناء تطور حوادث المأساة مقالة نشرتها جريدة «باتيزا سيرا» عنوانها «الدسائس الدبلوماسية وحقيقة العدوان الإسرائيلي» كتب مغورزا: «أن الأنباء التي توصل إليها قد استقاها من مصادر جديرة بأتم الثقة، ونحن لا نرى بأسًا من أن نقتبس مقاطع مسهبة من هذه المقالة الممتعة للغاية، التي كتبها هذا الصحفي الواسع الاطلاع»، على ما يبدو:

«سبق لإنجلترا أن عرضت مسألة إمكان اشتراك إسرائيل في حل قضية السويس بادئ الأمر، في مستهل آب (أغسطس) بمناسبة المؤتمر الأول لمندوبي إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، وقد قرر بينو ولويد أن تستغل الخلافات بين مصر وإسرائيل، واقترح لويد فيما اقترح؛ لتوسيع هذه الفكرة المشروع التالي:

أ- عمليات «وقائية» تقوم بها إسرائيل ضد مصر، وزحف القوات الإسرائيلية في أنحاء قناة السويس.

ب- زج القوات الإنجليزية الفرنسية في منطقة قناة السويس وفقًا للتصريح الإنجليزي الفرنسي الأمريكي الصادر سنة 1950م.

وقد أثار مشروع لويد في بادئ الأمر معارضة دالس، إلا أن دالس بعد الإصرار المطلق الذي أبدته إنجلترا وفرنسا وافق على المشروع، شريطة أن يبقى مشروعًا احتياطيًا، وفي تشرين الأول (أكتوبر) عادت الحكومة الإنجليزية بمبادرة من لويد إلى

هذا المشروع، وذاك لأنها رأت أن المبادئ الستة التي أقرها مجلس الأمن لحل مسألة السويس، والمقترحات الأخيرة التي قدمتها الحكومة الهندية ستؤدي ولا مناص إلى عقد اتفاقية دولية بشأن استخدام قناة السويس، اتفاقة تنفي إمكان إلغاء التأميم».

وهناك شهادة أخرى تنبئ عن المؤامرة التي بيتت مع إسرائيل، فقد نشرت وكالة الأنباء الأمريكية المعروفة «أسوشبيتيد برس» معلومات بهذا الصدد ذات أهمية بالغة، وجاء في مقال رئيسي نشر في ملحق لنشراتها أن «مراسلي وكالة أسوشبيتيد برس قد حللوا طوال أسبوعين أو أكثر الأنباء الواردة، وتحدثوا إلى عشرات من الأشخاص الذين مكنتهم مراكزهم من الاطلاع على هذه الحالة أو تلك في الأوضاع الناشئة، والذين كانوا على استعداد لبحث هذه المسائل، شريطة ألا تذكر أسماؤهم».

بنتيجة تحليل الحوادث تعطينا وكالة «الأسوشبيتيد برس» الصورة التالية:

الاتصالات الفرنسية الإسرائيلية: ازدادت هذه الاتصالات واتسعت بسرعة بعد التأميم، والممثلون لكلا البلدين «قد اعترفوا» في أحاديثهم الخاصة بأن حكومتيهما قد وضعتا معًا مشروعًا للهجوم على مصر، وقد كان ضباط الأركان الإسرائيليون قابعين في وزارة الدفاع الفرنسية طوال الوقت، أي قبيل الأيام الأخيرة التي سبقت الهجوم، وقد لاحظت هيئات الاستخبارات الأمريكية قبل العدوان الإسرائيلي بثلاثة أيام اتساع الارتباطات والاتصالات البرقية واللاسلكية بين فرنسا وإسرائيل اتساعًا ملحوظًا متزايدًا.

الاتصالات الإنجليزية الإسرائيلية: كان الإنجليز على علم تام بتفاصيل استعدادات إسرائيل للهجوم على مصر، ولم يعلم هل أدلى بتصريحات رسمية، أو أن الأمر اقتصر على التلميحات، ومهما يكن الأمر فإن الانطباع الذي تكون عند إسرائيل هو أنها تعتمد على خطة المماطلات في مجلس الأمن خلال 5 إلى 6 أيام ريثما تثبت أقدام قواتها في مصر.

وما إن وقع الاتفاق حتى اشتد تدفق الأسلحة سرًا على إسرائيل من الغرب، وقد استخدمت هذه الأسلحة والعتاد فيما بعد ضد مصر في شبه جزيرة سيناء، شاهد على ذلك التصريح الذي أدلى به رئيس الأركان العامة للجيش الإسرائيلي موشى دايان في الرابع عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1956م.

فبعد أن أشار موشى دايان هذا في بدء تصريحه إلى أهمية استخدام المواد الحربية الفرنسية في شبه جزيرة سيناء من قِبَل الجيش الإسرائيلي، قال: «إن هذه المواد الحربية قد وضعت تحت تصرفنا بفضل السياسة الفرنسية الحكيمة البصيرة».

وفي نهاية تشرين الأول (أكتوبر) انتقل المتآمرون إلى مرحلة الاتفاق المباشر على التفاصيل، وفي أثناء التشاور وتبادل الآراء بحثت مسألة عدد القوات الإسرائيلية التي يجب عليها أن تشترك في العمليات الحربية، وخطة سيرها، ووقت زحف الأرتال الآلية، وتقول بعض المصادر أن الإنجليز وضعوا تحت تصرف إسرائيل كل المعلومات التي كانت لديهم عن قوات مصر المسلحة، ويثبت ماركو تشيزاريني سفورزا الذي أوردنا أقواله قبل الآن أنه قد أشير في أثناء هذه المشاورات، إلى النقاط التي كان يجب على القوات الإسرائيلية أن تحتلها، وفي الدرجة الأولى، نقاط القسيمة والكونتيلا والنخل وغيرها.

وفي السابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) اشترك ضباط الأركان الإسرائيليون في آخر اجتماع عقدوه مع زملائهم الفرنسيين في باريس قبيل الهجوم، وفي اليوم ذاته دار حديث طويل بين السفير الإنجليزي في إسرائيل نيكولس، وبين رئيس الوزراء بن جوريون، وأعدت ماكنة العدوان وجهزت للعمل.

قال الرئيس جمال عبد الناصر: «إن مصر قبلت اقتراح السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة همرشيلد بشأن الاجتماع بممثلي إنجلترا وفرنسا في جنيف يوم التاسع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، وماطلت حكومتا إنجلترا وفرنسا في الجواب، سعيًا منهما وراء إيجاد ذريعة لإحباط هذا اللقاء، وقد فهمنا السبب الحقيقي لهذه الأعمال مؤخرًا، ذلك أن حكومتي لندن وباريس لم تماطلا إلا لتنفذا في هذا اليوم أمرًا آخر، هو اللقاء ولكن لا مع مصر بل مع إسرائيل، وليس في جنيف بل في سيناء.

قبل الهجوم الإسرائيلي على شبه جزيرة سيناء بيوم واحد، تلقت عبارة ضخمة من عبارات الأسطول الحربي البحري البريطاني أمرًا بالإقلاع من جزيرة مالطا والتوجه إلى القسم الشرقي من البحر المتوسط، وكانت هذه العبارة تتألف من حاملتين للطائرات وطرادين، وعدد من النسافات وجملة من السفن الأخرى، ولذر الرماد في العيون أذيع بيان رسمي يزعم أن «الأسطول قد رفع مراسيه وأبحر للاشتراك في دورة تدريبية».

وفي الوقت نفسه أذيع أمر للواء الإنزال الجوي الإنجليزي المرابط في جزيرة قبرص أن يكون على استعداد للعمليات الحربية، واتخذت فرنسا كذلك مثل هذه التدابير والخطوات، فمنذ الثاني والعشرين حتى السادس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) غادرت تشكيلات كبيرة من الأسطول الفرنسي قاعدتها في طولون، وفي الصباح الباكر من يوم 29 تشرين الأول (أكتوبر) وصل إلى إسرائيل سربان من الطائرات الفرنسية، أحدهما السرب الثاني من ديجون وهو مجهز بطائرات «ميستير»، والآخر سرب الطائرات «ف- 84» من سان ديزيه.

وقبل بدء الهجوم على مصر ببضعة أيام وصلت إلى إسرائيل الدبابات الفرنسية، وقد كتبت جريدة «مانتشستر جارديان» تقول: «إن عددًا من شهود العيان في حيفا قد رأوا عشرات من الدبابات الفرنسية يجري تفريغها من السفن..، وكان شارات الجيش الإسرائيلي توضع عليها حاليًا تصطف في منطقة الرصيف».

وفي ليلة الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) هاجم المعتدون الإسرائيليون سيناء، وبدأوا زحفهم صوب قناة السويس، وقد ساعدهم الطيران الفرنسي سرًا، كتبت مجلة «نيوزويك» في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1956م تقول: «إن من المحتمل أن ينكروا ذلك، ولكن ما أصبح معروفًا هو أن الطيران الفرنسي قام بصورة منتظمة بنقل المؤن والسيارات والمدافع والعتاد إلى القوات المسلحة الإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء».

وكتبت «مانتشستر جارديان» أن الطائرات الفرنسية التي كان يقودها طيارون فرنسيون ببدلاتهم العسكرية الفرنسية، قامت بدور هام، بل ويمكن القول أنها قامت بالدور الفاصل في الهجوم الإسرائيلي على صحراء سيناء، أما المدير العام للقوات الجوية الفرنسية «لافور» فقد تكلم أثناء مراسم استقبال الطيارين الفرنسيين الذين عادوا في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى قاعدتهم الجوية في ديجون، وكان فيما قاله: «كان على البلاد كلها أن تحيي مآثركم، ولكنها سوف لا تعرف شيئًا عن مآثركم، ولكن هذه المآثر أصبح يعرفها الناس اليوم لا في فرنسا وحدها، بل في الأنحاء البعيدة جدًا عن فرنسا».

كان الهجوم الإسرائيلي على مصر أول مرحلة من الخطة العامة التي وضعها المعتدون، والتي أطلق عليها الاسم الرمزي «عمليات الفرسان»، وقد سبق أن قلنا أن هذا الهجوم قد أعد ليكون ذريعة لزج القوات الإنجليزية الفرنسية، ولكن ذلك ليس إلا قسمًا من الخطة الاستراتيجية الحربية.

فقد قال جمال عبد الناصر فيما بعد: «إن خطة الأعداء كانت تستهدف من وراء الهجوم الإسرائيلي استدراج القوات المصرية الرئيسية إلى سيناء، ثم فصلها هناك أثر احتلال منطقة قناة السويس، والخطوة التالية كانت احتلال مصر كلها التي سوف لا يكون باستطاعتها أن تقاوم بدون الجيش، بعد وقوعه في فخ سيناء».

وبعد بضع ساعات من بدء الهجوم الإسرائيلي، أي في صباح الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) دعا رئيس وزراء بريطانيا العظمى «أنطوني إيدن» إلى عقد اجتماع كامل للوزارة، وبعد انتهاء الاجتماع وصل من باريس رئيس الوزراء الفرنسي «جي موله»، ووزير الخارجية «كريستيان بينو»، وفي الساعة الرابعة نهارًا حسب توقيت جرينتش استلمت مصر وإسرائيل الإنذار النهائي المطالب بسحب القوات إلى عشرة أميال من قناة السويس، وطلبت إنجلترا وفرنسا من مصر كذلك السماح باحتلال المواقع الرئيسية، في بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وأعطت مهلة قدرها 12 ساعة بغية إعمال الفكر.

أما إسرائيل فقد وافقت في الحال كما كان منتظرًا، على طلب توقف القوات على مسافة 10 أميال من قناة السويس، ونقول بصراحة أن المهمة الاستفزازية التي أنيطت بها، قد نفذت وأما مصر فقد رفضت لأسباب مشروعة تمامًا، ذلك الإنذار الشائن الذي قدمته إنجلترا وفرنسا والذي يعرض سيادة البلاد لضربة مهلكة، وفي يوم الحادي والثلاثين دخلت القوات الإنجليزية الفرنسية في حرب ضد مصر، وبدأت المرحلة التالية للعمليات، هي مرحلة العمليات الحربية الإنجليزية الفرنسية ضد مصر.

وهذه العمليات يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة العمليات التمهيدية التي قامت بها القوات الجوية الحربية في سبيل السيطرة الجوية ومحاصرة المطارات المصرية، وقد استمرت هذه العمليات من

31 تشرين الأول (أكتوبر) حتى نهاية يوم 4 تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي هذه الأيام كانت قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة تشن غاراتها ليل نهار على المدن المصرية الآمنة، بقصد نشر الفزع والرعب بين السكان.

والمرحلة الثانية: هي احتلال منطقة القناة، فقد حشد حتى اليوم الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، بالقرب من جزيرة قبرص، عدد كبير من السفن حاملة قوات الإنزال البحرية، ولتأمين إنزال هذه القوات، ألقيت في فجر اليوم الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) قوات إنزال جوية في منطقة بورسعيد، وقبل إلقاء هذه القوات وأثناء ذلك شن الطيران الإنجليزي الفرنسي غارات مركزة على المدينة، وتعرضت أحياء السكنى في بورسعيد لقصف وحتى من الجو ومن مدفعية البارجة الفرنسية «جان بار» وطراد ونسافة وبعض سفن التغطية.

وفي السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) أنزلت في منطقة بورسعيد قوات المشاة البحرية الإنجليزية الفرنسية، وخلال المعارك التي خاضها المتدخلون، تقدم هؤلاء نحو الجنوب، واحتلوا جملة من المراكز في منطقة قناة السويس.

تلك هي الخطوط الرئيسية للعمليات الحربية التي شنها المعتدون على مصر، ولكن بالرغم من أن الجيش الإسرائيلي قد تمكن من شغل منطقة واسعة، وأن المتدخلين الإنجليز والفرنسيين احتلوا بعض النقاط عند مدخل قناة السويس، فإن هناك كل ما يبرر القول بأن العمليات قد فشلت فشلاً تامًا، ولنأخذ قبل كل شيء مسألة مواعيد تنفيذ الخطط، فقد كانت القيادة الإنجليزية الفرنسية تأمل من وضعها عمليات «الفرسان» أن تحصل على نجاح خاطف.

وقد أعلن وزير الحربية البريطانية أنطوني هيد بصراحة أن احتلال مصر سيتم في 24 ساعة، أما في الواقع فإنه بعد خمسة أيام من القصف الجوي على المواقع العسكرية المصرية والمطارات، أصبح الأمر يتطلب من القوات الإنجليزية الفرنسية 26 ساعة أخرى حتى تتقدم مسافة قدرها 25 ميلاً في مجرى القناة، وعدا ذلك فقد أخفقت إحدى نوايا المتدخلين الاستراتيجية الرئيسية.

ونعني بذلك فصل وتقطيع قوات الجيش المصري الرئيسية في شبه جزيرة سيناء،

فالقيادة العامة للقوات المصرية المسلحة لم تزج بجيشها لمقابلة إسرائيل في سيناء، بل ساقته إلى منطقة القناة.

وثالثًا: أن الفشل لم ينزل بمشاريع احتلال مصر كلها وحسب، بل شمل أيضًا النقطتين الأخريين من النقاط الثلاث التي سميت في الإنذار النهائي الإنجليزي الفرنسي، وهما نقطتا الإسماعيلية والسويس اللتان اعتبر المعتدون احتلالهما أول مهمة رئيسية، لقد بعثر الشعب المصري الباسل حسابات استراتيجيي لندن وباريس وطوح بها.

عندما وضع المستعمرون الإنجليز والفرنسيون تفاصيل مشروع الهجوم على مصر، لم يحسبوا حساب أمر أساسي، لم يقدروا الروح الكفاحية الجياشة في صدر الشعب المصري، الذي عرف فرحة الحياة الحرة، وغدًا على استعداد للذود عنها حتى آخر قطرة من دمه، ولم تأخذ القيادة الإنجليزية الفرنسية بالحسبان أو تقدر قوة الجيش المصري وقدرته على المقاومة.

ومن المعلوم أن مصر بعد ثورة عام 1952م التحررية مباشرة، أخذت تنهج طريق تعزيز جيشها الوطني، فقد أدخلت في هيئته القيادية وإركان حربه دماء جديدة زادته قوة وأيدًا، واتخذت الحكومة جملة من التدابير الفعالة العازمة لتزويد الجيش بأحدث المعدات والآلات الحربية، وفي مدة قصيرة أتقن أفراد الجيش المصري فن استعمال هذه المعدات والآلات، وقد صرح الرئيس جمال عبد الناصر قائلاً: «إن مقاتلاتنا من طراز ميج-17 كانت مفاجأة غير منتظرة للعدو، وقد أظهرت أنها تتفوق على المقاتلات الفرنسية ميستير-4».

لقد أثبت الجيش المصري كفاءته الحربية، وحسب المعلومات التي أذاعتها القيادة العامة للجيش المصري، فقد الغزاة الإنجليز والفرنسيون والإسرائيليون خلال أسبوع من العمليات الحربية أكثر من تسعين طائرة، كما أرسلت إلى قاع البحر عدة من سفن العدو الحربية، وفقد الجيش الإسرائيلي أكثر من 3500 شخص بين قتيل وجريح.

هناك وقائع عديدة تتحدث عن بطولة المحاربين المصريين، ونحن نعرض نتفًا منها لا أكثر، فوق مطار «كبريت» هاجم ثلاثة طيارين مصريين بطائراتهم ثماني طائرات

للعدو فأسقطوا ثلاثـًا منها واضطرت الأخرى للفرار، وجرح عريـف مصـري في فخـذه جرحين، لكنه رفض هجر سـلاحه والـذهاب إلى المستشـفى، واسـتمر في قتـال العـدو وإبادته إلى أن أصابته قذيفة من قـذائف العـدو وصـرعته، وتقـدم ضـابطان مـن ضـباط الأسطول المصري إلى موت كانا متأكـدين إنـه لا ريـب فيـه، فقـادا زورقـًا مـن زوارق الطوربيد وهاجما البارجة الفرنسية «جان بار».

وحاربـت القـوات المسـلحة المصـرية الغـزاة الإسـرائيليين في شـبه جزيـرة سـيناء بشجاعة، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وقاومت كتيبة مصرية في شرم الشـيخ الواقـع عنـد مدخل خليج العقبة مدة سبعة أيام مقاومة ضارية محتفظـًا بمواقعـه ضـد قـوات تفوقـه مرات عديدة.

إن الروح الكفاحية العالية عند الجيش المصري تستند إلى عاملين هامين أساسين:

أولهما: أن الجيش المصري يدافع عن قضية عادلة، من مكتسـبات شـعبه التاريخيـة وعن حريته واستقلاله.

وثانيهما: أن الجيش المصري مؤيد تأييدًا مطلقـًا من قبل شـعبه، في حـين أن الغـزاة الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين الذين اقتحموا الأراضي المصـرية غاصـبين، كـانوا محاطين ببحر مزبد مرعد من العقد والضغينة الشعبيين.

وقد اتخذت الحكومة المصرية منذ اللحظـة الأولى لبدايـة العـدوان موقفـًا حازمًـا راسخـًا، وأصدرت في البلاد جملة من المراسيم لاتخـاذ تـدابير اسـتثنائية، فقـد أعلنـت التعبئة العامة، وعطلت المدارس تعطيلاً مؤقتـًا، وأصـدرت الأوامـر إلى جميـع مـالكي وسائط النقل أن يسلموها إلى قيادة الجيش المحلية، واتخذت الحكومة المصرية تـدابير اقتصادية لتوطيد الاقتصاد الـوطني ودعمـه لكـي يكـون قـادرًا عـلى مواجهـة الحصـار الاقتصادي الذي ضـربه المعتـدون، وصـادرت الحكومـة المصـرية أمـوال الشـركات الإنجليزية والفرنسية العاملة في البلاد، وصودرت على الأخص مؤسسـات الـنفط التـي تخص رأس المال الإنجليزي الفرنسي، وحجزت أموال البنوك الإنجليزية الفرنسـية في مصر.

وقد قوبلت هذه التدابير الحازمة التي اتخذتها الحكومة المصرية بتأييد شـعبي عـام،

ونهضت البلاد كلها إلى الكفاح ملبية النداء الداعي إلى مقاومة العدو مقاومة حازمة حاسمة، وفي كل مكان أيد السكان الجيش المصري وساندوه، وكانت القوى المسلحة تزداد كل يوم وتنمو مستوعبة سيل المتطوعين، وحتى قبل ذلك الحين، أي منذ شهر آب (أغسطس) سنة 1956م كان قد أنشئ إلى جانب الجيش النظامي جيش التحرير الوطني، وذلك وفق مرسوم أصدره رئيس الجمهورية.

وقد تألف جيش التحرير هذا من الوطنيين المتطوعين، وعين وزير التعليم بمصر كمال الدين حسين قائدًا لحيش التحرير الوطني، وفي اليوم التالي للعدوان على الأراضي المصرية تقدم إلى مراكز التجنيد في البلاد خمسة وثلاثون ألفًا من المتطوعين الذي أتموا الدورة التدريبية للقيام بحرب الأنصار وعمليات الأنصار، وأنشئت تقريبًا في جميع المدن المصرية مراكز لإعداد المتطوعين الجدد وتدريبهم العسكري، وأسست في المديريات أركان حرب فرعية لجيش التحرير الوطني، واستلم الأسلحة مئات الألوف من الناس، من عمال وفلاحين وحرفيين وطلبة ومثقفين وتجار ورجال دين، وانتموا إلى جيش التحرير الذي اكتسب طابعًا جماهيريًا شعبيًا أصيلاً.

وكان بين المتطوعين عدد لا يستهان به من النساء الوطنيات الغيورات اللواتي أبدين رغبتهن في الكفاح كتفًا إلى كتف مع الرجال والذب عن حياض وطنهن ضد العدو الغاشم الغادر، وقدم الطلبة المصريون الذين يدرسون في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وسائر البلدان طلبًا بالسماح لهم أن يعودوا إلى وطنهم؛ لينضموا إلى صفوف المحاربين ضد العدوان، وبدأت في جميع أنحاء مصر حملة لجمع التبرعات للدفاع عن البلاد، وكان كل مصري من كبار الصناعيين والتجار حتى أفقر الفلاحين، يريد أن يضرب بسهمه في الدفاع المقدس من أجل طرد المعتدين الغاصبين، ولم يكن الشعب المصري طوال تاريخه كله، متراصًا مثل هذا التراص.

وتحولت مصر إلى معسكر حربي كفاحي، كانت القاهرة قلبه النابض، وقد طوقت القاهرة بالمنشآت الدفاعية، والموانع المضادة للدبابات، والخنادق وأعشاش الرشاشات والمدافع، وعلى غرار القاهرة أقام سكان الإسكندرية وبورسعيد والسويس والمدن المصرية الأخرى التحصينات العسكرية، وكانت تغادر القاهرة طوال ساعات الليل والنهار، قوافل من السيارات أو القطارات حاملة الجنود والعتاد، ومتجهة صوب

الشمال الشرقي، إلى منطقة قناة السويس.

في حياة كل شعب أيام زاخرة بجلائل الأعمال لا يستطيع النسيان أن يعفي عليها أبدًا، هذه الأيام تضفي على الشعب مجدًا مخلدًا وعرفان البشرية كلها، والدفاع البطولي الذي كتبته بورسعيد في سفر التاريخ المصري يظل في الذروة من أيام مصر المشهودة.

ففي الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) بدأت القيادة الإنجليزية الفرنسية زج قوات الإنزال في أراضي منطقة قناة السويس، واختيرت بورسعيد هدفًا للضربة الرئيسية، وتقع بورسعيد على ساحل البحر الأبيض المتوسط عن بداية مدخل قناة السويس، وهي لذلك ذات أهمية استراتيجية خاصة، وقد أنزلت جميع قوى المعتدين لتحقق خطة تطويق بورسعيد واحتلالها.

وفي ذات اليوم كابدت بورسعيد أعنف وأفظع قصف جوي تعرضت له منذ بدء الهجوم، لقد شنت خمسمائة من طائرات الطيران الإنجليزي الفرنسي الغارات على المدينة، وألقيت على المدينة عدة آلاف من القنابل شديدة الانفجار والمحرقة، واستعملت قنابل النابالم، وفي الوقت نفسه كانت بورسعيد تعاني قصف المدافع البحرية تصب عليها القنابل من سفن الأسطول الإنجليزي الفرنسي الحربي البحري، وبعد أن أبادت قوى الشعب والجيش والبوليس المصريين وحدات الإنزال الأولى التي ألقيت من الجو في ثلاث نقاط من منطقة بورسعيد وهي بورفؤاد والجبانة ومطار الجمالية، زادت القيادة الإنجليزية الفرنسية قصف المدينة حدة وإلحاحًا.

وفي السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) ألقيت وحدات إنزال جديدة في الجنوب من بورسعيد، حيث فصلت المدينة عن مراكز تزويدها بالمياه، وقد وقف جنود الجيش المصري الذين أيدتهم وحدات البوليس وساندهم المتطوعون من سكان المدينة في وجه العدو يقاومونه مقاومة عنيفة، وتحول كل بيت وكل حي من أحياء المدينة إلى حصن، فمن نوافذ البيوت كانت تنهال على دبابات العدو القنابل المضادة للدبابات، وأقيمت المتاريس في شوارع عديدة واشترك في الحرب ضد المعتدين جميع أهالي المدينة تقريبًا، من صغيرهم إلى كبيرهم.

وقد كتب مراسل جريدة الأهرام المصرية: «كان الناس يخرجون تحت وابل

الرصاص، مستهينين بالموت، لكي يصدوا تقدم دبابات العدو»، لقد نهض إلى الكفاح الجميع نساء وأطفالاً، شيبًا وشبابًا، وحتى الأطفال لم يبقوا في معزل عن المعركة فالصبي نبيل منصور في الثانية عشر من عمره غامر بحياته وأحرق مستودعًا من مستودعات المحتلين.

وكانت رحى المعركة تشتد دورانًا في كل ساعة، وقد ذهب لشد أزر المدافعين عن بورسعيد متطوعون من جميع أرجاء البلاد منهم عمال وطلبة من القاهرة والإسكندرية ومن مدن مصرية أخرى، وفلاحون من المديريات المجاورة الغربية والشرقية والمنصورية، وكذلك من أنحاء أخرى من البلاد بما فيها مصر العليا، وكان الغزاة يلقون في تقدمهم مصاعب كبيرة، ولقد وجهت القيادة الإنجليزية الفرنسية أكثر من مرة طلبًا إلى محافظ بورسعيد بالاستسلام، ولكنها تلقت في كل مرة ردًا حاسمًا.

وواصل أهالي بورسعيد كفاحهم وجهادهم حتى بعد احتلال المدينة، وكانت قد تأسست بصورة عفوية، في الساعات الأولى من المعركة في سبيل بورسعيد «لجنة المقاومة الشعبية»، وكانت هذه اللجنة تتولى قيادة أعمال الوطنيين، والواقع أنها نظمت الإشراف على الحياة في المدينة، وأما في الأحياء العربية فكانت صاحبة الكلمة المسموعة، وقد استجاب السكان إلى نداء اللجنة فقاطعوا مقاطعة جماعية جميع التدابير التي كان يضعها المحتلون.

ورفض ستمائة عامل رفضًا قاطعًا المحاولة التي جرت لاستئنافهم العمل في مشاريع شركة قناة السويس السابقة، ولم يؤثر فيهم لا الوعد ولا الوعيد، ولا استعمال القوة، ونسج التجار على منوال العمال فأعلنوا مقاطعتهم للغاصبين، وأغلقت في بورسعيد جميع المخازن والحوانيت، وبقيت أوامر القيادة الإنجليزية الفرنسية قصاصة ورق لا أكثر، تلك الأوامر التي حاولت بها القيادة بالتهديد والوعيد أن ترغم التجار وأصحاب المخازن على ترك المقاطعة.

وبذلت القيادة الإنجليزية الفرنسية جهودًا غير قليلة لفصل بورسعيد عن العالم كله وتضع بينها وبينه حجابًا، فقد أصدرت أمرًا بمصادرة جميع أجهزة الراديو في المدينة، وأخذت تشوش على محطة إذاعة القاهرة، ولكن لجنة المقاومة الشعبية كانت تحيط سكان بورسعيد علمًا بما يجري من الحوادث في العالم، وكانت الأيدي الخفية توزع في

جميع أرجاء المدينة، المنشورات مكتوبة على الورق العادي الأسمر، ومن هذه المنشورات عرف أهالي بورسعيد فيما عرفوا أن الجمعية العمومية أيدت طلب الحكومة المصرية بجلاء جميع قوات المعتدين في الحال، وفي تلك اللحظة ذاتها ظهرت على أطلال البيوت الشعارات الوطنية «لتحيا مصر حرة»، «أيها المحتلون ارحلوا عن مصر»، «ليسقط الاستعمار».

وعلى الرغم من إعلان وقف إطلاق النار، فقد استمرت المناوشات بين المحتلين والوطنيين المجاهدين من رجال المقاومة، الذين كافحوا ببسالة دفاعًا عن سكان المدينة من تعسف المعتدين، ففي السادس عشر من كانون الأول (ديسمبر) دارت في الشوارع رحى معركة حامية، وقد زجت القيادة الإنجليزية الفرنسية ضد سكان المدينة قوات ودبابات، واجتاحت الدبابات الإنجليزية شوارع المدينة وأطلقت نيرانها على بيوت السكان الآمنين.

واستمرت المعركة عدة ساعات، وقد خلفت العمليات النشيطة التي قام بها الفدائيون من أعضاء حركة المقاومة للمحتلين ظروفًا لا تطاق ونشرت الذعر بينهم، واشتعلت الأرض لظى تحت أقدام المستعمرين، وفقدت القيادة الإنجليزية الفرنسية أعصابها، فكانت تصدر الأوامر تباعًا، الواحد بعد الآخر بشأن إقرار «النظام» في المدينة، ولكن دون جدوى، فقد امتنع سكان بورسعيد عن الانصياع لأوامر القيادة الإنجليزية الفرنسية وازداد نضالهم حزمًا من أجل تحرير المدينة.

واضطر الغزاة الغاصبون أن يقلصوا لدرجة كبيرة منطقة احتلالهم في بورسعيد، وفي الأيام الأخيرة التي سبقت رحيلهم لم يبق في أيديهم سوى منطقة الميناء والأحياء المجاورة لها، وكانت هذه المنطقة كلها مطوقة بسلسلة من الأسلاك الشائكة، كان المعتدون يفصلون بها هذه المنطقة عن سائر أجزاء المدينة، وهكذا وقع المحتلون أنفسهم في حالة تشبه الحصار، نتيجة للعمليات الجريئة الحاسمة التي قام بها الوطنيون سكان المدينة.

وبقيت مدينة بورسعيد شبه المدمرة المصبوغة بالدماء التي احتلها العدو مدينة حريزة منيعة الجانب.

عندما كان العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر في إبانه، وقع في الغـرب حادث طريف للغاية يلفت الأنظار، فقد قدم المحامي ألفريد زيدل، الوكيل المدافع عن مجرم الحرب النازي المعروف رودلـف هـس، طلبًـا إلى السـكرتير العـام لهيئـة الأمـم المتحدة داغ همرشيلد بإطلاق سراح هس من السجن في الحـال، وقـد حـاول زيـدل أن يعزو طلبه ويسنده إلى عوامل حقوقية، فقال إن إنجلترا وفرنسا اشتركتا في «مؤامرة لنـدن حرب عدوانية».

ومعلوم أن المادة (6- أ) من قانون المحكمة العسكرية الدولية في نـورنبيرج تصـف مثل هذا العمل بأنه جريمة حربية، وبالتالي فإن الأوساط الحاكمة الإنجليزيـة والفرنسـية نفسها تعد من مجرمي الحرب، ويتساءل المحامي زيدل: «هل يمكن أن يكون مجرمـو الحرب حكامًا لمجرمي الحرب..؟».

أنا وإن كنا لا تعترينا ذرة من الشك والتردد في ضرورة استمرار حجز الطاغية النـازي وراء القضبان الحديدية، إلا أنه لا يسعنا في الوقت ذاته إلا أن نلاحـظ في كلمـة محاميـه بعض المنطق، فمثلاً لا يجوز لنا إلا أن نوافق على وصف زيدل لأعمال إنجلترا وفرنسـا أن المعتدين الإنجليز والفرنسيين وكذلك أتباعهم الإسرائيليين قـد وضـعوا أنفسـهم في صف واحد مع مجرمي الحرب الهتلريين، وذلك بأعمالهم السـوداء التـي ارتكبوهـا في مصر.

وعدا ذلـك، فـإن هنـاك بعـض المناسـبات التـي تجـاوز فيهـا المعتـدون الإنجليـز والفرنسيون والإسرائيليون حتى جرائم أشهر الجلادين الهتلـريين، فـلا يمكـن أن نقـرأ دون أن تأخـذنا قشـعريرة مـن التقـزز، تلـك الوثـائق العديـدة وأقـوال شـهود العيـان، وأحاديث الضـحايا أنفسـهم عـن الفظـائع الداميـة التـي اقترفهـا الغاصـبون الإنجليـز والفرنسيون في بورسعيد، وعن الجـرائم الوحشـية التـي ارتكبهـا الإسـرائيليون في شـبه جزيرة سيناء وفي قطاع غزة.

ونحن نورد هنا أحاديث لصحفيين يمثلون جرائـد مـن مختلـف البلـدان ومختلـف الاتجاهات السياسية، وفي عدادهم صحفيون غربيون تقوم عقائدهم السياسية على أسس الميـل العلنـي للغـرب، وهـذه الشـهادات تفضـح تمامًـا محـاولات الغـزاة الإنجليـز والفرنسيين والإسرائيليين إخفاء ما ارتكبوه من جرائم في مصر وهـذه طائفـة مـن تلـك

الشهادات:

الصحفي الكندي فرانك لو: «إن ما نراه هنا يفوق كل الفظائع، التي سبق أن سمعنا عنها، أو قرأناها في الصحف».

المراسل الصحفي المصور السويدي أنديرسون: «نفذت إلى بورسعيد بعد بضع ساعات من إعلان وقف النار، فشاهدت هناك جحيمًا يعج باللهيب والدخان، رأيت أطفالاً في بيوت دمرتها القنابل، يبحثون بين الأنقاض عن آبائهم وأمهاتهم، ورأيت آباء يرفعون بأيديهم الجريحة المدماة حطام البيوت المدمرة بيوت مهمدمة سرت إليها النار وتصاعد منها الدخان تقع خلف بعض المستشفيات التي سلمت من القصف، وقد دمرت القنابل اثنين من المستشفيات وأبادتها مع 900 مريض كانوا فيها...

وتجولت بين سكان بورسعيد، وأخذت معلومات من الأطباء في المستشفيات، ومن قائد فرقة المطافئ، ومن رجال ونساء عاديين بسطاء، ورأيت جثث أطفال ونساء خرق الرصاص ظهورهم، فقد أطلق عليهم الرصاص عندما كانوا يركضون طلبًا للملجأ، وفي منطقة الجمالية قصفت ستة أحياء من البيوت الخشبية بالقنابل المحرقة، وخلال الساعتين اللتين أمضيتهما، هناك أخرجت من تحت أنقاض الأبنية 270 جثة، ولا يسعني أن أضيف إلى ذلك شيئًا، ويستحيل أن تصور ما رأته عيناي أية كلمات».

مراسل وكالة رويتر للأنباء مايتس: «..، هنا كره شديد، وخاصة في الأحياء المدمرة المنفصلة عن الحي الأوروبي الحديث، ففي هذه الأحياء ترى جماعات عابسة من الناس في الشوارع تتمتم مستنزلة اللعنات في عقاب الدوريات الإنجليزية المارة».

مراسل الجريدة الإنجليزية ديلي هيرالد: «لقد أنهيت لتوي جولة فظيعة، ففي كل زاوية تقريبًا أرى جثث الموتى..، والنساء المعولات النائعات يطفن بين الجثث باحثات عن أقاربهن».

بريدلي، مراسل المجلة الأمريكية نيوزويك: «بورسعيد هي الآن جرح مقرف صدئ في فم قناة السويس، في مقابرها تبعثرت مئات من الأموات الذين أما يقبض لهم قبر يرقدون فيه، وردهات المستشفيات تضاء بالشموع، وقد غصت بالجرحى المتأوهين، وتكدست الجثث في حجرات الأموات حتى بلغت السقف، وانتشرت في الشوارع

الأحجار وفاضت فيها مياه المجاري المدمرة والآبار، وكانت بورسعيد من قبل أن تنزل فيها السفن والطائرات القوات البريطانية، قد دمرتها قنابل طائرات الأسطول الجوي الملكي وقصف المدافع من البحر».

وهاكم شاهد عيان آخر:

المراسل الخاص لدار الإذاعة في موسكو، سيرجي كافيرين: «عندما وصل إلى بورسعيد سجل على الشريط أحاديث سكان المدينة عن الفظائع التي اقترفها المستعمرون الإنجليز والفرنسيون، ونحن نورد فحواها فيما يلي:

قالت حميدة محمود سلامي وهي تجهش بالبكاء: «كان لي ابن في الثانية والعشرين من العمر، وقد تزوج قبل ثمانية أشهر وذهب ولدي والسلاح في يده للدفاع عن الوطن، وعرفنا فيما بعد أنه جرح، واختطفه الإنجليز، وعذبوه، ثم قطعوا يديه ورجليه فمات، ورموه في البحر».

وقال إبراهيم جيد: «في الحادي والثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) شنت الطائرات الإنجليزية والفرنسية غارة عنيفة على بورسعيد، وقتل عدد كبير من المصريين، واستمرت الغارات الجوية ليلاً ونهارًا أكثر من أسبوع، فتهدمت البيوت وقتل الناس الوادعون، وكان من المستحيل حصر تعداد الضحايا، وبعد أن احتل المعتدون المدينة أخذوا يسطون على الدور وينهبونها وسلبوا الأشياء النفيسة والدراهم، وقتلوا الأبرياء، ونهبوا المخازن، واعتدوا على النساء، واعتقلوا المواطنين دون أية جريرة ولكننا لم نستسلم».

وحتى الآونة الأخيرة كان في المعتقلات ألوف من المصريين يسومهم الدخلاء الإنجليز والفرنسيون سوء العذاب، ويرمون بالرصاص كل من يصفعهم بحقيقتهم أو يقف في وجههم أو يحمي الوطنيين ويحمل الجرحى من الشوارع إلى المستشفيات.

وتحدث إبراهيم السيد قائلاً: «لقد أحرق الإنجليز والفرنسيون بيتي، ونهبوا متاعي، وسلبوا دراهمي لأني أنا وآخرين طالبنا بفتح أبواب المسجد، والآن لم يبق عندي شيء سوى همومي».

وقال الأمين قيصر: «عندما نفذت القوات الإنجليزية الفرنسية في المدينة هدمت

بيتي، ونهبت جميع ما أملكه، كما هدمت معظم البيوت المجاورة، وكانت ترمي المواطنين برصاص البنادق والرشاشات، وكانت تطلق النار في جميع الجهات، ولم يكن باستطاعتنا أن نهرب من المدينة، فقد كان يتربص بنا المعتدون الغاشمون، ويطلقون النيران علينا من جميع الأطراف».

وهناك في قائمة الجرائم الدامية التي ارتكبها المستعمرون جريمة شنعاء ترتعد لها الفرائص، تلك هي الجناية النكراء التي اقترفها طبيب عسكري بريطاني في بورسعيد، والتي هزت الرأي العام العالمي، فقد أجرى هذا الطبيب عملية جراحية للشاب المصري محمد مهران عثمان، الذي أسره الإنجليز فاقتلع عينيه من محجريهما لتركيب قرنيتهما لعسكري بريطاني جريح.

وكان محمد مهران عثمان وعمره 18 عامًا، قد جرح أثناء المعارك في بورسعيد، واختطفه الأعداء وأسروه، ووضعوه في سفينة حربية إنجليزية، حيث جرى تخديره، وعندما ثاب إلى وعيه وجد أن عينيه معصوبتان وأنه فقد عينيه، وبقى عثمان بضعة أيام في المستشفى، ثم تمكن بعد ذلك بمساعدة أصدقائه أن يهرب من هناك وأن يصل إلى القاهرة.

وقد صرح الطبيب الإنجليزي الذي اقتلع العينين أنه أجرى العملية لأنها كانت - حسب زعمه- ضرورية يتطلبها الجرح الذي أصيب به الشاب المصري، ولكن عندما أجرى الكحال القاهري المعروف الدكتور علاء الدين بردي فحصًا طبيًا دقيقًا، لم تظهر في الجفون أو في الجمجمة أية آثار تدل على أي جرح سابق في العينين.

هذا ولم يتخلف عن المستعمرين الإنجليز والفرنسيين، أعوانهم البرابرة الإسرائيليون، ففي التصريحين اللذين أدلت بهما الحكومة المصرية في 20، 28 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1956م، وجهت الحكومة المصرية الأنظار إلى أن القوات الإسرائيلية قد فرضت في الأراضي التي تحتلها نظامًا إرهابيًا ضد السكان العرب، وأنها أنزلت بسكان العريش العزل فظائع وحشية وكذلك بالفلسطينيين في غزة ودير البلح وخان يونس ورفح.

وفي رفح والعريش رميَ بالرصاص أمام أعين ممثلي وكالة غوث اللاجئين الدولية

أكثر من خمسين شخصًا، وذلك أثناء توزيع المساعدة المرسلة من هيئة الأمم المتحدة على اللاجئين، وقد أباد الإسرائيليون ونهبوا أموال السكان، واغتصبوا السيارات الخاصة، وأبقوا سكان المناطق المحتلة بدون مواد غذائية محرومين من المساعدة الطبية، واتبع الإسرائيليون في تراجعهم خطة «الأرض المحروقة»، فكانوا يقلبون بماكينات البولدوزر الطرق المعبدة، ويهدمون السكك الحديدية والجسور، ويشعلون النار في البيوت والمنشآت.

وقد نظمت دائرة الأنباء الخارجية بمصر للصحفيين المصريين والأجانب زيارة لشبه جزيرة سيناء في المناطق التي تحررت من الغاصبين الإسرائيليين، وقد شاهد الصحفيون بأنفسهم آثار الفظائع وأعمال التخريب التي ارتكبها المعتدون في الأراضي المصرية، ففي محطة روماني حبس المعتدون في بناية المحطة جماعة كبيرة من المصريين من الناس العزل الآمنين ثم نسفوا البناية، فأبيد جميع من كان فيها من الناس.

وفي طريق القنطرة إلى العريش عثر على أوتوبيس كان الغزاة الإسرائيليين قد أطلقوا عليه قنابل النابالم فأحرقوه بركابه الذين كانوا فيه، وعثر كذلك على جثث مصريين دهستهم الدبابات الإسرائيلية وقتلتهم.

نحن لا نجد غير كلمة «البرابرة» وصفًا نطلقه على إناس ابتدعوا مثل هذه الأعمال الوحشية الفظيعة.

لقد أصبح شعور التضامن الفائق بين الشعوب المحبة للسلام في نضالها من أجل الحرية والاستقلال والسلم، هو الطابع المميز للوضع الدولي المعاصر، وقد نشأت في الظروف الراهنة إمكانية واقعية لدرء خطر الحرب بجهود مشتركة تبذلها الشعوب، وقد أثبتت حوادث مصر ذلك مرة أخرى.

فعلى إثر الهجوم على مصر هبت في الحال موجة هائلة من السخط الشعبي شملت العالم كله، وتعالت في أرجاء الأرض بأسرها هذه الشعارات المدوية التي غدت أشد الشعارات إلحاحًا لدى جميع البلدان والشعوب: «أوقفوا العدوان على مصر»، «يا برابرة كفوا..!»، «ارفعوا أيديكم عن مصر..!».

ورصت جميع بلدان الشرق العربي صفوفها مع مصر، فقد كان العدوان الذي شنته

إنجلترا وفرنسا يهدد – في حال نجاحه– كل ما ظفرت به قوى التحرير في البلاد العربية كافة بالانهيار والنكوص، هذه القوى التي لا تنفك تنمو وتتأيد طوال سنين طويلة من الجهاد والجلاد، وهذا العدوان كان يحمل خطر بعث نظام الاستثمار الاستعماري والظلم.

والبلدان العربية بنهوضها ونضالها ضد المعتدين الذين هاجموا مصر، كانت تناضل كذلك في سبيل استقلالها هي، فعلى إثر مصر قطعت المملكة العربية السعودية وسوريا علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا، وفي الوقت ذاته صرحت حكومة الأردن رسميًا أنها لن تسمح لإنجلترا باستخدام القواعد الجوية العسكرية الإنجليزية في عمان والمفرق، تلك القواعد التي تتصرف بها إنجلترا بموجب معاهدة سنة 1948م.

وأعلنت الحكومة الليبية تصريحًا مماثلاً، وحتى حكومة العراق التي ربطت بلادها عن طريق حلف بغداد بعجلة الدول الاستعمارية، وجدت نفسها مضطرة تحت ضغط الشعب إلى أن تستنكر بشدة عدوان إنجلترا وفرنسا على مصر.

وعرضت الدول العربية وفقًا لميثاق التضامن الجماعي، مساعدة قواتها المسلحة لمصر في نضالها ضد المعتدين، واتخذت المملكة العربية السعودية وسوريا والأردن وبلدان عربية أخرى تدابير حاسمة للتأثير الاقتصادي في بلدان المعتدين، فالمملكة العربية السعودية منعت إرسال نفطها إلى إنجلترا وفرنسا.

وفي الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) قام العمال السوريون تضامنًا منهم مع الشعب المصري المكافح، بنسف محطات ضخ النفط الواقعة على أنبوبي النفط اللذين يسيل بواسطتهما نفط العراق إلى مينائي طرابلس وبانياس على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ونتج عن ذلك أن حرمت إنجلترا وفرنسا من مقدار كبير من النفط الذي كان يصل إليها من الشرق الأدنى.

وفي جميع البلدان العربية وفي سوريا والمملكة العربية السعودية والأردن ولبنان واليمن والعراق والسودان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش، قامت مظاهرات شعبية جبارة، وتميز العهد بقيام حركة تضامن مع مصر شملت حتى تلك المناطق من العالم العربي التي كانت تعتبر حتى الآونة الأخيرة «حرمًا» للمستعمرين، كإمارات شبه

الجزيرة العربية الواقعة تحت الحماية البريطانية، ففي عدن أضرم المتظاهرين النار في ثكنات القوات الإنجليزية وفي المؤسسات النفطية، وفي الكويت شبت النيران في حقول النفط، وفي إمارة قطر نشبت اضطرابات عنيفة، وقامت انتفاضة في البحرين.

وشددت الحوادث في مصر الميول المعادية للغرب في جميع البلدان العربية وقوتها لدرجة كبيرة، وقد أظهر مثال مصر بوضوح أية عواقب وخيمة يمكن أن يؤدي إليها استمرار بقاء النفوذ العربي، فمراسل وكالة رويتر بيتشاير يصف الحالة في الأردن في أيام العدوان على مصر بالشكل التالي: «عندما كنا نمر عبر زيرقا – القاعدة الرئيسية للجيش العربي، وتقع على بعد 17 ميلاً من عمان– رجمنا الشبان والصبية بالحجارة، وأخذوا يصحيون: ارحلوا إلى دياركم أيها الإنجليز الأنجاس..!

ويلاحظ الإنسان في الأردن أن العدوان الذي ارتكبه الإنجليز والفرنسيون على مصر قد بدأ مزيجًا من التعجب والشك ثم ارتفعت موجة عارمة من الحقد والكراهية، والحكومة التي قطعت يوم أمس علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا، لم تتخذ حتى الآن قرارًا بشأن إنجلترا، رغم أن الأنباء الذائعة تفيد بأن معظم أعضاء الوزارة يؤيدون قطع العلاقات.

وينبغي القول أن بيتشاير لم يخطئ في تقديره الميول المعادية لإنجلترا؛ إذ سرعان ما قررت الأردن إعادة النظر في علاقاتها مع إنجلترا، وظهر أن إعادة النظر هذه كانت أوسع مما تصوره بيتشاير، فقد قرر البرلمان الأردني وفي إثره الحكومة الامتناع عن قبول المساعدة المالية الإنجليزية، وإلغاء معاهدة سنة 1948م الإنجليزية الأردنية الجائرة.

ولم تكن الحوادث في الأردن إلا حلقة واحدة في سلسلة رد الفعل الذي عم العالم العربي كله، فليبيا اتخذت قرارًا بالتعجيل في إجلاء القوات الإنجليزية والفرنسية عن أراضيها، وأصدرت سوريا قانونـًا يلغي الاتفاقيات المعقودة سابقـًا مع الشركات الإنجليزية والفرنسية، والتي تمسَّ سيادة البلاد، وفي العراق نشبت حركة شعبية جبارة عارمة من أجل خروج البلاد في الحال من حلف بغداد الاستعماري، وإقالة العميل الإنجليزي نوري السعيد، وإنشاء حكومة وطنية حقًا، تمارس سياسة تتفق ومصالح العراق ومصالح العرب كلهم.

لقد هزت حوادث مصر هذه البلاد التي كان الاستعمار يعتبرها حصنه الحصين في الشرق العربي.

إن النضال العنيد الذي خاضه الشعب المصري ضد المعتدين الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين المسلحين حتى الأشداق والأنياب قد قوبل بأوسع التأييد في جميع بلدان آسيا وإفريقيا، وهذا مؤتمر باندونج الذي عقد في ربيع سنة 1955م قد سجل تضامن هذه البلدان تضامناً يقوم على اشتراك مصالحها في النضال ضد نظام المستعمرات والاستعمار، هذين العدون اللدودين لشعوب الشرق، لقد تحققت اليوم مبادئ التضامن الأسيوي وطبقت.

إن شعار «ارفعوا أيديكم عن مصر..!» سمع داويًا في دلهي وبكين، وفي رانجون وكابول، وفي جاكارتا وكراتشي، وصرح الرئيس الأندونيسي سوكارنو قائلاً: «إن نضال شعب مصر، هو نضالنا، إن النضال ضد الاستعمار يجب أن يتم بجهود موحدة تبذلها جميع البلدان الذائدة عن الحرية والاستقلال».

وقال رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو بمناسبة العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي: «إن البلدان المستقلة في آسيا وإفريقيا لا تطيق صبرًا على مثل هذه الأعمال».

وقد تلقت الحكومة المصرية من المنظمات السياسية والاجتماعية ومن الأشخاص في بلدان آسيا برقيات عديدة يومية تتضمن العزم على إبداء كل المساعدة للشعب المصري في نضاله العادل، وقد تقاطرت هذه البرقيات من الهند وبورما وإندونيسيا والباكستان واليابان وإيران وبلدان عديدة أخرى، وأيد المسلمون في البلاد الآسيوية تأييدًا حارًا نداء شيخ الجامع الأزهر وإعلائه الجهاد ضد المستعمرين.

وأيد الاتحاد السوفييتي وسائر بلدان المعسكر الاشتراكي مصر تأييدًا قويًا، وقد جاء في التصريح الرسمي الذي نشر في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1956م ما يلي: «إن الحكومة السوفييتية تعتبر أن من الواجب على مجلس الأمن لهيئة الأمم المتحدة أن يتخذ باسم السلام والطمأنينة في الشرق الأدنى، تدابير عاجلة لوقف الأعمال العدوانية التي تقوم بها إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ضد مصر، ولسحب قوات المتدخلين في الحال من أراضي مصر».

إن موقف الاتحاد السوفييتي هذا كان يعكس على أتم وجه ميول السوفيتيين، وفي تلك الأيام عقد الشغيلة في جميع أرجاء البلاد الشاسعة اجتماعات طالبوا فيها بلجم المعتدين، وأعربوا عن شديد تضامنهم مع الشعب المصري المجاهد، وفي الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) قامت في موسكو أمام سفارات بلدان المعتدين مظاهرات اشتركت فيها شبيبة العاصمة والطلبة، وجرت في الاتحاد السوفييتي حملة ناجحة لجمع التبرعات والأموال لمساعدة سكان مصر المنكوبين بالعدوان، وقد اقتنيت بهذه الأموال كمية كبيرة من الحبوب والمواد الغذائية والأدوية ومواد أخرى، أرسلت إلى مصر هدية من الشعب السوفييتي إلى الشعب المصري.

وأيد الشعب الصيني بملايينه الستمائة مصر تأييدًا فعالاً، فقد عرف هذا الشعب وخبر بنفسه فظائع السياسة الاستعمارية التي تمارسها الدول الغربية، وقد أدلى رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية شو آن لاي بتصريح أعرب فيه عن رأي الشعب الصيني العظيم كله وقال: «إن حكومة وشعب الصين يؤيدان كل التأييد النضال العادل الذي يخوض الشعب المصري غمراته، يجب على الاستعماريين الإنجليز والفرنسيين أن يوقفوا في الحال مع إسرائيل عدوانهم».

وقال شو آن لاي: «لا يمكن السماح أبدًا بأي تطاول مهما يكن، على سيادة مصر وسلامة أراضيها»، وقد جرت المظاهرات الشعبية الضخمة أيامًا عديدة في جميع أنحاء جمهورية الصين الشعبية احتجاجًا على العدوان، وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عقد في بكين اجتماع احتجاج حضره ثلاثمائة ألف شخص.

وكانت حركة التطوع أعلى مظاهر تضامن الشعوب مع الشعب المصري المكافح، ففي السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1956م وجهت الحكومة المصرية باسم الشعب نداء إلى الناس الطيبين في العالم كله أن يتطوعوا ويساعدوا مصر بالأسلحة والوسائل الأخرى، وقد لاقى هذا النداء صدى حارًا في عدد كبير من بلدان الشرق والغرب، وأبدى عشرات الألوف من المواطنين السوفيتيين رغبتهم في الذهاب إلى مصر متطوعين، ليناضلوا إلى جانب الشعب المصري في سبيل طرد المعتدين، وكان بينهم عدد كبير من الاحتياطيين، من الطيارين، ورجال الدبابات والمدفعية، الذين اكتسبوا خبرة عسكرية فائقة أثناء الحرب الوطنية العظمى.

وفي الحادي عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) أعلنت وكالة الأنباء السوفيتية، أنه إذا واصل المعتدون أعمالهم السوداء ولم يسحبوا جيوشهم من الأراضي المصرية، فإن المتطوعين السوفيتيين سيسمح لهم بالسفر إلى مصر، وقد أعرب 250000 متطوع من جمهورية الصين الشعبية عن رغبتهم في السفر لمساعدة الشعب المصري، و50000 متطوع من جمهورية أندونيسيا، وتقدم للتطوع عدد كبير من الهند واليابان والباكستان وبلدان عديدة أخرى.

كانت حركة المتطوعين إنذارًا خطيرًا للمتدخلين، وكانت تحذيرًا جديًا كذلك لكل من تحدثه نفسه بالعدوان في المستقبل، ولكل من ينوي في وقت ما أن يسير على خطى إنجلترا وفرنسا وإسرائيل.

وقد قوبل العدوان على مصر باستنكار شديد للغاية حتى في تلك البلدان، التي شنت حكوماتها العدوان، وكانت النتيجة أن أعمال الحكومتين الإنجليزية والفرنسية رافقتها معارضة خطيرة في الداخل، فقد اتهم حزب العمال حكومة إيدن جهارًا بأنها أقدمت على عدوان دنيء لا مبرر له، وطالب باستقالتها، وكتبت «منتشستر جارديان»: «إن الملايين من الإنجليز ساخطون أعمق السخط على السياسة العدوانية التي تسلكها الحكومة».

إن شعوب القارات الخمس جميعها طالبت بحزم متعاظم أبدًا بهذاالشعار: «ارفعوا أيديكم عن مصر..!»، والحكم الذي صدر في هيئة الأمم المتحدة على المعتدين جاء نتيجة منطقية لتطور الحوادث.

استجابة جماهيرية غير مسبوقة في التاريخ العربي:

من الشائع اليوم القول بأن معركة السويس عام 1956م هي التي كرست زعامة عبد الناصر العربية، وعبرت به من حدود القطرية المصرية الضيقة ليلتحم بالجماهير العربية العريضة من المحيط للخليج، نعم هذا صحيح.. وإنما من غير الشائع الحديث عن الدور الذي لعبته الجماهير العربية في معركة السويس التي قادها عبد الناصر، وأن التأييد الشعبي الرعبي الذي كان يحصل عليه في معاركه، له أبلغ الأثر في القفز به من مجرد زعيم محلي محدود إلى زعيم عربي له وزن كبير في السياسة الدولية بسبب قيادته لكل هذه الكتلة البشرية الممتدة من المحيط إلى الخليج، كتلة قادرة على التصدي للمصالح

الأجنبية دونما تحريض مباشر من عبد الناصر.

فعندما نسف الضباط العروبيون في سوريا - مثلاً- محطات ضخ البترول بعد العدوان الثلاثي على مصر، وتوقف ضخ البترول إلى البحر المتوسط وجدت أوروبا نفسها في لحظة واحدة بدون قناة السويس وبدون البترول، ويذكر محمد حسنين هيكل في هذا الصدد أن وزير الخزانة البريطاني «هارولد ماكميلان» هرول من مكتبه رقم 11 «داوننج ستريت» الملاصق لمقر رئاسة الوزراء في 10 «داوننج ستريت» يحمل له نبأ الكارثة الجديدة قائلاً: «لقد توقف بترول الشرق الأوسط تمامًا وبدأ الجنيه الإسترليني يتعرض لضغط عنيف، ويقرر خبراء وزارة الخزانة أن الخسائر في أسواق العملة تصل هذا اليوم إلى عشرة ملايين جنيه إسترليني».

ورغم أن جمال عبد الناصر لم يقم بأي تحريض على تعطيل خط أنابيب البترول الذي يمر بسوريا رغم أنه يعرف أهميته الحيوية، إلا أن المعركة التي كان يخوضها ضد القوى الاستعمارية الكبرى كانت كفيلة بشد كل الأحرار العرب إليها دون تحريض أو استدعاء، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان تأميم عبد الناصر لشركات البترول البريطانية العاملة في مصر بمجرد بدأ الغارات الجوية على مصر أول إيحاء للأحرار العرب بالدور الاستراتيجي الذي سيلعبه البترول العربي في المواجهة مع القوى العظمى الاستعمارية، وفي تاريخ المنطقة ككل.

18: فعندما أطلق عبد الناصر شعار «بترول العرب للعرب» فقد كان ذلك يعني لديه معركة جديدة ضد الشركات العالمية الكبرى المسيطرة على مقدرات الوطن، لقد كان جمال عبد الناصر يؤسس بذلك لوعي عربي جديد ستنتهجه كل الحركات الوطنية العربية بعد ذلك، منذ ثورة العراق عام 1958م وحتى الثورة الليبية عام 1969م، وهكذا سيستقر في الوعي الشعبي للحركات الوطنية العربية على اختلاف أفكارها أن بترول العرب للعرب.

■■ لماذا حاربنا في اليمن ؟[1]



1918 - 1970

منذ أن سافرت قواتنا المسلحة إلى اليمن لمساندة ثورة الشعب في سبتمبر 1962م وحتى عودتها في ديسمبر 1967م، وأنا أتابع أخبارها وأسعى إليها وأسجل كل شيء عنها.

لقد سجلت هذه القوات صفحات رائعة للبطولة والبذل والفداء، وخاضت معارك يندر وجود مثيل لها في التاريخ العسكري لما للطبيعة اليمنية من ملامح تنفرد بها، جبال حارة عديدة، كهوف ومسالك ودروب ووديان، ومعرفة علمية قليلة أو نادرة أو معدومة عن هذه المناطق، إلى جانب ظلام خاص فرضه حكم الأئمة على الشعب البسيط طمس أمامه الكثير من الحقائق الجوهرية للإنسان العربي.

وعندما أعددت كتبي عن أول شهيد في معركة اليمن – البطل نبيل بكر الوقاد– وواليت هذه الكتب في سلسلة «شباب عربي خالد» كان إيماني قد وصل إلى حد اليقين بأن اليوم الذي سيعود فيه هؤلاء الأبطال الذين صنعوا ببذلهم وبطولتهم أروع القصص سيكون يومًا تاريخيًّا مشهورًا يضيف إلى السجل العربي الخالد أنصع صفحاته وأهمها وأخطرها.

(1) أبو الحجاج حافظ: كتاب عودة الأبطال – صفحات مشرقة من النضال في اليمن، مطبعة دار ومطابع الشعب، القاهرة، 1968م، ص7–22.

كما كنت متأكدًا تمامًا أن هؤلاء الأبطال العائدين سيضيفون ثروة إنسانية جديدة ورفيعة إلى مجتمعنا العربي، وسوف تتدفق مع عودتهم حيوية وعمق كبير إلى واقع حياتنا العربية كلها.

وقبيل عودة هذا القوات عندما أعلنت الجمهورية العربية الجديدة في جنوب اليمن، وتحقق النصر الكبير لثورة الشعب العربي في الجنوب المحتل ازداد تأكدي وازداد إيماني بالدور الذي قام به أبناء قواتنا المسلحة في هذه المنطقة.

ومما لا شك فيه أن الثورة والقومية والعروبة لم تعد بفضل هؤلاء الأبطال معاني وكلمات تقرأ ونتحمس لها، كما لم تعد العدالة والإنسانية والاشتراكية نظريات للجدل حولها.

ولكن جعل الأبطال من هذا كله حياة كريمة عاشوها وعشناها معهم بالقلوب والأرواح.

لقد تعلموا وتكونوا في مدرسة الحروب الشريفة العادلة، مدرسة الشعوب.

ولا شيء يكشف البطولات ويصقل المواهب ويبرز الفضائل الكامنة، ويثبت المبادئ، ويزيد لمعانها وبريقها وحيويتها مثل حرب شريفة عادلة في سبيل المبدأ، ومن أجل الفكرة، وإلى الأمة العربية أقدم هذه الصفحات.

لماذا حاربنا في اليمن..؟

لماذا ذهبنا إلى اليمن..؟

لماذا حاربنا هناك..؟

ثم ماذا فعلنا هناك..؟

في الحقيقة تناول عدد كبير من الكُتاب والمعلقين السياسيين والاجتماعيين هذه الأسئلة بالإجابة والتحليل الصادق العميق على الخط الإنساني العربي الثائر.

ولكن بما لا شك فيه أن أهم الإجابات وأدقها كانت إجابات قائد الثورة العربية وبطل القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر.

ومن واقع كلمات الرئيس منذ خطابه يـوم الأحـد 23 سـبتمبر «كـانون الأول» عـام 1962م حتى 23 ديسمبر 1967م سأحاول أن أنقل هنا كلمات عبد الناصر التي تجيب على هذه الأسئلة، ثم أعقب بما كتبه المعلقون السياسيون.

قال جمال عبد الناصر في خطابه الأول الذي تناول فيه معركة اليمن عقب ثورة سبتمبر 1962م التي أعلنت قيام الجمهورية العربية اليمنية، وقـد ألقـاه سـيادته في عيـد النصـر السابع بمدينة بورسعيد الخالدة.

إننا نحارب في اليمن دفاعًا عن المصير المشترك لشعوب الأمة العربيـة، نحـارب في اليمن دفاعًا عن الاشتراكية في القاهرة، ودفاعًا عن القدرة العربية على استرداد فلسطين.

إن القوات الأولى التي ذهبت إلى اليمن تطوع أفرادها للقتال إلى جانب الشعب اليمني قبل أن يصدر القرار الرسمي بإرسال قوت مصرية إلى اليمن.

بعدما قامت ثورة اليمن أنا فكرت أربعة وعشرين ساعة وظهـرت القـوى المتربصـة بثورة اليمن، ما هو موقفنا إذا تعرضت الثـورة للعـدوان الخـارجي، هـل نسـكت، هـل نسيب الرجعية، وبعدين كنا نسأل أنفسنا سؤال تاني، هل الجيش الذي تعرض للإهانة في سوريا كفر بالقومية العربية، أو اهتز إيمانه بالعروبـة أو بالوحـدة العربيـة، وكنـا نبحـث موقفنا، وفي أول يوم وثاني يوم بدأت روح القوات المسـلحة تظهـر، أحنـا مـا طلبنـاش ولكن ضباط القوات المسلحة وجنود القوات المسلحة بعثوا طلبات للتطوع في الحرب في جانب ثورة اليمن.

إذا هذا الشعب لم يكفر؛ لأنه شـعب واع شـعب وراءه حضـارة وتـاريخ سـبعة آلاف سنة، شعب الفلاح البسيط منـه قاعـد بيبقـى في القريـة، وبـيفهم ليـه؛ لأن وراءه تـاريخ وحضارة سبعة آلاف سنة، عارف فين مصلحته، عارف فين مبادؤه، عـارف فـين الحـق اللي يجب أن ينحاز له، والذي يجب أن يعمل في جانبه.

بعد ثورة اليمن الجيش كله، القوات المسـلحة كلهـا بأسـلحتها، الطيـران والبحريـة والجيش كله كان بيظهر رغبته، عدد كبيـر مـن الأسـلحة دي بعـت أنـه مسـتعد يتطـوع ليحارب في جانب قوات الثورة اليمنية، وكان في هذا الإثبات الأكيد لأن أحنا ما طلبناش في هذا الوقت، الإثبات الأكيد أن حملات الاسـتعمار وأعـوان الاسـتعمار ومحـاولاتهم

عشان يكفرونا بالقومية العربية والوحدة العربية فشلت.

هذه أيها الإخوة المعركة، مش معركة اليمنيين ولا الشعب اليمني، معركتنا إحنا ومعركة كل شعب حر، لأننا كل ما نكسب شعر حرب كل ما يتحرر شعب من الشعوب العربية الخاضعة لذل الاستعمار والخاضعة لذل الرجعية كلها تزيد قوتنا، بنشعر إن إحنا أقوياء ضد الاستعمار، ضد الرجعية، ضد الصهيونية، بنشعر إن فيه خمسة مليون يمني كانوا تحت أسرة حميد الدين لألف ومائتين سنة معيشتهم في القرون الوسطى، ينتقلوا دفعة واحدة إلى القرن العشرين لينضموا إلى قافلة التحرر العربي.

راديو إسرائيل زعلان جدًا ليه؛ لأن الثورة في اليمن ضد أهداف الصهيونية، ضد أهداف الاستعمار، ضد أهداف الرجعية، إذن معركة اليمن معركتنا، ثورة اليمن ثورتنا.

طيب الثوار اليمنيين اللي طلعوا ينادوا بالحرية وبالمبادئ هل نتركهم للثورة المضادة أو للغزو الخارجي..؟

دخلنا هذه الحرب من أجل المبادئ، من أجل المُثل العليا، من أجل القومية العربية، من أجل الدفاع عن أهدافنا ومبادئنا، من أجل الدفاع عن القاهرة في قلب الجزيرة العربية، من أجل مهاجمة الرجعية في قلب الرجعية، من أجل القضاء على الرجعية، من أجل الوصول إلى نتيجة حاسمة في معركتنا مع الرجعية التي بدأت منذ زمن طويل، ومع الاستعمار، ومع الصهيونية.

معركة اليمن كانت ملامح المعركة الشاملة للأمة العربية، إن كانت الأمة العربية تنشد الحرية فقد كانت معركة اليمن من أجل الحرية، وإن كانت الأمة العربية تنشد الخلاص من الاستغلال فقد كانت المعركة في اليمن من جانب القوى الثورية جهدًا يائسًا مستميتـًا للخلاص من الاستغلال، وإن كانت الأمة العربية تنشد العدل للإنسان العربي فقد كانت المعركة في اليمن تطلب حق العدل، بل كانت تطلب قبله حق الحياة وإنها حتى في أبسط مظاهرها، وإن كانت الأمة العربية تنشد حق تقرير مصيرها بعيدًا عن الطغاة فقد كانت من أجل هذا معركة الشعب اليمني التي شاركتم بشرف قتالها.

أيها الرجال.. لم تكن تلك فترة عبرت وانتهت، وإنما كانت فترة سقطت فيها الحواجز ، وظهر العالم العربي على طبيعته الأصيلة، نخطئ أيها الرجال لو ظننا أنها فترة

عبرت وانتهت، وإنما هي حقيقة تكشفت، لم تكن عملية فوران ما لبث أن سقطت وإنما كانت غطاء انزاح عن الحقيقة.

هذا أيها الرجال أهم ما فعلتم، إنكم أزحتم الغطاء عن الحقيقة أكدتم وجودها ومعانيها الأصلية، أبرزتم بطريقة لا يخطئ الإدراك السليم بلاغتها.

قامت ثورة اليمن، قام الشعب اليمني الباسل، وقام الجيش اليمني أيضًا بثورة يائسة مستميتة من أجل الحرية، من أجل الحياة، من أجل كرامة الإنسان.

ذهبتم أيها الرجال بروح طيبة ونفس أبية وكل فرد فيكم يعمل أنه قد يذهب ويبذل دمه وروحه ولا يعود إلى أرضه الطيبة، ولكني أعلم علم اليقين، إنكم ذهبتم وكلكم شوق إلى التضحية وإلى الفداء، كلكم ذهبتم وأنتم تعرفون أن مسئوليتكم ليست في داخل الحدود المصطنعة فقط، ولكنها في أرجاء الأمة العربية، كلكم ذهبتم وأنتم تعلمون وأنتم تؤمنون أن الدم العربي والروح العربية هنا في هذه الجمهورية العربية المتحدة، هنا في مصر قد آلت على نفسها وعاهدت ربها أنها على استعداد دائم أن تبذل في سبيل حرية الأمة العربية والوطن العربي.

وفي خطاب آخر للرئيس عبد الناصر في مدينة أسوان في يناير 1962م يقول:

كذلك أيها الأخوة فيه ثورة اليمن، فيه 5 مليون يمني حاططهم الإمام في العصور الوسطى، الواحد يقدر في ثلاث ساعات ينتقل من القرن العشرين إلى القرن العاشر، نركب طيارة ونروح اليمن، نلاقيه حاططهم في العصور الوسطى، مافيش طريق، مافيش أي حاجة، بنقول القومية العربية، وبنقول تحرر وتقدم، أزاي يكون تحرر ويكون تقدم ويكون قومية عربية وهناك تأخر، وهناك رجعية.

كان هذا واجبًا علينا أن نداقع عن حق الشعب العربي في اليمن، في الثورة؛ ولهذا اتجهت طليعة من القوات المسلحة إلى اليمن.

راحت قواتنا هناك وهي تحارب جنبًا إلى جنب مع قوات الجمهورية العربية اليمنية الثائرة، مع الشعب العربي اليمني الثائر، وقواتنا هناك لتدافع عن المبادئ وعن المثل العليا، راحت قواتنا هناك وهي تقود أشرف معركة؛ لأنها معركة فيها إنكار للذات،

معركة يتمثل فيها كل المُثل العليا لهذا الشعب، معركة تتمثل فيها طبيعتكم، رحنا هناك بنحارب من أجل القومية، نحارب من أجل تدعيم الثورة، نحارب من أجل الاستقلال، نحارب من أجل العدالة الاجتماعية.

نحن نحارب أيها الإخوة في اليمن من أجل الشعب اليمني، ومن أجل المبادئ التي أعلنها، ومن أجل المُثل العليا التي آمنا بها، ومن أجل حقنا في الحرية والحياة، ومن أجل حق الشعب العربي والأمة العربية في الحرية والحياة، ومن أجل القوة الذاتية، ومن أجل التطور، ومن أجل معركتنا للتخلص من الاستعمار والصهيونية، لن نتخلص من الاستعمار، ولن نتخلص من الصهيونية إلا إذا تخلصنا من الرجعية وتخلصنا من الاستغلال.

المعلقون السياسيون وإجابة الأسئلة:

تناول الكتاب والمعلقون السياسيون العرب في مقالات عديدة، وبعد زيارات قاموا بها إلى جمهورية اليمن هذه الأسئلة التي سبق أن بدأنا بها هذا الفصل، مبتدئين بإجاباتها من كلمات الرئيس جمال عبد الناصر.

ومن هذا الكتابات سأنقل ما أراه مفيدًا للإجابة عن هذه الأسئلة.

كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل بعد زيارته لليمن تقريرًا سياسيًا هامًا في مطلع 1962م قال فيه:

وفي ذلك الوقت - أي بعد قيام ثورة اليمن وبدء عمليات التسلل- طلبت حكومة الثورة في اليمن مساعدة الجمهورية العربية المتحدة لمواجهة هذا التسلل القادم من وراء الحدود.

وذهبت طلائع من القوات العربية تعززها بعض الطائرات، كانت العملية محددة في منطقة صعدة، وظلت بالفعل محصورة فيها ومن حولها قرابة شهر كامل ، وأمكن في النهاية رد التسلل وضربه.

لكن ذلك لم يكن نهاية العمليات، وإنما كانت هناك مرحلة أخرى بدأت تظهر مقدماتها، وقبل الدخول إلى المرحلة الثانية فإنه من الضروري أن نمهد لها بفكرة

واضحة عن طبيعة الحكم في اليمن، وعن الظروف القبلية التي تلعب فيه الدور الرئيسي.

وفي ذلك المجال فإنه من الخطأ أن نتصور اليمن وكأنها بلد قام فيه تكوين الدولة بمعناها الحديث، فإن اليمن لم تدخل بعد هذه المرحلة؛ ولربما كان هذا السبب في حد ذاته من أسباب قيام الثورة.

لقد كان الإمام يحكم اليمن، لكنه يحكم من غير دولة، كان يحكم باستغلال الدين، وكان يحكم بالسيف بعد استغلال الدين أو قبله.

وكان سياسة الحكم في عهده هي ضرب القبائل بعضها ببعض، وإباحة أرض واحدة منها للأخرى على نظام التخطية المشهور بهذا الاسم في اليمن، وبمقتضاه كان الإمام يبيح لقبيلة من القبائل أن تنقض على أرض غيرها وعلى بيوتها، وأن تنهب وتقتل حتى يطلب إليها أن تكف فتكف.

وكان الإمام يجبي الزكاة ويأخذها لنفسه وتلك كانت علاقته الأساسية بجميع القبائل.

ومن هنا لم تكن في ألوية اليمن المختلفة فروع محلية للإدارة المركزية، ولا كانت هناك حاميات للجيش اليمني في هذه الألوية، كان كل شيء متروكًا للقبائل، تعطي الزكاة للإمام وتبعث بها إليه، وتختلف معه في تقديرها وتتعرض لانتقامه، أو تدفعها راضية وتدفع عن نفسها شروط التخطية.

وكان الجيش اليمني وهو لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة آلاف في ذلك الوقت مركزا في صنعاء أو في غيرها من المدن الرئيسية تعز أو الحُديدة، من هنا فإنه حين قامت الثورة بقيادة الجيش، وناصرتها عناصر التجار في المدن الذين ضاقوا بظلم الأئمة، وعناصر المثقفين الذين أتيحت لهم فرصة المقارنة بين ما رأوه من أحوال العالم الخارجي وبين أحوال التخلف المروع في بلادهم، كانت الثورة تتركز أساسًا في المدن الثلاثة، صنعاء وتعز والحُديدة.

وكان السؤال التالي والخطير هو: كيف تتصرف القبائل..؟

ولقد كان واضحًا أن أكبر قبائل اليمن وهي «حاشد» و«بكيـر» قـد فـرغ صـبرها مـن النظام المرعب الذي يحكم اليمن، وأنها تؤيد الثـورة بـل أن بعـض أبنـاء هـذه القبائـل وغيرها من ضباط الجيش وجنوده اشتركوا بالفعل في عملية إسقاط النظام الملكي.

ثم يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل عن مظاهر التخلف في اليمن: ثـم يجـيء دور التخلف الذي فرض على اليمن، والذي كان أخطر الأعداء في المعركة من أجل الثورة.

لقد كان التخلف بجميع صوره أقسى ما واجهه جنودنا في اليمن، كـان المقاتـل مـن القبائل التي اتصل بها أعداء الثورة اليمنية لا يعرف شيئـًا إلا أوامر شيخه الصادرة إليه.

نصف عار، يحمل بندقية وصندوقـًا من الذخيرة وبعض الدقيق يعجنـه ليصـنع شـبه كرة من الطحين وبعض الزبيب المجففة، ثم يخرج إلى الجبل لا يعرف الحياة ولا الحياة تعرفه.

والتخلف هو الذي سمح للبدر بوصفه إمامًا أن يستغل الدين في نماذج رأيتها بعيني، ولو لم أرها لاستغربت حدوثها في النصف الثاني من القرن العشـرين، في رايـده رأيـت في بيت أحد مشايخ القبائل قطعة من الصفيح عليها اسم البدر، وقال لي الشيخ الذي «جمهر» على حد التعبير الذي تستعمله القبائل وتعني به موالاة الجمهـوريين، أن البـدر بعـث إلى هذا «الشيء» وقال لي ضعه في بيتك لا تصبه الغارات الجوية.

وكان الشيخ معتقدًا بصدق تميمـة البـدر لـولا أن بيتـه تهـدم في غـارة جويـة وأدرك بالبرهان أن البدر خدعة..!

في حجة أروني قطعة ورق بخط البدر يقطع فيها أحد المشـايخ في الجنـة، وفي مـأرب روى لي أحد المشايخ مشهدًا غريبًا حضره بنفسه في «الجوبـة» مقـر البـدر بعـد هروبـه، وقال الرجل أن البدر جعله يسمع صوت الوحي الإلهي يبشره بأنه المنصور، ثم تبين أن البدر سجل على جهاز تسجيل كهربائي رسالة بصوت عميق، ووضع جهاز التسـجيل في مكان مختف من الحجرة وقال لبعض المشايخ الجالسين معه: هـل معنـا أحـد في هـذه القاعة..؟

قالوا: لا.. قال لهم: اسمعوا صوت الوحي.

ثم بدأ يتمتم بأدعية وصلوات، وبعد قليل سمع حشرجة في الغرفة، ثم الصوت العميق ينطلق من حيث لا يرى المشايخ يقول موجهًا الحديث للبدر: أنت المنصور.. أنت المنصور، ثم تمضي الرسالة المدعاة من الوحي على هدى البدر حتى النهاية والمشايخ يصيحون: الله أكبر سمعنا الوحي.

ولقد أدرك الرجل حقيقة الخديعة عندما عرضت عليه القيادة جهاز التسجيل، يأخذه هدية، ويسجل عليه ما يريد.

في صنعاء سمعت قصة محاولة البدر أن يستغل نجاته بعد ضرب قصر البشائر في صنعاء بقنابل الدبابات، حاول البدر أن يقنع بعض القبائل أنه خالد لا يموت، يريده الله لرسالة لا تتحقق إلا به.

ووقف البدر أمامهم وعبأ مسدسًا بطلقة من «الفشنك» داخل غلاف من البلاستيك وأعطى المسدس لأحدهم وقال له: اطلق عليَّ النار، وقال الشيخ أعوذ بالله أن أقتلك، قال البدر: لن تقتلني لأن الله لا يريد ذلك.

ورفض الشيخ، وناول البدر مسدسه إلى أحد أتباعه فأطلق المسدس عليه ولم يحدث له بالطبع أي مكروه، غلاف الطلقة من البلاسيتك ذاب، وعبوتها من «الفشنك» تفرقع ولا تحدث صوتًا، نموذج من لعب الأطفال في أمريكا.

لكن بعض المشايخ صدقوا حكاية الخلود حتى تتم الرسالة، إلى أن رأوا في صنعاء مسدسًا من نفس النوع، يفرقع ولا يقتل..!

والتخلف هو الذي سمح لوزير مالية الاتحاد الجنوبي، وهو بريطاني، أن يقول لعدد من السلاطين في اجتماع عقده لهم في بيحان وحضره بعض المشايخ من حريب، إن الاشتراكية التي تنادي بها الجمهورية العربية ضد الإسلام، ثم راح يقول إنها تعني مشاركتكم في زوجاتكم وفي أرضكم.

ثم يقول الرجل البريطاني: إن المصريين كفرة، أليس جنودهم يرتدون القبعات على رؤوسهم..؟!

ويقول السلاطين: أي والله..!

صنعاء العاصمة مثلاً ليس فيها طريق واحد مرصوف، وإنما الطرق حتى داخل المدينة خنادق بعد خنادق ملأى بالتراب.

حتى حركة الجن كما تصفها الأساطير رأيتها بعيني، وإن كان تعليلها الآن يختلف، كانت الأساطير تصور حركة الجن عمودًا من الدخان يرتفع إلى السماء، والحقيقة إنه عمود من التراب تثيره تيارات هوائية تقوم متعارضة في جبال اليمن فتصنع دوامات يرتفع فيها التراب إلى قرب السحاب فعلاً، ويتحرك على نحو لا يلائم الخيال القديم البدائي معه؛ إذ أظنه خطى الجن وحركة المردة من الشياطين.

مجموعة من شباب أرض الوادي الحبيب هنا على ضفتي النيل قهروا الطبيعة الموحشة هناك وسط الجبال في قلب اليمن في صرواح، قهروا الطبيعة بسيطرة على النفس بغير حدود.

وقال الكاتب إحسان عبد القدوس في تحليل سياسي عن اليمن بعد زيارة له هناك: لا يمكن أن يندفع جيش في حرب، ليصبح جيشاً من الأبطال، إن جيوشاً أخرى حاربت ولم تلمع بين أفرادها كل هذه البطولات، ولم تحتمل كل هذا الاحتمال، إنه الإيمان:

* الإيمان بالهدف.
* الإيمان بالقيادة السياسية.
* الإيمان بالقيادة العسكرية.

وعندما أعلن راديو صنعاء صبيحة يوم 26 سبتمبر 1962م قيام الثورة اليمنية الشعبية، وقيام الجمهورية العربية اليمنية كان الشعب العربي الحر في كل مكان في الوطن العربي الكبير يتابع أنباء هذه الثورة الشعبية النادرة؛ لما كان معروفاً عن الأوضاع في اليمن وسيطرة الأئمة الكاملة.

ومرت الأيام دقيقة وصعبة، وبدأت تتكشف ردود الفعل في العالم الاستعماري، وفي أوساط أعداء الشعوب، وأحس الأحرار أن الشعب في اليمن في حاجة إلى الوقوف إلى جانبه، وشد أزره لتحقيق أهداف ثورته.

وتقدمت طلبات التطوع من مختلف أسلحة الجيش في الجمهورية العربية المتحدة

تطلب الوقوف إلى جانب الشعب اليمني، ومع كل يوم كانت تتكشف المؤامرة ضد الشعب اليمني وضد ثورته، ووصلت أنباء الحشود العسكرية من المرتزقة المأجورين والمخدوعين والطامعين، ولمع بريق الذهب والفضة.

وكان السؤال: هل نترك أولئك الثوار اليمنيين الذين خرجوا ينادون بالحرية والمبادئ للثورة المضادة والغزو الخارجي..؟ وكانت الإجابة الحاسمة، قطعًا لأ، ولا بد من مساندة شعب اليمن الحر.

وفي يوم 5 أكتوبر كانت لنا قوة عسكرية من 100 صف وعسكري وضابط، هذه أول دفعة، وفي 9 أكتوبر بلغ عدد هذه القوة 500، وفي 16 أكتوبر بلغت 2000، وفي يوم 10 أكتوبر وصلت أول قوة من سلاح الطيران وكانت طائرتان فقط.

وحمل هؤلاء الأبطال الجزء الكبير من حدة المعارك التي خاضها الشعب اليمني وثورته، وهنا يقول القائد البطل الرئيس جمال عبد الناصر: كانت قواتنا قليلة جدًا؛ لأن ألفين عسكري في هذه البلد الكبير مع الشعب اليمني أو مع القوات اليمنية يعتبر قوة صغيرة أمام الحشد الذي يحشده الإمام.

قواتنا المسلحة دخلت معارك وتصدت للعدوان الخارجي جنبًا إلى جنب مع قوات الثورة اليمنية، وقامت بأعمال نستطيع أن نفخر جميعًا بها.

بل إنهم كانوا حتى يندفعوا، وكنا نحن الذين نطلب منهم أنهم لا يندفعوا في حماسهم؛ لأنه كانت القوة صغيرة في هذا الوقت، قواتنا حاربت بجانب القوات اليمنية في صرواح، وفي طريق مأرب، وفي رأس العرقوب، وسجل أبناء القوات المسلحة العربية صفحات من البطولة والبذل والفداء والتضحية.

وقد استشهد في اليمن وروت دماؤهم جبال اليمن ووهادها وسهولها آلاف الشهداء من المصريين البواسل الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل رفع الغشاوة عن أهل اليمن التي استمرت ردحًا طويلاً من الزمن وهم في غشاوتهم يسبحون.

▪▪ عدوان 5 يونيو 1967م



1918 - 1970

وفي أول يونيـو 1967م كـان الاعتـداء الإسـرائيلي عـلى سوريا وقال إن اليهود سيعتدون على مصر، وحـدد بالضـبط يوما وحصل الاعتداء الإسرائيلي في نفس اليوم الـذي حـدده، وفي يوم 9 يونيو ألقى الرئيس خطـاب التنحـي، فقـال الابـن الأصغر عبد الحميد: «أحسن يا ماما علشـان بابـا يسـتريح»، وعندما عاد للمنزل علا صوت الجماهير وخلع بدلته ولـبس البيجامة ورقد على السرير.

◈ **هاجموه في حياته واعتذروا له بعد مماته[1]:**

* أحمد فؤاد نجم وصفه بـ«أميـر الفقـراء مـؤذن الحريـة والعدالة».

* زار الشيخ الشعراوي قبره عام 1994م.

* الأبنـودي صـالح الـزعيم بعـد 40 عامًـا مـن وفاتـه بقصيدة.. ونزار قباني وصفه بـ«آخر الأنبياء».

***

(1) محمود حسن: جريدة اليوم السـابع، تحـت عنـوان ملـف خـاص، العـدد (2311)، بتـاريخ 27 سبتمبر 2017م، ص6.

كثيرون من اختلفوا مع عبد الناصر خلافات ربما وصل بعضها إلى حد العداوة في حياته، لكنهم بعد سنوات طويلة من مماته اعتذروا له، وعادوا عن مواقفهم، هؤلاء الذين هاجموه في أشعارهم أو خطبهم ومقالاتهم، كتبوا عنه بعد سنوات أدركوا فيها قدره ومكانته واعترفوا بزعامته.

كتب عنه نزار قبانى الذي هاجمه بعد النكسة، 4 قصائد واصفا في إحداها بـ«آخر الأنبياء»، أما الأبنودي فبعد 40 عاما كاملة، أعلن أنه لم يكن يفهم عبد الناصر، وكتب قائلا: «الناس هتفتكرك بخشوع اليوم ده وأمس وبكرة».

أما الشيخ الشعراوى فوقف بعد 34 عاما أمام قبر عبد الناصر معتذرا له، بعد أن رآه في منامه معاتبًا.

فعبد الناصر تجربة إنسانية فريدة من نوعها، تجربة يلخصها أحمد فؤاد نجم في كلمات قلائل قائلا: «وإن كنا يوم انجرحنا كل الجراح طابت».

عام 1968م وبعد هجوم ضار قاده الثنائي نجم وإمام ضد عبد الناصر تأثرًا بالنكسة دخلا إلى السجن، وقال نجم: «إن الزعيم أقسم ألا يخرجا من السجن طالما ظل حيًا».

لم يكن عبد الناصر يعلم حينها أن عامين يفصلانه عن فراق الحياة، مات جمال بينما كان نجم في سجنه، فبكاه نجم بكاء مريرا، وجلس يكتب عنه قصيدة رثاء، فكتب يقول: «عمل حاجات معجزة، وحاجات كتير خابت، وعاش ومات وسطنا، على طبعنا ثابت، وإن كان جرح قلبنا، كل الجراح طابت».

ولخص أحمد فؤاد نجم حكايته مع عبد الناصر، في لقاء تليفزيوني قائلا: «أمير الفقراء، هو بلال المؤذن اللي بشرنا بالاشتراكية والوحدة والعدالة، وكل شيء جميل في حياتنا، لما مات كنت أنا والشيخ إمام في المعتقل، بدأت أبكي مش على عبد الناصر، على الحلم، وأنا عرفت إيه اللى هيحصل لمصر عبد الناصر، لما أمي جت تزورني في الأسبوع اللي مات فيه عبد الناصر، لقيت عينيها حمراء، قلتلها إنتى كنتى بتعيطي، قالتلي آه طبعا، قلتلها بتعيطي ليه..؟ ردت عليَّ مش جمال عبد الناصر مات..؟ قلتلها يا ولية يا مجنونة واحد معتقل ابنك، ردت الأم: يا تافه، عمود الخيمة وقع يا حمار».

الأمر ذاته حدث للشاعر الكبير الأبنودي الذي انضم في الستينيات إلى أحد التنظيمات الشيوعية فدخل المعتقل، ورغم ذلك كتب لعبد الناصر قصيدة بعد 40 عامًا من رحيله، يقول فيها: «رجعت بعد غياب، دلوقت بس اللى فهمناه، لا كان حرامي ولا

كداب، ولا نهبنا مع اللي معاه، أنا بحكي عن عبد الناصر، أنـا بـذكرك مـن غيـر ذكـرى، والناس بتفتكرك بخشوع، الأمس واليوم ده وبكرة، يبكوك بعظمة مـش بـدموع، يكفـى نقول عبد الناصر».

وفى لقاء تليفزيونى يحكى الأبنودي عن عبـد الناصـر قـائلا: «أبـوه بوسـطجي ومـا استعرش منه، تجربته في الجيش واكتشافه للفساد، وتجربته في الجـيش لمـا اتحاصـر في معركة الفالوجا، هما لما وصل عبد الناصر للسـلطة مـا اسـتعلاش عـلى حـد، أي فكـرة مستنيرة تضيء يجيبوا صاحبها ويشتغلوا، عبد الناصر كان ملهم يختلف عـن الآخـرين، عبد الناصر طرح أصيل لهذه التربة المصرية، بنى مصر وناضل ضد الاسـتعمار، راجـل نادر في تاريخ الدنيا».

يحكي الأبنودي عن سجنه قائلا: «بصيت لقيت نفسي ضد عبد الناصر وأنا ابن ناس غلابة وفقراء جـدا، لقيـت نفسـي بشـتم في عبـد الناصـر ورأسـمالية الدولـة، وعمـلاء الاستعمار والكلام إياه اللي كنا بنقوله، كان لي عم اسمه إبراهيم، وسألني إلا قولي يا عبد الرحمن، أنت حبسوك ليه، قلتله الراجل اللى اسمه عبد الناصر.

ما كملتش كلامي، قلت الراجل اللي اسمه عبد الناصر..! قالي كبرت ولبست قمـيص وبنطلون من خير الراجل اللي اسمه عبد الناصر، وأنت لولا عبد الناصر لا كنت اتعلمت ولا عرفت تقول الكلام اللى بتقوله ده، كان زمانك فلاح لسه بـتلم لطعـة القطـن، ومـن ساعتها بقى يكرهني».

وأضاف الأبنودى: «كنت ساعتها في السويس أيـام حـرب الاسـتنزاف، قلتلـه طيـب والراية الصهيونية اللي منصـوبة عـلى الناحيـة التانيـة دي، قـالي الرايـة دى مسـيرها أيـام وتروح، بس عبد الناصر عمره مـا هيـروح وهيفضـل خالـد، وقـد كـان، راحـت الرايـة الصهيونية، وفضل عبد الناصر خالد».

أما الشاعر نزار قباني فغضب بشدة من عبد الناصر وكتب قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» يقول: «لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان لقلت له: يا سيّدي السلطان كلابـكَ المفترسات مزقت ردائي، ومخبروك دائما ورائي، يستجوبونَ زوجتي ويكتبونَ عنـدهم أسماءَ أصدقائي، لو أحد يمنحني الأمان من عسكرِ السلطان، لقلـت لـه: لقـد خسـرت الحرب مرتين؛ لأنك انفصلت عن قضية الإنسان».

تم منع نزار قباني من دخول مصر بعد تلك القصيدة، ومنعت كتبه من البيع، فكتب خطابا لعبد الناصر يشتكي فيه، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قال إذا كانت النكسة قد كسرتنا نحن القادة، فماذا عن الشعراء، ورفع كل الإجراءات التي اتخذت ضده.

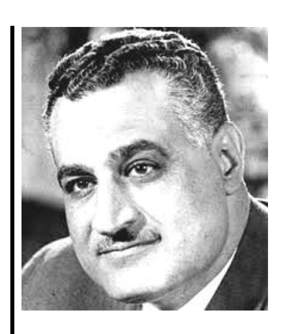
وحين مات عبد الناصر كتب قباني واصفا إياه بـ«آخر الأنبياء» قائلا: «لماذا قبلت المجيء إلينا..؟، فمثلك كان كثيرًا علينا، سقيناك سم العروبة حتى شبعت، رميناك في نار عمان، أريناك غدر العروبة حتى كفرت، لماذا ظهرت بأرض النفاق، لماذا ظهرت؟»، ويستكمل في مقطع آخر: «أبا خالد يا قصيدة شعر تقال، فيخضر منها المداد، إلى أين..؟ يا فارس الحلم تمضي، وما الشوط، حين يموت الجواد، إلى أين..؟ كل الأساطير ماتت بموتك وانتحرت شهرزاد».

هاجم الشيخ الشعراوي جمال عبد الناصر بعد رحيله، حتى إنه سجد شكرًا بعد النكسة، معتقدًا أنه لو انتصر عبد الناصر لكانت الأفكار الاشتراكية التي رأى الشعراوي أنها تخالف دين الله قد انتشرت، لكنه وبعد سنوات طويلة أيضا، وفي عام 1994م زار ضريح عبد الناصر.

ويحكي الشعراوي قائلا: «لقد أتاني عبد الناصر في المنام ومعه صبي صغير وفتاة صغيرة، يمسك الصبي بمسطرة هندسية كبيرة والبنت تمسك سماعة طبيب ويقول لي ألم يكن لدي حق أيها الشيخ، فقلت له بلى يا عبد الناصر أصبت أنت وأخطأت أنا».

وكان هذا ردًا على سوء تفاهم حدث بسبب إدخال الزعيم عبد الناصر، الطب والهندسة ضمن علوم جامعة الأزهر، وهو ما اعترض عليه الشيخ الشعراوي بشدة، حيث كان يرى أن الأزهر يجب أن يركز على دراسة العلوم الدينية فقط، وكان عبد الناصر يرى أن الأزهر يجب أن يكون فيه الطبيب المسلم والمهندس المسلم الذي يعرف أصول العلوم بجانب الأمور الدينية.

■■ فرنسا تنفي محمد الخامس إلى كوستاريكا وصوت العرب يبدأ المعركة الإعلامية ضد القرار [1]



1918 - 1970

أعلنت فرنسا القبض على العاهل المغربي السلطان محمد الخامس ونفيه وأسرته إلى جزيرة كوستاريكا يوم 20 أغسطس من عام 1953م، فانفجر برنامج «صوت العرب» في القاهرة، وقاد التحرك الإعلامي تأييدًا للعاهل المغربي، وضد قرار فرنسا، حسب تأكيد فتحي الديب ضابط المخابرات المصرية ومسؤول الدائرة العربية فيها، وذلك في مذكراته «عبد الناصر وثورة الجزائر» عن دار المستقبل العربى- القاهرة.

أسس «الديب» إذاعة صوت العرب، وبدأت كبرنامج لمدة نصف ساعة يوميا من 4 يوليو سنة 1953م برئاسة الشاعر صالح جودت، ثم تحول البرنامج إلى محطة إذاعية بعد شهور قليلة وتولى رئاستها المذيع الشهير أحمد سعيد، وغطت شهرتها كل الدول العربية بمساندتها لحركات التحرر العربية، ويروي «الديب» قصة نشأتها في كتابه «عبد الناصر وتحرير المشرق العربي» عن مركز الأهرام للترجمة والنشر- القاهرة.

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ذات اليوم، العدد (2273)، بتاريخ 20 أغسطس 2017م، ص15.

كان خلع فرنسا لمحمد الخامس، ونفيه إلى كوستاريكا ثم نقله إلى مدغشـقر بإفريقيـا هو أول مواجهة إعلامية من صوت العرب ضد الاستعمار في المنطقة العربيـة، ويـروي أحمد سعيد قصة هـذه المواجهـة في مذكراتـه غيـر المنشـورة، وقمـت بـالاطلاع عليهـا ومراجعتها، ويذكر فيها، أنهم كانوا يتلقون في الإذاعة أخبارًا عن وجود تمرد ضد سلطان المغرب، وقيام بعض القبائـل بالحشـد حـول قصـر السـلطان في الربـاط، وبـدت هـذه الأخبار وكأن فرنسا بعيدة عن الموضوع.

وعندما وصلنا الخبر اتصلنا فورا بعلال الفاسـي المقـيم في القـاهرة ورئـيس حـزب الاستقلال المغربى وعضو مكتب تحرير المغرب العربى التابع لجامعة الـدول العربيـة لنفهم منه الحقيقة، فقال لنا إن فرنسا تريد أن تجبر محمـد الخـامس عـلى أن يصـدر مـا يسمى في المغرب بـ «الظهائر» وهـي مراسـيم بقـوانين تمـنح حقوقـا دسـتورية قانونيـة للفرنسيين في المغرب يتحكمون بها في البلاد أكثر من الشعب المغربي.

ورفض المغاربة والسلطان هذا الأمر، فاستعانت السلطات الفرنسية بعملائها، وعلى رأسهم «التهامي الكلاوي» باشا مراكش الذي حاصـر رجالـه قصـر الملـك في الربـاط، وكانت تلك بداية الأزمة، التي بلغت ذروتها يـوم 20 أغسـطس بقـرار النفـي، وازدادت سخونة بخروج الجماهير غاضبة أثناء مغادرة موكب السلطان لقصره محاطا بالحراسـة المسلحة هو وأسرته إلى المطار، وسقطت امرأة مغربية شهيدة أثناء ذلك.

أذاع «صوت العرب» أخبار الأزمة منذ بـدايتها باعتبـار أنـه برنـامج مهـتم بالأخبـار والقضايا العربية، لكن وحسب سعيد: «احتاج نفي السلطان إلى مراجعـة قـادة ثـورة 23 يوليو 1952م»، ويذكر «الديب» أنه ذهب لاستطلاع رأي جمـال عبـد الناصـر - لم يكـن رئيسًا بعد- فقرر: «وقوف صوت العرب إلى جانـب قضـية الشـعب المغربـي ولصـالح الملك»، ويتذكر سعيد: «تم استدعاؤنا إلى مجلس قيادة الثورة، ونوقش الموضوع أمـام عبد الناصر، وقرر أن نؤيد محمد الخامس».

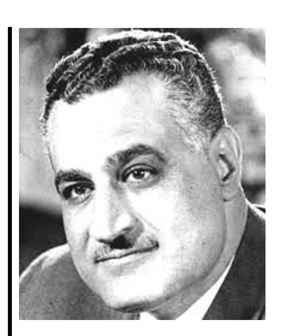
ويضيف: «كانت الساعة حوالي الرابعة عصرًا، وكان موعد بث البرنامج من السادسة مساء إلى السادسة والنصف، وأذعنا فيه أول تعليق لصوت العرب رغم أننا لم نكـن نـذيع تعليقات، وكان تعليقا قصيرا مدتـه 3 دقـائق، بعنـوان «نـداء القـاهرة»، ووجهـه عـلال الفاسي إلى شعب المغرب يطالبه فيه بالثورة».

استمر «صوت العرب» على أدائه المساند لمحمد الخامس ونضال الشعب المغربي، ويذكر سعيد أنه في يوم من الأيام تلقى من حراس الإذاعة خبرا بوجود سيدة تصر على مقابلتي رافضة ذكر أي سبب، وصعدت السيدة إلى مكتبي وعرفتني بنفسها «فاطمة الزهراء حميري» من مدغشقر ومن أصول يمنية، وتعمل ممرضة لمحمد الخامس في منفاه، وأنها في طريقها إلى أداء الحج، وتحمل ثلاث رسائل من محمد الخامس تحفظها شفهيا.

كانت الرسالة الأولى لصوت العرب، ويطالب فيها بأن نهاجم «الكلاوي» المتعاون مع فرنسا؛ ولأنه أمازيغي فعلينا أن نشيد في نفس الوقت بالأبطال المغاربة الأمازيغ الذين يقاومون الاستعمار، وكانت الرسالة الثانية لشيخ الأزهر خضر حسين - تونسي الأصل- يطالبه فيها بالتدخل لحل مشكلة الطلاب المغاربة الدارسين في الأزهر ومنعت عنهم حكومة الكلاوي مرتباتهم الشهرية، ويؤكد سعيد: «أبلغت شيخ الأزهر وجمال عبد الناصر بالمشكلة وتم حلها»، أما الرسالة الثالثة فكانت لجمال عبد الناصر، ويعبر فيها محمد الخامس عن شكره لعبد الناصر؛ لأنه عرض مصر لعداء فرنسا بدعمه لثورة المغرب واستمرار هذا الدعم.

يؤكد سعيد أن عبد الناصر رد على الرسالة بأن بعث لمحمد الخامس بكتاب «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، وكتب عليه إهداء «وبشر الصابرين»، وحملته فاطمة الزهراء معها في رحلة الحج برفقة والدتها، وخاضتها من مدغشقر إلى دار السلام بتنزانيا، فالقاهرة، ثم السعودية، ثم عادت من السعودية إلى القاهرة إلى دار السلام فمدغشقر.

▪▪ اليسار في مصر والوطن العربي [1]



1918 - 1970

يقول الضابط بأمن الدولة والمفكر اليساري الأديب نبيل زكي، إن اليساري متطرف في وطنيته، وإن مبارك كتب له توجيهات بيده؛ لأنه يخشى من التنصت الأمريكي وأنه فوجئ بالسفير الأمريكي يسأله عن علاقة اليسار المصري بالإخوان المسلمين، وأثناء حواره معه وجده يحتد وهو يردف قائلاً: لماذا لا تتحالفون مع الإخوان..؟!

وأنه قضى في السجن خمس سنوات وأنهم قبضوا عليه لمجرد أنه يساري دون تحقيق ولا محاكمة ولا تهم محددة، وإن جمال عبد الناصر قرر أن يعتقل اليساريين بسبب موقفهم المعارض من الوحدة مع سوريا دون أساس ديموقراطي، وبسبب أن بعض اليسارين كان مؤيدًا متحمسًا لعبد الكريم قاسم في العراق، وعبد الناصر كان يريد أن يكون الزعيم الوحيد والأوحد في الأمة العربية، وإن اليساري الحقيقي مخلص جدًا لمبادئه ولو خسر الملايين في سبيل ذلك.

وقد أفرج عنهم – أي اليساريين– بسبب أن عبد الناصر دعى خروشوف إلى مصر ليشاركه افتتاح السد العالي، فأرسل

(1) نبيل زكي: اليسار في مصر والوطن العربي، مجلة الأهرام العربي، بتاريخ 6/ 5/ 2017م.

خروشوف إلى عبد الناصر يقول: «إنني أخشى المجيء لمصر فربما تعتقلوني مثلما اعتقلتم الشيوعيين وكل أصحاب الفكر اليساري وأدخلتموهم السجون»، وقتها أفرج عبد الناصر عنا فورًا، وكنا نهتف في المظاهرات «زعيم الأمة النحاس»، فرد الإخوان بهتاف «الله مع الملك».

بنى عبد الناصر صروح المجد، وصروح العلم، وصروح الأخلاق، وقد كانت إفريقيا في سبات عميق وهو من حررها من هذا السبات، وإذا كانت النرجسية كما عبر العقاد عنها بأنها صورة مرفوضة، وإذا كان فرويد قد قال: إن النرجسية تتميز بالاستقلال العظيم عن الغير، وتميل إلى البذل الوجداني أكثر من القبول.

وإذا كان المؤرخ المشهور أرنولد بوتيني قد ذكر إن نجاح الحضارة يتوقف على وجود القلة المبدعة التي تتصف بالأنانية والزهو والغرور، فالنرجسية منسوبة إلى النرجس وهو زهر نحيل يطل على الماء كأنما يطيل التأمل في صورته إعجابًا بجسمه، وهي حالة لا تعترف بشعور القوة والعظمة؛ لأن النرجس الذي تنسب إليه نحيل هزيل، وغرامه بجسده فتنة هزيلة نحيلة لا تفتن بها عقول الأقوياء العظماء.

أما فتنة العظمة فهي شيء آخر بعيد جدًا عن هذه النرجسية وخاصة في أصحاب النفوس القوية والمطامح السعيدة، فإن حب الذات فيمن يصفون به لا ينصرف إلى فتنة الجسد أو شهوة الجنس، ولكنه ينصرف إلى توسيع الذات وسبطها على ما حولها ومن حولها، حتى تصبح الأنانية هنا متعلقة بكافة الأعمال التي ترتبط بها مصالح الكثيرين.

ولهذا لا يمنع أن يكون الأناني بهذا المعنى خادمًا لأنانية الألوف والملايين؛ لأنه لا يتحقق حبه لذاته إلا بتحقق أعمال كثيرة شاملة لا يستطيع أن يفرضها على الألوف والملايين – بداهة– إلا إذا وافقتهم هوى ومصلحة وإقناعًا وتأثيرًا يقوم مقام الإقناع.

فلا تناقض بين فخامة الذات في القيادة وبين منافع الناس؛ لأن الذات التي تعوزها الفخامة لا تقوم بعمل عظيم إلا أن يكون الشعور بالعظمة وهمًا بين ضروب الأنام التي تعتري المجهولين ما لا حساب له في أعمال العظماء.

ألف ديمودور الصقلي كتابًا عن تاريخ العالم منذ فجر التاريخ حتى الحملة العسكرية التي شنها يوليوس قيصر على بلاد الغالي سنة 58 قبل الميلاد أسماه «خزانة التاريخ»،

ولو ؟؟؟؟ كتابه هذا أثناء عصر عبد الناصر لوضع اسم هذا الـزعيم التـاريخي في داخـل هذه الخزانة التاريخية.

وفي كتاب «ديل كارينجي» الخالدون سلط الضوء عـلى زمـرة مـن الخالـدين رجـلاً ونساءً، منهم غاندي وأيزنهاور والرئيس ولسن، ولو أدرك كارينجي جمـال عبـد الناصـر لسلط عليه ضوء قلمه بأحرف من نور.

▪▪ إضراب عام في سوريا.. وخمس دقائق حدادًا الساعة 12 ظهرًا تضامنًا مع مصر [1]



1918 - 1970

لبى السفير المصري في سوريا محمود رياض «وزير الخارجية وأمين عام جامعة الدول العربية فيما بعد» الدعوة لتناول العشاء في دار السياسي السوري البارز خالد العظم بـ«دمر» خارج العاصمة دمشق، يوم 26 يوليو 1956م، وبحضور وزراء سوريين، وحسب رياض في الجزء الثاني من مذكراته «الأمن القومي العربي بين الإنجاز والفشل» عن دار المستقبل العربي - القاهرة، قال: «جلسنا في حديقة الدار، وكان نهر بردى على بعد خطوات منا يلطف حرارة الجو، ولاحظت أن خالد العظم وضع بجواره جهاز الراديو، وذكره أنه يحضره لأنه يعمل بأننا جميعًا نرغب في الاستماع إلى خطاب عبد الناصر».

ويواصل رياض: «عندما بدأ عبد الناصر في إلقاء خطابه تبين أنه لم يكن يخاطب الشعب المصري وحده، وإنما يخاطب العالم العربي وهو يسرد دور الصهيونية والدول الاستعمارية في المنطقة»، ويضيف: «بدأت ألاحظ مدى تأثير الخطاب على السامعين، فكانت الابتسامة تعلو الوجوه عندما يسخر من الدول الاستعمارية الكبرى، ثم يتحولون إلى

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، العدد 2269، 16 أغسطس 2017م، ص15.

الإنصات عندما يشير إلى محاولات الدول الاستعمارية لإذلال الدول العربية، وما قدموه من مساعدات لإسرائيل لتمكينها من اغتصاب فلسطين».

في نفس الوقت وكما يقول الدكتور عبد الله فوزي الجنانيني، في كتابه «ثورة يوليو والشرق العربي» عن دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة، «احتشد آلاف السوريين حول أجهزة الراديو في المحال العامة والمقاهي والبيوت ينصتون باهتمام إلى الخطاب، ولما وصل عبد الناصر في خطابه إلى تأميم قناة السويس، دوت هذه الأماكن بالهتاف والتصفيق الحاد، وخرجت مظاهرات عدة بشوارع دمشق هاتفة بحياة جمال عبد الناصر».

ويتذكر رياض: «في اليوم التالي لم ينقطع الزوار سواء في مكتبي صباحًا أو في منزلي مساءً والكل يتغنى بشجاعة عبد الناصر وجرأته، ويرون أن هذا القرار استعاد للعرب كرامتهم، وعندما تزايد الاستعداد البريطاني العسكري في المنطقة، عقدت اجتماعات مطولة مع بعض القادة السوريين بغرض تنظيم تحرك شعبي حتى تشعر بريطانيا بخطورة تحركها، وتشكلت لجنة تضم عددًا كبيرًا من النواب من الأحزاب، ودعت باسم الشعب السوري والشعوب العربية إلى مناصرة مصر، ونظمت اللجنة اجتماعًا شعبيًا يوم 14 أغسطس 1956م في الملعب الرئيسي للبلدية بدمشق.

وتحول الاجتماع إلى مظاهرة شعبية ضخمة حضرها أكثر من مائة ألف شخص، وكانت الهتافات تدوي «علم واحد.. شعب واحد.. وطن واحد»، ويؤكد الجنانيني: «أعرب الكثير من السوريين عن رغبتهم في التطوع للدفاع عن القناة، إذا ما شن الغرب حربًا على مصر؛ إذ بلغ عدد الطلبات التي قدمت في هذا الشأن حتى يوم 15 أغسطس ما يربو على عشرين ألف طلب، كما وقع أكثر من خمسين نائبًا سوريًا يمثلون مختلف الأحزاب والكتل السياسية عريضة رفعوها إلى رئيس الأركان العامة للجيش السوري مطالبين فيها بالانضمام إلى منظمات المقاومة الشعبية، وتدريبهم على حمل السلاح، وأبدوا جميعًا رغبتهم في السفر إلى مصر ليكونوا إلى جانب أشقائهم المصريين للذود عن القناة».

كما لم تتخلف المرأة السورية عن التضامن مع مصر، ويذكر الجنايني: «وردت إلى السفارة المصرية برقيات عدد من أعضاء الاتحاد النسائي العربي السوري يؤيدون

القرار، ويباركن خطى عبد الناصر، وسجلت نحو مائتي امرأة من أعضاء الاتحـاد قيـدن أسماءهن في سجلات التطوع للدفاع عن قناة السويس»، ويضيف: «أيد خطباء المساجد ما جاء في خطاب عبد الناصر، وأصدر الشيخ أبو اليسـر عابـدين المفتـي العـام لسـوريا فتوى بإعلان «الجهاد المقدس» للدفاع عن القناة».

بلغ تأييد الشعب السوري لمصـر ذروتـه يـوم 16 أغسـطس طبقـًا لـ«الجنـايني»: مضيفـًا: «لبى الجميع دعوة اللجنة السورية لنصرة مصر، فشهدت الـبلاد إضـرابًا عامًـا وشاملاً تضامنـًا مع الشعب المصري، واسـتنكارًا لعقـد مـؤتمر لنـدن، فأغلقـت جميـع المحال والمتاجر، وتوقفت المصانع وجميع الشركات والمؤسسات الحكومية والأمنيـة عن العمل، وعطلت حركة الملاحة في المطارات والموانئ البحريـة لإضـراب العمـال فيها، وفي الساعة الثانية عشرة ظهرًا لحظة افتتاح المـؤتمر وقـف الآلاف مـن السـوريين خمس دقائق حدادًا على ما أطلقوا عليه «اغتيال الحرية»، واندلعت المظاهرات في دمشـق وحمـص وحلـب وغيرهـا مـن المـدن السـورية مؤيـدة مصـر وعبـد الناصـر، وأعـرب المتظاهرون استعدادهم للتطوع للدفاع عن القناة».

▪▪ خطاب عبد الناصر في عيد الثورة بعد النكسة



1918 - 1970

مضت على رحيل الرئيس جمال عبد الناصر سبع وأربعـون سنة، وماتزال ذكراه وأعماله تملأ الدنيا وتشغل الناس، ناصر لا يحتاج لمزيد من المـدح أو الإشـادة بإنجازاتـه الكبـرى، تكـف في هـذا المقـام مرثيـة قالهـا بحقـه أحـد خصـومه السياسـيين، عنـي الملـك فيصـل - رحمـه الله- الـذي قـال: «ويكفي عبد الناصر أنه بصر الأمة بإمكانياتها».

جريدة صوت الأمـة تحتفـل مـع جماهير الشـعب بتلـك الذكرى الغالية، وتخصص ملفًـا عـن ناصـر القائـد، وناصـر الإنسان الذي سطر بأعماله التي جرت على الأرض بطـولات ستلهم أجيالاً على مساحة الوطن العربي كلـه، نفتـتح الملـف بنشر أحد أصعب خطابات ناصر، ذلكم الخطاب الذي ألقـاه في احتفال ذكرى ثورة يوليو عقب النكسة مباشرة، اللافت في الخطاب الصعب أن القائد شأن الرجال قد عاد مجددًا ليعلن تحمله لمسئولية ما جرى، مستعدًا للمحاسبة أمام شـعبه، ثـم دعوته لمساندة جيشنا الذي قدم تضحيات خارقـة في معركـة هي للمؤامرة الدولية أقرب منها من أي شيء آخر.

***

أيها الإخوة المواطنون:

يجيء إلينا هذا العيد الخامس عشر لثورة يوليو سنة ١٩٥٢م ونحن نعيش في أزمة، لا نغالي إذا قلنا أنها من أقسى ما واجهناه في تاريخ عملنا الثوري.

لم يكن عملنا في يوم من الأيام - أيها الإخوة - سهلاً أو هينًا، فطريق النضال مخاطر، وطريق النصر تضحيات، إن الاستعمار لم يواجهنا في هذه المرة صراحة كما فعل في سنة ١٩٥٦؛ وإنما بذل جهدًا لابد أن نسلم ببراعته في إخفاء دوره، وفي تغطية تواطئه، ولعله في النهاية لم يترك شيئًا يدل عليه غير بصمات أصابعه، ولكن ذلك شيء والإمساك به متلبسًا كما فعلنا في سنة ١٩٥٦م شيء آخر.

ومن هذه الأسباب أيضًا أنه ربما كان هذا أول عيد للثورة يجيء ليجد وطننا وهو مازال وسط المؤامرة الضارية، ومع شجاعته وإصراره على مواجهتها، فإنه مما لاشك فيه أن شعبنا يشعر في نفس الوقت بأحزان وآلام مضنية، ولعل الله عز وجل - أيها الإخوة - أراد أن يضعنا موضع الامتحان ليرى هل نستحق ما أنجزناه..؟ وهل نحن قادرون على حمايته..؟ وهل نملك شجاعة الصبر والصمود أمام المحنة..؟

أيها الإخوة المواطنون:

لا أريد أن أعود بكم مرة أخرى إلى الظروف التي مهدت لهذه الأزمة والتي صنعتها، ومع ذلك فإنني أرى أنه لابد من الوقوف أمام بعض المسائل الهامة لكى يكون أمامنا جميعًا أكبر قدر ممكن من الوضوح:

المسألة الأولى: التي يجب أن تكون واضحة أمامنا جميعًا أننا لم نكن البادئين بتأزيم الموقف في الشرق الأوسط. كلنا نعرف أن هذه الأزمة بدأت بمحاولة إسرائيل غزو سوريا، من المؤكد لنا جمعيًا أن إسرائيل في هذه المحاولة ماكانتش بتعمل لحسابها، وإنما كانت تعمل أيضًا لحساب القوى التي ضاقت ذرعًا بحركة الثورة العربية، المعلومات التي جاءت لنا عن غزو سوريا كانت من مصادر متعددة: كانت هناك معلومات إخواننا السوريين بأن إسرائيل قد حشدت أمامهم ١٨ لواء، وقمنا إحنا بتحقيق هذه المعلومات، وتأكد لنا أن إسرائيل تحشد أمام سوريا مالا يقل عن ١٣ لواء، والوفد البرلماني بتاعنا كان في زيارة لموسكو برئاسة السيد أنور السادات، وقام

الأصدقاء السوفييت في هذا الوقت بإبلاغ السيد أنور السادات بأن غزو سوريا وشيك.

كنا نعمل إيه..؟ كنا نستطيع أن نسكت، وكنا نستطيع أن ننتظر، وكنا نستطيع أن نكتفي بإصدار البيانات الإنشائية والتأييد بالبرقيات، ولكن هذا الوطن إذا قبل التصرف على هذا النحو كان يتخلى عن رسالته وعن دوره، بل وعن شخصيته.

كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية للدفاع المشترك، ونحن لا نعتبر اتفاقياتنا مع شعوب أمتنا العربية أو مع غيرها حبرًا على ورق، ولكننا نقدس هذه الاتفاقيات، ونعتبرها شرفًا والتزامًا، وكانت بيننا وبين سوريا - كما كان بيننا وبين أى شعب عربى، وكما سيكون بيننا وبين كل شعب عربى - ما هو أبقى وأكبر من الاتفاقيات والمعاهدات، كان هناك - وسوف يكون هناك دائمًا - إيمان بالنضال المشترك وبالمصير المشترك؛ ولذلك فقد كان محتمًا علينا أن نتحرك عمليًا لمواجهة الخطر على سوريا، خصوصًا وأن تصريحات القادة السياسيين والعسكريين لإسرائيل في هذا الوقت وتهديداتهم العلنية لسوريا - قد أشارت إليها الصحافة، وأشير إليها صراحة في الأمم المتحدة - لم تترك لأحد فرصة الشك في أى معلومات، وبهذا أيضًا لم تترك لأحد فرصة الانتظار أو التردد.

المسألة الثانية: أننا عندما قرنا التحرك نتجت عن تحركنا أثار عملية، أول حاجة إننا طلبنا سحب قوة الطوارئ، بعدين أعدنا تطبيق حقوق السيادة المصرية على خليج العقبة، وكان ذلك من الأمور التي ألح عليها إخواننا العرب دائمًا وطالبونا بها، ومن الطبيعي كانت لهذه الآثار نتائج كبيرة في المنطقة وفي العالم.

المسألة الثالثة: أننا بتحركنا وأخذنا المبادأة لدفع الخطر عن سوريا كنا ندرك أننا خصوصًا من وجهة نظر دولية أن نبدأ الضربة الأولى في معركة مسلحة، ولو كنا فعلنا ذلك لكنا عرضنا أنفسنا لعواقب وخيمة تزيد عما كان في مقدورنا احتماله، ولقد كان أول ما سوف نواجهه هو عمل عسكري أمريكي مباشر ضدنا، يجد الحجة والعذر من أننا أطلقنا الرصاصة الأولى في المعركة.

وأريد في هذا الصدد أن ألفت نظركم إلى نقاط هامة:

أول نقطة: التحذيرات الأمريكية، ويمكن قريتم عن هذه التحذيرات الأمريكية، ولكن مستشار الرئيس الأمريكى «جونسون» طلب سفيرنا في وقت متأخر من الليل في

واشنطن، وقال له إن فيه معلومات عند إسرائيل إنكم حتهاجموا، وقال إن دا يعرضنا لوضع خطير، وناشدنا ضبط النفس، وقالوا إنهم أيضًا يعملوا نفس الشيء مع إسرائيل من أجل ضبط النفس، والرسائل اللي جات لنا من الرئيس الأمريكي «جونسون» اللي بيتكلم فيها على الأمم المتحدة، ويناشدنا فيها ضبط النفس.

النقطة الثانية: أيضًا يمكن اتكلمت عليها قبل كده، إن السفير الروسي أيضًا في اليوم التالي طلب مقابلتي، وبلغني رسالة من رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي يطلب منا فيها ضبط النفس، وحيبلغني رسالة بعتها لرئيس وزراء إسرائيل، ويقول في رسالته إن أي عمل من ناحيتنا بيعرض العالم لأخطار كبيرة.

النقطة الثالثة: المجتمع الدولي كله كان يعارض البدء بالحرب، وكان حديث الرئيس الفرنسي «الجنرال ديجول» واضح في أن فرنسا سوف تبني موقفها على أساس من يبدأ بإطلاق الرصاصة الأولى.

المسألة الرابعة: إننا تعرضنا لخديعة دبلوماسية، لعملية تضليل سياسي خطيرة لم نتصور أن تقدم عليها دولة كبرى أو قوة كبرى، الخديعة السياسية كانت من أمريكا، خطابات الرئيس الأمريكي، ومناشدات الرئيس الأمريكي، وطلبوا منا إن إحنا نتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة، وكلامه أنه مستعد يبعت نائب الرئيس، وأنه مستعد يبحث معانا كل الأمور والوسائل التي تخرج العالم كله من الأزمة.

بعد ما حدث أستطيع أن أقول راضيًا وبطيب خاطر وبضمير مستعد للحساب في أي وقت أنه مهما كان ويكون؛ فإن المسئولية أولاً وأخيرًا يجب أن تقع علي، ولقد قلت ذلك في خطابي إلى الأمة في يوم ٩ يونيو الماضي، وأقوله الآن وسوف أظل أقوله متحملاً بجميع نتائجه راضيًا بأى حكم يترتب على ذلك، ولقد كان هذا دافعي في حقيقة الأمر إلى قرار التنحي في ٩ يونيو، كنت أريد أن أتحمل المسئولية وأمضي، وكنت أريد أن يعرف أعداء الشعب المصري وأعداء الأمة العربية أن المسألة ليست عبد الناصر ولا مطامع عبد الناصر كما يقولون.

إن نضال الشعب المصرى بدأ قبل عبد الناصر وسوف يمضي بعد عبد الناصر والأمة العربية سعت إلى وحدتها قبل عبد الناصر وستسعى بعد عبد الناصر، ولقد كنت

أقول دائمًا، ومازلت أقول: أنني لست قائد هذا الشعب، وقصارى ما يمكن أن أتمناه لنفسى من شرف أن أكون تعبيرًا عنه في مرحلة معينة من نضاله المستمر قبل أي فرد وبعد أي فرد.

إيه معنى الدور اللي قام به الأسطول السادس في الأيام القليلة السابقة في المعركة قرب شواطئنا وقرب حدودنا؟ إيه الأسلحة اللي شحنت إلى إسرائيل في فترة ما بين الأزمة إلى يوم العدوان..؟ إيه عدد الطيارات اللي وصلتها..؟ ما هو عدد المتطوعين من الطيارين..؟ ما هو التفسير لقوة الطيران الضخمة على الجبهات العربية جميعًا..؟ كانوا بيهاجمونا في مصر وبيهاجموا الأردن وفي نفس الوقت بيهاجموا سوريا، وفي نفس الوقت بيبعتوا طيارات تهاجم مطارات العراق.

ليلة ٧ يونيو اتصل بى الملك حسين بالتليفون الصبح قرب الفجر وقال لي: إن فيه ٤٠٠ طيارة بتهاجم الجبهة الأردنية، وأن أجهزة الرادار اللي عنده تبين هذا العدد الكبير من الطيارات.

يوم الأربعاء ٧ يونيو شوهدت طائرتان بالعلامات الأمريكية فوق خطوطنا، في أول الأمر لم أصدق ولكن المعلومات كانت مؤكدة، وبعدين أذعنا بيان وقلنا إن فيه طيارات أمريكية طارت فوق خطوطنا وفوق الجبهة، وقلنا إن إحنا بنعتقد بهذا إن الأمريكان مشتركين في العملية، وقلنا على الطيارات اللي كانت بتهاجم الأردن، وقلنا إن هناك هجوم بالطيران غير إسرائيلي على الأردن، وأذعنا بيان، وذكرنا في البيان تفاصيل الطيارتين اللي شفناهم مارين.

أيها الإخوة:

وأمامكم هنا وعلى مسمع من شعبنا كله، ومن أمتنا العربية، أنا عارف ان فيه أسئلة في نفوسكم، كل واحد منكم جاي يسمع الإجابة عليها، في البيوت وفي كل مكان عايز يعرف، وعايزني أقول له من أين نبدأ..؟ وأقول لكم بصراحة وبوضوح: ليس هناك طريق مختصر أو قصير إلى ما نريد، أيضا ليس هناك طريق واحد لا بديل له نصل به إلى الهدف، الطريق طويل وشاق.

كذلك فإن هناك عدة طرق لابد أن نسير عليها في نفس الوقت مهما كانت العوائق،

والموانع، والصعاب.

قدامنا طريقين، بنستسلم أو بنناضل، ولكن بنحطها موضوعيًا، الحقيقة هما مش حلين، هما حل واحد، إحنا ما استسلمناش، وناضلنا طويلاً، حتى أيام الاحتلال الإنجليزي ناضلنا، وأيام الاحتلال العثماني ناضلنا، وطول تاريخنا ناضلنا؛ إذن حل الاستسلام دا بنشطبه، ويبقى قدامنا حل واحد هو حل النضال، ومعنى النضال في هذه المرحلة أنه نضال حقيقي، نضال قاسي، نضال شاق، ولكنه نضال في سبيل مبادئنا وفي سبيل أهدافنا، وفي سبيل حريتنا، وفي سبيل أرضنا وبلدنا، وفي سبيل الثورة الاجتماعية اللي عملناها، وفي سبيل الوطن العربى كله.

بنقرا كل يوم عن شعب فيتنام، وإزاي شعب فيتنام المسلح بالأسلحة الصغيرة والمقاومة للدبابات والطائرات، ما عندهمش دبابات ولا طائرات، بيعملوا إيه في الأمريكان..! بيسببوا لهم خسائر أد إيه..؟ إحنا مش أقل من شعب فيتنام، وإحنا شعب مناضل دايمًا، والسويس حصلت عليها غارات جوية، أول يوم طبعًا الناس ذعرت من الغارات الجوية، ولكن باقول لكم تاني يوم كانوا خدوا على الغارات الجوية، وتالت يوم ورابع يوم وخامس يوم، ده موضوع معروف بالنسبة للعسكريين، بيسموه ده «الشعب يتطعم»، تطعيم الشعب بالنسبة للقتال.

الواحد أما يسمع صوت الرصاصة لأول مرة يتخض، بعد كده أما ياخد.. ممكن يسمع صوت المدفع الرشاش ما ينتبهش.

وباقول النضال العسكري مش بس بالنسبة للقوات المسلحة ولكن بالنسبة للشعب كله، والمقاومة الشعبية يجب أن تكون في كل مكان، وبعدين أنا سمعت بيقولوا المقاومة الشعبية راحوا وما ادوهمش أسلحة ومش فاهم إيه، وحاجات بهذا الشكل، معلهش.. مافيش داعي نكون نقادين لكل حاجة وعايزين الكمال، إحنا ما احناش أمريكا.

عايزين مقاومة شعبية ناس بيبقى معاها أسلحة، وناس يبقى معاها سكاكين، وناس بيبقى معاها نبابيت، وناس بيبقى معاها عصيان، وناس بيبقى معاها أسلحة أخرى.

دي المقاومة الشعبية على قد قدرتنا، وعلى قد استطاعتنا، وعلى هذا نستطيع فعلاً إن

إحنا ناخد عدد كبير للمقاومة الشعبية، وأرجو من الشبان إن ما يخيبش ظنهم لما يجدوا إن مافيش أسلحة متوفرة مافيش أسلحة لكل الناس، بالتدريج بنوفر لهم كلهم أسلحة، ولكن عدد قليل من الأسلحة بينفع لتدريب عدد كبير من الناس.

المقاومة الشعبية لها أساليب كبيرة وأساليب كثيرة، وحينما نتكلم عن النضال العسكري نتكلم عن قواتنا المسلحة، ونتكلم عن قواتنا الشعبية في كل قرية وفي كل مدينة، من الرجال والنساء، ولابد أن تكون هناك تعبئة عامة، وزي ما باقول من الضروري علينا أن نعيد البناء الشعبي والعسكري لقوى الوطن المصري.

سوف أبدأ بالحديث عن إعادة البناء المصري، ولابد أن نسلم أن البناء المصري هو القاعدة الأساسية للمقاومة، وهو جبهة الصمود، وهو طلائع التقدم.

أول حاجة في الحاجات اللي أنا اتكلمت عليها مهمة ويمكن كلكم مستنيني أتكلم عليها النهاردة هي الناحية العسكرية، وأرجو أن تقدروا أنني لا أستطيع أن أفيض في تفاصيلها، كل اللي أقدر أقوله هو أننا نعيد تنظيم قواتنا المسلحة، ونعيد تدعيم قدراتها وفاعليتها، وأشير هنا إلى عدة نقط، عدة نقط مهمة ومهمة جدًا في معركتنا:

أولاً: إن قواتنا المسلحة هي طلائع شعبها في كل معركة، ده دور القوات المسلحة وسوف يظل دورها؛ ولهذا فإن قوة القوات المسلحة هي قوة الوطن، وكرامتها كرامته، وشرفها شرفه.

ثانيًا: إن الرجال من قواتنا المسلحة قاموا بأعمال خارقة، وقدموا تضحيات لا مثيل لها؛ حاربوا بدون طيران والعدو كان عنده طيران، وكان متفوق في الطيران، وإذا كانت ظروف النكسة لم تسمح لبطولات رجالنا بأن تظهر بالقدر الكافي، فإنني أعلم علم اليقين أن الكثيرين منهم كتبوا بدمائهم صفحات مشرفة في تاريخ هذا الوطن، ولمجد هذا الوطن.

ثالثًا: إن قواتنا المسلحة لا تستطيع أداء دورها على الوجه الأكمل بغير تلاحم كامل بين الجيش والشعب، وهذا التلاحم لم يكن ضروريًا في أى يوم من الأيام بمثل ما هو ضروري الآن.

أنتقل إلى الناحية الشعبية؛ لقد تحملت مسئولية الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي مدركًا أن مجال التنظيم السياسي الشعبي سوف يكون له دور حاسم في المعركة، ولابد أن نجدد - حتى ونحن وسط المعركة - قوة ونشاط التنظيم الشعبي.

وكان من المقرر، كان من المقرر من قبل ظروف الأزمة أن يتم تشكيل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي مع العيد الخامس عشر للثورة، ولا أرى أن الأزمة ينبغي أن تؤخر هذا القرار، بل إنها تفرض الإسراع فيه، إنه من الضروري أكثر من أى وقت آخر توسيع نقاط القيادة في الاتحاد الاشتراكي العربي، وإذا كان الاتحاد الاشتراكي العربي هو التنظيم الممثل لتحالف قوى الشعب كلها، فإن قيادته لا يمكن أن تكون حكرًا على عدد بعينه من الأفراد؛ ولذلك فإنني آمل أن يتم تشكيل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي خلال أيام، وآمل أن تضم اللجنة خيرة العناصر القيادية في هذا الوطن، وآمل أن تقوم اللجنة بدورها القيادي على أكمل وجه.

وذلك يتمثل أكثر ما يتمثل في إطلاق حيوية ونشاط قوى الشعب العاملة، إبراز قيادتها ليكون ذلك مدخلاً إلى ديمقراطية أوسع وأعمق لقوى الشعب العاملة؛ بحيث تستطيع الثورة أن تحقق انتقال حقيقي وكامل إلى الديمقراطية السليمة فور الانتهاء من آثار العدوان.

نحن كنا نهدف دائمًا إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة، وكنت أقول أن لا وجود للديمقراطية السياسية إلا بالديمقراطية الاجتماعية، لا حرية سياسية إلا بحرية اجتماعية، وكنت أقول إن السبيل إلى الحياة الديمقراطية السليمة هو الحل الاشتراكي؛ وهو إزالة الفوارق أو إذابة الفوارق بين الطبقات..

الحل الاشتراكي هو اللي يخلي الشعب ملك لأبنائه، الحل الاشتراكي هو اللي يخلي كل واحد في البلد له فرصة متكافئة، ولقد كان رأيي - وسوف يظل رأيي دائمًا- أن النجاح الأكبر الذي تستطيع ثورة ٢٣ يوليو أن تحققه، يتأكد في حياة الشعب المصري ويبقى عندما تذوب الطلائع الثورية؛ الطلائع الثورية اللي طلعت يوم ٢٣ يوليو، عندما تذوب الطلائع الثورية التي تحملت بمسئولياتها؛ مسئولية الثورة، عندما تذوب في حياة مدنية أوسع منها، ده يكون النجاح الأكبر لثورة ٢٣ يوليو.

إن جيلنا قدم قيادات لفترة التحول الكبيرة، ولابد لأجيال أخرى أن تتقدم وأن تقود، وأهم من ذلك أن يوجد النظام الديمقراطي الذي يكفل تجدد القيادات المعبرة دائمًا عن مطالب قوى الشعب العاملة وآمالها، والقادرة على الإحساس بمشاكلها في كل مرحلة من مراحل التطور وحلها، أما إذا تصور جيلنا أن قيادته لمدى الحياة، فإن جيلنا يقع في خطأين كبيرين؛ أول خطأ أنه يحمل نفسه بأكثر مما يستطيع الوفاء به أمانة وعدلاً، الخطأ التانى يعوق النمو ويعطله، ويحجب عملية التجدد الصحي لقوى الشعب وقياداته، ومن ناحية أخرى فإن عملية إعادة البناء الشعبي ضرورية لعملية تحقيق النصر.

إذا سألنا نفسنا إيه كان القصد الحقيقى لعملية العدوان المرتبة التي تعرضنا لها أخيرًا..؟ سألنا نفسنا هذا السؤال، الرد يكون: القصد الحقيقي كان القضاء على الثورة الاشتراكية الموجودة في مصر.

وإذن فلكي نستطيع مواجهة العدوان فإنه من الضروري تدعيم الثورة الاجتماعية في مصر، وهذا يتأتى أكثر ما يتأتى بتعبئة قوى الجماهير، وتوضيح الرؤية أمامها.. إيه الهدف من العدوان ومن العملية كلها..؟ إيه الهدف من التواطؤ..؟ الهدف هو القضاء على الثورة الاجتماعية.. الثورة الاشتراكية، اللي تصدوا لها بكل الوسائل، تصدوا لنا بمحاولات الاغتيالات، وبالإخوان المسلمين، وبالمؤامرات، وبقطع المعونات، ولكننا صمدنا، كل الوسائل فشلت، وفضل حل واحد وهو إسرائيل.

وبعد غزو إسرائيل يحصل شرخ في النظام، وفعلاً طبعًا النكسة عملت شرخ وعملت أثر، وبعد كده بيركزوا بالضغط الاقتصادي، وبيركزوا بالضغط السياسي، وممكن أيضًا يركزوا بالضغط العسكري حتى تنهار الثورة اللي ما قدروش إنهم يصلوا إليها طوال الـ ١٥ سنة، ما قدروش انهم يخضعوها، وما قدروش انهم يضعوها داخل مناطق النفوذ.

لم يكن احتلال الأرض هو الهدف الأصيل للعدوان الاستعماري الصهيوني، إنما احتلال الأرض هدف جزئي يسعى به إلى تحقيق الهدف الأصيل؛ وهو تصفية الثورة العربية عامة.

العدوان حقق الأهداف الجزئية، ولكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه الرئيسي، أعداؤنا

المدافع اللي موجهه ضدنا.. الدول الكبرى اللي واقفة ضدنا لسه ما حققتش هدفها الرئيسي؛ ولذلك العدوان لا يزال يسعى إلى تحقيق هدفه، ولهذا حينما نفكر ونحدد بوضوح هدفنا نستطيع أن نحدد منطلقنا العملي في هذه المرحلة؛ إذن هدفنا المباشر لا ينبغي أن يكون إزالة العدوان فحسب، بل ينبغي أن يكون أيضًا حماية نظامنا الثوري، وتعميق نظامنا الثوري، وتدعيم حركة الثورة العربية.

هل معنى هذا إن إحنا نغمض عن الاحتلال الصهيوني لبلدنا وننسى النكسة العسكرية..؟! لا بالطبع، ولكن معناه أن يكون خط حركتنا الأساسي العمل الثوري، تدعيم الجبهة الداخلية، التعبئة الثورية للجماهير، توسيع الروابط النضالية بين الحركة الثورية العربية، تدعيم قوانا العسكرية.

إذا استطعنا إن إحنا نحقق هذا ولا نمكن العدو من أن يحقق هدفه الأصلي؛ هدفه الرئيسي، إذا استطعنا أن نحمي الثورة الاجتماعية في مصر، وندعم الثورة العربية الشاملة؛ فإننا نستطيع تحرير الأرض المحتلة.

طب هم عايزين يقضوا على نظام الثورة ليه؟ لأنهم عارفين إن هذا النظام الثوري لن يكون نظام استسلام، ولكنه نظام نضال، هم طبعًا عايزين نظام استسلام، وإزاي يصلوا إلى نظام استسلام..؟

هجوم العدو.. وكل واحد فيكم شايف اتجاهاته.. الهجوم أولاً كان موجه ضد قواتنا المسلحة، ولكن الهجوم اللي كان موجه ضد قواتنا المسلحة ليس إلا جزءًا بسيطًا من الهجوم الشامل الموجه إلى قوى شعبنا العاملة، الهجوم على قوى الشعب العاملة باعتبارها مصدر كل قوة، هو الهجوم الرئيسي المعادي، وفي هذا الهجوم، رد هذا الهجوم على أعقابه ودحره، وهزيمته معناه هزيمة الهجوم الرئيسي للعدو، معناه أننا سنستطيع أن نتحرر ونقضي على آثار العدوان.

العدوان العسكري خلص وبدأ الهجوم على الجماهير؛ عليكم أنتم، على كل فرد في هذا البلد، نشوف الصحف الأجنبية ونشوف الإذاعات الأجنبية، الهجوم النفسي، الهجوم الشامل الموجه إلى كل الأمة العربية لتيأس؛ لتيأس، ولتنسى أهدافها، ولتستسلم.. العدو يحاول تشكيك الجماهير العربية في كل شيء، في أهدافها المقدسة،

في منجزاتها الضخمة، في نتائج تضحياتها، في صروح بنائها، في ثقتها بنفسها، وفي ثقة كل منها بغيرها.

دي المعركة الرئيسية اللي إحنا بنواجهها النهارده، العدو لم يحقق هدفه باحتلال الأرض، ولكن العدو يريد أن يحقق هدفه بالقضاء على الثورة العربية، ثم بالقضاء على الأمل العربي، ثم بإدخال بلادنا ضمن مناطق نفوذه، العدو احتل سينا، الثورة موجودة، إحنا قلنا حنناضل وحنحرر بلدنا، حنحرر الأرض العربية، ولكن أعداءنا بيقولوا إنهم عملوا شرخ، ضربونا ضربة قاضية، إحنا مش أول ناس انضربنا، فرنسا انضربت، إنجلترا انضربت، وأمريكا انضربت في بيرل هاربر وانسحبت، وروسيا، الألمان وصلوا لغاية ١٠ كيلو من موسكو، مش أول ناس خسروا معركة، ولكن الفرق فين..؟ مش في المعركة العسكرية، هل حنستسلم أو هل سنمضي في النضال إذا أردنا..؟ ده الموضوع.

هم النهارده عايزينا نستسلم، نستسلم إيه؟ بنيأس، بنيأس وبيذيعوا بينا كلام يدعو إلى اليأس، وإحنا من غير ما نعرف نسمع الإذاعات ونرددها، ونقول مافيش فايدة.

وبرضه باقول إن موجة النكت اللي طلعت إحنا انجرينا فيها وما فهمناش بتسبب إيه النكت اللي طلعت..؟ النكت اللي طلعت تجرح كرامة ناس هم أولادنا وإخواننا، وأنا نفسي كنت باسمع النكت برضه، برضه واحد بيقول لي سمعت أخر نكتة، زي ما بتقولوا لبعض، وطبيعتنا إحنا كمصريين، وأنا في نفسي ما أخدتش من هذه النكت أبدًا أي تعبير، ولكن أنا عارف الشعب المصري.. ده شعب عمره ٧ آلاف سنة، وقهر كل الغزاة كسرهم، كل اللي جم هنا خلص عليهم؛ من «قمبيز» إلى «نابليون»، وقعد ينكت عليهم، شعب له فلسفة بتاعته، وطبيعته، وماحدش لا قدر يقيم فيه مذاهب ولا انقسامات، وفيه وحدة وطنية، وشعب صلب قوي، لكن أهو شعب يحب النكتة، وأنا باعتبر إن دي ميزة لأنه بيفلسف بها الأمور، لكن إذا جاء أعداؤنا استغلوا فينا هذه الطبيعة علشان يحققوا هدفهم، لازم نكون ناصحين، وكل فرد يكون ناصح، هنا ما أقدرش أنا أقول لك لأ، يعني أقول لك توجيه سياسي معين، أبدًا باقول كل فرد فينا مسئول، بيقول إيه الهدف من كذا..؟ الهدف من كذا هو كذا، تثبيط العزيمة، فقدان الثقة، بالنسبة للقوات المسلحة تيئيس القوات المسلحة.

الله.. طب إذا إحنا شاركنا في هذا يعني إيه..؟ يعني بنحقق أهداف العدو، طريق النضال قدامنا طريق صعب، كل فرد فينا يستطيع أن يعمل الكثير.

التنظيم السياسي أيضًا يجب أن يكون في الميدان مع الجماهير، وأن يقود، ويقود بالحقيقة وحدها مش بالمظاهر ولا بتكبير الأمور، أن يقود من مواقع الشعب، لا متسلط ولا متعالي، إحنا كلنا عارفين الأحزاب في الماضي، اللي كانوا في القيادات كانوا يتسلطوا ويتعالوا، إذا كانت القيادات الشعبية النهارده حتتسلط وتتعالى فستسقط في الحال في نظر الجماهير.

إن الأزمات أكثر من غيرها تجلي معادن الشعوب، هذه الأزمة أظهرت معدن شعبنا الأصيل، أنه شعب حضارة ممتدة متصلة لم تنقطع، بعدين طبعًا كان فيه موجات من النقد - برضه بنتكلم بصراحة - كتيرة، ما هو في النكسة كل واحد بينتقد، كل واحد بيتكلم، والفلاسفة بيكتروا، وإحنا قابلتنا نكسة، بيحصل كلام بيحصل نقد بتحصل فلسفة، أنا كنت باسمع الحقيقة كل هذا، كنت باسمع الكلام اللي بيتقال، وناس كتير بعتوا لي جوابات، ناس مخلصين، مواطن عايز يضحي وعايز يناضل وعايز يموت.

وأنا بدي أقول الحقيقة أنا كنت مع جماهير الشعب في الكثير مما كانت تتحدث فيه، الشعب كان يطالب ببداية جادة وحازمة تتفق مع جدية الظروف التي نواجهها وحزمها، وأنا مع الشعب في هذا.

إن عملنا كله يجب أن يتكيف بالظروف التي نواجهها، نحن نواجه ظروف حرب، ولابد أن تتكيف ممارستنا لأعمالنا، كل واحد فينا في نطاق مسئوليته بجو الحرب، لابد أن يتوقف الإسراف، ولابد أن يكون هناك حد للإنفاق على المظاهر، ولابد لكل إنسان منا أن يؤدي عمله، وأن تكون للعمل مقاييس للحساب ثوابًا أو عقابًا.

لابد أن نقضي على أية امتيازات تكون باقية تتجاوز حق العمل وقيمته في خدمة المجتمع دون أى اعتبار آخر، إن الشعب كان يطالب بوضع حد للامتيازات التي حصل عليها البعض بغير وجه حق وأنا مع الشعب في هذا، إننا شعب نبني مجتمعنا؛ مجتمعًا اشتراكيًا، وهذا المجتمع ليس لطبقة مميزة بل هو بطبيعته لا يسمح بامتياز طبقى، إنه يسمح بامتياز العمل وحده.

العمل وحده وكفاءة العمل واقتداره تعطي لصاحبها امتيازًا، لكنه امتياز الكفاءة وليس امتياز الطبقة، ولعلي أقول لكم أنني في الأيام الأخيرة ألغيت كثيرًا من الامتيازات التي ظهرت في مراحل سابقة وسيظهر هذا في الميزانية الجديدة، ولابد أن نقضي على أية امتيازات تكون باقية تتجاوز حق العمل وقيمته في خدمة المجتمع دون أي اعتبار أخر.

إن الشعب كله كان يطالب بالتكافؤ في التضحيات وأنا معه في ذلك، ولعلي لا أذيع سرًا إذا قلت أمامكم الآن إننا سوف نطلب إلى الشعب تضحيات جديدة تفرضها ضرورات المعركة، ولقد سبقتنا شعوب كثيرة في العالم العربي بينها من لم تشارك مشاركة فعالة في المعركة إلى فرض مثل هذه التضحيات باعتبار إن الظروف تقتضيها.

ولقد راعينا فيما سوف نطلبه من التضحيات أن يكون العبء الأكبر على القادرين عليه؛ ليكون هناك تكافؤ وليكون هناك مساواة حقيقية، إن الشعب يطالب بالنقاء الثوري والطهارة الثورية وأنا أطالب مع الشعب بذلك، لابد من النقاء الثوري ولابد من الطهارة الثورية، لابد من التمسك بقيم الدين والاعتصام بها.

أيها الإخوة:

حصل كلام كتير في الشهر ونص اللي فاتوا، كلنا اتكلمنا، كل واحد فيكم اتكلم، وكل عيلة اتكلمت، وكل مكتب اتكلم، وده طبيعي، ولكن أريد أن أقول إن ظاهرة نقد النفس التي عاشها مجتمعنا في الفترة الأخيرة بعد النكسة ظاهرة صحية، وهى دليل حيويته ودليل قوته. طبعًا أنا كنت باسمع، باسمع وبييجي لي وباسمع الكلام، وكنت باحاول الحقيقة على قد الانتقادات والحاجات اللي باسمعها الحاجة اللي ألاقيها وجيهة، واللي ألاقي لها حل أقدر أعمله، فيه حاجات ماكنتش أقدر ألاقى لها حل، موضوع الإذاعة ناس يبعتوا لي جوابات يقولوا لي إنهم زهقوا من الأناشيد، أيام ما كانت الإذاعة أناشيد طول النهار، ويقولوا لي يعني ما احناش قادرين نسمع المحطة دي وبنضطر نسمع محطات أجنبية، إن الواحد فعلاً اللي جاي تعبان من شغله مش ممكن يروح يرقد في السرير ويفتح الراديو يسمع أناشيد حماسية، عايز يسمع مزيكا، جوابات جات لي بهذا الشكل.

أنا قلت لوزير الإعلام يعني غير الإذاعة وسألتهم البلاد اللي كانت بتحارب، فيه بلاد

قعدت حاربت ٥ سنين من الحرب العالمية التانية، قعدوا ٥ سنين يعملوا أناشيد حماسية..؟! سألت الناس اللي كانوا في لندن، سألت الدكتور القيسونى - كان في لندن في الوقت ده- قال لي أبدًا، ده الإذاعة كانت ماشية زي ما هي، فعلاً مش معقول اللي بيقعد يحارب ٥ سنين بيقعد ٥ سنين يعمل أناشيد حماسية أبدًا..! لأن الحياة بتمشي، الحياة بتستمر والحياة الطبيعية رغم الحرب، ممكن بيكون فيه تعبئة شعبية، وممكن فيه مقاومة شعبية، وممكن ناخد كلمات حماسية وأناشيد حماسية، وفي نفس الوقت الحياة الطبيعية موجودة، الدنيا ما انتهتش، فأنا قلت لوزير الإعلام يعني خفف الإذاعة؛ لأن عندي جوابات ناس بتشتكي من الإذاعة وبيقولوا حتسمع الإذاعات الخارجية.

غير الإذاعة جات لي جوابات إزاي نعمل أغاني عاطفية والمعركة دايرة..؟! الموضوع الحقيقة ما أقدرتش أجد له حل، ومع ذلك لابد أن نجد النغمة الصحيحة اللي توفق بين ده وبين ده، ولازم نسيطر أيضًا على أعصابنا، أعصابنا أكثر ما نحتاج إليه الآن.

أيها الإخوة:

أنتقل إلى طريق العمل العربى، بدأنا في الحقيقة من أول لحظة بعد النكسة، وكنا على اتصال طول الوقت ببعضنا، وكنا على اتصال بغيرنا في محاولة لرسم صورة صحيحة للموقف بأبعاده العربية والدولية، حصلت اجتماعات في القاهرة، في الحقيقة هذه لم تكن اجتماعات مرتبة أبدًا، الرئيس بومدين بعت لي وقال لي إنه جاي القاهرة الصبح، وبشعوره العربي الصميم حس الراجل إنه لازم ييجي يقعد معانا ويشوفنا في وقت عصيب إحنا فيه.

واستقبلنا الرئيس بومدين، والرئيس بومدين أما جا قال إن كل إمكانيات الجزائر تحت تصرفنا، كل قوات الجزائر تحت تصرفنا، وقال كل ما نطلبه من الجزائر ستلبيه الجزائر، وإن المعركة معركة الجزائر، والملك حسين برضه بعت رسالة وقال إنه بيحب ييجي في القاهرة، قلنا له أهلاً وسهلاً في بلدك، وجا وحصل اجتماع مع الرئيس بومدين والملك حسين وسافروا، برضه الأخ عبد الرحمن عارف وجد من الواجب عليه إنه ييجي لنا في هذا الظرف وما عرفتش حتى إنه حيوصل القاهرة إلا قبل ما يوصل بساعة، يعني حتى قام من بغداد من غير إحنا ما نعرف.

وبعدين جه الرئيس الأتاسي من سوريا، والرئيس الأزهري من السودان، وعلى هذا

انعقد الاجتماع بدون تدبير وبدون تخطيط، واتكلمنا فيه على إمكانية التعاون والتعـاون على إزالة آثار العدوان، ولكن باسأل هل يحجب هذا المؤتمر إمكانيـة عمـل عربـي..؟ باقول لأ.. إحنا نتمنى في هذه المرحلة أن يكون فيه عمل عربي، شـعوب الأمـة العربيـة كلها اهتزت بهذا التواطؤ وهذا العدوان، شعوب الأمة العربية كلها في كـل الـبلاد قامـت وتظاهرت وأظهرت شعورها، وناس كتير ضحوا بنفسهم، وفيه ناس انسجنوا وفيه ناس أضربوا وما أخدوش مرتبات، وظهرت الأمـة العربيـة الأصـيلة عـلى حقيقتهـا بعمالهـا ورجالها وأبنائها كلهم، دي الأمة العربية، الأمة العربية هـي الشـعوب، يجـب أن ينـزل الحكام على رأي الشعب العربي في كل بلد عربي.

أيها الإخوة:

لابد من جبهة عربية، جبهة تواجه أعداءنا؛ أعداؤنا اللي هم إسـرائيل ومـن هـم وراء إسرائيل، لابد أن نستطيع تحديد من هو العدو من الذي ساعد إسرائيل، من الذي وقـف مع إسرائيل، نحن لا نطالب أي واحد بأكثر مما يستطيع ولكن لا نرضى منـه بأقـل ممـا يستطيع، إحنا غير مستعدين في فترة المعركة مع العـدو أن نـدخل في مهـاترة لـيس هـذا وقتها.

في مجال العمل الدولي، يجب أن نتكلم في مجال العمل الدولي عن العدو والصـديق، وده يجرنا إلى الموقف الدولي، وبدي أقول إن الأمة العربية وشعوب الأمة العربية ومهما كانت ظروف النكسة التي تواجهها بتحسب وتقدر وتفرز العدو مـن الصـديق، وسـوف تحاسب الأمة العربية أعداءها وسوف تعامل بالمثل.

في الدول الكبرى وقفت فرنسا موقف أخلاقى – من الـدول الغربيـة – أمـا البـاقيين أمريكا وبريطانيا أيدوا إسرائيل، الاتحاد السوفيتي، الاتحاد السوفيتى وقف معانـا أيـدنا سياسيًا وساعدنا اقتصاديًا وعمل على تقوية قواتنا المسـلحة، رئـيس الاتحـاد السـوفيتي الرئيس «بودجورنى» جا لنا – هنا في مصر – واتكلم معانا وقال لنا بوضـوح إن الاتحـاد السوفيتي يقف إلى جانبنا، وأنا قلت له بوضوح إحنا مش عايزين الجـيش الأحمـر ييجـي يحارب بالنيابة عنا، إحنا نقدر نحارب، وإحنا إذا كنا خسرنا معركة فأنا بـافكرك بروسـيا لما هجم عليكم «هتلر» خسرتم كذا معركة، ولكن أوعى تفتكر أبدًا إن الشعب المصري

أو الشعب العربي عايز الجيش الأحمر ييجي يحارب، الجيش السوفيتي ييجي يحارب بالنيابة عنه، إحنا عندنا رجالة تعرف تموت ورجالة تعرف تستبسل، وعندنا في تاريخنا رجالة ماتوا، وعندنا رجالة مستعدين يموتوا.

طبعًا قلت هذا الكلام لأن الغرب كان عمل حملة على روسيا، وقال إن العرب زعلانيين لأن الاتحاد السوفيتي ما بعتلهمش قوات سوفيتية..! ما أظنش ان إحنا فكرنا إن تيجي قوات سوفيتية تحارب بالنيابة عنا.

وقفت معانا دول كتيرة صديقة، كلنا عارفين الدول الصديقة وقفت معانا، وقفت معانا الهند، ووقفت معانا يوجوسلافيا، ووقفت معانا الباكستان وغينيا ومالى وتنزانيا وزامبيا والكونجو، كل الدول الاشتراكية وقفت معانا، خارج الأمم المتحدة، وقفت معانا الصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية، وقفت معانا تركيا، ووقفت معانا قبرص، دول كتيرة وقفت معانا، وقفت معانا اليونان، ووقفت معانا أسبانيا، فيه لنا أصدقاء كتير وقفوا معانا، فيه ناس يمكن كنا نعتبرهم أصدقاءنا ماوقفوش معانا، طبعًا دول كل واحد حنعامله في علاقاتنا حسب الموقف اللي وقفه.

أيها الإخوة المواطنون:

ليس هناك طريق مختصر وقصير ولكن الطريق طويل، وليس هناك طريق واحد ولكن طرق متعددة لابد أن نسلكها جميعًا للهدف الواحد، وأثق أننا - بعون الله - سوف نجتاز الطريق بصعابه ومشاقه، وأثق أننا - بعون الله - سوف نتحرك على كل الطرق المفتوحة أمامنا وسنصل.

أيها الإخوة المواطنون:

حينما يتكلمون عن السلام فأنا أقول لا يمكن لأي قوة أن تفرض السلام، القبول بفرض السلام معناه القبول بالاستسلام، وهم عايزينا نستسلم تحت اسم السلام، الطريق الوحيد أمامنا - رغم النكسة ورغم كل شيء - هو المحافظة على حقوق شعب فلسطين، ولن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين.

أيها الإخوة المواطنون:

هذا أساس القضية لا يمكن أن نقبل السلام بمعنى الاستسلام، ولا يمكن - رغم

النكسة ورغم احتلال سيناء - أن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين، لا يمكن أن نيأس ولا يمكن أن نكفر بأهدافنا ولا يمكن أن نفقد ثقتنا بأنفسنا أو بأمتنا العربية أو بشعبنا العربى.

أيها الإخوة:

إنى أثق أن أجيالاً قادمة سوف تلتفت إلى هذه الفترة وتقول كانت تلك من أقسى فترات نضالهم، لكنهم كانوا على مستوى المسئولية، وكانوا الأوفياء بأمانتها، وفقكم الله.

والسلام عليكم ورحمة الله

▪▪ شهادة تاريخية عن حرب الاستنزاف



1918 - 1970

* حدثني صديقنا اللواء أركان حرب/ فطيم محمد مسعود أحمد مساعد رئيس أركان حرب القوات المسلحة الأسبق حديثًا مليًا عن حرب الاستنزاف ومدى أهميتها للتمهيد لحرب أكتوبر، وسلمني صفحة من جريدة الأخبار التي كنت قد قرأتها حيث ورد بها(1):

- مؤرخ إسرائيلي: حرب الاستنزاف مهدت لانتصار مصر في أكتوبر 1973م.

- خسائر الأرواح كانت دليل المصريين الوحيد على أنهم يحاربون وضاعفت عزيمتهم الوطنية.

- جنود إسرائيل رفضوا الإجازات.. ومنعهم الخوف من دخول المراحيض وكبائن الاستحمام.

- موشى ديان استدعى الاحتياط بعد انتشار الفئران والبق داخل حصون خط بارليف.

متى وصلنا إلى هذا الانهيار ولماذا..؟ سؤال طرحه أحد الجنود الإسرائيليين على قائده يوأف جلبر إبان حرب أكتوبر 1973م، لم يتمكن القائد الذي كان في حينه برتبة رائد من

(1) محمد نعيم: تحت إشراف د. هالة العيسوي، جريدة الأخبار بتاريخ 20 سبتمبر 2017م.

الإجابة المقنعة، لكن السؤال الذي لم يبرح مطاردته، فواصل البحث وتقصي الحقائق، وربما زاد من إصراره على حل اللغز، مشاركته مع فريق عمل كبير في جمع وثائق وإعداد أبحاث، استعانت به لجنة «أجرانات» المعنية بالتحقيق في قصور الجيش الإسرائيلي خلال الحرب ذاتها.

حينها قال جلبر لأعضاء اللجنة: «للوقوف على أسباب هزيمة إسرائيل، لا بد من دراسة حرب الاستنزاف، أو بالأحرى الفترة الفاصلة بين حرب 1967م حتى حرب 1973م»، لكن الضابط الذي أصبح فيما بعد من أبرز المؤرخين العسكريين الإسرائيليين، واجه اعتراضًا بالغًا من أعضاء لجنة التحقيق، وكان تبرير اللجنة «لن نعود إلى الماضي، فنحن معنيون بمناقشة الحاضر فقط، وما حدث في يوم الغفران، والمسئول عن هزيمة إسرائيل».

أنهت اللجنة إجراءات أعمالها ومضى على أكتوبر 40 عامًا، لكن الإجابة على السؤال مازالت عالقة، فقرر جلبر الاستعانة بما يربو على 30 ألف وثيقة يعود تاريخها إلى حرب 1967م مرورًا بالفترة التي تلتها حتى حرب أكتوبر 1973م، وأدرج إجابة السؤال في كتاب أطلق عليه: «الاستنزاف.. الحرب التي سقطت من الذاكرة»، واستغرق الإعداد له 4 سنوات كاملة حتى صدر في 1 إبريل 2017م.

لكثرة الوثائق رأى جلبر ضرورة اقتصار عمله البحثي الذي بدأه منذ عام 2010م على ثلاثة جوانب: السياسي والعسكري والاجتماعي، مشيرًا إلى أن حرب يوم الغفران 1973م كانت صدمة وطنية لا تستطيع أجيال إسرائيل التخلص منها حتى الآن، لكن الحقيقة تؤكد أن الفترة التي تلت 1967م كانت بداية الانكسار التاريخي الفعلي لإسرائيل، لا سيما في ظل تغييرات طرأت على الدولة العبرية والشرق الأوسط والمنظومة الدولية بشكل عام، فحتى عام 1967م كان ضلوع العالم العربي في النزاع الفلسطيني محدودًا، لكن نهجهم تغير بعد حرب 1967م، وانشغلت تلك الدول بسيادتها واحترامها القومي إزاء الممارسات الإسرائيلية، وزادت في المقابل تدخلات الدول العظمى في منطقة الشرق الأوسط.

وفي كتابه: انتقل جلبر البالغ من العمر 74 عامًا إلى زاوية أخرى، اعتبرها بداية الانكسار الإسرائيلي؛ إذ يقول: «قد لا يتذكر البعض، لكن شخصيات ضباط وجنرالات

الجيش الإسرائيلي قبل 1967م كانت مجهولة، فلا يجوز صحفيًا ولا جماهيريًا التطرق إلى أسمائهم أو إلى العمليات التي قاموا بها، لكن الوضع تغير بفارق ابتعاد السماء عن الأرض بعد عام 1967م وحتى الآن، وباتت الحوارات الصحفية تجري أسبوعيًا مع جنرالات الجيش، ويتناول الكتاب سيرهم الذاتية في مؤلفات، وتقام على شرفهم الحفلات، حتى استسلم الضباط المفعمون بنشوة الظهور الإعلامي لشهوة التمجيد، وأصبح جنرال مثل رابين يؤمن بأنه لا يختلف عن مونتجمري أو الجنرال الأمريكي باتون».

ووسط حالة الزهو الطاووسية، زحفت على إسرائيل حرب الاستنزاف التي بدأت بشكل متقطع من يوليو 1967م، وألحقت بإسرائيل خسائر فادحة في الأرواح، وصلت إلى 378 قتيلاً وجريحًا، ولم تضع تلك الحرب أوزارها إلا بعد صدمة حرب أكتوبر 1973م، ويؤكد المؤرخ العسكري الإسرائيلي في بحثه أن إسرائيل واصلت استخفافها بقدرات المصريين، ولم يتمكن قادتها من قراءة الخارطة جيدًا، ولم تلتفت إلى ضرورة وضع استراتيجية دفاع جيدة، واقتصر اعتمادها فقط على سلاحها الجوي والدعم الأمريكي.

وفي خضم انشغالها بصد هجمات حرب الاستنزاف، لم تحدد إسرائيل خطة استراتيجية يمكن من خلال تعزيز خط القناة، ويشير جلبر إلى أن الجيش الإسرائيلي كان يعيش في حينه حالة شيزوفرينيا أو فصام الشخصية، ففي رأي قادته أن هذا الخط «خط القناة» هو أفضل الخطوط التي كنا نحلم بالوقوف عندها في الزحف، لم يتوقف الجدال خلال الاجتماعات حول الرغبة في احتلال مدينتي القاهرة ودمشق، وناصر هذا الفكر المتغطرس من أصبح رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر دافيد أليعازر، ونائب رئيس الأركان في حينه عيزر فايتسمان، لكن جموح الرجلين واجه اعتراضًا من بعض الأصوات العاقلة التي رأت أن هذه الخطوة أكبر من إسرائيل، سنواجه مشكلة كبيرة إذا فعلنا ذلك، ولكم في نابليون وهتلر العبرة والدرس المستفاد».

وبحسب الكاتب، لم تبلور إسرائيل خطة الدفاع عن وصول المصريين إلى غرب قناة السويس إلا أواخر عام 1968م، لكن تلك الخطة اقتصرت في إعدادها على ثلاثة بنود

فقط:

أولها: خط المياه كمانع طبيعي.

ثانيًا: وضع قوات مدرعة على الخطوط الأمامية.

ثالثـًا: خلق خط دفاعي آخر عند معبري الجدي ومتلا.

ورغم أنه تقرر في حينه بناء منظومة لردع محاولات عبور المصريين لقناة السـويس، إلا أن تلك الخطة ظلت حبيسة الأدراج ولم تر النور.

رئيس الأركان في حينـه حـاييم بـارليف، أخـرج مـن جعبتـه إلى جانـب الإجـراءات العسكرية الثلاثة خط تحصين خط القناة عبر تدشين 23 نقطة حصـينة في غضـون أربـع أشهر (خط بارليف)، لكـن ذلـك لم يمنـع الإسـرائيليين مـن التعـاطي باسـتخفاف مـع المصريين والعرب بشكل عـام، وترسـخت في العقليـة الإسـرائيلية شخصـية الجنـدي الإسرائيلي الحاكم، الماكر، القائد، والحريص على طهارة سلاحه، بينما حملت شخصـية المقاتل العربي لدى الإسرائيليين نعوت الجندي الجبـان، الأحمـق، الـذي يخلـع نعليـه لتسهيل عملية هروبه من ساحة المعارك.

في المقابل يوضح المؤرخ العسكري الإسـرائيلي أن حـرب الاسـتنزاف المتواصـلة أثبتت عكس ذلك، وفرضت على الجبهتين أن عنصر الحسم سـيكون لصـاحب الـنفس الأطول وصلابة احتمال الخسائر، وفي تلـك الزاويـة يؤكـد جلبـر: «كانـت بيننـا وبـين المصريين فجوة كبيرة في مسألة الخسائر، فالمصريون لم يترددوا في التضحية بأرواحهم، الأكثر من ذلك أن الخسائر في الأرواح كانت دلـيلهم الوحيـد عـلى أنهـم يحـاربون، ولم يُضعف ارتفاع عدد القتلى (الشهداء) عزيمتهم الوطنية، أمـا خسـائرنا (الإسـرائيليين) في الأرواح، خاصة في ظل الفشل في تحقيق الأهـداف، فسـاهمت إلى حـد كبيـر ي خفـض الروح المعنوية بين الجنود وكذلك في الجبهة الداخلية».

وساق يوأف جلبر العديد من الأدلة على حديثه، مشـيرًا في كتابـه إلى أنـه منـذ مـارس 1969م وعلى مدار فصل الصيف، واصـل المصـريون عمليـات القـنص وزرع الألغـام وإطلاق قذائف المدفعية في عمق سيناء، ولم يتوقف سيل القتلى والجرحـى اليـومي بـين صفوف الجيش الإسرائيلي، لا سيما جنود فصائل الإمداد والهندسة، الـذين دأبـوا عـلى

الحركة بين النقاط الحصينة، وساهمت المسافات البعيدة والمعقدة بين تلك النقاط في ارتفاع خسائر الأرواح، لا سيما خلال عمليات إخلاء المصابين والقتلى.

أما في إبريل 1969م فزادت ضراوة العمليات العسكرية المصرية في عمق سيناء عبر زرع العديد من الأكمنة، بالإضافة إلى عمليات قوات الكوماندوز المصرية خلف خطوط الجيش الإسرائيلي، ما حدا بوزير الدفاع حينئذٍ موشيه ديان إلى استدعاء ضباط احتياط مخضرمين لقيادة النقاط الحصينة في خط بارليف، وأطلقت إسرائيل على هؤلاء الضباط «النمور» جاء ذلك بحسب ما نقله جلبر عن ضابط المظليين الإسرائيلي على خط القناة يوسي عوزيرد بعد أن رفض الجنود الإسرائيليون الحصول على إجازات خوفًا من احتمالية تعرضهم للقتل أو الإصابة على أيدي المصريين، وأطلقوا على طريق الخروج من النقاط الحصينة «طريق الموت».

وأضاف جلبر: «كان الجنود الإسرائيليون يخافون حتى من الذهاب إلى المراحيض أو كبائن الاستحمام، ورفض أحدهم أن يغير بزته العسكرية (الأفرول) لمدة تزيد على 3 أشهر، حتى انتشرت في النقاط الحصينة الفئران وحشرات البق، وضعفت عملية الانضباط داخل الحصون».

ربما رفعت العمليات البحرية والجوية الإسرائيلية معنويات الإسرائيليين في الجبهة الداخلية، لكن حياة الجنود الإسرائيليين على طول خط القناة لم تتحسن، وتعاونت الصحافة الإسرائيلية في حينه مع الحكومة والجيش الإسرائيلي في إخفاء الواقع الدرامي على جبهة القتال، كما مارست الرقابة دورًا كبيرًا حينما واصلت عملها ليل نهار، وفي حين ادعت غير مرة أن تقارير المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي حول عدد المصابين والقتلى ليست دقيقة جوبهت بعدد كبير من الإعلانات المبوبة التي كشفت العدد الحقيقي للقتلى الإسرائيليين في حرب الاستنزاف، بحسب المؤرخ الإسرائيلي يوآف جلبر.

إذا لا محل هنا لما كتبه صديقنا المرحوم الدكتور عبد العظيم رمضان المؤرخ الكبير فيما كتبه عن حرب الاستنزاف وأنها كبدت مصر الكثير وكانت طامة على مصر، وألف كتابًا في هذا الخصوص تفضل بإهدائه إليَّ.

اختفى من بعده أسماء لامعة مثل كمال الدين حسين وجمال سالم وصلاح سالم، ومن بعدهم عبد اللطيف البغدادي وخالد محيي الدين وزكريا محيي الدين، ولم يبق من رجالات الثورة سوى عبد الحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعي، وهم الذين ظلوا بجوار جمال عبد الناصر بعد أن بنى زعامته وأكد شعبيته.

بعد محاولات انقلابية كانت تتم بين الحين والحين بمعدل انقلاب كل ستة أشهر، وضمت قائمة الانقلابيين أسماء كثيرة، منها رشاد مهنا، والدمنهوري، ومحسن عبد الخالق «انقلاب المدفعية»، وخالد محيي الدين ومجموعة ضخمة من قادة وضباط المدرعات «محاولة انقلاب المدرعات».

وفي اجتماع عبد الناصر بهم في «الميس الأخضر» لجأ عبد الناصر للمناورة وأعلن تخليه عن السلطة لمحمد نجيب وخالد محيي الدين، وبعد فض الاجتماع تم التراجع عن هذه الذي أعلنه جمال عبد الناصر على نحو ما سبق ذكره.

وبعد نكسة 1967م ظلت الانقلابات تطل برأسها عبر ثلاث محاولات: الأولى: بقيادة المشير عبد الحكيم عامر للتخلص من عبد الناصر، والثانية: بقيادة شمس بدران للتخلص من المشير عامر، والثالثة: بقيادة أحمد عبد الله ضابط الصاعقة للتخلص من شمس بدران.

ويعود بنا التاريخ إلى ما نهض به عبد الناصر عقب الانفصال السوري عن مصر عام 1961م، فقد استغل عبد الناصر ما حدث لإقصاء معارضيه وأعدائه.

◈ اللواء حسين عبد الرازق أول قائد صاعقة يعبر القناة: معركة رأس العش بداية قهر الجيش الإسرائيلي[1]:

❋ الذين يقاتلون الإرهاب فى سيناء هم امتداد لجيل أكتوبر.

❋ ضرورة حفاظ الإعلام على القيم المصرية وأن يكون جزءاً من إدارة الأزمة.

الله أكبر، صيحة الحق التي زلزلت الأرض تحت أقدام العدو الإسرائيلي، الله أكبر،

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ذات يوم، العدد (2310)، بتاريخ 25 سبتمبر 2017م، ص15.

صيحة العزيمة التي اتخذها خير جنود الأرض لتكون حافزا لهم لتحطيم وقهر أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر، حسب ما روج له الغرب، فلقد كانت حرب السادس من أكتوبر في نفوس خير أجناد الأرض، رغم قلة الإمكانيات والعتاد العسكري، هي حرب الثأر واسترداد الكرامة، وإعلام العالم كله أن مصر عندما تحارب بالاستعداد الجيد والعزيمة والإيمان بالله، لا تقف أى قوة أمامها، وبإرادة الله يختبئ أعتى أعدائها كالفئران أمام بسالة الجندي وعزيمته وإقدامه، وهو ما كانت قصص بطولاته فى هذه الحرب المجيدة مبعث فخر لكل الأمة العربية، حتى اليوم بعد مرور ٤٤ عاماً على الانتصار، وسحق الجيش الإسرائيلي، وسقوط قادته أسرى فى يد رجال جيشنا العظيم، الذي سيبقى عظيمًا طول الدهر، بإخلاص رجاله وقادته.

وفي لقاء مع اللواء حسين عبد الرازق، الخبير العسكري والاستراتيجي، وأول قائد صاعقة يعبر قناة السويس إلى مدينة القنطرة شرق في حرب أكتوبر المجيدة، أكد أن العقيدة المصرية العسكرية هي أشرف عقيدة عسكرية فى العالم، وأن المنبع الرئيسي للسياسة هو قوة الدولة.

وأشار عبد الرازق إلى أن جوهر النجاح في حرب أكتوبر هو عملية الاستعداد الجدي والعلمي، والموضوعي، والمقيم علميًا، وليس عشوائيًا.

وأضاف الخبير العسكري، صاحب كتاب «رحلة الحب والحرب» في حديثه لـ«الوفد»، أن الدراسة العلمية للتحدي، والإعداد الجيد للتغلب على هذه التحديات هو ما أدى إلى انتصار أكتوبر، فلا يأتي نجاح أي شيء سوى بالاستعداد الجيد، والتخطيط الاستراتيجي العلمي، فلقد فاجأنا العدو في حرب أكتوبر، في وقت كان يقول فيه العالم إننا أصبحنا جثة هامدة، من الذي فعل ذلك..؟ هم المصريون، والإرادة والعزيمة والتخطيط، فنحن دائمًا قادرون على النجاح بالعمل الجدي، وقلوبنا العامرة بالإيمان، فمصر قادرة على مواجهة أي تحديات؛ لأن بها قوات مسلحة تعتمد على التخطيط الجيد.

وأشار عبد الرازق إلى أن الفيديوهات المسيئة التي يتم تداولها بين الحين والآخر من قنوات محسوبة على جماعة الإخوان لتشويه صورة الجيش المصري والمقاتل

المصري في سيناء لم تلق أي مصداقية بالنسبة له، وعارية تماماً من الصحة ومفبركة، وأكد أنه قام بالعديد من الزيارات للقوات المتواجدة في سيناء وعلى الحدود، والذين أكدوا له أن العديد من العمليات تم إيقافها فى اللحظات الأخيرة حال وجود أي شكوك بتأثيرها على المدنيين.

وقد أضاف: مؤكدًا أن من يقاتلون الإرهاب في سيناء هم امتداد لجيل أكتوبر، موضحًا أن استخدام الإعلام من جانب الأعداء هو جزء من حروب الجيل الرابع للتحريض ضد البلاد، وإيصال صورة ذهنية خاطئة للإساءة لكل رموز الدولة المصرية.

وأوضح أن جهود هؤلاء بلا جدوى، مدللاً على أن مصر لديها قبول دولي من الجميع، لافتًا إلى أن الإساءة لمصر سياسة أو ركيزة لدى هؤلاء، موضحًا أن أخلاق المصريين معروفة حتى في أوقات الحروب، فقد كان الجنود يأكلون مع الأسرى، وتتم رعايتهم بمنتهى الإنسانية.

وأكد عبد الرازق، أن مشكلة الإعلام المصري أنه يركز على قضايا لا تزرع الأمل والوعي في نفوس الشباب المصري، مؤكدًا ضرورة حفاظ الإعلام على القيم المصرية، وأن يكون الإعلام جزءًا من إدارة الأزمة؛ لأنه سلاح فعَّال في وأد الفتن وترسيخ القيم، وهذا دوره الحقيقي المنوط به للدفاع على قيم ومكتسبات الوطن، بدلاً من تبديد جهود دولة وأمة في أمور لا تهم سلامة الوطن.

رأس العش

وعن ذكريات اللواء أركان حرب حسين عبد الرازق، قائد وحدة الصاعقة في حرب أكتوبر، أكد أن حرب أكتوبر بدايتها الحقيقية كانت قبل ٦ سنوات بعد هزيمة ٦٧، وبالتحديد في معركة «رأس العش»؛ حيث كنا جميعاً نعيش آلام صدمة كبيرة، وحالة من اليأس وإحباط الهزيمة، وكان من الصعب علينا مشاهدة ولو شبر أرض واحدًا من مصر يرتع فيه العدو، حيث كان العدو الإسرائيلي يضع لافته كبيرة مكتوبًا عليها «هنا حدود دولة إسرائيل»، فعندما نشاهد هذه اللافتة كان يجن جنوننا، وكنا نحلم بيوم العبور، يوم طرد العدو وتلقينه درسًا لن ينساه، وفي رأس العش كانت البداية حيث تصدينا للعدو في هذه المعركة بكل بسالة وشراسة، ما دفع العدو للتراجع، وتأكدنا وقتها أننا قادرون على

النصر، وعلى مواجهة الجيش الذي زعم أنه لا يقهر، وأيقنا أيضًا أننا فقط بحاجة لإعادة التنظيم واسترداد الثقة بالنفس، وأضاف: لم ننس أيضًا الموقف الرائع للشعب المصري، وخروجه معبرًا عن رفضه الهزيمة، كل هذا دفعنا للتطلع والاستعداد لمعركة الكرامة.

(1) محمد حسني مبارك(1)

أخذنا من حرب الاستنزاف خبرة قتالية كبيرة، وبسببها ومن خلال معاركها قمنا بتطوير جيوشنا، ووحداتنا، وتسليحنا، ووسائل دفاعنا، كشفت لنا هذه الحرب، الكثير والكثير من تفكير إسرائيل، ومن تكتيكاتها، وعمليات وأنواع الخداع العسكري.

إمكانيات إسرائيل الضخمة، والمتجددة والحديثة، التي وقفنا عليها، وأظهرتها حرب الاستنزاف، كانت الحافز والدافع لمواجهة هذه الإمكانيات، وسدد ما لدينا من ثغرات، وتجهيز الجيش وإعداده لحرب أكتوبر، نستطيع القول أن حرب أكتوبر بأدائها العظيم المتميز، كانت خلاصة خبرة قتال طويلة وصعبة، من كل من حرب 1967م - رغم الهزيمة- وحرب الاستنزاف.

(2) الفريق أول محمد فوزي(2)

كانت حرب السنوات الثلاث مخططة منذ بدايتها؛ لتكون بناء وإعادة تنظيم وإعداد القوات المسلحة والشعب لخوض معركة تحرير الأرض العربية، وكان في التقدير تدخل العدو لعرقلة هذا البناء، فعندما قام العدو بأعمال استفزازية معادية مع تهديد مستمر، قامت قواتنا المسلحة بمواجهته وقتاله في نفس الوقت الذي تمسكت فيه بهدفها الأساسي، وهو الاستعداد لمعركة تحرير الأرض، الأمر الذي جعل من هذه الفترة تجربة مضنية وقاسية، أثبتت أنها نموذج رائع لانتصار الإرادة العربية المصرية.

وكان التصادم العسكري مع العدو واستمرار الاحتكاك به في العمليات والمعارك التي أشرت إليها في مذكراتي، فرصة عملية نادرة لرفع الكفاءة القتالية للجندي المقاتل والوحدة الصغرى في جميع تشكيلات القوات المسلحة، والتي تمكنت في نفس الوقت

(1) جريدة الجمهورية، 18 مايو 1996م.

(2) حرب السنوات الثلاث 1967م - 1970م، مذكرات الفريق أول محمد فوزي.

من معرفة أسلوب القتال للعدو وتكتيكاتـه، وبـذا حرمتـه مـن أي ابتكـار أو مفاجـأة أو خداع قد يقوم به في المعركة الكبرى المنتظرة.

كما كان دوام الاتصال مع العدو طول الثلاث سـنوات أسـلوبًا مميـزا حقـق لقواتنـا معرفة قدرات العدو الحقيقية، كما هدم جدار الخوف من الجندي الإسـرائيلي، وكانـت عمليات المواجهة بالقتال عاملاً أساسيًا في إحداث خسائر كبيرة في أفـراده لم تحـدث في كل الحروب السابقة، مما أثر على خفـض معنوياتـه بـل وجعلـت القـوات الإسـرائيلية المتمركزة شرق القناة تتشكك في قدراتها وتخطيطها للدفاع عن أرض لا تملكها.

لهذا سعت إسرائيل إلى قبول المشروع الأمريكي لوقف إطـلاق النيـران المؤقـت في أغسطس 1970م، أملاً في تخليصها وقواتها المسلحة وشعبها من استنزاف قواها وإنقاذ اقتصادها من الانهيار، وتنازلت إسرائيل عن أهدافها السياسية التي أصرت عليها عقـب معركة 1967م في قبولها المفاوضة غير المباشرة مع دول المواجهة تحت إشراف دولي، بالإضافة إلى قبولها مبدأ الانسحاب المسبق على التسوية السلمية الشاملة.

(3) المشير محمد عبد الغني الجمسي[1]:

لقد كانت حرب الاستنزاف التي شنتها مصر ضد إسـرائيل، ضـرورة حيويـة لقواتنـا المسلحة، حيث أن الدراسة الموضوعية لحرب الاستنزاف على المستوى الاسـتراتيجي والتعبوي لا يجب أن تقتصر عـلى وقائعهـا وأحـداثها، ولكـن أهميتهـا تكمـن في الآثـار البعيدة التي تركتهـا هـذه الحـرب، عـلى أسـلوب الإعـداد والتخطـيط لحـرب أكتـوبر 1973م، وعلى الأداء الكفء لقواتنا المسلحة في تلك الحـرب وكـان سـمة بـارزة مـن سماتها، ومن هنا يمكننا القـول أن حـرب الاسـتنزاف تعتبـر هـي المرحلـة التحضـيرية الحقيقية والعملية لحرب أكتوبر 1973م، وفي ظـل الظـروف التـي كانـت سـائدة بعـد هزيمة يونيو 1967م.

لقد أثبت المخطط والمقاتل المصري ذاته خلال مرحلة ما بعد الهزيمة، كما أثبتـت حرب الاستنزاف أن قوة صمود مصر وعدم تزعزع إرادتها، وتمسكها بهدفها وهو تحـرير

(1) المشير محمد عبد الغني الجمسي: مذكرات الجمسي، حـرب أكتـوبر 1973م، ص187، 188، 190، 191.

الأرض، كانت من العناصر الرئيسية لاستعادة الثقة بعد أن كادت هزيمة يونيو تقضي عليها، ولا شك أن حرب الاستنزاف كانت عبئًا ثقيلاً على كل من مصر وإسرائيل، ولكنها كانت أكثر فائدة لمصر وأكثر ضررًا لإسرائيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: وماذا كان البديل لو لم نقم بحرب الاستنزاف كجزء من الصراع المسلح بعد حرب يونيو 1967م..؟

البديل هو أن نترك السياسة تلعب دورها لحل المشكلة بالطرق الدبلوماسية والسياسية، وتقف القوات المسلحة سلبية في انتظار النتائج، وهذا يعني أن تستسلم مصر لشروط إسرائيل، ومن المعروف أن الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى؛ لذلك يتحتم دعم العمل السياسي بالعمل العسكري في حدود قدرة قواتنا المسلحة في ذلك الوقت، وكانت النتيجة ما أوضحه محمود رياض وزير الخارجية عن التأثير الإيجابي للعمل العسكري على العمل السياسي.

ولقد وضعت حرب الاستنزاف إسرائيل في موقف صعب عسكريًا وسياسيًا لا يمكنها الخروج منه، فلم تكن إسرائيل قادرة على حسم الحرب لصالحها برغم تفوقها العسكري، ولم تكن في نفس الوقت راغبة في الانسحاب من سيناء؛ ولذلك لم يكن أمامها إلا خوض الحرب مرغمة مع استمرار نزيف الدم في خسائرها البشرية - وهي نقطة ضعفها الرئيسية- أمام تصميم مصر على الاستمرار فيها برغم خسائرنا المادية والبشرية.

وعندما انتهت حرب الاستنزاف، كانت مصر قد حققت فوائد كثيرة ودروسًا مستفادة ثمينة، وأصبحت الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية كتابًا مقروءًا أمام قواتنا، ولعل من أبرزها أن إسرائيل اقتنعت بفشلها في إسكات شبكة الدفاع الجوي، ولم يصبح للسلاح الجوي الإسرائيلي العمل بتأثير كما كان من قبل، ومن هنا عاد الجيش الإسرائيلي إلى مستوى كفاءته الحقيقية في القتال، وفي نفس الوقت أصبحت قواتنا قادرة على العمل بحرية تحت حماية الدفاع الجوي بالتعاون مع القوات الجوية، عندما يصدر قرار الهجوم في الوقت المناسب بالحرية الشاملة.

وكان من الطبيعي أن تتحمل مصر الخسائر في حرب الاستنزاف، وهو ثمن دفعناه على الطريق إلى حرب أكتوبر، كما دفعت إسرائيل ثمن بقائها في سيناء حتى نشوب هذه

الحرب.

إني أقول إن الوضع العسكري والسياسي لمصر في نهاية حرب الاستنزاف، كان أفضل من وضعنا في بدايتها، وفي الحقيقة فإن توقف القتال في 8 أغسطس 1970م، لم يكن يعني توقف عجلة الحرب، ولكنه كان بداية مرحلة جديدة استعدادًا لحرب أكتوبر 1973م.

وفي إسرائيل اعترف قادتها بأن حرب الاستنزاف كانت ثقيلة عليهم بخسائرها، وأن الجيش الإسرائيلي خسر هذه الحرب، وأننا - في مصر- استفدنا منها أكبر فائدة، وأن هذه الحرب عبدت لنا الطريق إلى حرب أكتوبر.

فقد قال إيبان وزير خارجية إسرائيل في اجتماع لحزب العمل يوم 29 أغسطس 1970م: «إن خسائرنا في الأفراد القتلى وفي المعدات الثمينة جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا، ولولا وقف إطلاق النار لواجهت إسرائيل تصاعدًا في الحرب مع مصر، وبالتالي زيادة القتلى وتآكل التفوق الجوي الإسرائيلي».

ونشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في سبتمبر 1971م حديثًا للعميد ماتي بيليد قال فيه: «إن الجيش الإسرائيلي فشل من الناحية العسكرية في حرب الاستنزاف، وهذه أول معركة يهزم فيها في ساحة القتال منذ قيام الدولة، لدرجة أننا في إسرائيل أمسكنا بأول قشة ألقيت إلينا وهي وقف القتال».

وعبر الجنرال ويزمان - وزير الدفاع فيما بعد- عن رأيه في حرب الاستنزاف، كتب يقول في مذكراته التي أعطاها اسم «على أجنحة النسور»: «عندما وافق المصريون على إيقاف النيران في أغسطس 1970م، فسرنا ذلك بأنه اعتراف منهم بأنهم لم يتحملوا القصف أكثر من ذلك، ومع عدم التقليل من الخسائر التي تحملوها نتيجة لهجمات سلاحنا الجوي، فقد تحققت مخاوفي من أن حرب الاستنزاف التي أريقت فيها دماء أفضل جنودنا، انتهت بأن أصبح للمصريين حرية العمل لمدة ثلاث سنوات للتحضير لحرب أكتوبر، وعلى ذلك فمن الجنون أن نقول إننا كسبنا حرب الاستنزاف، وبالعكس فإن المصريين - برغم خسائرهم- هم الذين استفادوا منها أكبر فائدة».

وفي الفترة من 1970م إلى 1973م أخذ قادتنا (قادة إسرائيل) يرددون إننا كسبنا

حرب الاستنزاف فأثروا على عقولنا، بدلاً من القول إننا فشلنا في تدمير شبكة الدفاع الجوي المصري، وعلينا أن نستعد للتغلب عليها لأنها ستلعب دورًا حاسمًا في الحرب القادمة، ولا بد من إيجاد وسيلة لإسكاتها، وهكذا عشنا في الأوهام بدلاً من مواجهة الحقائق، قد نكون نجحنا في رفع الروح المعنوية للشعب، ولكننا دفعنا الثمن غاليًا.

بينما كانت حرب الاستنزاف مستمرة دون أن يتمكن جيشنا من إيقافها، أصبحت تدريجيًا - وليس كالآخرين- مقتنعًا بأنها المرة الأولى التي لم ننتصر فيها، لقد قلت مرارًا إننا فشلنا في هذه الحرب.

سنظل نذكر أن حرب الاستنزاف هي الحرب الأولى التي لم تنتصر فيها إسرائيل، وهي حقيقة عبدت الطريق أمام المصريين لشن حرب يوم كيبور - حرب أكتوبر 1973م.

(4) أمين الهويدي[1]:

منذ اللحظة الأولى للهزيمة أوضح عبد الناصر أن الإرادة الذاتية هي العامل الفاصل لتحديد نتيجة المعركة، فالمعركة معركتنا، واللعبة لعبتنا، والأوراق أوراقنا، إن 100٪ من أوراق اللعبة في يدنا ونحن لا يجوز أن نتركها في يد الغير، فليس من المعقول أن تكون 99٪ من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة مثلاً، أو في جيب الاتحاد السوفييتي..! وإلا فأين الإرادة الذاتية للقيادة الواعية وللشعوب المكافحة..؟!!

وانطلاقًا من هذا المبدأ السليم أخذ يعيد بناء القوات المسلحة، وإلى جانب ذلك اتخذت عدة إجراءات لتقوية الإرادة الذاتية، ومنها:

* تهيئة مسرح العمليات الذي يتسع ليشمل كل أنحاء الجمهورية في حرب لم تعد تعرف مواجهات بالمعنى المفهوم، بعد أن كثف العدو غاراته في العمق، وأنشئت الطرق والمطارات والموانئ التبادلية.

* بناء مخزون استراتيجي من المواد الاستراتيجية مثل المواد البترولية والغذائية ومواد تصنيع الأسلحة والذخائر.

(1) أمين الهويدي: كتاب مع عبد الناصر، ص155-159، 162-163.

* إنشاء الجيش الشعبي لحراسة المنشآت في منطقة خطوط المواصلات وزيادة كفاءة الدفاع المدني لمواجهة الغارات المعادية.

* حشد الجهود العربية عن طريق المساعدات الاقتصادية العديدة واستغلال العمق العربي في إعادة التوزيع الاستراتيجي لقواتنا.

* إشعال جبهة القتال على قناة السويس، وفي داخل إسرائيل وبصفة تكاد تكون مستمرة.

* الاستمرار في خطط التنمية بأقصى معدل ممكن.

وكان عبد الناصر يركز اهتمامه على خط آخر وهو «خط الأمر الواقع»، وإن كان «الخط الحرج» يتأثر «بالحرارة» فلا بد من إشعاله، وبصفة مستمرة حتى يقتنع العدو أن فرض الأمر الواقع خارج قدراته، وحتى يجبر الدولتين الأعظم على التدخل لإطفاء النيران المشتعلة حتى لا تمتد وتنتشر فتهدر مصالحها، وهنا تصبح المواجهة بينهما أمر أكثر احتمالاً.

وكان لدى إسرائيل كل وسائل الردع خاصة «الذراع الطويلة» المتمثلة في قواتها الجوية، خاصة بعد احتلالها لمطاراتنا في سيناء، وإصرار الولايات المتحدة على إمدادها بكافة أنواع الطائرات الحديثة.

وبالرغم من ذلك رفض عبد الناصر الاستسلام رغمًا عن الغارات في العمق التي كانت توجه إلى أغراضنا المدنية، وبذلك فقد كسر أخطر مبدأ في مبادئ الردع وهو التأثير النفسي، وأخذ يشن حرب الاستنزاف، ومعها تضرب الوحدات الفدائية داخل إسرائيل.

وأعود فأنقل من صفحة (349) من كتاب «سنوات البيت الأبيض» لهنري كسينجر إذ يقول: «في فبراير 1969م أبلغتنا المصادر الإسرائيلية أن 1288 حادث تخريب وإرهاب تمت منذ حرب الأيام الستة.. وكانت خسائر الإسرائيليين هي 234 قتيلاً، و265 جريحًا من العسكريين، 37 قتلى، 330 جرحى من المدنيين، وهذه نسبة مخيفة لدولة تعدادها 2.5 مليون، وهي تساوي 200.000 قتيل، و100.000 جريح لدولة في حجم الولايات المتحدة».

بل نجد هـاعولام هازيـه نشـرت في العـدد 1640 بتـاريخ 26/ 3/ 1969م خطابًـا أرسلته إحدى القارئات إلى رئيس التحرير تقول فيه: «نحن نريد مزيدًا من الأرض»، وقد نشرت المجلة ردها على الرسالة بلسان أحـد الجنـود الإسـرائيليين ليقـول: «لـو كنـت تجلسين في المناطق المحتلة، وتفقـدين أصـدقاءك المقـربين الـذين يموتـون كـل يـوم بواسطة لغم أو بواسطة الطلقات أو بغير ذلك ما طالبت باحتلال المزيد من الأرض».

استغل عبد الناصر الفترة غير المستقرة بعد قبوله مبادرة روجرز عـام 1970م لنقـل حائط الصواريخ قريبًا من القناة بحيث تحمي قواتنا على الضفة الغربية وفي الوقت نفسـه تستر وتغطي أي عملية عبور في المستقبل إلى الضفة الشرقية.

وقد تم عبور 1973م تحت ستار حائط صواريخ عبد الناصر الذي أنشأ عام 1970م ولم تتمكن قواتنا من التقدم خطوة واحدة أبعد من مدى حماية هذه الصواريخ، بالرغم من أنه كان من الممكن استخدام وسائل أخرى.

ولنرجع مرة أخرى إلى هنري كسينجر في كتابه «سنوات البيت الأبيض» لنجده يقول: «في 15 أغسطس 1970م قابلني إسـحاق رابـين وأكـد أن 14 موقـع صـواريخ سـام 2 معززة بثلاث مواقع صواريخ سام 3 حركت في المنطقة العازلة، وأن إسـرائيل فقـدت 5 طائرات فانتوم في يوم واحد، ثم يقول: استخدم عبـد الناصـر مبـادرة روجـرز لتحريـك صواريخه إلى الأمام، وأصبحت هذه الصواريخ لا تـوفر الحمايـة للقـوات المصـرية في القناة فحسب، بل أصبحت قادرة على حماية أي عملية إنزال مصرية على الجانب الآخـر، وقد انتهز عبد الناصر فترة إيقاف النيران لأن الصواريخ ستكون مؤمنة ضد الضرب».

كانت خطط العبور تجهز في سرية وتكتم، ويجري عليها التعديلات بين وقت وآخـر على حسب تطور التقدم في التسليح والتدريب وتجهيز مسارح العمليات، كـان الغـرض هو العبور ثم الوصول في مرحلة واحـدة إلى منـاطق الممـرات، وكـان الاسـم الكـودي للخطة هو «جرانيت»، وكتجارب ابتدائية للتنفيذ أخذت قواتنا تعبـر إلى البـر الشـرقي في وحدات صغيرة في أول الأمر، ثم زاد حجمها إلى «سرايا بأسلحة معاونة»؛ لتدمير العـدو والحصول على معلومات عن دفاعاته والقبض على الأسرى.

وقد قامت المخابرات العامة بتصوير خط بارليف بحيث اتضحت معالمه تمامًا، وقامت

في الوقت نفسه بإتمام دراسة مستفيضة عن الأعياد الإسرائيلية لاختيار إحداها لبدء الهجوم إذا رؤى ذلك، كما قامت بإجراء دراسات مستفيضة عن كافة الأهداف الاستراتيجية داخل إسرائيل وكيفية التعامل معها، ووضعت كل ذلك على الخرائط وتحت الرمل، بل عملت ماكيتات من الخشب والورق المقوى للأغراض ذات الأهمية الخاصة.

وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الحربية بدفع دورياتها بعيدة المدى خلف خطوط العدو في سيناء لتبقى هناك أيامًا قصيرة أو طويلة حسب الواجبات المنوطة بها.

كان عبد الناصر في لعبته الكبيرة يستعد للمعركة الكبرى إذا فشلت وسائله الأخرى في تحقيق الجلاء عن أراضينا، وتعمدت ألا أقول القتال؛ لأنه لم يتوقف يومًا واحدًا إلا بعد قبولنا لمبادرة روجرز.

(5) اللواء طه المجدوب[1]:

كانت حرب الاستنزاف بكل متاعبها وآلامها، بمثابة مرحلة المخاض التي لا بد أن تواكب المولد الجديد للقوات المسلحة المصرية، تلك المرحلة التي خففت عن نفس المقاتل عبء الهزيمة، وغرست بذورًا جديدة كانت ثمارها هي الأداء البطولي المتقن، الذي ظهر به المقاتل المصري في أكتوبر 1973م، لقد كانت حرب الاستنزاف هي البوتقة التي أعادت صهر هذا المقاتل لتصقل خبراته وتعالج جروحه النفسية وتزيل الآثار المعنوية التي أصابته، وتشحذ همته فكرًا وعملاً.

وهي رغم ضراوتها، ورغم الخسائر المادية التي لحقت بالمجالين العسكري والاقتصادي، والخسائر البشرية التي تحملتها مصر شعبًا وجيشًا، فإن ما حققته من نتائج إيجابية عظيمة كانت تستحق كل هذه التضحيات، إنها الثمن الذي دفعته مصر لتهدم حاجز الخوف وآثار النكسة، وتمهد الطريق نحو النجاح والنصر الذي تحقق في أكتوبر 1973م خاصة فيما يتعلق بالجوانب التالية:

أولاً: الجانب المعنوي:

لقد بعثت حرب الاستنزاف الثقة في نفس الجندي المصري، الثقة في سلاحه

(1) اللواء طه المجدوب: رؤية استراتيجية، نشرت في الأهرام بتاريخ 26/ 5/ 1996م.

وقياداته، وفي قدرته على مواجهة عدوه وقتاله وقتله ومطاردته وأسره ومحو خرافة «الذي لا يقهر»، كانت هذه المواجهة المباشرة بين المقاتل المصري وعدون، والتي حدثت لأول مرة في حرب الاستنزاف، أمرًا ضروريًا وحتميًا لكي يتعرف المقاتل المصري على حقيقة عدوه وأسلوب قتاله، ويتأكد بنفسه من زيف الأساطير المحيطة به بعد أن واجهه وقهره، هكذا أمكن صقل المقاتل المصري وتطوير قدراته القتالية وتنمية روحه الهجومية ودعم معنوياته.

كل هذه الأمور انعكست إيجابيًا على أدائه القتالي عندما اشتعلت الحرب في أكتوبر 1973م، فواجهت إسرائيل نوعية مختلفة من المقاتلين، حتى أن القيادات العسكرية الإسرائيلية صدمت بالمستوى الرفيع للأداء القتالي للجندي المصري، واعتبرته «المفاجأة الكبرى» لهذه الحرب، فماذا قال قادة إسرائيل عن الجندي المصري..؟

قال دافيد آليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي: «لقد ارتكبت القيادة الإسرائيلية خطأ استراتيجيًا فادحًا، عندما لم تعط المقاتل المصري حقه في تقديراتها، لقد كلفها هذا الخطأ ثمنًا باهظًا، وكان فعلاً المفاجأة الكبرى في حرب أكتوبر».

أما آرييل شارون كبير الصقور وصاحب المذابح فقد قال: «في رأيي الشخصي أن المفاجأة الكبرى في حرب عيد الغفران كانت شيئًا جديدًا علينا تمامًا، كان هي الجندي المصري الجديد، لقد كنا في حالة من الذهول لأداء هذا الجندي».

تلك كانت شهادة قادتهم، ونحن نقول إن الفضل في حدوث هذا التغيير الذي أذهل شارون وغيره، يرجع إلى حرب الاستنزاف بداية، ثم للتدريب المعنوي والعملي الشاق بعد ذلك.

ثانيًا: التطعيم القتالي:

لا شك أن السنوات الصعبة التي واجهها المقاتل المصري في جبهة القتال أثناء مرحلة الاستنزاف قد علمته الكثير؛ إذ صقلت قدراته، ونمت خبراته، وعاش سنوات تحت النيران، سواء من قذائف المدفعية أو قنابل الطائرات، كما عبر القناة ليلاً ونهارًا، ونصب الكمائن، وهاجم الدفاعات، ودمر التحصينات، وواجه الغارات الجوية الكثيفة.

كل ذلك كان تطعيمًا عمليًا واقعيًا للمعركة المقبلة، وعندما خاض حرب أكتوبر كان يعلم ما الذي سيواجهه واستعد له، كان قد تعلم أن يتحمل مشاق القتال، ويعيش بين أهوال الحرب، ونتيجة لهذه الخبرات التي صقلت معدنه، اقتحم القناة باقتدار تحت أصعب الظروف فكان المفاجأة الكبرى للعدو والصديق بل وللعالم أجمع.

ثالثًا: جانب التسليح:

أتاحت حرب الاستنزاف لمصر فرصًا كثيرة في مجال تطوير تسليح قواتها في البر والبحر والجو، لمواجهة ما كشفت عنه متطلبات القتال أثناء حرب الاستنزاف، وفي ضوء ما حدث من تطورات عسكرية للحرب بدءًا من التراشق بالأسلحة الصغيرة، مرورًا برشقات المدفعية المركزة، وصولاً إلى الهجمات الجوية.

هكذا أجبرت حرب الاستنزاف إسرائيل على أن تدفع للمعركة معظم ما في جعبتها من أحدث الأسلحة المعدات، خاصة في مجال الحرب الجوية والحرب الإلكترونية، الأمر الذي أتاح لمصر فرصة مواجهة هذه الأسلحة والتعامل معها بنجاح كبير أثناء حرب أكتوبر.

ولا شك أن أعظم ما حققته مصر نتيجة لحرب الاستنزاف، والذي ما كان سيتحقق على هذا المستوى لولا حرب الاستنزاف هو نجاحها الكبير في إقامة نظام متكامل للدفاع الجوي يحمي أراضي مصر، ويغلق سماواتها أمام أحدث طائرات إسرائيل، من خلال شبكة ضخمة من الصواريخ المضادة للطائرات، والمعاونة مع طائرات الدفاع الجوي بقواتنا الجوية، الأمر الذي أدى إلى تحييد التفوق الجوي الإسرائيلي في حرب أكتوبر، فلم يحدث أي اختراق للعمق أو لجبهة القتال.

(6) اللواء أركان حرب محمد محمود السعدني:

في جلسة في أحضان حدائق دار المدرعات، ذكر لي الصديق اللواء أركان حرب محمد محمود السعدني ذكرياته عن حرب الاستنزاف، التي خاضها هو وزملاؤه الأبطال فقال لي:

خضت حرب الاستنزاف بعد أوبتي من خوض حرب 1967م التي أصبت فيها بطلق ناري أصاب كتفي الأيسر في مكمن ويممت وجهي صوب بورسعيد عبر رمال

صحراء سيناء وجبالها ودروبها، ووصلت في اليوم الأخير بعد ثلاثين يومًا سرت فيها على قدمي أبحث عن غذاء أو شربة ماء فلا أعثر عليهما إلا بشق الأنفس.

كانت هذه الحرب حربًا لا هوادة فيها بيننا وبين العدو الإسرائيلي دامت حوالي ست سنوات، دمرنا خلالها العديد من دبابات العدو ومن أسلحته، حيث كنا دائمي الاشتباك مع خطوطهم في السويس وبور توفيق وحوض الدومس بالسويس.

وأشهد أنها كانت حربًا أرهقت إسرائيل كثيرًا، وكانت هي البداية الحقيقية لحرب أكتوبر المجيدة.

(7) اللواء محمد يوسف:

في كتاب الصديق اللواء محمد يوسف الذي عنونه باسم أحداث مصرية واسترداد الكرامة كتب يقول في كتابه هذا: قسمت حرب الاستنزاف إلى مراحل ثلاثة:

المرحلة الأولى: مرحلة الصمود: وهي التي بدأت من تاريخ النكسة حتى شهر سبتمبر 1968م، وكان أهم ما في أحداثها هي الهجمة الجوية المصرية يوم 14 يوليو 1967م والتي فوجئ العدو الإسرائيلي بها، ولسرعة إعداد القوات الجوية المصرية ورفع كفاءة طائراتها ومطاراتها وطياريها وقيامهم بهذه الهجمة الجوية على مواقعهم.

ثم أعقب ذلك إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في أكتوبر 1967م والذي تلاه بالهلع والصدمة لدى الجانب الإسرائيلي، مما أدى إلى قيام الجانب الإسرائيلي بالانتقام بقصف معامل تكرير البترول في الزيتية بالسويس انتقامًا من تدمير أكبر مدمرة في السلاح الجوي الإسرائيلي.

المرحلة الثانية: مرحلة الردع: وهذه المرحلة بدأت في شهر سبتمبر 1968م وذلك بغرض إجهاض العدو واستنزاف موارده وردعه بالقصف المركز بالمدفعية على دفاعاته واحتياطياته القريبة وتدمير دشمه ومراكز قيادة العدو المتقدمة وأسلحته ومعداته.

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستنزاف: وقد بدأت هذه المرحلة في شهر سبتمبر 1969م والتي استمرت حتى يوم 7/ 9/ 1970م حيث تم الاتفاق على وقف إطلاق النار بناء على مبادرة وليم روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت،

وكان من أبرز أحداث هذه المرحلة عمليات عبور قناة السويس بوحدات خاصة، والإغارة على نقط العدو القوية وتنظيم الكمائن، ووصلت هذه الأعمال وتطورت حتى وصل حجم العناصر المشاركة في هذه العمليات من قوة جماعة حتى وصلت إلى كتيبة مشاة مدعمة، ومن أبرز الأعمال في هذه المرحلة عمليات الإغارة المصرية على ميناء إيلات الإسرائيلي وإغراق السفن الحربية فيه.

بدأت شرارة الاستنزاف يوم 1 يوليو 1967م أي بعد أقل من شهر على النكسة، عندما تقدمت المدرعات الإسرائيلية صوب مدينة بورفؤاد لاحتلالها، وقد تصدت لها قوة من الصاعقة المصرية بنجاح في موقعة رأس العش، وكان شهر مارس 1969م أهم مراحل التصعيد العسكري والسياسي بدأ صباح 8 مارس 1969م وامتد إلى 19 يوليو من العام نفسه وتميزت بسيطرة مطلقة للقوات المصرية على خط الجبهة، وعلا فيها دور المدفعية التي صبت نيرانها على حصون خط بارليف والأهداف الأخرى من خلال أربعين ألف قذيفة، واشتركت فيها 34 كتيبة مدفعية.

وظهر يوم 9 مارس 1969م امتدت يد العدو الغادرة من خلال هجوم مباغت استشهد خلالها الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب قواتنا المسلحة خلال تواجده في خط المواجهة في قطاع الجيش الثاني الميداني في منطقة النقطة رقم (6) بالإسماعيلية.

وفي يوم 17 إبريل 1969م نفذت قوات الجيش الثاني الخطة هدير بتوجيه مدافع الدبابات الثقيلة إلى فتحات المراقبة والتسديد لدشم خط بارليف لتخترقها، وتفجرت الدشم من الداخل وقتل الأفراد المتحصنين بها، وتوعد وزير الدفاع الإسرائيلي الجنرال موشى دايان القوات المصرية، وكان الرد الإسرائيلي متوقعًا، حيث أغار يوم 29 إبريل 1969م على محطة محولات نجع حمادي للمرة الثانية، وأسقط عبوات ناسفة زمنية قرب أدفو أصابت بعض المدنيين الأبرياء، وكان الرد المصري مباشرًا وسريعًا وفي الليلة التالية مباشرة، بالإغارة على نقطة جنوب البلاح للمرة الثانية ونسفها الكامل.

وتم تبادل الغارات بين الجانبين، وجاءت الإغارة على نقطة لسان التمساح شرق مدينة الإسماعيلية، وهي النقطة التي استشهد فيها الفريق عبد المنعم رياض، وفي محاولة للثأر قامت القوات الخاصة المصرية بقيادة الشهيد المقدم إبراهيم الرفاعي

بقتل حوالي 30 جنديًا إسرائيليًا، ودمرت دبابتين، ونسفت 4 دشم، وخسرت هذه القوات 9 شهداء، أما الإغارة الأخرى التي أصابت القيادة الإسرائيلية في مقتل، فكانت هي الإغارة على نقطة لسان بور توفيق ليلة 11 يوليو وقتل وجرح 40 فردًا، وتدمير خمس دبابات وأربع دشم، وأسير واحد، دون أن تتكبد القوات المصرية أي خسائر.

وأمام بسالة قواتنا وضرباتهم الموجعة، يقول زئيف شيف المحلل الإسرائيلي في كتابه عن حرب الاستنزاف، أن عملية لسان بور توفيق هي التي أنهت الجدل داخل أروقة القيادة الإسرائيلية، حول حتمية تدخل الطيران في المعركة، ويستطرد: لقد كان هذا النجاح هو أبرز ما حققه المصريون، ومن الواضح أنه كان سيحفزهم إلى نشاط أكبر، لا مناص عن إيقافهم عنه بسرعة.

وأمام الضغط المصري أقدمت القيادة الإسرائيلية على استخدام سلاح الطيران، الذي كانت كل الآراء تصر على الاحتفاظ به للمستقبل، وقد مهدت القوات الإسرائيلية لدفع الطيران بمحاولة التخلص من بعض الرادارات المصرية ونقط المراقبة الجوية؛ لذلك كان القصف الجوي ضد وحدة الرادار المصرية في الأردن يوم 22 إبريل 1969م كذلك إغارة الجزيرة الخضراء، وإغارة الأدبية، ضد نقطة مراقبة جوية منعزلة.

واعتبارًا من 20 يوليو 1969م بدأت المرحلة الثانية من حرب الاستنزاف، اتسعت من خلاله مجالات المواجهة ليشمل مسارح العمليات بالكامل، بعد أن كانت مقتصرة على المسرح البري خلال الفترة السابقة، وتباهى رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال حاييم بارليف، بأنه خلال الفترة من 20 يوليو وحتى 7 سبتمبر 1969م نفذت الطائرات الإسرائيلية (1000) غارة جوية لإجبار مصر على نشر قواتها وتخفيف الحشد في جبهة القناة.

وفي يوم 9 سبتمبر 1969م قامت إسرائيل بإنزال سرية دبابات (ت 55) من مخلفات حرب يونيو في منطقة أبو الدرج على ساحل البحر الأحمر، اتجهت جنوبًا إلى الزعفرانة مدمرة كل الأهداف والسيارات المدنية، وكان رد فعل الإغارة عميقًا في القيادة العامة، لتحديد مسئولية عدم اكتشاف قوة الإغارة أثناء وجودها على الشاطئ الشرقي للخليج قبل تنفيذ العملية، وقد استغلت إسرائيل هذه الإغارة إعلاميًا بطريقة مثيرة، بعد أن

سجلت لها فيلمًا عرضته على الشعب الإسرائيلي، واستمرت العمليات المتبادلة بين الجانبين، واستمرت ضربات قواتنا الموجعة برغم الفارق في الإمكانيات.

انتهى عام 1969م والقوات المسلحة المصرية متماسكة تمامًا، وقد تجاوزت الحاجز النفسي الذي سببته نتائج حرب يونيو، وتخطت حاجز الخوف، وقد نجحت مراحل الاستنزاف في تحقيق أهدافها، أما ذراع إسرائيل الطويلة فلم تتمكن من تحقيق أهداف القيادة السياسية الإسرائيلية، وعلى الرغم من أنها شنت في الفترة من 20 يوليو وحتى نهاية عام 1969م حوالي (3500) طلعة جوية، في مقابل (2900) طلعة جوية مصرية معظمها للحماية والتأمين، ودارت بين القوات الجوية المصرية والإسرائيلية (22) معركة جوية اشتركت فيها (130) مقاتلة إسرائيلية في مقابل (110) مقاتلة مصرية، وقد كانت خسائر المصريين (26) طائرة، وخسائر العدو (14) طائرة، نظرًا للفارق بين نوع الطائرات ومستوى تدريب الطيارين.

أما العمليات البرية الإيجابية الناجحة خلال عام 1969م فكانت (44) عملية ما بين إغارة وكمين، نفذ منها (5) أعمال في عمق إسرائيل، وبينما نفذت إسرائيل (28) عملاً إيجابيًا، منها (16) عملاً في العمق المصري، وكانت خسائر القوات المصرية استشهاد (16) ضابطًا، و(150) رتبًا أخرى، أما الجرحى فكانوا (19) ضابطًا، و(299) رتبًا أخرى، في مقابل (133) قتيلاً، و(320) جريحًا في صفوف القوات الإسرائيلية طبقًا لما صرح به موشى دايان.

وكان واضحًا أمام القيادة الإسرائيلية أن مراحل الاستنزاف المضاد لم تتمكن من تحقيق أهدافها، فالقوات المصرية لم تتشتت في الجبهة لمواجهة أعمال الاستنزاف الإسرائيلية في عمق الصعيد والبحر الأحمر؛ لذلك كان لا بد من التفكير في دخول مرحلة جديدة للاستنزاف، يكون الهدف منها استخدام سلاح الجو الإسرائيلي لقصف العمق المصري بكثافة أكبر؛ لزيادة الضغط على الشعب المصري ودفعه إلى الثورة على قيادته لإيقافه حرب الاستنزاف، وإضعاف نظام الرئيس عبد الناصر أو الإطاحة به، وقد كان مهندس هذه العملية هو الجنرال عزرا وايزمان مدير العمليات برئاسة الأركان وقتها، ووضعت الخطة بريها في رئاسة الأركان الإسرائيلية وعرضت على رئاسة الوزراء وتم التصديق عليها.

وقد بدأ تنفيذ الخطة بريها اعتبارًا من فجر 7 يناير 1970م بطلعة جوية فوق سماء القاهرة، تخترق حاجز الصوت وتحدث فرقعة شديدة لتعلن عن بدء مرحلة جديدة من تصعيد حرب الاستنزاف، وقد شدت هذه المرحلة انتباه المعسكرين الشرقي والغربي في آن واحد، حيث تشترك المقاتلات الأمريكية الحديثة من طراز فانتوم التي حصلت عليها إسرائيل ودخلت للخدمة فعلاً اعتبارًا من شهر سبتمبر 1969م، وكذلك لوجود تشابه بين نظام الدفاع الجوي المصري الجاري إنشاؤه في هذه المرحلة، ونظام الدفاع الجوي لحلف وارسو، وقد استمر القصف الجوي العنيف من الطائرات الحربية الإسرائيلية طوال الأربعة أشهر الأولى من عام 1970م، حيث صرحت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل لصحيفة الفاينانشيال تايمز يوم 6 يوليو 1970م بأن طائراتها كانت تسقط ألف قنبلة على المصريين يوميًا.

ومن أهم العمليات التي قام بها الإسرائيليون خلال شهر يناير 1970م كان الهجوم الفاشل على جزيرة شدوان كرد على مهاجمة القوات المصرية لميناء إيلات الإسرائيلي في شهر نوفمبر 1969م.

(8) محمود رياض[1]:

لقد تميز الصراع كله خلال سنة 1969م/ 1970م بعلامتين بارزتين: حرب الاستنزاف، والاقتراب إلى أدنى نقطة ممكنة من التسوية الشاملة كأسلوب صحيح لتحقيق السلام.

بالنسبة إلى حرب الاستنزاف كانت الخسائر الإسرائيلية فادحة، وكانت التقارير العسكرية والمعلومات التي تصلني عن طريق بعض المصادر الغربية تشير إلى نجاح حرب الاستنزاف في تحقيق هدفها.

وقد سجل «إيبان» وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت: «إن وقف إطلاق النار قد تم استقباله في إسرائيل بشعور من الرضا، وحينما أعلنت مسز مائير في التليفزيون عن وقف إطلاق النار، فإن رد الفعل الشعبي كان يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية

(1) محمود رياض: مذكرات محمود رياض (1948م – 1978م)، ص286، 287.

سلمية.

فنشرات الأخبار لن تبدأ بالصوت الحزين لمذيع الراديو، وهو يذيع أسماء الشباب الإسرائيلي الذي سقط في المعركة، إن خسائرنا في الأفراد القتلى وفي المعدات الثمينة قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة إلينا...».

(9) محمد حسنين هيكل[1]:

في الزيارة السرية التي قام بها جمال عبد الناصر لموسكو في بداية سنة 1970م، وهي الزيادة التي زاد بعدها تواجد السوفييت في مصر بحكم قبولهم لمسئوليات الدفاع عن العمق - كان جمال عبد الناصر يعريف ما يريده وقد حصل:

«كان جمال عبد الناصر يريد أن يحمي الجبهة ببطاريات الصواريخ المصرية، ولكن تركيزها جميعًا إلى الجبهة يترك العمق مكشوفًا أمام الغارات الإسرائيلية التي بدأت تستبيح سماوات مصر بطائرات الفانتوم، وكان اشتراك السوفييت في الدفاع عن العمق - حتى يتم تدريب أطقم مصرية كافية على الصواريخ الجديدة من طراز «سام- 6»- حلاً وحيدًا للمشكلة، وبغيره لم يكن هناك مفر من بعثرة طاقة مصر الصاروخية بين الدفاع عن الجبهة والدفاع عن العمق، والتأخر في استيعاب صواريخ «سام -6» المضادة للطيران المنخفض».

وكان بريجنيف يعارض بشدة؛ لأن اشتراك السوفييت في هذه العملية يؤثر على الموازين الدولية، ويهدد الوفاق، وكان ذلك مطلبًا من مطالب جمال عبد الناصر التي لم يصرح بها لمعارضيه، فقد كان يريد أن يؤثر على الموازين الدولية، كما كان يريد تعطيل حركة الوفاق حتى تتحرك أزمة الشرق الأوسط، وسارت الحوادث في الطريق الذي رسمه جمال عبد الناصر:

* توقفت غارات العمق عندما أحس الإسرائيليون يوم الغارة على الفيوم في 18 إبريل بوجود السوفييت.

* تحركت الولايات المتحدة وبعثت جوزيف سيسكو إلى القاهرة لاستطلاع رأي

(1) محمد حسنين هيكل: كتاب لمصر.. لا لعبد الناصر، ص180-183، 191-192.

جمال عبد الناصر.

* توترت العلاقات بين القوتين العظميين.

* تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التي أشارت لأول مرة إلى الانسحاب من الأراضي العربية، على أساس قرار مجلس الأمن.

* استطاع جمال عبد الناصر إتمام بناء حائط الصواريخ الذي كان عاملاً حاسمًا في نجاح عبور قناة السويس بعد ذلك في أكتوبر 1973م.

* أمكن إعداد بطاريات مصرية مدربة على صواريخ سام -6.

تبقى نقطة هامة ربما لا يعرفها الكثيرون: وهذه النقطة هي أن بريجنيف رجا جمال عبد الناصر أن يتم سحب الخبراء السوفييت المسئولين عن الدفاع عن العمق - قبل بدء المعركة- لأن وجودهم وقتها قد يثير تعقيدات لا حدود لها.

وافق جمال عبد الناصر، وهكذا فإن سحب هؤلاء الخبراء قبل المعركة كان أمرًا متفقًا عليه في اجتماع موسكو في أوائل سنة 1970م.

أقول ذلك وقد كنت بنفسي واحدًا من شهود هذا الاجتماع، وكنت رابع أربعة من المصريين حضروا الاجتماع النهائي لهذه المحادثات، ولقد حضرها كل أعضاء المكتب السياسي السوفييتي وكل ماريشالات الاتحاد السوفييتي، وكان المصريون الأربعة هم: جمال عبد الناصر، والفريق محمد فوزي، والدكتور مراد غالب، وأنا.

وكان جمال عبد الناصر طول الوقت، وفي تلك الفترة الحرجة، شديد الحساسية لأي تجاوز يمكن أن يمس من قريب أو بعيد، في الشكل أو المضمون، باستقلال مصر وحرية إرادتها.

حين جاء الرئيس نيكولاي بادجورني لمقابلة عبد الناصر في شهر يونيو 1967م، والنكسة بعد تنزف جراحها، أحس جمال عبد الناصر أن بادجورني يطلب إنشاء مركز مستقل للأسطول السوفييتي في الإسكندرية، ووجه جمال عبد الناصر كلامه إلى بادجورني على الناحية المقابلة له من مائدة المحادثات، وقال له بهدوء وحزم:

«تسهيلات للأسطول السوفييتي نعم، ولكن مركزا مستقلاً لا، معناها أنني أقبل قاعدة سوفييتية في الإسكندرية، حتى ولو كان هذا المركز مبنى واحدًا من حجرة واحدة..».

وفي مرة أخرى في زيارة يوليو 1970م، دارت مناقشة أمامي بين بريجنيف وعبد الناصر، كان عبد الناصر يطلب خبراء سوفييت، وكان بريجنيف مترددًا، ثم قال بريجنيف ضمن ما قاله من حجج: «إنني أخشى أن يستغل وجود عدد من الخبراء السوفييت في مصر وأن يقول بعضهم إن وجودهم نوع من الضغط أو التدخل في شئون مصر».

وقال جمال عبد الناصر ببساطة: «إنني أنا الذي أطلبهم بنفسي، وإذا أحسست في يوم من الأيام أن وجودهم يشكل نوعًا من الضغط، أو احتمالاً بتدخل منكم في شئوننا الداخلية، فلن أتورع عن أن أطلب إلى الفريق فوزي أن يجمعهم كلهم على باخرة واحدة في الإسكندرية ويشحنهم إليك بطريق البحر إلى أوديسا».

ولم أنس حتى الآن تعبير الدهشة المرتسم على وجه بريجنيف.

ثم مسألة أخرى لا يصح أن تغيب عن بال أحد، تلك هي أن جمال عبد الناصر رفض باستمرار عقد معاهدة مع الاتحاد السوفييتي، وكان قوله لبادرجورني يومًا بالحرف: «إنني على استعداد لعقد معاهدة معكم بشرط واحد هو أن تحاربوا معنا جنبًا إلى جنب... إذا فعلتم ذلك أوقع معاهدة، وإذا لم تفعلوه ولم تكونوا على استعداد له، فما بيننا الآن يكفي».

إن جمال عبد الناصر كتاريخ ملك أجيال قادمة تتاح لها الحقائق كلها، وتخلو نظرتها إلى الوقائع من انفعالات لحظة بعينها، سواء سادها الفرح أو سادها الحزن.

وكانت تلك على سبيل المثال - ومع اختلاف الظروف- قصة نابليون مع فرنسا، لقد مات نابليون والهزيمة من حوله، ومات في المنفى تحت ذل أعدائه، ومضت سنوات وسنوات، وعادت إليه فرنسا تضعه في رأس القائمة من زعمائها الخالدين.

وأتذكر أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو وهو يعقد هذه المقارنة بين نابليون وعبد الناصر ونحن معًا ذات يوم على مائدة غداء في مطعم «لاسير» بباريس، وقال لي مالرو:

«ليست المسألة هي النصر العسكري أو الهزيمة.. المسألة هي إرادة الأمة وتقـديرها للبطل حين تجد نفسها فيه، ولقد وجدت أمتكم نفسها في عبد الناصر بمقدار ما وجدت أمتنا نفسها في نابليون مع اختلاف الظروف، وهذا هو الذي يبقى، وغيره تكنسه الأيام».

▪▪ عبد الناصر يكشف علاقته بالإخوان [1]



1918 - 1970

هل انضم جمال عبد الناصر إلى الإخوان..؟ قضية طرحها شاب فى سؤال إلى «عبدالناصر»، أثناء مناقشاته مع الشباب بمعسكر تدريب قيادات الشباب بحلوان، يوم 18 نوفمبر «مثل هذا اليوم» 1965، وحسب «الأعمال الكاملة لجمال عبد الناصر-المكتبة الأكاديمية»، طلب الرئيس من الشباب أن يتكلموا بصراحة قائلا: «ماحدش ينكسف من حاجة، اللى عايز يسأل يسأل أى سؤال، يهمنى إنى أسمع الأسئلة اللى بتوجه لكم بره، علشان لما تتسألوا تقدروا تجوبوا، وأنا هنظم لكم الأسئلة بدل الورق.. الصف الأول نبتدى من اليمين، مين عايز يسأل..؟

بدأت الأسئلة حول القضايا المطروحة، وسأل شاب: من ناحية حزب الإخوان، يقول بعض الناس إن الرئيس جمال عبدالناصر نفسه كان مشتركا فى هذا الحزب قبل الثورة، فهل هذا صحيح..؟

أجاب عبد الناصر: «أنا قبل الثورة كنت على صلة بكل الحركات السياسية، يعنى مثلاً كنت أعرف الشيخ حسن

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، بتاريخ 18 نوفمبر 2017م.

البنا، لكن ماكنتش عضو فى الإخوان، وكنت أعرف ناس فى الوفد، وكنت أعرف شيوعيين، وأنا باشتغل فى السياسة من أيام ما كنت فى تالتة ثانوى، وفى ثانوى اتحبست مرتين، وأول ما اشتركت اشتركت فى «مصر الفتاة»، ودا يمكن اللى دخلنى فى السياسة، كنت ماشى فى الإسكندرية، ولقيت معركة بين الأهالى والبوليس، اشتركت مع الأهالى، قبضوا على ورحت القسم، بعد ما رحت القسم سألت الخناقة كانت ليه؟ «ضحك وتصفيق»- وكنت فى سنة تالتة ثانوى- فقالوا إن رئيس حزب مصر الفتاة بيتكلم، والبوليس جاى يمنعه بالقوة، قعدت يوم، وثانى يوم طلعت بالضمان الشخصى، رحت انضميت لحزب «مصر الفتاة»، وبعدين سبت «مصر الفتاة» وانضميت للوفد.

وطبعاً الأفكار اللى كانت فى رأسى بدأت تتطور، وحصل نوع من خيبة الأمل بالنسبة لمصر الفتاة، ونفس الشىء حصل مع الوفد، وبعدين دخلت الجيش، وابتدينا نتصل فى الجيش بكل الحركات السياسية، ولكن ماكناش أبداً أعضاء فى الإخوان، والإخوان حاولوا يستغلونا، كانت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار موجودة، وكان معانا عبدالمنعم عبدالرؤوف وكان فى اللجنة التأسيسية، وفى يوم اقترح إننا يجب أن نضم الضباط الأحرار إلى الإخوان، أنا سألته ليه؟ قال: إن دى حركة قوية، وإذا انقبض على حد مننا تستطيع إنها تصرف على أولاده وتؤمن مستقبله، فقلنا له اللى عايز يشتغل فى الموضوع الوطنى لا يفكر فى أولاده، ولا يفكر فى مستقبله، ومش ممكن نسلم حركة الضباط الأحرار، علشان مواضيع شخصية بهذا الشكل، وحصل اختلاف كبير، صمم عبد المنعم عبد الرؤوف، واحنا كلنا رفضنا.

كان طبعاً فى هذا الوقت الشيخ حسن البنا، الله يرحمه، مات، وكانت لى به علاقة قوية، علاقة صداقة ومعرفة، وأنا لوحدى يمكن اللى كان لى علاقة بحسن البنا، لكن كنت بقول لإخواننا على الكلام اللى بيحصل معاه، وكان لهم تنظيم فى داخل الجيش، وكان يرأس هذا التنظيم ضابط اسمه أبو المكارم عبد الحي.

قامت الثورة، وفى أول يوم جالى بالليل عبدالمنعم عبدالرؤوف ومعاه أبوالمكارم، وطلبوا إن احنا نديهم أسلحة علشان الإخوان يقفوا مع الثورة.وأنا رفضت، وقلت إن احنا مستعدين نتعاون، وبدأ التعاون، قلت لهم يشتركوا فى الوزارة بعد كده، ورشحوا عدد من الناس، ولكن جه بعد كده تصادم، اتحلت الأحزاب كلها وماحلناش الإخوان،

و بعد حل الأحزاب وعدم حل الإخوان، جالى ثلاثة من الإخوان وقدموا لنا شروط، الشرط الأول: ألا يصدر قانون إلا إذا أقره الإخوان، والثانى: لا يصدر قرار إلا إذا أقره الإخوان، أى بمعنى أوضح أن الإخوان يحكموا من وراء ستار، ورفضنا هذه الشروط.

قبل كده قابلت حسن الهضيبى، مرشد الإخوان، فى بيته بمنشية البكرى على أساس تنسيق التعاون بيننا، وطلب منى أولاً: إن أنا أعلن الحجاب فى البلد كلها، «وإن السيدات كلهم يمشوا محجبات زى اليمن يعنى، وأقفل المسارح والسينمات»، إلى آخره، قلت له: أنا مش فاهم أعمل الكلام دا ليه؟ والناس يقولوا رجع الحاكم بأمر الله، يقولوا إن فيه حاكم مجنون، لا يمكن قبول هذا الكلام.

كان صلاح سالم -الله يرحمه- له نسايب ساكنين فوق الهضيبى، وأنا كنت باروح له كثير، وبشوف عيلة الهضيبى، فقلت له: إنت طالب منى أعلن الحجاب، وعندك بنت فى كلية الطب مش لابسة حجاب ولا حاجة، وبتروح الكلية تحضر التشريح، ولابسة زى البنات فى كلية الطب، فإذا كنت أنت مش قادر تعمل الحجاب فى بيتكم، عايزنى أنا أعمل حجاب فى الدولة المصرية كلها إزاى؟! «تصفيق»، بعد كده بدأ تصادم بيننا، وبدأت المؤامرات، مؤامرات الاغتيال، ومعروف حكاية 54، وإزاي قرروا اغتيالي فى الإسكندرية.

■■ العرب وعبد الناصر



1918 - 1970

في كتابه «ملفات السويس» كتب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» عن العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956م يقول: «كان قادة الغزو العسكري في لندن وباريس وتل أبيب يرددون أن الخبرة السياسية تؤكد أنه في اللحظة التي يتم فيها توجيه الإنذار لمصر ثم يلحق به القصف الجوي، فإن مصر سوف تستسلم وأن القيادة السياسية سوف تنهار؛ لأن الجماهير المصرية المصابة بالفزع ستخرج إلى الشوارع في مظاهرات ضد حكومتها، وسوف تحطم وتحرق وينتهي كل شيء في مصر قبل أن يبدأ الغزو الفعلي..!!

ولا بد من الاعتراف بأن تقديرات قادة الغزو لم تكن خاطئة في مجملها..!! فلقد أصاب الفزع عددًا من الساسة القدامى، واجتمعوا في عجل بمنطق إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ورأى بعضهم بضرورة تأليف وزارة تستطيع التفاوض مع الإنجليز، كما رأى بعضهم بضرورة أن يترك العسكريون الحكم للمدنيين، وأن يذهبوا إلى وحداتهم حتى «نثبت للعالم أننا نجد ولا نهزل ونفعل ولا نقف عند الكلام وشقشقة اللسان».. هكذا قالوا..!!

***

وعندما بدأت الغارات الجوية على مصر في يوم 30 أكتوبر 1956م هرع «جمال عبد الناصر» إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، وكان مكتب السيد «عبد الحكيم عامر» حينما دخل إليه جمال عبد الناصر مزدحمًا بعدد من الزوار بينهم بعض أعضاء مجلس الثورة القدامى وعدد من الوزراء وعدد من قادة القوات المسلحة، وكان الجو مشحونًا بالقلق والعصبية، ونتيجة لهما احتدت الآراء وانقسمت.

دعاة الواقعية السياسية

وبين هذه الآراء ظهر رأي تبناه أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو المرحوم صلاح سالم، وكان محكومًا بالمنطق الواقعي، الذي وجد مصر تواجه ثلاثة أعداء في وقت واحد، بينهم اثنان من القوى الكبرى، وهو حجم من القوة لا قبل لمصر بمواجهته، ومن ثم فقد اقترح صلاح سالم بأسى وحزن أنه لا خيار أمام جمال عبد الناصر غير الاستسلام وبسرعة، قبل أن يتمكن الطيران المعادي من تدمير مرافق مصر الحيوية وتمزيق جيشها وتهديم مدنها.

وفي اللحظة التي دخل فيها جمال عبد الناصر القاعة كان صلاح سالم يشرح رأيه الواقعي، ولما يتراجع صلاح سالم عما كان يقوله، وإنما كرره أمام جمال عبد الناصر، وأضاف إليه إنك قمت بخدمة عظيمة لهذا البلد وضحيت كثيرًا من أجله، والآن فقد كتبت عليك المقادير أن تضيف لتضحياتك تضحية أخرى وأن تقبل تسليم نفسك، إن «إيدن» أعلن في خطابه أن الحرب تستهدفك أنت وليس الشعب المصري، فإذا عرفوا إنك على استعداد لتسليم نفسك توقفت الحرب على الفور، ثم استطرد صلاح سالم قائلاً: إنه يعرف أن السير «همفري تريفيليان» السفير البريطاني في القاهرة لم يغادرها بعد، وإذا توجه جمال عبد الناصر لمبنى السفارة وسلم نفسه فإن ذلك كفيل بحل الأمور.

ولم يفقد جمال عبد الناصر أعصابه لهذا الذي سمعه، فقد أدرك أن أبعاد الموقف أهم من أي اعتبار يتعلق بالأشخاص، ومضى يشرح وجهة نظره فقال: «إنه لو كان يعرف أن المعركة هي شخصه لا تتعدى بأي وسيلة عن مسرح الحوادث، ولكن المستهدف هو مصر وشعبها، وإذا لم يقف الشعب المصري في هذا الموقف ويخوض المعركة دفاعًا عن وطنه ومستقبله، فإن مصير الأمة العربية كلها يصبح معرضًا للضياع.

وكما رفض الرئيس عبد الناصر استقبال الساسة القدامى التقليديين والقبول بمنطق «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، فقد رفض في الوقت ذاته منطق صلاح سالم من الساسة الجدد، وتصرف تصرفًا يتفق مع شخصيته وفهمه لشعبه وأمته وتاريخها، ففي اليوم التالي مباشرة أي الجمعة 1 نوفمبر كان عبد الناصر يعتلي سيارة جيب مكشوفة لأداء صلاة الجمعة في وسط الناس.

وقد كانت محطات الإذاعة الرئيسية قد ضربت بالقنابل لإسكات صوت مصر، وطلب جمال عبد الناصر تحويل كل الإذاعات إلى الموجات الإضافية الباقية، وكان أول ما سوف يذاع هو صلاة الجمعة بما فيها خطابه للمصلين بعد انتهاء شعائر الصلاة، ووقف جمال عبد الناصر على منبر الأزهر ليعلن بصوت مشحون: «إننا جميعًا سوف نقاتل ولن نستسلم، وسوف أقاتل معكم إلى آخر قطرة من دمي، وسوف يقاتل كل الشعب الذي أصبح السلاح في يده جنبًا إلى جنب مع الجيش».

وعندما خرج جمال عبد الناصر من الأزهر كانت الجماهير قد تدفقت إلى طريق موكبه في صيحة واحدة مدوية «حنحارب.. حنحارب»، وهي الصيحة التي أصبحت شعار تلك الأيام الوحيد، الصيحة التي جمعت الشعب المصري والشعب العربي على هدف واحد اكتسح أمامه صدمة المفاجأة، التي وجدت فيها مصر نفسها تواجه في ميادين القتال اثنتين من القوى الكبرى ومعهما إسرائيل.

نعم كان جمال عبد الناصر يتمتع بذلك «الإيمان الصوفي المطلق» الذي كان يتمتع به الجنرال ديجول بأنه يجسد في شخصه قيم الكرامة والحرية التي تختزنها أمته، وأن الشعب العربي قادر على على المقاومة وأن المسألة - كما قال هو نفسه- مسألة ثقة في الشعب بالدرجة الأولى، هذا الأمر (الثقة بالشعب) لم يستطع أن يدركه الساسة القدامى أو الجدد أو يدخلونه في حساباتهم وهم يطالبون جمال عبد الناصر بتسليم نفسه للغزاة عندما بدأت غارات الطائرات البريطانية والفرنسية عام 1956م تحت دعوى «إنقاذ ما يمكن إنقاذه».

ما فهمه عبد الناصر ولم يفهمه هؤلاء، إنه من السهل على القيادات أن تنقذ الجسور والمصانع والسدود من الانهيار والسقوط، ولكن من الصعب عليها إنقاذ الأمة إذا ما

انهارت كرامتها وسقطت إرادتها، إنه نفس الدرس الذي يتكرر يوميًا في حياة الأمة العربية، ويعمق من الهوة السحيقة بين قيادة من نوع جمال عبد الناصر (قيادة من العيار الكبير شعبيًا وتاريخيًا) وبين الآخرين الذين يدعون قيادة باطلة أو زعامة هوجاء.

لقد كان جمال عبد الناصر هو الزعيم العربي - الوحيد ربما- الذي أدرك مبكرًا دلالة «الركود التاريخي» للمجتمعات العربية، وحاجة هذه المجتمعات للتخلص من موروثات عهود الاحتلال والحكم الأجنبي، وما أفرزه من قيم الخوف من الحاكمين والتقوقع على الذات، وعدم المبالاة، والهروب من مواجهة الظالمين، فلقد توالى على حكم مصر قائمة طويلة من الحكام الأجانب منذ عام (525 ق.م)، بدأت بالفرس وانتهت بالإنجليز طوال ألفين وخمسمائة عام.

ولعل طبيعة اقتلاع الحكم الأجنبي من خلال تلك السنين على يد قوة أجنبية أخرى، لا على يد الشعب - رغم محاولاته المتعددة للتمرد- كان مسئولاً عن تكريس قيم الخوف والتجاهل وعدم المبالاة، وقد تكر هذا النوع من القيم بصفة خاصة خلال عصر المماليك.

لقد ذكر عبد الناصر في فلسفة الثورة كيف أن المصريين كانوا يهرعون إلى بيوتهم حينما تنشب المعارك في الشوارع والميادين بين المماليك، ويقفلون أبوابهم على أنفسهم، ويصعدون إلى أسطح المنازل لكي يشهدوا نتيجة المعركة، ومنها يعرفون اسم حاكمهم الجديد.

كانت المعارك تدور ويتصرف المصريون إزائها كأن «لا ناقة لهم فيها ولا جمل»، ومن هنا تولدت قيمة عدم الاكتراث بالمسائل العامة، وارتبطت بذلك قيمة أخرى وهي ممالاة الحاكم والتظاهر بطاعته إلى أن يُقتل أو يموت، ويقول عبد الناصر في فلسفة الثورة: «إن الطبقة الحاكمة الأجنبية لم تكتف بامتصاص دماء المصريين، وإنما حاولت أن تجتث من عروقهم أي إحساس بالكرامة[1]».

لقد وضع عبد الناصر يده على موضع الداءالأساسي في الشخصية العربية: الكرامة المجروحة تاريخيًا بسبب الغرب الاستعماري المتفوق وضغوط أعوانه من المستبدين.

(1) مصر في ربع قرن (1952-1977)، معهد الإنماء العربي.

يقول عبد الناصر: «إن العزة والكرامة كانتا دائمًا جزءًا من الشعب، وإننا إذ نقول إن هذه الثورة أقامت العزة وأقامت الكرامة، إنما نعني أن هذه الثورة ثبتت العزة والكرامة وجعلتهما حقيقة واقعة؛ لأن هذا الشعب كافح طويلاً من أجل عزته، ومن أجل كرامته، واستشهد منه من استشهد، وشرد من شرد من أجل هذه الكرامة، التي كنا نراها دائمًا في الصدور، وكنا نراها في النفوس التي كانت تمثيلاً خفيًا أو ظاهرًا في كل فرد من أبناء الوطن[1].

لقد لمس جمال عبد الناصر مبكرًا طبيعة المأساة الماثلة في الشخصية العربية، وهي انجراح الكرامة الوطنية، والإحساس الدفين بالدونية تجاه الغرب المتفوق، ففي حديث له في المؤتمر الوطني بجامعة القاهرة يوم 3 ديسمبر 1953م نراه يقول: «إن العامل الأول للحرية هو التجرد التام من روح الاستعباد وروح الخوف والفزع، ويجب أن يكون الحاكم والشعب قوتين متعادلتين، فإذا لم يكن الشعب قويًا فإن الحكم لا يكون عادلاً.

ولكي يكون الشعب قويًا يجب أن يكره الاستبداد وينفر من الاستعباد ولا يعرف للخوف والفزع معنى»، إن عبد الناصر يحدد هنا الخطوة الأولى كي يدرك الشعب عناصر كرامته الوطنية، وهو كره الاستبداد ورفض الاستعباد، ولكن الإحساس بالكرامة الشخصية والوطنية قد يكون غريزيًا، وقد يؤدي في حالات معينة إلى سلوكيات مشوهة وسلبية.

إن جهد عبد الناصر التاريخي تمثل في محاولاته الدؤوبة نقل الجماهير العربية من مستوى الإحساس الغريزي بالكرامة، «الكرامة التي كنا نراها دومًا في الصدور والنفوس، الكرامة التي كانت تمثيلاً خفيًا في كل فرد من أفراد الأمة».

كيف يمكن نقل الجماهير إلى مستوى الوعي الفعال بالكرامة..؟

يقول عبد الناصر في خطاب له بفرع هيئة التحرير بالوايلي يوم 7 ديسمبر 1953م: «إننا نلقي جميع الأوزار على الحكام السابقين وحدهم، وأريد أن أقول إن أي حاكم إذا

(1) خطبة جمال عبد الناصر: حفل تخريج دفعة من كلية أركان حرب، 29 نوفمبر 1954م.

تـُرك وحده لن يستطيع أن يتغلب على نزعات نفسه والنفس أمارة بالسوء؛ ولهـذا يجـب أن يكون الشـعب متيقظًـا متسـلحًا بالمعرفـة، إننـا نريـد لهـذه الأمـة أن تكـون مصـدر السلطات، وهذا لن يتأتى إلا بالمعرفة والتيقظ ومعرفة كل فرد حقوقه وواجباته».

المعرفة أو الوعي الموضوعي بالكرامة وعناصرها هو السلاح الثاني الـذي اسـتعمله جمال عبد الناصر في تحريـك الجمـاهير وخلخلـة ركودهـا التـاريخي بتـأثير الاسـتبداد والاستعباد، لكن الوعي بالكرامة وعناصرها الوطنية لم تكن تعني لدى جمال عبد الناصـر أناشيد وطنية وخطب حماسية أو «شقشقة لسان» كما ادعى الساسة القدامى.

لقد أدرك عبد الناصر إنه لا يمكن إيقاظ الوعي الجماعي بالكرامـة الوطنيـة وتنميتـه إلا من خلال حشد الجماهير في مواجهات ومعارك متصلة، من خلال المعارك المتتالية كان عبد الناصر يقود الشعب العربي غير مبال بحسابات النصر أو الهزيمة، فالشعوب لا تتعلم الكرامة في الكتب، ولا تـتلقن مبادئهـا عبـر الإذاعـات، إنهـا تمارسـها في ميـادين المعارك وفي ساحات المواجهة، فالنصر يزيد من ثقة الشعوب في نفسها ويحفزهـا عـلى اجتراح المستحيلات، والهزيمة تـُظهر معدنها وتشـحذ مقاومتهـا مادامـت تـدافع عـن قضايا عادلة، وعن مصلحة قومية.

من هذا المنظور الشخصي جدًا أدعي أن حقبة عبـد الناصـر كانـت حقبـة المعـارك الكبرى من أجل الكرامة الوطنية، وفي اعتقادي أن استراتيجية عبد الناصر القتالية تلك لم تخب – ولو مرة واحدة– في توقع رد الفعل الشعبي حتى في لحظات الهزائم.

المحارب لا يهدأ

منـذ اللحظـة الأولى لظهـوره وحتـى الدقيقـة الأخيـرة في حياتـه كـان عبـد الناصـر المحارب الذي لا يهدأ لتأسيس وعي عربي جديد ومخالف عما سبقه، لقد كانت أفكار الوحدة العربية والقومية العربية موجودة قبل عبد الناصر، وترفع شعاراتها أحزاب عربية كحزب البعث والقوميين العرب، ولكن القوميـة العربيـة تحولـت مـع عبـد الناصـر إلى معارك يومية ضد أعدائها: الاستعمار، الرجعية العربية، الشعوبية.

إن عبد الناصر لم يكتف بالخطب الحماسية وترديد الشعارات، بل كان يقود الشـعب في معارك حقيقية، معركة الأحلاف الأجنبية، معركة السويس، معركة الوحدة مع سـوريا

وقيام الجمهورية المتحدة، معركة الانفصال، معركة الجزائر، معركة اليمن، معركة بناء السد العالي، معركة بناء الاشتراكية، معركة الحصار الاقتصادي، معركة إزالة آثار العدوان، معركة الاستنزاف، معركة فلسطين ودعم المقاومة الفلسطينية، لقد كان جمال عبد الناصر في كل هذه المعارك يؤسس لوعي عربي جديد ومخالف تمامًا للوعي العربي التقليدي الركودي العشائري القبلي الطائفي المحافظ.

حلم العدالة الاجتماعية

كانت الحرب العالمية الثانية فرصة تاريخية للرأسمالية المصرية لزيادة أرباحها بسبب ظروف الحرب، وما تطلبه الجهد التعبوي للحلفاء، وبشكل خاص بريطانيا، لتموين وإمداد الجيوش بمتطلباتها من دول المستعمرات، واستفادت الرأسمالية المصرية من ظرف الحرب لتطوير نفسها، فارتفعت القيمة الإجمالية للاستثمارات الموظفة في الشركات التجارية والصناعية من 86 مليون جنيه إلى 106 ملايين جنيه.

وإذا أخذنا عام 1930م كعام أساس للحساب، وعام 1947م كمقياس للتطور بسبب الحرب، سنجد أن إجمالي الإنتاج الصناعي قد زاد من 13 مليونًا إلى 18 مليونًا، بينما هبط الإنتاج الزراعي من 54.1 مليون جنيه إلى 43.6 مليون جنيه خلال نفس الفترة[1].

21: وزادت بالتالي أرباح الرأسماليين، فقد زادت الأرباح التي وزعتها الشركات على حاملي الأسهم من 7.5 مليون جنيه إلى 20 مليون جنيه بين عامي 1942م إلى 1946م، وفي الريف ازدادت القيمة الإيجارية للأراضي الزراعية المؤجرة من كبار الملاك إلى الفلاحين من 35 مليون جنيه إلى 90 مليون جنيه، كان (6٪) فقط من ملاك الأراضي الزراعية يسيطرون على (65٪) من جملة الأراضي المزروعة، بينما (94٪) من جملة المزارعين يسيطرون على (35٪) فقط من الأراضي الزراعية.

ورغم أن الحرب العالمية الثانية قد أدخلت الثراء لغالبية الرأسماليين والتجار، إلا إنها قد جلبت الخراب لغالبية المصريين من العمال والفلاحين، فلقد أصبح الدخل

(1) د. أنور عبد الملك: المجتمع المصري والجيش، مرجع سبق ذكره، ص48.

السنوي للمصري العادي 9.5 جنيه في الأعوام 1950-1953م، بينما كان هذا الـدخل 10.2 جنيه عام 1939م عند اندلاع الحرب، أي إنه هبط بمعدل (7٪)، لقد كانت حياة المصريين العاديين تنوء تحت أهرامات من الظلم يعود إلى آلاف السنين[1].

حلم الاشتراكية

23: وعندما أطلق عبد الناصر شعار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، فقد كان ذلـك يعني لديه ولدى الجماهير العربية، معـارك متعـددة مـع الإقطـاع والرأسـمالية والقـوى الرجعية التقليدية في كـل الأقطـار التـي كانـت تخشـى انتقـال العـدوى الاشـتراكية إلى مواطنيها، معركة توزيع أراضـي الإقطـاعيين عـلى الفلاحـين المعـدمين، معركـة تـأميم الشركات الرأسمالية وإشراك العمال في الأرباح.

لقد كانت الأفكار الاشتراكية موجودة في العالم العربي بتنويعات مختلفـة، بـدءًا مـن الأشكال المتطرفة كالحزب الاشتراكي (مصر الفتاة سابقـًا) الذي أسسه أحمد حسـين في مصر، انتهاءً بالأحزاب الماركسية المنتشرة بدرجات متفاوتة في الأقطار العربية، مـرورًا بالاشتراكية العربية المثالية الإصـلاحية، التـي كـان يعبـر عنهـا حـزب البعـث العربـي الاشتراكي في المشرق العربي، ولكن دخول عبد الناصر معركبة تأميم الشركات الكبرى المصرية والأجنبية، ثم معركة بناء القطاع العـام الـوطني (فيمـا عُـرف بمعركـة التنميـة المستقلة) كان كفيلاً بإعطاء مفهوم «الاشـتراكية» محتـواه العمـلي والقتـالي مـع النظـام الرأسمالي العالمي ومع الرأسمال المحلي والبيروقراطية.

لذلك يمكن القـول بـأن كـل الفكـر الاشـتراكي، الـذي كُتـب ونـُشر خـلال عقـد الستينيات كان في معظمه إمـا حـوارًا أو جـدلاً أو رفضـًا لتجربـة عبـد الناصـر في بنـاء الاشتراكية، ومن يعود لجدل هذه الحقبة سيجد مناظرات ومعارك فكرية وسياسية حول مفاهيم، مثل سيطرة العمـال عـلى مجـالس إدارة المنشـآت الاقتصـادية، حـول الطبقـة الجديدة، حول الثورة والثورة المضادة، حول الاشتراكية العربية والاشـتراكية العلميـة، حول الطليعة العربية ووحدى القوى التقدمية، حول الوحدة العربيـة وهـل هـي وحـدة اتحادية أم وحدة اندماجية، حول الثورة الثقافية، إلى آخره.

---

(1) د. أنور عبد الملك: المجتمع المصري والجيش، مرجع سبق ذكره، ص49.

وهم الديمقراطية الليبرالية

يتغنى الكثيرون الآن بدستور 1923م والمرحلة الليبرالية، التي سبقت ثورة يوليو عام 1952م، ولكن هؤلاء يتعمدون تجاهل كثير من الوقائع التاريخية التي تحتاج إلى إجابات جدية.

أولهما: على سبيل المثال: أنه خلال السنوات بين 1923م، و1952م أي ما يقرب من 30 سنة لم ينجح حزب الوفد من حكم مصر سوى سبع سنوات رغم إنه حزب الأغلبية، بينما تسلمت حكم مصر ما تسمى بأحزاب القصر المدة الباقية، حزب الاتحاد بزعامة حلمي عيسى باشا، وحزب الشعب بزعامة إسماعيل صدقي باشا، وحزب كبار ملاك الأراضي (الحزب الدستوري الذي أسسه محمد محمود باشا، ثاني أكبر مُلاك الأراضي الزراعية بعد الملك)، والحزب السعدي الذي أسسه محمود فهمي النقراشي وأحمد ماهر عام 1937م، وهو حزب الفئات العليا من الطبقة الوسطى، وتسلمت هذه الأحزاب حكم مصر بالاتفاق مع قصر عابدين والسفارة قصر الدوبارة.

وثانيها: إن من يتغنون بالفترة الليبرالية لا يذكرون شيئًا البتة عن واقعة إلغاء دستور 1923م نفسه وتعطيله في الفترة من 1930م حتى 1935م على يد إسماعيل صدقي باشا، رئيس الوزراء عام 1930م، وهو نفسه كان رئيس اتحاد الصناعات المصرية، الذي يُعتبر ممثل للرأسمالية الصناعية المصرية، ألا تمثل تلك خيانة من الرأسمالية المصرية العليا للقيم الليبرالية والديمقراطية التي تتشدق بها..؟!!

وثالثها: أن كثيرًا ممن يتغنون بديمقراطية ما قبل ثورة يوليو لا يفسرون واجهة قبول حزب الوفد للحكم بعد حادثة 2 فبراير 1942م، فحزب الوفد هو حزب الأغلبية الشعبية، وهو الابن الشرعي لثورة 1919م المناوئة للإنجليز والاحتلال.

ولماذا وكيف قبل هذا الحزب بالذات أن يأتي للحكم في فبراير 1942م تحت فوهات ومدافع ودبابات الإنجليز وهي تحاصر قصر عابدين، وتفرض الحزب على الملك..؟!!

لماذا قبل مصطفى النحاس رئاسة الحكومة بطلب من الإنجليز ودون انتخابات

ديمقراطية، في مظهر عنيف من مظاهر انتهاك السيادة المصرية، فأودت بثقة الجماهير في حزب الوفد وقيادته..؟!!

وكانت خاتمة المشهد في 25 يناير 1952م حينما اتجهت مصفحات ومدفعية الجيش الإنجليزي المرابط في منطقة القناة نحو مبنى محافظة الإسماعيلية، وجرت معركة كبيرة طوال يوم الجمعة بين القوات البريطانية وقوات الشرطة المصرية غير المتكافئة معها، لينتهي النهار باستشهاد 150 جنديًا مصريًا، وكان حريق القاهرة وما بعده معروفًا للجميع.

كان النظام الملكي يحتضر، وكانت الأحزاب السياسية المصرية تحتضر، وكان يجب تغيير المسرح ودفن المحتضرين..!!

والسؤال الجارح: الآن وبعد ما يقرب من نصف قرن على رحيل عبد الناصر، ومرور أربعة عقود من التحول للتعددية الحزبية في مصر (1977م) وأربعة عقود من الرأسمالية والسوق الحرة: هل يمكن الحديث عن تجربة ديمقراطية حقيقية أو تعددية حزبية ناجحة في مصر أو غيرها..؟!!

عصر غير العصر

في مواجهة ذلك العصر ماذا يدور في عصرنا من جدل سياسي وثقافي..؟

إنه يدور حول مسائل من نوع: نطبع العلاقات مع إسرائيل أو لا نطبع..؟ نعطي إعانة بطالة للعمال أو نتركهم لقوانين السوق وضروراته..؟ نلغي التعليم المجاني أو نعمم التعليم بالفلوس..؟ نخصص القطاع العام كله أو نبقي على جزء منه..؟ من يستحق المعونة الأمريكية مصر أم إسرائيل..؟ نفتح للمرأة مجالات العمل وحصولها على المناصب الوزارية أم نجعلها قعيدة البيت والنقاب..؟ إلى آخره، إن مجمل قضايا عصر عبد الناصر تتناقض مع مجمل قضايا عصرنا، وهو أمر يوضح حجم الارتداد الذي شهده عالمنا العربي خلال أربعة عقود منذ غياب عبد الناصر وانتهاء عصره.

الخاتمة

مهما كانت الأخطاء أو السلبيات التي شابت تجربة عبد الناصر، ومهما كان حجم

الهزائم التي مني بها مشروعه التاريخي، إلا أن حلم المساواة والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية تبقى في الصدور والنفوس ولا يمكن اقتلاعها، لقد كان سهلاً عليهم الانقضاض على منجزاته المادية بعد وفاته إنجازًا بعد الآخر، ولكنهم سيظلون عاجزين عن نزع إنجازه الرائع الذي زرعه في قلوب الشعب العربي، بعث الكرامة العربية.

إذا كان عبد الناصر قد نجح في شيء، فقد نجح في تثبيت أفكار كانت تعتبر في السابق ضربًا من «اليوتوبيا»، أفكار مثل: إمكانية قيام تجربة وطنية للبناء الاشتراكي، إمكانية قيام دولة وحدة اندماجية بين قطرين عربيين، إمكانية مواجهة الاستعمار والمشروع الصهيوني، إمكانية إخراج الجماهير العربية من ركودها التاريخي.

لقد صارت تلك الحقائق في تاريخنا العربي؛ ولأنها كذلك، فسيظل من الممكن استعادتها، فتاريخ الشعوب هو تاريخ الانتصارات والهزائم، والفشل ليس سوى لحظة في حياة الشعوب.

سيظل عبد الناصر باقيًا، أما خصومه وأعداؤه فيذهبون إلى النسيان..!!

▪▪ حرب الاستنزاف ... في التاريخ



1918 - 1970

كانت حرب شعواء ضربت إسرائيل في مكمنها ولم تجعلها تغمض عينيها ليلاً أو نهارًا . أعادت الثقة في قلوب المصريين أن النصر آت لا ريب فيه.

عندما يتكلم موشيه دايان نجم العسكرية الإسرائيلية عما خططه عبد الناصر في حرب الاستنزاف، وما حققته القوات المسلحة المصرية على أرض سيناء المحتلة أو في مجالات أخرى فيما بين عامي 1967م و1970م، فإن شهادته لا بد أن تكون دليلاً دامغًا على تلك الحرب الضروس التي أكدت للقادة الإسرائيليين أن ما وقع في يونيو 1967م كان استثناء من قاعدة لا يمكن تجاهلها، وهو الاستثناء الذي حاولت الدعاية الإسرائيلية أن تصوره على أنه قاعدة لا تقبل الجدل.

وبحكم أن دايان شغل منصب وزير الدفاع الإسرائيلي منذ عام 1967م وحتى عام 1974م، أي في الفترة التي وقعت فيها حرب يونيو 1967م، وحرب الاستنزاف (1967م - 1970م)، وحرب أكتوبر 1973م، فكان من الطبيعي أن يصبح رمزًا لتسلط فكرة المؤسسة العسكرية على المجتمع الإسرائيلي، ومسؤولاً عن إدارة الأراضي العربية من خلال

الحكم العسكري، وتنفيذ سياسة إسرائيل فيها، خاصة تلك التي تتمثل في أسلوب العقاب الجماعي، ونسف المنازل، وتبني سياسة الجسور المفتوحة، وإنشاء مزيد من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة[1].

وشخصية بهذا الثقل المحوري عندما تعترف بوطأة حرب الاستنزاف المصرية على الدولة الإسرائيلية برمتها، وذلك برغم الانتصار الخاطف الذي حققته وجعلها تعيش حقائق أروع من الأحلام، فإن مثل هذا الاعتراف يؤكد بما لا يقبل الجدل أن عبد الناصر استطاع أن يحيل أحلام إسرائيل السعيدة إلى كوابيس مريرة، حاولت القيادة الإسرائيلية أن تخفيها بقدر الإمكان بعيدًا عن أعين المجتمع الإسرائيلي، وذلك خلف ستار من الدعاية البراقة التي سعت إلى غسيل المخ الإسرائيلي وتضليله حتى لا تنكشف حرب الاستنزاف بحقائقها المرعبة.

فقد خصص دايان الفصل السابع والعشرين من مذكراته لحرب الاستنزاف التي يرى إنها بدأت في أعقاب حرب يونيو 1967م بأشهر قليلة، ويعترف منذ أول سطر بأنه سرعان ما تأكد أن السلام مايزال بعيدًا، برغم أنه في الأيام الأولى التي أعقبت الخامس من يونيو، كان واثقًا من إصرار الشعب المصري على رفض تنحي عبد الناصر واستمراره في موقع القيادة حتى النصر، لم يكن سوى إجباره على الاستسلام لإسرائيل وشروطها التي ستمليها عليه، فلم يكن هناك بديل آخر أمامه، لكن بعد نصف عام فقط يجد دايان نفسه مضطرًا إلى الاعتراف قائلاً:

«كان نصف عام قد مر على حرب الأيام الستة، وكان يبدو واضحًا أن السلام ما يزال بعيدًا، فإن واشنطن كانت قد أبلغت عبد الناصر أن إسرائيل مستعدة للانسحاب إلى حدود معترف بها دوليًا، في نطاق اتفاقية سلام مع مصر وسوريا، لكن الرئيس المصري لم يتراجع عن معارضته العنيدة لوجود إسرائيل بالذات، فالاستنتاج الذي استخلصه من هزيمة بلاده عسكريًا، كان وجوب إعادة بناء الجيش المصري، وتجنيد العالم العربي كله، في النضال ضد دولتنا».

هكذا أيقظ عبد الناصر إسرائيل من نشوة الخامس من يونيو 1967م وأحلامها

(1) د. نبيل راغب: ناصر 67 شهادة إسرائيلية، مكتبة المدبولي، القاهرة.

السعيدة، لتتأكد أن مصر قد خسرت مجرد معركة خاطفة في مواجهتها، وأنها لا تزال قادرة، سياسيًا وعسكريًا، على مواصلة الصراع المصيري حتى نهايته برغم خسائرها الجسيمة والفادحة في يونيو 1967م، وكان دايان يتابع بذهول ما يفعله عبد الناصر الذي ظنت إسرائيل أنها استطاعت أخيرًا أن تقضي عليه قضاءً مبرمًا، ذلك أنها لم تدرك أن جذوره في العالم العربي بهذا التعمق والرسوخ والتشعب، وكان مؤتمر الخرطوم في أغسطس 1967م مفاجأة، ليس لإسرائيل فحسب بل للعالم أجمع، فقد أثبت أن المحنة كانت بمثابة البوتقة التي انصهر فيها المعدن العربي النفيس، فالتف الشعب العربي كله حول الزعيم الذي عاش معه أحلى انتصاراته، يقول دايان:

«في 29 أغسطس 1967م، انعقدت في الخرطوم قمة، حضرها زعماء 11 بلدًا عربيًا: مصر، العراق، الأردن، لبنان، السعودية، الكويت، ليبيا، السودان، تونس، المغرب، الجزائر، ولم تتمثل سوريا، لكن منظمة التحرير كانت هناك، ونزولاً عن رغبة عبد الناصر تبنى المؤتمر المبادئ الأساسية، اللاءات الأربع الشهيرة، لا للسلام مع إسرائيل، لا اعتراف بإسرائيل، لا تنازل عن الحقوق القومية للفلسطينيين، لا مفاوضات مع إسرائيل، كما أبدت الدول المنتجة للنفط لعبد الناصر أنها ستستمر في مساعدة مصر، وستعوضها عن خسائرها الناتجة عن إغلاق قناة السويس، فتعهدت العربية السعودية بأن تساهم سنويًا بمائة وعشرين مليون دولار، والكويت بمائة واثنين وثلاثين مليونًا، وليبيا باثنين وسبعين مليونًا».

هذا على المستوى العربي، أما على المستوى الدولي فقد تأكد الاتحاد السوفيتي من إصرار عبد الناصر على مواصلة الكفاح المسلح لإزالة آثار العدوان، وأنه إذا لم يساعده بإمداده بالسلاح فإنه سيفقد مكانته الدولية المتميزة في المنطقة في مواجهة الكتلة الغربية بصفة عامة والولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة؛ ولذلك لم يندهش دايان عندما وجد المساعدات العسكرية السوفيتية تشق طريقها مرة أخرى إلى مصر لإعادة بناء جيشها بدون أدنى تأخير، بل إنه في يونيو 1967م، أي بعد أيام معدودة في أعقاب الحرب، وصلت إلى مصر بعثة عسكرية سوفيتية رفيعة المستوى، تتألف من 91 ضابطًا كبيرًا، برئاسة قائد الجيش السوفيتي المارشال زخاروف، وسرعان ما تم الاتفاق على إمداد مصر بالأسلحة جوًا وبحرًا، ويعترف ديان بقوله:

«وفي خلال 18 شهرًا، لم تكن مصر قد أعـادت فحسـب تشـكيل قواتهـا العسـكرية، وعادت بها إلى المستوى ما قبل حرب الأيـام السـتة، بـل إنهـا عـززت قطعهـا المدرعـة والجوية».

ولم يكن هذا التعزيز هدفـًا في حد ذاته، بل كان تأكيدًا لحرب الاستنزاف حتـى تتأكـد إسرائيل من أن الوضع الذي ترتب على حرب يونيو هو وضع غير طبيعي ولا بد أن يتغير إن عاجلاً أو آجلاً، وليس هناك غير وسيلة واحدة لتغييره وهي القوة العسكرية، ومن هنا كان المبدأ الذي واصل عبد الناصر تطبيقه والذي يؤكد أن ما أخذ بالقوة لا بد أن يُسـترد بالقوة، ويرى دايان أن إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات كـان إعلانـًا مـدويًا مـن عبـد الناصر للسير على هذا النهج والتصدي للتحدي في كل صورة، يقول دايان:

«والحادث الأول المهم، وقع بعد مرور أربعة أشهر على حرب الأيـام السـتة، وعـلى وجه التحديد في 21 أكتوبر 1967م، عندما عمد زورق طوربيد مصري، من نوع كومار، سوفيتي الصنع، مجهز بصورايخ، إلى إغراق الطراد الإسرائيلي إيلات، عـلى بعـد حـوالي 13 ميلاً ونصف ميل من بورسعيد، خارج المياه الإقليمية المصرية، فقد أطلقت الوحدة المصرية صاروخين، أغرقا إيلات وتسببا في خسارة 47 بحارًا بين قتيل ومفقود».

هكذا بدأ عبد الناصر في تحويل حلاوة النصر الإسـرائيلي إلى مـرارة العلقـم، بعـد أن تصورت إسرائيل أن الأمور كلها قد دانت لها ولن تقوم لمصر قائمـة، ولا شـيء يوجـع إسرائيل مثل فقدها للأفراد؛ ذلـك لأن ترسـانة الأسـلحة الأمريكيـة مفتوحـة لهـا عـلى مصراعيها كي تنهل منها ما تشاء وبلا مقابل، لكن من يعوضها عن فقد 47 بحارًا غاصوا إلى القاع ليلتهمهم السمك..؟ ما صدى هذه الكارثة عند أسر هؤلاء القتلى بصفة خاصـة والمجتمع الإسرائيلي بصفة عامة بعد أن ظن الإسـرائيليون أن السـلام قـادم إلـيهم عـلى طبق من فضة..؟!

كان عبد الناصر يدرك جيدًا أن إسرائيل لا بـد أن تـرد بعنـف وقسـوة، حتـى تحفـظ القيادة لنفسها ماء وجهها في مواجهة المجتمع الذي شرعت أحلامـه وآمالـه في السـلام والاستقرار في التبدد والتلاشي، يقول ديان:

«ردننا بضرب المصافي، قرب مدينة السويس، وبإحراق مستودعات النفط فيها، ورد

المصريون بدورهم، فاشتعلت نيران المدفعية على طول الجبهة».

كان دايان يظن أن التدمير العنيف للمصافي وإحراق المستودعات سيلقن المصريين درسًا قاسيًا يذكرهم بذلك الذي تعلموه في الخامس من يونيو، وبذلك تعود الأمور إلى نصابها، ويصبح إغراق المدمرة إيلات مجرد استثناء عابر من قاعدة الرسوخ الإسرائيلي الوطيد، لكن الضرب المدمر العنيف لم يرهب المصريين ولم يلزمهم عقر دارهم بل ردوا عليه بنفس العنف والقسوة، وتحولت الجبهة إلى جحيم مقيم، وكان الموقف من الخطورة بحيث توجه دايان بالطائرة إلى منطقة القناة، يصف الحالة بقوله:

«كانت مصافي السويس ما تزال مشتعلة، فرحت أنظر إليها من الضفة، التي كانت قد سقطت في أيدينا، وفي هذه الأثناء، وصلت أنباء تفيد بأن المصريين استأنفوا القصف في قطاع آخر، فأوصيت قائد القطاع الجنوبي، الذي كان يرافقني، بأن يكتفي بتوجيه ضربات سديدة».

وبهذا يعترف دايان أن المصريين كانوا حريصين وقادرين على الإمساك بزمام المبادرة برغم كل خسائرهم في حرب الأيام الستة، فقد جمعوا بين الهجوم والدفاع في آن واحد، وبرغم اشتعال الجبهة استطاعوا إعادة تنظيم جيشهم، وعززوا أوضاعهم على الضفة الغربية من القناة من خلال خطة تجلى فيها العقل الحسابي والفكر الاستراتيجي عند عبد الناصر، الذي أعلن في إبريل 1968م «أن مرحلة تعزيز القوات بدأت»، وبعد خمسة أشهر، صرح وزير الدفاع المصري الفريق أول محمد فوزي بأن تلك المرحلة قد تمت، وأن القوات المصرية انتقلت إلى المرحلة التالية: «الارتداد النشيط على العدو»، وكانت هذه المرحلة تتضمن عمليات تسلل، وقصفًا مدفعيًا، وإطلاق نيران على القوات الإسرائيلية بهدف إحداث أكبر قدر ممكن من الخسائر في الأرواح والمواقع.

وكان التخطيط الاستراتيجي لعبد الناصر واضحًا في تجنب المصريين للقيام بعمليات هجومية واسعة النطاق، تستهدف استعادة الأراضي المحتلة بعد يونيو 1967م؛ إذ يبدو أن عبد الناصر قد أرجأها إلى مرحلة تالية، ولم يكن اشتعال الجبهة المتجدد هو السبب الوحيد في قلق القيادة الإسرائيلية، بل كان التصاعد المحسوب يؤكد أن الضربات المصرية لم تكن مجرد تقلصات لحفظ ماء الوجه، بل كانت تطبيقًا لاستراتيجية طويلة النفس، لا ترضخ للضغوط المتوقعة أو غير المتوقعة حتى لا تطيش

ضرباتها ويتبدد مجهودها الحربي، وكانت إحدى ذروات هـذا التصـاعد المحسـوب في أوائل سبتمر 1968م، والتي يقول عنها ديان:

«وقد بلغت الذروة في أوائل سبتمبر، عندما فـتح المصـريون النـار في شـمال القنـاة، وقتلوا عشرة من رجالنا وجرحوا 18، وبعد أسبوعين قصـفت مـدفعيتهم مواقعنـا عـلى الضفة الشرقية طوال تسع ساعات، متسببة في خسـائر كبيـرة: 15 قتـيلاً، و34 جريحًـا، وتحت ستار الليل أطلق المصريون عملية «كوماندوز» محاولين التسلل داخل خطوطنا المحصنة، فاصطدموا بإحدى دورياتنا؛ ونـتج عـن ذلـك معركـة دامـت حتـى الفجـر، وانسحاب المتسللين المصريين.

وفي اليوم التالي، توجهت إلى المنطقة جوًا، وبدأت الجولة بتفقد قاعدة «كوبرا» التـي قصفتها مدفعية العدو بصورة خاصة، فبدت المنطقة وكأن عاصفة قد ضـربتها، وكانـت قنبلة موقوتة من عيار 160مم، وقد أحدثت فجوة في غطاء الأسمنت المسـلح للحصـن الأساسي، وأصيب أيضًا الجزء الأكبر من التحصينات السطحية، من غير أن تقع خسائر في الأرواح، وكان الصدام بين المتسللين المصريين - وعددهم 15 رجلاً - ودوريتنا قد وقع على بعد حوالي كليو مترين ونصف كيلو متر من «كوبرا»، فتوجهت إلى الموقع حتى وصلت إلى مجنزرة نصفية معطلة احترقت في أثنـاء القتـال، فنزلـت مـن سـيارة القيـادة وتابعت طريقي سيرًا على الأقدام، مع الحرص على تفادي الألغام التي زرعها المصريون وهم ينسحبون، وفي طريق العودة مررنا بالقرب مـن مـدرعتين إسـرائيليتين اصـطدما في الظلام في أثناء عملية القصف، وكانت بقع الدم والمازوت وقطـع ممزقـة مـن القمـاش المحروق هي كل ما بقى من الحادث».

أدرك دايان أن الحرب ستطول إلى أجـل غيـر مسـمى بـرغم تكاليفهـا الباهظـة، وأن اتفاقيات السلام أو اتفاقيات الهدنة على الأقل هي حلم بعيد المنال؛ لأن الواقع الجديـد الذي فرضته مصر على إسرائيل لا يبشر بأي سلام أو حتى استسلام؛ ولـذلك كـان عـلى الاستراتيجية الإسرائيلية أن تضـع هـذه العوامـل المتجـددة والضـغوط المتصـاعدة في اعتبارها على المدى الطويل.

وقد بدأت ملامح هذه الاستراتيجية تتشكل مع تعيين حاييم بارليف رئيسًـا للأركـان في ديسمبر 1967م، خلفـًا لإسحاق رابين الذي عُين سفيرًا في واشنطن، وبحـث دايـان

مع الأركان في إمكان تراجع القوات الإسرائيلية عن القناة، بحيث تصبح خارج مرمى المدفعية المصرية، وفي استخدام دوريات متحركة لمراقبة القناة، أم في بناء مجموعة من التحصينات الصغيرة تسيطر على الممر المائي، مع تجهيز المؤخرة بشبكة مواصلات فعالة بحيث تقوم وحدة مدرعة مصغرة بمراقبة المسافة بين حصن وآخر، في حين تكون مجموعة القوات المدرعة في القطاع على استعداد للتدخل السريع للمساعدة، ووافق حاييم بارليف على المشروع الأخير وتم اعتماده بالفعل.

ويتجلى الرعب الإسرائيلي من القوات المسلحة المصرية برغم تلقيها أبشع هزيمة في تاريخها منذ نصف عام تقريبًا، في الأسلوب الذي تمت به إقامة سلسلة من التحصينات الصغيرة، تحيط بكل منها فسحة تتسع لبعض الدبابات وحولها سور حجري، وقام سلاح المهندسين الإسرائيلي بتمهيد الطرق المسفلتة بين سلسلة التحصينات التي احتمت خلف تلال من الرمال، بحيث يتعذر على المصريين رصد التحركات الإسرائيلية بين التحصينات التي جهز كل منها بخمسة عشر مقاتلاً، وكانت المهمة الأساسية لهذه المراكز هي مراقبة القطاع، وتحريك قوات المؤخرة سواء المدرعة أو المدفعية أو الطيران.

لكن المصريين كانوا بالمرصاد لكل التحركات التي تهدف إلى تعزيز وترسيخ القوات الإسرائيلية، حتى لا يفقدوا زمام المبادرة بحيث لم تتوقف المدافع والصواريخ وتسلل قوات الكوماندوز وزرع الألغام في الأشهر الأربعة التي انتهت في 13 يوليو 1969م على حد اعتراف دايان الذي يصرح بقوله:

«وقبيل إتمام خط بارليف، استأنف المصريون حرب الاستنزاف، ففيما كنا نواصل العمل ليلاً في بناء خط التحصينات، ازدادت المبادرات الحربية، ففي خلال الأشهر الأربعة التي انتهت في 13 يوليو 1969م خسرنا 29 قتيلاً، وحوالي 120 جريحًا .... وبعد أربعة أيام قامت طائراتنا بقصف أهداف عسكرية بين القنطرة وبورسعيد، وقد دامت الغارة خمس ساعات، فأسقطنا خمس طائرات معادية وخسرنا طائرتين».

كان هدف دايان الأساسي الضغط على عبد الناصر بقدر الإمكان لعله يجبره على قبول هدنة تسترد فيها القوات الإسرائيلية في سيناء أنفاسها اللاهثة المتقطعة؛ ولذلك اقترح دايان على لجنة الدفاع الوزارية، القيام بغارات جوية في العمق وعلى قواعد

عسكرية مصرية.

وبين يناير ومارس 1970م أغارت الطائرات الإسرائيلية على بعض القواعد في العمق المصري بهدف التأثير السلبي في الروح المعنوية المصرية، وكان دايان سعيدًا بهذه المبادرة الإسرائيلية لظنه أنه وضع عبد الناصر في مأزق لن يستطيع الخروج منه، مما يعيد الأمل في عقد هدنة مسلحة، فقواته ليست على مستوى مواجهة مبادرات إسرائيل العسكرية، لكن دايان تأكد مرة أخرى أن عبد الناصر لن يقبل بأية هدنة من أي نوع، ولن يجلس إلى مائدة محادثات السلام التي تحلم بها إسرائيل.

وكانت حنكة عبد الناصر السياسية لا ينضب لها معين، وسرعان ما خرج من المأزق الذي تصور دايان أنه وضعه فيه، وذلك بسفره إلى موسكو في يناير 1970م؛ لأنه أدرك بحسه الاستراتيجي العميق أن إسرائيل ستواصل غارات العمق حتى تجبره على الاستسلام الذي فشلت في تحقيقه في أعقاب الخامس من يونيو 1967م، وكان لا بد من إيقافها عند حدها، فطلب في مباحثاته مع القادة السوفيت بلا عقد أو حساسيات هو في غنى عنها، إيفاد قوات سوفيتية إلى مصر، واستجيب إلى طلبه، وبالفعل وصلت إلى مصر وحدات صاروخية، وفي أول إبريل انضمت إليها ثلاثة أسراب من طائرات المطاردة بقيادة طيارين سوفيت، للدفاع عن أجواء القاهرة والإسكندرية وأسوان، كما تم قيام الخبراء السوفيت بالإشراف على بطاريات سام -3 المعقدة.

وكان عبد الناصر بهذه المناورة السياسية البارعة قد نجح في الانتقال بتداعيات المعارك الجارية بين مصر وإسرائيل من المجال الإقليمي الضيق الخانق إلى المجال العالمي الرحب، حيث يصبح من الممكن الضرب على الوتر الحساس المشدود بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وهو ضرب خطر لأنه ينذر بمواجهة بينهما لا يسعى أحدهما إلى التورط فيها، وهي مواجهة لا يمكن حصر تداعياتها وآثارها إذا ما وقعت.

وبذلك لم تعد إسرائيل تهدد العمق المصري بقدر ما أصبحت تهدد السلام العالمي، وكان عبد الناصر يدرك جيدًا أنه ليس في وسع الاتحاد السوفيتي رفض الاستجابة لطلباته؛ لأن مثل هذا الرفض لا يعني سوى تكسير سيقان الاتحاد السوفيتي التي ظلت تحلم بالخوض في المياه الدافئة، والتواجد في قلب العالم لمواجهة الإمبريالية الغربية بصفة عامة والأمريكية بصفة خاصة، وتحول المأزق الذي صنعه دايان لعبد الناصر إلى

مصيدة للطائرات الإسرائيلية بحيث يعترف دايان بخطورة المأزق غير المتوقع قائلاً:

«كنا جميعًا نقدر خطورة الوضع، فالمسألة ليست مسألة تحديد من هو الطيار الأبرع..؟ بل هي مسألة الاستمرار في السعي إلى تحقيق أهدافنا الأساسية، وفي الوقت نفسه تجنب الصدام مع السوفيت».

لكن من الواضح أن دايان كان يحلم بتحقيق هدفين لا يمكن الجمع بينهما، ومن الواضح أيضًا أن عبد الناصر كان يضع هذه الصعوبة بل الاستحالة في اعتباره، فما لا يستطيع تحقيقه بالقوة العسكرية، يمكن تحقيقه بالتخطيط السياسي، ذلك أن السياسة امتداد للحرب، والحرب تطبيق للسياسة، فهما وجهان لعملة واحدة في زمن الحرب، تتمثل في صمود الأمة في مواجهة التحديات المصيرية التي تهدد كيانها.

ويستشهد دايان بالرسالة التي بعث بها تشرشل إلى الرئيس أيزنهاور، مباشرة في أعقاب حملة السويس عام 1956م، متمنيًا أن يكرر التاريخ نفسه وتخفف الولايات المتحدة من ضغطها على إسرائيل فيما يتصل بالمواجهة مع السوفيت، ففي عام 1956م مارست الولايات المتحدة ضغطًا قويًا على حليفتيها فرنسا وإنجلترا لسحب قواتهما من مصر، فاستجابت الحليفتان في الحال، لكن تشرشل لم يكن رئيسًا للحكومة، كان يأمل في أن يقنع حليفه في الحرب العالمية الثانية بتخفيف الضغط، خشية أن يؤدي الانسحاب إلى دخول السوفيت إلى الشرق الأوسط وفرض وجودهم في المنطقة، وأكد تشرشل في رسالته إلى أيزنهاور على إن أي انتصار لعبد الناصر سيكون انتصارًا أكبر للاتحاد السوفيتي، وينهي رسالته بقوله:

«إنني أكتب هذه الرسالة لمعرفتي بالمكان الذي يقع فيه القلب، فأنتم الآن الشخص الوحيد الذي يمكنه التأثير في الأحداث، سواء في الأمم المتحدة أو في العالم الحر؛ فلا تضيع القضايا الجوهرية في مهاترات بين الأمم، فإن مسئوليتكم هي في الحقيقة مسئولية كبرى، وليس هناك من يؤمن بجدارتكم بتحمل العبء أكثر من هذا الذي يُرسل إليكم أفضل التمنيات».

صديقكم القديم

وينستون تشرشل

ولعل غرور موشيه دايان بل بالأحرى عقدة نقصه من عبد الناصر، هي التي جعلته يستشهد في مذكراته بهذه الرسالة، ويؤكد إنها جديرة بالقراءة عدة مرات، لا سيما لعلاقتها المباشرة بالوضع الذي نشأ بالنسبة إلى إسرائيل بعد المواجهة مع الطيارين السوفيت في يوليو 1970م، فهو يرى أنه إذا كان تشرشل يضع عبد الناصر على نفس مستوى الاتحاد السوفيتي في قدرته على التأثير في مجريات الأحداث العالمية، وهو الذي لم يتول الزعامة الحقيقية لمصر إلا قبل عامين من العدوان الثلاثي على مصر، أي منذ عام 1954م عندما برز بصفته القائد الفعلي لثورة يوليو 1952م، فإن دايان يعتقد في قدرة إسرائيل على مواجهة السوفيت لأنها لا تقل في خطورتها وتأثيرها عن الدور الذي لعبته إنجلترا وفرنسا في عام 1956م، والذي اضطرتا إلى إنهائه تحت ضغط الولايات المتحدة التي عادت إلى الضغط على إسرائيل في عام 1970م خوفاً من احتمالات المواجهة الكونية مع السوفيت.

لكن دايان ينسى أو يتجاهل الفرق بين مصر وإسرائيل في هذا المجال، فلم يكن الاتحاد السوفيتي سوى صديق أو زميل لمصر في حربها المتواصلة ضد القوى الإمبريالية المتربصة بها، في حين لم تكن إسرائيل سوى ذيل أو مخلب للأطماع الأمريكية في المنطقة؛ ولذلك فالقياس مستحيل برغم رغبة دايان الحارقة في إشباع الغرور الإسرائيلي، فلا وجود لإسرائيل بدون الولايات المتحدة الأمريكية، لكن التاريخ يشهد الآن بأن مصر التي صنعت أول حضارة إنسانية على وجه الأرض، وأصبحت الصخرة التي تكسرت عند سفحها كل أمواج الغزو عبر آلاف السنين، ستظل رمزًا للصمود والخلود في حين اندثر الاتحاد السوفيتي كأنه لم يكن بعد أن كان القوة العظمى الثانية في العالم.

وما فعله عبد الناصر في حرب الاستنزاف كان أكبر دليل عملي على قدرة مصر الحضارية على مواجهة أعتى وأقسى الظروف، والتي تحولت إلى بوتقة انصهر فيها معدنها الثمين ليعود إليه تألقه ووميضه، إنها عودة الروح التي جسدها توفيق الحكيم في روايته المشهورة، أما روح إسرائيل فرهن بالولايات المتحدة الأمريكية التي توحي لليهود بسيطرتهم الفائقة على مقدرات الأمور داخلها، وترضخ لكل طلبات المساعدة التي تتقدم بها إسرائيل في كل المجالات، في حين أن إسرائيل كقاعدة أمريكية في المنطقة

أرخص بكثير مما لو استعانت أمريكا بجنودها وقواتها البحرية والجوية وأحيانًا البرية في وضع المنطقة تحت سيطرتها وتهديدها، يكفيها وفرًا أن الجنود الإسرائيليين يقاتلون ويموتون بدلاً من الجنود الأمريكيين.

وكانت إسرائيل تظن أنها في أعقاب حرب يونيو 1967م قد استطاعت شن الحرب التي تُنهي كل الحروب، وأن السلام أو الاستسلام المصري قادم إليها يجر أذيال الخيبة وبعض بنان الندم، لكن عبد الناصر أثبت لها عمليًا برغم هزيمته أن كيانها سيظل مصنوعًا، وأن موقفها الذي وضعتها فيه الإمبريالية العالمية سيزداد حرجًا، ولن تتمتع بالاستقرار الذي تحلم به.

وبرغم تأييد الرئيس الأمريكي نيكسون لدايان بأنه إذا دخل السوفيت اللعبة فلن يبقى الأمريكان خارجها، فإن الخط المشترك الذي صنعه عبد الناصر بين مصر والاتحاد السوفيتي شكل ضغطًا مباشرًا على توجهات السياسة الأمريكية، وقد تجلى هذا التوجه في لقاءات دايان بروبرت أندرسون الذي كان وزيرًا للخزانة في عهد أيزنهاور، ثم أصبح من خبراء البترول خصوصًا في الشرق الأوسط، فكانت له صداقات مع مختلف زعماء العرب.

وكان دايان يحرص على لقائه في كل مرة يزور الولايات المتحدة، فقد كان يحترمه ويتوق إلى التحدث معه والاستماع إلى آرائه برغم أنه كان يبدي آراء لا يستسيغها دايان دائمًا، وما قاله له في زيارة دايان لواشنطن في ديسمبر 1970م - أي بعد رحيل عبد الناصر بحوالي شهرين- لم يرضه على الإطلاق، وهو على حد قول دايان:

«علينا أن ننسحب إلى داخل حدود ما قبل حرب الأيام الستة، فإن تنفيذ ذلك من مصلحة أمريكا، ومن شأن رفضنا أن يجعل موقفنا غير مقبول».

أي أن قوة الدفع التي حشد لها عبد الناصر كل الطاقات الممكنة ظلت مستمرة بعد رحيله بدليل أن الولايات المتحدة أدركت أن الوضع الجديد السياسي والعسكري الذي رسخه عبد الناصر أصبح واقعًا لا يمكن تجاهله حتى بعد رحيله، بل إن دايان صرح في محادثاته مع الرئيس نيكسون حين تناول احتياجات إسرائيل العسكرية بأنه يعلم بأن هناك وعدًا أمريكيًا أُعطي لمصر، يقضي بوقف إمدادات الأسلحة لإسرائيل

طوال مدة محادثات روجرز للسلام، فكان رد نيكسون إنه لا يعلم شيئًا عن مثل هذا الوعد، لكن دايان أكد له أن الأمر ليس مجرد شائعة؛ لأن وزير خارجية مصر محمود رياض أعلن ذلك في مؤتمر صحافي عقده في واشنطن قبل أيام، وأثبت كلامه بوثيقة رسمية، ويصف دايان لحظة المصارحة قائلاً:

«لم تكن مريحة تلك اللحظة، التي وجه فيها الرئيس كلامه إلى ميلفين ليرد وزير الدفاع سائلاً عن حقيقة الأمر، فما كان من ليرد سوى أن رد بالإيجاب، فأضفت: إننا على كل حال نعرف حقيقة الأمور، وهي أن الولايات المتحدة أوقفت بيع الأسلحة لإسرائيل».

لقد أدرك دايان أن الأمور لم تعد كما كانت قبل مناورة عبد الناصر السياسية البارعة، وإنه يحارب إسرائيل بالسلاح والسياسة، وإنه قادر على أن يُخرج من جعبته ما لا يتوقعه خصومه وأعداؤه الذين قد يظنون أن الحلقات ضاقت حوله واستحكمت، ولم يعد هناك منفذ سوى أن يُلقي بسلاحه ويستسلم، لقد كان محاربًا من طراز فريد بل ونادرًا، بحيث أجبر أعداءه وفي مقدمتهم موشيه دايان على الاعتراف بإنجازاته وتحدياته تحت وطأة ظروف تكاد تكون مستحيلة، وكانت شهادته خير إثبات لا يقبل التفنيد على إن عبد الناصر كتب أروع الصفحات المجيدة والمضيئة في حرب الاستنزاف التي ظُلمت إعلاميًا وتاريخيًا سواء على المستوى المصري المحلي أو المستوى العربي الإقليمي، لكنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح.

ومن هنا كانت شهادة الخصوم والأعداء التي لا يمكن أن يدحضها مكابر أو مغرض لسبب أو لآخر، خاصة أن ما شهد به الأعداء لا بد أن يكون من منظورهم الخاص وبلونه المنحاز، لكن الحقيقة الراسخة التي صنعها عبد الناصر في حرب الاستنزاف كانت أرسخ وأضخم وأعمق من كل محاولات اقتلاعها أو تسطيحها أو تجاهلها، ومهما جرت محاولات محمومة لتزييف التاريخ، فإن طاقته التصحيحية التي تتجسد في إنجازات علماء التاريخ ومحلليه الموضوعيين كفيلة بفضح كل المدعين والمزيفين والآكلين على كل الموائد.

وهاهو ذا أرييل شارون يقر بما فاه به دايان، ويعترف بأن حرب الاستنزاف كانت وبالاً على إسرائيل، وهو من القادة العسكريين الإسرائيليين المتعصبين تعصبًا أعمى

لكل ما هو إسرائيلي ويهودي وصهيوني وكل أعماله وأقواله منذ صدر شبابه تحمل بصمات هذا التعصب، فقد اشترك منذ البداية في نشاط عصابات الهاجاناة وهي كلمة عبرية تعني «الدفاع»، وهي منظمة عسكرية صهيونية استيطانية، كانت قد أسست في القدس عام 1921م، وارتبطت باتحاد العمل ثم بحزب الماباي، برغم أن ميثاقها كان ينص على الارتفاع فوق الحزبية بحكم أنها عصابة عامة للتجمع الاستيطاني اليهودي، وفي عام 1936م انشقت عنها بعض العناصر وكونت مع حركة بيتار تنظيم الأرجوان المعروف بتطرفه وإرهابه.

وقد تكاملت الهاجاناه من حيث التنظيم والأفرع المختصة، ولم يبق سوى القرار الذي تتحول بمقتضاه إلى «جيش الدفاع الإسرائيلي»، وهو القرار الذي أصدره بين جوريون فور إعلان قيام الدولة الإسرائيلية عام 1948م مباشرة، وكان تضخم الهاجاناه واتساع دورها دليلاً على أهمية دور المؤسسة العسكرية لا في بناء الدولة الصهيونية فحسب، بل في اتخاذ القرارات المتعلقة بمختلف المجالات فيها أيضًا، فهي مجتمع عسكري في صميمه وإن ارتدى قادته الملابس المدنية.

في هذا المناخ العسكري المتطرف نشأ شارون وترعرع فيه، واشترك في حرب 1948م وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وقام بدور حيوي في حصار الفالوجا وجُرح في أثناء الحرب، لكنه لم يتوقف عن نشاطه الإرهابي بعد انتهاء الحرب وقيام دولة إسرائيل، بل شرع في تعقب الفدائيين العرب الذين كانوا يتسللون إلى الأراضي المحتلة، وقاد في عام 1952م قوة كوماندوز خاصة عرفت باسم الوحدة رقم 101، أو «جيش دايان الخاص»، كما كانوا يسمونها.

وكان أعضاء هذه الوحدة غير نظاميين، ويقتصر تدريبهم على غارات الحدود، وقد قاد شارون «شياطينه» - كما كان يُسمي أعضاء الوحدة- في أول حملة رسمية سرية لهم في 14 أكتوبر 1953م، فاتجه إلى قرية قبية العربية ودكها على من فيها فسقطت أربعون دارًا للسكنى، وقتل سبعون شخصًا، نصفهم من النساء والأطفال، كذلك لم تسلم الماشية من مذبحة شارون، وقد أنكر بن جوريون رئيس الوزراء في ذلك الوقت علمه بالعملية، وأكد أن جميع وحدات الجيش الإسرائيلي كانت في ثكناتها، لكنه في أثناء حرب

الاستنزاف، وفي عام 1969م على وجه التحديد، صدر كتاب «المظليين» الذي تحدث متباهيًا وفخورًا بهذه العملية الناجحة..!!

وقد اشترك شارون في حرب 1956م ثم في حرب 1967م حيث قاد المجموعة التي استولت على ممر متلا، وقد عُين بعد الحرب قائدًا للمنطقة الجنوبية حيث طرد 600 بدوي من ديارهم في رفح، وهو يكن للقوات المسلحة المصرية حقدًا دفينًا منذ حرب 1956م حين هاجمت القوات الإسرائيلية من الجنوب واحتلت القسيمة، غير أنها اصطدمت بمقاومة عنيفة في أبي عجيلة، ثلاثة أيام من المعارك الدامية، لم يتراجع المصريون في نهايتها إلا لنفاذ احتياطيهم من مياه الشرب، وذلك طبقًا لشهادة شارون نفسه في مذكراته، وفي أعقاب حرب 1956م كان بالمرصاد لكل استعدادات المصريين في سيناء لأية حرب محتملة، أي أن المصريين لم يكونوا نائمين في العسل كما حاولت الأقلام والأبواق المغرضة تصوير قواتهم المسلحة بعد حرب 1967م، يقول شارون في مذكراته:

«كان المصريون قد أعادوا منذ 1956م بناء تحصينات أبي عجيلة على النمط السوفيتي الذي يفضل الخط الدفاعي المستقيم، فعلى بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلو مترًا من حدودنا يمر طريق الإسماعيلية بمرتفع رملي طويل يُدعى حَدَب أم قَطَف، وقد أعد المصريون فيه ثلاث شبكات من الخنادق المحفورة شمال الطريق في كثبان رخوة، وجنوبها في قمم مسننة وتلال خفيضة مليئة بالفجوات والشروخ، يمتد بطول عدة كيلو مترات، ويحوي بطاريات مدفعية ومخازن ذخيرة وممرات جانبية للاتصالات، وإلى الشرق من الخندق الأول يمتد حقل مزروع بالألغام، ويدافع عن الموقع المحصن لواء من المشاة، كما تحمي طبوغرافية الأرض جنبيه، فيشكل حاجزًا منيعًا».

وكلام شارون يعني أن هزيمة يونيو 1967م لم تكن نتيجة غياب الاستعدادات الضرورية للمواجهة العسكرية، بل كانت نتيجة للتأخر في توظيف هذه الاستعدادات في الوقت والمكان المناسبين، وهي استعدادات من الدقة والإتقان والمناعة بحيث كان في مقدورها أن ترد إسرائيل على أعقابها، فهي تنم عن خبرة عميقة بالعلوم العسكرية سواء على المستوى التكتيكي أو الاستراتيجي، يعترف شارون بقوله:

«على بعد كيلو متر أو اثنين خلف الخنادق تمركزت وحدة احتياط متنقلة، تضم أكثر

من ثمانين دبابة مستعدة للهجـوم في كـل اتجـاه، لتكمـل التحصـين الـدفاعي للمنطقـة بأسرها، وإلى جنوب الدبابات غابة حقيقية مـن المـدافع: ثمـانون ماسـورة 122 ملـم، و130 ملم ذات مدى أطول من مدافعي، وكانت هـذه القـوات المتمركـزة في مواقعهـا الدفاعية محجوبة عن النظر شرقـًا وشمالاً بمواقع تحيط بها لحمايتها، كما كان جناحها محميًا بكتيبة مشاة مدعومة بدبابات ومدفعية ومتخندقة في مكان حصين أطلقنا عليه على سبيل الاصطلاح أو الشفرة اسم «أوكلند»».

وبناء على كلام شارون نستطيع القول بأن عبد الناصر عنـدما تحـدى إسـرائيل كـي تلتزم بحجمها الطبيعي، لم يقدم على خطوة في الظـلام، بـل اتخـذها عـلى أسـاس عجـز إسرائيل عن اقتحام تحصـيناته في سـيناء، لكنـه لم يـدرك أن القيـادة العسـكرية المهتـزة والمترددة والمتضاربة ستحيل القوات المسـلحة المصـرية إلى لقمـة سـائغة بـين فكـي الجيش الإسرائيلي، خاصة بعد التأكيدات الواثقة التي كررتها القيـادة عـلى أسـماعه قبـل الحرب؛ ولذلك يمكن القول بأن الإسرائيليين لم يهزمـوا المصـريين في يونيـو 1967م؛ لأن المصريين كانوا قد هزموا أنفسهم بأنفسهم عندما أصبحوا كيانـًا أو جسـمًا ضـخمًا بلا عقل يوجهه، مع غياب دور القيادة منذ اللحظات الأولى للقتال، ولم تفلح الـدفاعات الحصينة في حمايتهم في مواجهة التخطيط الدقيق والتفصـيلي للقيـادة الإسـرائيلية، يقـول شارون:

«لهدم أبي عجيلة كان يجب التعرف على نقاط ضعفها واستثمارها، يُضاف إلى ذلـك أن القوات المتحصنة فيها متمرسة بالمعارك الدفاعيـة، لم يكـن عـددها يقـل كثيـرًا عـن عددي، لكن قوة نيرانها كانت في المقابل تفوق ما عنـدنا، كمـا كنـا بعيـدين عـن النسـبة الحسابية القائلة بوجوب إطلاق ثلاثة جنود مهاجمين مقابل جندي واحـد مـدافع، وهـي نسبة تعتبر عمومًا حدًا أدنى في هجوم ضد مواقع محصنة سلفـًا، ولذلك كـان يجـب أن يتم تركيز المعركة على تكثيف قوة الضرب وعلى المفاجـأة وعـلى المنـاورة، وكـان عـليَّ أيضًا أن أهاجم ليلاً وفق تكتيكنا التقليدي الهادف إلى تقليل مفعول التفاوت في القـوات ومفعول المواقع المحصنة».

ولذلك كان الهدف الأول لفرقة شارون هو فتح المحور المركزي، أي الطريـق بـين

بئر سبع والإسماعيلية، وهو الطريق المقطوع بتحصينين في كل من أبي عجيلة والقسيمة، وهما في الواقع تجهيزان دفاعيان، كل منهما مستقل عن الآخر، لكنهما يتساندان وتحتلهما الفرقة المصرية الثانية، كانت استحكامات أبي عجيلة تقطع الطريق مباشرة، في حين كانت استحكامات القسيمة تقع على بعد ثلاثين كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي، واستفاد شارون من درس 1956م حين هاجم القوات المصرية ن الجنوب، فقد قرر في 1967م أن يطبق على المواقع من الشمال والغرب والشرق، بحيث تستدير قواته حول المواقع في الشمال لتفاجئ المصريين وتبلغ بأسرع ما يمكن الطرق التي تمر خلف أبي عجيلة والقسيمة.

وكان مخطط شارون ينهض على هجوم متناسق بين مختلف عناصر قواته ضد خنادق المصريين وتجمعات دباباتهم ومدافعهم، بحيث تشن الهجمات من الشمال والغرب في ظهر أبي عجيلة، ومن الشرق في المواجهة لخلق سلسلة من المفاجآت تقوم فيها كل وحدة مهاجمة بحماية جناح الأخرى، وإذا كانت العملية تعتبر في نهاية المطاف شديدة التعقيد فإن دور كل لواء سيجمع بين البساطة والمشقة، لكنه يظل بسيطًا سلسًا في النهاية، وسر النجاح يكمن في تنسيق وثيق جدًا بين مختلف الوحدات المهاجمة.

هذا نموذج من نماذج كثيرة شهدتها حرب يونيو 1967م، وتوضح ببساطة شديدة لماذا انتصر الإسرائيليون على المصريين..؟! ومع ذلك ظلت المقاومة المصرية الباسلة تدافع عن مواقعها برغم عدم وجود خطة أو قيادة عليا تقوم بتوجيهها، يصف شارون هذه المقاومة الباسلة بقوله:

«استلمت رسالة من ناتكى الذي كان قد اخترق مؤخرة الجهاز الدفاعي المصري المتجه شرقًا، وكان يشكو من قذائف مدفعية تنهال عليه من الأمام دون أن يستطيع تحديد مصدرها، لذلك أمرت زيبوري الذي كان يهاجم بلوائه على طول الطريق في اتجاه الغرب بإسكات مدافعه، ثم سألت ناتكى إذا كان القصف لا يزال مستمرًا عليه، فأجاب بنعم، حينئذٍ قلت له: «تستطيع الإطباق عليهم بقدر ما تريد، إنهم المصريون»».

هكذا كان الصمود المصري الذي تحول إلى هجوم برغم غياب القيادة، فمثلاً عند منتصف ليل الخامس من يونيو كانت القوة الإسرائيلية المتربصة بالنجدات المصرية قد أخذت موقعها مقابل القسيمة، وفي تلك الأثناء كانت الكتيبة المدعومة بدبابات

السنتوريون تهاجم تحت إمرة ناتكى موقع أوكلند، محور الجناح الشمالي المصري، وعلم شارون من جهاز الاستقبال معه أنها تصطدم بصعوبات جسيمة لم تكن متوقعة على الإطلاق، وظلت المعركة متأججة منذ منتصف الليل حتى الساعة الرابعة فجرًا حين احتلت دبابات ناتكى الموقع المصري بعد خسائر فادحة في الأرواح، لكن ناتكى نفسه لم ينج من الضربات المصرية؛ لأن عربته المصفحة أصيبت إصابة مباشرة بقذيفة مصرية سحقت ساقيه، ونقل على أثرها إلى المستشفى ليمر بثماني عشرة عملية جراحية جنبته بتر ساقيه لكن فقد قدرته على المشي إلى الأبد.

كذلك في حوالي الساعة الثالثة والنصف فجر السادس من يونيو، سمع شارون عبر جهاز اللاسلكي صوت داني مات قائد المظليين، يطلب بيأس طائرات هليوكوبتر لإخلاء جرحاه، وكان جهاز القيادة يلح بلا انقطاع في معرفة مواصفات أرض الإنزال، فكل المنطقة كانت مضاءة بالانفجارات والقذائف، ولم يكن في وسع الطيارين التمييز بين دخان المظليين ودخان الوقود المشتعل، ولم يستطع شارون أن يرشد الهليوكوبتر مباشرة بين الكثبان التي لجأ إليها داني مات، إلا بعد أن اخترقت عرباته القيادية جهاز الدفاع المصري المستميت، ومع ذلك عجز قائد الهليوكوبتر عن تلمس طريقه وسط الجحيم الذي صنعه المصريون في المنطقة، كانت باقي طائرات الهليوكوبتر في تشكيله تدور في المنطقة لعلها تحدد مكان المظليين الجرحى كل بجهده الشخصي، وطال بهم الأمر حتى السابعة صباحًا حين وجدوا المظليين هائمين على وجوههم في الصحراء وبينهم تناثر الجرحى الذين نقلتهم الطائرات مع القتلى لإسعافهم أو دفنهم.

أما عن بطولات الفرقة المصرية السادسة فيعترف شارون أنها كانت معسكرة قرب الكونتيلا، وسرعان ما شقت طريقها إلى قلب الثقب لتعزل إيلات عن باقي إسرائيل، ولولا سقوط أبي عجيلة والقسيمة لما اضطرت إلى القتال متراجعة على امتداد طريق متلا، واحتدمت المعركة بينها وبين قوات شارون الذي استمات في ضربها؛ لأنه كان يعلم جيدًا أنها إذا بلغت ممر متلا فإنها تستطيع أن تعرقل تقدم قواته نحو قناة السويس، وهي إذا كانت تقاتل في العراء بهذه الشراسة برغم كل الإحباطات المحيطة بها، فما الذي يمكن أن تفعله لو تمكنت من السيطرة على الممر..؟! يروي شارون ما جرى فيقول:

«وما كدنا نبدأ هذا السباق مع الوقت للحاق بالمصريين المنسحبين حتى بدأت المشكلات تتدفق، فالوادي الذي كنت أنوي اجتيازه للتوجه جنوبًا كان لا يزال موحلاً بعد الأمطار المتأخرة في هذه السنة، وفيما كنا منشغلين بالمناورة لمغادرة الوادي بعد محاولة فاشلة لاجتيازه تعرضنا لنيران كثيفة من الصواريخ المصرية أحدثت بلبلة كبيرة في صفوفنا، فدباباتنا وعرباتنا المصفحة كانت متمركزة في أرض ضيقة نسبيًا وهي تجاهد للتخلص من الأوحال، وأقل ما يمكن قوله إن هذا القصف المصري جاء في أسوأ الأوقات، مما اضطرني إلى القفز على غطاء محرك عربتي بكل ثقلي في محاولة لتقويمه لعلني بهذا أضرب المثل لضباطي وجنودي على الهدوء الذي يجب أن يحل بدل الفوضى المستشرية».

هكذا كان المصريون يقاتلون في السابع من يونيو 1967م لدرجة أن شارون لم يجد مفرًا في مذكراته من الاعتراف ببطولاتهم التي توهجت في ليل الإحباط والتشتت والضياع الذي خيم عليهم، كذلك فنحن لا نجد أثرًا للعبقرية الإسرائيلية العسكرية التي طالما تباهى بها شارون وأمثاله من صقور إسرائيل؛ إذ أن القوات الإسرائيلية برغم المكاسب التي أحرزتها في غيبة القيادة المصرية العليا، كانت ترتكب من الأخطاء الفاحشة ما يؤكد أن تلك العبقرية هي مجرد دعاية للاستهلاك المحلي والعالمي على حد السواء، فبعد أن أعاد شارون تنظيم صفوفه بصعوبة بالغة يقول:

«أمرت الألوية أن تأخذ طريقًا آخر أبعد قليلاً إلى الشرق، لكن مشكلة أخرى طرأت: ظهر طابور دبابات إلى الغرب منقضًا علينا وفاتحًا كل حمم مدافعه، عرفناه فورًا: كان لواء فرقة يوفيه عبر أبا عجيلة خلال المعركة، والأرجح أنه تابع تقدمه غربًا ثم انحرف إلى الجنوب والشرق على أمل شبيه بأملنا، قطع الطريق أمام المصريين المتهالكين على الوصول إلى ممر متلا، وعندما شاهدنا رجال اللواء من بعيد ظنونا الفرقة المصرية التي يتعقبونها فهاجمونا بقوة».

ومثل هذا الخطأ العسكري الفادح ترتكبه الفرق أو الألوية عندما تكون واقعة تحت وطأة ضغوط متصاعدة، تجعلها تبادر بالقصف لمجرد الشك الطارئ في القوات المواجهة دون التيقن من هويتها؛ لأن مثل هذا التيقن قد يستغرق زمنًا يفقدها زمام المبادرة، خاصة إذا كانت قوات العدو لا تتوانى لحظة في الضرب بمنتهى العنف

والشراسة في مبادرات خاطفة مثل تلك التي مارستها الفرقة المصرية السادسة في مواجهتها، وقد يتساءل البعض عن السر في عدم الاتصال لاسلكيًا بالفرقة الضاربة، فيجيب شارون قائلاً:

«حاولنا تحذيرهم بالراديو لكن فشلنا دون أن نتمكن من معرفة السبب، وتفاقمت الأمور بسرعة لدرجة أن إحدى كتائب المدفعية المواجهة لخط رميهم تلقت قذائف خطرة، وبدأ آمر لواء المدفعية بتوجيه مدافعه تحسبًا لمعركة ضد الدبابات، وهو يواجه معضلة مؤلمة: الرمي على قوات إسرائيلية أو التفرج مكتوف اليدين على تدمير فوجه، أمرته ألا يطلق النيران، لكنني كنت أسمعه عبر جهاز اللاسلكي أنه يتكبد خسائر: صحت مرتين «لا تطلق النار..!»، ثم أمرت ضابط عملياتي أن يركب الجيب ويتوجه لملاقاة دبابات يوفيه ليطلعهم على سوء تقديرهم المدمر، كانت المهمة تتطلب شجاعة نادرة في مواجهة مدافع الدبابات الفاغرة فاهًا، لكن المناورة نجحت فجنبتنا كارثة».

وحتى في يوم الجمعة التاسع من يونيو حين تحطمت القوات المصرية ولم يبق أمامها سوى الانسحاب بأسرع ما يمكن، كان الجنود المصريون في تراجعهم حريصين بقدر الإمكان على إنزال أية خسائر في أية قوات إسرائيلية في طريقهم، وهذا ليس شأن الهاربين الذين يريدون بلوغ المناطق الآمنة بأسرع ما يمكن، يحكي شارون أنه كان على متن طائرة نحو بير تمادة في الغرب حين أخبره الطيار أن عطلاً ما طرأ على المحرك ولا بد أن يهبطوا، يضيف قائلاً:

«حتى ذلك الوقت كنا نطير فوق الطريق لنبتعد عن مرمى المصريين المنسحبين المنطلقين بين الكثبان والنتوءات، ولكن بما أننا كنا نطير على ارتفاع منخفض أطلق علينا النار بعض الجنود المصريين فقابلناهم بالمثل حتى حطت الطائرة على الطريق، وللحظة تساءلت ما عسى أن يحدث لنا، يالسخرية القدر القاسية، قبل أقل من ساعة كنت في أمان بين أفراد فرقتي، والآن أجدني وحيدًا متروكًا بين مئات المصريين المسلحين واليائسين».

ويعترف شارون بخسائر إسرائيل في الأرواح، وبانتصارها المرير برغم غياب القيادة المصرية التي لو كانت قد أدارتها بأقل قدر من التخطيط والتنسيق والتنظيم لكان

للمعركة برمتها شأن آخر، كان شارون كلما اتصل بزوجته هاتفيًا، كانت تخبره بوفاة صديق قديم أو ابن له صُرع في المعركة، أي أن الانتصار الإسرائيلي كان في حد ذاته محنة أو مأساة سرت بالجروح والآلام في المجتمع الإسرائيلي، وإن كانت الدعاية الإسرائيلية قد حاولت أن ترسخ في الأذهان أن عهدًا جديدًا حافلاً بالأمجاد والأحلام الكبار قد بدأ.

وكان شارون في مقدمة الذين ضربوا على هذه الأوتار الصاخبة المتفائلة، خاصة أنه يؤمن بأن السلام ليس سوى «قصاصات ورق» - على حد قوله- ولا يمكن المخاطرة بوجود الشعب اليهودي بالاعتماد عليها، فهو لا يخفى نواياه الحقيقية حين يقول: «إن بقاءنا لا يمكن أن يرتهن فقط بالثقة في حسن نوايا الآخرين، فعلينا أن نرسي هذه الثقة على «وقائع»؛ أي على ترسيخ البلاد والدفاع عنها».

وهو ما أكده بعد ذلك في عامي 1980م، و1981م حين اشترك في المفاوضات مع مصر؛ إذ قال: إنه لا يصدق المصريين، ولا يضع ثقته في قطعة ورق وقعوا عليها، فقد كان هذا هو إحساسه في عام 1967م، ثم في أعوام حرب الاستنزاف التي أكدت له أنه:

«مهما كانت طبيعة الاتفاق الذي نفكر في الحصول عليه، ومهما كانت قيمته، كنت عاقد العزم على فعل كل ما كان في وسعي لإرساء وقائع من شأنها أن تؤمن لنا سيطرة استراتيجية».

أي أنه لم يكن يريد ترسيخ السلام بل فرض الأمر الواقع والهيمنة الصهيونية، وأن أي اتفاق سلام في نظر إسرائيل ليس إلى خطوة تكتيكية في انتظار ظروف مواتية أفضل، وبذلك يصبح السلام استثناء من القاعدة التي تتمثل في الصراع بمختلف صوره العسكرية والمادية على حد السواء، وإن بدا الموقف بصورة مغايرة، وقد تركزت هذه الأحاسيس والتوجهات عند شارون في أثناء حرب الاستنزاف، لقد خالجه شعور بأن نصرهم لم يكن كاملاً بعد أن دفعوا ثمنًا باهظًا لم يجعل المستقبل مشرقًا أمامهم، كما أن هذا النصر المكلف جدًا كان شديد الهشاشة، والإبقاء عليه يكلفهم مجهودات ضخمة وصعوبات جمة.

ولذلك أفرد شارون في مذكراته فصلاً كاملاً عن حرب الاستنزاف، مثله في ذلك مثل

معظم الزعماء والقادة الإسرائيليين الذين أفاقوا من أحلامهم الجميلة الرائعة في أعقاب الخامس من يونيو على الاستنزاف الذي بدا في أول الأمر حلمًا مزعجًا سرعان ما يزول بمجرد الاستيقاظ، لكن الأيام أثبتت أنه كابوس تشتد وطأته مع الأيام بعد أن استطاع عبد الناصر أن يرتفع بقواته المسلحة من درجة الصفر إلى مرحلة الصمود والتصدي والمواجهة والهجوم، ولذلك رأى شارون في حرب الاستنزاف أخطر مشكلة تواجه قيادة الجبهة الجنوبية التي تسلمها في نهاية 1969م حين بلغت حرب الاستنزاف أوجها بعد سنتين من استمرارها وتصاعدها، يقول عنها:

«لم تكن هذه الحرب المقنعة تهدد وجود إسرائيل نفسه؛ لأنها تجري بعيدًا عن قلب البلاد الحيوي الذي عرف لأول مرة حياة سوية، فالبلاجات وأرصفة المقاهي كانت تعج بالناس الذي تذوقوا أخيرًا هذا الترف النادر في إسرائيل: السلام، لكن على الجانب الآخر كان جنودنا على امتداد القناة يواجهون الموت باستمرار».

أي أن شارون يخدع نفسه أو يحاول أن يخدع الآخرين بقوله إن السلام قد جاء نتيجة لحرب يونيو 1967م؛ لأنه في الوقت نفسه يعترف بأن جنود إسرائيل على امتداد القناة يواجهون الموت باستمرار، والسلام قيمة كلية لا يمكن أن تتجزأ بهذه البساطة، وكان إصرار عبد الناصر على حرب الاستنزاف تأكيدًا عمليًا ومتصاعدًا لإسرائيل على إدراكه العميق لنواياها الاستراتيجية ككيان عدواني بطبيعته، لا يفرق بين السلام والاستسلام.

إن لغة القوة هي اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل، ولذلك أعلنها عبد الناصر مرارًا أن ما أخذ بالقوة لا بد أن يُسترد بالقوة، وكانت إسرائيل في الأيام الأولى بعد حرب يونيو 1967م تسخر من هذا الشعار الذي اعتبرته مادة إعلامية للاستهلاك المحلي، ومحاولة لاستعادة الثقة والكبرياء ورفع الهامات التي انحنت تحت وطأة الهزيمة، لكنها بعد أسبوع أو اثنين أدركت أن الشعار قد تحول إلى كابوس يزحف ليجثم على كاهل جنودها، يقول شارون:

«كان خط بارليف من منظور تاريخي ثمرة الصدفة أكثر مما كان نتيجة خطة معدة، ففي نهاية حرب الأيام الستة توقف الجنود الإسرائيليون عند الضفة الشرقية لقناة

السويس، وبعد أسبوع أو اثنين اضطروا إلى التخندق اتقاء لنيران المواقع المصرية المواجهة».

وفي أثناء الحرب عارض موشيه دايان تقدم القوات الإسرائيلية أكثر من اللازم على أساس ضرورة التوقف عند خط ما على بعد عدة كيلو مترات من القناة، كان يرى أنه ينبغي لهم أن يظلوا قريبين من القناة لصد كل محاولة مصرية لعبورها، ولكن بعيدين عنها إلى حد ما بحيث تأخذ الحياة مجراها السوي على الضفة المقابلة، لكنه نتيجة لظروف ومجرى العمليات العسكرية عند نهاية الحرب، التي أوضحت مدى إصرار المصريين على الصمود والتصدي برغم جيشهم الذي تحول إلى فلول، اضطر دايان إلى ترك قواته تتقدم حتى الضفة الشرقية مع حرصه على إنشاء خط محصن على بعد مسافة معينة من القناة؛ ولذلك توقف بالفعل عن إصدار الأوامر بإعادة انتشار القوات المتمركزة على ضفة القناة إلى الخط المذكور.

كان قلق إسرائيل واضحًا لاستمرار عبد الناصر في الحكم على أساس من إرادة شعبية ساحقة، بعد أن ظنت أنها قضت على أسطورته، وأجبرته على التنحي وبالتالي تحول مصر عن كل المبادئ التي نادى بها وسعى إلى تحقيقها، لكن عودته بهذه الشعبية الجارفة لم تكن تعني سوى مواصلة التحدي لكل إنجازات إسرائيل ومكاسبها في أعقاب الحرب وإهدارها بكل الوسائل الممكنة، وكانت إسرائيل تحسب لعبد الناصر ألف حساب، ليس فقط للكاريزما الكاسحة التي يتمتع بها والتي يمكن أن تحول الشعب إلى طاقة عاتية، بل للعقلية العلمية الحسابية الدقيقة سواء على المستوى الاستراتيجي أو التكتيكي، وهذا يعني أن الأمور لن تسير على منوال الأحلام السعيدة التي راودت إسرائيل في أعقاب انتصارها الذي اختطفته في غفلة من الطرف الآخر، فعاد جنودها إلى التخندق والتشرنق ليجددوا ذكريات الماضي الذي تخندق فيه أجدادهم في أحياء الجيتو الشهيرة في مدن العالم المتناثرة.

وبرغم ادعاء إسرائيل للعبقرية العسكرية بمناسبة أو غير مناسبة، فإن انتصارها الخاطف المقتنص لم يساعدها على امتلاك النظرة الاستراتيجية الشاملة ذات المدى البعيد، بل ظلت تحل مشكلاتها يومًا بيوم بناءً على تحركات وخطوات الجانب المصري الذي امتلك زمام المبادرة بعد أسبوع من هزيمته المنكرة، يقول شارون:

«وهكذا في غياب نظرة شاملة وبعيدة المدى وجدت قواتنا نفسها معرضة للنيران المصرية من دون حماية أو ملجأ، فقررت من تلقاء نفسها بناء المعاقل، وبمرور الوقت اتسعت الإنشاءات الدفاعية، وبحلول عام 1968م تحول إلى خط محصن حقيقي، لكنه في العام نفسه تعرضت مواقعنا لإطلاق نيران كثيفة من المدفعية المصرية الثقيلة سبب لنا خسائر جسيمة، بعد ذلك صار الانسحاب أو البقاء قضية كرامة، ولذلك كثر الجدال حول وسائل حماية الخط الذي فرضته الأحداث كأمر واقع لا بديل عنه».

وهذه الأحداث كانت من صنع المصريين، كان عبد الناصر يؤكد لإسرائيل بكل خطواته المحسوبة استحالة الوضع الذي ترتب على حرب يونيو 1967م، وهو وضع لا بد أن تدفع إسرائيل ثمنه من أرواح جنودها وأموال خزائنها، بحيث يستمر النزيف الإسرائيلي إلى أن تتأكد إسرائيل من عجزها عن مواصلة الإنفاق وتحمل كل هذه الخسائر التي ترتبت على انتصارها المفاجئ والمفتعل، يحلل شارون الموقف فيقول:

«لم يحصل أول نقاش عميق حول الدفاع عن سيناء إلا قرب نهاية عام 1968م بعدما تكبدت قواتنا خسائر فادحة على ضفة القناة، وتمخض الجدل عن قرار ينص ليس فقط على البقاء حيث نحن بل على بناء اثنين وثلاثين موقعًا محصنًا يمثل كل منها نوعًا من القلعة المصغرة القادرة على الصمود في وجه القذائف المدفعية الأفقية، وتم إنفاق أموال طائلة لبناء الشبكة الدفاعية المعتمدة على نظام السواتر الرملية العالية على امتداد القناة، والغرف المحصنة تحت الأرض، ومزالق الدبابات، ومخازن التموين والذخيرة، وطرق الدورية... إلخ، وكان المفروض بهذا المجمع أن يؤمن لنا السيطرة على الممر المائي».

ونظرًا إلى خبرة شارون التي اكتسبها من قتاله ضد المصريين، كان يؤمن أن هذا الخط الدفاعي لن يقف في وجه الكاريزما الناصرية، خاصة بعد أن امتلك عبد الناصر ناصية الأمور في القوات المسلحة بتخلصه من مراكز القوى التي كانت السبب المباشر في الهزيمة، ولذلك ظل شارون يعارض بشدة إقامة خط بارليف سواء قبل تعيينه قائدًا للجبهة الجنوبية أو بعد ذلك، وكان يريد الاستعاضة عن قطاعاته وتحصيناته بمواقع دفاعية على التلال الواقعة إلى الشرق، وصدق حدس شارون؛ إذ أن قذائف المدفعية الثقيلة المصرية ظلت تنهمر عليه كالمطر الذي بلغ ذروته في ربيع 1970م، يقول

شارون:

«كانت المدفعية الثقيلة المصرية تقذف علينا حممها في تلك الأيام، ولكي نخفي حضورنا بالعربات التي يمكن أن تثير سحابات من الغبار، كنا نضطر إلى ترك عربة القيادة على مسافة من الحصن والسير على الأقدام، وكان دايان قد كُسرت ساقه قبل عدة أيام وهو يقفز هابطًا من طائرة هليوكوبتر، فكان يستند في سيره على عكازين وهو يمشي بصعوبة بالغة، وكنا في دورة تفقدية لأحد التحصينات المواجه لبور توفيق والمعروف باسم الرصيف، وكان «الرصيف» مثل باقي التحصينات، محجوبًا عن النظر بجدار سميك يلتف حول فناء داخلي، وفي نفس لحظة اجتيازنا السور بدأت القذائف المصرية تنهمر كالمطر».

«وعندما صفرت القذائف الأولى فوق رؤوسنا تكالب الجميع للاحتماء بالغرف المحصنة تحت الأرض، باستثناء دايان الذي انبطح أرضًا لعجزه عن الجري، وبصفتي قائدًا للقطاع لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي أن أترك وزير الدفاع نفسه على هذا النحو دون أية حماية؛ لذلك انبطحت إلى جانبه، وعلى هذا الوضع الحرج عندما كانت القذائف تنفجر حولنا، تلفت دايان ناحيتي قائلاً لي: إريك..! هذا النظام خطأ فادح، عليك أن تقنعهم بتغيير مفهومهم من أساسه».

ولم يكتف المصريون بالقصف المدفعي وإطلاق الصواريخ على المواقع الإسرائيلية، بل لعب الفدائيون المصريون دورًا متجددًا في وضع الجنود الإسرائيليين في حالة دائمة من القلق والتوجس والخوف؛ إذ لم يعرفوا من أين تأتي الضربات، سواء أكانت في شكل هجمات ضد الدوريات وعربات التموين والإمداد بالذخيرة، أو كمائن تصطاد الجنود الإسرائيليين أفرادًا وجماعات، كان الفدائيون المصريون يعبرون قناة السويس تحت جنح الظلام في مناطق لا تخطر ببال الإسرائيليين الذين يجدونهم فجأة بينهم كالأشباح التي تطلق القذائف وتلقي القنابل، وكان بعضهم يلتقي بالموت دون لحظة خوف واحدة، في حين كان البعض الآخر ينجح في العودة إلى قواعده سالمًا.

ولا شك فإن الروح المعنوية عند الجندي الذي يجاهد لتحرير أرضه تختلف تمامًا عن الجندي الذي يحتل أرضًا ليس ملكه؛ ولذلك كانت نسبة الخسائر في أرواح الجنود الإسرائيليين أعلى بكثير من الجنود المصريين بحكم امتلاكهم عنصر المفاجأة

والمبادرة، وشعورهم بأنهم ينتقمون لـزعيمهم عبـد الناصـر الـذي خذلتـه الظـروف في ظرف تاريخي غير موات؛ ولذلك يقول شارون:

«خـلال السـنوات الـثلاث لحـرب الاسـتنزاف لم يتوقـف المصـريون عـن إطـلاق مدافعهم، ففي كل ساعة كانت قنبلة تنفجر في قلب التحصينات، حيـث ينشـغل جنودنـا بإصلاح الأضرار وتحصين المواقع، وكانت هذه القنبلة أكثر من كافية لشل قدرتهم على الحركة والمبـادرة، وكانـت هـذه المبـارزات المدفعيـة اليوميـة، بالإضـافة إلى إطـلاق المدفعية الثقيلة مـن حـين إلى آخـر، وإلى الكمـائن والغـزوات ضـد دورياتنـا وعربـات تموييننا، تكلفنا أرواحًا غالية جدًا».

ولولا إيمان المصريين بمقدرة عبد الناصر عـلى اسـتعادة كـرامتهم التـي أهـدرت في يونيو 1967م، لما خاضوا حرب الاستنزاف بهذه الشراسة بعد أسبوع أو أسبوعين ومن هزيمتهم على حد قول شارون، كانت الكاريزما التي يتمتع بها عبـد الناصـر وشخصـيته المغناطيسية الآسرة سرعان ما تسري كمس كهربي في نفـوس المصـريين الـذين التفـوا حوله بنفس الثقة والإيمان والحماس الذي أحاطوه بـه مـن قبـل في كـل نقـاط التحـول التاريخي التي اعتاد صنعها، سواء على المستوى العسـكري أو المـدني؛ ولـذلك تحـول الوجود الإسرائيلي في سيناء إلى ضريبة فادحة لا تمت لنزهة المنتصرين بصلة، ومـن هنـا كان اعتراف شارون بأنه:

«كان واضحًا للجميع أن الجيش الإسرائيلي سيظل هناك حتى توقيـع معاهـدة سـلام حقيقية، وهذه الضريبة الفادحة كانت تعتبر آنذاك جزءًا من المجهود الكلي الـذي تبذلـه إسرائيل للوصول إلى تسوية سياسـية مـع مصـر، وحـين كانـت المناقشـات المحمومـة تجري حول مشكلات تكتيكية، وحول أفضل صيغة لتأمين الدفاع عن سيناء كان هنـاك اتفاق تام على المستوى السياسي بخصوص الاحتفاظ بمكاسبنا العسكرية حتى تحقيـق الاتفاق».

لكن عبد الناصر لم يكن يسعى أبدًا إلى صلح منفرد كانت إسرائيل تحلم به، بـل كـان يعلن باستمرار أن حقوق الشعب الفلسطيني وتحرير الجولان والضفة الغربية والقـدس قبل تحرير سيناء الذي تسعى إسرائيل إلى مقايضته بصلح منفـرد، ذلـك أن مصـر قـادرة

على تحرير سيناء دون التخلي عن قضاياها العربية القومية، وحرب الاستنزاف أكبر دليل مادي على هذه القدرة التي شكلت ضغطًا متزايدًا سواء على الجبهة العسكرية أو المدنية في إسرائيل؛ إذ برزت حركة احتجاج شعبية ضد سياسة الحكومة التي أصبحت تضحي بأبنائها من الجنود في سبيل الاحتفاظ بأراض سوف تجلو عنها إن عاجلاً أو آجلاً، وهي الحقائق التي يعترف بها شارون عندما يقول:

«ولكن عندما كانت قائمة القتلى تطول، برزت إلى الوجود أمام أنظارنا حركة احتجاج شعبية ضد سياسة الحكومة، وبدأ كل شيء بسلسلة من الرسائل التي وجهها طلاب الصفوف النهائية في بعض المدارس الثانوية إلى رئيسة الوزراء جولدا مائير، وعندما نُشرت في الصحف أثارت تحركات عميقة في الرأي العام، كما عُرضت على خشبة المسرح مسرحية نقدية لاذعة ساخرة عن حرب الاستنزاف، عنوانها «ملكة الحمام» لكن الرقابة منعتها لأنها تنسف معنويات الشعب».

أي أن إسرائيل التي تتباهى بأنها واحة الديمقراطية والحرية في الشرق الأوسط تمنع مسرحية هدفها تنوير الجمهور في قضية تمس مصيره في الصميم بحجة أنها تنسف معنوياته، فإذا كانت الحقائق التي فرضتها حرب الاستنزاف على المجتمع الإسرائيلي برمته بهذه الخطورة لدرجة أن مجرد تجسيدها في عرض مسرحي كفيل «بنسف معنويات الشعب».

فلماذا واصلت القيادة الإسرائيلية عنادها باحتلال سيناء..؟ لمجرد أن تمتلك ورقة في يدها إذا ما حان وقت مفاوضات السلام الذي كان يبدو بعيدًا للغاية في ظل ثبات عبد الناصر على مبادئه القومية العربية، واستراتيجيته التي تتجاوز اللحظة الراهنة ولا تغرق بين طياتها؛ ولذلك صورت المسرحية سيناء على أنها حمام غرقت فيه إسرائيل، وإن كانت تصر على أنها لا تزال ملكة الحمام، خاصة وأن الجبهة الداخلية الإسرائيلية غرقت فيه مع الجبهة العسكرية، ولم تفعل الحكومة الإسرائيلية شيئًا تجاه ضحايا الاستنزاف سوى إمدادهم بأوهام البطولة والتصدي لكل ما يهدد مصير دولتهم، يقول شارون:

«أبطال الحرب الحقيقيون هم أولئك الجنود المجهولون الذين عاشوا أشهرًا طوالاً، ليلاً ونهارًا، في حصونهم تحت القصف وقذائف العدو المتواصلة، لكنهم لم يكونوا وحدهم فثمة فرق عديدة من المدنيين كانوا يعملون في تشغيل الجرافات والجرارات

الآلية وغير ذلك من التجهيزات الثقيلة لبناء خطوطنا الدفاعية وتدعيمها بصفة مستمرة، فهؤلاء أيضًا كانوا معرضين دائمًا لنار العدو، ومع ذلك بذلوا بلا حساب وبشجاعة وبطولة لا يقلل من قيمتها عدم تسليط الأضواء عليها في حينه».

أي أن الحرب كانت استنزافًا للمجهود الحربي والمدني على حد السواء، فطاقات مدنية كثيرة معطلة بسبب تكريسها للمجهود الحربي مما يؤثر بالسلب على الحياة الاقتصادية والتنموية في إسرائيل بصفة عامة، وبرغم أن إسرائيل أدركت أن عبد الناصر يتصرف على أساس أنه خسر معركة ولم يخسر الحرب، فقد كان من الصعب عليها أن تنسحب من سيناء بلا مقابل.

وبالتالي وجدت نفسها في مصيدة لا تستطيع الخروج منها بإرادتها، ووطدت نفسها على مواصلة الحياة تحت وطأة هذا الكابوس مهما كانت الخسائر فادحة، وقد أخفت حقيقة هذه الخسائر عن الجبهة الداخلية حتى لا يصيبها مزيد من التشقق، في الوقت الذي بذل فيه الحاخام الأكبر للجيش جهودًا مضنية لرفع الروح المعنوية للجنود المهددين بالموت في كل لحظة يقضونها في الجبهة الجنوبية، يصف شارون الحالة المتدنية للجنود فيقول:

«كان الحاخام الأكبر للجيش، شلومو جورين، يزورنا باستمرار كي يصلي مع الجنود ويقضي الليل معهم، وعندما يتفق وجودي هناك أفاجأ بنفسي أصغي بأذن إلى الطقس وبالأخرى إلى انفجارات القذائف حولنا، سيظل سرًا بالنسبة إليَّ كيف كان هؤلاء الجنود يستطيعون أن يصلوا بصفاء، وهو صفاء كان جورين يفقده أمام وفاة بعضهم، فلقد شاهدته ذات يوم يحفر الأرض بيديه ليستخرج جثث بعض الجنود الذين دفنتهم في حصنهم قذيفة سوفيتية من عيار 152 ملم، أخرج الجثث الواحدة تلو الأخرى، رافضًا أي عون أو حضور إلى جانبه، وشاهدته منكبًا على الرمال، يعمل تحت مظال صغيرة قد تتحطم في أية لحظة».

كان عبد الناصر واعيًا تمامًا بالآثار المدمرة لحرب الاستنزاف عندما تجعل من الجنود والضباط الإسرائيليين هدفها الأثير، فلا شيء يصيب إسرائيل في مقتل سوى خسارتها في الأرواح البشرية التي لا تستطيع تعويضها، أما الخسائر في السلاح والمال

فيمكن تعويضها بسهولة من ترسانات وخزائن الولايات المتحدة المفتوحة على مصراعيها بلا مقابل وبلا حساب.

كان عبد الناصر يهدف إلى نقل الحرب إلى كل بيت في إسرائيل يموت فيه أو يُصاب أحد أبنائه، بحيث يمكن في النهاية أن تتحول هذه البيوت إلى تجمع لا تستطيع الحكومة تجنب ثقله وتأثيره على مجريات الأمور العسكرية؛ أي أن عبد الناصر كان يضغط على إسرائيل من الخارج والداخل حتى تعاودها عقدة الجيتو أو الانعزال أو الحصار التي عانى منها اليهود في حياتهم المتناثرة في بقاع الأرض، يعلق شارون على هذه الاستراتيجية الناصرية ويقول:

«عندما أطلق المصريون حربهم الاستنزافية، كانوا يراهنون على الحساسية المفرطة عند الإسرائيليين لخسارة أرواح بشرية، ويأملون في تكبيدنا ما يكفي من خسائر تجعل الوضع لا يُطاق في نظر الشعب، وكنا على علم بما يراهنون عليه، ولذلك فعلنا المستحيل لنبرهن أن مصر هي أكثر عرضة للتجريح منا، وأن قصفهم المتواصل سيرتد عليهم، صحيح أن قوة نيرانهم على طول القناة كانت أقوى من قواتنا، لكننا لم نكن نكتفي بالقصف المدفعي للرد عليهم، ففي عام 1969م قبل أن أتولى قيادة الجبهة، كانت قواتنا قد نجحت في القيام بغارات مثيرة، في 29 يوليو قامت وحدة من الضفادع البشرية بغزو الجزيرة الخضراء وتدميرها، وهي نوع من الحصن على الطرف الشمالي لخليج السويس، فيها رادار وبطاريات مدفعية مضادة للطيران تسيطر على المجال الجوي».

كانت القيادة الإسرائيلية تحاول بقدر الإمكان التخفيف من وطأة الضغط المصري على الضفة الشرقية للقناة، فقد اضطر إلى السيطرة والاحتفاظ بشبه جزيرة سيناء إلى تمركز أكثر من خمسين ألف جندي وضابط في المواجهات المختلفة، أو الاحتياطي المحلي، أو الاحتياطي التعبوي، أو أفراد الشئون الإدارية، والمواصلات الداخلية، أو التخزين، أو الورش والإصلاحات الميدانية المتقدمة، وقد أجبرت هذه الأعباء إسرائيل على تغيير وحداتها في سيناء كل ثلاثة أشهر، والاستعانة بالجنود الاحتياطيين الذين كان معظمهم من اليهود الشرقيين ذوي القدرة العسكرية المحدودة، حتى لا ترهق القوات العاملة المدربة من جراء استمرارها في هذه المواجهات تحت وطأة الضربات التي لا تتوقف، سواء اتخذت شكل أعمال قصف أو نسف المنشآت الإدارية ومخازن المياه في

سيناء على أيدي الدوريات المقاتلة.

وكانت نتيجة هذه الضغوط والضربات والهجمات أن هبطت الروح المعنوية للجنود الإسرائيليين، مما أجبر موشيه دايان وزير الدفاع على زيارة الجنود على الجبهة المصرية يوم 15 يوليو 1967م لتهدئة مشاعرهم، ولم يكن قد مضى على انتصار إسرائيل الخاطف أكثر من أربعين يومًا، وكان من الطبيعي أن يشيد دايان بانتصارات الجيش الإسرائيلي في يونيو 1967م، لكن الجنود ردوا عليه بقولهم إن هذا الانتصار مثل العملة الورقية ليس لها رصيد مضمون.

هكذا طبق عبد الناصر منذ البداية على إسرائيل المبدأ العسكري الذي يقول: «إن احتلال الأرض شيء لكن الاحتفاظ بها شيء آخر»؛ ولذلك لجأت القيادة الإسرائيلية إلى ضرب العمق المصري بالطيران حتى تخفف الضغط على سيناء، وبلغت الغارات الإسرائيلية ذروتها في عام 1970م لتضرب أهدافًا عسكرية ومدنية في العمق المصري، وهي تدرك أنها غارات تستطيع أن تخترق الدفاع الجوي المصري دون أخطار كبيرة لعدم امتلاك مصر لوسائل الردع الكفيلة بإيقاف هذه الغارات عند حدها، ومع ذلك يعترف شارون بالحرف الواحد:

«غير أن هذه الغارات على قلب مصر نفسها كانت لا تزال غير كافية لإقناع عبد الناصر بإيقاف الضربات والهجمات، بل على العكس توجه مرة أخرى إلى حلفائه السوفيت طالبًا منهم أن يزودوه بالوسائل الكفيلة بمتابعة إهراق الدم في المعسكر الإسرائيلي».

وبرغم مرض السكر الذي اشتدت وطأته على عبد الناصر، والنوبة القلبية الحادة التي أصابته ظل صامدًا وصلبًا كالصخرة في مواجهة كل الضغوط العسكرية الإسرائيلية، لم يعدم أبدًا القدرة على المواجهة أو المناورة أو التخطيط أو إيجاد المنافذ والبدائل التي من شأنها تطوير استراتيجيته من مرحلة إلى أخرى، كان قادرًا دائمًا على تكوين قوة الدفع الكفيلة بتحويل قراراته إلى إنجازات واقعية يلمسها الجميع، وبالفعل أرسل إليه السوفيت في بداية ربيع 1970م شحنات كثيفة من الصواريخ سام 3 المضادة للطائرات، وهي الصواريخ التي رأى شارون فيها أكثر الأسلحة تقنية في ذلك الوقت، كذلك كان ما

يحنق شارون أن عبد الناصر تقبل وجود فرق من الخبراء السوفيت لتشغيل هذه الصواريخ بلا عقد أو حساسيات، مما يدل على عقليته الحسابية والاستراتيجية التي تجنبه دائمًا الدخول في طرق مسدودة.

كذلك أصبح لدى سلاح الطيران المصري حوالي مائة طائرة من طراز ميج 21، يقودها أطقم سوفيتية كاملة، أتاحت لعبد الناصر حماية جوية قوية، وبذلك استطاع بالسياسة أن يوقف الغارات الإسرائيلية على العمق المصري بعد أن أدرك أن قدراته العسكرية لا تفي بهذا الغرض، بل إنه غيّر الموازين العسكرية في المنطقة لغير صالح إسرائيل وأمريكا، يحلل شارون هذه الخطوة الاستراتيجية فيقول:

«كانت تلك أول مرة يشارك فيها خبراء وضباط وجنود سوفيت بأعداد ضخمة، مشاركة فعالة في حرب الشرق الأوسط، ولقد امتنعت إسرائيل عن كشف هذا السر أمام الجمهور العريض، وكذلك فعل الاتحاد السوفيتي من جهته، غير أن الدور الجديد الذي بدأت موسكو تلعبه في الصراع كان يثير القلق برغم سريته، فقد سيطر خمسة عشر ألف جندي سوفيتي من مطلقي الصواريخ والفنيين والطيارين على الشريان الرئيسي التقليدي لأوروبا الغربية والذي يصل القارة الأوروبية بالخليج الفارسي، وكان على إسرائيل أن تجابه عسكريًا؛ لأول مرة في تاريخها، إحدى القوتين العظمتين».

وبذلك تلاشت سعادة شارون بالنتائج التي حققتها الغارات الإسرائيلية في العمق المصري؛ لأن الفدائيين المصريين واصلوا عملياتهم على الخطوط الإسرائيلية بطول القناة، ثم وصل السوفيت ليغيروا تمامًا كل المعطيات الميدانية، ذلك أن قواعد الصواريخ التي كانت من قبل تحمي العمق المصري، شرع المصريون بتحويلها بالتدريج نحو القناة، وكانت طائرات ميج 21 تقوم بطلعات استكشافية لحماية المجال الجوي للقاهرة، موسعة بالتدريج منطقة طيرانها تجاه الشرق، ونظرًا إلى أن الولايات المتحدة لم تتخذ موقفًا أو تبد رأيًا بخصوص هذا الوضع الجديد، فقد ألزم شارون الحذر الذي عبر عنه بقوله:

«لذلك أعطيت في البدء أوامر لطيارينا بتجنب المواجهات المباشرة مع المطاردات السوفيتية، ولكن مع مرور الوقت أدركنا في النهاية أن إسرائيل لا تستطيع أمام هذا الخيار إلا أن تظهر موقفًا حازمًا، فعندما نسمح للطائرات والصواريخ السوفيتية أن

تحمي ليس فقط العمق المصري بل منطقة القناة أيضًا، نجازف بخسارة خطوطنا، ونفقد قدرتنا على مواصلة الضغوط على عبد الناصر لإيقاف حرب الاستنزاف، بالإضافة إلى تعريض دفاعاتنا للخطر».

لذلك ضاعف شارون من قصف المواقع المصرية، وشرع الكوماندوز الإسرائيليون في عبور القناة إلى الضفة الغربية شمال القنطرة لتحطيم ما يمكن الوصول إليه من مواقع، وحصلت مناوشات بين الطائرات الإسرائيلية وطائرات الميج السوفيتية، لكن الأمور لم تكن بهذه البساطة؛ إذ أن عبد الناصر شحن الموقف السياسي الدولي بحساسيات يمكن أن تتفاقم وتتحول إلى مواجهة بين القوتين العظمتين اللتين تخشيان بطبيعة الحال مثل هذه المواجهة، والولايات المتحدة على استعداد أن تساعد إسرائيل إلى نهاية المدى باستثناء التورط في المحظور الذي لا يستطيع أحد التكهن بنتائجه المخيفة.

وكان عبد الناصر يضرب على هذا الوتر المشدود بحنكة بالغة، فلم يكن عبد الناصر بقبوله لتواجد الخبراء والضباط والجنود السوفيت مفرطًا في السيادة المصرية؛ لأن نظرته الاستراتيجية كانت أبعد وأعمق من ذلك بكثير، فقد كان يهدف إلى إدخال إسرائيل في الطريق المسدود الذي لا يستطيع الخروج منه برغم مساعدة أمريكا الحميمة لها؛ لذلك يعترف شارون بحساسية الموقف وحرجه فيقول:

«كان الموقف بالغ الدقة والحساسية، فلم نكن نستطيع غض النظر عن وضع تصير فيه الجبهة المصرية محمية بغطاء جوي سوفيتي، ويسمح للمصريين بمواصلة قصفهم المدفعي، والإعداد بهدوء لما كان الرئيس عبد الناصر يسميه «مرحلة التحرير»، ولكن من جهة أخرى كان الصدام المباشر مع القوى السوفيتية يحمل في طياته خطر خلق ظروف جديدة تمامًا، لا يستطيع أحد التكهن بنوعية أخطارها المحتملة والمتوقعة».

ودهش شارون عندما قبل عبد الناصر مبادرة روجرز في 7 أغسطس 1970م برغم درايته بأسلوب عبد الناصر الذي يحمل في طياته دائمًا أكثر من مفاجأة وأكثر من مبادرة؛ إذ أن معينه من المناورات والمرونة لم ينضب حتى في أصعب مراحل الحصار التي مر بها، وقبلت إسرائيل المبادرة الأمريكية على الفور وتوقفت المعارك بالفعل، وكانت سعادة إسرائيل بها غامرة لأن نزيف الدم الإسرائيلي الذي كان يتفجر يوميًا على خط

بارليف قد توقف مما منح القادة الإسرائيليين فرصة لالتقاط الأنفاس، وحفظ ما تبقى من ماء وجوههم أمام المجتمع الإسرائيلي الذي أدرك منذ البداية أن عبد الناصر قد جعل من سيناء فخـًا لاصطياد زهرة الشباب الإسرائيلي بصفة يومية.

كانت دهشة شارون ومعه القيادة الإسرائيلية كلها لقبول عبد الناصر بوقف إطلاق النار، نتيجة لمعرفتهم بأنه أصبح في وضع أفضل لاستمرار القتال بعد المساندة السوفيتية التي حصل عليها أخيرًا، لكن الدهشة سرعان ما تلاشت عندما حصلوا على المعلومات التي أكدت لهم أنه:

«في خلال الأشهر الأخيرة كان الروس يدفعون إلى الأمام خطوة تلو خطوة منصات إطلاق صواريخ سام 3، موسعين بذلك مداها في اتجاه القناة، وكان نقل المنصات هذا قد شكل الهدف الأول للطيران المصري الذي تحول إلى «مدفعية طائرة»، وعندما حاولت إسرائيل وقف تقدم المنصات، دفعت ثمنـًا غاليًا بسقوط عدة طائرات لها، وعندما كان وقف إطلاق النار يدخل حيز التنفيذ، كانت صواريخ سام 3 وطواقمها تُنقل إلى الشرق، وبدا واضحًا أن المصريين والروس قبلوا هذه الهدنة ليس بهدف التوصل إلى حل، كما نص الاتفاق مع وزارة الخارجية الأمريكية، بل كحيلة تسمح لهم بإعادة انتشار صواريخ سام 3 إلى الأمام دون أن تتعرض – مؤقتـًا على الأقل- لهجمات الطيران الإسرائيلي».

أي أن قبول عبد الناصر لوقف إطلاق النار كان مجرد وسيلة مؤقتة لغايات أشمل وأبعد في الاستراتيجية ذات الأبعاد والأعماق المتعددة، وكانت الخطوة الأولى في هذه المرحلة من استراتيجية تنهض على انتشار الصواريخ حتى يصبح المجال الجور فوق القناة محظورًا على الطائرات الإسرائيلية التي يحددها شارون بطرازي الفانتوم والسكاي هوك، وبذلك يستطيع المصريون إعادة قصف القوات الإسرائيلية في شرق القناة بكل بطاريات مدافعهم دون أن يستطيعون استكمال استعداداتهم بلا خوف من عقاب، وإذا قرروا عبور القناة فإن شارون لا يستطيع أن يستخدم طيرانه لإيقافهم؛ ولذلك يعترف في مذكراته بقوله:

«إذا قبلنا بهذا الوضع على مضض، نكون قد قبلنا خوض حرب جديدة لا مفر عنها».

هكذا وضع عبد الناصر إسرائيل في موقف لا تحسد عليه بعد أن صور لها غرورها أنها كانت وستظل سيدة الموقف بلا منازع، والدليل على ذلك أن قادتها أصيبوا في أعقاب وقف إطلاق النار بعصبية وتوتر وقلق بل وخوف لم يشعروا بمثله حتى تحت وطأة أشد الضربات المصرية التي كانت تنهال كالمطر على قواتهم، وبذلك أدركوا أن عبد الناصر خصم لا يحيد عن أهدافه الاستراتيجية سواء أكانت الجبهة مشتعلة أم هادئة..؟! إنه لا يترك ورقة في يده إلا ويلعب بها بمهارة فائقة، بل إنه يصنع الأوراق التي تحقق أهدافه حتى لو كانت يده خاوية من مثل هذه الأوراق، وهو قادر دائمًا على تحريك الأمور لصالحه كلما بدت أنها دخلت في طرق مسدودة، وذلك من خلال ابتكاره المستمر للبدائل وقوى الدفع، وفتحه للثغرات والمنافذ التي يطل منها على العالم بمبادرات جديدة يصعب التكهن بأبعادها وآفاقها عند الوهلة الأولى؛ ولذلك يعترف شارون بقوله:

«كان الوقت يعمل ضدنا؛ لذلك أسرعت قيادة الجنوب والأركان العامة إلى فتح باب النقاش حول الإجراءات الواجب اتخاذها، من جهتي أوصيت بعمل حازم قاطع، بينت أن علينا أن نجتاز القناة قرب القنطرة لهدم قواعد صواريخ سام في المنطقة ثم ننسحب، مع الاحتفاظ برأس جسر صغير على الضفة المصرية؛ على أن نعلن نيتنا صراحة بعدم التوغل أكثر من ذلك حتى لا نشعل حربًا شاملة، مع الاشتراط بعدم قبولنا نشر صواريخ إضافية، وحازت الخطة القبول عندما عرضتها واعتمدتها قيادة الأركان».

لم يكن شارون واعيًا بالمستجدات والمتغيرات السياسية التي أحدثها عبد الناصر في المنطقة، وترتب عليها بطبيعة الأمر متغيرات عسكرية في الموازين السائدة، فقد كان يتصرف بنفس المنطق الذي ساد فكر القيادة الإسرائيلية في أعقاب حرب يونيو 1967م، ولم يدرك أن حرب الاستنزاف أحدثت من التغييرات الجذرية ما يصعب تجاهله بهذه البساطة، وهذا دليل على أنه كان من الصعب التخلص من الغرور والصلف الإسرائيليين اللذين ترسخا في العقيدة العسكرية الإسرائيلية بعد انتصارها الخاطف الذي كان استثناءً لن يتكرر؛ لذلك شرع شارون بمنتهى الحمية والحماس في دراسة النواحي العملية لعبور القناة بالقوة، تفحص بدقة المواقع المناسبة، ومنها القنطرة في القطاع الجنوبي، وحرص على اختيار مواقع تحمي قوة العبور والإنزال البحري بعامل

طبيعي أو أكثر مثل المستنقعات التي يستحيل عبورها عند القنطـرة أو خلـيج السـويس عند مدينة السويس، وهكذا يزداد تمكن قوة الإنزال من جراء اختراق محـدود للجبهـة، وهو ما كان شارون يوصي به دائمًا.

وقع اختياره في النهاية على القنطرة حيث تمتد إلى شمالها وغربها بحيـرات ومسـتنقعات من شأنها أن تؤمن حماية أوسع من تلك التي يوفرها خلـيج السـويس، بالإضـافة إلى سـهولة الدفاع عن رأس الجسر في تلك المنطقة، وفي جنوب القنطرة يتصل أحد فـروع النيـل بقنـاة ري من المياه العذبة، موازية لخط المياه البحرية في القناة، وكما تحمي المستنقعات الجناح الأيمن لقوة الإنزال البحري، كذلك تحمي قناة الري جناحها الأيسر، وعنـدما يسـتقر رأس الجسر في القنطرة يهدد معظم القوات المصرية المرابطة في الجنوب.

لكن الحكومة الإسرائيلية كانت تملك من الوعي السياسي ما يفتقده شارون الذي كـان كل همه أن يحقق بطولات عسكرية تخلد اسـمه، بصـرف النظـر عمـا إذا كـان في الإمكـان تحقيقها أم لا..؟! كانت الحكومة الإسرائيلية تدرك أبعاد الخطوة الجديدة التي اتخذها عبد الناصر في مراحل استراتيجيته السياسية والعسكرية ذات النفس الطويل واللاهث في الوقـت نفسه؛ ولذلك صوتت الحكومة ضد عبور القناة برغم توصية الأركان، وذلـك عـلى أسـاس الاكتفاء بوقف إطلاق النار والسماح بنشر قواعد الصواريخ.

وكان هذا القرار مثار قلق ممض لمن يطلقون عليهم اسـم «الصـقور» وفي مقـدمتهم شارون؛ إذ أنهم رأوا في هذا القرار ضعفـًا خطيـرًا، يمكـن أن يكـون بدايـة لإهـدار كـل الإنجازات التي تحققت في أعقاب يونيو 1967م، فلم يعد الوضع بطول القناة كما كـان من قبل، بالإضافة إلى اعتبار خط بارليف بمثابة كارثة وثمـرة لعقيـدة حربيـة عفـا عليهـا الزمن، على نمط خط ماجينو، ولا يمكن قبولها في عصر النفاثات والقوات المحمولة إلى أي مكان في الجبهة، من هنا كان قرار مجلس الـوزراء بعـدم الـرد عـلى نقـل المصـريين للصواريخ إلى هذا القطـاع يـنم عـن ضـعف متنـاه لم يعهـده أحـد مـن قبـل في الجانـب الإسرائيلي، وقد عبر شارون عن هذا التوجه في رسالة إليـه مـن حاخـام كبيـر نشـرها في مذكراته للتدليل على تراجع الحكومة الإسرائيلية في مواجهـة عبـد الناصـر بـدلاً مـن أن تحاول ردعه، يقول الحاخام لشارون:

«في البدء كانت الأمور رهن مشيئتنا، لكنها فرضت علينا أخيرًا، فمنذ سـنة أو اثنتـين

كان القرار في يدنا، ومع ذلك فإن الحكومة أنبأت الطرف الأخر من الصراع أن إسـرائيل مستعدة لإعادة الأراضي «المحتلة» بدلاً من أن تقول «الأراضي المحـررة»، كـان ذلـك خطأ لأنه لا يدل إلا على الضعف والاستكانة، فالحكومة الإسرائيلية بامتناعها عـن الـرد على نقل صواريخ أرض- جو إلى منطقة القناة، تستكين إلى هذا الموقف الجبان».

ويعترف شارون إنه لم يكن يتابع الشئون السياسية في تلك الفتـرة؛ ولـذلك لم يكـن في قدرته الحكم على حتمية هذا القرار الذي أصرت عليه الحكومـة؛ إذ أن عبـد الناصـر لا يقدم على خطوة جديدة إلا بعد أن يكون قد درس كل احتمالاتها، وعمل حسـابًا دقيقـًا لكل نتائجها، وأن ما جرى في يونيو 1967م كان مجرد استثناء من هـذه القاعـدة بـدليل الأداء السياسي والعسكري المتمكن الذي برز بعد أسبوع أو أسبوعين من الهزيمة التـي ظنت إسرائيل أنها ستكون النهايـة الحتميـة لعبـد الناصـر، وبـدليل المبـادرة السياسـية والعسكرية التي منحته من قوة الدفع في ربيـع 1970م مـا جعـل الحكومـة الإسـرائيلية ترضخ لنشر قواعد الصواريخ المصرية دون أن ترد عليه، وتكتفي بوقـف إطـلاق النـار الذي اعتبره شارون «قرارًا يقص أجنحتنا من وجهـة النظـر العسـكرية المحضـة، وبعـد ثلاث سنوات كلفنا وضعًا أدى بنا إلى كارثة خوض حرب كيبور» على حد قول شارون.

أي أن شارون يعترف أن عبد الناصر استطاع بطريقة أو بأخرى أن يقص أجنحة إسرائيل من وجهة النظر العسكرية المحضة، وهـذا يعنـي أنـه لم يتوقـف لحظـة واحـدة منـذ يونيـو 1967م عن تطوير الموقف العسكري والسياسي ثـم تحويلـه وتصـعيده لصـالحه، طبقـًا لاستراتيجية محسـوبة المراحـل ودقيقـة الخطـوات وتضـع كـل الاعتبـارات الممكنـة في حساباتها؛ لذلك لم يكن النداء الذي وجهه في خطابه في عيد العمال في أول مـايو 1970م إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون بمثابة استغاثة بالولايات المتحدة كي ترحمه مـن أهـوال الحرب الجارية على القناة والعمق المصري كما ظنت إسرائيل في البداية.

بل كان واقع الأمر يستخدم أمريكا كأداة لتنفيذ ما فعله في الجبهة عندما نشـر قواعـد الصواريخ وغير ميزان الوضع العسكري فيها دون أن تجرؤ إسرائيل على مهاجمتـه، وهـو ما يفسر قبوله السلس لمبادرة روجرز في 7 أغسطس 1970م بحيث لم تجد إسرائيل هي الأخرى بدًا من قبولها، أي أن عبد الناصر كان متمسكًا بزمام المبادرة في يده وإن بدا غير

ذلك، بدليل أن إسرائيل كانت ترقص على الأنغام الخفية التي يعزفها وهي تظن أنه بلغ حافة أو هاوية اليأس.

كذلك يعترف شارون أن عنصر المبادرة الذي امتلكته مصر عندما شنت على إسرائيل حرب 1973م، كان الفضل فيه يرجع إلى الوضع العسكري الذي فرضه وخطط به عبد الناصر في 1970م، فقد شكلت قواعد الصواريخ المنتشرة في جبهة القناة ستارًا لحماية الجبهة الداخلية والعمق المصري، وهي قواعد لم يكن من الممكن إقامتها في فترة وقف إطلاق النار من 7 أغسطس إلى 6 أكتوبر 1973م، وإلا كان من حق إسرائيل أن تشن حربًا وقائية متذرعة في ذلك بخرق مصر لوقف إطلاق النار، أو باستعدادها لاستئناف الحرب؛ ولذلك يؤكد شارون أن كارثة إسرائيل في أكتوبر 1973م كانت قد بدأت في أغسطس 1970م.

ولم تكن نهاية حرب الاستنزاف بمثابة نهاية لقلق إسرائيل وحيرتها؛ إذ أن عبد الناصر لم يمنحها أي إحساس بالأمان سواء تحت وطأة قعقعة الحرب أو في ظل سكون وقف إطلاق النار، كانت تشعر دائمًا أن سيناء عارية أمامه ويمكن أن يضرب المواقع الإسرائيلية سواء بالمدفعية الثقيلة أو الصواريخ ذات المدى البعيد أو بالفدائيين أو بالطائرات في المرحلة التالية، لدرجة أن موشيه دايان وزير الدفاع فكر مرارًا في سحب كل قوات إسرائيل من منطقة القناة، يقول شارون:

«عندما انتهت حرب الاستنزاف في أغسطس 1970م بحثنا مرة أخرى عن أفضل صيغة لحماية سيناء، وهنا أيضًا كنت على خلاف عميق مع معظم ضباط الأركان، لكن موشيه دايان، وقد زادته الحرب خبرة، كان يصرح أكثر فأكثر أنه سيسحب كل قواتنا من منطقة القناة، وكان تفكيره يجمع بين البساطة والمنطق، ذلك أننا إذا بقينا حيث نحن فإننا نخاطر بإشعال مجابهة جديدة سيعقبها بالضرورة ضغوط دولية، خاصة وأن إغلاق قناة السويس كان يتسبب في مشكلات جسيمة للملاحة الدولية، وفي المقابل فإننا إذا سمحنا لمصر بإعادة فتحها، فإننا قد نشجع الرئيس عبد الناصر على احترام عملية السلام معنا».

وعلى الرغم من اقتناع دايان بسلامة هذا التفكير وإيجابية هذا التوجه الذي كان يحلو له صياغته بتصريحات متعددة وملائمة في لقاءاته مع رفاق السلاح، فإنه كعادته كان يتجنب أن يأخذ موقفًا واضحًا ومحددًا، وبالتالي لم تُحل المشكلة إطلاقًا واكتفى

بترميم خط بارليف الذي أحدثت فيه المدفعية الثقيلة المصرية أضرارًا فادحة، ولكن بلا تجهيز للحصون والمواقع أو تزويدها بأعداد إضافية من الجنود، وظل الموقف في نظر شارون كثير التقلب وقد ينقلب جذريًا في أية لحظة.

وكان شارون محقـًا في قلقه وخوفه من أن ينقلب الميزان لغير صالح إسرائيل في أية لحظة؛ إذ أن خبرته التي اكتسبها من حرب الاستنزاف أكدت له أن عبد الناصر لا يترك الأمور أبدًا لتجري في أعنتها، بل إنه دائم التفكير والتخطيط والتصميم والتطوير والتصعيد بلا هوادة، وبإيقاع جعل إسرائيل تلهث باستمرار.

فمنذ يونيو 1967م وإسرائيل في حالة حرب ساخنة لم تشهد مثيلاً لها من قبل، فبعد نهاية العمليات العسكرية بقليل بدأ المصريون سلسلة من التراشق المدفعي المكثف مقرونة بكمائن ضد القوات الإسرائيلية المرابطة على الضفة الشرقية للقناة، ثم جاء مؤتمر القمة العربي في الخرطوم في بداية سبتمبر 1967م حيث اتفق الملوك والرؤساء العرب على ما سميَ «بسياسة اللاءات الثلاثة: لا للمفاوضات مع إسرائيل، لا للاعتراف بإسرائيل، لا للصلح مع إسرائيل».

ويعلق شارون على ذلك بقوله: «كانت النتيجة العملية والمباشرة لمؤتمر الخرطوم تصعيد جهود الحرب المصرية التي كانت حتى ذلك الوقت متقطعة وتجريبية، وفي منتصف سبتمبر وزع المصريون مدفعيتهم الثقيلة، مستهلين بذلك تراشقـًا مدفعيًا عبر القناة، وفي 21 أكتوبر أغرقت صواريخ مصرية البارجة الإسرائيلية إيلات، التي كانت تقوم بأعمال الدورية في المياه الدولية مع طاقمها المؤلف من سبعة وأربعين رجلاً، وعلى سبيل الانتقام دمرت مدفعيتنا، بعد أربعة أيام، المجتمع البترولي والبتروكيماوي الواقع في ضاحية مدينة السويس».

الانفجارات تهز إيلات والضابط نبيل عبد الوهاب يعود سابحًا 14 كم بزميله الشهيد البرقوقي(1)

توجهت المجموعات الثلاث من الضفادع البشرية المصرية إلى ميناء إيلات لوضع

---

(1) سعيد الشحات: جريدة الأهرام، بتاريخ 16 نوفمبر 2017م.

الألغام فى ثلاث سفن بالميناء (راجع: ذات يوم 15 نوفمبر 2017)، وذلك بعد أن صدرت لها إشارة متفق عليها من إذاعة صوت العرب بالقاهرة وكانت أغنية «بين شطين وميه» للمطرب محمد قنديل، حسبما تؤكد إنجى محمد جنيدى فى كتابها «حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل 1967-1970» عن «دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة»، وكانت هذه الأغنية تعنى أن الأهداف موجودة فى مكانها، أما أغنية «غاب القمر يا ابن عمى» لشادية، فتعنى أنها غير موجودة، حسبما يؤكد اللواء نبيل عبدالوهاب أحد أبطال هذه العملية، وكان برتبة «ملازم أول» فى حواره لجريدة «البوابة- يومية- مستقلة- القاهرة» يوم 5 أكتوبر 2014م.

ويؤكد اللواء محمود فهمى قائد سلاح البحرية، وقتئذ، فى سرده لتفاصيل العملية للكاتب الصحفى عبده مباشر فى كتاب «البحرية المصرية» عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة»، أن الخطة تضمنت أن ينتظر القارب المطاط الذى أقل أبطال العملية فى نفس المكان الذى نزلوا منه إلى المياه، لالتقاطهم بعد عودتهم، أى بين الساعة الثانية عشرة والنصف، والواحدة من صباح يوم 16 نوفمبر 1969م، ويضيف فهمى، أن التعليمات كانت، أنه إذا ما حدث طارئ، كأن لا يهتدى أحد إلى مكان القارب أو التأخير فى الوصول، يتم التوجه إلى الشاطئ الأردنى والتسليم إلى السلطات الأردنية، وحسب فهمى: «كان الرائد إبراهيم الدخاخنى من مكتب الملحق العسكرى المصرى بعمان ينتظر بميناء العقبة لتغطية مثل هذه الظروف»، ويضيف: «تقدمت الجماعات الثلاث سباحة فى اتجاه أهدافها.

وفى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق، وصلت الجماعة الأولى إلى الهدف المحدد لها، لكن «صف ضابط» الجماعة اضطر إلى الصعود للسطح لنفاذ الأوكسجين من جهازه، فأمره الملازم أول عمر عز الدين بالعودة إلى القارب المطاط، وتقدم هو لتلغيم السفينة بمفرده فى الساعة الحادية وخمس وعشرين دقيقة، ونزع تيل الأمان من اللغم، ثم بدأ رحلة العودة، وفى الساعة الواحدة والنصف وصل إلى المكان المتفق عليه، لكن تعذر عليه الوصول إلى القارب المطاط أو التعرف على مكانه، فاتجه سباحة إلى الشاطئ الأردنى وسلم نفسه إلى السلطات هناك، أما الجماعتان الثانية والثالثة، فظلتا تسبحان حتى وصلتا مسافة 150 مترا من الهدف وانفصلتا، وبدأت جماعة الملازم أول حسنين جاويش فى الغطس، وفى الساعة

الحادية عشرة وعشرين دقيقة أتمت تثبيت اللغمين فى الهدف، وعادت سباحة إلى نقطة الالتقاط، لكن الوقت كان متأخرا فلم تستطع العثور على القارب المطاط، فاتجهت إلى الشاطئ الأردنى، واختبأت فى مبنى مهجور حتى الصباح.

أما الجماعة الثالثة وتتكون من الضابط نبيل عبدالوهاب والرقيب فوزى البرقوقى، فشهدت دراما من نوع خاص، فبعد أن أنهت مهمتها فى حوالى الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، استشهد «البرقوقى»، ويروى «عبدالوهاب» فى حواره لـ«البوابة» القصة، قائلا: «استشهد البرقوقى بما يسمى (تسمم الأوكسجين)، وهو وارد حدوثه فى أى وقت حتى فى التدريب، وحله بسيط جدا وهو، الصعود إلى السطح وأخذ نفس عادى، لكن البرقوقى رفض، وأصر على أن يكمل العملية إلى نهايتها»، يضيف «عبدالوهاب»: «بعد تركيب لغمه أشار لى تحت المياه أنه يحتاج الصعود إلى السطح لأنه يشعر بالتعب، وما إن فعل حتى لفظ أنفاسه، ورغم أن التعليمات كانت تنص على أن أترك جثته، إلا أننى خالفت هذه التعليمات، وعدت بالجثة سباحة 14 كم حتى وصلت إلى العقبة بالأردن»، ويؤكد عبدالوهاب: «كانت القيادة أوصتنا فى حالة الوصول إلى العقبة أن نعترف بأننا ضباط ضفادع بشرية مصرية، ألقتنا طائرة هيلوكبتر لتنفيذ عملية فى إيلات، ولم تعد لتأخذنا، وقيادتنا أوصتنا أن نسلم أنفسنا لكم.

تم نقل الجميع إلى مبنى الاستخبارات الأردنية فى عمان، وفيما يؤكد اللواء فهمى، أن ما فعله «عبدالوهاب» مع الشهيد البرقوقى لم يحدث فى تاريخ الحروب البحرية، يتذكر عبدالوهاب أنه وأثناء احتجازه فى العقبة أحضر الأردنيون لهم ملابس ليرتدوها بدلا من ملابس الغطس، واستمع إلى الانفجارات التى هزت إيلات والعقبة، وتؤكد «إنجى جنيدى»، أن أولها كان فى تمام الساعة الواحدة وثلاث عشرة دقيقة صباح 16 نوفمبر، أعقبه خمس انفجارات أخرى لا تقل قوة عن الأول، مما أسفر عن تدمير سفينتين إسرائيليتين مع إحداث أضرار جسيمة فى الثالثة، وفى مساء نفس اليوم أصدر المتحدث العسكرى المصرى بيانا بالعملية.

▪▪ من الذبح إلى الكابوس [1]



1918 - 1970

في السادس من أكتوبر عام 1973م، في تمام الثانية ظهرا، بدأ هجوم القوات المسلحة المصرية والسورية، على الدفاعات الإسرائيلية في الضفة الشرقية لقناة السويس والجولان، وتواردت أنباء الهجوم المشترك على جميع المصادر الإعلامية، وتأكد للجميع صحة نبأ تلك العملية الهجومية من الجيشين المصري والسوري.

في تلك الأثناء، وفي العاصمة البلجيكية بروكسل، اجتمع ثلاثة صحفيين ممن تجمعهم صداقة وطيدة، ولهم خبرات سابقة في تغطية أحداث الأعمال العسكرية، وقرروا تغطية هذه الحرب وتوثيقها، فيما بعد، في كتاب مشترك.

واعتمادا على مرونة الجانب الإسرائيلي في التعامل مع الصحفيين، مقارنة بالبلاد العربية، فقد استصدروا تصاريح سفرهم على الفور إلى تل أبيب، بعدما نجحوا في الحصول على الموافقات الأمنية والعسكرية من وزارة الدفاع الإسرائيلية، على أن ينطلقوا منها إلى ثلاث وجهات مختلفة؛ أولاها رئاسة الأركان الإسرائيلية، وثانيتها الجبهة الإسرائيلية

(1) د. سمير فرج: جريدة الأهرام، العدد (47785)، بتاريخ 5 أكتوبر 2017م، ص12.

في سيناء، والأخيرة في جبهة الجولان من القيادة الإسرائيلية هناك.

وتم حجز تذاكر الطيران، وتوجه الثلاثة فورا إلى مطار بروكسل في انتظار موعد إقلاع الطائرة التي ستقلهم إلى تل أبيب، وفي كافيتريا المطار جلس الثلاثة يتشاورون حول الإطار العام لكتابهم، المقرر إصداره لاحقا، وتم الاتفاق على محتواه الذي لن يُوثق بدقة شديدة للحرب، كما سيشهدونها فحسب، وإنما سيتضمن بيانات وحقائق موثقة عن كل من القوات الإسرائيلية والمصرية والسورية.

تذكر مقدمة الكتاب المشار إليه، أن الصحفيين الثلاثة اعتمدوا في جمع معلوماتهم على حجم القوى العسكرية المشاركة في الحرب، على العدد رقم (115) المؤرخ يناير 1973م، من الإصدار السنوى للمعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية في لندن:

International Institute for Strategic Studies (IISS).

والمعرف باسم **The Military Balance** أو «ميزان القوى العسكرية»، والذي يُعد حتى يومنا هذا أقوى مصدر للبيانات العسكرية في العالم كله، وبنظرة بسيطة حتى من غير المتخصصين في الشأن العسكري، على حجم القوات العسكرية الإسرائيلية والمصرية والسورية والمقارنة بينهما، يظهر بوضوح التفوق الكمي والنوعي للجيش الإسرائيلي، فضلا عن وجود المانع المائي، المتمثل في قناة السويس على الجبهة المصرية، مما يجعل من الهجوم على سيناء وتدمير خط بارليف مهمة مستحيلة، أما على الجبهة السورية فقد كان الخندق المضاد للدبابات، الذي أقامه الجيش الإسرائيلى في دفاعاته في الجولان، سببا كافيا لوقف أى محاولة سورية للهجوم.

وتضيف مقدمة الكتاب، أن الصحفيين الثلاثة أثناء لقائهم في مطار بروكسل، قد تناقشوا حول مقترح لاسم الكتاب، ليكون لهم هاديا ونبراسا عند رصد وتدوين مشاهد هذه الحرب، تمهيدا لسردها وتوثيقها، فيما بعد. فكان **The Slay**، أو «الذبح» هو الاسم الذي اقترحوه، واستقروا عليه..!

وقد برروا هذا الاختيار في مقدمة كتابهم، بأنه اعتمد على قوة الجيش الإسرائيلي وتراكم خبراته، ذلك الجيش الذي انتصر على القوات المصرية في حرب الأيام الستة في يونيو 1967م، وظل موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، يردد مقولته

الاستفزازية بأنه جالس بجوار التليفون على الضفة الشرقية للقناة، في انتظار مكالمة من عبد الناصر يطلب منه فيها التفاوض على شروط الصلح.

وحيث إنه أمام الصمود المصري، لم يتلق ديان هذه المكالمة أبدًا، فقد خسر الإسرائيليون ميزة نصر 1967م، بعدم تحقيقهم لأي إرادة سياسية على العرب، سواء مصر أو سوريا أو الأردن، وبناء عليه فقد رأى الصحفيون الثلاثة أن إسرائيل لن تكرر تلك الغلطة، ولن تكتفي اليوم بتحقيق النصر في هذه الحرب، وإنما ستفرض على العرب، بل سترغمهم على قبول مطالبها السياسية، وتوقع الصحفيون أثناء تبادلهم أطراف الحديث في مطار بروكسل، أن القوات الإسرائيلية ستقوم هذه المرة «بذبح» القوى العسكرية العربية، لإجبار مصر وسوريا على الرضوخ لمطالب إسرائيل، وأن القتال لن يتوقف إلا بعد الاستسلام الكامل من مصر وسوريا.

وأقلعت الطائرة إلى تل أبيب، وهناك تفرق الصحفيون الثلاثة كل إلى وجهته، وفقًا لما هو متفق عليه؛ أحدهم إلى رئاسة الأركان الإسرائيلية، والثانى إلى الجولان، والثالث إلى سيناء، وكان من أهم ما تناوله الكتاب فيما بعد هي تلك الفصول التي وثقها الصحفي الأول، الموجود في رئاسة الأركان الإسرائيلية، فقد كان شاهد عيان، تمكن من رصد صدمة وذهول الإسرائيليين من براعة التخطيط المصري، ومن تدفق القوات المصرية عبر قناة السويس، وسقوط خط بارليف «المنيع»، واستسلام أفراد القوات الإسرائيلية.

يقول الصحفي إنه أمام تواتر الهجوم المصري، علق أحد القادة الإسرائيليين الموجود في مركز العمليات قائلاً: «إن المصريين يشبهون جيوش النمل التي تخترق أي موانع، ولا تستطيع إيقافها أو التصدي لها».

كما رصد هذا الصحفي دموع الحسرة في عيني جولدا مائير، رئيسة الوزراء الإسرائيلية، ووزير دفاعها موشى ديان يوم التاسع من أكتوبر، في اليوم الرابع للقتال، عندما أعلنا هزيمة إسرائيل في مؤتمر صحفي شهير، والذي تم التكتم عليه بعدما قررت الولايات المتحدة الأمريكية مد جسر جوي لدعم إسرائيل عسكريًا، فكانت الطائرات الأمريكية **C5** تهبط على مدى اليوم في مطار العريش، حاملة على متنها أحدث أنواع

المعدات والأسلحة، لنجدة القوات الإسرائيلية، لكن دون جدوى..!

وصدر الكتاب بعد الحرب، حاملا اسما مختلفا يليق بحقائق حرب أكتوبر 73، وما دار فيها **The Nightmare**، أي «الكابوس»، بديلا عما كان مقررًا له من أن يكون **The Slay**، أو «الذبح»، فقد كانت هذه الحرب حقا كابوسا على إسرائيل..!

■■ عبد الناصر والإسلام



1918 - 1970

في عهد جمال عبد الناصر تمت زيادة عدد المساجد في مصر من أحد عشر ألف مسجد قبل الثورة إلى واحد وعشرين ألف مسجد عام 1970م؛ أي أنه في فترة حكم 18 عامًا تم بناء عشرة آلاف مسجد، وهو ما يعادل عدد المساجد التي بنيت في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى عهد جمال عبد الناصر.

في عهد عبد الناصر تم جعل مادة التربية الدينية «مادة إجبارية» يتوقف عليها النجاح أو الرسوب كباقي المواد لأول مرة في تاريخ مصر، بينما كانت اختيارية في النظام الملكي.

وفي عهد عبد الناصر تم تطوير الأزهر الشريف وتحويله لجامعة عصرية تدرس فيها العلوم الطبيعية المدنية بجانب العلوم الدينية، يقول الأستاذ محمد فائق في كتابه «عبد الناصر والثورة الإفريقية» إن الرئيس عبد الناصر أمر بتطوير الأزهر بعد أن لاحظ من متابعته لأوضاع المسلمين في إفريقيا أن قوى الاستعمار الغربي كانت حريصة على تعليم المسيحيين العلوم الطبيعية «الطب، الهندسة، الصيدلة» ومنع تعليمها للمسلمين، ما أدى لتحكم الأقليات المسيحية في

دول إفريقية غالبية سكانها من المسلمين، وكانت هـذه الأقليـات المسـيحية تـتحكم في البلدان الإفريقية المسلمة، وتعمل كحليف ضمن مصالح قوى الاستعمار الغربـي التـي صنعتها؛ لذا صـمم الـرئيس عبـد الناصـر عـلى كسـر هـذا الاحتكـار للسـلطة، وتعلـيم المسلمين الأفارقة علوم العصر ليستطيعوا حكم بلدانهم لما فيه مصلحة تلك البلدان.

أنشأ عبد الناصر مدينة البعوث الإسلامية التي كانت ومازالت يدرس فيهـا عشـرات الآلاف من الطلاب المسلمين على مساحة ثلاثين فدانـًا تضم طلابًا قادمين مـن سـبعين دولة إسلامية، يتعلمون في الأزهر مجانـًا، ويقيمون في مصر إقامة كاملـة مجانـًـا أيضًـا، وقد زودت الدولة المصرية بأوامر من الرئيس عبـد الناصـر المدينـة بكـل الإمكانيـات الحديثة، وقفز عدد الطلاب المسلمين في الأزهر من خارج مصر إلى عشرات الأضـعاف بسبب ذلك.

وأنشأ عبد الناصر منظمة المؤتمر الإسلامي التي جمعـت كـل الشـعوب الإسـلامية، وفي عهده تمت ترجمت ترجمة القرآن الكريم إلى كل لغات العالم، وتم إنشاء إذاعة القـرآن الكريم التي تذيع القرآن على مدار اليوم، كما تم تسجيل القـرآن كـاملاً عـلى اسـطوانات وشرائط للمرة الأولى في التاريخ، وتم توزيع القرآن مسـجلاً في كـل أنحـاء العـالم، وتـم تنظيم مسابقات تحفيظ القرآن الكريم على مستوى الجمهورية، والعالم العربـي، والعـالم الإسلامي، وكان الرئيس عبد الناصر يوزع بنفسه الجوائز على حفظة القرآن، وتم وضـع موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي، والتي ضمت كل علوم وفقه الدين الحنيـف في عشرات المجلدات، وتم توزيعها في العالم كله.

وفي عهده أيضًا بُنيت آلاف المعاهد الأزهرية والدينيـة في مصـر، وتـم افتتـاح فـروع لجامعة الأزهر في العديد من الدول الإسلامية، وساند عبد الناصـر كـل الـدول العربيـة والإسلامية في كفاحها ضد الاستعمار.

وكان أكثر حاكم عربي ومسلم حرصًا عـلى الإسـلام ونشـر روح الـدين الحنيـف في العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس، وسجلت بعثات نشر الإسلام في إفريقيا وآسيا في عهد الرئيس جمال عبد الناصر أعلى نسب دخول في الدين الإسلامي في التاريخ، حيث بلغ عدد الذين اختاروا الإسلام دينـًا بفضل بعثات الأزهـر في عهـد الـرئيس جمـال عبـد الناصر 7 أشخاص من كل 10 أشخاص، وهـي نسـب غيـر مسـبوقة وغيـر ملحوقـة في

التاريخ حسب إحصائيات مجلس الكنائس العالمي.

وفي عهد عبد الناصر صدر قانون بتحريم القمار ومنعه، كما أصدر عبد الناصر قرارات بإغلاق كل المحافل الماسونية ونوادي الروتاري والمحافل البهائية، كما تم إلغاء تراخيص العمل الممنوحة للنسوة العاملات بالدعارة التي كانت مقننة في العهد الملكي، وتدفع العاهرات عنها ضرائب للحكومة مقابل الحصول على رخصة العمل والكشف الطبي.

في عهد عبد الناصر وصلت الفتاة لأمر مرة إلى التعليم الديني، كما تم افتتاح معاهد أزهرية للفتيات وكان الهدف منها هو تمكين الأم المسلمة من المشاركة في بناء المجتمع المصري والعربي والإسلامي عملاً بقاعدة «أن الأم مدرسة».

وأقيمت مسابقات عديدة في كل المدن لتحفيظ القرآن الكريم، وطبعت ملايين النسخ من القرآن الكريم وأهديت إلى البلاد الإسلامية، وأوفدت البعثات للتعريف بالإسلام في كل إفريقيا وآسيا، كما تمت طباعة كل كتب التراث الإسلامي في مطابع الدولة طبعات شعبية لتكون في متناول الجميع، فيما تم تسجيل المصحف المرتل لأول مرة بأصوات كبار المقرئين وتم توزيعه على أوسع نطاق في كل أنحاء العالم، وكان جمال عبد الناصر دائم الحرص على أداء فريضة الصلاة يوميًا، كما كان حريصًا أيضًا على أداء فريضة صلاة الجمعة مع المواطنين في المساجد.

توفيَ جمال عبد الناصر يوم الاثنين 28 سبتمبر 1970م والذي يوافق هجريًا 27 رجب 1390هـ، صعدت روح الرئيس جمال عبد الناصر الطاهرة إلى بارئها في ذكرى يوم الإسراء والمعراج، وهو يوم فضله الديني عظيم ومعروف للجميع.

وبخصوص الدين المسيحي كانت علاقة الرئيس جمال عبد الناصر ممتازة بالبابا كيرلس السادس، وكان جمال عبد الناصر هو الذي سأل البابا كيرلس السادس عن عدد الكنائس التي يرى من المناسب بناءها سنويًا، وكان رد البابا «من عشرين إلى ثلاثين»، وكان الرئيس عبد الناصر هو الذي أمر بأن يكون عدد الكنائس المبنية سنويًا خمسًا وعشرين كنيسة، وأن يكون التصريح بها بتوجيه من البابا نفسه إلى الجهات الرسمية.

وعندما طالب البابا كيرلس السادس من الرئيس عبد الناصر مساعدته في بناء

كاتدرائية جديدة تليق بمصر، واشتكى له من عدم وجود الأموال الكافية لبنائها، كما يحلم بها، قرر الرئيس عبد الناصر على الفور أن تساهم الدولة بمبلغ 167 ألف جنيه في بناء الكاتدرائية الجديدة، وكلف سامي شرف مع المهندس عدلي أيوب بالتوجه للكاتدرائية وتسليم البابا كيرلس الشيك وبدأت عملية البناء في نفس اليوم.

وبناء على أوامره كان يعقد اجتماع أسبوعي كل يوم اثنين بين سامي شرف - وزير شئون رئاسة الجمهورية- والأنبا صمويل - أسقف الخدمات- لبحث وحل أي مشاكل تطرأ للمسيحيين.

كما أولى الرئيس عبد الناصر اهتمامًا شديدًا بتوثيق العلاقات بينه وبين الإمبراطور هيلا سيلاسي حاكم الحبشة «إثيوبيا» مستغلاً في ذلك كون مسيحيي إثيوبيا من الطائفة الأرثوذكسية، ودعا الإمبراطور هيلا سيلاسي لحضور حفل افتتاح الكاتدرائية المرقسية في العباسية عام 1965م، كما دعم توحيد الكنيستين المصرية والإثيوبية تحت الرئاسة الروحية للبابا كيرلس السادس.

وكان الرئيس عبد الناصر كعادته بعيد النظر في ذلك، فقد أدرك أن توثيق الروابط بين مصر وإثيوبيا يضمن حماية الأمن القومي المصري؛ لأن هضبة الحبشة تأتي منها نسبة حوالي 85٪ من المياه التي تصل مصر، وللأسف الشديد بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر والانقلاب على الثورة في 13 مايو 1971م وما أعقب حرب أكتوبر 1973م من ردة شاملة على سياسات عبد الناصر، تدهورت العلاقات المصرية الإثيوبية وكذلك الإفريقية، وقد انفصلت الكنيسة الأرثوذكسية الإثيوبية عن الكنيسة المصرية، واستطاعت إسرائيل أن تحتل مكانة مصر في إثيوبيا، وفي إفريقيا كلها.

وأخيرًا في عهد جمال عبد الناصر لم تقع حادثة طائفية واحدة بين المسلمين والمسيحيين، ولم تنتشر دعاوى تكفير الآخر ومعاداته.

▪▪ أشهر الطغاة في تاريخ البشرية [1]



1918 - 1970

ليس هناك كوارث في تاريخ البشر أسوأ من الطغاة، فالكوارث الطبيعية سرعان ما يتم تدارك آثارها وإصلاح ما أتلفت وتعويض خسائرها، أما ما ذهب من البشر فمن لم يمت بالكارثة مات بغيرها، ولكن الطغاة لا يمكن تدارك ما يتركون من آثار على البشر ممن يحكمونهم، فما فات من العمر لا يدرك، وما ضاع من خسارة قد لا يمكن تعويضه إلا بإزهاق كثير من الأنفس، وضياع كثير من المال وإراقة كثير من الدماء ناهيك عن الآثار النفسية السيئة التي يتركها حكم الطغاة فيمن يتم تعذيبهم أو سلب أموالهم أو ظلمهم بصورة أو أخرى؛ لذلك أرى أن الطغاة هم أكبر الكوارث في تاريخ البشر قاطبة.

ومشكلة الطغاة ليست وليدة اللحظة، كما قد يتخيل البعض من خلال تجربة تونس ومصر، لكن جذورها موغلة في القدم، ولعل المثال البارز في هذا الباب النمروذ الذي كان أيام إبراهيم أبو الأنبياء، وفرعون الذي كان يعتقد أنه يستمد نظامه السياسي من قدرات لاهوتية، باعتباره إلهًا، أو ابن

(1) أسامة عبد الرحمن: أعظم الكوارث في تاريخ البشرية.

الآلهة، أو مبعوث العناية الإلهية، كما استمر الأمر كذلك في أوروبا الغربية بل وحتى العصر الذي يُسمونه عصر الأنوار مع فولتير وجان جاك روسو، الذي سن ما يُسمى بالعقد الاجتماعي، الذي يفسر العلاقة بين السلطة والشعب على أنها علاقة تعاقدية تتم بموجب واجبات وحقوق لكلاً الطرفين، بناءً على عقد يلتزم به الجانبان، ومعايير سياسية واجتماعية تتفق مع رغبة الشعب، لكن للأسف هذه المعايير تعتمد قواعد علمانية وديمقراطية بمفهومها الغربي؛ إذ إن الديمقراطية على حد تعبير جورج كوك **George Coq** لا تُفضي إلى ظهور إنسان متميز، بل إنسان مُخاتل ومُخادع، وإلى استبداد من نوع خاص.

فلمنعن نظرنا كيف أسس الرسول عليه الصلاة والسلام دولة الإسلام على قاعدة أصولية تنهض في مواجهة أية دولة ديكتاتورية حينما قال عليه الصلاة والسلم: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»، وهو المبدأ الذي سار على دربه الخلفاء الراشدون، والتزم به السلف الصالح، لكن ما إن حاد حُكامها وسلاطينها عن هذا النهج حتى شطت وتعسفت وطغت.

وهاهو ذا الدكتور أحمد القديدي في مقالته: «الطُغاة والطغيان» في نص القرآن المنشورة في نشرة تونس نيوز 5/ 1/ 2004م يقول: «أن الطاغوت عبارة ليس لها على ما أعلم رديفٌ أو نظير أو ترجمة في أية لغة من لغات العالم؛ فهي إشارة من إشارات الإعجاز القرآني الفريد، حَمَّلها الله سبحانه كل معاني الطغيان، وهو اسم المصدر إلى جانب مفهوم المبالغة والتضخيم؛ لأن الطاغوت هو الطغيان المعظم مع معنى الشمول؛ أي أن الطاغوت هو الطغيان إذا ما استفحل؛ للتعميم على كل سلوكيات الناس، وطمس حرياتهم، وحبس أنفاسهم، وعد حركاتهم، ومراقبة سكناتهم، وضرب القرآن مثلاً بفرعون حين قال لقومه: ﴿ **مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ** ﴾.

كما أن عبارة الطاغوت تميزت بكونها مفردًا وجمعًا في نفس الوقت، وأنها تستعمل لوصف طاغية أو لوصف طغاة عديدين، وكذلك لنعت الصفة الطغيان، ونعت الفعل طغى يطغى، إلى جانب تحميل المولى لهذه العبارة معاني الاستبداد المؤدي حتمًا إلى الضلال ثم الكفر، واتخاذها أيضًا رمزًا مُضادًا للإيمان مُناقضًا للإسلام.

وقد سجل التاريخ نماذج من الطغاة سعت إلى فرض هيمنتها وجبروتها على رعيتها

بشتى أنواع التنكيل والتقتيل والتجويع، فكان عاقبتها الخسران المبين، ومع انتشار العقائد الباطنية الفاسدة التي تم جلبها من التيارات الفلسفية القديمة، ظهر طُغاة من أمثال المعز لدين الله الفاطمي، الذي اختزل مفهوم الحكم بصراحة غير معهودة لما قال: هذا حسبي - مشيرًا إلى المال- وهذا نسبي مشيرًا إلى سيفه، وفي العصر الحالي أُبتليَ العالم الإسلامي بخُدام العلمانية الغربية المتوحشة من أمثال الطاغية زين العابدين بن علي، الذي قضى على كل ما يمت للإسلام بصلة بدعوى محاربة الإرهاب؛ خدمة للكيان الصهيو- أمريكي وللأجندة الغربية، وبتصفحنا للكتابات التاريخية الغربية، نجده مرسومًا بثلة من القادة الطغاة، الذين أبادوا ودمروا، وعاثوا في الأرض فسادًا، ولعل من أبرزهم:

*** أدولف هتلر (1889م- 1945م):**

ولد في النمسا، قاد شعبه الألماني إلى الهاوية في الحرب العالمية الثانية، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى انضم هتلر إلى الجيش الألماني كعريف في الخنادق، وقد هداه استسلام ألمانيا في عام 1918م، إلى الانخراط في العمل السياسي وتزعم حزبًا متطرفًا حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي، ويُسمى اختصارًا: الحزب النازي.

قاد محاولته الأولى للاستيلاء على السلطة فسُجن، لكن ذلك كان فرصة لتأليف كتابه المعنون بـ«كفاحي»، الذي تضمن فلسفته السياسية؛ إذ كان يؤمن بتفوق العنصر الآري الألماني على باقي الأجناس البشرية، وبعد تهاوي الاقتصاد الألماني في عام 1929م - إبان الأزمة الاقتصادية العالمية، التي انطلقت من انهيار بورصة وول ستريت - صوت أغلبية الشعب الألماني لصالح هتلر، وفي سنة 1932م أصبح الحزب النازي الأكثر تمثيلاً في البرلمان، ثم انتخب مستشارًا؛ إذ عمل على سحق مُعارضيه ليُعين بعد ذلك نفسه قائدًا «الفوهرر» على ألمانيا.

*** جوزيف ستالين- الطاغية الفولاذي:**

اسمه الكامل جوزيف فيساريونوفيتش ستالين (1879م - 1953م)، بوصول ستالين للسلطة المطلقة في عام 1930م عمل على إبادة أعضاء اللجنة المركزية البلشفية، وأعقبها بإبادة كل من يعتنق فكرًا مغايرًا لفكر ستالين، أو من يشك ستالين في معارضته،

تفاوتت الأحكام الصادرة لمعارضي فكر ستالين، فتارة ينفي معارضيه إلى معسكرات الأعمال الشاقة، وتارة يزج بمعارضيه في السجون، وآخرون يتم إعدامهم بعد إجراء محاكمات هزلية، بل ومن أهم استراتيجياته الطغيانية تطبيق ما يُسمى بالاغتيالات السياسية، ومن ثم قتل الآلاف من المواطنين السوفيت، وزج آلافًا آخرين في السجون لمجرد الشك في معارضتهم لمبادئه الأيديولوجية.

وفي الأول من مارس 1953م، وخلال مأدبة عشاء بحضور وزير الداخلية السوفيتي بيريا وخوروشوف وآخرين، تدهورت حالة ستالين الصحية، ومات بعدها بأربعة أيام، وتجدر الإشارة إلى أن المذكرات السياسية لمولوتوف، والتي نشرت في عام 1993م تقول: «إن وزير بيريا تفاخر لمولوتوف بأنه عمد إلى دس السم لستالين بهدف قتله».

*** بنيتو موسوليني-رمز الفاشية:**

ويُسمى أيضًا بالدوتشي، حكم إيطاليا من (1922م - 1943م)، وفر إلى سويسرا بعد الهزيمة الألمانية، وتعرض له أنصاره وقتلوه رميًا بالرصاص في 28 نيسان/ إبريل 1945م، يقول عنه المؤرخ فيشر في كتابه (تاريخ أوروبا الحديث): «استقبلت دول أوروبا الغربية نزعات طغيان الديكتاتور الإيطالي، وأساليب قمعه واضطهاده بأحاسيس العداء والارتياع، فقد أنجبت إيطاليا رجلاً مستبدًا من طراز قيصر، تحيطه هالة الخطيب الذرب، وتحليه مكارم رجل من رجال الشعب، ولكنه حاكم مستبد، يكدح ويكد لكي يجعل أمته قوية متحدة، فكان الثمن الذي دفعه الإيطاليون للخيرات والمنافع التي جاءتهم على أيدي الدوتشي هو فقدانهم الحرية».

*** فرانسيسكو فرانكو (1892م- 1975م):**

رئيس الدولة الإسبانية، وقد قلد فرانكو هتلر وموسوليني في أنه جعل نفسه زعيمًا وأبًا لإسبانيا، وسَمَّى نفسه الكوديللو؛ أي: زعيم الأمة، كما سمى هتلر نفسه الفوهرر، وموسوليني نفسه باسم الدوتشي، وهي كلمة إيطالية لا تختلف في معناها عن كلمة الفوهرر أو الكوديللو الإسبانية، كان من المفترض أن ينهار نظام فرانكو مع انهيار هتلر وموسوليني بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن فرانكو كان شديد الحذر، فأعلن حياد إسبانيا أثناء الحرب، ومما سجله التاريخ ما ارتكبه في حق أهل الريف المغاربة من

استعمال الغازات المحظورة دوليًا.

ومازال الطغاة يطفون على سطح العـالم المعاصـر، مـن أمثـال جـورج بـوش، الـذي أحدث محاكم التفتيش الجديدة من خلال سجن جوانتانمو، وشارون الذي عذب الأمة العربية بكاملها بما مارسه في حق الفلسـطينيين الأبريـاء، وأخيـرًا ولـيس آخـرًا الـرئيس المصري المخلوع المدعو حسني مبـارك الـذي خـدم أعـداء الـدين بـأكثر ممـا كـانوا يتمنون، وهدم كيان الأمة الإسـلامية وقضـى عـلى بـذور الصـحوة الإسـلامية في مصـر باعتقاله كل من يستشعر جهازه الأمني بداية صلاحه، حتى ظهرت بعض الفكاهات عن عصره؛ إذ يسأل رجل من رجال الأمن عن أحد الرجال المقبـوض علـيهم مـا تهمتـه..؟ فيجيب رجل الأمن وجدناه يصلي الفجر في المسجد.

ليس هذا فقط بل صدر إلى الجزائر بعض ضباطه في طريق مقاومة الصحوة الإسلامية والقضاء على أعضاء جبهة الإنقاذ الـوطني، بـل وأرسـل جيشـه للقضـاء عـلى المنـافس التقليدي على الزعامة العربية صدام حسين، ويكفي ما ناله من شكر وتقـدير عـلى لسـان الرئيس الأمريكي، وما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلي من إنـه قـدم خـدمات غيـر عاديـة لإسرائيل، وكان الصديق المخلص لها منذ توليته.

*** نمرود بن كنعان:**

نمرود بن كنعان، وعُرف عند المسلمين بنمروذ، وهو شخصية تاريخية ذكرت لأول مرة في التوراة اليهودية كملك جبار تحدى الله، وربط المفسرون للقرآن نمرود هـذا مـع الشخصية القرآنية للملك الذي تجادل مع إبـراهيم وعاقبـه بـالحرق، كمـا ذكـر بعـض المؤرخين بأنه الملك الذي بنى برج بابل تحديًا لله، واعتبرت العديـد مـن الثقافـات أن نمرود يرمز لقوى الشر، وسُميت العديد من المدن القديمة في العراق باسمه.

وهو أول جبار في الأرض وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة الذين ذكروا في القرآن، وهو من الملوك الكافرين وهو أول مـن وضـع التـاج عـلى رأسـه وتجبـر في الأرض وادعـى الربوبية، واستمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وتجبـر وعتـا وآثـر الحيـاة الـدنيا، ورأى حلمًا طلع فيه كوكبًا في السماء فذهب ضـوء الشـمس حتـى لم يبـق ضـوء، فقـال الكهنة والمنجمين في تأويل الحلم أنه سيولد ولد يكون هلاكك عـلى يديـه، فـأمر بـذبح

كل غلام يولد في تلك الناحية في تلك السنة، وولد ذلك الغلام فأخفته والدته حتى كبر وعندها تحدى عبادة نمرود والأصنام، ويشرح المفسرون أن إبراهيم ونمرود تواجها لإظهار الإله الحقيقي الذي يستحق العبادة، وعندما فشل نمرود في محاججته، أمر بحرق إبراهيم بالنار والتي تحولت على إبراهيم بردًا وسلامًا.

وعن موته قال ابن كثير: وبعث الله إلى ذلك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى وقال اجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك فمكثت في منخريه أربعمائة سنة، عذبه الله بها فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.

وورد في الثقافة الأرمينية أن جد الأرمن هايغ، هو من قضى على نمرود والذي كان يُسمى بيل في الكوميديا الإلهية التي كتبها دانتي، يصور نمرود كشخصية عملاق في الجحيم، وقال إنه يتعرض للعقاب في الدائرة التاسعة من الجحيم مع عمالقة آخرين، وربط بعض المؤرخين شخصية نمرود بشخصية جلجامش.

*** قارون:**

قارون هو أحد أغنياء قوم موسى بنو إسرائيل، كان لديه ثروة كبيرة حتى إن مفاتيح هذه الثروات كانت ثقيلة تتعب من يحملها، وقد كان وزيرًا لشئون العبرانيين لدى فرعون، ويروي لنا القرآن قصة قارون لكن القرآن لا يحدد زمن القصة ولا مكانها، فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج..؟ أو وقعت بعد الخروج في حياة موسى..؟ أم وقعت في بني إسرائيل من بعد موسى..؟ وبعيدًا عن الروايات المختلفة، نورد القصة كما ذكرها القرآن الكريم.

يحدثنا الله عن كنوز قارون فيعلمنا أنه كان واسع الثراء، لكن قارون بغى على قومه بعد أن آتاه الله المال، ولا يذكر القرآن فيمَ كان البغي ليدعه مجهولاً يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال حق الفقراء في أموال الأغنياء، وربما بغى عليهم بصور أخرى.

ويبدو أن العقلاء من قومه نصحوه بالقصد والاعتـدال وهـو المـنهج السـليم، فهـم يحذروه من الفرح الذي يؤدي بصاحبه إلى نسيان من هو المنعم، وينصحونه بـأن يعمـل لآخرته بهذا المال ولا يقتصر على نيل الشهوات في الـدنيا بـل ينفـق لآخرتـه، ولا ينسـى التمتع في الدنيا بغير إضـرار للـدين والآخـرة، ويذكرونـه بـأن هـذا المـال هبـة مـن الله وإحسان، فعليه أن يُحسن ويتصـدق مـن هـذا المـال حتـى يـرد الإحسـان بالإحسـان، ويحذرونه من الفساد في الأرض بالبغي، والظلم، والحسد، والبغضاء، وإنفاق المـال في غير وجهه، أو إمساكه عما يجب أن يكون فيه، فالله لا يحب المفسدين، فكان رد قارون جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾.

لقد أنساه غروره مصدر هذه النعمة وحكمتها، وفتنه المال وأعماه فلم يستمع قارون لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، وخرج قارون ذات يوم على قومه بكامل زينتـه، فطـارت قلوب بعض القوم وتمنوا أن لديهم مثل ما أوتي قارون، وأحسوا أنه في نعمة كبيـرة، فـرد عليهم من سمعهم من أهل العلم والإيمان ويلكـم أيهـا المخـدوعون، احـذروا الفتنـة، واتقوا الله، واعلموا أن ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون.

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفـوس وتتهـاوى، تتـدخل القـدرة الإلهية لتضـع حـدًا للفتنـة، وتـرحم النـاس الضـعاف مـن إغراءهـا، وتحطـم الغـرور والكبرياء، فيجيء العقاب حاسمًا ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ هكـذا في لمحـة خاطفـة ابتلعته الأرض وابتلعت داره.

*** جنكيز خان:**

إمبراطور الإمبراطورية المغولية والتي اعتبرت أضخم إمبراطورية في التاريخ ككتلـة واحدة بعد وفاته، برز جنكيز خان بعد توحيده عدة قبائل رحل لشمال شرق آسيا، فبعـد إنشائه إمبراطورية المغول وتسميته بجنكيز خان بدأ بحملاته العسكرية فهـاجم خانـات والقوقـاز والدولـة الخورازميـة الغربيـة وإمبراطوريـة جـين وفي نهايـة حياتـه كانـت إمبراطوريته قد احتلت جزءًا ضخمًا من أواسط آسيا والصين.

واسمه الأصلي تيموجين وكان رجلاً سفاكًا للدماء، وكان كذلك قائدًا عسكريًا شديد البأس وكانت له القدرة على تجميع الناس حوله، وبدأ في التوسـع تـدريجيًا في المنـاطق

المحيطة به، وسرعان ما اتسعت مملكته حتى بلغت حدودها من كوريا شرقًا إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غربًا، ومن سهول سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوبًا؛ أي أنها كانت تضم من من دول العالم حاليًا الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا، إلى جانب مملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان.

قام جنكيز خان بتعيين أصدقائه المقربين قوادًا في جيشه وحرسه الشخصي والمنزلي، كما قام بتقسيم قواته وفق الترتيب العشري، إلى وحدات تتألف من فرق تحوي كل فرقة منها عدد محدد من الأشخاص، فكانت وحدة الأربان تتألف من فرق تحوي 10 أشخاص في كل منها، ووحدة الياغون تتألف كل فرقة منها من 100 شخص، ووحدة المنغان من 1000 شخص، ووحدة التومين من 10000 شخص، كما تم تأسيس فرقة الحرس الإمبراطوري وتقسيمها إلى قسمين: الحرس النهاريون والحرس الليليون.

وكان جنكيز خان يُكافئ أولئك الذين يظهرون له الإخلاص والولاء ويضعهم في مراكز عليا، وكان معظم هؤلاء يأتون من عشائر صغيرة قليلة الأهمية والمقدار أمام العشائر الأخرى، يُعرف أن الوحدات العسكرية الخاصة بأفراد عائلة جنكيز خان كانت قليلة بالنسبة للوحدات التي سلمها لرفاقه المقربين، أعلن الأخير في وقت لاحق قانونًا جديدًا للإمبراطورية هو الياسا، ودوَّن فيه كل ما يرتبط بالحياة اليومية والعلاقات السياسية للرحَّل في ذلك الوقت، ومثال ذلك: منع صيد الحيوانات في موسم تزواجها، بيع النساء، سرقة ممتلكات الغير، عدم الاغتسال في النهر وقت العاصفة، بالإضافة للقتال بين المغول.

وقام جنكيز خان بتعيين أخاه المتبنى شيغي خوتهرغ بمنصب قاضي القضاة، وأمره بالاحتفاظ بسجل عن الدعاوى المرفوعة والمشاكل التي تقع وبالإضافة للأمور الأسرية، الغذائية، والعسكرية، أطلق جنكيز خان حرية المعتقد ودعم التجارة الداخلية والخارجية، وكان يعفي الفقراء ورجال الدين من الضرائب المفروضة عليهم وعلى ممتلكاتهم؛ ولهذه الأسباب انضم كثير من المسلمين، والبوذيين، والمسيحيين من منشوريا شمال الصين، والهند، وبلاد فارس طوعًا إلى إمبراطورية جنكيز خان، قبل أن يشرع بفتوحاته الخارجية بوقت طويل.

قضى ثلاث سنوات عُنيَ فيها بتوطيد سلطانه، والسيطرة على المناطق التي يسكنها

المغول، حتى تمكن من توحيد منغوليا بأكملها تحت سلطانه، ودخل في طاعته الأويجوريون، إنه ليس كافيًا أن أكون ناجحًا كل الآخرين يجب أن تفشل، وقال يومًا: بمعونة السماء لقد فتحت لكم إمبراطورية عظيمة لكن حياتي كانت قصيرة للغاية لتحقيق غزو العالم هذه المهمة تركت لكم، ومن أشهر أقواله: أنا على استعداد بالتضحية بنصف شعب المغول لكي يستقيم النصف الثاني.

*** هولاكو:**

هولاكو خان (1217م – 8 فبراير 1265م) قائد مغولي، حكم من سنة 1256م – 1265م ابن تولوي وحفيد جنكيز خان.

هاجم قلعة آلموت وقضى عليهم (1256م)، فتح بغداد وأعدم الخليفة العباسي المستعصم بالله (1258م)، وزحف على الشام واستولى عليها (1260م)، بعث جواب تهديد إلى مصر يطلب منها الاستسلام، أعدم قطز سلطان مصر المملوكي رسله وهزم جيش المغول.

*** تيمورلنك:**

(1336م – فبراير 1405م) قائد أوزبكي من القرن الرابع عشر ومؤسس السلالة التيمورية (1370م – 1405م) في وسط آسيا، وأول الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة والتي استمرت حتى عام 1506م، وتعني كلمة لنك الأعرج نتيجة لإصابته بجرح خلال إحدى معاركه، أما كلمة تيمور فتعني بالأوزبكية الحديد، كان تيمورلنك قائدًا عسكريًا فذًا قام بحملات توسعية شرسة أدت إلى مقتل العديد من المدنيين وإلى اغتنام مجتمعات بأكملها.

أول من عُرف من حال تيمور أنه كان لصًا، فسرق في بعض الليالي غنمة وحملها ليهرب بها، فآنتبه الراعي وضربه بسهم فأصاب كتفه، ثم ردفه بآخر فلم يصبه، ثم بآخر فأصاب فخذه وعمل فيه الجرح الثاني الذي في فخذه حتى عرج منه؛ ولهذا سمي تيمورلنك؛ لأن لنك باللغة الفارسية أعرج، ولما تعافى أخذ في السرقة على عادته وقطع الطريق، وصحبه في ذلك جماعة عدتهم أربعون رجلاً.

قام تيمور بتنظيم جيش ضخم معظمه من المغول، وبدأ يتطلع إلى بسط نفوذه فاتجه إلى خوارزم، وغزاها أربع مرات بين عامي (773-781هـ)، نجح في المرة الأخيرة في الاستيلاء عليها وضمها إلى بلاده، بعد أن أصابها الخراب والتدمير من جراء الهجوم المتواصل عليها، وفي أثناء هذه المدة نجح في السيطرة على صحراء القفجاق، والتي تمتد بين سيحون وبحيرة خوارزم وبحر الخزر (بحر قزوين).

ولما اضطربت أوضاع خراسان سنة 782هـ بعث ابنه ميران شاه، وكان في الرابعة عشرة من عمره، فنجح في السيطرة على إقليم خراسان كله، وبحستان وأفغانستان، ثم اتجه في سنة 787هـ إلى مازندران فأخذها.

وفي سنة 790هـ هاجم توقتمش ملك بلاد القفجاق (بلاد ما وراء النهر)، وحرص أهالي أذربيجان على الثورة ضد تيمورلنك، وأعلنوا ولاءهم لتوقتمش، ونتيجة لتفاقم هذه الأحداث توقف تيمورلنك عن التوسع، واتجه إلى أذربيجان لقمع الثورة، وما كاد يصلها حتى فرَّ توقتمش، ودخل تيمورلنك خوارزم، وأحلَّ بها الخراب والتدمير إلى الحد الذي لم يعد فيها حائطٌ يستراح تحت ظله، وظلت خرابًا خالية من السكان حتى أمر تيمورلنك بإعادة تعميرها سنة 793هـ.

ولما كرر توقتمش هجومه مرة أخرى على بلاد ما وراء النهر في سنة (791هـ - 1389م) تعقبه تيمورلنك حتى أرض المغول وصحراء القفجاق وهزمه هزيمة منكرة ولم يكن تيمورلنك يتوقع الانتصار.

ولما رجع تيمورلنك ظافرًا من صحراء القفجاق سنة 794هـ وقد تخلص من توقتمش، أناب ابنه ميرنشاه في حكام خراسان، وحفيده بير محمد في حكم غزنة وكابل، وقصد إيران في رمضان سنة 794هـ لإخماد الثورات التي شبت بها، وظل هناك خمس سنوات مشغولاً بقمع تلك الثورات، وتُسمى حروبه هذه بهجوم السنين الخمس، وبدأ حروبه بإخضاع جرجان ومازندان، ثم اتجه إلى العراق فخرب واسط والبصرة وبغداد والكوفة وغيرهم، ثم واصل سيره فخرب ديار بكر وبلاد أرمينية والكرج (جورجيا).

ثم أراد مهاجمة الشام سنة 798هـ، فسمع بأن الملك المملوكي الظاهر برقوق قد خرج بجيش كبير من مصر فرجع إلى بلاده خائفـًا، ولما سمع بهجوم توقتمش على

بلاده، توجه إليه على جناح السرعة، وهاجم بلاده وأنزل بـه هزيمـة كبيـرة، وبعـد ذلـك زحف في نحو مائة ألف جندي وضم موسكو لمدة عام واحد.

فلما سمع بموت فيروز شاه ملك الهند مـن غيـر ولـد وحصـول اضـطرابات بعـده، استغل فترة الضعف هذه وانقضَّ بجيشه الجرار على قوات محمود تغلق في 7 مـن ربيـع الآخر سنة 801هـ وأنزل به هزيمة ساحقة، واحتل دلهي عاصمة دولـة آل تغلـق، وقـام بتدميرها وتخريبها وبلغ من بشاعة التدمير أنها لم تنهض مما حل بها إلا بعد قرن ونصـف قرن من الزمان.

ولم يمكث تيمورلنك طـويلاً في سـمرقند بعـد عودتـه الظـافرة مـن الهنـد، واسـتعد للخروج ومواصلة الغزو، وانطلق في حملة كبيرة سُميت بحملة السنوات السـبع (802 - 807هـ/ 1399 - 1405م) لمعاقبة المماليك لمساعدتهم أحمد الجلائري خان بغـداد في حربه ضـد تيمورلنـك، وتأديـب السـلطان العثمـاني «بايزيـد الأول» سـلطان الدولـة العثمانية الذي كان يحكم شرق آسيا الصغرى.

وبعد عمليات النهب والحرب والسبي والتخريب التي قـام بهـا تيمورلنـك وجيشـه اتجه إلى حماة والسلمية، ولم يكن حظهما بأحسـن حـال مـن حلـب، وواصـل زحفـه إلى دمشق التي بذل أهلها جهودًا مستميتة في الدفاع عن مدينتهم، لكـن ذلـك لم يكـن كافيًـا لمواجهة جيش جـرار يقـوده قائـد محنـك، فاضـطروا إلى تسـليم دمشـق، ولمـا دخـل تيمورلنك المدينة أشعل فيها النار ثلاثة أيام حتى أتت على ما فيهـا، وأصـبحت أطـلالاً وبعد أن أقام بها ثمانون يومًا، رحل عنها مصطحبًا أفضل علمائها وأمهر صُناعها، واتجه إلى طرابلس وبعلبك فدمرهما وعند مروره على حلب أحرقها مـرة ثانيـة وهـدم أبراجهـا وقلعتها، ثم دمر ماردين ولم تسلم منه إلا مدينة حمص.

*** إيفان الرابع:**

إيفان الرابع (25 أغسطس 1530م - 18 مارس 1584م)، المعـروف باسـم إيفـان الرهيب، أمير موسكو الكبير وقيصر عموم روسيا، توج كقيصر في عام 1547م وهـو في السادسة عشرة من عمره خلفـًا لوالده إيفان الثالـث، وحكـم مـن عـام 1547م وحتـى 1560م.

أعلن إيفان الرابع نفسه قيصرًا لأول مرة في تاريخ روسيا، واتبع سياسته المتمثلة في مركزية السلطة، شهد عهده فتح تتارستان وسيبيريا، وتحولت روسيا إلى مجتمع متعدد الأعراق بين عامي (1530م - 1584م)، خاض القيصر إيفان الرابع حروبًا وسع على إثرها أراضي روسيا وجعل منها إمبراطورية مترامية الأطراف.

فرض إيفان سلطته الشخصية الفردية وسلطة عائلته وليس سلطة الدولة، وفي 1552م استطاع القيصر الروسي إيفان الرهيب «إيفان الرابع» حصار قازان وإسقاط القبيلة القازانية، واحتل الروس أرض الباشكير في سنة 1557م في عهده، كما أصبحت موسكو عاصمة لروسيا في عهده.

*** الإمبراطور كاليجولا:**

عم نيرون، أنفق أمواله في الخلاعة والمجون والملذات، وسادت لديه رغبة جامحة في تعذيب معارضيه، فكان يسوقهم إلى أشد صنوف العذاب ثم يلقي بأجسامهم إلى الحيوانات لتأكلها، دعا إلى الحكم المطلق وأعلن تأليه شقيقته وحدد القرابين والأضحيات التي تقدم لشخصه، كما أشيع أنه تزوج شقيقته دروسيللا وعين لجواده واحدًا من النبلاء قام بتعذيب غانية تعذيبًا شديدًا عندما رفضت طلبه بأن تشهد ضد أحد معارضيه بتهمة الخيانة العظمى، وقام بتقطيع أجزاء من فخذها ويدها، ولم تسلم أم نيرون أجربينيا من بطش كاليجولا، فقد أمر بنفيها هي وأختها ليفيلا إلى جزيرة بونتيا.

قام أحد ضباط الجيش ويُدعى كاسيوس شاريا بقتله والتخلص منه في ثالث أيام احتفالات كانت تجري قبل مغادرة الإمبراطور لمصر حيث مدينة الإسكندرية، وتم تنصيب عمه كلوديوس إمبراطورًا.

*** الإمبراطور كلوديوس:**

اشتهر بالبلاهة الشديدة وكانت العامة تستخدم اسمه دليلاً على التسفيه والإهانة، تم تعيينه في منصبه حيث كانت الرغبة في ذلك الوقت إعادة الهيبة مرة أخرى لمجلس الشيوخ والجيش، وباعتباره من العائلة الحاكمة فقد اعتبر الوريث الشرعي للحكم حيث أن كاليجولا لم يكن له أبناء يرثونه، وكانت الرغبة عند الجيش بتعيينه في منصبه حتى لا يعارض رغبات الجيش ومجلس الشيوخ، ويُروى عنه أنه عندما جاء الضباط

إليه ليخبروه بأمر تعيينه، ظن أنهم قادمين لقتله فبكى وألقى نفسه أمامهم متوسلاً لهم ألا يقتلونه.

*** نيرون أو نيرو (37ق.م-68م)**

كان خامس وآخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية من السلالة اليوليوكلودية (من أغسطس حتى نيرون) (27ق.م - 68م) وصل إلى العرش لأنه كان ابن كلوديوس بالتبني.

بسبب انصراف نيرون عن شئون البلاد وانغماسه في اللهو والتلذذ بالقتل وإراقة الدماء فقد نشبت الانقلابات والثورات ضده، ففي إيطاليا قامت ثورة تتزعهما ملكة قبائل الأيكينين وتُدعى بوديكا، وفي أرمينيا ألغيت الامتيازات المعطاة للنفوذ الروماني في المملكة.

فشل نيرون في الساحة السياسية والعسكرية وسيطرت عليه فكرة إنه كان بارع في الغناء والتمثيل، فكان يخرج إلى اليونان ويطوف مدنها ويحصد الجوائز في مجال التمثيل والغناء، جوائز لا يجرؤ لجان تحكيمها أن ينتقدوه أو يعطوا الجائزة الأولى لغيره في كل المجالات التي يدخل فيها.

كان يسير في جيش من الممثلين والمغنيين يحملون أوسمته وجوائزه، ويدخل بها إلى روما دخول الجيش المظفر العائد من ميدان المعركة، في هذاالوقت كان يُنظر للممثلين والمغنيين نظرة دونية من قبل المجتمع باعتبارهم مهرجين يقومون بهذه الأعمال من أجل الكسب، فكان الاحتقار هو السمة الأساسية التي يوصم بها الممثل.

ومن أشهر جرائم نيرون على الإطلاق كان حريق روما الشهير سنة 64م حيث راوده خياله في أن يعيد بناء روما، وبدأت النيران من القاعدة الخشبية للسيرك الكبير حث شبت فيها النيران وانتشرت بشدة لمدة أسبوع في أنحاء روما، والتهمت النيران عشرة أحياء من جملة أنحاء المدينة الأربعة عشر، وبينما كانت النيران تتصاعد والأجساد تحترق، وفي وسط صراخ الضحايا كان نيرون جالسًا في برج مرتفع يتسلى بمنظر الحريق الذي خلب لبه، وبيده آلة الطرب يغني أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة.

وهلك في هذا الحريق آلاف من سكان روما، واتجهت أصابع اتهام الشعب والسياسيين تشير إلى أنه المتسبب في هذا الحريق المتعمد، وتهامس أهل روما بالأقاويل عليه وتعالت كلماتهم وتزايدت كراهية الشعب له، وأصبح يحتاج إلى كبش فداء يضعه متهمًا أمام الشعب، وكان أمامه اختياران إما اليهود أو المسيحية الحديثة في روما، ولكن كان اليهود تحت حماية بوبياسبينا إحدى زوجات نيرون، فألصق التهمة بالمسيحيين، وبدأ يلهي الشعب في القبض على المسيحيين واضطهادهم وسفك دمائهم بتقديمهم للوحوش الكاسرة، أو حرقهم بالنيران أم أهل روما في الستاديوم وفي جميع أنحاء الإمبراطورية، حتى أن مؤهلات الولاة الذين كانوا يتولون الأقاليم هو مدى قسوتهم في قتل المسيحيين.

وسيق أفواج من المسيحيين لإشباع رغبة الجماهير في رؤية الدماء، وعاش المسيحيين في سراديب تحت الأرض وفي الكهوف، ومازالت كنائسهم وأمواتهم إلى الآن يزورها السياح، واستمر الاضطهاد الدموي أربع سنوات، ذاق فيها المسيحيون كل ما يتبادر إلى الذهن من أصناف التعذيب الوحشي، وكان من ضحاياه بولس وبطرس اللذان قتلا عام 68م.

*** محمد تغلق شاه:**

أعظم ما كان يُنقم على السلطان محمد تغلق شاه هو إجلاؤه لأهل دهلي عنها، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطاقات فيها شتمه وسبه ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم ما يقرؤها غيره ويرمونها بالمشور ليلاً، فإذا فضها السلطان وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلي، وأخذ من أهلها جميعًا دورهم ومنازلهم، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد فأبوا ذلك، فنادى مناديًا ألا يبقى أحد بعد ثلاث، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور.

فأمر جنوده بالبحث عمن بقيَ فيها، فوجدوا في أزقتها رجلين أحدهما مُقعد والآخر أعمى، فأتوا بهما إلى السلطان فأمرهم أن يُرمى المُقعد بالمنجنيق، وأن يُجر الأعمى من دهلي إلى دولة حيدر آباد مسيرة أربعين يومًا، فتمزق في الطريق ووصل منه رجله، ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعًا، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها، فصعد السلطان ليلة إلى سطح قصره، فنظر إلى دهلي وليس فيها نار ولا دخان

ولا سراج، فقال الآن طاب قلبي وهدأ خاطري يالملك.

*** ألفونسو الثالث عشر:**

ملك أسباني ولد بمدريد يوم 17 مايو 1886م، وتوفي في روما يوم 28 فبراير 1941م، والده ألفونسو الثاني عشر ووالدته ماريا كريستينا، حكم إسبانيا من سنة 1886م إلى 1931م سميَ ملكًا على إسبانيا فور ولادته ووضع تحت وصاية والدته، حيث حكمت والدته الأرشيدوقة ماريا كريستينا النمساوية الأصل حتى أصبح ألفونسو راشدًا عام 1902م بدأ يمارس صلاحياته الفعلية.

ألقى فوضوي قنبلة على موكب الملك ألفونسو الثالث عشر وعروسه البريطانية فيكتوريا أيوجينا مما أودى بحياة 20 من المشاهدين ولطخ ثوب العروس بالدم، ونجا الجد الأكبر للأمير فيليبي من الهجوم وإن كان صورته شوهت في وقت لاحق بخضوعه للطاغية بريمو دي ريفيرا الذي قاد انقلابًا عسكريًا عام 1923م.

كان الملك يأمل من وراء غزو الريف - شمال المغرب، استعادة بعض الهيبة والسمعة، وتحقيق انتصار يمحو آثار الهزائم السابقة في حرب المستعمرات الأمريكية، وفي عام 1921م اختار الملك صديقه الجنرال فرناندو سلفستر لمنصب كبير في الريف؛ ولكن هذا الأخير حاقت به هزيمة كبيرة في معركة أنوال على أيدي الثوار المغاربة بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي، واضطر الملك إلى تأليف لجنة تحقيق لتقصي أسباب هذه الهزيمة، وكان من نتائج عمل هذه اللجنة إدانة الملك نفسه وتحميله مسئولية ما جرى هناك، لكن الانقلاب الذي قام به الجنرال ميجويل بريمو دي ريفيرا في عام 1923م أنقذ ماء وجه الملك، فربط الملك مصيره بالديكتاتوريين الجدد.

وعندما أفل نجم دي ريفيرا من السلطة عام 1930م، أضحى سقوط الملكية قاب قوسين أو أدنى، فتم تأليف حكومة جديدة برئاسة القائد دامازو برنجوير في محاولة يائسة لإنقاذ الملك، وبعد عدة محاولات للعودة إلى قانون الانتخابات كان الملك يعمل على إحباطها؛ وجد نفسه مضطرًا إزاء الأوضاع الراهنة إلى الموافقة على إجراء انتخابات بلدية عامة عام 1931م، وقد أظهرت النتائج الأولية لهذه الانتخابات انتصار الأحزاب الجمهورية للمرة الثانية؛ وكانت الأولى عام 1890م وطالبت هذه الأحزاب الملك

بالتخلي عن العرش، ولا سيما بعد أن سحب الجيش دعمه له، لكنه رفض فأرغم على مغادرة البلاد في الرابع عشر من إبريل عام 1931م، وصودرت ممتلكاته عام 1932م وتحول القصر بحدائقه الشاسعة ذات التنظيم الرائع إلى متحف.

توفيَ الملك ألفونسو الثالث عشر في روما ودفن هناك غريبًا عن وطنه في كنيسة سانت ماريا دي مونسيرتو؛ تاركًا مصير البلاد في يدي الجنرال فرانكو، ورجعت الملكية إلى إسبانيا عام 1975م بعد وفاة الديكتاتور فرانكو، وأصبح خوان كارلوس حفيد ألفونسو ملكًا في عام 1980م، وقد تم نقل رفات ألفونسو الثالث عشر من روما وأعيد دفنه في الإسكوريال، وهو مبنى مكون من أمكنة للدفن، وقصر قرب مدريد ومكتبة ومبانٍ.

*** محمد رضا بهلوي (26 أكتوبر 1919م إلى 27 يوليو 1980م):**

وُلد الشاه في مدينة طهران الإيرانية، وكان آخر شاه يحكم إيران قبل الثورة الإسلامية عام 1979م، واستمر حكمه من عام 1941م إلى 1979م.

خلف محمد رضا أبوه كشاه لإيران بعد أن أطاحت قوى التحالف برضا بهلوي خوفًا من جنوحه ناحية أدولف هتلر في الحرب العالمية الثانية وتزويده بالنفط، فقامت قوات التحالف باحتلال إيران والإطاحة برضا بهلوي وتنصيب ولده محمد رضا بهلوي بدلاً منه، عانت إيران من اضطرابات سياسية بعد الحرب العالمية الثانية، وأدت هذه الاضطرابات برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق إلى إرغام الشاه محمد رضا بهلوي على مغادرة إيران، لكنه عاد إلى إيران بانقلاب مضاد لانقلاب رئيس الوزراء بمساعدة المخابرات الأمريكية والبريطانية، وأقال مصدق من منصبه واستعاد عرش إيران.

في 16 يناير 1979م أرغم الشاه على مغادرة إيران للمرة الثانية ولكن هذه المرة بغير رجعة، إثر اضطرابات شعبية هائلة ومظاهرات عارمة في العاصمة طهران ضد الاضطهاد والظلم.

قام الشاه بعمل تغييرات سياسية من أهمها إلغاء الأحزاب السياسية مع الإبقاء على الحزب الحاكم، وأعاد إلى الحياة مهمة الشرطة السرية «سافاك» التي اُتهمت بمسئوليتها عن أعمال منافية لحقوق الإنسان ضد الشعب الإيراني، كما أنه قد عمل على تقطيع الأراضي الزراعية الكبيرة واستحداث أراضي صغيرة كي يستفيد أربعة ملايين فلاح

إيراني من تلك الأراضي، والسماح للمرأة بالتصويت، وقد أثمرت الإصلاحات الزراعية بشكل إيجابي على الاقتصاد الإيراني، وكان فترة الستينيات وسعبينيات القرن العشرين فترة انتعاش اقتصادي إيراني لم يسبق له مثيل، وبالرغم من الانتعاش الاقتصادي إلا أن التغييرات السياسية التي مست الأحزاب الإيرانية وتفعيل دور السافاك وُلدت للشاه أعداء كثيرين.

*** الإمبراطور هيلا سيلاسي (23 يوليو1892م- 27 أغسطس 1975م):**

هو آخر الأباطرة الأثيوبيين، نُصب ملكًا عام 1928م، ثم إمبراطور عام 1930م، أقصي عن ملكه عام 1974م إثر ثورة شيوعية قادها منجستو هيلا ميريام، واحتجز في قصره وبعد عام واحد تُوفيَ في ظروف غامة ودفن في عام 2000م بعد 25 عامًا من وفاته.

كان هيلا سيلاسي مسيحيًا متشددًا ينتمي إلى الكنيسة الأثيوبية الأرثوذكسية، وهي كنيسة تؤمن بخصوصيتها العقيدية فأتباعها يؤمنون أنها الوحيدة التي حافظت على نقاء المسيحية.

عاد الإمبراطور الحبشي هيلا سيلاسي إلى الحكم في بلاده بمساعدة الإنجليز بعدما طرده الإيطاليون، ورأى أن يستغل الظروف الدولية لجمع أسلاب إيطاليا ي إفريقيا؛ فيضم الصومال وإريتريا إلى مملكته التوسعية وساعدته على ذلك بريطانيا والولايات المتحدة، حيث اتصل ببعض رجال الكنيسة لاستمالتهم إليه، وقامت المخابرات البريطانية بإثارة العدوان والنعرات الدينية والقبلية، ونجحت أثيوبيا في خلق حزب موال لها في إريتريا سنة (1366هـ- 1946م) عُرف باسم حزب الاتحاد مع أثيوبيا كانت قاعدته من المسيحيين.

ناهض المسلمون هذا الحزب وأسسوا حزب الرابطة الإسلامية الإريترية، وحددوا أهدافه بالاستقلال التام، وشهدت تلك الفترة صراعات سياسية حادة، نشأت خلالها عدة أحزاب لها ارتباطات خارجية، تبنى بعضها سياسة الاغتيالات مثل حزب الاتحاد مع أثيوبيا، الذي أنشأ ميليشيا إرهابية عُرفت باسم «الشفتا» اغتالت عددًا من القيادات الوطنية، كما عمل هيلا سيلاسي على إثارة الخلافات بين الأحزاب الإريتيرية فكثرت

الانشقاقات بها.

*** أنطونيو دو أوليفيرا سالازار (28 إبريل 1889م- 27يوليو 1970م):**

شغل منصب رئيس الوزراء وديكتاتور البرتغال في الفتـرة مـن (1932م- 1968م)، وكان رئيس الجمهورية في عام 1951م بصفة مؤقتة، أسس وقاد نوفـو اسـتادو (الدولـة الجديدة) التي حكمت وسيطرت على البرتغال من 1932م حتى 1974م.

كان حاكمًا مستبدًا للبرتغال، وأصبح رئيسًا للوزراء عام 1932م، ثم أعلـن في العـالم التالي دستورًا جعله حاكمًا استبداديًا، قبل أن يـدخل سـالازار في خدمـة الحكومـة كـان خبيرًا في الشئون المالية، وأستاذًا في علـم الاقتصـاد في جامعـة مـومبرا، في عـام 1926م رفض أن يشغل منصب وزير المالية؛ لأنه كان يرى أنه لا يمتلك السـلطة الكافيـة لحـل مشاكل البرتغال المالية، وفي عام 1928م تردت الحالة الاقتصادية في البرتغـال لدرجـة أن الحكومة أعطت سالازار السلطات التي طالب بهـا وأقـام سـالازار دولـة عسـكرية، فوضع النقابات تحت إدارة الحكومة، ومنع حرية الصحابة والحريات السياسية، وأقـام الاقتصاد على قواعد محكمة، ولكنها كانـت عـلى حسـاب الأجـور ورفاهيـة كثيـر مـن المواطنين.

وفي وسـط الحـرب العالميـة الثانيـة احـتفظ سـالازار بحيـاد البرتغـال، فأصـحبت العاصمة لشبونة حلقة الوصل بين الدول الحليفة ودول المحور، حيث كـان عملاؤهـم يعملون بحرية تامة في أنحاء الدولة المختلفة، ومع ذلك استطاع سالازار أن يحافظ عـلى علاقات البرتغال التقليدية بإنجلترا، ومنح الدول الحليفة قواعد جوية وبحريـة في جـزر الآزور، وهي مجموعة جزر برتغالية.

تزايدت المعارضـة البرتغاليـة ضـده في البرتغـال في أواخـر الخمسـينيات، وقـد لفتـت سياساته نحو أنجولا وموزمبيق، وبعض المستعمرات البرتغالية الأخـرى في إفريقيـا أنظـار العالم في أواخر الستينيات، حيث عمل سالازار على الاحتفـاظ بسـيطرة البرتغـال عـلى هـذه المستعمرات بالرغم من عدم موافقة الأمم المتحدة والأفارقة، ومنذ عام 1968م بدأ يعـاني من شلل في الدماغ عجز معه عن القيام بواجباته، أبعد سالازار عن الحكـم بطريقـة لم يكـن يتوقعها، وتولى السلطة مكانه مارسيلو كايتانو، وتوفي سالازار بعد ذلك بسنتين.

*** عيدي أمين:**

عاش بين عامي (1925م - 16 أغسطس 2003م) يُعرف باسم عيدي أمين، وهو الدكتاتور العسكري ورئيس أوغندا في الفترة بين عامي 1971م، و1979م، انضم إلى قوات الاستعمار البريطاني العسكرية في كتائب البنادق الإفريقية الملكية، حتى وصل إلى رتبة لواء وتولى قيادة الجيش الأوغندي في عام 1946م، استخدم القوة في الانقلاب العسكري في يناير 1971م، وعزل الرئيس ملتون أوبوتي تميز حكمه بانتهاك حقوق الإنسان، القمع السياسي، الاضطهاد العرقي، والقتل غير القانوني وإجلاء الآسيويين من أوغندا عدد القتلى نتيجة حكمه غير معروف؛ لكن تقديرات المراقبين الدوليين ومنظمات حقوق الإنسان هي ما بين 100000 إلى 500000 قتيل منذ 1977م حتى 1979م.

لقب أمين نفسه بصاحب السعادة، والرئيس مدى الحياة، والفيلد مارشال، الحاج الدكتور عيدي أمين دادا، قاهر الإمبراطورية البريطانية عام (1975م- 1976م) أصبح أمين رئيس منظمة الوحدة الإفريقية، ولقب بآخر ملوك أسكتلندا، وذلك لإعجابه الشديد باسكتلاندا ومحاولته الاقتداء ببروتوكولات العائلات المالكة، وشابت فترة حكمه الصراعات الأهلية الشديدة بين الأعراق المختلفة بأوغندا وشهد عصره عنفًا مستمرًا واغتيالات للمنافسين السياسيين، اتهم من القوى الغربية بالديكتاتورية وتم إبعاده إلى السعودية بعد سقوط سلطته، وعاش في مدينة جدة حيث توفي عام 2003م.

فرنسوا دوفالييه: رئيس هايتي من 1957م إلى 1964م قبل أن يعين رئيسًا مدى الحياة، توفي في 21 نيسان/ إبريل 1971م وخلفه ابنه جان كلود.

ماو تسي تونج: مؤسس وقائد جمهورية الصين الشعبية طوال 27 عامًا، توفيَ في بكين في 9 أيلول/ سبتمبر 1976م عن 82 عامًا.

أنور خوجا: الدكتاتور الألباني الذي حكم 40 عامًا، وتوفي في 11 إبريل 1985م إثر نوبة قلبية.

كيم أيل سونج: الرئيس الأبدي لكوريا الشمالية، توفي في يوليو 1994م بعد إصابته بجلطة دماغية وقد خلفه نجله كيم جونج أيل.

موبوتو سيسي سيسكو: الرئيس الزائيري السابق، توفي بمرض السرطان في 7 سبتمبر

1997م في مستشفى الرباط بعد بضعة أشهر من منفاه وحل مكانه لوران ديزيريه كابيلا.

ألفريدو ستروسنر: دكتاتور الباراجواي السابق، الذي أقصي عن الحكم في 1989م، وتوفي في 16 أغسطس 2006م عن 93 عامًا في برازيليا حيث لجأ هربا من القضاء في بلاده.

بول بوت: زعيم الخمير الحمر الدموي (1975م- 1977م)، توفي بسبب الشيخوخة في 16 إبريل 1998م في الأدغال الكمبودية فيما كان يعيش منفيًا في بلاده.

نيكولاي تشاوشيسكو: الذي حكم رومانيا طيلة 24 عامًا أعدم مع زوجته أيلينا بعد بضعة أيام من الإطاحة به في ديسمبر 1989م إثر محاكمة سريعة.

أوجوستو بينوشيها: الديكتاتور العسكري التشيلي السابق، توفي في 10 ديسمبر الماضي عن 91 عامًا، وقد ترك الحكم في 1990م وألقي القبض عليه في لندن في 1998م بطلب من قاض أسباني ثم أفرج عن لأسباب صحية في مارس 2000م، وأوقف مجددًا وفرضت عليه الإقامة الجبرية في تشيلي مرات عدة اعتبارًا من 2004م لكنه مات قبل أن يحاكم.

سلوبودان ميلوسيفيتش: الرئيس اليوغوسلافي السابق الذي اتهمته محكمة الجزاء الدولية بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية والإبادة، وقد توفي في 11 مارس 2006م في سجنه في لاهاي قبل نهاية محاكمته.

تشارلز تايلور: الرئيس السابق لليبيريا اتهمته المحكمة الخاصة بسيراليون بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب وقد نقل إلا لاهاي ومن المفترض أن تبدأ محاكمته في عام 2007م.

حسين حبري: الرئيس التشادي السابق، أطيح به في 1990م ولجأ إلى السنغال وهو ملاحق في بلجيكا بناء على شكوى تقدم بها ضحايا من أصل تشادي بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب وأعمال تعذيب.

جان بيدل بوكاسا: الرئيس مدى الحياة ثم الإمبراطور في إفريقيا الوسطى، وقد أطيح به في 1979م، وبعد أربع سنوات أمضاها في المنفى في ساحل العاج، ثم ثلاث سنوات في فرنسا عاد إلى بانجي في 1986م، وحُكم عليه بالإعدام ثم شمله عفو وأفرج عنه في

سبتمبر 1993م، وتوفي في 1996م وعندما تم القبض عليه وجدوا في ثلاجة قصره جثث أطفال محشوة أرز وجاهزة للطهي.

خورخي رافاييل فيـديلا: الـديكتاتور الأرجنتيـني السـابق حرمـه القضـاء الأرجنيتنـي في سبتمبر من الحصانة مما فتح الطريق مجددًا أمام ملاحقته قضائيًا حكم عليه بالسـجن المؤبـد في 1985م لارتكاب جرائم وعمليات خطف وتعذيب، ثم أعفيَ عنه في عام 1991م.

مانويل نورييجا: حاكم بنما السابق الذي اعتقلـه الأميريكيـون في 1989م وحكمـوا عليه بالسجن 40 سنة بتهمة تهريب المخدرات وهو ينفذ عقوبة السجن في أحد سـجون فلوريدا.

هل بمكنة أي جاحد، أو موتور، أو شانئ لحكم جمال عبد الناصر أن يقول عـن هـذا الزعيم الوطني أن اسمه يندرج تحت هذه التغمة من الطغاة..؟

نرد بهذا على شانئي جمال عبد الناصر، وعلى كـارهي حكمـه، وعـلى جاحـدي فضـله الذين سولت لهم نفوسهم أن يصموا عبد الناصر بتهمة الطاغيـة، ولم يكـن عبـد الناصـر كذلك بل كان زعيمًا وطنيًا لا يشق له غبـار، نفـض عـن وطنـه بثورتـه غبـار الماضـي، وارتفع بمصر مهما كانت أخطاؤه إلى عنان السماء.

كما نذكر في هذا الصدد أن المرحوم والدي المستشار محمد مرشدي بركات رئـيس محكمة استئناف القاهرة، وكان آنذاك أمينـًا لنادي قضاة مصر قد قرأ عن تعديلات تمت بخصوص واجب حلف اليمين لمن يعين من رجال القضاء في المناصب العليـا، وكـان من ضمن التعديلات أن يحلف رئيس محكمة النقض اليمـين أمـام رئـيس الجمهوريـة فعُدل هذا الأمر إلى أن يحلف اليمين أمام وزير العدل.

انبرى الوالد لهذا التعديل المجحف وكتب مقالاً في يوميـات جريـدة الأخبـار نشـره الأستاذ أحمد الصاوي محمد واستهله بـأن مـؤتمر الصـحفيين الـدوليين الـذي عُقـد في القاهرة إبان ذلك انتقد البعض من الحضور مـن الأجانـب عـدم وجـود ديموقراطيـة في عهد جمال عبد الناصر نشر الأستاذ الصاوي هذا المقال وقدمه بعبارات جاء فيها:

أن ما ذهب إليه البعض في هذا المؤتمر يرد عليـه الأسـتاذ الكبيـر المستشـار محمـد

مرشدي بركات بخصوص الجهة التي يجب أن يحلف رجال القضاء أمامها قبل توليهم لمناصبهم مشيرًا إلى دحض ما زعمه هذا البعض.

جاء في هذا المقال: أن هذا التعديل الذي ذكرناه سلفـًا لا يتفـق مـع جـلال منصـب القضاء، فكيف يحلف وزير أمام وزير.. ويزيد من وقع هذا عـلى الـنفس.. أن كـان هـذا الوزير – رئيس محكمة النقض– رئيسًا لإحدى سلطات الدولة الثلاث التي لها خطرهـا وجلالها وقدسيتها، وعدل القانون بعد ذلك بما ارتآه المرحوم الوالد.

وأخرى إذ اجتمع رجال القضاء في إحدى ردهات محكمة اسـتئناف القـاهرة وألقـى رئيس محكمة استئناف القاهرة كلمة في الجمعية العموميـة التـي انعقـدت هنـاك آنـذاك مقترحًا أن يوافق المجتمعون وهم مستشاروا المحكمة على ترشيح الـرئيس جمـال عبـد الناصر رئيسًا لمجلس القضاء الأعلى.

وقد أخذ الوالد الميكروفون من يد رئيس المحكمة وخطب في الجموع الغفيرة التي كانت حاضرة داعيًا إياهم إلى رفض هذا الاقتراح لما فيه من مساس وعدوان على السلطة القضائية ودمج السلطتين التنفيذيـة والقضـائية دون حائـل بينهمـا كمـا نـص الدسـتور وأوجبت دساتير العالم كله.

هرول الجميع خارج القاعة ومع دعوة الوالد إليهم بصوت جهـوري إلى أن يثبتـوا في أماكنهم حتى ينتهي من كلمته ولكنهم آثروا الانصراف. ثم قـاموا مـن بعـد تحيتـه عـلى كلمته هذه أمام نادي قضاة مصر فاستنكف الوالد منهم ذلك ونهرهم .

وفي صبيحة اليوم التالي قرأت في الصفحة الأولى في جريدة أخبار اليوم ما نصه:

رفض الرئيس جمال عبد الناصر الاقتراح الذي تقدم به مستشـاروا محكمـة اسـتئناف القاهرة لتعيينه رئيسًا لمجلس القضاء الأعلى، أيقظت الوالد من النوم لكي أطلعه على مـا جاء في جريدة أخبار اليوم.

وتعقيبنا على ذلك أن التحذيرات التي انهالت على الوالد آنذاك جراء هـذا الـذي قالـه وذكره في جمعية القضاة العمومية فعقب الوالد على ذلك أن جمال عبد الناصر قائد مثقـف وزعيم يعلم ما هي أصول الحكم. ولا يغضب من كلة حق تقال له.

■■ الزعيم ... وهو !



1918 - 1970

حين أهل «عيد العمال» في الأول من مايو عام 1967م كنت على موعد مع رؤية السيد الرئيس شخصيًا، وعن قرب، حيث إنه قرر أن يلقي خطابه بهذه المناسبة في مبنى المؤسسة الاجتماعية العمالية بمنطقة شبرا الخيمة، التي تقع شمال القاهرة، وتبعد عن ميدان التحرير نحو ثمانية كيلو مترات، وهي منطقة صناعية مهمة، وكانت أسرتي تقطن آنذاك في عمارة من تلك التي بناها عبد الناصر للبسطاء، تطل على الشارع الرئيسي الذي سيمر منه موكب الزعيم.

اللافت للانتباه أن الإجراءات والحشود تكررت في الزيارتين، على الرغم من أن الزيارة الأولى كانت قبل هزيمة يونيو، والزيارة الثانية لشبرا الخيمة تمت بعد الهزيمة بثلاث سنوات، وقبل رحيله بأقل من خمسة أشهر، في المرتين تسللت بين الصفوف الأولى، وقد مكنني حجمي القليل من اقتناص زاوية قريبة جدًا من حافة الرصيف الذي اصطفت عليه قوات الأمن لتحول دون اندفاع الناس نحو موكب الرجل.

وكعادة المصريين في «تأليه» الحاكم، بدا موكب الرئيس عبد الناصر مهيبًا كأنه انطلق توًا من كهوف الأساطير،

فالدراجات البخارية تتقدم الموكب بسرعة بطيئة منتظمة، أعقبتها سيارة سوداء تتحرك بالسرعة نفسها، وخلفها مباشرة تتهادى السيارة السوداء المكشوفة التي تقل جمال عبد الناصر «أظنها سيارة كاديلاك» كأنه يبتسم لي، هكذا قلت لنفسي مبتهجًا في زيارته الثانية لشبرا الخيمة حين رفعت يدي ملوحًا عند مرور سيارته أمامي مباشرة، حيث صارت المسافة بيني وبينه لا تزيد على ثلاثة أمتار، ولا أدري حتى الآن هل حقًا تلاقت عيوننا في تلك اللحظة الخاطفة، أم كانت خيالات طفل وجد نفسه فجأة محشورًا بين الآلاف وسيارة الزعيم..؟

الحضور الطاغي لعبد الناصر في وجداني جعلني أتذكر تمامًا تاريخ موته، والوقائع التي مررت بها في ذلك اليوم الرهيب، وكيف رأيت أبي يبكي للمرة الأولى والأخيرة حين تلقى خبر الرحيل من الإذاعة المصرية، كان الاثنين 28 سبتمبر 1970م السادسة والربع مساءً، هي اللحظة التي جادت فيها الزعيم بأنفاسه وفاضت روحه إلى بارئها، بنص الكلمة التي ألقاها أنور السادات، نائب رئيس الجمهورية حينئذٍ، وكان والدي يتناول عشاءه في حدود التاسعة حين لاحظ متعجبًا أن الإذاعة المصرية لا تبث سوى القرآن الكريم منذ أكثر من ساعة ونصف الساعة.

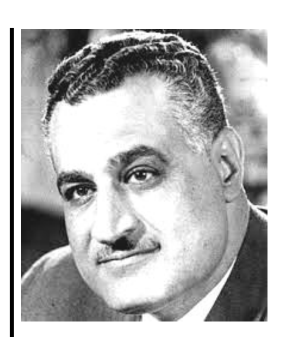
وكعادتي كنت أجلس مع والدي في غرفته وأشاركه الطعام على «الطبلية»، في تلك الأيام البعيدة لم نكن نملك جهاز تليفزيون، فكان الراديو هو وسيلة الإعلام الوحيدة في بيتنا، فلما نطق السادات اسم الميت، انفطر قلب أبي وانهمرت الدموع من عينيه لتختلط ببقايا الطعام التي انتثرت من فيه والدي، في مشهد ملأ قلبي رعبًا..!

في أقل من دقيقة – وأشهد بذلك – تكدست آلاف الجماهير في شوارع وأزقة شبرا الخيمة تبكي وتصرخ وتولول على رحيل الزعيم، وقد رأيت الجموع التي زلزلتها الفجيعة من نافذة بيتنا، ثم بدأت الهتافات تنطلق من أفواه الجماهير تعدد مناقب الزعيم الراحل، أذكر منها: «أبكي.. أبكي يا عروبة ع اللي بناكي طوبة طوبة»، و«أنور أنور يا سادات.. ليه بتقول ناصر مات..؟»، «عبد الناصر يا حبيب.. بكرة ندخل تل أبيب»، «الوداع يا جمال يا حبيب الملايين»، وغير ذلك الكثير من الشعارات التي كنا – نحن الصغار– نرددها مقلدين فيها الكبار.

كان يوم 23 يوليو 1970م في المساء وجلست كالعادة أمام التليفزيون مع أولادي

نستمع لخطاب لرئيس الذي أعلن فيه الانتهاء من بناء السد العـالي، وهنـأ الشـعب ببنـاء السد، وكان آخر خطاب له في عيد الثورة، مكثنا في القاهرة بضعة أيام وقال لي الرئيس: لا داعي للبقاء هنا في الحر، اذهبي والأولاد للإسكندرية، وإن شاء الله سأحضـر بعـد أيـام قليلة.

▪▪ عصر الشعوب...
وعصر القياصرة الرأسماليين!!



1918 - 1970

لعل أهم إنجازات الزعيم الراحل «جمال عبد الناصر» - وهي كثيرة- أنه أول زعيم عربي يفتح للجماهير العربية بوابة التاريخ التي كانت مغلقة دونهم لقرون طويلة.

لقد عاشت الجماهير العربية مع عبد الناصر أحلامًا كبيرة عن الوحدة العربية والكرامة، وعاشت معه رغبتها الجامحة في العودة كفاعلة في تاريخ البشرية بعد أن طُردوا من ساحة الفعل والمشاركة في صنع التاريخ خلال أزمنة الانحطاط.

هذا يفسر سر الشعبية الجارفة التي يتمتع بها عبد الناصر رغم مرور ما يقترب من نصف قرن على رحليه، ومن الصائب أن يقول البعض بأن هناك أجيالاً عديدة من المصريين، استفادت من حقبة عبد الناصر: ملايين الفلاحين الذين وزعت عليهم الأراضي الزراعية، وملايين العمال الذين تحسنت ظروف عملهم وشاركوا في أرباح شركاتهم، وملايين المصريين الذي تعلموا وعلموا أولادهم في المدارس والجامعات المصرية دون أن يحملوا همًا للمصاريف الدراسية، وملايين من الفقراء دخلت بيوتهم الكهرباء والمياه النظيفة المكررة لأول مرة.. وهكذا.

ولكن كيف نفسر ارتباط الجماهير العربية خارج مصر بجمال عبد الناصر..؟! ولماذا منحوه كل هذا الحب والتقدير، الذي لم يحصل عليه أي قائد أو زعيم عربي في التاريخ القديم أو الحديث..؟!!

الحقيقة التي لا يمكن أن نتجاهلها هي أن عبد الناصر هو الرجل الذي فتح أبواب التاريخ للعرب على مصراعيه، وبشكل مذهل، ليعبروا منها حلقة التخلف والتجزئة والانقسام والانحطاط التاريخي، وكما لاحظ عالم النفس اللبناني «علي زيعور» في كتابه المدهش «التحليل النفسي للذات العربية» أن شخصية عبد الناصر استدعت لدى العرب صورة الخليفة العادل «عمر بن الخطاب» بكل ما تحمله من قيم العدل والاستقامة والنزاهة الشخصية والانتصار للضعفاء والكرامة والاعتداد بالذات والشجاعة.

لقد كان غياب عبد الناصر – كما يقول جورج قرم في كتابه «انفجار المشرق العربي»- بمثابة نهاية لعصر، لا نهاية لمأساة، فلقد تغير بسرعة الوجه السياسي للعالم العربي، وأخذت المنطقة تنعطف رويدًا رويدًا في خلال السبعينيات باتجاه اليمين، على نحو غير محسوس في البداية، ولكن بشكل أكيد ومع سبق الإصرار والترصد، وبعد أن كان الروح اليسارية هي التي تشيع في العالم العربي أثناء العهد الناصري، التي كانت تعبر عن نفسها في الشغف بالتحديث الاشتراكي والمعاداة الواضحة للإمبريالية، ورفض واضح للتعايش مع الكيان الصهيوني وعلو نبرة تحريرية واضحة لفلسطين، والوقوف أمام التفسير الرجعي للدين وبشكل خاص الإسلام.

لقد تبدل الحال بشكل جذري بعد وفاة عبد الناصر وبشكل يصعب تصديقه، فموجة العداء للغرب أصبحت المجال لسياسات وأقوال ترى في الغرب «المخلص» للعرب من كل مشاكلهم، وأولها مشكلة الصراع العربي الصهيوني، وعلى مدار ما يقرب من نصف قرن بعد وفاة جمال عبد الناصر التي حكمت المنطقة توجهات مناقضة لتلك التي تبناها عبد الناصر، مثلاً:

أصبح لأمريكا 99٪ من أوراق حل الصراع العربي الإسرائيلي، كما عبر عن ذلك – أول مرة- أنور السادات، لقد قاد السادات هذا التحول الرهيب في حياة الأمة العربية، فبعد أن كانت سياسة الموالاة للغرب تمارس سرًا من بعض الأنظمة العربية، تحول

الأمر إلى سياسات تؤيد الغرب علنًا، وهكذا انتشرت مع التعاظم المفاجئ والفج في الثروة النفطية موجة من المتاجرات والمضاربات المالية، وكشف العالم العربي مرة أخرى عن وجهه المحافظ في السياسة والفكر والدين والثقافة، وستبرز حقبة صعود «الناصرية» في الخمسينيات والستينيات باعتبارها استثناء قصير العمر في تاريخ عربي طويل من المحافظة السياسية المؤسساتية.

إن المأساة بقيت كما هي، فخارج الحلقات الضيقة المستفيدة من النفط وريعه، سيستمر تعمق قاعدة الفقر المدقع في أوساط الجماهير العربية، وسيتعمق معها الانشطار الحاد بين الفقراء والأغنياء في داخل كل قطر عربي، وسيتعمق التناقض الحاد بين الأقطار العربية المصدرة للنفط، وبين تلك المصدرة للعمالة، وستزداد أحاسيس المهانة والشعور بالذل حيال تفتت العالم العربي وضعفه أمام الآخر المتقدم في الغرب، أو امتداده الحضاري على الأرض العربية «إسرائيل».

إن المحافظة السياسية والفكرية، التي عرفتها مصر بعد عبد الناصر ستتخطى حدود مصر وتتجاوزها لينزلق العالم العربي كله في هذه النزعة المحافظة، بما في ذلك تلك الأنظمة التي ترفع شعارات أو واجهات «يسارية» في العراق وسوريا وليبيا والجزائر واليمن الجنوبي (قبل الوحدة مع الشمال).

بل إن الأمر سيطال المقاومة الفلسطينية؛ لتصبح سياسة مغازلة الغرب نهج كامل ومسيطر في السياسة العربية الرسمية، بل إن قطاعات كبيرة من النخبة المثقفة التي رأت أن عجلات الزمن تدور في الاتجاه المعاكس، لم تلبث أن التحقت بنهج «الواقعية السياسية» في حركة «للخلف در» خصوصًا بعد أن انهار المعسكر الاشتراكي انهيارًا مدويًا وما صحبه وما تبعه من إحساس عارم بالخزي من هشاشة البناء، الذي شيدت عليه أول تجارب البناء الاشتراكي في التاريخ، والسهولة العجيبة التي انهار بها.

وهكذا انهارات شعارات الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، واختفت من ساحات الجدل السياسي، وأصبح الفكر الاشتراكي فكرًا مهجورًا يخجل البعض من الحديث عنه أو الترويج له بتأثير الضغط الكبير للفكر الرأسمالي المسيطر سياسيًا وإعلاميًا، وبعد أن كان الفكر الرأسمالي في موقع الدفاع عنه نفسه خلال حقبة الستينيات انقلب الحال

وأصبحت الاشتراكية تتوارى وراء شعارات عامة ومبسطة، ولم تعد ضمن بنـود الدعايـة أو الترويج للأحزاب التي تتبناها وتدعو لها.

لماذا وصلنا إلى هذا النهاية الحزينة..؟ لمـاذا اسـتبد بنـا الكـابوس بثقلـه ووحشـيته وابتذاله..؟ لماذا سقط الحلم العربي بهذه السهولة..؟

قبل الإجابة نقص عليكم قصتين واحدة من فرنسا والثانية من وطننا العربي..؟

▪▪ الإنسان في قلب الزعيم (1)



1918 - 1970

كان منزلا صغيرًا في إحدى ضواحي العاصمة اليوغوسلافية «بلجراد»، أيام كانت يوغوسلافيا دولة اتحادية، وكان يقيم فيه مع زوجته وأولاده الثلاثة، كان في المنفى الاختياري الذي وفر له التأمين المناسب، فيما هو متهم على ذمة القضية المسماة «تنظيم ثورة مصر»، وقد استدعاني لحوار ومهمة، فما أن انتهى الحوار حتى وجدت نفسي ضالعًا في المهمة، رغم أنني اعتذرت بشدة خوفًا من أن أقتل ولذلك قصة أخرى.

المهم أنه أثناء الحوار رد على سؤالي لماذا اختارني أنا تحديدًا مع كثرة من يرحبون وبقوة بأن يطلب منهم أي شيء، رد: لأنك لن تتاجر بي ولن تتربح من ورائي كما فعل آخرون؛ ولأنك لم تكن إمعة ذات يوم، وعندها سرح قليلاً وقال: ذات مرة عدت متأخرًا إلى منشية البكري وتعمدت التسلل إلى غرفتي حتى لا يشعر بي أحد خاصة الوالد أنني عدت متأخرًا، وإذا بي أفاجأ به بأنه مازال مستيقظًا، وناداني وسألني أين كنت..؟ وأجبت: كنت مع أصحابي نذاكر

(1) أحمد جمال: في مجلة المصور، إصدار دار الهلال، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص52 وما بعدها.

وخرجنا، فنظر لي وقال: سوف يأتي يوم تكون فيه مثل الحسين بن علي وردد أبياتًا مازالت أتذكرها وعرفت فيما بعد أنها من شعر أحمد شوقي في مسرحية مجنون ليلى:

أتسمع بشر رضيع الحسين فديت الرضيعين والمرضعة

وأنت إذا ما ذكرنا الحسين تصاممت، لا جاهلاً موضعه

ولكن أخاف أمرًا أن يرى على التشيع أو يسمعه

أحب الحسين ولكنما لساني عليه وقلبي معه

حسبت لساني عن مدحه حذار أمية أن تقطعه

إذا الفتنة اضطرمت في البلاد ورمت النجاة فكن إمعة

كنت في زيارة خالد عبد الناصر في يوغوسلافيا، وكان الحوار حول دعوة وجهها له صدام حسين ليزور بغداد، ثم امتد الحديث حول من تكاثروا حول خالد، وكان منهم منتفعون بلا سقف، وكانت المهمة أن أصحبه إلى بغداد، وكان اعتذاري بأنني سبق وهاجمت صدام، وسبق رفضت دعوة لزيارة بغداد حملها ثلاثة مهمون آنذاك هم محسن خليل ومصطفى النجار ونزار الحديني؛ ولذلك تلقيت تهديدًا مباشرًا بالقتل من سفير العراق في أبو ظبي في ذلك الوقت أوائل 1981م، وعليه فإن ذهابي إلى هناك مغامرة ومقامرة، ولكني أمام ضغطه ضعفت وذهبت وما حدث يستحق أن يُحكى فيما بعد.

وكان الحوار بينه وبين والده الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، وقد تذكر خالد الحوار عندما انهالت عليه السكاكين والنصال، وسلخته ألسن كثيرة، فيما كان أصحابها يتصلون به ليعتذروا ويتعللوا بأنهم مجبرون خشية أن يلحق بهم أذى من السلطة..!

وذات مرة جاءت للرئيس سيارة مرسيدس هدية من أمير الكويت، فأعطاها رسميًا لزوجته السيدة تحية كاظم، التي تعجبت وسألته: لماذا..؟ وأنت لم تفعل ذلك من قبل إطلاقًا..؟ فابتسم وقال لها: لدي إحساس إنه سيأتي يوم لن تجدي فيه سيارة تركبينها، وأنا لا أملك ما أشتري به لك سيارة، وقد فعلت ذلك لأنه لا أحد يعرف ماذا يخبئ لك الزمن..!!

ورحل الزعيم الخالد، وتعقدت علاقات الأسرة بأنور السادات الذي أصبح رئيسًا للجمهورية، وذات يوم فوجئت أسرة الزعيم بقرار من أنور السادات بسحب جميع السيارات المخصصة لهم من سيارات الرئاسة، وفعلاً سحبوا السيارات ولم تجد السيدة تحية سوى تلك السيارة، واشترت هدى سيارة فيات 128؛ لأنها كانت قد عينت معيدة في جامعة الزقازيق، وظل الوضع على ما هو عليه حتى تحايل القذافي بطريقة ما ليرسل سيارات، بدأ بإرسال سيارات فخمة هدية لأسرة السادات فلما قبلوها بادر وأرسل سيارات أقل فخامة لأسرة جمال عبد الناصر.

وفي أضابير الرياسة أن والده الحاج عبد الناصر حسين طلب سيارة يتنقل بها بعد أن كبر عمره وصعبت حركته، فكانت سيارة نصر 1100 صغيرة، ثم تلقى الحاج خطابًا من الرئاسة يتساءل - أي ينتقد- الإسراف في استهلاك البنزين..!

وكان المنزل مكون من طابقين الأسفل قطاع عام والأعلى قطاع خاص، يعني الضيوف من فئة رؤساء الدول والزعماء يُستضافون للغداء أو عشاء أو شاي على حساب الدولة في الطابق الأسفل، أما الأسرة فإن نفقات الأكل والشرب والملبس من مرتب الرئيس، حيث يتسلمه محمد أحمد السكرتير الخاص وعليه أن يتصرف، وكان من حسن التصرف هو وجود عدة أيام خلال الأسبوع «قرديحي»؛ يعني لا لحم ولا فراخ ولا سمك، وكانت حديقة الدار فيها مساحة لزراعة الخضراوات وعشة فراخ، وفرن لخبز العيش، وإذا شحت المونة داخل الدار وحديقتها ينزل الطباخ بـ«السبت الخوص» إلى الأسواق الشعبية ليشتري الاحتياجات، وكان السر في الأسواق الشعبية التي تتغير كل مرة هو الجانب الأمني، وقد بادرت السيدة تحية بإرسال خبز من إنتاج فرن منزلها إلى الرئيس مبارك فور توليه الرئاسة..!

وزمان كنا نذهب مجموعة من طلاب جامعة عين شمس إلى منشية البكري في ذكرى ميلاد الزعيم، وكان عددنا محدودًا في البداية، ويستقبلنا الراحل اللواء صابر عثمان بابتسامته وأدبه الجم ليدخلنا الصالون الرئيسي، وفي أول مرة سألنا عن الكرسي الذي كان يجلس عليه الرئيس وعرفناه وتحاشينا أن يجلس عليه أحدنا.

وبعد قليل تدخل السيدة تحية متشحة بالملابس السوداء، وذات عام في النصف

الأول من السبعينيات نشرت روزاليوسف حوارًا أو ما قيل إنه مذكرات محمود الجيار، الذي كان ضابطًا وكان أحد سكرتارية الرئيس مع محمد أحمد، وفي حلقة من حلقات الجيار قال إنه كان يحضر المخللات والجبن القديم من قريته لمنزل الرئيس، وسألنا السيدة تحية التي كانت قليلة الكلام فإذا بها تتحمس وترد: «كلام الجيار غير صحيح لأن جوزي ماكنش بياكل إلا من إيدي، وكنت شاطرة في المخللات، والمرة الوحيدة اللي الجيار جاب فيها حاجة تخلصنا منها؛ لأنها كانت زلعة جبنة مليانة دود، والدكتور اللي بيراقب الأكل قال إنها غير صالحة للاستخدام الآدمي.

ولأنهما ابنتان ولأن أي أم مصرية تحمل هم تجهيز البنات، فقد حدث ووصل مندوب مبيعات من شركة إيطالية مشهورة للأثاث، وتفتق ذهن مسئول الشركة عن أن يبدأوا من فوق، فإذا حدث فإن مصر كلها ستكون مفتوحة أمام الشركة، وبالفعل وصل المندوب وقابل سكرتير الرئيس للمعلومات وكان هو الآخر عنده بنات، وتلقى العرض فوجده مغريًا جدًا وقرر بدوره أن يبحث عن طريقة مناسبة لإنجاز المطلوب، فتكلم مع السيدة تحية وحاول إقناعها بأن تشتري من الشركة إياها لتجهيز البنات، ولكنها وكما تعودت لم تكن تبرم أمرًا إلا بموافقته، واختارت لحظة من لحظات فراغه وصفائه وحكت له الموضوع، وأظهرت كيف أن الشراء من هذه الشركة سيكون أكثر توفيرًا.

وبهدوء شديد وبحنو أشد رد جمال عبد الناصر: هل ستتمكن كل الأسرة المصرية التي عندها بنات على وش جواز إنها تشتري زي إنت ما ستشتري لهدى ومنى من الإيطاليين..؟ ماله العفش المصري..؟ وأغلق الموضوع بالضبة والمفتاح مثلما هي موضوعات أخرى، منها مثلاً أن عبد الحكيم قبل أن يبلغ الثامنة عشرة كان يلح على استخراج رخصة قيادة، ويأتيه الرد: عندما تكبر وتبقى 18 سنة.

وذات مرة كانوا على الغداء، وهو لقاء يحرص عليه الرئيس، فإذا بعبد الحكيم يسأل: ليه حضرتك مش عاوز تطلع لي رخصة دلوقت، وفلان وفلان أولاد فلان وفلان أصغر مني وطلعوا رخص..؟! فيمسح الرئيس فمه بفوطة السفرة وينهض منها للتليفون: «اطلبوا لي شعراوي»، ودقائق وشعراوي جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وأمين التنظيم الطليعي وأحد أقرب المقربين لقلب وعقل الزعيم على الهاتف ليتلقى كلامًا حاسمًا: «يا شعراوي أنتم بتطلعوا رخص سواقة لأولاد أقل من 18 سنة زي فلان

وفلان، الرخص تتسحب وما يحصلش تاني..»!

وتتكرر بعض الحكايات مع السيد شعراوي، وقد سمعت بعضها منه شخصيًا، أبرزها أنه وجه الدعوة لبعض الأصدقاء وبعض المسئولين للعشاء في منزله، وفي اليوم المحدد التهب ضرس السيدة زوجته واضطرت للذهاب للمستشفى؛ لأن الألم كان مروعًا ولم يستطع إلغاء العزومة فاستعان بطباخ من جروبي، وفي اليوم التالي صباحًا تلقى مكالمة من الرئيس..! «يا شعراوي أنت كان عندك عزومة امبارح، أيوه يا افندم، طيب ليه جبت طباخ من جروبي.. هي مراتك فين..؟ ويرد عم شعراوي ساردًا ما حدث بالدقة الشديدة، فيأتيه الرد: طيب حصل خير، عندما يكون لديك ظرف مماثل إما أن تلغي الدعوة، أو تختار الناس التي تدخل بيتك».

وواضح أن البعض أكل وانبسط وخرج يثرثر حول نائب رئيس الوزراء الذي استعان بطباخ، ولم تقم زوجته بخدمة ضيوفه؛ وواضح أن حظ السيد شعراوي رحمة الله عليه كان غير موات في بعض الأحيان؛ إذ وصل للرئيس خبر عاجل من الإسكندرية حيث يعيش بعض إخوته الأشقاء، وكان الرئيس يأنس جدًا لأخيه عز العرب وبينهما علاقة شديدة القوة والخصوصية، وكان شقيقه الآخر هو السيد الليثي عبد الناصر، وكان الخبر هو أن السيدة زوجة السيد الليثي اشتبكت مع أحد ضباط الشرطة بالإسكندرية، وإنها صعدت الأمر وأن الداخلية نقلت الضابط إلى مكان آخر، ويتصل الرئيس بوزير الداخلية: «يا شعراوي هي فلانة لبستكم طرح..؟!!»، الضابط يعود فورًا إلى مكانه ويتم الاعتذار له ويتم التحقيق ويأخذ مجراه ليُحاسب المخطئ الذي ليس هو الضابط.

ومثلما حكى لي السيد شعراوي جمعة كان السيد أمين هويدي يروي أيضًا عديدًا من المواقف والوقائع، وكانت دموعه تنهمر أحيانًا وأنا أستمع وأحاول التخفيف عنه، كان أمين الهويدي الضابط الحر المثقف والكاتب، الذي تولى مهام خطيرة ومواقع شديدة الأهمية، كان سفيرًا لمصر في العراق في وقت شديد الحساسية، ودائمًا ما كان يتصل بالرئيس.

وذات اتصال هاتفي انتهى الكلام حول قضايا تتصل بالعلاقات المصرية العراقية، وعندها قال الرئيس لسفيره: «يا أمين عندي موضوع شخصي جدًا وعاوزك تهتم بيه»،

وطبعًا رد هويدي الرد المناسب ليفاجأ بأن الرئيس يقول له: «خلال يومين سيكون الأستاذ أحمد بهاء الدين في زيارة لبغداد وعاوزك تهتم بيه يا أمين، يعني تهتم كأنه أنا اللي في الزيارة، ما تيسيبوش يا أمين وما تعتمدش على الموظفين، بنفسك يا أمين تشوف بهاء وتستقبله وتتابع زيارته كأنه أنا يا أمين»، ويرد أمين هويدي «حاضر.. حاضر» وتكاد المكالمة تنتهي ، ليعود الرئيس مؤكدًا آه.. مش هاوصيك على بهاء يا أمين».

كان يحب بهاء الدين ويقرأ له، وذات مرة نعقت غربان الشؤم تريد اعتقال بهاء ومحاكمته؛ لأن مواقفه وكتاباته مناوئة، ويحسم الرئيس الأمر بصرامة: «أوعى حد يقرب منه، بهاء شريف ومحترم ومواقفه وكتاباته من دماغه وليس متآمرًا ولا يعمل على أجندة آخرين..».

وبعد النكسة قرر توسيع دائرة الاستعانة بالعلماء والخبراء في الوزارات، فاستعان بمجموعة منها الدكتور محمد حلمي مراد واختاره فوق الوزارة؛ ليكون مشرفًا على لجنة وزارية مكلفة بتطبيق مضمون بيان 30 مارس 1968م، وكان مجلس الوزراء برئاسة الرئيس شخصيًا، وذات جلسة قال الرئيس موجهًا كلامه للجميع: «هذا المجلس هو أعلى مستوى في البلد وهو برئاستي، وكل ما يدور فيه هو من الأسرار العليا للبلد ولا يجوز لأحد أن يتحدث عنها أو ينقلها».

وبعدها أخذ حلمي مراد يرسل رسائل مكتوبة للرئيس عن الذي يجري في لجنة تطبيق البيان، فقال له الرئيس: «يا دكتور حلمي أنت لديك التليفون الساخن المباشر الذي أرد عليه بنفسي في أي وقت، فلماذا تكتب لي هذه التقارير في زملائك، يا دكتور حلمي لسنا في العهد الملكي كي نسجل مواقف على بعض».

ثم في جلسة مجلس الوزراء يقول الرئيس: «يا جماعة سبق وأكدت على أن ما يجري هنا أسرار عليا ولا يجوز نقلها لأحد من كان»، وفي المرة الأخيرة قال: «يا دكتور حلمي سبق وتكلمت وألمحت إلى نقل ما يجري في هذا المجلس وكنت أقصدك أنت؛ لأنك تنقل ما يجري كله لزوج أختك أحمد حسين الذي حاول بدوره أن يستغل معلومة نقلتها أنت له حول منحة عيد المال، وإننا نفكر في تخفيضها أو تأجيلها نظرًا لظروف البلد وإعادة بناء القوات المسلحة ليهيج المواقع العمالية، وأنت لم تستجب ولذلك فلست مستعدًا لاستمرار التعاون بيننا».

ونهض الرئيس مغادرًا مجلس الوزراء وأسقط في يد حلمي مراد الذي حاول توسيط شعراوي جمعة وغيره، ولكن الرئيس أصر فاستقال حلمي مراد الذي ظل يتاجر ويزور الحقيقة ويعلن أنه الرجل الذي قال «لا»؛ ولذلك ترك الوزارة، وقد واجهته بنفسي بذلك عندما كنا ضمن متحدثين في مهرجان سياسي أقامته جامعة القاهرة بعنوان «الجامعة والمجتمع»، وكان هو آنذاك 1976م على ما أتذكر عضوًا في مجلس الشعب عن مصر الجديدة، وقلت له بالحرف الواحد: يا دكتور لو حضرتك كررت حكاية الرجل الذي قال لا فسوف أضطر لذكر الحقيقة على الناس في المؤتمر، وسألني مضطربًا: وما هي الحقيقة، فذكرت ما جرى بالضبط، ولم يتطرق الرجل لحكاية «لا» هذه.

في ذكرى ميلاده التاسعة والتسعين أستعد إن كان في العمر بقية؛ لأكتب مثلما لم أكتب من قبل عند حلول الذكرى المائة لميلاده.

▪▪ ماذا تبقى من تجربة ناصر الثرية ...؟[1]



1918 - 1970

حين اقتربت الذكرى 99 لميلاد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، طافت بخاطري عشرات الأسئلة وكانت جميعها تلتقي عند سؤال واحد: ماذا تبقى من جمال عبد الناصر وتجربته الثرية ونحن ندخل العام المئوي لمولده..؟

من كان هذا الرجل..؟ إذا كان من يحاول التصدي للإجابة على السؤال (ماذا تبقى من تجربة ناصر..؟) جادًا فسيبدأ بهذا السؤال، من كان جمال عبد الناصر..؟

هو - أصلاً- واحد من بسطاء المصريين، من أسرة صعيدية أسيوطية تنتمي لشرائح صغيرة من الطبقة الوسطى، كانت أسرته - في الحقيقة- أقرب إلى طبقة (الفقراء) منها إلى (الطبقة المتوسطة)، والده عبد الناصر أفندي حسين كان بوسطجي يتنقل بين المحافظات - حسب مقتضيات عمله- من الإسكندرية إلى البحيرة إلى القاهرة فينتقل معه جمال، هل كانت عينا جمال عبد الناصر الطفل تريان في حواري الإسكندرية الفقيرة غير ما يراه الأجانب فيها من بهاء وترف..؟ هل كان عقله يدور دورته في التفكير وهو ينتقل

(1) محمد فريد خميس: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص55.

بعينيه في القاهرة بين حواري «الخرنفش» - حارة خميس العدس التي عاش فيها صباه- وبين الأحياء الراقية من الزمالك إلى جاردن سيتي ومصر الجديدة..؟

يقينًا لم يكن ناصر مجرد مصري يحمل قدرًا الذكاء الخاص، بل كان يحمل قدرًا هائلاً من العقلانية، ويحمل بين ضلوعه عاطفة تنحاز إلى الأغلبية من المصريين، الذين أكلتهم أفواه الباشوات والبكوات في ذلك الزمان، وحين شب والتحق بالمدرسة الحربية، وقرأ وتثقف جاء انحيازه هذا واضحًا لهؤلاء البسطاء، وحين انخرط في حرب 1948م وحوصر في الفالوجا.

فقرر حينها بعد أنا تأمل ما حوله، الإطاحة بالنظام - فاروق- الذي صنع الهزيمة مرتين: الأولى حين هزم معنويات الشعب وأذله وأفقره، والثانية حين هزم الجيش في 1948م بالسلاح الفاسد، وهكذا ظهر ناصر على الساحة، كجواب على سؤال تاريخي كان يشغل بال المثقفين والمفكرين آنذاك وهو: من يخلص مصر من هذا المصير..؟

لم يكن غريبًا إذن أن تنحاز ثورة 23 يوليو 1952م التي صنعها ناصر ورفاقه إلى الفقراء، الفلاحون تلقوا أول انتصار لهم منذ قرون طويلة بصدور قوانين «الإصلاح الزراعي» التي حولتهم من «عمال يومية» إلى «صغار ملاك»، ثم تلقوا الدعم المهني، بأن صار الري ممكنًا طوال العام مع إنشاء السد العالي، أعظم مشروعات الري في مصر وإفريقيا في القرن العشرين.

العمال - أيضًا- تلقوا الانتصارات من ناصر، هل هي مصادفة أن يحمل الرجل الذي نصر العمال والفلاحين والفقراء والطبقة المتوسطة اسم (ناصر)..؟ الله أعلم، لقد تم وضع قوانين العمل التي تجعل من العمال بشرًا يستحقون الراحة، ويمرضون، وتحدث في بيوتهم حالات وفاة، ويحتاجون إلى ساعات عمل محددة، وأ<ور عاجلة وتأمينات ومعاشات، والأهم أنهم صاروا - بالقانون- أعضاء في مجالس إدارات المؤسسات التي يعملون فيها بعد صدور القوانين الاشتراكية في مطلع الستينيات، كما صار الأول من مايو عيدًا لهم مع مال العالم كله.

لقد أحب ناصر العمال والفلاحين، وترجم حبه لهم ترجمة عملية، تتمثل في قوانين تحمي حقوقهم، وإجراءات تغير واقعهم، وإدماج لهم في تجربة تنمية شاملة؛ لذلك

أحبه العمال والفلاحين الذين لا ينسون من أحبهم، فبادلوه حبًا بحب، وإلى الآن لا تزال ذكرى جمال عبد الناصر في قلوب العمال والفلاحين، حتى هؤلاء الذين لم يعاصروه، والحق أن ناصر كان حبيب الملايين بحق، لا العمال والفلاحين وحدهم.

لقد أنشأ ناصر - على سبيل المثال- المجمعات الاستهلاكية، التي استهدفت توزيع الثروة الغذائية بالعدل على طبقات المجتمع، فلا يأكل الغني الفقير، المجمعات الاستهلاكية ومنظومة (التموين) التي وضعها جمال عبد الناصر هي التي وفرت لبيوت المصريين من الفقراء ومتوسطي الحال كل السلع في الستينيات، وفرتها لهم بكرامة وهم رافعوا رؤوسهم، وكان هذا مهمًا لديهم جدًا، وكان مهمًا لدى ناصر جدًا.

تبقى لهؤلاء أيضًا - وللمصريين جميعًا- كل ما أسسه جمال عبد الناصر في 16 عامًا هي مدة حكمه، تبقت لهم القلاع الصناعية، من «الألومنيوم» في نجع حمادي، إلى «الحديد والصلب» في حلوان، إلى المصانع الحربية التي نفخر بها جميعًا، تبقى لهم السد العالي الذي حمى مصر من الجفاف في الثمانينيات، ولا يزال يلعب دوره في تخزين المياه وتوليد الكهرباء، تبقى لهم جيشهم العظيم الذي أعاد جمال عبد الناصر تأسيسه على أسس علمية حديثة وبسرعة ومهارة تدعو إلى الدهشة من يونيو 1967م إلى وفاته في سبتمبر 1970م، الجيش الذي يحمي الوطن ويحمي المصريين، درع مصر وسيفها والذي لولاه - من بعد الله عز وجل- لانهارت الدولة المصرية في السنوات الأخيرة.

تجربة (ناصر) خلاصتها الاعتماد على الذات، هذه أيضًا من أهم ما تبقى منها، لقد كان الاقتصاد المصري قبله شبه أجنبي، صحيح أن طلعت حرب العظيم صنع الكثير لتمصير هذا الاقتصاد، ولكن ظلت الهيمنة الأجنبية عليه إلى أن جاء جمال عبد الناصر ليضرب ضربته الكبرى التاريخية بتأميم «قناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية» في 1956م؛ لينهي سيطرة أجنبية على مورد من أهم موارد الدولة المصرية، سيطرة امتدت نحو 90 عامًا.

وأخذت مصر في عصر ناصر تعتمد على ذاتها، تؤسس صناعتها الوطنية الثقيلة والمتوسطة والخفيفة، وتحقق قفزات في «العدل الاجتماعي»، وقفزات في الزراعة والصناعة، وقفزات في التسليح، ومع مطلع الستينيات صار هناك (القطاع العام) الذي

اعتمد الاقتصاد المصري عليه السنوات الطويلة، لولا أن أصابه سوء الإدارة فيما بعد، ولهذا قصة أخرى، ولا تنفي هذه القصة أن القطاع العام هو الذي حمل أعباء الاقتصاد الوطني بنجاح السنوات، وازدادت هذه الأعباء وطأة بعد حرب 1967م وحتى النصر المجيد في 6 أكتوبر 1973م، هذا فضل للقطاع العام لا يصح تجاهله..!

خارجيًا صارت مصر قوة يحسب لها الغرب ألف حساب، القاهرة صارت تناطح واشنطون بندية، بعد أن تخلصت من الاحتلال البريطاني، وهذا الاستقلال من الاحتلال حققه ناصر ورفاقه أيضًا، وانطلقت مصر قوة ناهضة تغير الواقع العربي من حولها، تناصر ثورة الجزائر وليبيا والسودان والعراق واليمن، وتضع إسرائيل في حجمها الصحيح كقوة استعمارية صغيرة لا تستطيع التوسع على حساب الأراضي العربية، إلى أن جرى التآمر على مصر في يونيو 1967م ولهذا قصة أخرى.

خرجت مصر من حدودها التي وضعها فيها الاستعمار مع (ناصر)، حقق الرجل قفزات كبرى في هذا السياق، أسست مصر مع الهند ويوغوسلافيا ودول العالم الثالث كتلة (عدم الانحياز)، وساندت الثورات ضد الاستعمار العالمي وضد الظلم الاجتماعي في كل دول العالم، ولم يكن غريبًا أن يأتي ثائر عظيم مثل «جيفارا» إلى مصر ليلتقي ناصر ويعتبر من أبنائه الروحيين، أو أن يقول الراحل كاسترو عبارته: «لقد ألهمت ثورة ناصر في مصر وطريقته في إدارة بلاده ثوارنا في جبال سييرا مايسترا»، أصبح ناصر وأصبحت مصر في عهده رمزًا للحرية والتخلص من أغلال الاستعمار، والسعي نحو التقدم، وصناعة المصير، والاستقلال بمعناه الحقيقي، من هنا صارت علاقة ناصر بالغرب - أمريكا وبريطانيا تحديدًا- سيئة ومتوترة معظم الوقت، وكان طبيعيًا أن تتآمر هذه الدول مع إسرائيل لإجهاض التجربة التي يقودها ناصر في مصر في 1967م.

وفي إفريقيا صارت كلمة مصر هي الكلمة المسموعة، وصارت «القاهرة» عاصمة التحرر الإفريقي الأولى، كانت إفريقيا قبل عبد الناصر نسيًا منسيًا لدى القاهرة، ومع ناصر صارت رقم واحد في اهتمامات الدولية المصريةالخارجية، وقد ساندت مصر كل حركات التحرر في القارة السمراء.

وحين قمت بتدشين تمثال جمال عبد الناصر في «كوناكري» قبل أكثر من عام، ضجت العاصمة الغينية بالفرح والاهتمام بهذا التمثال، لقد لمست بنفسي كم يحب الأفارقة

جمال عبد الناصر ويتذكرونه إلى الآن أجيالاً بعد أجيال، وكيف ينسونه وهو الذي أسس «منظمة الوحدة الإفريقية»، كيف ينسونه بينما من النادر أن يكون أحد الساسة الأفارقة قد تخلف عن زيارة القاهرة في الستينيات ولقاء ناصر..؟ لقد كانت القاهرة حضنًا مفتوحًا لأبناء القارة السمراء في زمن جمال عبد الناصر.

سياسيًا أسس جمال عبد الناصر عددًا من الآليات كبديل عن الأحزاب، كان هذا إيقاع الزمن آنذاك خصوصًا أن الأحزاب التي تبقت من العصر الملكي لم تكن على المستوى المطلوب من تحمل المسئولية، أنشأ ناصر «هيئة التحرير» ثم «الاتحاد القومي» ثم «الاتحاد الاشتراكي» كمنظمة سياسية بها كل الأطياف، واستطاع تحقيق نجاح ساحق في ضرب الإرهاب الذي مثلته الإرهابية المحظورة، تلك الجماعة التي حاولت اغتيال ناصر سنة 1954م، وحاولت تنفيذ انقلاب فوضوي بلون الدم ضده في سنة 1965م، وأسس ناصر منظمة الشباب؛ لأنه آمن بالشباب كقوة تغيير رئيسية، ألم يقم هو ورفاقه من الضباط الأحرار بثورة يوليو التي غيرت وجه مصر والعالم العربي وهم شباب في الثلاثينيات من عمرهم..؟

في الوقت نفسه، آمن ناصر بمنهج «التجربة والخطأ»، بعد 1967م اعترف بأخطاء الدولة في إدارة المعركة وأعاد تأسيس القوات المسلحة على أحدث خط، وأصدر بيان مارس 1968م الذي مثل تحولاً حقيقيًا في النظرة لإدارة الدولة وتحريك المجتمع، ولم يرحل ناصر إلا حين كان قد وضع الأساس لتحولات سياسية كبيرة لم تمهله الأقدار لتجسيدها على أرض الواقع.

خلاصة ما تبقى من عبد الناصر الإنسان والزعيم والتجربة أن «مصر تستطيع»، وهي كذلك خلاصة مشروع الرئيس عبد الفتاح السيسي، الرجل الذي يعيد بناء الوطن من جديد، ويؤمن بأن هذا الوطن لديه من القدرات ما يؤهله لكي يصبح واحدًا من أهم البلدان الناهضة اقتصاديًا في العالم بسواعد أبنائه، وليفتتح في عهده أكبر عدد من المشروعات القومية الكبرى، التي تؤهل مصر لعشران السنين القادمة لكي تصبح بلدًا مؤهلاً لاستثمارات صناعية وزراعية وتجارية ضخمة.

كما توفر فرص العمل لملايين الأيدي العاملة من أبناء الفقراء والطبقة المتوسطة،

الطبقتين اللتين يحرص الرئيس السيسي على الحفاظ على مصالحهما الاجتماعية، كذلك حرر السيسي إرادة مصر من التبعية الأمريكية التي ظلت تهيمن على إرادة مصر نحو 40 سنة، وصارت مصر - كما كانت في زمن ناصر - حرة الإرادة، تعمل وفق مصالحها الوطنية العليا، وتدير علاقاتها الدولية بتوازن واضح وندية واضحة، ويخوض السيسي حربًا هائلة ضد الإرهاب في سيناء وعلى الحدود الليبية، فضلا عن «الداخل المصري» بعد أن خلص مصر من نفس العدو الذي خلصها منه ناصر «المحظورة»، أو جماعة الإخوان الإرهابية.

هكذا تبدو تجربة ناصر تجربة وطنية خصبة صالحة للدراسة وخالدة على مر التاريخ، وهكذا تبدو تجربة السيسي تجربة فريدة تخطو خطواتها بقوة مدروسة، محققة نفس الهدف الباقي: مصر تستطيع، وهي إن شاء الله ستستطيع وستبقى وتزدهر.

▪▪ أحمد بهاء الدين ...
يحكي حكايته مع جمال عبد الناصر [1]



1918 - 1970

للدكتور مصطفى عبد الغني الكاتب الصحفي بالأهرام كتاب مهم عنوانه «المثقفون وثورة يوليو»، نشرت الطبعة الأولى منه دار سعاد الصباح عندما كانت تعمل في مصر، ورغم أن الدار عملت فترة قصيرة إلا أنها تركت بصمات مهمة في نشر الكتب ليس في مصر وحدها، ولكن في الوطن العربي كله.

هذا الكتاب أعيد نشره منذ سبع سنوات، عن مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع، هكذا كان اسمه في ذلك الزمان البعيد، كنت مسئولاً في دار سعاد الصباح وقت نشر الطبعة الأولى من الكتاب، وقرأت بعناية طبعة الكتاب الأولى، ثم عدت مؤخرًا لطبعته الثانية فأحسست أنها ربما اختصرت منها أجزاء، ليس بسبب الحجم فقط ولكني أتصور وأنا أكتب من الذاكرة - والكتابة من الذاكرة لعنة- أن الكتاب القديم كانت فيه مقدمة كتبها أحمد بهاء الدين، الذي أعتقد أنه إما كان مشرفًا على رسالة الدكتوراه لمصطفى عبد الغني، أو أنه كان أحد الذين ناقشوها.

(1) يوسف القعيد: في مجلة المصور، إصدار دار الهلال، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص61 وما بعدها.

في الكتاب شهادات من عاصروا عبد الناصر من المثقفين المصريين: أبو سيف يوسف، الشيخ محمد الغزالي، أحمد بهاء الدين، محمود أمين العالم، فتحي رضوان، أحمد أبو الفتح، إحسان عبد القدوس، إبراهيم بيومي مدكور، محمد سيد أحمد، خالد محمد خالد، عبد المنعم الشرقاوي إسماعيل صبري عبد الله، لويس عوض، أحمد حمروش، مصطفى أمين، لطفي الخولي، أحمد سعيد، أمين هويدي، وحيد رأفت.

لن أتوقف أمام هذه القائمة على الطريقة المصرية، لن أسأل صاحب الكتاب وأين طه حسين..؟ وأين نجيب محفوظ..؟ وأين عبد الرحمن الشرقاوي..؟ وأين صلاح عبد الصبور..؟ وأين علي الراعي..؟ وقائمة الأسماء الطويلة من المثقفين الذين عاصروا جمال عبد الناصر حاكمًا لمصر، وكانت لهم معه حكايات ووقائع كثيرة.

لكن الكتاب وهو في الأصل رسالة دكتوراه، لا بد أن يقوم على الاختيار، وأي اختيار مهما كانت المعايير الموضوعية فيه لا بد أن نعترض عليها، وأن تكون لدينا بدائل لها ذلك جزء من الطبيعة الإنسانية، لا بد أن يتقبله من اختار، ولا بد أن يتعامل من خلاله من يتلقى نتائج الاختيار.

اخترت من الشهادات شهادة أحمد بهاء الدين، وأنا متهم أمام نفسي وأمام الآخرين جميعًا بحبي غير المحدود لأحمد بهاء الدين، بعد تجربة إنسانية - لا أدعي الآن والرجل في العالم الآخر- أنها كانت صداقة حميمة، لكني لمست خلالها من الرجل مزايا لم أجدها في غيره من رجال ذلك الزمان.

أيضًا أحمد بهاء الدين كان يقف في منتصف المسافة بين الصحافة كمهنة وبين الأدب والفن كاهتمامات أولى بالنسبة له، وربما كان من أهم الصحفيين المصريين الذي ركز كثيرًا جدًا على فكرة الجمال في حياتنا، لم ينافسه في هذه الفكرة سوى كامل زهيري؛ لأن بهاء كان يعتقد أن الاهتمام بقيمة الجمال مسألة شديدة الأهمية في أن نرقى بمصر وأن نتقدم بها وأن نخرج من مشاكلها بأقل الخسائر الممكنة.

شهادة بهاء:

لعل سؤال مصطفى عبد الغني الأول لأحمد بهاء الدين: هل كتبت بعض خطب جمال عبد الناصر..؟ والسؤال غريب وطرحه أغرب؛ لأن من كان يكتب خطب جمال عبد

الناصر كان الأستاذ محمد حسنين هيكل، ولم يكن ذلك سرًا عبد الناصر قالـه في حياتـه، وهيكل شرحه واستفاض في شرحه.

عن نفسي حكى لي هيكل مطولاً كتاباته لخطب جمال عبد الناصر وللميثاق ، بل قـال لي بالحرف الواحد: كل حرف نطق به جمال عبد الناصر من ور مكتوب كتبتـه لـه، وهـذا كلام منشور في حواري الطويل مع جمال عبد الناصر: محمد حسنين هيكـل يتـذكر عبـد الناصر والمثقفين والثقافة، الذي صدرت طبعة جديدة منه من الهيئة المصـرية للكتـاب مؤخرًا، أحمد بهاء الدين كان رده من ثلاث كلمات: لا لم يحدث.

لكن كانت عند بهاء حكايات تخصـه عـن تـدوين الميثـاق، حكـى أن كمـال الـدين حسين، وكان مسئولاً عن الاتحـاد الاشـتراكي القـومي، اسـتدعاه وقـال لـه إن القيـادة السياسية تعتز بانتسابهم إليها، وكان معه في هـذا اللقـاء إحسـان عبـد القـدوس وكمـال الحناوي، وتكرر اللقاء أكثر من مرة، طرحت فيها قضايا سياسية تناقشوا فيها، ويعتـرف أحمد بهاء الدين من شدة تواضعه أنها كانت أول مرة يتعـرف فيهـا عـلى أحـد السياسـيين المشتغلين في النظام بشكل مباشر.

مع عبد الحكيم عامر:

يُكمل أحمد بهاء الدين روايته، ثم استدعاني عبد الحكيم عامر، وكانـت المـرة الثانيـة التي ألتقي فيها مسئولاً سياسيًا كبيرًا على هذا المسـتوى، وجدتـه وسـط عـدد كبيـر مـن الناس، منهم شقيقه حسن عامر، وعباس رضوان، وكمال رفعت، وفي هذا اللقاء قال لنـا عبد الحكم عامر إنهم بصدد إعداد ميثاق، وطلب من كل منا أن يتصـل بـالآخر، وتركنـا عبد الحكيم عامر نكمل النقاش في الموضوع.

يستطرد أحمد بهاء الدين، كنت أحيانـًا أراه بمفرده، وأحيانـًا أجده مـع شـقيقه حسـن عامر كمستمع أكثر منه مشارك، كان عبد الحكيم عامر يعيد معي مناقشة بعـض القضـايا التي سبق أن طرحناها المرة السابقة، وكان أحيانـًا يطرح أسئلة أخرى ليعيد النظـر فيهـا خلال النقاش الطويل.

من الأمور التي طرحها علينا عبد الحكيم عامر اقتراح أن يكون 50٪ من المجـالس

الشعبية للعمال والفلاحين، وهو اقتراح استغرقت في نقاشه فترات طويلة؛ لأن الفكرة كانت غريبة تمامًا، وسألت عبد الحكيم عامر ما الحكمة في تخصيص هذه النسبة الكبيرة للعمال والفلاحين؟

ويعترف بهاء أنه عارض هذا الاقتراح بشدة حينئذٍ، وأن الموضوع أخذ جلسات طويلة وساخنة، ويقول إنه تشكك في دوافعهم، وقال لعبد الحكيم عامر بالحرف الواحد: «لا تؤاخذني، عندي أكثر من رد فعل مبدئي بصراحة، إن العمال والفلاحين ليسوا مهيئين لذلك ليكونوا أعضاء في المجالس التشريعية، وبصراحة أكثر أن القابلين للرد والمناقشة والفهم، هم الذين على درجة من التعليم ومن الثقة بالنفس والاستقلال»، طالت المناقشة واستطالت، لكن بهاء يختم قوله: «لكن عندما ألقى الرئيس جمال عبد الناصر قراره النهائي انتهى كل شيء».

كتابة الميثاق

يعترف بهاء أن من أسهم في كتابة الميثاق ومن صنع أفكار الميثاق قبل صياغته الأخيرة خمسمائة مثقف مصري، كل مثقف قال رأيه كتابة أو شفاهة في مجلس عام أو مكان مغلق، في تقرير مكتوب أو بشكل شفهي، وقد كانت هذه أول مرة أحتك فيها بالمشير، «تعليق من عندي»: لست متأكدًا أن عبد الحكيم عامر كان مشيرًا في ذلك الوقت، وربما أصبح مشيرًا فيما بعد، وأصبح يُطلق عليه اللقب بأثر رجعي عندما يتذكر الإنسان ما جرى.

يكمل بهاء لم أكن أتردد في قول ما أريده بصراحة ووضوح شديدين، غير هياب ولا وجل، حتى إنني أذكر في إحدى المرات كنت خارجًا من منزل عبد الحكيم عامر أني سمعت من يقول لي، وأعتقد أنه شقيقه حسن عامر: إنت مش خايف تتحدث بهذا الشكل..؟

ويكمل حكاية الميثاق، وعلى هذا النحو كتب الميثاق، فما كان يحدث معي حدث مع غيري، كان توجه عبد الناصر واضحًا، سؤال المثقفين والسياسيين، فتجمعت لديه أفكار كثيرة، انتقى منها عبد الناصر فيما يبدو ما يريد، ثم دفع بها في نهاية الأمر إلى محمد حسنين هيكل ليكتبها في صياغتها الأخيرة.

بيان 1968م

وعن حكاية هذا البيان الشهير يقول أحمد بهاء الدين: لم أكن عضوًا في التنظيم ولكن لي رأيي فقط، وكان يُقبض دائمًا على من ينتمي إلى أي تنظيم أو خلية، وأعتقد أن الثورة وعبد الناصر تحديدًا لم تكن لديه مشكلة إزاء إبداء الرأي، وأستطيع أن أشهد بأنه لم يكن يتم القبض على صحفي بسبب رأيه، بل كان يتم القبض على الخلية التنظيمية مثلاً.

ثم يروي بهاء الجزء الباقي من حكايته مع عبد الناصر على لسان سامي الدروبي، سفير سوريا في مصر في ذلك الوقت، فقد سأله جمال عبد الناصر عن أزمة نقابة الصحفيين وموقف أحمد بهاء الدين بعد أن عرف بالصداقة الحميمة التي تجمع الدروبي ببهاء، قال عبد الناصر لسامي الدروبي: أنا ماكنتش متوقع من صاحبك بهاء يعمل كده، سأله سامي الدروبي: سيدي الرئيس ماذا فعل بهاء..؟ قال جمال عبد الناصر: البيان اللي طلعه كان طعنة خنجر في ليلة مظلمة، قال سامي الدروبي لعبد الناصر: بهاء لا يعمل كده.

حكى له عبد الناصر ملابسات الموضوع، واختتم كلامه للسفير السوري قائلاً: إحنا كلمنا كل النقابات ألا يعملوا اضطرابات، ومع ذلك فإنه صار يصدر بيانًا عنيفًا، دافع الروبي عن بهاء: إن البيان بكل ما جاء فيه صدر بعد ذلك في بيان 30 مارس.

أجاب عبد الناصر بسرعة وعتاب: هو ما كانش عارف اللي إحنا عارفينه، كانت الدولة تنظر إلى الموضوع بمنطق آخر، وأضاف عبد الناصر بحدة: لقد كانت المظاهرات مستمرة، معناها أن تقع الورقة في أيدٍ أجنبية، وكأن هذا كان يريد إسقاط الحكم القائم، وأكمل عبد الناصر وهو يضيف إلى الحدة حالة من الحزن: إن الخلاف في قمة السلطة معناه أن ينزل الجيش حتى يضغط، كما يمكن أن يحدث ذلك بإصدار قرار بهذا ويطلق النار في المليان لقمع الفتنة، ده طلع البيان في الليلة اللي كاد الجيش فيه أن ينزل وينهي الفكرة، تصور..؟

ثم قال جمال عبد الناصر لسامي الدروبي في هدوء: في هذا الوقت قدمت إليَّ مذكرة للقبض على أحمد بهاء الدين وأنا رفضت ذلك، قلت لهم إن البيان سيء في الوقت الذي نعيش فيه، ويمكن أن يجرنا إلى مشاكل كثيرة، لكن إحنا عارفينه هو رأيه كده، مخه كده.

قال سامي الدروبي إنه سأل عبد الناصر: هل من حقه أن يبلغ هذه الحكاية لبهـاء..؟ قال له عبد الناصر: طبعًا، لقد قلت لك لتبلغه، إزاي يعمل كده في الليلة دي..؟

بالطبع ينهي أحمد بهاء الدين الحكاية، ولم يكن في ذهني شيء من هـذا قـط، رحـم الله الجميع رحمة واسعة.

▪▪ ناصر وإدارة تكافؤ الفرص (1)



1918 - 1970

يذكر الكاتب الصحفي مصطفى عبد القادر أن الدكتور هدى عبد الناصر ابن الزعيم قد حكت هذه النادرة، بعد حفل عشاء أقيم في 23 فبراير 1970م بمناسبة زيارة الرئيس اليوغوسلافي تيتو إلى القاهرة، عاد ناصر إلى منزله واتصل بعدد من الذين حضروا الحفل، ويقوله إنه قد لاحظ أن زوجاتهم كن يرتدين ملابس رخيصة وغير أنيقة، فهل فعلن هذا حتى يتظاهرن أمامي بالفقر.

إنني أعلم أنهن يرتدين أفخر الثياب في الحفلات الخاصة التي يحضرنها، فلما يتخذن هذا المظهر أمامي وفي حفل رسمي، إنني لست داعية للفقر ولا للبهدلة، إنني ضد الاستغلال والملكية المستغلة، لكني لست ضد الرخاء ولا الأناقة.

نعم، يبدو أن قراءة فكر وتوجهات عبد الناصر كانت في بعض الأحيان تلاقي مبالغات وردود فعل أعلى وأسوأ من قدرها الموضوعي لسوء فهم، وعليه كانت النكتة السياسية «الحراقة» في عهده هي الأكثر انتشارًا، حيث الكوميديا

(1) مدحت بشاي: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص64 وما بعدها.

المبنية على سوء التفاهم والمفارقات الحياتية بشكل ميز عصر الزعيم، والتي كان أغلبها يصله ويعلق عليها كما حكى المقربون من شخص الزعيم.

منها قيل أن جمال عبد الناصر احتاج إلى مترجم فسأل عن أفضل مترجم فقالوا له الدكتور فلان، فطلب من المخابرات أن يحضروه، وبعد أسبوع سأل عبد الناصر المخابرات عنه ولماذا لم يأتوا به..؟ فقالو له: إحنا جبناه يا افندم واعترف وحوكم وأعدم..!!

وفي مزحة أخرى، أنه في أيام الثورة سأل شابًا جاره الأكبر سنـًا: إيه رأيك في الثورة..؟ فأجابه الثورة الله، يا سلام يا سلام، للدرجة دي بتحب الثورة، طبعًا ده أنا من كتر حبي للثورة نفسي في ثورة تانية.

ولكن ظل عصر عبد الناصر يمثل العصر الذهبي الذي ارتبط فيه المواطن المصري بتراب وطنه وبدجة رائعة من الولاء والانتماء، لوجود مشروع وطني معلن وهام على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، ساعد إلى إبرازه إعلام موجه شديد الحرفية في الإقناع، وقوى ناعمة شكلتها جبهة أو كتيبة من أهل الإبداع في كل المجالات، صدقوا الأحلام الناصرية واستطاعوا أن يقدموا إنجازات عبد الناصر عبر الغنوة والمزيكا واللوحة الفنيةوالقصيدة والرواية وكل فنون الأدب إلى الجماهير بروعة واقتدار وإخلاص المحب العاشق للتجربة الناصرية على المستوى المحلي والعربي والإفريقي في أعمال خالدة ارتبط بها وبمبدعيها الناس في الحارة والشارع بكل القرى والمدن.

وكان من أهداف الثورة التي تعلقت بحلم تحقيقها «العدالة الاجتماعية»، والتي سارع ناصر بعد أيام قليلة من تسلمه مقاليد الحكم لتحويله من حلم إلى واقع على الأرض، وكانت البداية بمشروع الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على المعدمين من الفلاحين، وغيرها من الإنجازات التي تكفل التعليم والصحة والسكن الغناء، وصار تأكيد ناصر على مبدأ «تكافؤ الفرص» بين مواطنيه هو غايته ومشروعه الهام.

في مناسبة إرساء حجر الأساس للكاتدرائية الجديدة بالعباسية، وفي خطابه الرائع حينئذٍ أكد على ذلك المفهوم، قال: «بالمحبة، بالإخاء، بالمساواة، بتكافؤ الفرص

نستطيع أن نخلق الوطن القوي الذي لا يعرف للطائفية معنى، ولا يحس بالطائفية أبدًا بل يحس بالوطنية التي يشعر بها الجندي في ميدان القتال، وكما قلت لكم في أول الثورة حينما كنا في فلسطين، في عام 1948م كان المسلم يسير جنبًا إلى جنب مع المسيحي، ولم تكن رصاصة الأعداء تفرق بين المسلم والمسيحي، وحينما تعرضنا للعدوان في سنة 1956م وضُربت بورسعيد، هل فرقت قنابل الأعداء بين المسلم والمسيحي..؟!

إننا جميعًا بالنسبة لهم أبناء مصر، لم يفرقوا بين مسلم ومسيحي، على هذا الأساس سارت الثورة وكنا نعتقد دائمًا أن السبيل الوحيد لتأمين الوحدة الوطنية هو المساواة وتكافؤ الفرص، كان المواطنون جميعًا لا فرق بين مواطن ومواطن، في المدارس الدخول بالمجموع مش ابن فلان ولا ابن علان، ولا مسلم ولا مسيحي أبدًا.

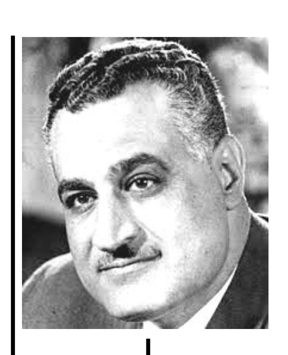
في الجامعة الدخول بالمجموع اللي بيجيب المجموع بيدخل، إن شاء الله يطلعوا منهم 90٪ منهم أولاد غفرا أو أولاد فلاحين أو أولاد عمال، موضوع مش بتاعنا أبدًا.. إحنا عندنا مساواة مافيش فرق عندنا بين ابن الفقير ولا ابن الوزير، ده متساوي مع ده مافيش تمييز بين مسلم ومسيحي اللي بيجيب النمر بيدخل، يدخلوا 30٪ مسيحيين، 50٪ مسيحيين مش موضوعنا أبدًا، بيدخلوا كلهم مسلمين مش موضوعنا أبدًا، بيدخلوا كلهم مسيحيين مش موضوعنا أبدًا، المهم اللي بيجيبوا أحسن نمر همه اللي بيدخلوا.

وهذه نعتقد أنها شريعة العدل وشريعة المساواة، في التعيينات في الحكومة في القضاء بالأقدمية، اللي بيجيب نمر أحسن بيروح القضاء، مانعرفوش ده ابن مين، ولا ده ابن مين، ولا ده دينه إيه، ولا ده دينه إيه، في كل الوظائف نسير على هذا المنوال، في الترقي جميع الترقيات في الدولة بالأقدمية لغاية الدرجة الأولى، كل واحد بياخد دوره بالأقدمية، مفيش فرصة حتى للمتعصبين إنهم يتلاعبوا، طبعًا ده سبيلنا، وده سبيل الثورة، ودي الناحية المعنوية اللي أنا حبيت أبينها لكم بمساهمة الحكومة وحضوري معاكم في إرساء حجر الأساس.

حينما تقابلت أخيرًا مع البابا في منزلي فاتحته في بناء الكاتدرائية، وأن الحكومة مستعدة تساهم في هذا الموضوع، ولم يكن قصدي من هذا فعلاً المساهمة المادية،

فالمساهمة المادية أمرها سهل وأمرها يسير، ولكني كنت أقصد الناحية المعنويـة، تلـك القناعات كان يؤيدها ويترجمها على الأرض حالة الوئـام النسـبي بـين النـاس في عصـره، فكانت أيام حكمه هي الأقل رصدًا لأحداث طائفية أو مذهبية، وأعتقد إن ازدهار فنـون الموسيقى والغناء والمسرح والسينما في العصر الناصري كانت من بـين أهـم الأسـباب التي ساهمت في انشغال المواطن وتعلقه بالقيم الجمالية التي لا تسمح بانتشار التعصـب والكراهية ورفض الآخر، فالعملة الحسنة تطرد العملة الرديئة دومًا.

▪▪ أيامي الأخيرة مع عبد الناصر [1]



1918 - 1970

منطق الطبلة والربابة حفل أكبر وأبقى:

في عام 1969م كنت أترأس أحد أقسام مجمع الحديد والصلب، كنا مازلنا ننهي التركيبات وفوجئنا بعبد الناصر يطلب افتتاح المشروع على نحو عاجل، ولما قيل له إننا مازلنا نحتاج إلى شهور حتى نبدأ العمل والإنتاج، كرر أنه – أو بالأحرى مصر – في حاجة إلى أن يتم الافتتاح على الفور، ولا بأس من أن نأخذ بعد ذلك وقتنا لنبدأ الإنتاج.

يومها جاء ناصر وكان الافتتاح المبكر للوحدة مناسبة أكد من خلالها في واحد من خطاباته الهامة أن مصر لم تنته مع نكسة 1967م، وإنها تبني مشروعات عملاقة مثل مجمع الحديد والصلب، وإلى جوار ما يحسه الجميع من جهد الذي يُبذل في إعادة بناء القوات المسلحة لاسترداد الأرض.

كنا قد أصبنا بهزيمة قاسية وكنا نغني أيامها: «وعضم أولادنا نلمه نلمه.. نسنه نسنه.. ونعمل منه مدافع.. وندافع وجيب النصر هدية لمصر»، وكان ذلك يعني أن الهزيمة لم

(1) د. محمد فتحي: في مجلة المصور، إصدار دار الهلال، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص68، 69.

تطل جزءًا عزيزًا من داخلنا، وكنت أدرك مع ناصر أن الروح المعنوية شيء أساسي، لكن الأمر يكون أوقع وأجدى - حتى بالنسبة لهذه الروح في نهاية المطاف- إذا كان بمقدورنا أيضًا أن نؤكد بعملنا، وصلب بلادنا نسنه نسنه ونعمل منه مدافع ونجيب النصر، ومن هنا كنت قد تركت عملاً متميزًا في شكر النصر للتصدير والاستيراد في شارع سليمان باشا، ورحت أعمل في الحديد والصلب بالتبين، فأغانى الحماسة أمر جيد لكنها تتحول إلى رومانسية مأزومة فارغة، وربما مهلكة، إن لم يكن هناك ما يدعمها من قدرات مادية.

المهم أنني أحسست أن «أبي ناصر» قال لي شخصيًا بما فعله، كما تحتاج معنويات الأمة إلى الحديث عن أمثال مشروعكم هذا، ناهيك عن حاجتها إلى معارفه وصلبه.

في أغسطس 1971م قرب مرور عام على تشغيل الوحدة، فوجئت بمسئول الاتحاد الاشتراكي يتحدث عن عمل حفل كبير بهذه المناسبة، ويجمع النقود لشراء تورتات وجاتوه، وكان مازال ما يحرك وجداني فيما يخص عملنا هو الصورة المجازية: «وصلب (بدلاً من عضم) أولادنا نلمه نلمه.. نسنه نسنه.. ونعمل منه مدافع.. وندافع وجيب النصر»، وكانت قد أكدتها أيامها الغارة الإسرائيلية على مصنع تابع للشركة الأهلية للصناعات المعدنية في أبي زعبل.

وكانت قد شاعت كلمات قصيدة نزار قباني: «هوامش على دفتر النكسة»: «أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة/ والكتب القديمة/ أنعي لكم.. نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة/ إذا خسرنا لا غرابة؛ لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة/ بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة/ لأننا ندخلها/ بمنطق الطبلة والربابة».

كما كانت تجربتي في الدفاع الجوي (1968م) عن مطار أسوان - حيث تربض القاذفات الثقيلة من طراز تي يو- مازالت حية في وجداني، وقد كان الإسرائيليون يصورون مواقعنا صباحًا مساءً، وما في يدي من سلاح (مدفع ط 23 مم مداه 1500 متر) لا يطال طائراتهم التي تحلق على ارتفاعات شاهقة لا يمكن أن يصل إليها إلا الصواريخ، وذلك علاوة على الدرس الذي علمتني إياه زيارة أبي ناصر عن الدور المعنوي لوحدتنا الإنتاجية.

والذي لقى امتدادًا في الزيارات المتواصلة التي لم تكن تنقطع لوحدتنا، من كل عربي أو حتى أجنبي مهم يستطيع أن يدعم جهد مصر (وكأنما في مناجاة له: انظر كيف وكم تتكلف مصر في الاستعداد للمعركة)؛ ولذلك كله أبديت تحفظي على أن يكون المطروح هو الحفل الترفيهي، مقترحًا «حفلاً أكبر وأبقى»، نقدم فيه لمصر خلال شهر الذكرى إنتاجًا (صلب مدرعات مثلاً) قدرة 150٪ من الطاقة الإنتاجية المخططة للوحدة، بجهد تطوعي وكانت تجربة عاصفة.

كان الرد الأول: «إن الاقتراح المطروح هو حفل شاي ظريف يخفف مشاق وإجهاد العمل على فئات العمل العليا الإدارية الفنية والهندسية، مصرية وروسية، حفل يقضون خلاله وقتًا جميلاً»، ولما وصل من نظرتي: ولماذا لا يكون ما أقوله مطروحًا أيضًا، أردف المسئول: «الناس تعبانين ونحن نحتفل، يعني عايزين نفرح مش نشتغل أكثر»، ولما رددت بأنني أعرف مدى الجهد الذي يبذله العاملون، وأن مطلب الراحة والفرح مشروع، لكننا كمصريين ندرك المأزق الذي تمر به مصر، وما أقترحه سيكون في النهاية مدعاة للسعادة بل ولراحة أكبر بالنسبة لكثيرين، إذا أضفنا راحة النفس إلى الراحة الدارجة.

هنا ووجهت بسؤال: وكيف ننتج 150٪ من الطاقة الإنتاجية المخططة للوحدة، وكان عليَّ تقديم إجابة فنية مسهبة للعمل الكفيل بهذا الإنجاز، اعتمادًا على الجهد التطوعي ليس على مستوى قسمي، بل على مستوى الوحدة الإنتاجية كلها، وقد ساعدني في ذلك إلى جوار تطلعي وحماسي وعون المتحمسين مثلي، ارتباط القسم الذي أترأسه بكل أجزاء وحدتنا الإنتاجية، من حيث تخديمه عليها جميعًا، وهذا إلى جوار إدراكي لترابط الأشياء، وعدم الارتياح للتعامل مع شيء تعاملاً سطحيًا بدعوى أن مسئوليتي محددة وتقف عند هذا أو ذاك من الحدود، مما استوجب معرفة متعمقة لكل وحدات العنبر التي كان عليَّ أن أخدمها، بل والوحدات التي تحيط به لتأثيرها في هذه الخدمة.

كما أنه لم يكن في المهمة التي اقترحتها بدعة جديدة؛ إذ كانت مجرد تطوير لما تحاوله من زيادة في الإنتاج كل شهر، للحصول على حوافز أكبر تضاف للأجر، لكنه كان تطويرًا ينحو نحو آفاق جديدة، وكنت قد مررت بتجربة دفعتني دفعة كبيرة، وأنا مازلت

في أول طريقي، من حيث اتساع مجال التعامل مع المعارف الهندسية الخاصة بعملنا.

فقد أتاحت لي معرفتي باللغة الروسية وبالهندسة أن أكون المهندس الوحيد - بين مترجمين محترفين- الذي ساهم في ترجمة تعليمات تشغيل مختلف وحدات مجمع الحديد والصلب وفي كل التخصصات، ناهيك عن تخصصي المباشر (إن كان المترجم المحترف يترجم دون خلفية هندسية اعتمادًا على معرفة اللغة، فمن باب أولى أن يتطرق مهندس متخصص إلى كل الفروع الهندسية)، وكان الولع بسبر غور الموضوع الذي أترجمه هندسيًا، اعتمادًا على خلفيات دراستي قبل التخصص أيام الكلية، وسهولة الحركة بين زملائي المهندسين في وحدات المجمع المختلفة، ناهيك عن مسئوليتي عن هموم أبي ناصر، نقاط تفوق هائلة على المترجمين المحترفين، ودافعًا معرفيًا لا يُبارى.

المهم أنه بعد تقديم الإجابة الفنية المطلوبة ووجهت بأن عملاً مثل هذا مستحيل أن يتقرر إلا بموافقة كل العاملين، الذين سيتحملون الأعباء، وهناك تخوف من عدم موافقتهم على بذل مثل هذا الجهد التطوعي؛ إذ أن محاولاتهم زيادة الإنتاج مرتبطة بسعيهم إلى رفع نسبة الحوافز، فأبديت رأيي بأن العاملين - على العكس- سيتحمسون للأمر، فهم يدركون الظروف التي تمر بها مصر، ولن يبخل أحد بجهد، وأنا كفيل بتوضيح الأمر لهم، وبات عليَّ أن أحصل على توقيع العاملين بالوحدة فوق صفحة موافقة كتابية.

وبعد ذلك لم يكن هناك حجة للنكوص، فقيل لي: موافقون على شرط أن تنجزوا لنا هذا الهدف أولاً (يعني في السر) ثم نعلنه بعد ذلك؛ لأن أحدًا لا يضمن الظروف، لكنني رأيت ضرورة الإعلان قبل البدء؛ لأن هناك فارقًا كبيرًا بين إنجاز كم من العمل، وإنجاز نفس الكم وإن كان بتعاقد مسبق واع مخطط، والعاملون يدركون وهم يبدأون أنهم على موعد ووعد بعمل مضاعف من أجل استعادة الأرض والكرامة وأحلام المستقبلالتي كنا نجهر بها: «مصانع كبرى.. مزارع خضرا.. تماثيل رخام على الترعة وأوبرا.. في كل قرية عربية».

وهنا برز تخوف البعض الأعظم: وماذا يكون موقفنا أمام المسئولين إن أخفقنا، فسألت فيم التفكير في الإخفاق، وقد بينت الحسابات الفنية كيفية إنجاز المهمة، وجل ظروف الإنتاج في أيدينا، بينما بعض دول العالم تعلن اليوم مسبقًا عن مواعيد لإرسال

أناس إلى القمر، يذهبون بالفعل ويعودون، رغم وجود ظروف القاهرة لا يستطيعون أن يكون معظمها في أيديهم..! لا بد لنا من حياة تكن معنى الحياة، بما تتضمن من حلم وجسارة ووعي ومخاطر واردة.

واستفزني الخوف والحرج والهيبة في موقف المسئولين الكبار، الذين يخافون من الالتزام أمام رئيس مجلس إدارة الشركة، الأمر الذي صار حجر عثرة كبيرة، مما دفعني إلى تصعيد الأمر - مستعيدًا ذكريات حضور ناصر افتتاح الوحدة- وأصر على أن يكون ارتباط العنبر وتعاقده المسبق في هذه المهمة مع أكبر مسئول، مع رئيس الجمهورية مباشرة، مقترحًا نصًا لبرقية نبعث بها إليه ونحن نبدأ عملنا.

القائد البطل عبد الناصر

السواعد التي ارتفعت في 9، و10 يونيو رافضة للهزيمة، متمسكة بك قائدًا لمسيرتها تعاهدك من جديد بمناسبة مرور عام على بدء إنتاج وحدة درفلة الشرائط على الساخن، نعاهدك على تحقيق خطة إنتاجية تكفي 150٪ من الطاقة الإنتاجية الكاملة للوحدة خلال شهر سبتمبر، وبجهد تطوعي، رمزًا للاستعداد لتحمل مسئوليات النصر.

توقيع: العاملون في درفلة الشرائط على الساخن

حدث ارتباك لوهلة، فتجربتهم معي في أمور خارج سياق موضوعنا تقول إنه من الصعب تراجعي، مما أسفر عن اقتراح بالانتظار حتى تتم المهمة ثم نرسل البرقية، فأصررت: «بل قبلها لأن قيمة عملنا حينئذٍ ستكون أكبر»، بادر البعض: «النصف علينا والنصف لك» نرسلها في منتصف الشهر بعد أن نكون قد قطعنا شوطًا في العمل وحتى نرسلها وقلوبنا جامدة.

أعدت حكاية التخطيط مسبقًا للذاهب إلى القمر، وقلت المفروض أن نرسلها في البداية وقلوبنا أجمد، وأمام إصراري وموافقة العاملين سلم المعترضون وفوضني الجميع أن أرسل البرقية شخصيًا، فهنا أمر «مافيهوش هزار».

في هذه اللحظة ومع تسليم الجمع بدأت أضع يدي على قلبي، وكان أول قرار اتخذته - بيني وبين نفسي- التمهل في إرسالة البرقية، والاكتفاء بكتابتها وتعليقها على

أبواب الوحدة الإنتاجية؛ لتكون أول ما يستقبل العاملون في طريقهم؛ ليبدأوا عملهم وقد طالعوا عهدهم مع ناصر، وبات العاملون في الوحدة يفهمون أن كلاً منهم عاهد الرئيس شخصيًا، «رمزًا للاستعداد لتحمل مسئوليات النصر»، ورغم أني كنت أؤكد للجميع أني أرسلت البرقية، إلا أن ذلك لم يحدث فعلاً إلا بعد مرور يوم العمل الأول، وإدراكي عمق حماس العاملين، مجسدًا في إصرارهم على تجاوز الهدف الجديد الذي بتنا نعمل وفقه لإنتاج 150٪ تحسبًا لأي طوارئ.

وهكذا جاءت البرقية التي أشرت إليها في الافتتاحية، ردًا على برقيتنا، وهكذا كانت أيامي الأخيرة مع عبد الناصر.

هل اتفق نجيب اتفق مع الإخوان على اغتيال الرئيس؟[1]

قال خليفة عطوة المتهم الثالث في حادث المنشية، الذي دبره الإخوان لقتل جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤م، إن حسن البنا من أصول يهودية، وإنه كان مأجورًا من الإنجليز والماسونية لتدمير مصر، معتبرا إياه فتنة خلفها الاحتلال للإيقاع بالبلاد. وكشف عطوة وهو من قرية «بحطيط» بمركز أبو حماد بمحافظة الشرقية، ومن مواليد فبراير ١٩٣٣م، في حواره مع «الدستور» عن تورط الرئيس محمد نجيب في الاشتراك مع الإخوان للتخلص من جمال عبد الناصر بعد أن تصالحت المصالح بينهما، لافتا إلى أن هنداوي دوير مخطط الحادث، هو أول من باع شركاءه وأبلغ عنهم، معتبرا أن الرئيس السيسي هو الوحيد الذي يستكمل المبادئ العادلة التي أقرتها ثورة 1952م.

*** بداية.. كيف نجح الإخوان في ضمك لصفوفهم..؟**

كنت طفلاً مهذبًا ولبقًا منذ أن كان عمري ٣ سنوات، وكان حسن البنا يتردد على منزل جدي عمدة بلدتنا أسبوعيا، والتحقت بصفوف الكشافة التي أسسها حسن البنا، وكنت وقتها لم أتخط عشر سنوات، وكانوا يدربون الأطفال والشباب على الوقوف في الشمس والقفز وضرب النبلة، وكانوا يربوننا على الاستهانة بالقتل، فكانوا يحضرون الطيور ويجعلوننا نقتلها ونكسر عنقها، وبعد الذبح يطلبون مننا تقطيع أرجلها لنعتاد على العنف.

(1) سارة الورداني: جريدة الدستور، تحت عنوان ملفات خاصة، العدد (3603)، بتاريخ 29 سبتمبر 2017م، ص11.

*** خلال وجودك داخل مطبخ الإخوان.. كيف رأيت حسن البنا؟**

حسن البنا يهودي الأصل[1]، وهو فتنة زرعها الاحتلال والماسونية في مصر لتخريبها، فهو يهودي مغربي كان يعمل في مهنة تصليح الساعات التي لم يمتهنها إلا اليهود في ذلك الوقت، ومشى بين الناس بالتدين المزعوم لبث أفكاره الخبيثة تحت ستار الدين، وهو مأجور من الاحتلال لتخريب مصر وزرع الفتنة بها.

كانت تربطه علاقة قوية بـ«أرسكين»، قائد القوات البحرية في الشرق الأوسط، وحصل منه على ٥٠٠ جنيه إسترليني لإنشاء جمعية «مكارم الأخلاق» الإسلامية، وكان أجدادنا دائما ما يرددون عبارة ثبتت صحتها على مدار الأيام وهي «اللي ييجي من الغرب ما يسر القلب»، فكيف يدفع من هو ليس من دين الإسلام وهو محتل لبلادنا أموالا مقابل إقامة جمعية إسلامية إلا لو علم أن لها أغراضا أخرى، حسن البنا لو قرأ آية واحدة في القرآن وتدبرها ماكنش أمر بالقتل ولا حرض عليه، وفي الآخر اتقتل لأن من قتل يُقتل ولو بعد حين.

*** كيف يختار الإخوان من يجندونهم لخدمة أغراض الجماعة؟**

يختار الإخوان أعوانهم من المغيبين تماما وأصحاب الهموم والمشاكل، ولا يعتمدون على الفقر أو الجوع كمعيار لاختيار جنودهم، فتراهم يدخلون لليتيم ولمن خسر حبيبته، وللفتاة التي وقعت في أزمة، ويبدأون خطتهم بزعم التقرب لله وطاعته كسبيل للخلاص من المشاكل، ثم يبدأون في زرع الأفكار المسمومة بعد التمكن من ضحيتهم، فهم مثال للعنف والإرهاب، حتى شعارهم الذي يحتوى على رسمة السيف لا يمت للإسلام بصلة، فدين الإسلام انتشر بالسماحة وليس بحد السيف، ولكن السيف يشير لعنفهم ودمويتهم.

*** كيف أقنعك الإخوان أنت وزملاءك بتنفيذ مخطط اغتيال جمال عبد الناصر وارتكاب حادث المنشية..؟**

كنا شبابًا ثائرًا يحب بلده ويغار عليه، وكنا على استعداد لتنفيذ أي شيء لصالح مصر،

(1) المستشار محمد مرشدي بركات – عبقرية العقاد – الطبعة الثانية – مكتبة جزيرة الورد 2017. وراجع د. علي مسعد طه – حسن البنا الجاسوس – مكتبة جزيرة الورد.

وبعد معاهدة الجلاء التي أقرت جلاء الاحتلال عن مصر في مدة ٢٠ شهرًا مع بقاء ٨٠ من الخبراء العسكريين في مصر، بدأ الإخوان يدسون السموم في عقلي وزملائي بأن عبد الناصر خائن ولابد من قتله جزاءً لما وافق عليه من تواجد بقايا الاحتلال في مصر، حسبما صوروا لنا، وبالفعل تم تجنيدي أنا وكل من محمد علي النصيري الذي كان طالبًا بالفرقة الثانية من كلية الحقوق وأنور حافظ بكالوريوس تجارة، وقائد الخلية كان يدعى هنداوي سيد أحمد دوير من إمبابة، ومحمد محمود عبد اللطيف، وكان يعمل سمكري، وتم الاتفاق على تنفيذ الواقعة.

*** كيف نفذتم الحادث بالتفصيل؟**

تم الاتفاق على أن أكون أنا وأنور حافظ على المنصة، وأقوم بإعطاء محمود عبد اللطيف الإشارة ليطلق النار ويغتال جمال، بينما تم تكليف النصيري بارتداء حزام ناسف حتى يحتضن عبد الناصر ويفجر نفسه في حال فشل محمود عبد اللطيف في إطلاق النار، وبالفعل أعطيت الإشارة ليتم إطلاق النار، ويشاء الله أن تمر الرصاصة من تحت ذراع عبد الناصر الذي كان رافعا يده أثناء الحديث، وتمر رصاصة أخرى وتصطدم بقلم حديدى كان في جيبه، وتستقر الرصاصة برأس أحمد بدر من حضور الخطبة لينجو عبد الناصر ويروح ٧ من الأشخاص ضحية الحادث، اثنان منهم بالرصاص و٥ من شظايا النجف الذي كان معلقا بالسقف، حيث تناثرت الشظايا الصلبة لتقتل ٥ أشخاص.

*** وكيف تعرفوا على هويتكم كمرتكبين للحادث؟**

الإخوان لا أمان لهم ومعروفون بالخيانة، والواقعة كان من الممكن أن تمر مرور الكرام، ولن يعرف أحد هوية مرتكبيها لولا خيانة الإخوانى «النجس» هنداوي دوير، الذي أراد أن ينجو بنفسه بعد فشل حادث الاغتيال فقام بالإبلاغ عني وعن زملائي، وباعنا مثلما يبيعون أعوانهم، وهل يخفى عن الجميع أن الإخوان هم من قتلوا حسن البنا وهم من قتلوا السادات بعد أن أخرجهم من السجون..؟! فهم لا عهد ولا أمان لهم، وبالفعل تم القبض علينا، ويشاء القدر أن الحبل الذي لفه دوير حول رقبتنا نجونا منه والتف حول عنقه، فقد أُعدم في هذه الواقعة.

*** ما علاقة الرئيس محمد نجيب بحادث المنشية..؟**

محمد نجيب تحالف مع الإخوان متمسكا بمبدأ «لما المصالح تتصالح»، فقد ترك نجيب السلطة ولم يكن له صلاحية اتخاذ قرارات، وكان على خلاف خفي مع جمال، بالتزامن مع ازدياد حالة الاحتقان بين عبد الناصر والإخوان، خاصة بعد إقصائهم من الحكم رغم مشاركتهم بالحصول على بعض الحقب الوزارية، وهذا الأمر لم يرض الإخوان لأن طموحهم أكبر من التمثيل في الحكومة.

كان نجيب على علم بالتخطيط لاغتيال جمال، وقال له حسن الهضيبي مرشد الإخوان وقتها، إنه سيلقي بيانا فور مقتل عبد الناصر، وستعاد له السلطة المسلوبة منه، وتم الاتفاق بين الهضيبي ونجيب على أن يلقي نجيب البيان في الإذاعة بينما استأجر الهضيبي فيلا بالقرب من إذاعة الإسكندرية؛ ليقوم الإخوان بالسيطرة على البث في مصر، ويبدأوا في تملك البلد عقب موت عبد الناصر.

*** ما الذي تم بعد اكتشاف تورطكم بالحادث..؟**

تم إلقاء القبض علينا، وعقدت محاكمة شعبية بـ«محكمة الشعب»، وتم الحكم علينا بالإعدام وإيداعنا سجن القلعة، تحت الأرض بما يقرب من ٦ أدوار، وكنا لا نرى الشمس، وبعد ٢١ يومًا علمنا أنه تم تخفيف الحكم من الإعدام للسجن ٢٥ سنة للشباب المتورطين في الواقعة، ثم بعد ٣ أيام اصطحبونا من السجن لمكان مجهول، وفوجئنا بمقابلة عبد الناصر لنا وإدارة حديث مطول معنا حول ما زرعه الإخوان في أذهاننا بخصوص المعاهدة.

انتهى الحديث في صباح اليوم التالي، ثم اصطحبتنا سيارة إلى محافظة الشرقية وتركتنا نمضي لمنازلنا، وعلمنا بعدها أنه تم الإفراج عنا؛ فقد تم الحكم على النصيري بـ٢٥ سنة سجنا حصل بعدها على الإفراج، فيما تم الحكم بالإعدام على هنداوي دوير، وعبد القادر عودة قائد المخطط بالإعدام، وبخصوص محمد نجيب والمرشد حسن الهضيبي فقد أعفاهما جمال من المحاكمة، وعقب الإفراج عنا بـ٥ أيام فوجئنا باستدعاء جمال عبد الناصر لنا ليخبرنا أنه علم بحصولنا على تقدير جيد جدا في الجامعة، ويخبرنا بأنه سيوفر لنا عملاً بمكتبه الخاص، وكنا أول سكرتارية خاصة لجمال عبد الناصر.

*** هل حاول الإخوان التواصل معك عقب الحادث أو استقطابك في صفوفهم..؟**

أنا لو كنت شفت حد منهم كنت قتلته أو كلته بسناني، وكانوا عارفين إني بكرههم لأنهم ليس لهم عهد ولا ملة، وشعارهم الإجرام هو الحل، وليس الإسلام هو الحل، ونجحوا في استقطاب النصيري شريكنا في الحادث ودفعوا له الأموال وتم تسفيره لقطر، أما أنا فبيني وبينهم عداوة شديدة حتى اليوم.

* ما ردك على من ينكر تورط الإخوان في حادث المنشية..؟

ما رويته ليس قصصا عابرة، فأنا الأداة التي استعملها الإخوان في حادث المنشية، وكان يمكن لهم أن ينكروا لو لم أكن موجودًا، فالإخوان هم من دبروا لاغتيال عبد الناصر وهم من قتلوا حسن البنا وأنور السادات والملك فيصل، وهم على استعداد لقتل أقرب الناس إليهم في سبيل الوصول لأهدافهم.

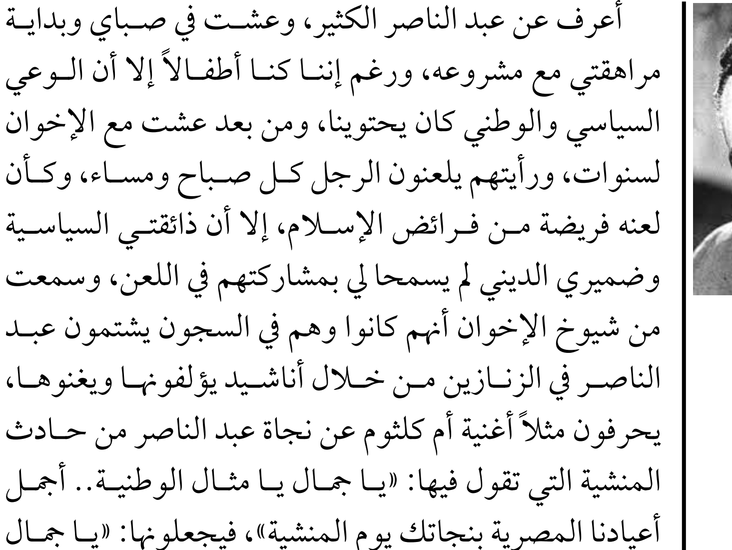
*** بقربك من عبد الناصر.. ما الذي لا يعرفه المصريون عن رئيسهم الراحل..؟**

أنا فضلت في حضن عبد الناصر من ١١ نوفمبر ١٩٥٤م لحد أسود يوم في التاريخ، وهو يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م، عبد الناصر كان إنسانا مهذبًا وحنونا جدًا، وكانت له عينان جميلتان بشكل لا يوصف، وكان لا يحدق في وجه من يتحدث إليه، وهو إنسان محب لبلده جدًا وذكي، فقد استفاد من الثورتين الفاشلتين السابقتين، وهما ثورة عرابي وثورة ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول، وعلم أن الثورة لن تنجح بالشعب وحده أو الجيش وحده، فكسب قيادات الجيش إلى جانب تأييد الشعب، وكانت المنشورات والمطبوعات وقتها تخرج من منزل عبد المحسن مرتجي، قائد أركان حرب الحرس الملكي، وشقيقه الطيار الخاص بالملك، وكانت المنشورات توضع على مكتب الملك من أقرب قياداته العسكرية المتضامنة مع الثورة.

▪▪ الإخوان وعبد الناصر .. من الاتفاق إلى الفراق [1]



1918 - 1970



أعرف عن عبد الناصر الكثير، وعشت في صباي وبداية مراهقتي مع مشروعه، ورغم إننا كنا أطفالاً إلا أن الوعي السياسي والوطني كان يحتوينا، ومن بعد عشت مع الإخوان لسنوات، ورأيتهم يلعنون الرجل كل صباح ومساء، وكأن لعنه فريضة من فرائض الإسلام، إلا أن ذائقتي السياسية وضميري الديني لم يسمحا لي بمشاركتهم في اللعن، وسمعت من شيوخ الإخوان أنهم كانوا وهم في السجون يشتمون عبد الناصر في الزنازين من خلال أناشيد يؤلفونها ويغنوها، يحرفون مثلاً أغنية أم كلثوم عن نجاة عبد الناصر من حادث المنشية التي تقول فيها: «يا جمال يا مثال الوطنية.. أجمل أعيادنا المصرية بنجاتك يوم المنشية»، فيجعلونها: «يا جمال يا كبير الحرامية أجمل أعيادنا المصرية بهلاكك يابن اليهودية».

لم أر رئيسًا يشترك مع عبد الناصر في كراهية الإخوان له إلا الرئيس السيسي، كلاهما قال للإخوان: إنهما يعاديان الإسلام، لن نتحدث اليوم عن الرئيس السيسي فالحديث سيتصل عنه قريبًا، ولكن ما كان يصيبني بالعجب من

(1) ثروت الخرباوي: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص70، 71.

الإخوان حينما كنت معهم أنهم لم يستطيعوا الرد على أسئلة جوهرية بخصوص عبد الناصر وترويجهم أنه كان يعادي الإسلام، فعبد الناصر هو الذي أنشأ إذاعة القرآن الكريم، وأنشا الأزهر الشريف، وأنشأ مدينة البعوث الإسلامية، وأرسل علماء الأزهر إلى إفريقية وآسيا للدعوة للإسلام.

وإذا كان القرآن قد نزل في مكة والمدينة، وقام سيدنا أبو بكر بجمعه في مصحف واحد، فإن عبد الناصر هو الذي أمر بتسجيله كاملاً بصوت كبار القراء؛ ولتسجيل القرآن قصة تلاها إنشاء إذاعة القرآن الكريم، وقد عرفت هذه القصة من الدكتور توفيق الشاوي الذي ساهم مع عبد الناصر في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، وكان من قبل من الإخوان ثم تركهم عندما رأى انحرافهم، واعتمد عليه عبد الناصر في كثير من الملفات.

ويحكي الدكتور الشاوي رحمه الله أن عبد الناصر كان قد زار إثيوبيا عام 1961م، وفي هذه الزيارة أهداه الإمبراطور هيلاسلاسي مصحفًا، وأثناء العودة فتح عبد الناصر المصحف ليقرأ فيه فوجد تحريفًا مطبعيًا في بعض الآيات، وهذا يدل على أن عبد الناصر كان يحفظ عددًا لا بأس به من سور القرآن الكريم، المهم أن عبد الناصر انزعج من هذه الأخطاء.

وعندما حطت الطائرة به في مطار القاهرة وذهب إلى بيته استدعى الدكتور الشاوي وقال له ما حدث، وطلب منه أن يضع فكرة تقضي على أي تحريف في آيات القرآن خاصة من تلك النسخ التي يتم طباعتها في إفريقيا، فاقترح الدكتور الشاوي أن تطبع مصر عددًا كبيرًا من نسخ المصحف وتقوم بتوزيعه في إفريقيا، إلا أن عبد الناصر فكر هنيهة وقال له لا، يجب أن ننشئ إذاعة للقرآن الكريم يصل مداها إلى إفريقيا وآسيا، ويجب أن نقوم بتسجيل المصحف مرتلاً.

ثم طلب منه عبد الناصر أن يقترح اسم شيخ يقوم بتسجيل المصحف بصوته، فاقترح الشاوي اسمين، الأول الشيخ الحصري لأنه كان قد تقلد منذ أيام سابقة على هذه الواقعة منصب شيخ المقارئ المصرية، واقترح معه الشيخ مصطفى إسماعيل، فقال عبد الناصر فلنبدأ بالشيخ الحصري، وكان أن استدعى عبد الناصر الشيخ الحصري وطلب منه تسجيل القرآن كاملاً بصوته، ففعل، ومن بعد ذلك بعامين تم إنشاء إذاعة

القرآن الكريم التي ظلت تصدح بالقرآن الكريم لسنوات من خلال صوت الشيخ الحصري حتى دخل الشيوخ مصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد وغيرهما قائمة من يقومون بتسجيل القرآن الكريم بأصواتهم.

كل هذه الأشياء التي عرفتها عن عبد الناصر كانت تؤكد لي أن الرجل لم يكن ولا يمكن أن يكون قد فكر ولو لحظة في معاداة الإسلام، بل إن واحدًا من شيوخ الإخوان الكبار قال لي إنهم كانوا يعدون عبد الناصر قبل احتدام الخلاف بينهم وليًا من أولياء الله الصالحين، وذلك كنت أطرد كلامهم عن عداء عبد الناصر للإسلام من أذني، ولم أجعله يستقر في قلبي في أي يوم من الأيام، وإن كنت أضع الموضوع في إطاره الصحيح وقتها وهو أن ثمة خلافًا سياسيًا وقع بين الإخوان وعبد الناصر، وأن هذا الخلاف كان خلافًا على الحكم والسياسة لا على الدين الإسلامي، وأن الإخوان غالوا في معاداتهم لعبد الناصر بشكل أوقعهم في تكفير الرجل وهو الأمر الذي نهانا عنه الإسلام.

ومع ذلك فكرت في أحد الأيام في أن أضع تصورًا لهذا الخلاف السياسي، وأضع فيه فرضيات، فمما كنت أعرفه أن بعض علماء الاجتماع كان يقول إنك إذا أردت أن تفهم كيف يفكر الناس ضع افتراضًا ثم ابحث عن إجابة منطقية لهذا الافتراض؛ لذلك فإنني وأنا أحلل لأسباب عداء الإخوان لجمال عبد الناصر سأفترض أن الإخوان نجحوا مع محمد نجيب عام 1954م في الإطاحة بجمال عبد الناصر والاستيلاء على الحكم، ثم أجبروا نجيب على التقاعد وأصبح مرشدهم حسن الهضيبي هو رئيس الجمهورية.

ثم تخيل أن الرئيس حسن الهضيبي قام بكل ما قام به عبد الناصر في كل المواقف، من تحديد للملكية الزراعية، ومواجهة العدوان الثلاثي، وتأميم قناة السويس، وبناء السد العالي، وفي ذات الوقت مارس استبدادًا وحبس المعارضين للإخوان، وفي السجون تم تعذيب هؤلاء المعارضي، وصولاً إلى هزيمة 1967م ثم حرب الاستنزاف، فماذا سيكتب الإخوان وقتها عن ثورة يوليو..؟

سيكتب مؤرخو الإخوان أن ثورة يوليو هي ثورة الإخوان العظيمة، أعظم الثورات في تاريخ البشرية بعد ثورة الرسول ﷺ على الكفر والشرك في مكة، وستكون هي الثورة التي حاول التنظيم الفاسد «الضباط الأحرار» الاستيلاء عليها، ولكن الله وفق الرئيس

الحكيم حسن الهضيبي في القضاء على هذه المؤامرة، وستكون هي الثورة التي تآمرت عليها الشيطانة أمريكا عدوة الله فساعدت إسرائيل الصهيونية على هزيمة مصر عام 1967م، إلا أن مصر الإسلامية تحت قيادة الرئيس حسن الهضيبي قادت حرب الاستنزاف وفجرت ميناء إيلات، وكبدت العدو الإسرائيلي خسائر فادحة.

أما إنجازات ثورة يوليو الإخوانية فستكون هي الأعظم في تاريخ مصر، ويكفي أنها انحازت للفقراء وحولت مصر إلى قلعة صناعية، وأممت قناة السويس ووقعت اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر، وأنشأت إذاعة القرآن الكريم ومدينة البعوث الإسلامية، وقامت بتحديث الأزهر وتحويله إلى جامعة حديثة، وقامت أيضًا بترجمة القرآن، ثم أنشأت مجموعة دول الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وسعت للوحدة مع سوريا لكن أعداء الإسلام وقفوا ضد هذه الوحدة.

أما التعذيب الذي حدث في السجون فهو أمر يتفق مع الإسلام؛ لأن المعارضين كانوا إخوان الشياطين، وهم أعداء الإسلام الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، وجزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ ولأن هذا الافتراض لم يحدث وهو مجرد افتراض فإننا سنطرح السؤال المنطقي الذي يبحث عن إجابة منطقية، ما هو سبب عداء الإخوان المسلمين لجمال عبد الناصر وثورة يوليو..؟

لذلك وبيقين لم يكن خلاف الإخوان مع جمال عبد الناصر، أو بمعنى أدق مع ثورة يوليو خلافًا حول العقيدة أو الإسلام أو حتى الحريات، لم يكن خلافًا مع الفكرة، ولكنه كان خلافًا حول الحكم، حول السيطرة والرغبة في الاستحواذ والهيمنة، فالإخوان مثلاً لا تعنيهم قضايا الحريات - إلا حريتهم- ففي بداية ثورة يوليو كتب سيد قطب مقالاً يطلب فيه جمال عبد الناصر بهجر الديمقراطية وتحويل الحكم إلى حكم ديكتاتوري، وطالب بإقصاء كل المعارضين للثورة، ولم تكن مطالبات سيد قطب لعبد الناصر في هذا الشأن هو مجرد رأي لواحد من الإخوان لكنه كان اتجاهًا في الجماعة.

ففي صحيفة الدعوى القضائية رقم (133) لسنة 32ق التي أقامها الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله أمام محكمة القضاء الإداري يطلب بإلغاء قرار حل الجماعة قال بالحرف الواحد: «إن جماعة الإخوان ساعدت التنظيم العسكري الذي قام بالثورة على

تحويل الحكم في البلاد من حكم ديمقراطي إلى حكم ديكتاتوري، ولم يستطع عبد الناصر الوقوف أمام الأحزاب إلا بمساعدة الإخوان المسلمين».

كما أن عبد الناصر في حكمه لم يكن ضد الإسلام، أو معاديًا له بل إن الإخوان أنفسهم يقولون وهم ينسبون الثورة لهم: أن جمال عبد الناصر كان من الإخوان المسلمين، وقد بايع الشهيد حسن البنا وقام بزيارته في قبره وحرك قضية مقتله وحبس من قتلوه، ولكن أين تكمن المشكلة..؟ تكمن المشكلة في الحكم وليس في الدين، لم يكن عبد الناصر عدوًا للإسلام، ولكنه كان عدوًا للإخوان، وللعداوة أسبابها.

الإخوان لم يساهموا في ثورة يوليو بكثير أو قليل، ولكنهم أرادوا مصادرة الثورة لمصلحتهم، فكروا في ركوبها والاستيلاء على قادتها؛ لذلك حدث الخلاف الأول حول كيف سيشارك الإخوان في الحكم، في البداية قام عبد الناصر بحل كل الأحزاب القائمة وذلك بالاتفاق مع الإخوان، وقام باستثناء الجماعة من الحل بحسب أنها جماعة وليست حزبًا، وكان من المنتظر أن تدعم الجماعة بقوتها البشرية جمال عبد الناصر والثورة، إلا أن الإخوان كانت لهم رغبة عارمة في السيطرة على الحكم والهيمنة على عبد الناصر؛ ولذلك تعامل الهضيبي مع جمال عبد الناصر على أنه مجرد فرد في جماعة الإخوان يقع تحت قيادته.

نظر الهضيبي إلى تنظيم الضباط الأحرار كتنظيم تابع للإخوان ينبغي أن يأتمر بأمره ويحقق رغباته، وعندما أدرك أن هذا الأمر بعيد المنال وقف ضد المشروعات الثورية، مثل وقفتهم المعارضة من قانون الإصلاح الزراعي ومن اتفاقية الجلاء، رغم أنها مشروعات ستصب في مصلحة الوطن إلا أن وطن الإخوان هو الجماعة ومصلحتها، وكانت هذه المشروعات ستثبت أركان حكم عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة، والحقيقة التاريخية ههنا هي أن حسن الهضيبي مرشد الإخوان وقتها كان هو الذي نقل العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر من حالة الحب إلى حالة الحرب، فقد كان وصول الإخوان للحكم هو حلمه وحلم جماعته، وقد أصبح قريبًا منهم، فكيف يكون عبد الناصر لا الهضيبي هو صاحب القرار في الدولة المصرية..؟

وفي شهادة سامي شرف عن رغبة الإخوان في الاستحواذ على السلطة وفرض

هيمنتهم على نظام الحكم الجديد قال: إن لقاء تم بين عبد الناصر والهضيبي بعد الثورة بفترة، وفي هذه الجلسة طلب الهضيبي من عبد الناصر أن يختار هو الوزارات التي ستكون للإخوان، وعددها، وأن يختار هو أسماء هؤلاء الوزراء، ولكن عبد الناصر رفض هذا الأمر بشكل قاطع؛ إذ كان رأيه أن يكون للإخوان وزارات محدودة، وأن يكون اختيار الوزراء من الإخوان له هو لا لحسن الهضيبي، وبالطبع لم يرق هذا اللقاء للهضيبي فبدأت الجماعة بعد ذلك في اتخاذ مواقف ضد الثورة.

وما إن جاء عام 1954م حتى زادت الهوة بين الإخوان وعبد الناصر، فقد كان جل هم عبد الناصر أن يعقد اتفاقية لجلاء الإنجليز عن البلاد، وكان هدفه من هذه الاتفاقية ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، فبها سيخرج الإنجليز من البلاد، ومن خلالها سيحصل نظام الحكم الجديد على شرعية دولية وستعترف به الأنظمة السياسية في كل العالم، إلا أن الهضيبي كان له رأي مختلف فقد رفض الاتفاقية بكل صلف، ووقف بجماعته ضدها.

وفي مساء يوم 26 أكتوبر من عام 1954م وفي ميدان المنشية بالإسكندرية انطلقت رصاصة الإخواني محمود عبد اللطيف في اتجاه عبد الناصر، وكانت رصاصة طائشة ضلت سبيلها، ولكنها كانت هي رصاصة الرحمة التي قضت على علاقة عبد الناصر بالإخوان قضاءً مبرمًا.

كنت آنذاك في مدينة الفيوم حيث كان والدي يعمل قاضيًا هناك، وكان المذياع ينطلق بصوت المذيع ينقل إلينا مشاهد هذا الحدث، وأطلقت رصاصة محمود عبد اللطيف صوب عبد الناصر ولم تصبه إلا في أعلى جيب البذة التي كان يرتديها، وانطلق صوت عبد الناصر أذكر تمامًا ما فاه به خلال هذا الحدث إذ قال:

أتقتلوني وقد خلقت فيكم العزة.. أتقتلوني وقد خلقت فيكم الكرامة.. إثبتوا يا رجال.. إذا مات جمال فكلكم جمال..

ونجا الله جمال عبد الناصر مما دبر له، واستقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، وأذكر تمامًا أن عنوان جريدة الأخبار المصرية في اليوم التالي جاء يقول:

استقبال حاشد من شعب مصر لجمال عبد الناصر.. كان هذا الاستقبال استقبالاً لم

يسبق له مثيل منذ أن استقبل شعب مصر الزعيم سعد زغلول بعد عودته من منفاه.

وقد غنت السيدة أم كلثوم أغنية في هذه المناسبة كان مطلعها:

يا جمال يا مثال الوطنية أسعد أعيادنا القومية

نجاتك يوم المنشية

وقد علق أستاذنا العقاد على هذه العبارة التي فاه بها جمال عبد الناصر السابق ذكرها باعتراضه الشديد عليها قائلاً:

هل جمال عبد الناصر هو الذي خلق العزة وخلق الكرامة في قلب الشعب المصري؟

■■ جمال عبد الناصر ...وأنا



1918 - 1970

التقيت مع الرئيس جمال عبد الناصر مرات أربع، كانت الأولى في عيد العلم في نوفمبر 1959م أثناء تكريمي وفوزي بالجائزة الأولى في مسابقة تحليل شخصيته وهو العنوان الذي اختارته وزارة التربية والتعليم للكتابة فيه إبان انتظامي في القسم العلمي بالسنة الثالثة بمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة. حيث تم تكريمي بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، وشرفت بمصافحة جمال عبد الناصر الذي شد علي يدي مشجعًا لي ببسمة جميلة ارتسمت على شفتيه، والبريق يشع من عينيه.

وكانت المرة الثانية في عيد العلم في عام 1960م بعد فوزي بجائزة بحث أعدته الإدارة العامة للثقافة عن: «احتكار العلم يهدد البشرية بأوخم العواقب وأشد الأضرار»، وحزت عن كتابته الجائزة الأولى.

وكانت المرة الثالثة في جنازة المرحوم الجنرال الذهبي الفريق عبد المنعم رياض، وكان البحر الخضم الزاخر الذي تكدس بميدان التحرير لذرافاة ووحدانا، وأنا أسير في خضم هذه الجنازة الحافلة إذ بي أرى جمال عبد الناصر قد اصطدم جسمه بجسمي وأنا ذاهل عما رأيته؛ إذا تساءلت كيف قذفت الجماهير الغفيرة بجمال عبد الناصر حيث أتواجد.

أما المرة الرابعة فكانت في صلاة عيد الفطر في نهاية الستينيات، حيث ذهبنا ووالدي وجدي رحمهما الله ودخلنا من الباب الرئيسي لمسجد سيدنا الحسين لنؤدي فريضة صلاة الفجر وصلاة العيد، وكان من حظي أن صافحت جمال عبد الناصر، وإذ لكزني أحد حراسه قبل مصافحته قائلاً لي يا أخي أنت رايح فين، مد الرئيس عبد الناصر يده إذ أبصرني أمد يدي إليه لمصافحته، وكانت لحظة من أسعد لحظات حياتي.

وقد طلبت مني وزارة التربية والتعليم بعد حفل عيد العلم الأول عام 1959م بعد نشرها لبحثي الذي فزت به كما سبق القول أن أسجل لحظة رؤياي لجمال عبد الناصر ومصافحته لي.. قلت في هذا المقال تحت عنوان: نظرة من خلال الفوز:

وبعد،،، فقد كان توفيقاً من الله أن أتاح لنا كتابة هذا المقال المتواضع عن تحليل شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، كما كان عنوان المسابقة التي نظمتها وزارة التربية والتعليم، أن تكون من بين من شملتهم الدولة برعايتها وكرمتهم في عيدها الأكبر عيد العلم، فكانوا ضمن القافلة العظيمة التي فازت بشرف التقدير والتكريم.

واليوم ونحن نسترجع تلك الساعات القلائل التي قضيناها في صحبة ذلك العيد العظيم، لا بد لنا من وقفة عجلى أمام الشريط الخالد الذي لن يفارق مخيلة كل من قدر له أن يراه عن كثب، فرأى برؤياه مجدًا تخطه الدولة على جبينها ممثلاً في أولئك الرجال الذين عرفوا قيمة العلم فقدروه، وقدروا معه العلماء من شمال الجمهورية الفتية وجنوبها.

السيد كمال الدين حسين، وهو يتلقى خطابه الضافي ويحيي فيه عمالقة الفكر، ورواد الفن، وغزاة العلم، الذين نذروا حياتهم للبحث الجاد والتفكير العميق.

الدكتور طه حسين، وهو يقف في نوارنية العلم وروحانيته، يشنف آذاناً بتغريده العذب، ويضرب بعوده الساحر على أوتار قلوبنا فيمس به الشغاف، ويزودنا بنصائحه ووصاياه.

الدكتور مصطفى نظيف، وهو يفصح ويبين ويشيد بالدولة التي عرفت نفسها، فقدرت أبناءها العاملين الباحثين الذين يقربون مجاهل العلم لمحبيه ومريديه.

ثم الرجل الثاقب العينين، الكبير القلب جمال عبد الناصر وهو يعتلي المنبر، ويقف

أمامنا كأستاذ محاضر يحدثنا عن آماله وأطيافه، وعن العلم وفلسفته، ومدلول هذه الفلسفة عند دول العالم وشعوبه.

كتب أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد في كتابه القيم «الفصول» يقول[1]:

«مهما تعمقوا في تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه، وقالوا فيها ما يشبه قولهم في السحر أو الروح واليوم الآخر، فلا أخالها ترد في بادئ الأمر إلا أنها شارة في أظهر عضو من الجسم - أعني الوجه-، كانت ولا تزال في بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية في جسم الرجل أو المرأة.

إن أظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه في العين والشفة؛ لأنهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس وإحساسها بغاية الوضوح والجلاء، وبهما تختلف أمة عن أمة، وجنس عن جنس، فالعربي والمصري والصيني والإنجليزي والألماني وغيرهم من الملل والأمم، يتماثلون في كثير من ملامح الوجه وقسماته، ويندر أن يتماثلوا في العيون والشفاه، وكذلك الرجل والمرأة، وأصدق وأوجز ما يقال في هاتين الجارحتين إنهما نافذة النفس، فمنها تطل على العالم، ومنها يطل العالم عليها، ولعل ما تكشفه منا للناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا.

لا بد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس؛ لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون، وقل مثل ذلك في الغادر والأمين، والفظ والوديع، والسقيم والسليم، والشهواني والعفيف، فإن لكل منهما نظرة غير نظرة الآخر، أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فمعلومة ملحوظة، فالعين بهذه المثابة عنوان صفة النفس ومزاج الجسد.

وعين عبد الناصر هي بلا ريب صفة نفسه، عينان براقتان كأنهما عين البازي أو الصقر، يحرك منها البريق الذي يشع منها وتدل على وصفه كما ذكر العقاد، وقد شدتني عينا عبد الناصر عندما وقفت أمامه أستلم جائزة عيد العلم، وكانت عيناه صفة لنفسه ومزاج لجسده كما عبر أستاذنا العقاد بما ألمعنا إليه.

ثم الرجل نفسه وهو يوزع الجوائز، والبسمة لا تفارق شفتيه، ويكرم الفائزين،

(1) عباس محمود العقاد: الفصول، دار المعارف، القاهرة، ص99.

والبريق لا يغادر عينيه، بريق الفرحة والإعجاب، والثقة في الغد المشرق المأمول..!

ويمر الشريط ثم يقف فجأة عند اللحظة التي دوت فيها قاعة الجامعة باسم محمد مرشدي بركات، فيتجه صاحب الاسم إلى المنصة، فيصافحه الرئيس ويسلمه جائزته بين تصفيق الحاضرين وتشجيعهم.

لحظة خالدة لن أنساها ما حييت، لأنها اللحظة التي آمنت فيها بقول والدي: «إنني لا أريد منك نجاحًا، وإنما أريد علمًا، ولا مانع عندي أن تفشل مرة ومثنى وثلاث في سبيل أن تكون شخصًا مكينًا في فنك، متمكنًا من علمك، فالعلم لا يخون صاحبه أبدًا، فهو الصديق المخلص للإنسان»، كلمة بل توجيه صادق لا يتطرق إليه اللجاج.

وأنها اللحظة التي عرفت فيها أن الإنسان بعلمه ودأبه، وأن العمل هو المقياس الوحيد لشخصيته، وما كان أصدق من قال:

ليس هناك مخلوق على الأرض يستطيع أن يرفع أو يخفض من شأني غير فني، فالفن هو الذي يكرم النفس أو يمتهنه في كل زمان أو مكان تهل فيه.

وإنها اللحظة التي تأكدت فيها أن المرء سيد ذاته، وأستاذ نفسه الحقيقي، فالمدرسة أو الجامعة لن تعطيه بقدر ما يعطي هو نفسه، فهو وحده الذي يمكنه أن يحصل على المعرفة التي تنمي مداركه، وتوسع آفاقه، وتمد عقله بغذاء روحي يبعث فيه حرارة الحياة، فلم يكن إيمرسون خاطئًا حين قال: إن الجامعة كلها لا تعطيك الدرس المطلوب، بل تدلك على السبيل إلى دراسة المطلوب.

ولقد صدق أوسكار وايلد إذ يقول: إن العلم شيء عظيم ولكن يجب أن نعرف أن ما يستحق منا أن نعرفه هو الشيء الذي لا يمكن لأحد أن يعلمنا إياه.

وأنها اللحظة التي ظهرت لي فيها قيمة القراءة وجدواها وأهميتها في حياة كل منا فهي كما يقول الفيلسوف الصيني هوانج شانكو مفتاح الشخصية وسر طابعها، وأن السعادة تكمن فيما قاله شوبان في أن تحب ما تعمل وتخلص له وليس أن تعمل ما تحب.

وأنها اللحظة التي صدعت فيها نفسي بحقيقتها، فرأيتها نفسًا لم تزل بعد وستظل أبدًا في أمس الحاجة إلى غذاء الثقافة، ونور العلم، نفسًا لم تأخذ طريقها الصحيح بعد في

حياة علمية شاقة مريرة.

نعم لقد كان جميلاً أن تكرمنا الدولة في عيد العلم، ولكن الأجمل حقاً هو أننا عرفنا أنفسنا، ومعرفة النفس كما يقول الفلاسفة والحكماء أول درجة من درجات النجاح.

تخصصت في علم الطبيعة بالقسم العلمي بالسنة الثانية أثناء انتظامي بمدرسة الفيوم الثانوية، بناء على توجيه والدي رحمه الله لي؛ وإذ نقل من محكمة الفيوم الذي كان يعمل بها قاضيًا، وإذ تم نقل الوالد من الفيوم إلى القاهرة خلال الحركة القضائية، وحصلت في هذه السنة على بطولة التفوق الاجتماعي بعد أن مررت باختبارات تحريرية وشفهية تخللها قراءة كتاب طُلب منا نحن الملتحقين بهذه المسابقة أن نقرأه تمهيدًا للامتحان فيه، وفزت قسم السبق في هاتيك الاختبارات، وكانت هذه البطولة السابق ذكرها تسمح لي بأن ألتحق بأي كلية من الكليات العملية دون التقيد بمجموع الدرجات مع إعفائي من المصروفات الدراسية.

وإذ التحقت بكلية الآداب - جامعة عين شمس حيث وجهني والدي إلى ذلك، وتقلبت بين أقسامها المختلفة من الفلسفة إلى اللغة العربية إلى اللغات الشرقية إلى قسم الاجتماع، ولم أشأ أن أستمر فيها وتكرم والدي بالسعي لي للالتحاق بكلية الحقوق - جامعة الإسكندرية، ثم التحقت بكلية الإعلام قسم الدراسات العليا، بعد تفوقي الذي رشحني للسفر إلى فرنسا في بعثة دراسية، كما أنهى إليَّ هذا المرحوم الدكتور جمال العطيفي - وزير الإعلام في مكتبه بالدور الحادي عشر بجريدة الأهرام، وقد كنت أنا والمرحوم والدي في زيارته آنذاك.

ثمة مشكلة قضائية طارئة، عرضها الوالد على الرئيس جمال عبد الناصر بحكم أنه كان آنذاك أميناً لصندوق نادي قضاة مصر في برقية هاتفية فوجئت في إثرها بالهاتف يدق في منزلنا بالعباسية، وكان المتحدث هو الأستاذ سامي شرف مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر الذي طلب إخبار الوالد بأن ثمة ميعادًا معه الساعة العاشرة صبيحة اليوم التالي لهذه المكالمة، حيث أن والدي لم يكن موجودًا آنذاك في المنزل، أو في القاهرة حيث كان يترأس إحدى الدوائر في مدينة الزقازيق، وقمت بإخباره بهذه المكالمة.

وتوجه في اليوم التالي لمقابلة الأستاذ سامي شرف، وبعد أن انتهت المقابلة بعد ما

يقرب من الساعة والنصف ساعة فوجئت بوالدي يقول لي مازحًا من سيارة الرئاسة التي أمر الأستاذ سامي بأن تقوم بتوصيله إلى باب بيتنا:

ما شاء الله هل يعرفك الرئيس جمال عبد الناصر..؟ فانتابني الذهول، حيث قال لي لقد أمر الرئيس بأن تـُعين في أي مكان تختاره وسلمني ورقة كان الأستاذ سامي سلمها إليه مدون بها الوظائف التي أرجو العمل فيها وكان من بينها السلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية، وسلك النيابة العامة، وغيرهما، وأنهى لي الوالد رحمه الله أن أعين في الصحافة حيث أن هذا هو مرادي.. وتوالت الأحداث وطلب مني الأستاذ سامي أن أقابل الأستاذ محمد حسنين هيكل لكي أخبره برغبتي هذه وقابلت هيكل رحمه الله ووعدني خيرًا.. وإذ التقيت بالأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي وكان صديقـًا لوالدي قال لي أنه أمر بتعييني في مجلة روزاليوسف محررًا بها بيد أن النيابة العامة قد سبقت هذا وذاك إذ عينت وكيلاً لنيابة قوص، وصرفت النظر عن الصحافة بنصيحة من الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين الذي ذكر لي بنص عبارته: لا تذهب إلى الصحافة وتوجه إلى النيابة العامة فالصحافة كالبحر الهائج تأكل في مياهه الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة.

ماذا بقي من جمال عبد الناصر[1]

في الأيام الأولى لنزول المصريين إلى الميادين بعد الخامس والعشرين من يناير 2011م رفع بعض المتظاهرون صور الرئيس جمال عبد الناصر، ثم أخذت في الانتشار والتكرار في كل المناسبات الحاشدة، حدث الأمر ذاته في أثناء مظاهرات التونسيين ضد حكم بن علي.

وكما رُفعت الصور ذاتها في صنعاء ضد حكم الرئيس علي عبد الله صالح، لاحظ الأمر أحد المراسلين الأوروبيين يحمل الجنسية الإسبانية الذين جاءوا على عجل من بلدانهم لتغطية انتفاضة المصريين ضد حكم مبارك، تجول الرجل في ميدان التحرير وسأل الناس لمن هذه الصور ولماذا ترفعونها، وحين عرف أنها للرئيس عبد الناصر وأن الرجل توفي قبل 43 عامًا وأنهم يرفعونها لأنهم يرونه المثل الأعلى للزعيم المحب لوطنه وشعبه والذين يفتقدونه في تلكم الأيام، تسربت الدهشة إليه، وبات عليه أن يسعى إلى إجابة هذا اللغز من وجهة نظره.

وحين زارني في مكتبي في بجريدة الأهرام كان أول سؤال له، لماذا يرفع الناس لديكم صور عبد الناصر وهو قد مات قبل أكثر من أربعة عقود..؟ ثم أردف قائلاً: «ألا تعرف أن هذا الرجل مكروه في أوروبا، ويُنظر له كقائد مشاغب أراد أن يهدم مصالح الغرب في هذه المنطقة الحيوية من العالم، كذلك فقد اختفى من الساحة وهو مهزوم ليس منتصرًا».

وإلى حد ما كان الشق الثاني من حديث هذا المراسل - رغم فجاجته- يحمل جزءًا معتبرًا من الإجابة على تساؤله الأول، بدلاً من أن أحاول شرح الأسباب التي تدفع مصريين وتوانسة ويمنيين ولبنانيين في مناسبات سابقة لرفع صور زعيم تاريخي يمثل لهم قيمة عليا، بادرته بسؤال: وهل يجب علينا نحن في بلادنا أن نقيم زعمائنا بالطريقة

(1) د. حسن أبو طالب: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص72، 73.

ذاتها التي تقيمون بها أنتم في أوروبا هؤلاء الزعماء..؟ فقال الرجل بالطبع لا.. مضيفًا لكم الحرية في أن يكون لكم معاييركم الخاصة بكم.

وهكذا فتحت هذه الإجابة كثيرًا ما قلته، وخلاصته أن عبد الناصر بالنسبة للمصريين والعرب ليس فقط رئيسًا قاد البلاد في عقدين أو أكثر، كانت له نجاحاته وأيضًا إخفاقاته، ولكنه زعيم وقائد ومنظر ومفجر ثورة اجتماعية وسياسية كبرى، والأهم من كل ذلك أنه كان ومازال ينظر إليه العرب كرمز للكرامة، كرامة الوطن وكرامة الإنسان، وهذا هو ما يبحث عنه كل مصري وكل عربي بعد سنوات عجاف طالت كثيرًا، أن يشعر بكرامته الإنسانية مُصانة ومحل تقدير واحترام من مؤسسات الدولة ومن رؤسائه ومن أقرانه، هذا الشعور بالكرامة، هو الذي يجعل العرب يرفعون صور هذا الزعيم الذي بث فيهم ومازال يبث رغم غيابه هذه المعاني السابقة.

ثم أردف قائلاً: إن اللبنانيين أيضًا رفعوا صور هذا القائد المصري العروبي أثناء احتشادهم في فبراير 2005م اعتراضًا وتنديدًا باغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء الأسبق، والذي كان يمثل أيضًا محاولة لتحرير لبنان من قيود الضغوط السورية، وعليك أن تعرف أن هذا الزعيم الذي تكرهونه في الغرب هو رمز التحرر العربي والإفريقي، وأيضًا في كثير من البلدان في أمريكا اللاتينية، رمز التحرر من سيطرة وهيمنة واستغلال واستعمار الغرب ذاته.

وكثيرون ممن عاشوا التجربة الناصرية يحفظون عن ظهر قلب شعارًا بسيطًا أطلقه عبد الناصر في إحدى خطبه الحماسية وكرره كثيرًا فيما بعد، ورغم بساطته لكنه يلخص الأمر كله إنه شعار: «ارفع رأسك يا أخي فقد انتهى عهد الاستعمار» وبالمناسبة فالمتظاهرون في ميادين مصر يقولون الشعار ذاته بتعديل بسيط «ارفع رأسك فوق أنت مصري»، ويمكنك أن تقول إن هذا التعديل لا يغير من المعنى ولا الجوهر، فكلاهما يتحدثان عن الكرامة والاعتداد بالنفس في مواجهة الظلم، سواء كان ظلم الاستعمار أو كان ظلم الحاكم المستبد؛ لذلك فمعاييرنا تختلف تمامًا عن معاييركم.

تذكرت هذا الحوار حين أمعنت النظر في الإجابة على السؤال الوارد في عنوان هذا المقال، ماذا بقى من جمال عبد الناصر بعد مرور كل هذه السنوات من وفاته..؟ وأعتقد جازمًا أن كل الذين يرون في عبد الناصر الزعيم الحاضر الغائب يرون فيه الرجل الذي

انتصر للفقراء على فقهرهم وتهميشهم، وعلى إفقادهم إنسانيتهم لصالح فئة الإقطاعيين الذين استحلوا استغلال الفلاح، وفئة الرأسماليين المتكبرين الذين استغلوا صغار العمال، وفئة كبار السياسيين الذين لم يروا في مؤيديهم سوى قطيع من البشر يمكن إرضاءه بالفتات.

لقد غير عبر الناصر المعادلات الاجتماعية تغييرًا جذريًا، من خلال قوانين الإصلاح الزراعي وتحديد سقف لملكية الأراضي الزراعية، وتوزيع ما زاد عن ذلك على صغار الفلاحين، فظهر ريف جديد وتبلورت علاقات عمل وملكية وانتماء للأرض جديدة تمامًا عما كانت عليه قب لهذه الثورة القانونية، والأمر ذاته حدث مع التأميم للشركات والبنوك، والتوسع في القطاع العام والتعاونيات، والسماح للنقابات بأن تكون معبرة بحق عن مصالح أبناء المهنة في مواجهة قوى الاستغلال أيًا كانت، ومن خلال مجانية التعليم والتوسع في بناء الجامعات الحكومية، وإنشاء المصانع التي تجذب العمال وتوفر لهم العمل والعائد.

هكذا حدثت الثورة من أعلى عبر بنية تشريعية تراعي المساواة، وهكذا حدث التغيير في بنية المجتمع من خلال تعديل موازين القوى المجتمعية، ومن ثم تجسد نظام قيمي اجتماعي قوامه العدل الاجتماعي من خلال هندسة اجتماعية محسوبة، تؤدي إلى تحويل المواطنة من مجرد شعار إلى ممارسة فعلية.

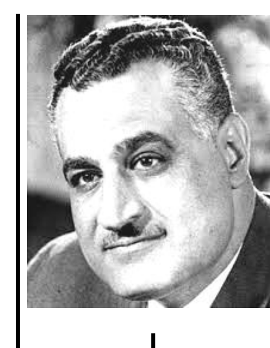
وعلى الرغم من الأخطاء التي شابت بعض ممارسات الهندسة الاجتماعية على النحو السابق شرحه، فإن عقيدة عبد الناصر في العدل والتحرر لم يكن يمكن تجاهلها أو إلصاق سوء النية بها، فالأخطاء من الممكن علاجها، والرجل فعل ذلك من إيمان جازم بضرورة وحتمية الانتصار للفقراء والمهمشين، وضرورة التحول من مجتمع النصف في المائة إلى مجتمع 70 أو 80٪ من ملاك الثروة، وبما يؤدي إلى توسيع أعداد الطبقة الوسطى، وبالتالي يتحقق الاستقرار المنشود في المجتمع ككل.

إن فقدان البسطاء في حاضرهم المُعاش القائد أو المسئول الكبير الذي لا يهتم بأمرهم ويعمل على إتاحة الفرصة لهم للانتقال من حال إلى آخر، ومن كدر المعيشة إلى يسرها، ومن ضيق ذات اليد إلى انفراجة في العيش، ويمهد لهم الطريق باعتباره حقًا لا

جدال فيه، يؤدي بهم إلى نوع من التيه، ومن ثم يبحثون في تاريخهم القريب فلا يجدون إلا نموذج ناصر، وكأنهم يرسلون بصوره التي يرفعونها في حشودهم المختلفة رسالة رمزية إلى من يعنيهم الأمر، بأن الطريق معروف وعليكم استكماله.

والمؤكد أن هذه الرسالة الرمزية لا تعني استعادة تفاصيل التجربة الناصرية، من تأميم قطاع عام، وإصلاح زراعي وتعاونيات، ومواجهة مقترحة مع قوى الاستعمار وعملائهم المحليين في المنطقة العربية، وإنما استعادة جوهرها ومضمونها، وتطبيق السياسات التي تراعي الظروف الراهنة داخليًا وخارجيًا، وتحقق في الآن نفسه معاني العدالة والحرية والكرامة الإنسانية.

▪▪ ليس احتفالاً بل دروسًا للمستقبل [1]



1918 - 1970

استقر حب عبد الناصر في قلوب المفكرين، وها هو ذا أحدهم يعبر بقلمه عن هذا حيث قال: أستطيع أن أقطع بيقين أنه ليس مجرد ذكرى، بل هو أكثر الغائبين حضورًا، بدليل أنه بعد أكثر من 40 عامًا على وفاته، عندما استيقظ وأراد التغيير الشعبي في مصر، كانت صوره في كل الميادين والحناجر تهتف لمبادئه وأحيانًا باسمه كما لو كان بيننا، يقول علماء الاجتماع أن هذه الظاهرة تعني بوضوح أن اسم جمال عبد الناصر قد ارتبط في العقل الجمعي للقوى الحية بالنقاء الثوري، والعدالة والنزاهة، والتغيير للأفضل وهذا أكبر شهادة ميلاد يمكن أن تقدم لرجل أصبح في ذمة التاريخ منذ عشرات السنين.

وهنا أحب أن نتوقف لنتأمل هذه الشخصية أولاً، وأحسب أنه على كثرة ما كُتب عن جمال عبد الناصر فإن قلة قليلة قد توقفت بالتأمل في هذا القائد من زاوية كونه أحد المتفردين من قادة التغيير في العالم وفي العصر الحديث الذين ينطبق عليهم صفة «المثقف الثوري» الذي يحمل أفكارًا تهدف إلى التغيير الجذري لواقع شعبه وأمته، وفي الوقت نفسه لا يكف عن التعلم بحيوية وشجاعة حتى وهو في قمة السلطة، ويكفي مراجعة تطوراته الفكرية دون أي فقدان

(1) أ. د. جمال شيحة: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص74، 75.

للبوصلة الرئيسية، وكان في كل مرحلة يزداد ثورية ونضجًا، وانحيازًا للفقراء، وتقديرًا للعلم، ورغبة في إنجاز النهضة الشاملة مع الإيمان المتزايد بالحلم القومي العربي.

ويظهر المثقف الثوري أكثر ما يكون وضوحًا في قيادته أكبر حملة نقد ذاتي بعد الهزيمة، وهو ما لا يقدم عليه حاكم على رأس السلطة عادة؛ ولكن لأنه ثائر مثقف وضعته الأقدار في منصب الرئاسة والزعامة، فقد قام بهذا الدور التاريخي في النقد الذاتي كمواطن في منصب رئيس دولة، وكثائر في قمة السلطة، وكمثقف لا يكف عن الجدل والتعلم من أجل وطنه وأمته، وهو القائل بحق «إن عهودًا طويلة من العذاب والألم قد بلورت في نهاية المطاف أهداف النضال العربي واضحة جلية في الحرية والاشتراكية والوحدة».

وربما كانت صفته الأساسية كمثقف ثوري وإيمانه المطلق بالمبادئ التي عاش من أجلها تفسران بوضوح ما حار فيه حتى أعداؤه عندما يتحدثون عن نزاهته الشخصية، ونظافة اليد والاستقامة الأخلاقية، وثقافته الواسعة، والزهد في المتع التي تتوفر بسهولة لرئيس مثله، خاصة في سن الشباب، وربما لا يعرف الكثيرون من الأجيال الجديدة ما قاله عنه أعداؤه، هذا الرجل لا يمكن شراؤه، ولا يمكن إغوائه، ولا يمكن إخافته، لم نجد ثغرة ندخل منها إليه.

أتصور أن جمال عبد الناصر كإنسان وكمثقف ثوري يستحق دراسات معمقة تحلل هذا المحور لشخصية الرجل وكيف انعكس ذلك على كل أدائه.

هل جمال عبد الناصر مجرد ذكرى..؟ هل هو مجرد رجل رجل عظيم مر من هنا..؟!

برغم ثراء تجربة 23 يوليو الرائدة التي قادها جمال عبد الناصر، فإنها لم تدرس بطريقة علمية منهجية حتى الآن، الرجل في ذمة التاريخ، والثورة انتهت كتجربة وآن الأوان أن نستخلص منها الدروس للمستقبل، وأتصور أن ذكرى ميلاد الزعيم الخالد جمال عبد الناصر المائة يمكن أن تكون حدثًا تاريخيًا كبيرًا، وعملاً وطنيًا يصب في اتجاه تقوية الدولة الوطنية المدنية الحديثة، والتوجه للأمة العربية كي تستعيد توازنها في مواجهة مشاريع تقسيم المقسم وتجزئة المجزأ، كيف يمكن أن نجعل هذه الذكرى نقطة انطلاق للمستقبل نستفيد فيها من دروس التجربة العظيمة..؟!!

شعب عظيم ثار في 23 يوليو 1952م بقيادة مثقف ثوري وقائد يمتلك رؤية للتغيير الشامل، أين الإنجازات ولماذا تمت وكيف..؟ إين الإخفاقات ولماذا حدثت وكيف في

كل مجالات العمل الوطني والقـومي..؟ أتصـور أن يقـوم فريـق مـن أسـاتذة التـاريخ الحديث بوضع عدة محاور لتقييم التجربة والرمز، ويتم توزيع كـل موضـوع عـلى عـدة باحثين لكتابة تقييم، ثم تعود هذه الأبحـاث إلى باحـث رئيسـي يقـوم ببلورتهـا في مقـال بحثي مطول مدعومًا بالفهارس، ثم يتم عمل ورشة عمل كبرى قد تسـتمر أيامًـا طويلـة تـُطرح فيها هذا الرؤى في كل المواضيع والمحاور ويتم مناقشتها والوصـول إلى توافـق نهائي بخصوصها **(Consersun)**، وأقترح مبدئيًا أن تكون هذه المحاور كما يلي:

1- عبد الناصر والعروبة، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

2- عبد الناصر والإسلام، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

3- عبد الناصر وإفريقيا، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

4- عبد الناصر والحرية، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

5- عبد الناصر والديمقراطية، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

6- عبد الناصر والثقافة، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

7- عبد الناصر والتعليم والبحث العلمي، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

8- عبد الناصر والفن، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

9- عبد الناصر والأزهر، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

10 عبد الناصر والمؤسسة العسكرية، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

11- عبد الناصر والفقراء، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

12- عبد الناصر والأغنياء، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

13- عبد الناصر والشباب، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

14- عبد الناصر والمرأة، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

15- عبد الناصر والزراعة، هل التوجه كان صحيحًا..؟ ما الدروس؟

16- عبد الناصر والصناعة، هل التوجه كان صحيحًا؟ ما الدروس؟

بالإضافة إلى محورين يخصان الرمز نفسه، عبد الناصر الإنسان، وعبد الناصر المثقف الثوري، ويقوم مجموعة أخرى من الخبراء ببلورة تقرير شامل عن تجربة عبد الناصر يحتوي على الدروس المستفادة من هذه التجربة، حتى لا نكرر أخطاء التجربة الثورية الأكبر للشعب المصري، بل نبني على إيجابياتها، ويتم نشر هذا التقرير في 15 يناير القادم، ويتواكب ذلك إذا أرادت الدولة مسابقات للشعر والموسيقى والمسرح والقصة القصيرة والرواية على جميع المستويات ابتداءً من المدارس حتى وزارة الثقافة، مع عملة تذكارية وطابع بريد متميز، وما شابه ذلك من طريق الاحتفال وتخليد الذكرى.

التجربة التاريخية لثورة الشعب المصري في يوليو 1952م تستحق ذلك، وقائدها العظيم سيكون هانئًا في مرقده عندما تستخلص أمته الدرس من تجربته؛ لتجد لها مكانًا لائقًا بين الأمم، هكذا تحتفل الأمم الحية بذكرى رموزها التاريخية، ليس بتقديس الأشخاص ولكن بالاستفادة من تجاربهم ووضعها تحت عين وتصرف الأجيال الصاعدة.

كان نزار قباني يقول لجمال عبد الناصر بعد وفاته: «لماذا قبلت المجيء إلينا.. مثلك كان كثيرًا علينا»، ولو عاش هذا المثقف الثوري العظيم لغضب من كلام نزار، وربما ذكره بأن الشعب هو القائد والمعلم والزعيم، وأن أي مواطن مهما كان إسهامه في تاريخ أمته فإنه يبقى ابنًا وفيًا للشعب يأتمر بأمره ولا يستكبر عن المجيء إليه.

طبت حيًا وميتًا جمال عبد الناصر، وستبقى أكثر الغائبين حضورًا، نستحضرك في الشدائد حيث في الليلة الظلماء يفتقد البدر، أو كما قالت إحدى السيدات في حي شعبي في جنازته وهي تنعيه باكية: «يا جمال يا عقد الفل.. من بعدك لندوق الذل» كتعبير عن خوف فقراء الوطن من غياب حاميهم وراعيهم جمال عبد الناصر، وتجربة ثورة 23 يوليو، وفي ذكرى ميلاد القائد الخالد المائة، يجب أن يكون مشروعًا لمستقبل في حرية الوطن والعدالة الاجتماعية، والتقدم العلمي، وقيادة أمة عربية ودولة مدنية ديمقراطية حديثة، الدروس المستفادة من التجربة كفيلة بإضاءة الطريق للمستقبل، فقط علينا التقييم بأسلوب علمي وهادئ، وبهذا يكون احتفالاً بقيمة الرجل، واحترامًا للشعب العظيم الذي أنجبه، والأمة المجيدة التي ينتمي إليها.. عاش جمال عبد الناصر.

▪▪ خارج الكهف .. الأصنام الأربعة[1]



1918 - 1970

الأصنام الأربعة التي ترسخت في العقلية الإنسانية على مر العصور في مصر، وزرعت في عقولنا جميعًا مجموعة من الضلالات والخرافات والتقاليد الفاسدة، التي تباعد بيننا وبين جوهر العقل الصافي ومعدنه الأصيل الذي خلقه الله فينا؛ لتصل به إلى الحقيقة، كما رصدها فرنسيس بيكون في كتابه «الأورجانون الجديد»، وأقرَّ بوجوب تحطيمها حتى نفيق على حال الوعي والتحضر، واليوم أفند لكم تلك الأصنام، حتى نحاول تحطيمها فينا وفيمن حولنا.

أول تلك الأصنام: صنم جمعي عام يخص الجنس البشري بكامله، وهو «صنم القبيلة» **Tribe Idol**؛ لأنه يخص «قبيلة الإنسان»، وهو القوى الشخصي وكافة الاعتقادات الزائفة المغروسة في الطبيعة الإنسانية، فتشكل أحلامه وأمانيه وحدوسه التي تنزع نحو التعميم في الأحكام وعدم تحليل الأمور على نحو علمي منطقي، بل على العكس تجعل الإنسان يُسلم دون وعي بمعتقدات قبيلته أو عرقه أو جماعته، فالعقل البشري لا يقبل إلا ما يوافق نزعاته وميوله، ولا يتلفت إلى التجارب التي لا تتفق مع رؤاه وترضي ميوله؛ لهذا نستسلم للخرافة والسحر والأحلام والتنجيم.

(1) فاطمة ناعوت: جريدة اليوم السابع، العدد 2259، 6 أغسطس 2017م، ص10.

الصنم الثاني: يخص كل إنسان على حدة، هو «صنم الكهف» **Cave Idol**، وهو استلهام من قصة الكهف التي نسجها أفلاطون ليدلل على أن الإنسان، كل إنسان أسيرٌ في كهفه الخاص المعزول عن الرؤية الشاملة الخاضعة للمنطق والعلم، فكل إنسان هو عبدٌ تابعٌ لبيئته الخاصة ومستوى تعليمه وثقافته وظروفه الخاصة وتجاربه الشخصية وملكاته وعيوبه، كل ما سبق يحاصر عقل الإنسان ويفرض عليه لونـًا من العزلة فيظل متقوقعًا في كهفه المحدود، ولا يرى من العالم ومن الحقيقة إلا ظلال أفكاره وتجاربه الشخصية الضيقة.

أما قصة أفلاطون فتحكي عن مجموعة من البشر مقيدين بالسلاسل داخل كهف مظلم ليس به إلا فتحة صغيرة، موجودة خلف ظهورهم، فلا يشاهدون من الحياة الخارجية إلا ظلال البشر السائرين بالخارج المنعكسة على جدار الكهف المقابل لعيونهم، ووفق منهج أفلاطون، فإن العالم الخارجي، خارج الكهف، هو عالم المثل وهو العالم الحقيقي غير المرئي لنا، وأما داخل الكهف، فهو الحياة التي نعرفها على الأرض وهي زائفة لا ترى من الحقيقة إلا ظلالها.

أما الصنم الثالث فهو «صنم السوق» **Market-Place Idol**، وهو الآراء والمعتقدات المغلوطة الناتجة عن تواصل البشر وتبادلهم المعلومات دون علم، وينتج عن هذا الصنم تشويه المصطلحات والتعريفات وتعميم الأمور، بسبب تداول البسطاء والعامة والدهماء لآراء علمية دون فهم ولا دراية ولا دراسة، في المقاهي والأندية والأسواق وغيرها من مناطق تجمع الناس، يتداول الناس في شئون الحياة والطبيعة والسياسة بلغة مشتركة بعيدة عن ا لمنطق، فتفقد الألفاظ دلالتها الحقيقية وتستقر في الأذهان مجموعة من المغالطات المشوهة.

وفي الأخير، نصل إلى الصنم الرابع والأخطر، وفيه تكمن آفة عصرنا الراهن في المجتمع العربي، «صنم المسرح» **Theatre Idol**، وهو تزييف المصطلحات على يد الإعلام والنخبة، إنها الأفكار المغلوطة التي نتداولها عن المذاهب والمدارس الفكرية التي تشكلها القيادات والمشاهير ذوو النفوذ والتأثير المجتمعي العميق على الأفراد في كل مجتمع، وهي الآراء التي تناقلناها عن أفواه السلف القديم دون تفكير.

وبالرغم من أن بيكون كان يقصد «بالسلف» أرسطو وأضرابه من فلاسفة الإغريق

الذين ناصبهم العداء، إلا أن الأمر ينسحب اليوم على كل من نراهم علماء أجلاء وفقهاء في كل عصر ومكان، نحفظ أقوالهم ونسلم بها ونتداولها ونرددها كالببغاوات، دون أن نتدبر أقوالهم ونفند ما بها من مغالطات علمية أو آراء قد لا تصلح لزماننا الراهن، إنه التسليم المطلق بصحة تلك الآراء دون ذرة شك تخالجنا في جواز خطأها أو نقصها.

ودلل بيكون هنا بمثال عن العالم جاليليو الذي أثبت بالتجربة العلمية أننا لو ألقينا من مكان عال بحجرين، أحدهما يزن رطلاً والآخر يزن عشرة أرطال، فإن كلاهما سيصل الأرض في نفس اللحظة، ورغم أن تلك التجربة قد شهدها أساتذة في الفيزياء وعلماء رياضيات وشهدوا بصحتها، إلا أن المشاهدين أنكروا التجربة وكذبوا عيونهم؛ لأن أرسطو قد قال قبل قرون: «إن الحجر الأثقل وزنًا سوف يصل إلى الأرض أولاً» دون أن يقدم دليلاً عمليًا على ذلك، لكن للأقدمين سحرًا ومصداقية غير مبررة.

تلك المغالطات الفكرية هي التي تشكل المنظومة الفكرية والدوجمائيات التي تم تلقينها للمجتمع لتسير حياتنا الراهنة، وهي غير قابلة للنقد بزعم أن كل ما قاله الأقدمون خط أحمر لا يجوز الاقتراب منه، والتشبيه الذي أراده فرنسيس بيكون هنا يصور البشر بمجموعة من المتفرجين في عرض مسرحي يمثله الأقدمون على خشبة المسرح في عرض هزلي زائف تم حبكه من منظومة من الأحكام المسبقة غير العلمية غير الدقيقة، وهي التي تقف حجرًا عثرًا في وجه الحقيقة، فتمنعنا من مشارفتها.

ما أكثر ما تنطبق أفكار فرنسيس بيكون بقوة على لحظتنا الراهنة بكل ما تحمل من فوضى عبثية وافتقار للعلم في مجتمعاتنا العربية، وبالأخص صنما «السوق»، و«المسرح» أظن أن لا مهرب لنا من مأساتنا الفكرية العربية الراهنة إلا بتبني مقولة بيكون العاقلة: «لا تقرأ لتعارض وتفند، ولا لتؤمن وتسلم، ولا لتجد ما تتحدث عنه، بل اقرأ لتزن وتفكر وتحلل».

وبالبناء على هذه الجملة الأخيرة، لا تقرأ لتعارض وتفند، ولا لتؤمن وتسلم، ولا لتجد ما تتحدث عنه، بل اقرأ لتزن وتفكر وتحلل، هكذا كان جمال عبد الناصر يقرأ وكان قارئًا نهمًا يقرأ كل ما يُكتب في الصحف المصرية وغيرها.. لكي يزن ويفكر ويحلل.

وطبق هذا المنهج طوال حياته فأضحى قائدًا قارئًا مثقفًا واعيًا، يقرأ ويفكر ويحلل

ويطبق هذا كله على أسلوبه في الحكم والقيادة، ومن هنا جاء قراره بإلغاء ما أزمع عليه من إرسال قوة من الجيش المصري إلى قطنة التي شب منها من سوريا لفصل عرى الوحدة بينها وبين مصر، وأمر بعودة الجيش حقنًا للدماء وحفاظًا على العلاقات المصرية العربية.

ورأبًا للصدع الذي أصاب الوحدة المصرية السورية خطب قائلاً: - ولقد اسمتعت إلى هذا الخطاب من الإذاعة المصرية-:

لقد أمرت بتوجيه وحدة من وحدات الجيش إلى الإقليم الجنوبي (مصر) إلى الإقليم الشمالي (سوريا) لوأد هذا الانقلاب، ثم أردف قائلاً ولقد أمرت بعدها بعودة الجيش إلى ثكناته.

هكذا كان جمال عبد الناصر يتصرف بعقل ويبرم أموره المتعلقة بالدولة بحكمة، ولا يشتطت في اتخاذ القرار، وكان في موقفه هذا بعد الانقلاب الذي حدث في سوريا من قطنة موقفًا نبيلاً يدل على حسن نيته وسلامة طويته وحفاظه على الدم العربي من أن يُراق مهما كان الحدث الذي يستوجب هذا، ومع ما أصابه من كمدٍ من جراء ما حدث في هذا الانقلاب الذي أدى إلى انفصام عُرى الوحدة بين مصر وسوريا.

▪▪ لقد ظلمت عبد الناصر يا أسامة ..! [1]



1918 - 1970

لست ناصريًا، ولم أتلق دروسًا في نوادي الفكر الناصري، ولا شملتني قوائم عضوية الحزب الناصري، ولم ألف رأسي يومًا بشال عبد الناصر، فلست درويشًا في الحضرة الناصرية، ولم أرتد يومًا قميص عبد الناصر تحت الجلد، ولا تاجرت باسم الزعيم والتجارة باسمه رابحة وتربح منها الكثيرون.

ولكن هالني، وأنا المحب لناصر زعيم الفقراء، ما كتبه الصديق الأريب أسامة غريب ساخرًا من حقيقة فقر خالد الذكر وتعففه، وهي حقيقة ثابتة تحدث بها وعنها معاصروه، وسمعنا منهم الكثير عن زهد عبد الناصر وتعففه عن المال العام، وارتضى فقرًا وهو الغني بحب الناس، ولم يغترف من المال تحت يديه، ولم يغتن أولاده في عصره.

يروي حسن عباس زكي وزير المالية في عهد جمال عبد الناصر حرفيًا: «عندما كنت رئيسًا لبنك مصر اتصل بي ذات مرة سامي شرف سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر، وطلب مني الحضور لمقابلة الرئيس، وذهبت وأنا أرتعش وقلت لنفسي لماذا يطلب الرئيس عبد الناصر مقابلتي شخصيًا..؟!!

(1) حمدي رزق: جريدة المصري اليوم، العدد 4791، 27 يوليو 2017م، ص13.

وعندما دخلت عليه، وهي المرة الأولى التي أقابله في حياتي، وجدت في عينيه بريقـًا لم أره في حياتي في أي إنسان، ولـه شخصـية تهـز مـن أمامـه، وقـال لي: اجلـس يـا حسـن، فجلست وقلت له: خير يا ريس، فقال لي: خير يا حسن، ثم سألني: لـو موظـف كبيـر في الدولة أراد أن يعمل سلفة (قرض) من البنك إيه هي الإجراءات..؟ فقلت لـه: يـا ريـس مين ده الموظـف الـلي سـيادتك جـايبني هنـا وبتوصـي عليـه شخصـيًا، أكيـد شـخص يهمك..؟ ففوجئت به يقول: أنا، قلت له: سيادتك يا ريس، فقال لي: أيوه أنـا موظـف في الدولة وباخد 500 جنيه مرتب.

المهم رديت عليه: حاضر يا ريس، حسبت له القرض طلـع 7200 جنيـه، فقـال لي: بس أنا عاوز 10000 جنيه علشان هاجوز بنتي وفيـه أشـياء أخـرى تحتاجهـا عـائلتي، فقلت له: ممكن لما يبقـى الشـخص مضـمون نرفـع مبلـغ القـرض، وسـيادتك رئـيس الجمهورية، وطلب من جمال عبد الناصر صورة البطاقة العائلية واسـتمار طلـب قـرض موقع منه، فأمر عبد الناصر بإحضار المطلوب من السـكرتارية، ثـم وقـع عـلى اسـتمارة طلب القرض شخصيًا، فأخذت الأوراق وانصـرفت، وذهبـت للبنـك وتـاني يـوم عنـد الظهر كانت الفلوس جاهزة.

توجهت بها إلى مكتب سامي شرف، جلست لحظات في مكتبـه، ثـم فوجئنـا بقـدوم المشير عبد الحكيم عامر، وكان يعرفنـي شخصـيًا فقـال لي: حسـن زكـي.. بتعمـل إيـه هنا..؟ فاضطررت أقوله القصة باختصار، فهاج عامر وقال لي: ناصر يسـتلف..؟! ده أنـا عندي ميزانية في الجيش مفتوحة أعطيه منها ما يريد.

دخل عامر عند عبد الناصر وأنا واقف أنتظر مـا يسـفر عنـه لقاؤهمـا، ثـم أطـل عبـد الناصر من فتحة الباب وأشار لي وقال: تعالى يا حسن، وهنا اتضح أنه قد رفـض عـرض عامر له، فدخلت وأعطيته المبلغ ومعي استمارة تسلم النقدية أخذها مني ووقـع عليهـا وسط ذهول عبد الحكيم عامر، وانصرفت بعد أن شكرني كثيرًا، هذا هو عبد الناصـر يـا صديقي.

عبد الناصر الذي يقترض لزواج ابنته مثل رب أسرة مصري، يقتـرض بنسـبة مقـررة من راتبه ليجهز عفش ابنته، لم يغترف من المال العام ليبنـي قصـورًا لأولاده، ولم يشـأ أن يوافق المشير عامر أن يطلب حاجتـه مـن ميزانيـة الجـيش، تخيلـوا رئـيس الجمهوريـة

يستلف مبلغـًا علشان يجهز عفش ابنته.

مطمئنـًا أقول: لقد ظلمت عبد الناصر يا أسامة، لا عـن حقيقـة ذكـرت، ولكـن عـن موقف استنبطته من الزعيم، وأخشى أن تكون السخرية حرفت القلـم فكتـب مـا أحـزن محبين كثرًا للزعيم وأنا آخرهم، فقط أنقل ما رواه الثقات عنه وهو كثير.

وهذه حقيقة لا مراء فيها .. يشهد بها القاصي والداني والمحبين لجمال عبـد النـاصـر والشائنين له .. وفي حديث بين والدي رحمة الله عليه وبين الأستاذ سامي شرف في مكتبـة برئاسة الجمهورية ذكر له الأستاذ سامي أن رصيد عبد الناصر في بنـك مصـر لا يتعـدى ثلاثة آلاف جنيه مع قدرته آنذاك أن يكون من اصحاب الملايين .

ولكنها طهارة اليد التي أنعم الله بها عـلى الـرئيس جمـال عبـد النـاصـر . وهـي طهـارة أفتقدها الكثير من الزعماء .. ولا سيما زعماء دول العالم الثالث عـدا واحـدًا مـنهم هـو المشير عبد الرحمن سوار الذهب الذي كان حاكمًا على السودان .

■■ سنحارب على الشواطئ (1)



1918 - 1970

ذلك هو العنوان الذي أطلقه البريطانيون على الخطبة التي ألقاها ونستون تشرشل، أمام مجلس العموم البريطاني في المملكة المتحدة يوم 4 يونيو 1940م، إبان عملية «الإجلاء» المحتوم عن شواطئ «دنكرك» في شمال فرنسا بهدف إنقاذ 400 ألف بريطاني من الموت أو الأسر على أيدي القوات النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.

إنها الخطبة أيضًا التي اختار بعض مقاطعها المخرج كريستوفر نولان كخلفية لأجزاء من فيلمه المعروض حاليًا «دنكرك».

وتعتبر الثانية من ثلاثة خطابات ألقاها رئيس وزراء بريطانيا أثناء معركة فرنسا «دنكرك».

الخطبة الأولى بعنوان «الدم والكفاح والدموع والعرق» وقد ألقاها يوم 13 مايو 1940م، والثانية بعنوان «هذه أجمل ساعة لهم» وقد ألقاها في 18 يونيو بعد أن تحققت عملية الإجلاء وإنقاذ من يقرب من 300 ألف جندي.

***

(1) خيرية البشلاوي: جريدة المساء تحت عنوان رنات، بتاريخ 30 يوليو 2017م، ص11.

كانت وقائع الحرب قد شهدت تطورات دراماتيكية إبان تلك الأسابيع الخمسة، وبالرغم من تشابه موضوعات الخطابات الثلاثة عمومًا، إلا أن كل خطبة كانت توجه في إطار سياق عسكري ودبلوماسي مختلف.

في هذه الخطبة الثانية كان تشرشل يصف كارثة عسكرية وشيكة من دون أن يشكك في إمكانيات نصر محتمل، وكان عليه أن يعد مستمعيه في الداخل إلى احتمالات هزيمة فرنسا، محذرًا من ذلك، وكان يرغب في التمسك بالهدف الرئيسي مهما كان الطريق صعبًا وطويلاً.

وتشرشل كان قد تولى رئاسة الوزراء في 10 مايو، أي بعد نشوب الحرب بثمانية أشهر، وقد فعل ذلك باعتباره رئيسًا لحكومة التحالف، ولم يتحدث وقتئذٍ إلا عن الموقف العسكري من فرنسا، والأراضي الواطئة مؤكدًا بأنه ليس لديه ما يقوله لهؤلاء الذين انضموا للحكومة سوى «الدم والكدح والدموع والعرق».

وفي بريطانيا العظمى أو التي كانت عظمى، يعتبر الموت البطولي المشرف ضمن الغذاء المعنوي اليومي، إنه يمثل مناسبة للتفكير بما جرى وما أنجزته بريطانيا، وذلك من خلال عرض الأفلام الحربية على قنوات هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي»، ومنها فيلم «الجبهة الأمامية» **(Local Front)**، وفيلم «دنكرك» الذي أخرجه المخرج البريطاني ليزلي نورمان (1958م)، ومثل العمل المعروض الآن «دنكرك» الذي يحقق إيرادات عالية منذ أيام قليلة من عرضه بلندن، والمخرج من مواليد لندن لأم أمريكية وأب بريطاني، وفيلمه هذا يشيع مشاعر الوطنية ويوقظ الحنين لأيام الانتصارات الكبيرة، ويفجر الدموع ويلوح بالتحية للجنود التي شاركت وعادت منتصرة أو سقطت على رمال الشواطئ أو فوق ساحات الحروب.

وتعتبر زيارة «دنكرك» أشبه بالحج إلى حرم مقدس، ففوق رمالها سقط آلاف من الجنود، وفي هذا السياق ذاته، دأبت الإذاعة البريطانية تبث المسلسل الإذاعي «الجزيرة المقدسة» **(Sceptred Island)** من كتاب المؤرخ البريطاني كريستوفر لي، ويتناول قصة بريطانيا وتاريخها المجيد، وقد بدأت إذاعته عام 1995م، وعنوان المسلسل مستوحى من خطبة عصماء للملك ريتشارد الثاني في مسرحية شكسبير، التي تحمل نفس العنوان، والذي لعب دوره ريتشارد بيرتون، وبصوته وأدائه ردد كلمات الملك التي صارت

بدورها الوصف المبجل للملكة المتحدة بريطانيا.

تاج الملوك الملكي هذا.

وهذه الأرض العظيمة ذات السيادة.

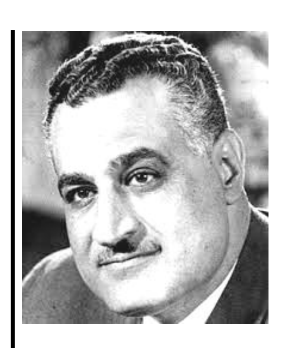
هذه القلعة الحصينة التي شيدتها الطبيعة لنفسها، لقصد العدوى وأيادي الحرب، وهذه الذرية السعيدة من الرجال، وهذا العالم الصغير، وهذه الجوهرة في بحر من الفضة.

إلى آخر الخطبة الرنانة التي ألقاها شكسبير، والتي من شأنه أن تشعل حماس شعب بريطانيا، وتفعل مفعول السحر وتملأهم بمشاعر التفوق العنصري، وأقول: تلك هي القوة الناعمة بحق، وهؤلاء الفنانون الوطنيون يمدون بأعمالهم الفنية المجيدة غذاءً يوميًا لشعوبهم، ولا يتسع المجال هنا لذكر عشرات الأعمال الفنية العظيمة التي تسمو بالروح الوطنية، وتنطوي على وسائل تكرس الإحساس بالشموخ والاعتزاز بالذات.

وأستطيع شخصيًا أن أزعم أن معظم إنتاج هوليوود يعتبر دعاية قوية ومؤثرة للولايات المتحدة الأمريكية، ومنها أعمال حربية بمثابة روائع وتمجيد مباشر للجيش الأمريكي، وجنرالات وزارة الدفاع وذلك رغم الهزائم التي مني بها في فيتنام وكوريا والعراق..، إلخ، لكنها أفلام تعكس في نهاية المطاف الإمكانيات التكنولوجية والتقنية الإبداعية للدولة، ناهيك عن الإمكانيات العسكرية.

إنها الطاقة الإيجابية التي تمنح الجمهور الأمل والثقة والبهجة والترفيه الداعم لمعنويات الشعوب التي تشجعها.

.. «بصــراحة» يرصــد لقــاءات عبــد الناصــر بجماهير الشعب العربي [1]



1918 - 1970

قــرأت كــل كتــب الأســتاذ هيكــل، واســتعنت بمقالاتــه «بصراحة» كمرجع أصيل من الدرجـة الأولي في سلسـة كتبـي، «جمال عبد الناصر.، الأوراق الخاصة»، وقد سبق أن كتبت عـن قيمة هذه المقالات في العمل البحثي العلمي والصحفي، وهنـا أريد أن أؤكد أهمية الاستعانة بمقالات الأستاذ هيكـل وكتبـه في دراسة تاريخ مصر والأمة العربية المعاصر، خاصـة مـع غيـاب تقليد الكشف عن الوثائق الرسمية في مصر والعالم العربي.

وأتذكر- بعد خمس سنوات ونصف السـنة مـن التفـرغ في البحـث في هـذا الموضـوع- أنـه مـا مـن سـؤال دونتـه، إلا ووجدت إجابته في مقالات الأستاذ هيكل؛ فلقد كانـت فتـرة الثماني عشرة سنة وأكثر من الشهر، التي كان فيها جمـال عبـد الناصر المسئول الأول عن مصر، مليئة بالأحداث والتقلبات السياسية والعسكرية في العالم العربي؛ حيـث انطلقـت دعـوة القومية العربية والوحدة العربية، وتحققت التنمية الاقتصادية في بلدنا بمعدل سريع؛ جعلها نموذجا بـين الـدول الناميـة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.، تلك الدول التي نجح ناصـر وتيتو ونهرو في جعلها جبهة تبعد عن الاستقطاب الدولي بـين

(1) د. هدى جمال عبد الناصر: جريدة الأهرام، بتاريخ 25 مارس 2016م، ص20.

الولايات المتحدة والغرب من ناحية، والاتحاد السوفيتي والشرق من ناحية أخرى.

والحديث عن سلسلة مقالات بصراحة التي بدأت في الأهرام في عام 1957م حتى 1974م، وبلغت بإضافة مقالات «آخر ساعة» منذ قيام ثورة 23 يوليو 1952م، والمقالات التي كتبها الأستاذ هيكل بعد خروجه من الأهرام في الأخبار والأنوار اللبنانية 2.706،300 كلمة أي 13.532 صفحة- ولذلك فإنه من الصعب جدًا الاختيار للعرض على القارئ، ولكن ما يسعدني في هذه اللحظة هو قيام الأستاذ/ محمد عبد الهادي بإفراد موقع للأستاذ هيكل من مواقع الأهرام، وقد وضعت عليه جميع هذه المقالات.

وإزاء حيرتي، تذكرت الدهشة التي قرأت بها مقالات الأستاذ هيكل عن اليمن، وخاصة تلك التي وصفت زيارة عبد الناصر لشعبه العظيم بعد ثورة 26 سبتمبر 1962م لقد ساندتها مصر معنويا وعسكريا منذ البداية في مواجهة التدخلات الخارجية، التي ساندت حكم الإمام السابق البدر في شخص أخيه الحسن، وقاومت الوجود العسكري المصري هناك؛ وخاصة من جانب الولايات المتحدة التي كان لها قاعدة حربية في المملكة العربية السعودية، وبريطانيا التي كانت تحتل الجنوب العربي والخليج العربي، ولها قاعدة عسكرية هامة في عدن.

ومن هنا فكرت، وماذا عن استقبالات الشعب العربي في مختلف البلاد التي زارها عبد الناصر..؟ بالطبع كان الوصف الدقيق والأمين والمرهف لها من جانب الأستاذ هيكل في مقالاته بصراحة، لا يدانيه أي شيء.

أولا : في دمشق بعد الوحدة، مئات الألوف رافعين المشاعل حتى الفجر ينادون..، طل علينا يا جمال:

ففي مقال بعنوان.، جمال في دمشق، بتاريخ 25 فبراير 1958م، كتب الأستاذ هيكل.، رأيت دمشق كما لم أرها في عمري، والتعبير مألوف استعمل عشرات المرات قبل أن أستعمله، وأعرف ذلك، ولكن ماذا أصنع والحوادث التي تجري أمامنا الآن أكبر من الألفاظ، وليس في طاقتنا أن نصنع في كل مرة من الحوادث ألفاظا جديدة. لقد كان وصول جمال عبد الناصر اليوم الي دمشق مفاجأة تمت في سرية كاملة محكمة.

في الصباح الباكر سارت سيارات متتابعة في الطريق الي مطار ألماظة، ولم يفطن الـذين شاهدوها الي أن حدثا كبيرا يجري أمامهم، كان في هذه السيارات جمـال عبـد الناصـر في طريقه الي دمشق، ومعـه المشـير عبـد الحكـيم عـامر وعبـد اللطيـف البغـدادي وأنـور السادات وعبد القادر حاتم.

وفي الساعة السابعة قامت الطائرة من مطـار ألماظـة متجهـة الي دمشـق، وفي السـاعة الثامنة تماما بدأت الطائرة تعلو في الجو ثم بدأت تمرق وسط السحب في محاذاة شاطئ إسرائيل، وفي الثامنة والثلث كان جبل الشيخ المعمم بالثلوج يبدو عنـد الأفـق، وكانـت أول نفحة من سوريا، وأطل جمال عبد الناصر من نافـذة الطـائرة، يلقـي أول نظـرة عـلى الأرض التي انتخبته رئيسا لجمهوريتها دون أن تراه ودون أن يراها.

وفي الساعة التاسعة إلا ربعا كانت الطائرة تهبط في مطار المزة، وبدت الطائرة للـذين كانوا في المطار كأنها طائرة عادية كغيرها من عشرات الطائرات التـي تهـبط كـل يـوم في مطار المزة، ثم توقفت الطائرة تماما أمام مبنـي المطـار، وكـان هنـاك جماعـة مـن قـواد الجيش السوري يتقدمهم اللواء عفيف البزري والزعيم أمين النافوري والقائم مقام عبد المحسن أبو النور الملحق العسكري المصري في دمشق، كانوا واقفين ينتظرون الطـائرة وفي تصورهم أن القائد العام المشير عبد الحكيم عامر موجود بين ركابها.

وفتح باب الطائرة.، ولدهشتهم جميعا ظهر عـلى بابهـا آخـر شـخص كـانوا يتوقعـون ظهوره في هذه الساعة من الصباح، وكان اللواء البزري أول من أفاق من الدهشة فقال: يا خبر! ثم بدأ الباقون جميعا يتطلعون الي الرئيس جمال عبد الناصـر في ذهـول، وهـم يرونـه يهبط سلم الطائرة ويمد يده إليهم مصافحا، ولم تكن هناك سيارات في الانتظـار ولم تكـن هناك ترتيبات للاستقبال.

وركب الرئيس سيارة كانت في المطار، بينما انـدفعت سـيارة اللـواء البـزري تفسـح الطريق أمامها في الطريق الذي يؤدي من مطار المزة إلى عاصمة الأمويين الخالدة، وكان اندفاع سيارة اللواء البـزري في الطريـق هـو الشـيء الوحيـد الـذي لفـت أنظـار بعـض السيارات المارة، فتطلع ركابها الي الركب.، ركب السيارات التـي تجـري عـلى الجانـب الآخر من الطريق، ثم اكتشف ركاب هذه السـيارات الحقيقـة مـرة واحـدة؛ فاسـتداروا

بسياراتهم وعادوا يحاولون اللحاق بموكب جمال عبد الناصر وهم ينادون باسمه.

وبعد قليل كانت شوارع دمشق كلها تردد نفس الاسم، وفي تلك اللحظة كانت سيارة الرئيس جمال عبد الناصر قد وصلت الي دار الرئيس شكري القوتلي، وكان الرئيس شكري القوتلي ما زال بالدور العلوي بمنزله، ولم يكن يعرف بأمر المفاجأة التي وصلت الي دمشق في هذه اللحظات، وأخطر الرئيس شكري القوتلي بأن جمال عبد الناصر ينتظره في صالون بيته، وارتدي الرئيس شكري القوتلي ملابسه وهرع للقاء ضيفه؛ المفاجأة التي لم تكن متوقعة في هذا الصباح في دمشق، وتعانق الرجلان.

وفي تلك اللحظات كانت جموع الشعب التي سمعت النبأ بدأت تزحف على قصر الرئيس شكري القوتلي كأنها سيل ينحدر من قمم الجبال، وبدأت أصوات الجماهير تعلو حتي وصلت الي أسماع الرئيسين حيث كانا واقفين في الصالون، وكانت الجماهير تهتف: ناصر ناصر ناصرنا..، وخرج الرئيسان الي شرفة البيت، وتحدث السيد شكري القوتلي وبعده الرئيس عبد الناصر، ثم دخل الرئيسان الي بيت الرئيس شكري القوتلي، ولما جاء الموعد الذي يجب أن ينتقل فيه الرئيس جمال عبد الناصر الي قصر الضيافة، خرج الي شوارع دمشق في سيارة مكشوفة.

إن الحماس الذي شهدته شوارع دمشق لا يمكن أن يوصف، وأي محاولة لوصفه لن تستطيع أن تشير الي الحقيقة. إن الطريق بين قصر القوتلي وقصر الضيافة لا يزيد طوله علي100 متر، ولكن السيارة المكشوفة قطعته في أكثر من ساعة! ثم وصل الرئيس جمال عبد الناصر وسط بحر متدفق من الجماهير، وبقي واقفا في الشرفة أكثر من ربع ساعة يرد تحية شعب دمشق الذي احتشد في الميدان الكبير، وملأت الجماهير جميع الشوارع المؤدية الي قصر الضيافة.

وقال السيد شكري القوتلي للرئيس جمال عبد الناصر: إن هذه الأمة في حماية شبابك وإيمانك وشجاعتك.

وقضي الرئيس كل ساعات ما بعد الظهر يخرج الي شرفة القصر ويدخل منها، كلما كانت الجماهير تلح عليه في أن يطل عليها، وكانت أصواتها كالرعد وهي تناديه: طل علينا ياجمال، فكان يخرج إليهم ويرد تحيتهم رافعا كلتا يديه.

وكان الرئيس جمال عبد الناصر يطلب من الجماهير أن تنصرف لأن البـرد يشـتد مـع وصول الليل، ولكن تجمعات الجماهير كانت تزداد، وفي مقال ثان بعنوان: «تقريـر مـن دمشق» بتاريخ 10 مارس 1958م كتب الأستاذ هيكل: لماذا سافر جمال عبد الناصـر الي دمشق غداة يوم الاستفتاء..؟ وقال: لو أن الذي حدث في دمشق روي لي من على البعـد، دون أن تتاح لي فرصة رؤيته عن قرب، ما كنت صدقته..! ولو أني حاولت أن أصـف مـا رأته عيناي في عاصمة الأمويين، لكانت محاولتي تجنيا صارخا على الحقيقة.

وتساءل الأستاذ هيكل، ما هو المعني الحقيقي لاستقبال جمال عبد الناصر في دمشق، هذا الاستقبال الذي نقلت الصحف ووكالات الأنباء والإذاعات من تفاصيله مـا يكفـي لأن يجعله ببساطة شيئا لم يحدث من قبل؟ معناه أن هذه الأمة كانـت تبحـث عـن بطـل فلما عثرت عليه، والتقت به وجها لوجه، تفجرت المشـاعر المكبوتـة في أعماقهـا منـذ قرون طويلة من الزمان، ذلك تقديري.

إن استقبال جمال عبد الناصر في دمشق، لم يكن استقبال سياسي أو قائد أو زعيم مهما كانت مساهمته في خدمة أمته، إنما كان استقبال جمال عبد الناصر أكثر من هذا.

لم يكن مجرد سياسي أو قائد أو زعيم، ذلك الـذي كانـت مئـات الألـوف يقفـون في ساحة الجلاء منذ الصباح الباكر الي ما بعـد منتصـف الليـل، ينتظـرون أن يخـرج إلـيهم لخمس دقائق أو عشر طوال فترة انتظارهم الطويل.

ولم يكن مجرد سياسي أو قائد أو زعيم، ذلك الذي كانوا يقبلـون للسـلام عليـه، ثـم يتطلعون الي وجهه، ثم تتملكهم نوبة من البكـاء! رأيـت شـيوخ القبائـل يبكـون، رأيـت الرجال يصافحونه بيد، وباليد الأخري يغطون وجوههم ليحجبوا عنـه الـدموع، رأيـت نساء وفتيات ما أن يقفن أمامه حتي يضيع منهن ما كن قد أعددنه ليقلنه له، ثـم لا يجـدن ما يسعفهن إلا البكاء وأيديهن ما زالت معلقة في يده..! التفسير الوحيد.، هو هـذا الـذي قلته: كانت الأمة العربية تبحث عن بطل فلما عثرت عليه كان ما كان.

لقد كان لهذه الأمة عزها ومجدها، وكان حلمهـا أن يجـيء يـوم، وأن يجـيء بطـل، ولقد أحسست في دمشق أن كل سجل جمال عبد الناصر من الأعمال، لم يكـن في مشـاعر الأمة العربية مجرد أعمال سياسية أو انتصارات وطنية، وإنما كانت هذه كلها في مشـاعر

الأمة العربية إشارات، إشارات معناها أن اليوم قد جاء، وأن البطل قد ظهر؛ ذلك هو تفسير استقبال جمال عبد الناصر في دمشق، ذلك هو تفسير الأساطير التي تروي اليوم عن جمال عبد الناصر في دمشق.

لماذا سافر جمال عبد الناصر بهذه السرعة الي دمشق..؟ لماذا طار إليها غداة يوم إعلان نتيجة الاستفتاء..؟

إن قائد المعركة رأي أن يذهب إلى الخط الأول، إن سوريا هي خط القتال الأول.

إن القاهرة هنا، لا يمكن أن تشعر بالذي تشعر به هناك دمشق؛ لسبب واحد تكفي لشرحه نظرة سريعة الي خريطة الشرق الأوسط وسوريا في وسطها.، الي شمال سوريا تركيا وعدنان مندريس، الي جنوبها اسرائيل ودافيد بن جوريون، الي شرقها العراق المناضل الذي يتحكم فيه نوري السعيد، الي غربها لبنان العربي الذي يريد بعض حكامه أن يحولوه الي وكر للمؤامرات وقاعدة للأساطيل الغربية، هذه غير حدود مشتركة، مع صاحب الجلالة.

ثم حدود مشتركة أخري مع صاحب الجلالة الآخر؛ كلها حدود ملتهبة يتربص فيها الخطر على سوريا.

وهكذا كان يجب أن يطير القائد بسرعة الي دمشق، ليعزز خطوط الدفاع من حول سوريا، ولقد كان هذا عملا واجبا، ولو قد حاول أحد أن يسأل: ما الذي جرى..؟ لماذا كل هذا الغليان المفاجئ في الشرق الأوسط..؟! لكانت الإجابة: لأن رجلا واحدا طار من مصر الي سوريا، ثم ربض في دمشق في وضع الاستعداد.

إن هذه أول زيارة لجمال عبد الناصر الي سوريا، ولقد انتخبه شعب سوريا رئيسا لجمهوريته دون أن يراه.

ثانيا : مئات الألوف وسط شارع واحد في الجزائر تجمعوا ليستقبلوا عبد الناصر:

وفي لقاء آخر لعبد الناصر مع الشعب العربي كانت زيارته للجزائر بعد استقلالها في يوليو 1962م، ويمكن بالطبع تصور مدي إقبال الشعب الجزائري لتحية من ساند

المقاومة منذ 1954م معنويا وعسكريا، ولذلك فإن حديث الأستاذ هيكل عن هذه الزيارة يجدد أواصر المحبة بيننا وبين الجزائريين، فقد كتب تحت عنوان عائد من الجزائر، بتاريخ 10 مايو 1963م ما يلي: موضوعي اليوم عن يومين في الجزائر! وكثير، كثير، حتي خلال يومين اثنين يستحق أن يكون موضوعا للحديث عن الجزائر؛ على المستوي الفردي وعلي المستوي العام، في المجال الإنساني وفي المجال السياسي.

وعلي المستوى الفردي والإنساني أشعر أن موقفين اثنين تركا على وجدًاني أثرا لا أستطيع أن أنساه.

الموقف الأول عشته وسط زحام ليس في مقدوري وصفه، مئات ألوف وسط شارع واحد في الجزائر تجمعوا ليستقبلوا عبد الناصر ويمدوا له أيديهم سلاما، وينادون بإسمه محبة، بحر من البشر، أمواج تتدافع على أمواج، وهدير عاصفة كأن قوي الطبيعة الغلابة كلها تجمعت فيها.

ووسط البحر الطاغي وقف عبد الناصر ومعه بن بيللا وهواري بومدين، ومن حولهم نطاق من جنود جيش التحرير في وقفة أخيرة مستبسلة، وقال هواري بومدين: في هذا الشارع كان خمسة آلاف من جنود جيش التحرير يتولون مسئولية النظام، لكن محبة الناس أقوي من جيش التحرير ومن النظام.

ووسط العاصفة الرائعة برزت من الخضم الهائل شابة ترتدي السواد، ومعها طفل صغير راحت تخلصه من الزحام وتحاول أن تجتاز به النطاق الأخير من حول عبد الناصر وبن بيللا وبومدين، وقبل أن يشعر أحد، كانت الشابة قد اقتحمت طريقها الي النطاق الضيق الذي وقف الثلاثة فيه، وتقدمت إليهم، ورفعت رأسها بكبرياء حزين وقالت لعبد الناصر: قبل هذا الطفل ياسيدي، واستطردت تقول: لقد مات أبوه من أجلك، قتلوه تحت رايتك، طارده المستعمرون وهو يحمل علما للجمهورية العربية، وظلوا وراءه حتي أفرغوا فيه رصاصهم.

واستطردت الشابة لابسة السواد: كان أخي يا سيدي، وهذا ابنه، وأنا أريدك أن تقبله، وأعلم أن ذلك سوف يرضي الشهيد، وخانها الكبرياء وارتجف صوتها بالدموع وسط العاصفة الرائعة من حولها وهي تكرر: قبله يا سيدي، مات أبوه من أجلك، وقتلوه

تحت رأيتك.

ورفع جمال عبد الناصر ابن الشهيد يقبله، وأحاط الطفل صديق أبيه بذراعيه الصغيرتين.، وكانت الشابة لابسة السواد الحزين ما زالت تبكي، ولأول مرة في حياتي، رأيت في عيني عبد الناصر الدموع.

ومرة ثانية خلال يومين اثنين في الجزائر كان ما أشعر به أكثر من مجرد الانبهار وأبعد وصولا الي قرار النفس- حين وقف أحمد بن بيللا في الساحة الواسعة التي عقد فيها المؤتمر الشعبي الكبير، الذي تكلم هو فيه، وتكلم بعده جمال عبد الناصر.

كانت ساعة غروب، والسماء مزدحمة بسحب مكهربة يتصادم فيها الرعد وتلمع البروق ويتدفق المطر، وكانت الأبنية العالية الصاعدة على سفح الجبل الأخضر المطل على الساحة الواسعة تشع النور من نوافذها وشرفاتها، وآلاف البشر يطلون منها وآلاف الأعلام أمام الرياح وتحت الأضواء مدلاة على جدرانها.

وحين بدأ أحمد بن بيللا حديثه، ترك عشرات الألوف من الحاضرين مقاعدهم تحت المظلات، وتقدموا الي أرض الساحة المكشوفة تحت سيل المطر لا يكاد أحدهم يلقي بالا إليه.

ثم راح بن بيللا يتكلم عن عبد الناصر، عن الأخ الأكبر، وقال بن بيللا ما لا يقوله إلا رجل كبير، قال: إن الجزائر كانت تناضل وتنتظر شيئين: يوم الاستقلال، ويوم يزورها عبد الناصر، وقال إن الجزائر لم تشهد يوما كيوم وصول عبد الناصر، حتي ولا يوم الاستقلال.

وقال: أريد أن يسمعها الجميع لا أستثني منهم أحدا، في وقت الأزمة وقبل أن تكون هناك ثورة، لم نجد شرقا ولا غربا الي جانبنا، لم نجد إلا رجلا واحدا هو جمال عبد الناصر.

وقال: يوم كان في الجزائر جزائريون لا يرون احتمالا للنصر، ويوم كانت الأحزاب كعادتها- تتصارع من أجل الكسب السياسي، وجدت في القاهرة رجلا لم يتردد لحظة في أن يضع كل الإمكانيات المادية والمعنوية لمصر تحت تصرف ثورة الجزائر ومن أجل نصرها. وقال: لقد تعرضت مصر للحرب، وبين أسباب المعتدين عليها موقفها من

الجزائر، وأن الدم الذي سال في بورسعيد ربط مصير الجزائر بمصر والي الأبد.

وقال: إن من يريد أن يستفيد عليه أن يرجع الي التاريخ والتاريخ القريب وليس البعيد.، ارجعوا الي التاريخ وهو ينطق بحروف من نور، ونحن نقول لهم بصراحة إننا في هذه البلاد نعرف هذا التاريخ ونعلنها صراحة؛ أنه لا يوجد إنسان خلصنا ونصرنا إلا جمال عبد الناصر.

ونحن نقول لمن يريدون استغلال هذه البلاد في مناوراتهم التي ترمي الي تفكيك العرب والوحدة العربية.، نقول لمن يدبرون هذه المناورات: هيهات.، هذا البلد بلد عربي، وهذا البلد يعرف قدر مصر، وقدر جمال عبد الناصر في حرب التحرير.

ثالثا: احتفال الجلاء عن بنزرت:

وتحت عنوان 30 ساعة في بنزرت، كتب الأستاذ هيكل في 20 ديسمبر 1963م، عن هذه المدينة التونسية الجميلة التي كانت قاعدة عسكرية للاستعمار الفرنسي ما يلي: عشت هذا الأسبوع ثلاثين ساعة في بنزرت، وكل ما في ينبض بقوة وعمق مع كل ما فيها، وكأن هذه المدينة الجميلة على الروابي التونسية الخضراء، النازلة الي خلجان البحر الأبيض المتوسط، قد اكتسبت من تاريخها الحافل قدرة غير عادية على التأثير..!

وفي العصر الحديث ضربت بنزرت بالقنابل مرتين، ضربها الفرنسيون بالقنابل من البحر في القرن الثامن عشر تخويفا لها وإرهابا، بينما فرنسا تتحفز وتتحين الفرصة للانقضاض عليها بالاحتلال! ثم ضربها الفرنسيون أيضًا للمرة الثانية وبالقنابل، ولكن من البر هذه المرة في القرن العشرين- سنة1961- وكان ضربها للمرة الثانية غيظا وحقدا، بينما فرنسا تتراجع والعلم الفرنسي يطوي من سارية بعد سارية فوق شمال إفريقيا..!

وكان الحبيب بورقيبة من جانبه مصرا على أن يحضر عبد الناصر احتفال الجلاء عن بنزرت، وأذكر في لقاء بينه وبيني في بلجراد في أعقاب الأزمة، في شهر سبتمبر 1961م، أنه كان يتطلع الي ذلك اليوم ويدبر له، ولو في خياله وقتها، ما زلت أذكره يومها وهو يقول لي خلال مناقشة عنيفة، ونحن نتناول الإفطار معا ذات صباح في البيت الذي كان يقيم به في بلجراد: سوف يتحقق الجلاء عن بنزرت، وسوف أدعو جمال عبد الناصر

لحضوره، سأطلب منه أن يجيء بالبحر - بالباخرة الحرية- ويدخل الميناء.

وتحقق ما أراده بورقيبة مع بعض الخلاف في التفاصيل، بدل الباخرة، وصل عبد الناصر بالطائرة، فقد كان على عجل بسبب موعد سابق بينه وبين شوين لاي، لكنه من جانبه هو الآخر كان متحمسا لقبول الدعوة وحضور احتفال بنزرت.

وفي يوم بنزرت، على مائدة غداء في نادي الضباط، المواجه لعمارة الأدميرالية الفرنسية القديمة، والمطل على الخليج الفسيح الذي تبدو منشآت القاعدة الفرنسية البحرية السابقة عند طرفه، تلفت الرئيس بورقيبة حتي عثر على جالسا الي مائدة قريبة، وقال الرئيس بورقيبة للرئيس عبد الناصر الجالس بجواره على مائدته: ها هو هناك، ثم التفت الي الرئيس عبد الناصر وقال له: بيني وبينه حساب طويل..!

وقال الرئيس عبد الناصر ضاحكا: لا شأن لي بحسابكما، أنتما صديقان من قديم، وبينكما مناقشات متصلة لم أتدخل فيها ولا أريد أن أتدخل..!

واستدار الرئيس بورقيبة الي الرئيس بن بيللا الجالس بجواره على الناحية الأخري يقول له: كان دائما يهاجمني.، ويتجني علي..!

رابعا: هذه هي الحقيقة الآن في اليمن:

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ هيكل مقالا في 1 مايو 1964م؛ يصف استقبال الشعب اليمني الرائع لجمال عبد الناصر في صنعاء وتعز كالتالي: لقد كان يجب أن أبدأ بالصور الباقية، والتي سوف تبقي الي زمان طويل في ذاكرتي، من مشاهد هذه الرحلة.

لقاءات جمال عبد الناصر- على سبيل المثال- مع جماهير الشعب اليمني، من سكان المدن وأهل القبائل في شمال اليمن وفي الجنوب، حين كان عبد الناصر يبدو وسط زحام البشر كأنه شراع وسط البحر الواسع الممتد.

ولقد كان كل الذين يراقبون الصورة الحية والرائعة لا يصدقون ما يرون، وأذكر مرة في ميدان التحرير بصنعاء، وجمال عبد الناصر محاط وسط الميدان الفسيح بعشرات الألوف، أن جورج ماك آرثر- مراسل وكالة الأسوشيتدبرس العالمية- قال منفعلا وعينه على الصورة الحية الرائعة أمامه: رباه.، أليس هناك مسئول واحد عن الأمن، يقول

لهذا الرجل إنه مهما بلغت ثقته بهؤلاء الناس الذين ترك نفسه وسطهم، فليس ينبغي له أن ينسي أن كل واحد منهم- بحكم تقاليد اليمن- يعلق على كتفه بندقية ويحمل في وسطه خنجرا!

وصورة باقية أخري- على سبيل المثال- حين دخل جمال عبد الناصر الي نادي ضباط الطيران في صنعاء، كان وسط خلاصة الخلاصة من شباب مصر، وكانوا جميعا رموزا مدهشة للشجاعة والشباب، وحين دخل الي القاعة الكبيرة من ناديهم كان ترحيبهم به خمس دقائق متصلة من التصفيق الذي لا يهدأ ولا يتمهل.

وتحدث إليهم بعد العشاء وكانت جوارحهم كلها معه، ثم تحدث الرئيس السلال إليهم ليقول لهم إنهم وطائراتهم كانوا أمله في الأيام الأولي من المعركة، وإنه يأسف إذ ضايقهم بالبقاء في قاعدتهم الجوية في الروضة، يتابع مع الساعات نشاطهم فوق جبهات القتال المتعددة.

ثم صورة ثالثة- على سبيل المثال- في منظر دخول جمال عبد الناصر الي مدينة تعز، كانت الصورة لا تكاد تصدق، كأنها لوحة تاريخية لتلال القدس تستقبل قديسا عائدا إليها، إن تعز فيها الكثير من الشبه بالقدس، والطريق إليها مثل الطريق الي القدس يمتد على الوادي بين التلال التي تتناثر فوقها الخضرة، وحين اقترب جمال عبد الناصر من تعز، تدفق أهلها على سفوح التلال متدافعين إليه على الطريق في قلب الوادي، وكانت طبولهم تدق، ودعاؤهم وصلواتهم تتجاوب مع دقات الطبول، وأشكال القادمين على السفوح وأزياؤهم، هي أشكال وأزياء قرون طويلة مضت، وحتي سحب الغبار التي أثارتها الأقدام الزاحفة الي قلب الوادي كانت لونا مؤثرا في لوحة التاريخ العظيمة عند دخول تعز.

خامسا: استقبال عبد الناصر المذهل في السودان في 26 أغسطس 1967م:

بحثت في مقالات الأستاذ هيكل في هذه الفترة عن وصف لهذا الاستقبال، فلم أجد! وعندما استعرضت كتاباته كلها عن مؤتمر القمة العربي في الخرطوم؛ وهو أول تجمع لملوك ورؤساء العرب بعد هزيمة يونيو 1967م، أدركت على الفور أن تلك كانت مناسبة للمسئولية والعمل الشاق الذي نيط به تحديد مستقبل الأمة العربية كلها، أما

الاستقبال فقد كان جماهيريا عفويا، أعتقد أن الأستاذ هيكل تخطاه عن قصد ليركـز عـلى استـراتيجية العمـل العربـي، وخاصـة أن المواجهـة العسـكرية بـين القـوات المصـرية والسعودية في اليمن كانت مستمرة.

وهنا لي تعليقين:

أولا: أن صحافة العالم وصفت هذا الاستقبال منقطع النظيـر في صـفحاتها، وأبرزهـا مجلتا التايم والنيوزويك.

ثانيا: كان لاستقبال شعب السودان لعبـد الناصـر اسـتقبال الأبطـال؛ أثـر كبيـر عـلى نفسيته، شعرت به فور وصوله عائدا الي القـاهرة في أول سـبتمبر1967م؛ مبتسـما ربمـا أيضًا بسبب نجاح المؤتمر عربيا وعالميًا.

ولعل كلمات عبد الناصر ذاتها تلقي الضوء على الأثر الذي تركه الشعب السوداني في نفسه، وذلك حين زار السودان في أول يناير1970م بمناسبة يوم استقلاله:

حينما جئت إليكم هنا في أغسـطس سـنة 1967م بعـد الهزيمـة وفي هـذه المواقـف الصعبة، كنت أتساءل وأنا أصل الي مطار الخرطوم، ماذا سيكون عليه الحال حينما أقابل هذا الشعب الشقيق، هذا الشعب الوفي، هذا الشعب المقاتـل المناضـل المكـافح، هـذا الشعب الطيب..؟ وحينما وصلت الي عاصمتكم المجيدة، حينما وصلت اليكم في هـذا اليوم رأيت شعب السودان البطل يعطيني من الأمل في المستقبل كل ما يمكن أن آخـذه، كل ما يمكن أن أحلم به، رأيت- أيها الإخـوة- شـعب السـودان البطـل وقـد وقـف في الطرقات من الصباح الي المساء حتي وصلنا لنحضر مؤتمر الخرطوم، وكان الشعب كله ينادي بالتصميم على النضال، بالتصميم عـلى الصـمود، بالتصـميم عـلى الوقـوف حتـي النصر.

وبعـد ذلـك- أيهـا الإخـوة- عـدت الي القـاهرة بعـد مـؤتمر الخرطـوم وخرجـت المجلات الأجنبية وقالت الشعب.، الشعب في الخرطوم يهلل للمنهزم! وقلت في نفسي في هذه الأيام، إن هذا الشعب لم ينهزم وإنما كان يعبر عن إرادة الأمة العربية، وإننا حينما فقدنا المعركة في هذه الأيام، لم تكن أبدا هذه هي المرة الأولي في التاريخ التي يفقـد فيهـا شعب معركة ثم ينتصر بعد ذلك، إذا صمم وإذا أراد، وكانت نظرتكم في هـذه الأيـام في

أغسطس سنة 1967م، وكانت تعبيراتكم لم تقنعني أنا فقط، ولكنها أقنعت العالم أجمع أن الشعب العربي سينتصر.

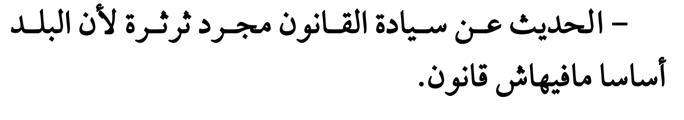
من هنا من الخرطوم في سنة 1967م، في أغسطس سنة 1967م تنبأ العالم أجمع أن الأمة العربية ستصمد، ومن الذي أعطى للعالم أجمع الفرصة حتي يتنبأ..؟ أنتم شعب السودان البطل الذي لم يتأثر بالهزيمة، الذي لم يتأثر بالانكسار، الذي لم يتأثر بأن الأمة العربية فقدت جيوشها، فقدت سلاحها، والذي أثبت للعالم أجمع أن المسألة لم تكن مسألة السلاح فقط ولكنها أيضًا مسألة الإيمان، وكنتم بإيمانكم القوة التي سرنا بها من 1967م حتى الآن، ونحن نعلم أن ما ظهر بينكم هنا في الخرطوم إنما هو تعبير عن الأمة العربية كلها.

لقد كان ذلك جزءا بسيطًا جدًا مما أردت أن أعرضه في موضوع اليوم، ولكن ما يطمئنني الآن أن أصبحت مقالات بصراحة للأستاذ هيكل متاحة للجميع عبر الانترنت، وبالتالي فإن المزيد أصبح في متناول اليد.

▪▪ تسجيلات عبد الناصر السرية : نظام الحكم المقفول أدى إلى الهزيمة (1)



1918 - 1970



– الحديث عن سيادة القانون مجرد ثرثرة لأن البلد أساسا مافيهاش قانون.

– إذا استمر هذا النظام بهذه العيوب ستنتهى البلد إلى كارثة، العيب في النظام.

– المستقبل غامض لأن في قوى كتير متصارعة والسؤال هو: كيف تصنع النظام السليم الذي يؤمن البلد..؟

– المعارضة يجب أن تكون انعكاسًا لرأي الشعب، والدولة تحولت إلى مناطق مستقلة.

– طالما أن من في السلطة لا يحاسبه أحد فسندخل على مرحلة فساد وقد نكون دخلناها بالفعل.

– هنا نطق جمال عبد الناصر بأصعب جملة يمكن أن يتفوه بها حاكم بعد الهزيمة: كنت متصور إن الناس تطلع وتضربنا بالجزمة لأننا عملنا عملة ما تستاهلش غير الجزمة، سكنت هذه العبارة أحد شرائط محاضر مجلس الوزراء برئاسته يوم 2 أغسطس 1967م في قصر القبة وبقيت في مقابر السرية

(1) عادل حمودة: جريدة الفجر، العدد (632)، بتاريخ 14 سبتمبر 2017م، ص2، 3.

أكثـــر من نصف قرن رغم أهميتها في تقييم ما حدث والاستفادة منه قبل أن يصبح تغيير النظام (أو السيستم) على حد قوله أمرًا لا مفر منه.

- البلد فيها عصابات استغلت الحراسات لصالحها وهددت باعتقال الأبرياء وجعلت الوزراء يطيحون في الشعب.

- قوانين البلد متخلفة وعاجزة عن مسايرة التطور الاجتماعي وعن حقيقة العلاقات داخل المجتمع.

- المعارضة في مجلس الأمة جبانة ولا تستطيع أن تقترب من أخطاء الكبار.

في تلك اللحظات المؤلمة بدت مصر أمامه جثة مذبوحة يسيل دمها بطول النيل من الإسكندرية إلى أسوان، وكانت سيناء مثل أسورة من الذهب والفيروز تبخرت من بين يديه قبل أن يجد جيشا يحميها من الاختطاف، وكان الحزن هو المواطن الوحيد المسموح له بحق البكاء أو الانتحار.

هنا نطق جمال عبد الناصر بأصعب جملة يمكن أن يتفوه بها حاكم بعد الهزيمة: «كنت متصور إن الناس تطلع وتضربنا بالجزمة لأننا عملنا عملة ما تستاهلش غير الجزمة».

سكنت هذه العبارة أحد شرائط محاضر مجلس الوزراء برئاسته يوم 2 أغسطس 1967م في قصر القبة، وبقيت في مقابر السرية أكثر من نصف قرن، رغم أهميتها في تقييم ما حدث والاستفادة منه قبل أن يصبح تغيير النظام (أو السيستم) على حد قوله أمرًا لا مفر منه.

لكن السؤال: هل تغير السيستم في وجود عبد الناصر أو بعد رحيله بعشرات السنين فعلاً..؟ لنقرأ ما جاء في المحضر الذي ينشر لأول مرة بعد نصف قرن ربما نجد إجابة.

عبد الناصر: أنا كنت شايف عيوب في الفترة اللي فاتت، عيوب كثيرة، أولها إن المجتمع بتاعنا مجتمع مقفول، العمل السياسي كله عمل سياسي سايح وده بيوجد عيوب ولا يوجد تضامن.

بعد 15 سنة من الثورة وإحنا دلوقت بنمثل جيل في آخر مراحله هل السيستم

صح..؟ على الورق صح، ولكن لما بتيجي على الطبيعة بتلاقيه مش صح؛ لأن هناك صراعات في كل حتة في داخل الاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي الوحيد).

والنقطة الثانية: ما مستقبل هذا النظام..؟ علينا قبل ما نخلص دورنا في الحياة أن نضمن أن يكون النظام سليمًا مش شخص ولا أشخاص، وبهذا نبقى عملنا حاجة ولا بنضيع، بنبص نلاقي الدنيا كلها ضايعة في الهواء، واللي يقدر يخبطها يخبطها بالبساطة كده وييجي اللي يقول أنا استمرار للنظام ويدوق البلد العذاب.

لابد إن المجتمع بتاعنا يبقى مجتمع مفتوح، أو العمل السياسي بتاعنا يبقى عمل سياسي مفتوح؛ لأن لما ييجي حد النهاردة ويهاجم سيد مرعي «وزير الزراعة والإصلاح الزراعى»، وقد أكون أنا مقتنع إنه مخطئ بادافع عنه ليه لازم..؟

لما ييجي حد ويقول لى: إن ده خد بيت من الحراسة، وده خد عفش حصل حاجات كتير الناس بتتكلم، كان إيه؟ بادافع عن هذا التصرف وقد لا أكون مقتنعًا أبدا به.. ليه..؟ طالما الناس اللي في السلطة حاسة إن ما فيش حد هيقول لهم: إنتم بتعملوا كذا..؟ أنا في رأيي هندخل أو دخلنا على مرحلة فساد وهندخل على مرحلة أعلى.

ورغم إن إحنا عندنا القوة وأنا بالذات عندي، إننى أقدر أعمل اللي أقدر أعمله، لكن في أوقات فيه حاجات ماكنتش بأقدر أعملها، إذا فيه عيب في السيستم، فيه عيب كبير جدًا، وهو العملية المقفولة اللي مشيت واتخذت ذريعة لكل واحد يعمل في وزارته زى ما هو عايز.

طب أنا هاحاسب مين ولا مين..؟ ولا أنا عارف جاري إيه في وزاراتكم..؟ أنا ما أعرفش وإن عرفت يا سماعي يا تقارير مخابرات والمخابرات هايجيبوا منين..؟ من واحد باشكاتب عند سيد مرعى مثلاً، ولو كان صديق سيد مرعى وده مايرحلوش، أو قد يكون ناقمًا عليه جدًا وده اللي يروحوله، عادة بتوع الداخلية وبتوع المخابرات عشان يجيبوا منه التقارير ويقولوا: جت لنا معلومات بالشكل ده.

وبعدين في مجلس الأمة برضه ما حدش هيجرؤ يقف يقول إن سيد مرعي عين قرايبه وجاب ناس من العزيزية ولا اسمها إيه..؟

سيد مرعي: العزيزية يا فندم.

عبد الناصر: أكتر من كده يقولك: ما هو سيد مرعي، هانتكلم عن سيد مرعي..؟ لكن يطلعوا يتكلموا بره في مجالسهم الخاصة ويكبروها، وبرضه تحت ستار المجتمع المقفول، الناس بتتخوف والناس ممكن تتهدد، وزي ما حصل في وزارة ثروت عكاشة «الثقافة» إن واحد راح قال للناس: هاعتقلكم، وهو ما عندوش سلطة الاعتقال، ولا ثروت عكاشة نفسه عنده سلطة الاعتقال، ولا علي صبري عنده سلطة الاعتقال مش كده..؟

صوت: أيوه..

عبد الناصر: لكن الناس خافت وصدقوا إنه ممكن يعتقل، وزي الناس اللي برضوا بيروحوا وبيقولوا: إننا ممكن نفرض حراسة وممكن نعمل ونسوي إلى آخر هذه المعاناة، وفيه حاجات كتيرة جدًا حصلت في السنوات الأخيرة، الناس بقى عندها حساسية إنها تتكلم، وفي مجلس الوزراء الناس عندها حساسية، وفي برة مجلس الوزراء ما حدش، يعني الواحد ممكن يكلم زميله لكن ما يتكلمش، هذا عيب كبير موجود.

أنا كنت بفكر إن لا بد من أن تكون هناك معارضة منظمة، معارضة منظمة للحكومة، يعني معارضة حقيقية، المعارضة الفردية اللي موجودة في مجلس الأمة معارضة هزؤ جدًا، ولا يمكن أن تؤدي الغرض، وأيضًا معارضة جبانة لا يستطيع أحد منها نظرًا لأن النظام مقفول يقول إن أنا شايف سيد مرعي عين ناس من العزيزية، وجاب أهل بلده وما فيش عدالة في الحتة دي، أنا بأقول ده على أساس إن الكلام معاك يعني «ضحك».

سيد مرعى: أيوه..

عبد الناصر: وفيه جبن الحقيقة، في مجلس الأمة فيه جبن، الحقيقة السيستم اللي ماشى بيه الحكم لو استمر بهذا الشكل ما اعرفش البلد هتقع في إيد مين بعد كده، يعني ممكن البلد يبقى فيه فظائع أكثر من الفظائع التي نسمع عنها في أمريكا اللاتينية.

هذا الكلام حصل معايا أنا، وما حدش هاييجي بعدي أقوى مني، وأستطيع أعمل أي شيء والبلد تقبل فما بالكم بالمستقبل..؟ يعني الدولة تحولت إلى مناطق مستقلة، والواحد كان شايف الصورة اللي ماشية وأهو كل واحد متشبث بمنطقته المستقلة، وكان

فيه مشاكل كثيرة في الفترة اللي فاتت دي تعبتني جدًا ماكناش بنتكلم وماكانش حد اتكلم عليها، ولكن أنا شايف الصورة قدامي أسوأ.

قدامنا فرصة النهاردة نصلح كل هذه العيوب، وبتكون المهمة بتاعتنا إن إحنا البلد اللي ادتهولنا يعني لازم نديها قصاده حاجات كتير جدًا، ولا إيه يا دكتور قيسوني..؟

عبد المنعم القيسونى «وزير التخطيط»: أيوه.

عبد الناصر: لازم الحقيقة نحط للبلد النهاردة نظام وهذا النظام يؤمن البلد من أي عصابات، فيه عصابات في الدولة أو مغامرات، وبعدين لازم نحط نظام بيخلي كل واحد عارف إنه لو غلط هذا الغلط الناس هيقولوه: إنت غلطت أنت ليه ما عملتش كده..؟ لكن النهادرة قد تسول للواحد نفسه إنه يعمل حاجة وهو حاسس إنه هينفد بيها في الظلام، وفي هذا النظام المقفول.

وبنقول سيادة القانون، مهما قلنا، ما أنا قلت في خطبي سيادة القانون قبل ما تقولوها، يعني قبل ما يقولها عصام «عصام حسونة وزير العدل» في المجلس، مش كده..؟

وبعدين نيجي تاني نقول: لا عايزين سيادة القانون، ده مفيش قانون، بيطردوا الناس من أراضيها، وده مثل صغير على موضوع سيادة القانون، فيه أمثله أصرخ من هذا المثل بكثير، وممكن نقعد نقول النهاردة وبكره وبعده، السيستم اللي إحنا ماشيين بيه سيادة القانون ولن تكون سيادة للقانون أبدا، وممكن إن إحنا بنقول: نحرر الناس من الخوف، وتحرير الوطن والمواطن ولا يمكن، كل الناس خايفة ولا يمكن نحررالوطن والمواطن.

لابد أن تكون هناك معارضة، ميزة المعارضة أنها حتصطاد لك الأخطاء، لو مشينا في السكة اللي ماشيين فيها بنبقى لبسنا البلد مصيبة كبيرة وجنينا عليها، طالما إحنا ما بنتحاسبش على أي أخطاء منا، كل واحد سالك طريق الخطأ سواء اللي قاعدين هنا أو اللي برة، كل واحد سيجد طريق الخطأ لذيذًا وكويس وقد ينقاد فيه، ولكن إن وجدت معارضة حقيقية كل واحد عامل حسابه إن هذه المعارضة خطر على وجوده في الوزارة وفي العمل السياسي، وإنه لو راح عمل العملية الفلانية يتفضح تاني يوم في البلد.

النهاردة أي واحد فيكم يقدر يعمل أى حاجة والجرايد ما تكتبش ولا حدش يكتب، ولا

حدش يجرؤ في مجلس الأمة إنه يعمل حاجة، انا أعتبر ده الموضوع الأساسي في البلاد.

عبد العزيز السيد «وزير التعليم»: من الطبيعي إن أي نظام يعتمد على أشخاص مهما كانوا صالحين، نظام مقفول سيؤدي إلى نفس النتيجة اللي بتقولها سيادتك، لكن من جهة أخرى نظام الحزب الواحد بيؤدي إلى هذا، ما نقدرش معاه نعمل نقد أو حرية أو غيره إلا على حالات فردية وده يئول في الآخر إلى ديكتاتورية بعض الأشخاص.

المعارضة ما بتتخلقش، يعني ما تقدرش في نظام الحزب الواحد تخلق معارضة لمجرد إن عايزين معارضة، فالسؤال الأساسي: هل يمكن داخل الاتحاد الاشتراكي خلق حزبين..؟

هل ممكن هذا..؟ إذا أمكن هذا تقدر تخليه نقطة البدء، وشعور الناس بأنها تقدر تغير الأشخاص، وتقدر تغير الأجهزة ضرورة؛ لأن أمن الناس وحريتهم في الحقيقة إنهم يقدروا يشيلوا ويغيروا هذه الوزارة وهذا الحزب ويجيبوا التاني؛ لأن ده أصلح والاثنين في النظام الاشتراكي هل ده ممكن..؟

سيد مرعي: اللي حصل في 9 يونيو (تظاهرات طالبت بعودة عبد الناصر بعد تنحيه) بيلقي مسئولية كبيرة على سيادتك شخصيا، وأنا شفت مناظر كتير في هذا اليوم بتدل على شعور قوي جدًا، ولابد أن يكون لها تأثير وتغيير جوهري، مش الخروج على النظام الاشتراكي بطبيعة الحال إنما بتوفير جو صحي أكثر ملاءمة لقوى الشعب العاملة، من عامل، إلى مدير شركة، إلى رئيس مؤسسة، وما أخفيش على سيادتك إن كل الناس منتظرين اللي حاتعلنه سيادتك من خطط للمستقبل.

وأنا لا أنكر أن الاتحاد الاشتراكي قام بمجهود كبير في الريف لكن ليه ما شدش الجماهير كلها إليه..؟ ليه مجلس الأمة ما شدش الجماهير كلها إليه..؟ الشد العاطفي اللي كنا بنشوفه زمان أيام حزب الوفد لما كان الفلاح الصغير مشدودًا إلى الوفد بإيديه ورجليه وبسنانه، وبيطلع يتظاهر وبيعمل كل حاجة بينما كان لما نحلل سياسة الوفد مثلا ما نجدش إنها كانت بتنعكس على حياة الفلاح أو العامل بصورة من الصور ومع ذلك كان مشدود، كل منظماتنا الجماهيرية ما بتشدش الناس.

وبعدين برضه صورة أخرى، الإخوان كانوا بيحركوا البلد قبل الثورة من أولها إلى

آخرها، بس ده كان بسبب عامل الدين وبالمناسبة شعبنا متدين وبيعتقد إن ده مدخل من المداخل السليمة إليه وبيتأثر بيها تأثر كبير، ولو كانت الانتخابات اللي تمت حرة، طب ليه ما شدتش الجماهير إليها..؟ ليه الجماهير بعدت عن هذه العملية..؟

أنا باضرب مثل من غير زعل فليه..؟ لأنه أتوجد نوع من المجالس عزل الناس عن متابعة ما يجري فيه، وهنا أسأل: هل الأحسن إن إحنا نكون حزبين..؟ واحد منهما على الأقل ينتقد الوزراء رغم حساسيتهم للنقد.

لكن كيف توجد المعارضة وتنظيمها..؟ ما هي المعارضة سلاح ليه حدين؛ لأن قد تكون المعارضة إذا كانت مطلقة فاسدة، وقد يكون غرضها التجريح فقط، وبالتالي بتنعكس على النمو الكبير اللي تم في 15 سنة، والتجريح غالبًا ما يكون شخصيًا، أو يكون تجريح الموضوع وسيلة لتجريح الشخص ودي بنشوفها في إنجلترا نفسها.

يبقى لابد إنه داخل الاتحاد الاشتراكي يكون فيه حزبان كاملان، ويكون خلافهما على موضوعات معينة ظاهرة، الخطورة اللي جعلت النظام مقفول إن الشخص يتروي قبل ما يتكلم؛ لأنه لو قال رأيه ربما يتهم بأنه رجعي أو رأسمالي، وأصبحت موضة إن الأكثر تقدمية هو الأكثر يسارية إلى حد أن أحدهم وزع مجلة عسكرية سورية فيها إن الدين معوق للتقدم، ده موجود وله آثار خطيرة.

والحقيقة إننا في الاتحاد الاشتراكي حزبين مش حزب واحد، لكن حزب بيتكلم وحزب خايف يتكلم، ولو اتكلم الصامتين سنجد معارضة قوية لكن ليست من أجل المعارضة.

فاضل نتكلم عن حق الفرد تجاه الدولة، قبل الثورة لو جت حكومة وفصلت موظفًا كان بيلجأ إلى مجلس الدولة ليحكم في صالحه وبعودته، ولكن بعد الثورة تراجع ذلك، أنا باشوف إن تدعيم مجلس الدولة ضرورة، محكمة تضمن حق الفرد تجاه الدولة أمر مهم جدًا حتى يطمئن الناس، المحكمة فيها مستشارون بيحكموا بالقانون ولا يمتون للحكومة بصلة.

ونأتي لنقطة مهمة أخرى اللي هي ديوان المحاسبات، ديوان المحاسبات لما كان تقريره بينزل مجلس الأمة كان بيبقى زى المولد في المجلس، وأنا حضرت وشفت يعني الناس تتلقف التقرير وتدرسه، والجرايد تكتب فيه أيام عريضة طويلة، والوزراء يقفون

يردون على التقرير ويفندوه؛ لأن مش كل اللي هيكتبه ديوان المحاسبات بيبقى صحيح، إنما الوزير بيرد عليه وبعدين بيطرح في نقاش عام، لكن منذ فترة لم يعد التقرير يصل المجلس وربما ضاعف ذلك من حجم الفساد.

وده أحد أسباب إن الوزير طايح في وزارته زى ما سيدتك قلت، وهناك أسباب أخرى، منها إن عليه تنفيذ تكليفات في الخطة ولكن بطريقة بيعتقد إنها صح، ومنها إن عدد أطقم الموظفين أكبر من حاجة العمل، وبعدين ما كان في مجلس الوزراء اجتماعات زي اللي بتحصل النهاردة وده خلى الوزير طايح، وهنا برجع إلى ضرورة توفير مناخ صحي حتى يستريح الناس، الشعب بيعتبر سيادتك مسئول 100٪ والمسئولية زادت عن الحد لدرجة كبيرة، أي غلطة في الوزارة ما بيلمونيش عليها وإنما بيتكلموا على سيادتك فورًا.

وبعدين المسئولية تبلورت بصورة أقوى بعد 9 يونيو، سيادتك مهما أعطيت الشعب من حرية أنت بالذات لا يمكن أن ينكرها عليك أى واحد منا، أي واحد بينتمي للنظام ومش عارف يبقى جماهيري أو شعبي بيحملك مسئولية كبيرة جدًا، وبيتعبك معاه تعب طويل وعريض، وكلامي أيضًا بينصب على جميع الإجراءات التي قد تتخذ، أي إجراء حتى باعتقال شخص.

عبد الناصر: لابد أيضًا من دعم مجلس الأمة.

سيد مرعى: مجلس الأمة فيه خمسين في المية عمال وفلاحين، ولكن اقعد سيادتك تلاقيهم مالهمش علاقة بالفلاحين، لن تسمع الحقيقة إلا من الفلاحين في القرى وليس الفلاحين في مجلس الأمة، طب ليه..؟ لأن فلاحين المجلس لوناهم، يعني مسكنا فرشة ودهناهم بوية، مابقاش عارف هو بيمثل الفلاحين، ولا عارف هو بيعبر عن مين..؟ وابتدى يفكر بتفكير سياسي إن الكلمة دي هتغضب الوزير أو لا تغضب الوزير، وده أسباب ضعف مجلس الأمة.

عبد المحسن أبو النور «وزير استصلاح الأراضى»: مبدأ إن يبقى فيه أكتر من حزب ده مرتبط في الواقع بأهداف أكثر ما تكون نقطًا أو مسالك أو أسلوبًا، النظام مبني على أهداف معينة، أهداف اشتراكية ومفيش خروج على هذه الأهداف، فإذا اختلفنا بنختلف على قدر تنفيذ هذه المبادئ، لكن وجود أكثر من حزب ينقل الاختلاف إلى أي هذه

المبادئ، وكده العملية هتتسرسب مننا، ولن تكون علاجًا، حزبين قصاد بعض.

لكن النقطة اللي مسها الأخ سيد مرعي مهمة إن النواب الذين يمثلون الشعب في القرية أو في المصنع انعزلوا عن بيئتهم، وانفصلوا عن الجهة اللي بيستمد منها المشاعر الحقيقية، أنا بيتهيألي إن إحنا مشكلتنا عاوزين يبقى فيه الرأي معبر، هو في الواقع يجب أن يكون ترديدًا لرغبات الشعب، وهي دي في النهاية لو عرفنا نتجه نحو التجاوب الحقيقي للشعب في جميع الاتجاهات.

بدل ما نعمل حزبين قصاد بعض ما نعملها عملية رأسية، من خلال المجالس الشعبية المنتخبة نقدر نجمع آراء الناس، وكده نكون بنعرف رغبات الناس من الجذور، بعد ما نفتح لهم مجال الرأي ومجال الفكر ونوسع الصدور.

هذه المجالس المنتخبة هتساعدنا في بلورة المشاعر الحقيقية، وتربط ما بين الاتحاد الاشتراكي ومجلس الأمة، ويبقى أخذت الرأي السليم من القاعدة دون أن أخل بمبدأ الالتزام.

عبد الوهاب البشري «وزير الإنتاج الحربي»: بالنسبة يا فندم لنقطة المعارضة في الحقيقة سيادتك أكدت في أكثر من خطاب، وألقيت ضوءًا عليها، الآن واضح أن سيادتك بتقصد من هذا عاملين أو هدفين يحققان ما تسميه سيادتك بالمعارضة، الهدف الأول: إن أنا أراقب الأخطاء اللي مفيش في الدنيا جهاز يقدر يوصلهالنا توصيلة كاملة، والحاجة الثانية: بنقضي على ما قد ينشأ من خوف لدى الناس اللي مش عايزة تتكلم.

في نوعين من المعارضة الحقيقية، فيه معارضة بتحقق الهدفين اللي قلناهم لكنها قائمة أيضًا على إن المعارض مختلف في فلسفته اختلافًا كاملاً مع اللي بيعارضه؛ لأن لما بنيجي نشوف حزبين حزب يساري خالص، وحزب يميني خالص، وبيبقى واحد منهما في الحكم وبيبقى اللي مش في الحكم يعارض وبيكشف الأخطاء وبيشجع الناس على الكلام، لكن في نفس الوقت فيه اختلاف كامل في الفلسفة بين الحزبين، هنا أنا باعتقد ما يمكنش نسلم بهذا النوع من المعارضة، بمعنى أن تنشأ معارضة تختلف في الفلسفة مع اللي إحنا ارتضيناه ومشينا فيه.

وأنا بأقول خصوصًا بعد 9 يونيو؛ لأن الفئات اللي خرجت يومي 9 ، 10 يونيو دول

حقيقة كانوا الشعب، ولكن مين الفئة الكبيرة من اللي طلعوا يوم 9، 10 يونيو بعد خطاب سيادتك بسبع دقائق..؟ أنا شفت الناس في الشوارع مندفعة اللي طلع مين..؟ كانوا العمال والفلاحين، وبعدين أنا أعرف في بلدنا كانوا بيدوروا على عربية بالإيجار علشان تجيبهم القاهرة وتشحنهم هنا.

صوت: طبعا كل الناس هنا.

عبد الوهاب البشري: فهنا الفلاحون والعمال شكلوا الفعالية اللي تمت، أنا بأقول كل الناس وكل الفئات خرجت، لكن في الواقع النسبة الكبيرة ذات الوزن الكامل الحقيقى هي العمال والفلاحون.

الفكرة الثانية: المعارضة على أساس إتقان الفلسفة العامة للحكم، ممكن نختلف في كثير من النقاط ولكن ليس في فلسفة الحكم، السؤال: هل ينشأ لهذا حزب مختلف..؟ كلنا متفقون في الفلسفة والاتجاه العام لكن الأسلوب يخلينا نختلف، أو درجة القوة في التطبيق تخلينا نختلف، أنا باقول: يمكن في الفترة الجاية حتى لو جاهز التصور ده يبقى في الفترة الجاية لا يجوز؛ لأن الحزبين في هذه الحالة معناه إن كل حزب حيتشغل بفلسفته وهايتحول الأمر إلى صراع.

يبقى المعارضة تكون من داخلنا ولكن بضمان أن يجب محاسبة الوزير، ويمشي إذا مسكت له أجهزة معينة أخطاء، لكن من سيحاسب الوزير..؟ هنا نقول اللجنة المركزية اللي نحن نشكلها، بحيث يكون لها غرضان غرض الناس تتكلم وتناقش، وغرض محاسبة المخطئين مهما كانوا، ولو كنت سيادتك طالبت باجتماع لها كل ستة شهور فأنا باطالب يكون الاجتماع كل ثلاثة شهور، ونقدر من خلالها نحاسب الوزير ونقول له امشي.

على أنه يجب أن تكون هناك ضمانة سواء في النقد أو الاتهام؛ لأن من السهل إن نقول للوزير أنت عملت وسويت، لكن لو اللجنة المركزية أو مجلس الأمة ما درسش ودعم اتهامه بأسانيد وأدلة قوية يبقى من الممكن الوزير نفسه ينحرف، أو قد يكون ضحية لمؤامرات شخصية من بعض الأشخاص اللي بياخدوا منه موقف.

كمال رفعت «وزير العمل»: ما عرفش هل مفروض وجود أكثر من حزب ولا معارضة من داخل التنظيم القائم..؟ وهنا نسأل: ما هو شكل هذه المعارضة..؟ وهل

هي بتتبنى قضية معينة..؟ وهذه القضية المعينة قضية اجتماعية..؟ أنا في تقديري أي شكل في نظام، أي حكم بيقوم أساسا على القضية الاجتماعية اللي بيعالجها، وإذا كانت القضية الاجتماعية عندنا تحققت في الميثاق، إذا أي تنظيم بيقوم ما هو إلا وسيلة لتحقيق هذه القضية، أو تحقيق صورة المجتمع اللي موجودة أو اللي بنرجو إنها تقوم.

إحنا في مرحلة تحول وصراع بين شيء جديد وشيء قديم، إلى أي مدى الجديد استطاع إنه يثبت وجوده في وسط الجماهير..؟ وإلى أي حد القديم لا يزال له مواقع قوية ويستطيع إنه يجابه بها القوى الجديدة الموجودة..؟ ومن هنا قضية قيام معارضة أو عدم قيامها تكون مسألة شكلية.

إن وجود حزب آخر يعني أن يبدأ بمعارضة مواضيع بسيطة، لكنه سيصل إلى القضايا التي تمس حياة المجتمع ككل في المستقبل، والديمقراطية لا يمكن أن تتحقق لمجرد وجود حزبين أو أكثر، ولكنها تتحقق بنوع من التوازن بين القوى السياسية نفسها في المجتمع، مع النظام الاقتصادى أو القوى الاقتصادية اللي موجودة، وده بيحدد لنا ما هو هيكون عليه دور المعارضة دور مصلح أم دور مدمر..؟

الظاهرة الأخرى اللي يجب أنها تعالج هي تخلف القوانين أساسا عن مسايرة التطور الاجتماعي، وعن التعبير عن حقيقة العلاقات الجيدة في داخل المجتمع، وده يمكن أدى إلى تناقضات كثيرة، وده اللي يمكن بيأدي إلى أن نقول: إن مفيش مبدأ سيادة القانون؛ لأنه في الواقع ده بيرجع أساسًا إلى أن القوانين فعلا متخلفة عن التطور وما بتعبرش عن حقيقة العلاقات الجديدة في المجتمع، وهناك أيضًا قضية التخلف العلمي، وتخلف البحث العلمي خصوصا في المرحلة القادمة.

عبد العزيز السيد: المعارضة في أي هيئة منتخبة ما تبقاش معارضة؛ لأن المعارضة ارتباط بين الناخبين والشعب، ومن هنا المعارضة لازم تكون انعكاسًا لرأى الشعب، أما أن تنشأ المعارضة بعد الانتخابات فهذا يذكرنا بما فعل إسماعيل باشا في مجلس شورى القوانين، حين عينت الحكومة المعارضة بفرمان من الخديوي، ولما أقول حزبين داخل النظام الاشتراكي، طب حيكونوا شكل بعض ولهما نفس الأيديولوجية.

عبد الناصر: تاخد إيه..؟

عبد العزيز السيد: نأخذ بالحزبين بعيدًا عن الاتحاد الاشتراكي، والحزب اللي يختاره الشعب في الانتخابات يكون معبرًا عنهم، ويخليهم يتكلموا بالحرية اللي إحنا بنطالب بيها، باختصار نحط المبادئ في أيد الناخبين.

كمال رفعت: من هنا أنا باطالب أن نناقش العملية بعمق أكبر، وإلا قد تؤدي بنا إلى أخطار إحنا لا نستطيع التنبؤ بها.

لبيب شقير «وزير التعليم العالي»: بالنسبة للكلام عن المعارضة هو أساسًا رقابة، والناس تعبر عن رأيها بوضوح، أنا أعتبر إن فيه فرق بين المعارضة والرقابة، وأعتقد أن من الأسباب اللي خلت العملية دي ظهرت في الخمس سنين الأخيرة عدم استكمال الجهاز السياسي بعد تشكيل الاتحاد الاشتراكي؛ لأن كان مفروض نعمل المجالس الشعبية في المحافظات، وهى قد تتولى الرقابة واللجنة المركزية وباقى التشكيلات السياسية، وهى كفيلة بالرقابة الأعلى وممكن قوى تكون المعارضة في إطارها.

النبوي المهندس «وزير الصحة»: لا خلاف على المعارضة لابد أن تقوم، ولكن الخلاف في الثوب الذي ترتديه المعارضة، هنا أشعر أن على سيادتك أن تشرح لنا ما غمض علينا.

عبد الناصر: بكل أسف ما عنديش فكرة راسخة في رأسي، عايزكوا تنوروني وتتكلموا، أنا باقول إنه في عيوب، وبعدين إذا استمر هذا النظام بهذه العيوب ستنتهي البلد إلى كارثة، العيب في النظام، وممكن أنا أمشي سيادة القانون، ولكن ممكن حد غيري ييجي ما يمشيش سيادة القانون.

ما هو إحنا في آخر مرحلة لينا في العمل، يعني داخلين على الفترة النهائية لازم نسلم القيادة لناس، لكن لو سلمتها لهم بهذا السيستم نكون قد اتجهنا إلى المجهول، متعرفش الناس اللي جاية هاتيجى منين، فيه ناس كثيرة بتعد نفسها علشان تاخد الحكم، فيه ناس في الجيش أنا معتقلهم النهاردة كانوا بيكونوا طبقة داخل الجيش، كان فيه طبقة داخل الجيش بتعد نفسها علشان تحكم، همه صغيرين في السن وكون فيه تنظيم داخل الجيش يعني أنا ما كنتش أعرفه، فيه ناس طموحين صغيرين بيعتبروا عن طريق هذا النظام ممكن يوصلوا إلى القمة، مش برضه عن طريق الانقلاب ولكن الانقلاب ممكن

يحصل، فدول برضه عن طريق العمل السياسي بتاعنا اللي إحنا ماشيين فيه، عن طريق العمل المغلق بيجي واحد ومعاه ناس وتتلم العملية يعني بتتاخد العملية.

طيب تحت هذا النظام اللي إحنا فيه إذا جه شخص بهذا الشكل، وإذا حصلت حاجة بهذا الشكل، وخد قوة وكذا وكذا وكذا وبعد 5 أو 6 أو 8 سنين مسك البلد، القوي هو اللي هيحكم ويمسك البلد أنا ما عرفش مين القوي..؟ زكريا محيي الدين ولا حسين الشافعى ولا علي صبري..؟ مين القوي ما بقولش..؟ أنا معرفش هيقدر يمسك ويصفي الاثنين..؟

صوت: أو واحد من برة خالص بقى.

عبد الناصر: أنا في رأسى بقى إن القوي مش أنتم.

صوت: واحد غاوي تعب من برة.

عبد الناصر: لا مش تعب ولا حاجة، القوي في هذا السيستم المقفول، وهذا هو الموجود في الاتحاد الاشتراكي، هو اللي بياخد العملية برضه، يعني طرحي ده طرح للموضوع، إنتم اتكلمتم في فرعيات للموضوع ما خدتوش الموضوع كما طرحته.

طب افرض الراجل ده طلع زى بتوع أمريكا اللاتينية، لا هو مثقف ولا هو كذا ولا كذا، وممكن إذا وصل إلى القمة بيعمل إيه في البلد..؟ طبعا القوي اللي طالع ده معاه شلة أو حزب حتروح البلد في داهية، أنا ما بتكلمش عن النهاردة أنا باتكلم إن دى مرحلة هاتيجي وهاتقابلنا.

إحنا إذا لم نؤمن نقط الخطر دي كلها، ونعمل السيستم اللي يضمن للناس دي في المستقبل ما يتبهدلوش نبقى ليه نبهدلهم..؟ ليه إحنا نتسبب في بهدلتهم، أنا بأقول عايز أمن البلد للمستقبل ولكن كيف هذا..؟ هو الموضوع اللي طرحته.

كيف تؤمن البلد من هذه المحظورات كلها بحيث إنك تعمل حاجة سيستم نمشى عليه، ونضمن للبلد سلامتها في كل الأحوال وكل الظروف..؟ المستقبل غامض، والمواضيع اللي بكلمك فيها بصراحة لأن فيه قوى كتيرة متصارعة وكلكم حاسين بيها، فيبقى السؤال هو كيف نصنع النظام السليم اللي يكفل البلد في مستقبلها، حتى بعد إحنا ما ننهي دورنا، وده لازم نعمله دلوقتى.

▪▪ تشخيص حكم مصر في تسجيلات عبد الناصر السرية [1]



1918 - 1970

- ما أن أخرجت الإخوان من المعتقلات وأعدتهم إلى وظائفهم حتى حاولوا اغتيالي ثلاث مرات تحت رعاية سيد قطب.

- كنت أعرف عن الشيوعيين والإخوان أكثر مما تعرف المباحث فقد مررت على كل التنظيمات.

- دربت التنظيم السري للجماعة على السلاح للقتال في فلسطين فقتل النقراشي باشا.

- مشكلة الحكومة ألا أحد يرد على أحد ولا أحد يدافع عن أحد..!

- غياب حرية الصحافة جعلنا لا نرى عيوبنا التي أدت إلى الهزيمة.

بغير الحرية لا توجد حقيقة، لكن، الحرية الغائبة في بلادنا جعلت الحقيقة دائما مؤجلة، لا تأتي الحقيقة في موعدها أبدًا،

نصف قرن من وضع شرائط «البلاستر» على وثائق يونيو حرمنا من تلقي دروسها والاستفادة من خبراتها، بقينا في دائرة الصمت التي فرض علينا البقاء فيها حتى نموت، لم يكن

(1) عادل حمودة: جريدة الفجر، العدد (630)، بتاريخ 31 أغسطس 2017م، ص3.

غريبا أن تتكرر أخطاؤنا لأننا لم نواجه عيوبنا.

في المحاضر السرية للقاءات جمال عبد الناصر بمجلس الوزراء والقيادات السياسية والحكام العرب التي شرح فيها بصوته ما جرى سنجد أكثر من دليل.

لخص عبد الناصر أسباب الهزيمة في «تبجحنا بالكلام» دون فعل، وكذبنا وصدقنا كذبنا، ولم نعتمد في اختيار المناصب على الكفاءات وإنما على التقارير الأمنية وغابت عنا المعلومات المرشدة للقرارات الصائبة.

صراخنا أضخم من أصواتنا، وسيفنا أطول من قامتنا، ما دخل اليهود من حدودنا وإنما تسربوا مثل النمل من عيوبنا، نجعل من أقزامنا أبطالا، ومن أشرافنا أنذالا، ونرتجل البطولة ارتجالا، ونشحذ النصر على أعدائنا من عنده تعالى، حسب نزار قباني.

لكن تلك الأسباب لم تفرض نفسها إلا لغياب حرية التعبير، لقد أممت الصحافة بسبب كاريكاتير للفنان حجازى نشر في «صباح الخير» عن زوجة تخبئ عشيقها تحت السرير، وهو ما اعتبره عبد الناصر نوعا من غياب الصحافة عن مشاكل التنمية الجادة، على إن تأميم الرأي أدى إلى تكميم الأفواه فغاب النقد، وعوقب من يمارسه بالإبعاد أو بالاعتقال، وتصور النظام أن كل ما ينشر حقيقة، جيش قوي، وشعب سعيد، وقدرة هائلة على سحق الأعداء، وهو ما سقط تماما في الساعات الأولى من حرب الهزيمة.

وأتذكر أننا كنا ونحن في الجامعة لم نجد متنفسًا عن هذه الحالة إلا قصيدة نزار قباني «هوامش على دفتر النكسة» التي شخص فيها ما حدث بدقة وحنكة وبراعة لم يتوصل إليها أكثر المحللين موهبة وخبرة: «يا سيدى السلطان فرحنا نتناولها سرًا: لقد خسرت الحرب مرتين؛ لأن نصف شعبنا ليس له لسان، ما قيمة الشعب الذي ليس له لسان، لقد خسرت الحرب مرتين لأنك انفصلت عن قضية الإنسان.

وقد نبهت الهزيمة عبد الناصر إلى أن الحرية كشافات مضيئة للنظام تفضح الأخطار التي تنتظره قبل أن يقع فيها، ولكن العمر لم يمهله لتنفيذ الإصلاح السياسي الذي أدرك أهميته.

وعندما تحدث عبد الناصر عن سيناء وصفها بكعكة الرمل التي لن يجد فيها «اليهود» ما يغري بالبقاء، وقد رحلوا عنها فعلا فيما بعد» لكنه كان حريصًا على إعادة

الضفة الغربية بأسرع ما يمكن، ومهما كان الثمن فبقاؤها سنة يعني ابتلاعها كاملة وهو ما حدث فيما بعد حيث سيطر عليها المستوطنون اليهود الذين اعتبروها أرضًا مقدسة لدولة إسرائيل.

وتنبه عبد الناصر مبكرًا إلى ضرورة توحيد التيارات السياسية المختلفة حرصًا على سلامة المجتمع، ولكن في الوقت الذي استجاب فيه اليسار إلى دعوته بحل تنظيماته السرية بقى الإخوان على حالهم، يجهزون قواتهم ترقبًا وتربصًا.

إن خلط الدين بالديناميات خلق وحشًا شرسًا شرهًا يرتوي بدماء ضحاياه وهو يلتهم جثثهم، وما أن نصدق أن تاب إلى الله وسلم أنيابه ومخالبه حتى نجده يخرج من تحت الأرض أكثر عنفا وأشد بأسا وأوسع تخريبا وتدميرًا.

أمام مجلس الوزراء رصدت التسجيلات السرية بصوت عبد الناصر كيف عطلت جماعة الإخوان الكثير من الإصلاحات السياسية التي بدأ تنفيذها عام 1964م قائلاً:

«في ذلك العام أردنا أن ننهي المعتقلات، كان أمل عندي وما هواش مفخرة لواحد زيي وجود معتقلين، وفعلا صدر الدستور في مارس 1964م ومكانش فيه ولا واحد معتقل، وطلع للإخوان قانون ليرجعوا إلى وظائفهم.

الواحد كان يشعر بمنتهى السعادة إن ما فيش معتقلين، لا شيوعي ولا إخواني، وكان تفكير ضمهم للتنظيم السياسي، أنا برضه ابتديت مع كل الأحزاب، واتصلت بالإخوان والشيوعيين وأعرف كل الخلفيات بتفاصيلها، وفي وقت من الأوقات كنت أعرف أكثر مما تعرف المباحث، أسماء وعناوين، فيه ناس خيرين هنا وهناك وكان هدفي باستمرار أجمع الكل في وحدة واحدة.

ولكن حدثت عملية الإخوان في عام 1965م التي نفذت تحت قيادة سيد قطب، كنا معتقدين أنها عملية صغيرة لا تستحق منا أهمية، لكن العملية كشفت عن تنظيم مسلح كبير لحرق البلد، وبصرف النظر عن أن شمس بدران في السجن النهارده فالرجل للذمة كان سهران ليل نهار يتابع العملية، وفي سباق بينه وبين الآخرين لإنقاذ البلد من عمليات الاغتيالات وهو قال في المحكمة: إنه وقتها أنقذ حياتى 3 مرات وهذا حقيقي».

وبسبب هذه العملية فتحنا المعتقلات مرة أخرى، طبعا قد يكون هناك من ظلم، سيبنا ناس بتجمع فلوس لكن لما ظهرت العملية بهذا الشكل أصبح جمع الفلوس يعني وجود تنظيم غير ظاهر.

بعد العدوان في يونيو 1967م ابتدينا الإفراج عن عدد كبير من الإخوان، وأظن فاضل عدد قليل هم اللي موجودين في التنظيم السري، الحقيقة المشكلة النهارده إن دول إذا طلعناهم بحكم تفكيرهم وبحكم تكوينهم سيعودون إلى العنف من جديد، وهو ما حدث فيما بعد.

أنا برضه كنت متصلاً بناس من الجهاز السري قبل الثورة ويمكن استطعت أن أؤثر عليهم بعد الثورة فغيرهم المرشد، كنت باعرف عبد الرحمن السندي، وهو كان ماسك الجهاز السري قبل الثورة، وفعلا كنت بأدرب ناس من الإخوان، وأنا لما رحت عند إبراهيم عبد الهادي وكان رئيسا للوزراء، ما روحتش على إني من الضباط الأحرار، لا إبراهيم عبد الهادي كان بيستجوبني على إني من الإخوان؛ لأني دربت ناس منهم، وفي التحقيقات اللي حصلت بعد قتل محمود فهمي النقراشى، رئيس الحكومة وزير الداخلية الذي إغتاله التنظيم، قالوا: إن أنا دربتهم، أنا فعلا دربت هؤلاء الناس لكن عشان فلسطين.

المشكلة النهارده إذا طلعوا الناس دول هل هيرجعوا تانى يعملوا جهاز سري ويتصلوا بسعيد رمضان، قيادي إخوانى هرب إلى سويسرا عام 1954م وكون التنظيم الدولي، واستثمارات ثروات الجماعة لتمويل عمليات العنف، ويضللوا وندخل تانى في مشاكل أقسى من المشاكل الأولى، هل نحتمل ده..؟

وهم حاولوا يتصلوا بالجيش ولغاية دلوقتى، لغاية يومنا هذا فيه اتصال بالجيش، وفيه عمليات داخل الجيش قايم بها الإخوان النهارده ولم نمسكها ولكن الفريق محمد فوزي يعلم عنها.

الشيوعيون النهارده مافيش وهو يمكن واحد اللي هو صلاح عيسى اللي اعتقل أخيرًا، كل اللي كان عليهم أحكام أفرج عنهم سنة 1964م، وخرجوا وعادوا إلى أعمالهم ولكن طالما هناك قوة من الإخوان موجودة في الخارج وعندها الكثير من الأموال وتتصل

بالداخل فالمشكلة مستمرة.

وينتقل عبد الناصر إلى موضوع آخر ربما لا نزال نعاني منه:

«لفتوا نظري إلى موضوع مهم، الحكومة عندنا ما حدش بيرد على حد، ضحك وما حدش بيدفع للتاني، ضحك وهذا يمثل نوعًا من أنواع التفسخ الموجود، ولكن هنا في مجلس الوزراء نفتح هذه المواضيع لزم لما واحد يبعت لحد يرد عليه، ولكن ما حدش بيرد على حد، وأعرف أن فيه شركات مقاولات كثيرة لها فلوس وما حدش بيدفعها وده الحقيقة مسئوليتنا الأولى إحنا.

وأتصور أن تلك العيوب البيروقراطية لا تزال مزمنة قائمة، فلا أحد يرد على أحد إلا بالواسطة أو بالمصلحة، ولا يعرف المواطن كيف يوصل شكواه للحكومة، وكل وزارة لا تسدد ما عليها للوزارات الأخرى، البترول له مليارات عند الكهرباء، والكهرباء لها مليارات عند باقى الوزارات والمؤسسات العامة، وكثير من موارد الدولة ضايعة بسبب صراع الوزارات واختلاف المحافظات.

إن البيروقراطية كارثة التنمية في مصر، فالجهاز الإدارى تضخم إلى أن تجاوز الستة ملايين موظف وعامل، خرجوا من قوة الإنتاج، وتشكل أجورهم وحوافزهم ومكافآتهم النسبة الأكبر من ميزانية الدولة فلا يتبقى إلا النذر القليل للاستثمارات والخدمات، فضعفت الصحة، وتراجع التعليم، وتضاعف الفقر، وقلت المواهب، وساد الغش والفساد، وعجز التطور عن البقاء في أرضنا فهاجر بعيدا عنا بحثا عن أمم أخرى تعرف قيمته.

▪▪ لماذا يتصدر الغلاف بعد 100 عام من ميلاده؟ (1)



1918 - 1970

كتب الستاذ عادل حمودة يقول :

- لو وضعت المناسبة تحت رعاية الرئيس فإن مؤسسات الدولة ستبتكر في الاحتفال بها فلم يعد أمامها سوى خمسة شهور فقط.

- يمكن إصدار عملات تذكارية وطوابع بريد وملصقات للسيارات وإنتاج فيلم تسجيلي وفتح متحف منشية البكري مجانا.

- لكن الأهم دعوة شخصيات عربية ودولية إلى ندوة تناقش فيها السلبيات قبل الإيجابيات والانكسارات قبل الانتصارات.

- عبد الناصر لم يختر شمس بدران ليخلفه يوم التنحي وبصوته نسمع منه حقيقة موت المشير وأسباب الهزيمة وسر مماطلة السوفيت في تسليح الجيش.

- فرصة لتصحيح التاريخ بعد توافر المستندات ولنستفيد من دروس التجربة حتى لا نكرر أخطاءها..!

(1) عادل حمودة: جريدة الفجر، العدد (629)، 24 أغسطس 2017م، ص2، 3.

في كل مرة هبط فيها نزار قبانى القاهرة كان يحرص على زيارة قبر جمال عبد الناصر، لكنه لم يكن ليكتفى بوضع زهور على ضريحه وإنما كان يعطرها بأبيات من قصائده الأربع التي كتبها فيه:

زمانك بستان وعطرك أخضر، وذكراك عصفور من القلب ينقر، ملأنا الأقداح يا من بحبه سكرنا، كما الصوفى بالله يسكر، دخلت على تاريخنا ذات ليلة، فرائحة التاريخ مسك وعنبر، وكنت فكانت الحقول سنابل، وكانت عصافير، وكانت صنوبر، وأمطرتنا حبا، ولازلت تمطر.

كرسيك المهجور، في منشية البكري، يبكي فارس الأحلام، وساعة الجدًار في ذهولها ضيعت الأيام،

نزلت علينا كتابا جميلا، ولكننا لا نجيد القراءة، وسافرت فينا لأرض البراءة، ولكننا ما قبلنا الرحيلا،

تركناك في شمس سيناء وحدك، تكلم ربك في الطور وحدك، وتعرى، وتشقى، وتعطش وحدك، ونحن هنا نجلس القرفصاء، ونحشو عقول الجماهير تبنا وقشًا،

قتلناك يا آخر الأنبياء، قتلناك وليس بغريب علينا قتل الصحابة والأولياء، فكم من رسول قتلنا وكم من إمام ذبحناه وهو يصلي العشاء،

لكن نزار قبانى ليس الشاعر الوحيد الذي صاغ عبد الناصر شعرا، يكاد لا يوجد شاعر عربى واحد عاش زمانه لم يرصع دواوينه بقصيدة عنه.

وصفه محمود درويش ب«الرجل ذو الظل الأخضر»: نعيش معك، ونسير معك، ونجوع معك، وحين تموت نحاول إلا نموت معك، ففوق ضريحك ينبت قمح جديد، وينزف ماء جديد، وأنت ترانا نسير ونسير ونسير،

وفي قصيدة معين بسيسو «رسالة في زجاجة إلى جمال عبد الناصر» يخرج طفل من بولاق، محمول على الأعناق، يرفع صورتك، ولا يعرف أين يسير.

ويبكيه سميح القاسم: ولكن واقفا وصامدا وزاحفا». وينادي محمد الماغوط: «أما من عبد الناصر جديد ولو برتبة عريف..».

لن نستطيع رصد إلا ما تيسر من تلك القصائد، لكن هناك فرصة لجمع أشهرها في كتاب يصدر في 15 يناير 2018، احتفالا بمئوية ميلاد جمال عبد الناصر.

لكن الشعر وحده لا يكفي، ربما سككنا عملات ذهبية وفضية وبرونزية وأصدرنا طوابع بريد عليها صورته، وتخصيص أسبوع للأفلام التي صورت عنه أو تناولت أحداثا سياسية وتاريخية صنعها أو فجرها، دون أن ننسى فيلما تسجيليا يستعرض حياته ومحطات نضاله، بجانب فتح متحفه مجانا للجمهور، وتصميم ملصقات للسيارات تؤكد على مبادئه الوطنية التي لا نزال نؤمن بكثير منها.

أعرف أن هناك من يرى أنها دعوة مبكرة للاحتفال، لكنها، في الحقيقة دعوة متأخرة، فكل ما هو أمامنا لا يزيد عن خمسة شهور، ستتناقص يوما بعد يوم حتى نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مناسبة لن تتكرر، إنها طبيعتنا العشوائية، الارتجالية، تأجيل التفكير في أمورنا حتى نجدها ملقاة في حجرنا، نعرف موعد العيد لكننا لا نشترى ثيابه إلا ليلة ظهوره، نعرف موعد الامتحان لكننا لا نفتح الكتب إلا قبل أن نسمع الجرس بساعات، دائما بعد فوات الوقت المناسب، دائما نستيقظ بعد أن تكون الأيام قد أكلت نفسها غيظا وتكسرت انتظارا وتعثرت غلاً.

وأتصور أن هناك إعجابا خاصا يحمله الرئيس عبد الفتاح السيسي لجمال عبد الناصر عبر عنه بكلمات متعددة في خطاباته وأحاديثه، كما أنه افتتح في 28 سبتمبر 2016 متحفه في بيته بمنشية البكري، وهو إعجاب سيمنح الاحتفال بمئوية عبد الناصر اهتماما مضاعفا لو وضع تحت رعايته، ستتبارى مؤسسات الدولة في التفكير والتنفيذ، وسنجد إبداعا مبكرا ومذهلا لم نتخيل أننا يمكن أن نصل إليه.

لكن الأهم من مظاهر الاحتفال المعتادة الترتيب من الآن لندوة عربية وعالمية، يدعى إليها سياسيون ومؤرخون وشخصيات بارزة قادرة على تقييم تجربة جمال عبد الناصر بسلبياتها قبل إيجابياتها، بانكسارها قبل انتصارها، إنها فرصة نادرة للاستفادة مما كان حتى لا نكرر الأخطاء ونضيع الفرص ونهدر الموارد، فالتاريخ ليس علم الأحداث الميتة وإنما علم الخبرات الماضية.

والميزة في هذا التوقيت، أنه سيكون قد مر نحو 66 سنة على ثورة 23 يوليو 1952،

ومر نحو 51 سنة على هزيمة 5 يونيو 1967، ومر نحو 38 سنة على رحيل عبد الناصر، وهى مسافات زمنية مناسبة بل كافية لتقييم ما حدث بحرية دون ضغوط من نظم قائمة مخالفة أو جماعات مصالح غاضبة ورافضة.

ولا شك أن «مكتبة الإسكندرية» هي المكان المناسب لاستضافة الندوة، فإن لم تكن فجامعة القاهرة، فإن لم تكن فقاعة المؤتمرات في شرم الشيخ.

إن عبد الناصر لا يزال يثير شهية الباحثين في الغرب، ليس حبا فيه وإنما خوفا من تكرار تجربته التي جعلت من القاهرة عاصمة ثالثة بعد واشنطن وموسكو، يخشون تجمع عدم الانحياز من جديد، ويخشون تجربة التنمية المركزية التي نفذها دون حرمان القطاع الخاص من المشاركة، ويخشون من القدرة على كشف المؤامرات التي تنفذ للمنطقة لاستزاف مواردها وتفتيت وحدتها وتدمير تجانسها.

والدليل على ذلك أن جامعات أمريكية مثل بيركلي وهارفارد وجورج تاون لا تزال تحفز طلاب الدراسات العليا على إجراء دراساتهم عن مصر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، بل وتجد لهم المنحة المالية اللازمة لذلك، وهناك دليل آخر أن سبعين في المائة من رواد مواقع عبد الناصر على الإنترنت (17 مليون زائر) من الولايات المتحدة.

لقد سبقتنا فرنسا في الاحتفال بمئوية شارل ديجول (الأب الروحي للجمهورية الخامسة) في عام 1990م بندوة دعى إليها شخصيات مؤثرة، ارتبطت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالجنرال الذي حرر بلاده من النازية في الحرب العالمية الثانية، وشاركت الدكتورة هدى عبد الناصر ببحث عن علاقة والدها بديجول، وكانت علاقة مميزة بين زعيمين استوعبا قيمة استقلال بلديهما بعيدا عن التحالفات والاستقطابات، وقد حاول رجال شيمون بيرز الذي شارك في الندوة إخفاء نسخ البحث ووضعها بعيدا عن العيون.

وكان ديجول قد كتب رسالة عزاء بخط يده في اليوم التالي لوفاة عبد الناصر بعث بها إلى سفير مصر في باريس عصمت عبد المجيد: «أشاطر من كل قلبى الحزن العميق الذي أصاب مصر، بفضل صفاته الاستثنائية من ذكاء وإرادة وشجاعة، قدم الرئيس جمال عبد الناصر لبلاده وللعالم العربي أجمع خدمات ليس لها مثيل، ففي مرحلة من التاريخ أكثر

قساوة ومأساوية من أي فترة أخرى، لم يتوقف عن النضال من أجل استقلال بلاده واستقلال الدول العربية، وكذلك من أجل شرفهم وعظمتهم، وقد كنا نحن الاثنان نبادل بعضنا البعض التفاهم والتقدير العميق».

«ولذلك فقد استطعنا أن نعيد بين مصر وفرنسا العلاقات الطيبة للغاية التي تمليها الصداقة الكبيرة والقديمة التي تربطهما ورغبتهما المشتركة في تحقيق العدل والكرامة والسلام؛ وإذ أعبر لمصر من خلال شخصكم عن مشاعري الراسخة أرجو سيدي السفير أن تتقبل فائق احترامي وأحر تمنياتي».

ورغم أهمية الرسالة في تثبيت أهمية عبد الناصر في عيون واحد من أعظم رجال العالم، لكنها اختفت من وثائق الدولة الرسمية فقد اعتبرها عصمت عبد المجيد رسالة خاصة موجهة إليه بصفته الشخصية لا بصفته الرسمية، فباعها إلى مركز شارل ديجول وقبض ثمنها، حسب ما سمعت منه وحسب ما نشرت على لسانه فيما قبل.

وخطورة هذه الواقعة أنها جعلت وثائق مصر في مرحلة من أهم مراحل تاريخها مباحة لكل من يحصل عليها، وقد كسب هيكل من ورائها الكثير، الوحيدة التي دفعت من وقتها ومالها لنشر ما وجدت من وثائق هي هدى عبد الناصر التي حققتها ونشرتها مجانا على مواقع عبد الناصر الإلكترونية.

وأهمية الوثائق التي نشرتها أنها تصحح روايات شاعت إلى حد التصديق رغم أنها تخالف الحقيقة تمامًا، مثلاً ذكر هيكل أن عبد الناصر يوم تنحيه بعد الهزيمة يوم 9 يونيو اختار شمس بدران ليخلفه في السلطة، ثم تراجع بتدخل من هيكل ليختار بدلا منه زكريا محيى الدين.

لكن عبد الناصر في محضر اجتماع مجلس الوزراء يوم 27 أغسطس 1967م يقول إنه اتصل بالمشير عبد الحكيم عامر يوم 9 يونيو قائلا: «أنا شايف إنه يبقى فيه نظام جديد»، وسأله عن مرشح مناسب لرئاسة الجمهورية فرشح شمس بدران».

ويضيف عبد الناصر: «ولكن طبعا تفكيري في هذا الموضوع أن شمس بدران ما عندوش خبرة، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أنه يقوم بهذا الوضع ولهذا استقر الوضع على زكريا، وما قلتش لزكريا وما قلتش لحد خالص».

وسبق أن تحدث عبد الناصر في الموضوع نفسه أمام اللجنة التنفيذية العليا يوم 3 أغسطس 1967م حسب المحضر الذي سجل للجلسة، لا هيكل كان يعرف باسم المرشح للرئاسة، ولا هو تدخل لتغييره من شمس بدران إلى زكريا محيى الدين، وصدقنا روايته التي نشرها بعد رحيل أو غياب أو صمت أبطالها حتى جاءت الوثائق المجردة لتنفيها.

وفي غياب الوثائق راجت رواية قتل عبد الحكيم عامر بالسم، واختار مؤلفيها نوعا من السم هو «الأكونتين» لا يظهر في التشريح حتى تصبح الرواية متقنة، ولكن في وجود محضر مجلس الوزراء يوم 17 سبتمبر 1967م نسمع الحقيقة بصوت وزير العدل عصام حسونة.

وهناك عشرات من الخرافات السياسية حان الوقت لتصحيحها دون حسابات شخصية، واستنادا إلى وثائق رسمية يصعب التشكيك فيها، وفي روايته لقصة الانقلاب الذي قاده ضباط من الجيش لإعادة المشير عبد الحكيم عامر إلى الجيش بعد الهزيمة يكشف عبد الناصر عن حقيقة لافتة للنظر: «إن كل المؤمرات التي دبرت لاغتيال عبد الناصر أو لقلب نظام الحكم بما في ذلك محاولات الانقلاب داخل الجيش عرفت بالتبليغ، بما في ذلك مؤامرة الإخوان التي قادها سيد قطب عام 1965م، ولم تتوصل إليها الأجهزة الأمنية بنفسها وهو أمر يحتاج إلى بحث وتفسير، جعل عبد الناصر يتساءل عن مبرر رصد ميزانيات ضخمة إليها..؟ بجانب سؤال آخر عن تصرفاتها المسيئة ضد كثير من المواطنين..؟

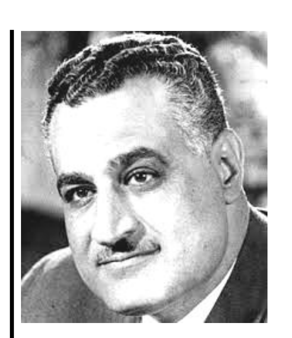
وفي محاضر اجتماعات عبد الناصر مع الرئيس الجزائرى هوارى بومدين بعد الهزيمة في أغسطس 1967م، نجده يتعجب من رفض أجهزته لمعلومات قدمها الروس عن عدد الفرق المدرعة في إسرائيل والتشكيك فيها، بدعوى أن الروس يهولون من قدرة إسرائيل العسكرية، لكن الأهم في هذه المحاضر تفسير عبد الناصر للهزيمة وما يمكن أن نتعلمه منها حتى لا نكرر الأخطاء ذاتها.

كانت هناك ثقة كبيرة في النفس بأكثر مما نملك من قدرات وتبجحنا بالكلام حتى صدقنا أننا يمكن أن نحارب إسرائيل وأمريكا معًا، وكانت اختيارات المناصب بما في ذلك قيادات الجيش طبقا لتقارير الأمن وبغض النظر عن الكفاءة، وهو ما جعل كثيرًا

من الجنرالات يبقون في أماكنهم رغم أدائهم المخزى في مواقف عسكرية سابقة، حتى جاءت الهزيمة لتكشف عن ذلك.

إن من الممكن الاستفادة من احتفالات مئوية عبد الناصر لو أحسنا الاستفادة منها، ليس على طريقة عبادة الأصنام وتمجيد الحاكم الفرعون الإله، وإنما بمعرفة ما كان لنضمن السير في الطريق الصحيح لنصل إلى ما نريد، فنحن دائما نبدأ من الصفر لأننا لا ننظر إلى الوراء لنفهم ما جرى، وهذه فرصة لا يجب إهدارها أو الاكتفاء فيها بالألعاب النارية أو ذكر الأمجاد الشخصية، فالهدف تغذية الذاكرة بمناهج موضوعية، تعيننا على تفسيرات واقعية لما يحدث لنا وما يحدث حولنا.

▪▪ لأول مرة بعد 50 سنة : أسرار هزيمة يونيو بصوت عبد الناصر في تسجيلات سرية (1)



1918 - 1970

- أمريكا تصر على اعتراف العرب بإسرائيل وتبارك احتلالها للقدس ونزع سلاح الجولان..!

- لو لم نسترد الضفة الغربية في ظرف شهر ستبتلعها إسرائيل إلى الأبد..!

- سيناء كعكة من الرمال ليس فيها سوى فئران وثعابين وسنستردها مهما طال الزمن.

- اتفاقية الهدنة في حرب فلسطين تعني اعترافا بوجود وحدود إسرائيل.

منذ نصف قرن ونحن نقرأ روايات عن حرب يونيو بمختلف اللغات، لكن هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها الرواية مباشرة من أبطالها، في 10 يوليو 1967م بدأت مباحثات سرية بين جمال عبد الناصر وحكام الجزائر (هوارى بومدين)، والأردن (الملك حسين)، وسوريا (نور الدين الاتاسي)، والعراق (عبد الرحمن عارف)، ورئيس الحكومة السودانية (محمد أحمد محجوب)، وسجلت محاضر الاجتماعات السرية - التي ننشرها لأول مرة- الحقيقة

(1) عادل حمودة: جريدة الفجر، العدد (629)، 24 أغسطس 2017م، ص2، 3.

مجردة على لسان صناعها.

نشرنا في العدد الماضي تشخيص عبد الناصر لما حدث في محضر اللقاء الأول بينه وبين بومدين، وننشر هنا المحضر الثانى بعد انضمام الملك حسين إليهما.

عبد الناصر: فرصة الملك حسين يروي لنا ما حدث في زياراته الخارجية.

حسين: أثناء لقائي مع «ليندون جونسون» الرئيس الأمريكي، فهمت من كلامه أنهم يؤيدون حق إسرائيل في العيش، إلى جانب أشياء أخرى متعلقة بحرية الملاحة والقدس وأن تكون المرتفعات السورية (الجولان) منزوعة السلاح، بعد كده وصلت لندن وأبدوا استعدادهم للمساعدة في التسليح.

وفي فرنسا الرئيس (شارل ديجول) له موقف شجاع وقال: «إنه يقف إلى جانب الحق، ويهيألى أنه قد يساعد في حل الأزمات في الشرق الأوسط، وأكد لي أنه على استعداد لتقديم جميع أشكال المساعدة، وأثناء زيارتي إلى إيطاليا وجدتهم ناس عايشين في الخيال وطلبوا أن نسمح لليهود بالعيش والمياه وخلافه.

الخسائر في المعدات والأرواح كانت كبيرة جدًا، نسفوا قرى بكاملها في القدس، وكانت عمليات نهب، وبالنسبة للفلسطينيين والفصائل أنا مش متفائل، فقد يحدث لهم نوع من الإغراءات الإسرائيلية.

عبد الناصر: إغراءات على أى أساس..؟

حسين: إما ضم كامل ويكونوا جزءًا من إسرائيل أو عقد صلح وتنتهي القضية، معلومات ثانية إن أهالي غزة ينتقلون إلى الضفة الغربية.

عبد الناصر: إحنا جالنا حوالى 120 ألفًا من غزة، هم أرسلوا الشبان من المقاومة الداخلية، وإحنا دلوقتي مقعدينهم في مديرية التحرير، باعتين ناس بثيابهم بدون حاجة.

حسين: التعبئة على الجانب الفلسطيني لم تكن على المستوى المطلوب، عندنا عيوب كثيرة ولابد من معالجتها، عندنا عيوب كثيرة، علم وثقافة وتكنولوجيا.

عبد الناصر: هم اليهود عارفين عنا كل شيء، وأنا شفت الخرائط مع الطيارين، هم عندهم مخابرات كويسة جدًا جدًا.

حسين: ودا راجع أيضًا إلى ضعفنا.

عبد الناصر: هم الحقيقة البلد كلها تشتغل كجيش برجالها ونسائها.

بومدين: نسبة الجيش إلى الشعب 17٪.

عبد الناصر: وبعدين الطيارين كانوا احتياطي، الطيار اللي اتمسك كان ترزي، يعني الناس هنا قاعدين ياخدوا مهيات ولكن هناك يستدعونهم وقت ما يحتاجونهم.

حسين: الإنسان العربي في أساسه وعزمه وتصميمه ضعيف، ولابد من إعادة بنائه من جديد، بيننا مشاكل وخلافات وأوضاعنا اليوم مصيرية، لابد من الوعي الصحيح.

عبد الناصر: والحل..؟

حسين: الحل نجتمع ونعرف أي واحد رأيه إيه، هذه الصدمة تصحي الأموات، ما يهمني هو أن أي خطوة نخطوها في المستقبل تكون نتيجة بحث جيد.

عبد الناصر: هو وضعهم في سيناء غير الضفة الغربية؛ لأن سيناء إن شاالله يقعدوا عشر سنين بيقعدوا مع الفئران يعني..! لأنه بيجيب مياه وأكل للي على قناة السويس من داخل إسرائيل.

موضوع سيناء مافيش ناس تقاسي فيه الحقيقة، موضوع الضفة الغربية موضوع أخطر، كل وقت بيمر وهم في الضفة الغربية يجعلهم متمسكين بيها وهي فلسطين، وعلى هذا الأساس يبقى بعد كده مستحيل إنهم يمشوا، وهي منطقة غنية يعني أحسن من النقب ومن كل اللي عاوزينه.

بومدين: ما هو الحل..؟

حسين: نوع من التعاون بين الدول الإسلامية على المدى البعيد.

عبد الناصر: وقفوا ما عدا إيران؛ لأن إيران تصدر لهم البترول إلى إيلات، تركيا موقفهم كويس وباكستان، وبعدين فيه شيء غريب، الحقيقة اليهود عندهم قضية والعرب مش باين إن عندهم قضية، يعني اليهود عندهم قضية يموتون من أجلها، حرب دينية، العرب على قدر ما بنقول فلسطين لكن القضية ماهياش عميقة بالعمق اللي يخلي

الواحد يموت.

حسين: معلوماتنا إن كل طيارة إسرائيلية لها 3 طيارين يعني ترجع ينـزل منهـا طيـار ويركب التاني، وقاذفات القنابل تحمل تانكات وقود إضافية.

بومدين: هو اليهودي ليه متقدم..؟ لأنه بيقول بدون إسرائيل ليس لي وجود.

حسين: لازم تحسب قدراتنا بالضبط.

عبد الناصر: برضو إحنا ظروفنا كانت وحشة، إحنا كنا واقعين معاكم، وإنتم واقعـين مع السوريين، وكنا في صدام وعراك مستمر أكثر من العراك اللي بينا وبين إسرائيل، وكنـا سايبين إسرائيل ونسب في بعض، الحقيقة هو دا الموقف اللي كان موجود.

والتقينا قبل المعركة بفترة، لكن الكلام ما كانش جدي، ده بيتلكـك لـده والعكـس، وأعتقد أن ربنا جزانا على عملنا، الموضوع ماكانش دخول قوات أو عدم دخـول قـوات ولكن برضو النوايا، ربنا جزانا على النوايا.

بومدين: ماذا عن المستقبل سيادة الرئيس..؟

عبد الناصر: ونحن نتحدث عن المستقبل نأخذ درس الماضـي، أنـا قلـت النهـاردة للملك حسين: إنت وقفت موقف لن أنساه لـك، وقلتـه إمبـارح لـلأخ بومـدين، كـان (حسين) يقدر ما يحاربش، ماذا نعمـل في المسـتقبل..؟ الحقيقـة أنـا مـا عنـديش خـط واضح، وبالنسبة لينا إحنا الأمر مبني على نقطتين، يا إما نسلم يا إما نناضل، إحنا طبعا لا نستطيع أن نسلم لإسرائيل أو لأمريكـا مـن وراء إسـرائيل، وأنـا أعتبـر أن جونسـون في كلامه مع حسين منافق؛ لأنه كان يقـدر يضـغط عـلى إسـرائيل ومـا يأيـدهاش في الأمـم المتحدة، هو منافق وكذاب.

بومدين: ما في حرب 1956م الأمريكان تدخلوا.

عبد الناصر: وهم اللي مشوا اليهود، إيزنهاور اللي أخـذ الموقـف وهـو يختلـف عـن جونسون، عنده مبادئ أما جونسون فهو راجل.

بومدين: راعي بقر.

عبد الناصر: أنا الحقيقة النهاردة أبدي مشـكلة الأردن عـلى مشـكلة سـيناء؛ علشـان

اليهود إذا تشبثوا بالضفة لن يتركوها، ولازم في خلال شهر على الأكثر ينسحبوا منها.

أنا بأقول الملك حسين يروح يقعد مع الأمريكان، طب قول أنا هناضل وعندي إمكانيات أستطيع بيها استعادة سيناء، لكن الملك حسين هيناضل إزاي..؟ بياخد من أمريكا في السنة 50 مليون دولار بيدفع بيها مرتبات الموظفين، والله أنا ببكي على الضفة أكثر ما بابكي على سيناء والله وحده يعلم ليه..؟ أنا سيناء تجرحني وطنيًا، ولكن الضفة تجرحني إنسانيًا، وإذا سبنا الضفة إسرائيل عايزة فلسطين كلها والملك حسين ما يقدرش يعمل حاجة.

بومدين: أنا مش مؤيد.

عبد الناصر: طب يعمل إيه..؟ هل نترك عرب الأردن لليهود، هل هم يطلبون اعتراف..؟

حسين: حق الوجود.

عبد الناصر: الوجود، ولكن ما يطالبون به اعتراف وتبادل تمثيل، وبعدين القدس، باين الأمريكان مسلمين القدس لليهود.

مشكلة سيناء غير مشكلة الضفة بيسيبوا القناة ما تشتغلش عنها ما اشتغلت، بناكل بدل الرغيف نصف رغيف ونستحمل وضع سيناء، وبعدين إحنا يمكن نبتدي بعد 3 أو 4 شهور حرب عصابات في سيناء، وممكن نكفرهم في سيناء، وما نوصلش لهم مياه ولا أكل وما عندناش المدنيين اللي هينضربوا في سيناء؛ لأن سيناء تقريبا كعكة رمل فاضية، فأنا مع الأمريكان ما هاسلم لغاية ما يوصلوا إلى البيت في منشية البكري، وييجوا ياخدونى ويعملوا اللي عاوزين يعملوه ده بالنسبة لوضعي.

أنا عندى إمكانية أعمل، أنا باطلب من الروس ييجوا هنا، باطلب سلاح وطيارات وطيارين وأعمل معاهم دفاع مشترك، ومستعد أصل إلى أقصى مدى لأن الأمريكان عايزين يذلونا.

وأنا طلبت الأسطول السوفيتي، وصل بورسعيد النهاردة بعد ما طلبته أول إمبارح.

بومدين: وصل بورسعيد..؟

عبد الناصر: وصل بورسعيد؛ لأن أول إمبارح اليهود جايبين معدات قتال علشان يعدوا القناة، وأنا اعتبر أنني مش واقف قصاد إسرائيل، باعتبر إننى واقف قصاد أمريكا، ومش هاوصل إلى حلول وسط إذا قدروا يخلصوا علي وجابوا حد غيري يبقى أنا ماليش في هذا بقى، اللي هييجي يبقى هايمشي زى ما هو عايز (ضحك)، والا إيه يا أخ بومدين..؟

بومدين: بالنسبة لمصر الموقف واضح، لكن السؤال هو وضع الدول مثل سوريا والأردن..؟

عبد الناصر: سوريا ما عندهاش مشكلة المشكلة كلها عند الأردن.

بومدين: هل هناك إمكانية للتوصل في مؤتمرات القمة إلى حلول أم مزايدات فقط..؟ العراق أيضًا بالنسبة للأردن ومساعدته.

عبد الناصر: العراق دلوقتي هو الخاسر الوحيد؛ لأنه مانع الضخ (البترول) خالص ما عدا فرنسا وإسبانيا وتركيا، كلنا نعرف أن العراق لن يستطيع أنه يقعد شهرين بدون ضخ البترول.

أنا أقول في مؤتمر القمة أو غيره: إحنا مسئولين هذا الرجل كيف يحل مشكلة غرب الأردن، هل يترك الضفة في إيد اليهود لغاية ما نستعد بعد 10 سنين أو يعمل إيه..؟

أقوله سيبها وناضل وابني جيش..؟ كيف سيسترد الملك حسين غرب الأردن..؟ بالجيش..؟ مستحيل بالحرب..؟ مستحيل بالنضال..؟ الوضع كده (ضحك)، إذا هي عايزة عمل سياسي مع مين..؟ العمل السياسي قطعا مع الأمريكان.

حسين: إذا كان هذا هو الحل فاحنا سنذهب إلى مؤتمر القمة.

عبد الناصر: وإحنا هانروح معاك.

بومدين: وشروط إسرائيل مثل الاعتراف بالحدود والوجود..؟

عبد الناصر: إذا كنا هنجتمع في مؤتمر القمة ممكن نتفق ونبعت واحد لأمريكا يقابل جونسون ويقول له: آدى الأوضاع ولازم تنسحب إسرائيل، وإذا لم تنسحب إسرائيل بنكون واخدين قرار، كل الدول العربية تقطع علاقاتها مع أمريكا مثلاً، هل ده ممكن

يتم..؟ مش ممكن؛ لأن اللي ما قطعش علاقته بأمريكا مش هيقطع علاقته بأمريكا، أنا شايف مش حنقدر نعمل حاجة.

حسين: خلينا نذهب إلى المؤتمر ونثبت الأهداف اللي عايزينها، ونسأل اجتماعاتنا في القيادة الموحدة لمدة ثلاث سنوات، هل كانت تقديراتها صحيحة..؟ وهل نحتاج إلى أسلحة جديدة..؟ ذرية مثلا..؟

عبد الناصر: لا هم ما بيشتغلوش على الذرية، وإحنا ما عندناش معلومات صحيحة.

حسين: إحنا كأمة عربية أصبحنا على المحك، وقضية الضفة الغربية ليست قضية الأردن فقط.

بومدين: إحنا خسرنا الحرب وإسرائيل عندها شروط واضحة هل يمكن أن نقبل بها؟

عبد الناصر: الاتفاق مع الأمريكان بدون شروط إسرائيل هل ممكن يوصل إلى شيء خلال كلامك مع جونسون..؟

حسين: لأ.

عبد الناصر: ما اتفاقية الهدنة سنة 48 هي اعتراف بالأمر الواقع بوجود إسرائيل، وإلا ما كنا نعمل معاهم اتفاقية هدنة، كيف تعمل اتفاق هدنة مع واحد غير موجود..؟ لما نجيبها النهاردة ونقرأها هنجد فيها كلام كتير في معناه هو الكلام اللي بيطالبوا بيه الأمريكان النهاردة.

حسين: فيها نص استمرار الهدنة حتى توقيع الصلح.

عبد الناصر: والله أنا محتار وأنا أفكر فيه مجردًا من كل شيء والله والله الواحد عايز الموضوع يحل، بالحرب لن يحل الموضوع واللا إيه يا أخ بومدين..؟

بومدين: الأخ حسين هو من يستطيع أن يقرر، بدي نتشاور مع سوريا والعراق.

عبد الناصر: عسكريًا.

بومدين: نعم.

صوت أحد يهمس في أذن الرئيس.

عبد الناصر: وزير خارجية سوريا يريد الاتصال بك.

بومدين: بيَّ أنا..؟

عبد الناصر: نعم جهزوا التليفون في أوضه فاضية، الواحد مخه تعبان من يـوم خمسـة يونيو لغاية النهاردة، نتقابل بكره الصبح.

▪▪ ناصر 67 شهادة إسرائيلية [1]



1918 - 1970

والفضل ما شهدت به الأعداء:

لا شك أن الأدب الناضج هو تجسيد لوجدان البشر بكل ما ينتابه من آلام ومخاوف وإحباطات، وبكل ما يطمح إليه من آمال وأمان وتطلعات، وقد يكون العمل الأدبي غير مباشر في تعبيره عن هذه التوجهات والرغبات، بل ويجب أن يكون كذلك، وإلا أصبحت القصيدة أو القصة نوعًا من المقالة الصحفية أو التحليل السياسي أو التفسير الفكري، لكن العمل الأدبي يظل في النهاية نتاج بيئة إنسانية محددة وظروف تاريخية معينة، وإن كان يسعى دائمًا للخروج من المرحلة التاريخية الراهنة إلى رحاب الإنسانية الشاملة؛ أي من المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى الثوابت التي تبلور النفس البشرية في صميمها، وتجسد موقفها تجاه هذه المتغيرات، خاصة إذا كان من المحتم اتخاذ مثل هذا الموقف في مراحل التحول المصيرية أو في أوقات المحن التي لا يمكن تجنبها أو الهرب منها.

(1) د. نبيل راغب: ناصر 67 شهادة إسرائيلية، الناشر مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2010م، ص219-245.

ولن نتعرض للأدب الإسرائيلي في هذا المجال من الناحية الفنية والجمالية، فلسنا في معرض النقد الأدبي، وإن كنا سنستعين بعلم الاجتماع الأدبي وعلم النفس الأدبي في تحليل وطأة الضغوط الكابوسية التي مارستها حرب الاستنزاف على الجنود والجماهير الإسرائيلية كنوع من الشهادة الأدبية، سواء أكانت شعرية أم قصصية، تضاف إلى الشهادات العسكرية والسياسية والاجتماعية التي تضمنتها الفصول السابقة من هذه الدراسة.

وبذلك نضيف البعد الإنساني الذي يمثل موقف الإنسان اليهودي أو الصهيوني أو الإسرائيلي في مواجهة هذه الحرب، بعيدًا عن تيارات السياسة أو توجهات الاستراتيجية العسكرية، أو الضغوط الاجتماعية أو الحملات الإعلامية.

وموجز القول أن هذا الفصل هو تحليل لحرب الاستنزاف كمضمون فكري وثقافي وإنساني، شكل ملمحًا أو عنصرًا جوهريًا في الأعمال الأدبية الإسرائيلية، خاصة تلك التي كتبت في فترة حرب الاستنزاف فيما بين عامي 1967م، و1970م، ولعل من أهم المراجع في هذا الصدد كتاب د. إبراهيم البحراوي «أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر» الذي صدر عن سلسلة «كتاب الهلال» في يونيو 1972م، والذي قام فيه بترجمة النصوص الشعرية والقصصية عن الأصل العبري مباشرة مع نظرات نقدية وتحليلية ثاقبة سواء إلى الشكل الفني أو المضمون الفكري.

وهناك ظاهرة جديرة بالانتباه والتحليل، ذلك أن العروض المسرحية التي قدمت على مسارح تل أبيب وغيرها من المدن الإسرائيلية، في فترة حرب الاستنزاف، لم تمس هذه الظاهرة في الصميم، بل تجاوزتها إلى العروض الفكاهية والراقصة والموسيقية لتأكيد نشوة النصر التي أعقبت حرب يونيو 1967م، فليست هناك ثمة ضرورة لتجسيد مآسي حرب الاستنزاف على خشبة المسرح، والكل لاهون بمباهج الحياة التي أوحت إليهم بأن حرب يونيو هي آخر الحروب بعد أن أصبحت إسرائيل سيدة المنطقة بلا منازع، فلن يحتمل أحد الاستماع إلى أي نوع من البكاء أو العويل أو الأنين أو الشجب في المهرجانات والأفراح التي غرق فيها المجتمع المرفه حتى أذنيه.

لكن الحقيقة أن أعضاء «مجموعة النشر» التابعة لمكتب رئيس الأركان، كانت بالمرصاد لكل ما ينشر عن حرب الاستنزاف سواء في الصحف أو التليفزيون أو الراديو

أو حتى المسرح بصفته جهازًا جماهيريًا يمكن أن يمارس التأثير الإعلامي الذي تمارسه الأجهزة الأخرى، فلا يعقل أن يقوم قادة إسرائيل العسكريين والسياسيين بتجميل أنفسهم أمام الكاميرات والميكروفونات حتى أصبحوا نجوم المجتمع الساطعة هنا وهناك، ثم يأتي الكتاب المسرحيون ليقوموا بتعرية الجانب المعتم والكابوس الجاثم على كاهل الجيش الإسرائيلي في جبهة قناة السويس، مما قد يؤدي إلى خلق رأي عام مضاد لما يجري في المجتمع الإسرائيلي.

وذلك منعت «مجموعة النشر» بتوجيهات من رئيس أركان الجيش الإسرائيلي أي تعرية جادة لحقائق حرب الاستنزاف، بحيث لم يتجاوز الأمر السخرية من السلبيات العربية خاصة في مسارح المنوعات، مع تمجيد الشخصية الإسرائيلية التي أثبتت وجودها أمام العالم أجمع في حرب يونيو 1967م..!!

وقد يتساءل البعض عن السر في أصداء حرب الاستنزاف ونتائجها التي ترددت في القصائد والقصص الإسرائيلية، في حين إنها تلاشت تقريبًا في المسرحيات التي عرضت في تلك الفترة..؟! والإجابة عن هذا التساؤل ذات شقين:

الشق الأول: يتمثل في حرص «مجموعة النشر» على الحفاظ على الواجهة الديمقراطية البراقة بقدر الإمكان، بحيث تبدو السلطات الإسرائيلية مرحبة تمامًا بتعدد الآراء مهما كانت رافضة للتيار العام السائد.

والشق الآخر: يتمثل في ضعف تأثير القصيدة أو القصة على الجمهور تأثيرًا إعلاميًا؛ لأنها في النهاية قراءة فردية لا يمكن أن تكون في قوة وثقل التجمعات البشرية التي تحدث في المسارح، وإن كانت تقوم بدور التنفيس المحسوب لأية شحنات محتملة للرأي العام، وهي تقع بصفة عامة تحت بند الخيال الأدبي الذي لا يمكن التعامل معه كحقائق راسخة أو وقائع مادية ملموسة.

وكانت المسرحية الإسرائيلية الوحيدة التي تجاسرت بتعرية حقائق حرب الاستنزاف ووقائعها هي مسرحية «ملكة الحمام» التي هاجمت بأسلوب مباشر توجهات القيادة الإسرائيلية وأهدافها الحقيقية خلف إصرارها على إشعال نار العدوان والكراهية مع العرب.

وبطلة المسرحية فتاة إسرائيلية، كانت تعيش حياة طبيعية وهادئة، توجتها بقصة حب ملأت حياتها بهجة وسعادة، لكن القدر كان لها بالمرصاد، والقدر هنا هو الحكومة الإسرائيلية التي شنت حرب يونيو 1967م على جيرانها العرب، فالتحق حبيب الفتاة - مثل أي شاب إسرائيلي آخر- وانتظرت الفتاة حبيبها على أحر من الجمر وهي تدعو له بسلامة العودة من جبهة قتال فرضت على الإسرائيليين فجأة وبدون مبرر، ومن حرب لا تهم الفتاة في كثير أو قليل، وتصل المأساة قمتها عندما يبلغون الفتاة أن حبيبها مات في الحرب، ولن يعود إليها ثانية.

كان من الطبيعي أن تفقد بطلة المسرحية التحفظ الإسرائيلي التقليدي تجاه السلطة والقيادة، وتشرع في صب لعناتها على رأس الحكومة الإسرائيلية التي لا تعرف سوى أطماع التوسع الذي لن يجلب لها سوى الكوارث، وتطالبها بالتخلي عن هذه الأطماع الفارغة والمأساوية، وعدم ممارسة الغضوط الكريهة على الناس العاديين الذين من حقهم أن يعيشوا في سلام مثل أي شعب آخر، هذا إذا كانت الحكومة تنظر إلى الناس في إسرائيل على أنه شعب وليسوا جنودًا مرتزقة عليهم خوض الحروب المتتابعة كلما تأمر القيادة بذلك.

وقد أرادت السلطات الإسرائيلية أن تجعل هذه المسرحية عبرة لمن يعتبر، فتعرضت لها بالهجوم والمطاردة والمصادرة؛ لدرجة أن موشيه دايان شخصيًا، وصفها بأنها مسرحية حقيرة وقذرة، فهي تلطخ بالأوحال، الأمجاد التاريخية المبهرة التي حققتها إسرائيل في حرب يونيو، وتشيع في نفوس الإسرائيليين مشاعر الإحباط واليأس والضياع والعزلة والتشتت والقلق والخوف والاكتئاب وغير ذلك من السلبيات التي يحاربها جهاز صياغة العقل الإسرائيلي الذي يحتم عليه أن لا يتخلى عن منهجه العدواني والهجومي الرافض لقيم السلام والتفاهم مع العرب.

كانت كل ما تمنته بطلة مسرحية «ملكة الحمام» أن تعيش في سلام مع حبيبها، لكنها أمنية تتنافى تمامًا مع أماني السلطة الإسرائيلية التي تصر على العيش في حرب متجددة مع جيرانها، أي أنها سلطة لا تجلب سوى الموت للواقعين تحت وطأتها، فالدولة الخالصة العنصر هي الهدف الصهيوني الأول، وأي تعايش عنصر آخر إلى جانب العنصر اليهودي لا بد أن يضرب المشروع الصهيوني في الصميم؛ ولذلك يجب أن تظل إسرائيل في حالة

استنفار عسكري دائم ومتجدد حتى لا يصيبها السلام باسترخاء قد يصيبها بالتفتت والتآكل والذوبان في أمواج المحيط العربي الذي يحاصرها من كل جانب باستثناء ساحل البحر.

أين إذاً واحة الديمقراطية التي تتشدق بها إسرائيل، التي لم تحتمل حكومتها مجرد عرض مسرحي مثل «ملكة الحمام» فسحقته بالمصادرة الفورية حتى لا يفكر كاتب مسرحي آخر في السهير على هذا النهج..! وبالفعل حققت السلطة الإسرائيلية هدفها، ولم يعد المسرح الإسرائيلي يشكل لها صداعًا فيما يتصل بموضوع حرب الاستنزاف الدائرة على الجبهة الجنوبية، خاصة بعد أن تأكد الجنرالات من أنها حرب لا تبدو لها نهاية قريبة، وليس في صالحهم أن تضرب العروض المسرحية على الأوتار المؤلمة للإسرائيليين.

بل يكفي السماح بمعالجة هذا الموضوع الشائك والحرج للشعراء وكتاب القصة حفاظًا على المظهر الديمقراطي لإسرائيل، واطمئنانًا لعدم التأثير الجمعي الفعال لبضعة قصائد أو قصص تنشر هنا أو هناك، وفتحًا لثقب ينطق منه البخار المكبوت الذي يتجمع بعد كل ضربة من ضربات الصواريخ والمدفعية المصرية الثقيلة، وكذلك الطائرات في السنة الأخيرة من حرب الاستنزاف.

ولعل مقال الناقد الإسرائيلي آهود بن عزر الذي نشر في الملحق الأدبي لصحيفة «عل همشمار» في 3 يوليو 1970م، والذي لخصه إبراهيم البحراوي في كتابه «أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر» يوضح لنا التوجهات الأساسية التي تتحكم في الأدب الإسرائيلي:

1- هناك تدخل في حرية التعبير الأدبي الإسرائيلي إذا جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الإسرائيلية، هذا على عكس ما هو شائع عن حرية التعبير المطلقة في إسرائيل، وهو أمر يمثل الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدباء الإسرائيليين - بالإغراءات والضغوط- من أجل الدعوة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيوني العامة.

2- هناك أدب في إسرائيل يواكب أهداف السلطة، ويدق لها الطبول، وهو أداة في

يدها لتحريك الجماهير اليهودية... وهو أدب يحمل سمات الصبغة والافتعال.

3- هناك صراع قائم في إسرائيل بين تيارات الفكر العلماني الصهيوني والفكر الديني الصهيوني أيضًا، ولا فارق بالنسبة إلينا في غلبة أحدهما، فكلاهما صهيوني مجند بوعي أو دون وعي لخدمة أهداف استعمارية على أرضنا.

4- هناك في إسرائيل دعوة مفتعلة لما يسمى بالقومية اليهودية وارتباطها بالأرض العربية المحتلة قبل 1967م وبعدها، وهي دعوة تنعكس على الإنتاج الأدبي كذلك.

إن قطاعًا كبيرًا من الإنتاج الأدبي في إسرائيل بعد 1967م، تنطبق عليه صفة أدب الدعوة أو ما يسمى لدى النقاد الإسرائيليين، بالأدب المجند والأدب الوليد الفوري للحظة والحدث، والأدب الإسرائيلي بصفة عامة، أدب ملتزم بدعوى معينة تمثل لب العقيدة الصهيونية، وهي دعوة الشعب اليهودي الواحد المتميز الذي ينبغي له أن يتجمع فيما يسمى بأرضه التاريخية.

وكانت حرب يونيو 1967م ترسيخًا عمليًا لهذه الدعوى التي غلفتها قشرة سميكة من الصلافة والغرور، تحاول أن تخفي قاع المجتمع الإسرائيلي الذي يفور بصراعات فكرية وتخبطات سيكلوجية، ويمور بتوترات عصبية لا مهرب منها بحكم التركيبة المتنافرة لهذا المجتمع؛ ولذلك يخطئ من يظن أن الأثر الوحيد الذي أشاعته حرب يونيو بين جنبات المجتمع الإسرائيلي هو أثر النشوة بالانتصار العسكري والاسترخاء النفسي على المستويين العام والفردي.

وتتجلى هذه الترديات والصراعات والتخبطات والتوترات في الأشعار التي كتبت في فترة حرب الاستنزاف، التي قضت على أي إحساس بالأمن والاستقرار عند الإسرائيليين، الذين ظنوا أن حرب 1967م قد أنعمت أخيرًا بهما عليهم؛ ولذلك انطفأت أنوار المستقبل مع إشعال الانفجارات المدوية والنيران المتأججة في الجبهة الجنوبية، ويدلل إبراهيم البحراوي على على التوجه بقصيدة الشاعرة الإسرائيلية حدفاه هركافي «ثلاث أغان» التي نشرتها في الملحق الأدبي في جريدة «عل همشمار» في 13 ديسمبر 1968م، والتي تعبر فيها بأسلوب رمزي يوحي بمدى الضياع والرعب الكابوسي الذي يجتاح المجتمع الإسرائيلي، وذلك نتيجة للاستنزاف المستمر في أرواح

الجنود والمجندين **تقول الشاعرة الإسرائيلية:**

صـــــمت ووجـــــل

شـــارع متـــوهج.. قـــاس

كغريـــب عـــن الـــوعي

خرج ...

قمـر صـريع يلامـس.. جسـدي..

فجـــأة.. يتحـــول إلى معـــول

معلـــق.. مشـــحوذ.. يبـــرق..

الطفـــل في حضـــني.. مقـــرور

مبلل..

دعيـة في الزاويـة.. غطيـه بـالرداء

وصـــدى يبتلعـــه صـــدى

لكـــن.. هيـــا.. انتظـــري

ربـــــاه..! ربـــــاه..!

الظلمـــة إلى هـــذا.. المـــدى

موحشة..

أفـق أسـود.. كلوحـة عـلى جبينـي

كـــم عـــليَّ أن أســـقط..؟

كـــم عـــليَّ أن أتراجـــع..؟

فمـــا أكثـــر الكواكـــب ضـــدي..

وآنــــــذاك.. يبــــــدأ الإنســـــان

خروجًــــــا.. عــــــن وعيــــــه

الآخـــــرون.. عنــــه يعلمـــــون

غيــــــر أنهـــــم.. في أي مــــــرة

معه..

لا يكونــــــــــــــــــــــــون..

وبعـــــد ذلــــك.. مـــــن هنالـــــك

طردوني..

هكـــــذا.. بأقصـــــى حقــــدهم

أبعدوني..

وأنـــــــــا.. لم يعـــــــــــد لي

مـــــــا أرجـــــــع إليـــــــه..

لا مدينــــــــــــــــــــــــة..

أبعـــــث فيهـــــا حيـــــاتي..

ولا رقعـــــــــــــــــــة أرض..

لـــــــــــدفني في ممـــــــاتي..

لقد نشرت هذه القصيدة في ديسمبر 1968م، أي بعد حرب يونيو 1967م بعام ونصف، أي أنه من المفروض أن مكاسب إسرائيل من الحرب كانت قد ترسخت

وأصبحت أمرًا واقعًا، كما حاول قادة إسرائيل السياسيون والعسكريون تأكيد هذا التوجه أو الإحساس في وجدان الإسرائيليين، لكن مضمون هذه القصيدة يوحي بعكس ذلك تمامًا، مما يدل على حجم وثقل الضغط العسكري الذي مارسته مصر حتى تاريخ نشر هذه القصيدة، والذي رسخ كل أحاسيس الضياع والتشتت والشتات مرة أخرى في نفوس الإسرائيليين في أعقاب زهوة النصر التي تلاشت كسحابة صيف.

إن صور القصيدة ورموزها مستوحاة من جو الكوابيس الذي صنعته حرب الاستنزاف بتزايد أعداد الجنود القتلى على ضفة القناة، فليس هناك ثمة أمل - سواء في المستقبل القريب أو البعيد- للخروج أو الاستيقاظ من هذا الكابوس؛ لأن الجنود والفدائيين المصريين لا يتوقفون عن الضرب والهجوم والتسلل وعمل الكمائن وزرع الألغام بحيث أصبح كل جندي إسرائيلي على ضفة القناة «لم يعد له ما يرجع إليه.. لا ميدنة يبعث فيها حياته.. ولا رقعة أرض لدفنه في مماته».

وسواء أكانت الشاعرة تستنهض الإسرائيليين للإسراع بالإمساك بزمام المبادرة مرة أخرى، أو أنها تعبر عن تجربة مأساوية لا تستطيع الفكاك منها، فإنها في كلتا الحالتين تصور وتجسد كابوس حرب الاستنزاف الجاثم على كاهل الإسرائيليين الذين تلاشى إحساسهم بالأمن في واقعهم اليومي، أو بالأمل في مستقبلهم المنظور على أقل تقدير، فقد أصبح الأمل قمرًا صريعًا تحت وطأة الحرب التي تحولت إلى معول معلق على رقابهم بحده المشحوذ الذي يعشى برقه الأبصار، التي لم تعد قادرة على رؤية جوهر الأشياء وحقائق الأمور.

والطفل الذي يرمز إلى الأمل في المستقبل لم يعد ذلك الكيان الجميل المثير للبهجة والسعادة بضحكاته البريئة، خاصة عندما يشعر بالدفء والحنان في حضن أمه، بل أصبح مخلوقًا مرتعشًا مبتلاً فاقدًا للعلاقة الحميمة مع أمه المضطربة، وربما كان الرمز موحيًا بالعلاقة بين المواطن الإسرائيلي وإسرائيل التي يعتبرها أمه بكل المقاييس، لكن حرب الاستنزاف أثبتت أنها على استعداد لأن تلقي به في الزاوية بعد أن عجزت عن حمايته، في حين أنها تتحرق شوقًا كي تغطيه بالرداء لتصد عنه عواصف سيناء وأهوالها، فهي عاجزة عن اتخاذ موقف محدد ينهض على اليقين؛ لأن الأمر كله مأسوي للغاية،

عبارة عن صدر يبتلعه صدى.

ولا ترى «حدفاه هركافي» في مستقبل إسرائيل سوى ظلمة حالكة، موحشة، بعيدة المدى، والمسافة بين جبين الشاعرة والأفق الذي تحاول أن تتلمسه سواد في سواد، وعتمة الجبين هي الواجهة المرئية لعتمة العقل الذي تخترقه التساؤلات كأسنان سهام محماة بالنار:

كـــم عـــليَّ أن أســقط..؟

كـــم عـــليَّ أن أتراجــع..؟

فمن الطبيعي أن يسقط الإنسان في الظلمة التي لا يرى فيها وقع قدميه، ومن الطبيعي أيضًا أن يفكر في التراجع لعله يكتشف طريقًا فيه بصيص من الأمل، لكن إسرائيل أنشئت خصيصًا للإفلات من الماضي المظلم والأسود نحو آفاق مستقبل مضيء؛ فإذ بالمستقبل أشد حلكة من الماضي؛ لدرجة أن الإسرائيلي يشعر أن الكون كله - متمثلاً في الكواكب- أصبح ضده.

كان حصاره في الماضي حصارًا اجتماعيًا وأصبح الآن حصارًا كونيًا، كما لو كانت تعاسة إسرائيل تعاسة أبدية، وأن حرب الاستنزاف هذه هي حلقة في سلسلة طويلة من التعاسة تمتد عبر الأجيال والقرون، وإذا كانت التعاسة هي القاسم المشترك في تاريخ بني إسرائيل، فلا بد أن يكون العيب فيهم وليس في الشعوب التي كتبت عليها أن تتعامل معهم في مختلف الأزمنة والأمكنة؛ إذ لا يعقل أن تكون كل هذه الشعوب المتعددة والمتنوعة على خطأ، وبنو إسرائيل على صواب.

لقد اعتادوا أن يجلبوا التعاسة لأنفسهم ثم يصرخون ويولولون كي تسري التعاسة إلى الآخرين فيستريحون ولو على سبيل التعويض السلبي، لكنهم في كل الأحوال يدفعون الثمن غاليًا وإن كانوا يوهمون أنفسهم بأنه قدر مكتوب عليهم لا فكاك منه، والمأساة أن الآخرين يعلمون هذه الخطأ المأسوي في تكوين بني إسرائيل، ويحاولون مرارًا وتكرارًا أن ينبهونهم إليه، لكن آذانهم المسدودة هي الرد الوحيد، بل إن كثيرًا من الإسرائيليين أنفسهم يدركون هذا الخطأ المأسوي، لكنهم مثل أبطال وشخصيات التراجيديا الإغريقية لا يملكون له دفعًا، ويكررونه في تسلسل زمني لا يتوقف، وتصل

المأساة قمتها عندما تضطر الشعوب المبتلاة بهم إلى مشاركتهم في دفع الـثمن، صـحيح أن حرب الاستنزاف كانت وبالاً على إسرائيل لكن مصر في الوقت نفسـه دفعـت الـثمن غاليًا من بنيتها الأساسية ومستقبل أجيالها ورصيدها المادي والاقتصادي.

يحلل إبراهيم البحراوي قصيدة «ضـيق عـابر» فيوضـح أن الشـاعرة تبـدأ قصـيدتها متباكية على حال طفل يندب موتاه، ويصلي شاكيًا الظلـم المحيـق بالطفولـة الإسـرائيلية نتيجة فقد ذويها نتيجة لحرب الاستنزاف التي لا تبدو لها نهاية، تقول الشـاعرة شوشـانة بيلوس:

صـــــلاة طفـــــل في الحقـــــل

تنـــــادي عـــــلى الميـــــت

تحكـــي عـــن ظلـــم مـــن تحـــت

شـــــــــجرة قديمـــــــــة..

في مكـــان لـــيس مـــن ينتبـــه فيـــه..

لمـــــرأى قـــــدمين صـــغيرتين

تـــزلان منـــزلقين في جنبـــة الحقـــل

بـــين ظـــلال متراكمـــة محتشـــدة

وأصـــــوات تبعـــث الخـــراب

في مـــــــدارك رقيقـــــــة..

والملاحظة المثيرة للضحك والسخرية المريرة هنـا أن الشـاعرة تنعـي حـظ الطفـل الإسرائيلي الذي فقد ذويه نتيجة الظلم الذي يمارسه المصريون عليهم بمواصـلة حـرب الاستنزاف، وهي نفس النغمة القديمة التي اعتادها بنو إسـرائيل، والتـي تؤكـد وتـوحي لهم دائمًا أنهم يحـاربون مـن أجـل الحـق والعـدل والكرامـة، في حـين أن الآخـرين لا

يعرفون سوى الباطل والظلم والمهانة.

وكأن احتلال إسرائيل لسيناء هو الحق والعدل والكرامة، أما السعي الحثيث والدءوب لتحريرها من غزوهم واحتلالهم فهو الباطل والظلم والمهانة، ولا شك أن قلب الحقائق رأسًا على عقب كان دائمًا السمة المميزة للفكر الإسرائيلي الذي يفسر كل القيم والحقائق الإنسانية من منظوره الذاتي الضيق، وعلى الآخرين أن يتقبلوا هذا المنظور كما لو كان الحقيقة الوحيدة التي لا حقيقة غيرها.

والملاحظة الأخرى المثيرة للدهشة والاستغراب أن الشاعرة تصور الإسرائيليين على أنهم مجموعة بشرية في منتهى الرقة والعذوبة والحساسية، وهذا في نظرها خطأ مأسوي لأنهم يعيشون في غابة يحكمها الأسود والتماسيح والثعابين والعقارب؛ ولذلك يتحتم عليهم أن يتحرروا من الأحاسيس الرقيقة والمشاعر الرهيفة كي يمارسوا نفس أنواع البطش والتنكيل والردع والذبح والتقتيل..!!

وكأنهم لم يمارسوها طوال تاريخهم المكتوب، فهم رواد في هذا المجال، وهي اللغة الوحيدة التي يتكلمون بها ويفهمونها كلما أتيحت لهم الفرصة، وكأن عبد الناصر مدركًا لهذا الجانب الجوهري في الشخصية الإسرائيلية، فلم يتعامل بالمفاوضات أو الشعارات أو المطالبة بالحقوق المسلوبة، بل تعامل معهم باللغة الوحيدة التي يستوعبونها وهي: الحرب، وهو الذي أعلن في أعقاب حرب يونيو 1967م أن ما أخذ بالقوة لا بد وأن يسترد بالقوة، وأن لا صوت يعلو على صوت المعركة.

فإذا كان الأطفال اليهود يرضعون العنف والقسوة والإحساس الميت مع ألبان أمهاتهم، فيعلموا أن هناك أسودًا آخرين في الغابة بحيث تصبح عمليات الافتراس متبادلة وقائمة على قدم وساق، ولعل هذا يفسر لنا الوصف الشهير الذي أطلقهم عليهم السيد المسيح عندما قال: «إنهم شعب غليظ الرقبة»، تتغنى الشاعرة بالأحاسيس الميتة فتقول:

إن الأب الذي يورث ابنته الحساسية

يعلم أن الوقت غير مناسب على الإطلاق

للأحزان.. والكلمات المتكسرة المكسورة..

إن جنـــون اليـــأس وخيبـــة الأمـــل..

يغـرس في نفسـها أحلامًـا حـول واقـع مـا..

في إن كانـــت لهـــا غايـــة ومصـــير..

مـــــن العـــــار أن يضـــــيعا..

بينمـــا الآن مشـــاهد الطبيعـــة ميتـــة..

ومرئيـــــات ســـــقيمة ذابلــــــة..

تتـــــرى متلاحقــــــة في نفســــــها..

أي أن طبقـًا للتقاليد الإسرائيلية، لا يملك الأطفال الحق في أن يعيشوا طفولتهم بكل براءتها ونقائها، بل عليهم أن يتعلموا منذ البداية المبكرة كيف يواجهـون اليـأس وخيبـة الأمل، حتى لا يضيعوا غايتهم ومصيرهم، خاصة وأن الشـواهد المعاصـرة تؤكـد هـذه الـدلالات، وفي مقـدمتها حـرب الاسـتنزاف التـي أكـدت للإسـرائيليين أن اسـتمرار احتلالهم لسيناء لن يقدم لهم سوى مشاهد الطبيعة الميتة، والمرئيـات السـقيمة الذابلـة التي تترى متلاحقة دون توقف.

ولذلك فالفرح الذي تحلم به إسرائيل لن تحصل عليه طالما أنها لا تحيد عن طريـق أخطائها المأساوية، تقول الشاعرة:

ســلام أيهــا الفــرح الســليب..

شـــمس تجاهـــد أن تضـــيئ..

عبـــر زجـــاج قـــاتم اللـــون..

مترب..

طفولـــــة أمـــــدها قصـــــير..

أيـــــام عديـــــدة مـــــلآى..

بانكســـــــار القلـــــــب..

بالمرارة..

تحـــــــل بـــــــالأحزان..

أما قليـل الكمـال.. قليـل التمـام..

فمخـــــالف لهـــــذه الأيــــام..

فهـــو كالضـــياء الـــذي فجـــأة..

فـــــــوق الربـــــــــى..

ينطـــــــوي ويتبـــــــدد..

قبــــل حلـــــول الظـــــلام..

ولولا حرب الاستنزاف لما سادت هذه النغمة الحزينة والكئيبة والمأسوية الشعر الإسرائيلي، فقد تمنى شعراء إسرائيل أن يتغنوا بأمجاد حرب يونيو، وبدأ بعضهم بنغمة متفائلة زاخرة بالثقة والفخر، لكن سرعان ما أعلن عبد الناصر حرب الاستنزاف، التي أحدثت صدمة مذهلة بالنسبة للقادة الإسرائيليين جميعًا؛ لأن عبد الناصر لم يكن لديه طائرات أو دبابات بعد أن فقد جيشه أكثر من 90٪ من أسلحته في انسحابه العشوائي والمتسرع صوب قناة السويس.

واعتقدوا أنه لن تقوم له قائمة قبل عشر سنوات على الأقل، تكون إسرائيل فيها قد سبقته بمراحل عديدة في كل نوعيات التسليح، هذا لو امتد به العمر لأنهم كانوا يعلمون أنه يعاني من مضاعفات مرض السكر الذي يمكن أن يتحالف مع الضغوط النفسية والعصبية الرهيبة التي يمر بها؛ نتيجة للهزيمة المنكرة التي لم يكن يتصور أن يمر بها في يوم من الأيام، ومع ذلك تجلت إرادته الحديدية، وفكره الثاقب، وحساباته الاستراتيجية، ورؤيته المستقبلية في وقت قياسي.

وبرغم كل السلبيات والإحباطات توجهت الروح المصرية وشرعت في الحال في تطبيق المبدأ الذي أعلنه عبد الناصر: «ما أخذ بالقوة لا بد وأن يسترد بالقوة»، وسرعان ما عادت النغمة الحزينة والباكية والمأسوية إلى الشعر الإسرائيلي؛ لتؤكد أن العقد النفسية الكامنة في أعماق الشخصية الإسرائيلية عبر الأجيال والقرو، كانت ولا تزال هي الدافع والمحرك لفكرها وسلوكها، خاصة وأنها حافلة بالمتناقضات التي تتراوح بين أخطر درجات جنون العظمة وأسوأ أنواع عقد النقص والاضطهاد والانسحاق.

فقد تجلى جنون العظمة في أعقاب حرب يونيو لكنه سرعان ما ترك مكانه لعقد النقص والاضطهاد بمجرد ورود أنباء القتلى والمصابين في جبهة قناة السويس، وقد كان هذا هو هدف عبد الناصر على وجه التحديد حتى تعود إسرائيل إلى حجمها الطبيعي، بعيدًا عن ذاتها التي تضخمت بلا مضمون حقيقي، وحتى يدرك العالم الخارجي أن موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط لم تختل بالشكل الذي ادعته إسرائيل.

ولعل قصيدة «إحساس» للشاعر الإسرائيلي يصحق بولاق، التي نشرت في الملحق الأدبي لصحيفة «معاريف» بتاريخ 10 أكتوبر 1969م، خير دليل على وطأة حرب الاستنزاف على إسرائيل، فهو يقول في افتتاحية القصيدة:

أحس بروائح قوية..

روائح جثث..

روائح لحم.. في ضرام عنيف

من الزيت يحترق..

يشوي على صدر مقلاة من

الرمال..

يزيد من رقعتها ومداها..

مصدر عال..

ليست هناك صورة شعرية أكثر مباشرة وبشاعة من هذه الصورة، التي لو كتبها شاعر مصري أو عربي لما صدقه أحد، واتهم بالمبالغة، فقد شهد بهذه القصيدة شاهد من أهلها، وعلى الرغم من تشدق اليهود الأزلي والأبدي بشريعة موسى عليه السلام، فإن الفكر المضاد لهذه الشريعة يتفشى بينهم خاصة في أوساط المثقفين.

فالشاعر هنا يقصد بالمصدر العالي مصدرًا سماويًا يعمل على زيادة مدى رقعة المقلاة الرملية التي يتم على صدرها شي جنود إسرائيل في الزيت المحترق، وهذا مفهوم لا ديني يناقض تمامًا مفهوم شعب الله المختار؛ إذ كيف يقوم الله بشي شعبه المختار وينحاز بذلك إلى صف أعدائه..؟! ويعتقد إبراهيم البحراوي أن الشاعر يهدف إلى ترسيب إحساس في وعي القارئ الإسرائيلي بأن مسئولية الخلاص مسئولية ملقاة على عاتقه وحده، حتى ضد القوى السماوية.

وهذا يعني أن القضية ليست دينية أو عقائدية أو تراثية تهدف إلى حماية اليهود من أعدائهم، بل هي قضية سياسية وعسكرية واقتصادية ودنيوية بحتة، وليست لها علاقة بمجموعة من البشر المضطهدين من أجل تمسكهم بعقيدتهم الدينية، وحرصهم عليها لدرجة الاستشهاد، فهذه كلها شعارات براقة مدفوعة لتغطية الأهداف الإمبريالية الدولية الحقيقية التي تقف خلف المصالح والاحتكارات الاقتصادية العالمية.

وكعادة اليهود عبر تاريخهم الطويل، فإن الشاعر يحاول الربط بين التراث اليهودي والصهيوني، وبين ما أصاب إسرائيل في حرب الاستنزاف، يقول:

سداد الحسابات في ظني

فيما بين الهزيمة.. بدأ

هناك.. ألقى رب إبراهيم

المهزوم..

إلى نيران آتون..

ملاحظة شعرية: بالمناسبة استكمل الآتون وحفظ على مر الأجيال منذ أيام ما بين

النهرين وحتى معتقلات أوشفتس.

ومنــــــذ دمــــــرت أوثــــــان

عــــــاموره وســــــــادوم

وأبنــــــــاؤه بــــــــاطراد

تحـــت شـــعار «لا تقتـــل»

يقتلون..

أي أن اليهود كانوا - عبر تاريخهم- ضحية تطبيقهم لوصية «لا تقتل»، إحدى الوصايا العشر التي نزل بها الوحي على موسى، وكأنهم لم يعرفوا القتل في حياتهم، وهذا تزييف مفضوح للتاريخ الذي إذا وضعنا مراحله الأخيرة في اعتبارنا فلا بد أن نتساءل: من الذي بدأ بالهجوم والتقتيل في حروب 1948م، و1956م، و1967م..؟! وعندما بدأ عبد الناصر حرب الاستنزاف ضدهم، عادوا إلى اللطم والعويل والندب على أبنائهم القتلى الذين قدموهم بأيديهم إلى المحرقة المصرية، التي لم تكن لتمس شعرة فيهم لو لم يحتلوا سيناء في غفلة من الزمن، يقول يصحق بولاق:

بعينـــي رأســـي.. شـــاهدت

في يقظـــــة.. أو في منـــــام..

مـــا يشـــبه تمثـــالاً منتصـــبًا

يــــــــداه إلى أعـــــــلى..

مرفوعتان..

إنـــه دعـــــاء الأمهـــــات..

ملعـــون هـــو مـــن يبعـــث..

أولادنـــا إلى مـــذابح الأوثـــان..

القائمـــــــة.. الحمـــــــراء..

اللهم..

الأبنــــــــاء فـــــــارحم..

والآبـــــــاء فـــــــارحم..

وضـــــع نهايـــــة لتقـــديم..

إسحق..

ذبيحــــــــة وقربانـــــــــًا..

هكذا يقلب الإسرائيليون الأوضاع والمفاهيم رأسًا على عقب، بحيث يصبح الغزاة المعتدون ضحايا وقرابين وذبائح، والمقاومون للغزو والساعون لتحرير أرضهم مهما كانت التضحيات، قتلة وسفاحين..!! ولا فرق في توظيف هذه النغمة التقليدية بين شاعر ملحد وشاعر متدين.

فهم الضحايا والقتلى والجرحى من أجل الحفاظ على الأرض التي يحاول المصريون اقتلاع جذورهم منها، وكأن سيناء التي يحتلونها هي أرضهم التي يضربون بجذورهم فيها، لكن حرب الاستنزاف تقتلع هذه الجذور يومًا بعد يوم..!! بهذه البساطة الخادعة يعبر الشاعر يعقوف ريمون في قصيدته «إلى متى..؟»، عن هذا المفهوم المزيف، والتي نشرها في الملحق الأدبي لصحيفة «هاتسوفيه» في 4 يوليو 1969م.

بـــــين المعجــــزة.. وأختهـــــا

ظـــــــــــلال.. تمـــــــــــر

ظلال..

بأنـــــات الثكـــــالى.. مشـــــبعة

تحمـــــــــل في حناياهـــــــــا

الجروح..

أشـــــبالنا.. زهـــــرات جيلنـــــا

مـــع كـــل صـــباح.. عبـــر القنـــاة

يتســـــــاقطون.. يـــــــذوون

كـــــــأعواد زرع أخضـــــــــر..

مـــــن جـــــذورهم.. يقلعـــــون..

ويعقوف وريمون شاعر متدين ينشر إنتاجه في صحيفة الحزب الديني القومي، ومـع ذلك لا نجد فرقـًا في توجهه الفكري والسياسي بينه وبين شاعر غير متدين مثل يصـحق بولاق، فكلاهما يتفقان في الغاية وهي ترسيخ جذور إسـرائيل في أي أرض تحتلهـا، وإن اختلفت الوسيلة، فإذا كان بولاق يعتمد في هذا على سواعد الشباب الإسـرائيلي وطاقاتـه دون عون ميتافيزيقي، فإن ريمون لا يـزال مؤمنـًا بـأن إلـه إسـرائيل لـن يـتخلى عنهـا، وسيمدها بمعجزاته التي لا تنتهي، برغم أن حرب الاستنزاف لا تبدو لها نهاية قريبة:

رباه..!

مـــــن نوافـــــذك.. تشـــــهد

آلام الخـــــــــــــــلاص..

كثيفـــــــة.. مكثفـــــــــة..

ونحن..

بـــين مـــرور معجـــزة وأختهـــا..

نحصـــى موتانـــا.. وقلوبنـــا..

نسأل..

إلى متى..؟ إلى متى..؟

يظـــــل يومنـــــا المـــــأمول..

عـــــــــلى دمانـــــــــــا..

يسير..

لكن عبد الناصر حرص - بحرب الاستنزاف- على أن يجعل هذا اليوم المأمول أبعد ما يكون، حتى يتيقن الإسرائيليون أن دماءهم هي الثمن الوحيد لاحتلال أراض ليس من حقهم البقاء عليها ولو ليوم واحد، وأن روحهم العدوانية لا يمكن أن تجلب لهم السلام والأمن والاستقرار، فهم مغرمون بالجمع بين المتناقضات، مثل الجمع بين احتلال سيناء والبكاء في الوقت نفسه على قتلاهم ضحايا هذا الاحتلال.

وكان تأثير حرب الاستنزاف غائرًا في قلب المجتمع الإسرائيلي وعقله؛ لدرجة أن شاعرًا مثل يصحق شاليف ألف ديوانًا شعريًا كاملاً عنها، نشره في يوليو 1970م بعنوان: «شباب عائد من الجيش»، الذي اختار منه إبراهيم البحراوي قصيدة «صلاة على جرحى الحرب» وهي عبارة عن مشاهد متتابعة تصور نماذج من الشباب الإسرائيلي البائس العائد من الحرب، سواء عاد مقعدًا أو مشلولاً أو مبتورًا أو جثة ساكنة في تابوت.

وهذا الشباب هو ضحية قادته السياسيين والعسكريين الذين افتعلوا حرب يونيو 1967م، ثم ألقوا به في آتون حرب الاستنزاف التي شنها عبد الناصر كرد حتمي على حرب يونيو؛ ونظرًا لأن الشاعر عاجز أن يغير شيئًا من القدر الذي تجسده القيادة الإسرائيلية التي لا راد لقضائها، فإنه يلجأ إلى الدعاء والمناجاة كالنسوة العجائز اللاتي لا يملكن أية قدرة على القيام بأي فعل إيجابي أو سلبي.

رب المصـــابين الســـاكنين في الجـــبس..

رب المصابين من يتنفسـون الأكسـجين..

رب النفــوس التــي تلفــظ أنفاســها..

كجمـــــــــــرة خابيـــــــــــة..

ســــــــاعية إلى نهايتهــــــــــا..

ثم تتوالى المشاهد المأسوية التي لا يعلق عليها الشاعر؛ لأنها لا تحتاج إلى تعليق، فالألوان والظلال والرموز والأبعاد والأعماق تتكلم بخصوبة وتركيز لا يستطيعهما التعليق المباشر عندما يعبر عن حرب الاستنزاف، كخنجر في قلب إسرائيل التي كان في إمكانها أن تتجنبه لولا جموح قادتها، ورغبتهم الحارقة في فرض سطوتهم على المنطقة، وكانت النتيجة:

رب النفــوس التــي فــوق أســرتها..

أكيــاس الــدم أرجوانيــة اللــون..

معلقة..

والتـي قطـرات الـدم السـائلة في الأنابيـب

بالنســبة لهـــا.. كســاعة تضــبط..

حيــــــــاة الـــــــــزمن..

والشاعر يدعو الله لإنقاذ قومه من المحنة التي وقعوا فيها، أو بالأحرى التي صنعوها بعد أن ظنوا أن كل الأمور قد دانت لهم، ولم يعد أمام المصريين سوى الاستسلام والعيش تحت رحمتهم، لكن الموقف سرعان ما انقلب كابوسًا لا يمكن الهروب منه إلا بعقاقير التهدئة وعقاقير التنويم:

جــل رب النفــوس التــي تعــيش

مــا بــين عقــاقير التهدئــة وعقــاقير التنــويم

مــا لا يقــدر عــلى تجليــه لــلأرواح

سواك..

لقد اعتاد اليهود عبر تاريخهم أن يتفننوا في إنـزال المصـائب بـالآخرين أو بالأغيـار كلما تمكنوا من ذلك، تطبيقـاً لمبدأ «مصائب قوم عند قـوم فوائـد»، لكـن إذا تحولـت الفوائد إلى مصائب على رؤوسهم، فإنهم سرعان ما يلطمون الخدود، وينعون الحظـوظ، ويدعون الله أن ينقذهم من كوارث لم يجبرهم أحد على التسبب فيها، بل إنهم يتجـاهلون أنهم السبب ويسألون الله عن السبب:

مـــا ســـر العـــذاب وهـــذه المعانـــاة..؟

مـــا الغايـــة مـــن أعمالـــك..؟

الغايـــة مـــن المشـــلول والمبتـــور

الغايـــة مـــن ســـاق معلقـــة بمســـمار

في عظمهـــــــــــــــــــــا..

قـــل يـــا رب.. قـــل.. أفصـــح..!

وكأن الشاعر لا يعرف السر في هذا العذاب وهذه المعاناة، وكأن الله هو الذي دفعهم لشن حرب يونيو 1967م واحتلال سيناء..!! وطبقـاً لهذا الفرض الغريب فإنهم يطلبون من الله أن يوقف حرب الاستنزاف حتى لا تطول قائمة القتلى والمشلولين والمبتـورين، بشرط ألا ينسحبوا من سيناء، وكأن كل الأمور يجب أن تتم بشروطهم، حتى في تعاملهم مع الله نفسه:

رب الأجســـــاد الســـــاكنة

في أســـــــــــــــرتها

مجمـــــدة دونمـــا بـــــرد

مكبلـــــــة دون قيـــــــود

رب الشـباب الـذي قضـى عليـه

بالنضوج فوق الكراسي المتحركـة

رب الشـبان الـذي قضـى علـيهم

بالموت..

في قبر هو حشـيتهم وتحـت نصـب

هـــــــــو ملحفهـــــــــــم..

قــل لهــم يــا رب عــلى الأقــل

كلمة..

أطلــــب لهــــم الغفــــران..

أما في ذكرى قتلى المدمرة الإسرائيلية إيلات، التـي أغرقتهـا البحريـة المصـرية أمـام شواطئ بورسعيد، فقد نشر الشاعر بنحاس بلدمان قصيدة أو مرثية بعنوان «الضوء الذي فوق البحر» في الملحق الأدبي لجريدة «معاريف» بتاريخ 10 نوفمبر 1967م، تدل عـلى مدى الصدمة التي أصابت العقل الإسرائيلي، فلم يمر على حرب يونيـو أكثـر مـن أربعـة شهور؛ وإذ بالبحرية المصرية تغـرق «إيـلات» بصـاروخين غيـرا اسـتراتيجية المعـارك البحرية كلها بعد ذلك؛ وإذ بالجنود والبحـارة الإسـرائيليين الـذين خرجـوا للتجسـس والنزهة واستعراض العضلات، وقد تحولـوا في لمـح البصـر إلى مأدبـة شـهية لأسـماك البحر المتوسط، يقول الشاعر في وصف الضربة المصرية القاصمة:

خبــــا الضـــــوء.. فــــوق البحــــر

حيــــوات أبنـــائي يــــا إلهـــي..

في الرمـــــــال القديمـــــــــة..

حديــــــــد بـــــــــارد..

وذكـــــرى الــــدم الســــائل..

فـــــــوق البحـــــــــر..

وتســــــــأل فتــــــــاتي:

ربمـــا كانـــت هـــذه الظلمـــة..

كسوف شمس جاء في غيـر موعـده..

كلا..!!

كــــــلا يـــــا فتــــــاتي..

لأن أمـــــــام عينـــــــــي..

جثــث أبنــائي كالصــواري منتصــبة

أو توانـــــت العـــــين لحظـــــة

عــــــين رؤيـــــــة ورود..

ورود وغلالـــة عـــلى وجهـــك..

الطـــــاهر يـــــا فتــــــاتي..

لاحمـــرت حتـــى دم الـــورد..

حليـــــة مـــــوت أبنــــائي..

يا إلهي..!

لقد أثبت عبد الناصر لإسرائيل إنها بشنها حرب يونيو 1967م كانـت تلعـب بالنـار، وشن بدوره حرب الاستنزاف كي يحرق أصابعها، وكان إغراق المدمرة إيلات من أهـم

معارك هذه الحرب التي بدأت بحرق أصابع إسرائيل، وشرعت بعد ذلك في قطع ذراعها التي تصورت أنها من الطول بحيث تنال أي خصم في أي مكان مهما كان بعيدًا، وقد عبر عبد الناصر عن استراتيجيته بخصوص هذه الحرب قائلاً:

«أنا عارف إسرائيل من عشرين سنة، لا تستجيب إلا للقوة، وإسرائيل بعد حصولها على هذا المكسب سوف يركبها الغرور، خاصة أنها كسبت أكثر من قدرتها، كما أنها تحتاج لدعم سياسي ومعنوي من دول العالم لفترة طويلة كي تعزز مكاسبها، وتهضم ما أكلته، وهو أكبر من طاقتها، وعلى ذلك أصبح من الضروري الدخول معها في صراع سياسي وعسكري عربي حسب قدرتنا، صحيح أنها سوف تستغل تفوقها بأن تقوم هي بالفعل، بينما نكتفي نحن برد هذا الفعل، لكن هذا لن يستمر إلا لحين، نبدأ بإعادة مقدرتنا الدفاعية وبالتدريج نقوم نحن بالعمل ضدها أولاً، وننتظر رد الفعل، إنني أقدر الزمن الذي يمكن لقواتنا المسلحة أن تصل فيه إلى قدرة الدخول في معركة التحرير بحوالي ثلاث سنوات، ولا يصح أن تزيد عن أربع».

قال عبد الناصر هذا الكلام في لقاء ناقش فيه كل الشئون السياسية والعسكرية يوم 11 يونيو 1967م مع الفريق أول محمد فوزي، الذي بدأ مهمته كقائد عام للقوات المسلحة المصرية في اليوم نفسه، أي بعد بداية حرب يونيو بستة أيام فقط.

وبالطبع لم يكن أحد في إسرائيل المنتشية بالنصر يصدق كلمة واحدة من هذا الكلام، لكن سرعان ما أثبتت الأيام أن عبد الناصر كان يعني ما يقول، ويملك القدرة على تنفيذه برغم خسائره الفادحة في الحرب، وذلك من خلال إمساكه بزمام المبادرة الذي لم يفقده سوى في حرب الأيام الستة، وكانت حرب الاستنزاف وسيلته العملية للإمساك بهذا الزمام، وهي الحرب التي تردد صداها في معظم الأعمال الشعرية والنثرية التي ألفها الكتاب والأدباء الإسرائيليون في فترة السنوات الثلاث التي شهدت آتونها المشتعل، بل كانت مضمونـًا أساسيًا لدواوين شعرية وأعمال قصصية تشكل الملامح الرئيسية للأدب الإسرائيلي في تلك الفترة.

▪▪ تركيز السلطة .. والرد عليها



1918 - 1970

عاب البعض على جمال عبد الناصر أنه ركز السلطة في يديه، وكانت السيادة له لا للأمة ومبدأ السيادة في عصرنا هذا هو التعبير القانوني عن نظام الحكم الذي يوصف بالنظام الديمقراطي.

فالملوك حين كانوا يدعون قبل عصر الثورة الفرنسية بأنهم أصحاب السيادة، كانوا يقيمون سيادتهم على أساس نظرية الحق الإلهي، وأنهم استمدوا الحق في تلك السيادة أو السلطة من الله؛ ولذلك لجأ فلاسفة الثورة الفرنسية إلى مبدأ سيادة الأمة كسلاح من أسلحة الكفاح ضد الملوك المستبدين؛ لتكون معاول الهدم للملكية المطلقة المستندة على نظرية الحق الإلهي، ولهذه الغاية فإن السيادة ليست للملك.

بيد أننا في عصرنا الحديث نجد أنه لم تعد ثمة حاجة إلى هذا المبدأ، فمبدأ سيادة الأمة تتلائم مع النظام الديمقراطي الحر.

وفي بداية عصر الثورة الفرنسية كانت هناك جمعية نيابية تأسيسية انتخبها الشعب عام 1792م عرفت في التاريخ باسم شهير وهو **La Con Vention**.

اتخذت من الإجراءات الاستبدادية ما لم يوجد له مثل في تاريخ الملوك والقياصرة المستبدين كما يذكر جوستاف لوبين **Lebon**، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فإننا نجد فعلاً استبداد من جانب بعض الهيئات النيابية أو بعض الشخصيات المنتخبة من الأئمة.

قمين بنا – إذن– أن مبدأ سيادة الأمة لا يكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسلطة المطلقة، والمبادئ والأنظمة التي تهدف إلى كفالة الحرية ومنع استبداد الحكام نجدها دائمًا تلوذ بمبدأ فصل السلطات، مبدأ استقلال القضاء، وكفالة حق التقاضي للأفراد، ورقابة ودستورية القوانين، وقوة الرأي العام ونضوجه، وقوة المعارضة المنظمة النزيهة.

وخلاصة القول الذي لا محيص منه ولا تعدي عنه أن مبدأ سيادة الأمة ينتهي بنا إلى اعتبار إرادة الشعب مقدسة يجب الخضوع أمامها والخشوع، ومن ثم ينتهي بنا هذا المبدأ إلى النتيجة ذاتها، نظرية الحق الإلهي أي تنتهي بنا إلى الاستبداد.

لا جَرَم إذن إن مال جمال عبد الناصر إلى الانفراد بحكم مصر، وإن كان البعض يرى أن جمال عبد الناصر جعل مصر كبيرة، وجعل المصريين صغارًا.

على وزن اسم كتاب فرانز كافكا المحاكمة **The Castle** عام 1925م أجرى جمال عبد الناصر جل وقت حكمه على محاكمة عصر فاروق وما قبله، الذي اعتوره الفساد وامتلأ بالإفساد الذي عم وطم من تحكم رأس المال واستبداد الإقطاع الذي تمكن من بسط نفوذه على الحياة السياسية المصرية، وفرض سيطرته عليها ولا سيما الطبقات الفقيرة الكادحة والفلاحين البسطاء الذين كانوا يفترشون الأرض ويلتحفون بالسماء، وكان يكفيهم لقمة عيش بسيطة وقطعة من الجبن يقيموا به أودهما، ومن ثم فقد اتجه إلى تأميم رأس المال لصالح هذه الطبقة التي وجدت فيه الملاذ، وعثرت في كنفه على حياة أفضل وغدًا أكثر إشراقـًا.

من نافذة الخيال يمنح الأدب السياسة بعدًا جديدًا ومغايرًا حين يطرح الارتقاء في نصوصهم أو يقترحون عالم بديلاً، بعد انتقادهم للأوضاع السائدة، وأحيانـًا يكون هذا العالم البديل مثاليًا فيه الحرية والعدالة، والعدالة والمساواة؛ لهذا يبدو الخيال السياسي في بعض الأوقات نوعًا أو فرعًا من فروع الأدب يتناول الشئون السياسية أحداثـًا ووقائع

ونظمًا ونظريات.

من هذه الأعمال كما يردف الدكتور الأديب عمار علي حسن، رواية الأديب البريطاني جوناثان سويفت رحلات جليفر، ومسرحيتي شكسبير الليلة الثانية عشرة، وحلم ليلة صيف، ورواية نجيب محفوظ رحلة ابن فطوطة، ومسرحيات يوسف إدريس، ومن ضمن هاتيك الأعمال رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم التي ألهمت عبد الناصر فكرة القيام بثورة 23 يوليو 1952م.

كما عبر الرئيس عبد الناصر نفسه ومن ثم منح الأستاذ إكليل قلادة النيل اعترافًا بفضله.

كان جمال عبد الناصر كما عبر نيكوس كازانتزاكي عن وضع الناس المتردي في روايته الشهيرة زوربا اليوناني، من خلال الحوار التالي:

دع الناس مطمئنين أيها الرئيس لا أعنيهم إذا فتحت أعينهم فما الذي نرى..؟ بؤسهم.. دعهم إذن مستمرين في أحلامهم.

وصمت لحظة ثم أردف قائلاً: إلا إذا كان لديك عندما يفتحون أعينهم، عالم أفضل من عالم الظلمات الذي يعيشون فيه الآن، ألديك هذا العالم..؟ لم أكن أعرف أو أعلم جيدًا ما سيتهدم، لكنني أعرف ما الذي سيُبنى فوق الأنقاض.

وهكذا كان جمال عبد الناصر فقد عرف بحاسته الثقافية وبعد نظره أنه سيهدم، وأنه يعرف ما الذي يقيمه فوق الأنقاض.

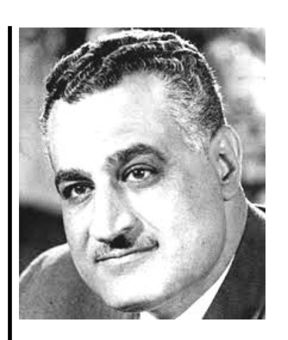
وعندما ألف نجيب محفوظ روايته الرمزية (ثرثرة فوق النيل) وقد دارت الرواية على ضفاف نهر النيل يلتقي فيها مجموعة من الأصدقاء على بعض القدر البسيط من الثقافة لا رابط يربطهم سوى البحث عما يُغيب الوعي، وفي مقدمتهم من يُدعى أنيس بطل الرواية الذي أفرط في تعاطي المخدرات فأصيبت بلوثة عقلية، وظل يهلوس طوال الوقت ويُظهر حنقه على كل شيء.

وقد أغضبت الرواية المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثاني في الدولة فتوعد نجيب محفوظ بالويل والثبور وعظائم الأمور، كما نبت الغضب كذلك في عقل رئيس

المخابرات العامة صلاح نصر.

طلب جمال عبد الناصر نسخة من الرواية وقرأها، وبعد قراءتها إياها قال: نجيب محفوظ فريد في موهبته وقيمته ومن الواجب علينا أن نحرص عليه.

▪▪ منظمة حدتو



1918 - 1970

عندما صعدت روح المناضل الدكتور رفعت السعيد إلى بارئها، واجتمعت مصر كلها من اليمين إلى اليسار إلى الوسط ساسة وكتاب وصحفيون وفنانون وأدباء ومثقفون، ومفكرون وبرلمانيون ورسميون وشعبيون، رجال ونساء شباب وأطفال في حياته كما في موته، جمع رفعت السعيد الشامي والمغربي، والفلسطيني والعراقي واليمني والبحريني، حشود من البشر، ما يكاد يفرغ سرادق العزاء حتى يمتلئ عن آخره، المعزون يعزون أنفسهم في العزاء.

وكنت من الحاضرين هذا العزاء، وقد كان رفعت السعيد الذي كنت وكان الجميع حزانى على فقدانه فقد كان هذا الرجل هو قديس اليسار، وهو صاحب مصطلح التأسلم السياسي.. كما أنه كشف ألاعيب جماعة الإخوان المسلمين، كما قال عنه حلمي النمنم وزير الثقافة المصري السابق؛ إذ أنه كان فارس الدفاع عن الحرية والعدل والاستنارة، كما كان مؤرخ الحركة الوطنية العربية، وكان فارسًا نبيلاً كما عبر الدكتور مصطفى الفقي تاريخًا سياسيًا ناصعًا، شارك في منظمة حدتو اليسارية وكان له اليد الطولى فيها؛ إذ أنها كانت منظمة وطنية رأى البعض أنها يعيبها أنها كانت تعتنق مبدأ

اليسار مع وطنية أعضائها وتحملهم المشاق في سبيل دعوتهم التي لا ينساها التاريخ.

وإليك نتف من تاريخ هذه المنظمة كما حكاها صاحب كتاب «حدتو»: التي مر عليها جمال عبد الناصر لبعض الوقت أو شدت أنظاره إليها .. كان ضابط المباحث في طنطا هو البكباشي أنور منصور، المعروف كواحد من أكثر الجزارين بشاعة وسادية، وحاول فور اعتقال محمد عثمان أن يعرف منه خريطة الحزب بالغربية وأماكن الهاربين، أشرف أنور منصور بنفسه وشارك في ضربه وتعذيبه ليلة كاملة بالعصي الغليظة والكرابيج والشوم وكعوب البنادق، وكلما سقط مغشيًا عليه يقومون بإلقاء الماء على وجهه ليعترف.

ويحكي رفيقه الذي كان شاهدًا على تعذيبه (سعيد النحاس) أنه تم تعذيبه هو ورفيقه أحمد عيد حتى أغمى عليهما من شدة التعذيب، وعندما أفاقا قال أحد ضباط المباحث ممن شاركوا في التعذيب للمخبرين: هاتوا محمد عثمان عشان يشوفوا عملنا فيهم إيه ويعترف..!

جاء المخبرون يجرون خلفهم شخصًا مسجى على ظهره ووجهه بلا ملامح من شدة الضرب وفاقد الوعي وبقى أمامه أكثر من ساعتين، ومن مكانه سمع النحاس صوت أنور منصور ينبه زبانيته أن يحضروا كورامين لإفاقة عثمان، لكن الشهيد لم يتقبله ولفظه.

ثم أخذوا النحاس وعيد وحدهما وحبسوهما في دورة المياه حتى الصباح، حيث عادوا بهما إلى المكان نفسه فوجدا محمد عثمان مايزال ملقى حيث تركاه فاقد الوعي، أنزلوهما إلى فناء واسع به سيارة بوكس وأخرى ملاكي، ثم شاهدا المخبرين يهبطون من أعلى يحملون محمد عثمان حتى السيارة الملاكي وألقوا به فيها.

بينما ركب النحاس وعيد السيارة البوكس حتى وزارة الداخلية في لاظوغلي، وفي نهاية اليوم تم ترحيلهما إلى قسم الموسكي، ومنذ تلك اللحظة اختفى محمد عثمان إلى الأبد.

وإحكامًا لإخفاء الجريمة التي ارتكبتها المباحث، تم تقديمه للمحاكمة باعتباره هاربًا، والمحكمة من جانبها حكمت عليه بالسجن 5 سنوات غيابيًا..!! على الرغم من أن عددًا كبيرًا من رفاقه أبلغوا النيابة رسميًا عند القبض عليهم، ففخري لبيب وفوزي حبشي وزميليه النحاس وعيد ونبيل صبحي وغيرهم سجلوا قتله بيد المباحث في

التحقيق معهم وطالبوا بالتحقيق في الجريمة.

ومن بين الوقائع أيضًا ما ذكره النائب العام علي نور الدين الذي قدم مرافعة النيابة وبدأها مشيرًا إلى المتهمين في القفص قائلاً: «هذه الزمرة الخائنة...»، فتصدى له من خلف القفص وحدث هرج شديد، فأخرج نور الدين من جيبه، وبحركة مسرحية ورقة صائحًا: «أتحدى الحزب الشيوعي وأعضائه من فوق لتحت أن يكذبوا هذه الوثيقة أنها تقول بضرورة الصلح مع إسرائيل وإقامة علاقة طيبة معها، وهاهي الوثيقة وأتحدى أن يتكلم أي واحد منكم...».

ثار الجميع من خلف القضبان وارتفعت صرخاتهم: «... يا كذاب.. يا حقير.. يا ابن الكلب..».

ويضيف نسيم يوسف: «الضرب لا يتوقف فوق الظهر، فوق البطن، فوق كل جزء من جسده، أصابته شومة فوق رأسه فسقط على الأرض وقد فقد الوعي»، صرخ يونس مرعي: «اقتلوا السافل ده...».

وتصاعد الجنون فأفاق، كانت الدماء تسيل من رأسه، فتقدم إلى التومرجي يمر على الجرح بقطعة خشب في طرفها ميكركروم، تسلمنا ملابسنا، مررنا بين صفي جنود قوس النصر حيث دفع بنا إلى حجرة المغسل، كان فريد حداد معنا، أمرونا أن نولي وجوهنا إلى الحائط والضرب لا يتوقف.

ثم طلبوا منا أن نقول: أنا امرأة، ولم يستجب أحد ألبتة والضرب متصل، ارتدينا ما معنا من ملابس تحت ضربات الشوم، وسقط فريد حداد للمرة الثانية، كنت إلى جواره فحاولت أن أسنده حتى لا يقع فتكاثف الضرب عليَّ، أخرجونا لنلف المعتقل جريًا، خلف عنبري خمسة وستة، وصلنا إلى زنزانتي تأديب، أدخلوا كل مجموعة في زنزانة.

ويضيف أيضًا أن أنين فريد حداد توقف فجأة وهم داخل الزنزانة، فحاول زميليه نسيم يوسف وسعد الطويل مساعدته بتدليك قلبه وعمل تنفس صناعي له إلا أنه كان قد مات.

حرر طبيب السجن أحمد كمال شهادة طبية تفيد أنه مات بالسكتة القلبية، بينما كان

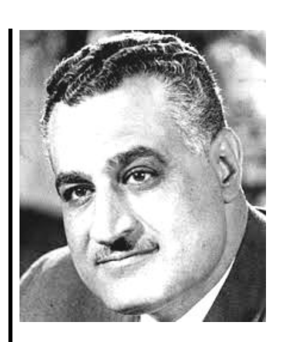
مخه قد تفتت من الضرب بشومة يحملها يونس مرعي، وضع الجثمان في نعش مسمر ومختوم بالشمع الأحمر الميري، وسلم النعش إلى زوجته في الثالثة صباحًا وأجبروها على دفنه على الفور، غير أنهم – لفرط الرحمة طبعًا– سمحوا بنشر نعي في الأهرام صباح 30 نوفمبر يحمل تلك الكلمات: «أيدا وأولادها وعائلات حداد وكاري وحنا بمصر والأردن ولبنان ينعون بمزيد من الحزن والأسى المأسوف على شبابه الدكتور فريد حداد زوجها ووالدهم وقريب ونسيب الباقين».

وعندما تسرب الخبر إلى المعتقلين، بادر الزبانية بتكثيف التعذيب والسخرة في الجبل حتى لا يفكر أحد في التمرد، والحقيقة أن المجرمين نجحوا في البداية في كسر الإرادة وتحطيم المعنويات؛ لأن الأمر بدا نوعًا من العبث المجنون: شيوعيون يؤيدون عبد الناصر بكل قوة ويجري دهسهم على ذلك النحو، هكذا عبر صاحب الكتاب.. وهكذا كان التأييد لجمال عبد الناصر من هذه المنظمة المعروفة في تاريخ مصر.

من جانب آخر تنوعت الأساليب المستخدمة في كسر الإرادة، فمثلاً يتم اختيار أساتذة الجامعات والمفكرين «لتسليك البكابورتات» أو يجبروا على القيام بأعمال إضافية مثل تفريغ القطارات من الأحجار، أو نقل التراب، أو حتى تجفيف ماء المطر أمام باب المأمور بأيديهم، أي ينقلوا ماء المطر بكفوفهم.

وهكذا كانت تحارب الشيوعية في عهد عبد الناصر مع اعتراف التاريخ بوطنية هؤلاء الشيوعيين .

▪▪ جمال عبد الناصر ذكرى عابرة للزمن...



1918 - 1970

مشروعات عبد الناصر التي ألهمت السيسي[1]

وكأنها ليست 47 سنة مرت على وفاته..! فهو بيننا ولم يغب، وهاهو جمال عبد الناصر يجدد حضوره العابر للزمن، مع أنه فارقنا بجسده قبل سنوات طويلة.

28 سبتمبر 1970م ذلك هو التاريخ الحزين، عندما صعدت روحه لبارئها في صدمة للملايين في الوطن العربى والعالم الحالم بالحرية والعزة والكرامة.

وكالعادة دائما في ذكرى الزعيم، كما تتجدد المحبة، فإن السهام تحاول النيل منه، وهذه المرة كانت خائبة؛ لأنها حاولت الطعن في نزاهة وزهد عبد الناصر من خلال الكلام عن أنه كان يستورد طعامه من سويسرا، إنه مدخل فاشل بكل تأكيد بالنسبة لشخصية رئيس جمهورية كان يأكل «البصارة» كل يوم أربعاء في الأسبوع مثل الشعب.

(1) محمد أبو الدهب: جريدة اليوم الجديد، تحت عنوان في العمق، العدد (73)، بتاريخ 24 سبتمبر 2017م، ص9.

هذه إطلالة جديدة على ذكرى عبد الناصر العطرة، العائش بيننا، سيرته لا تنقطع من على أفواه الناس البسطاء، الذين عاش لهم، فهل هناك تخليد أكبر من هذا..؟!

الكثير من المشروعات القومية تميّز بها عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتركت علامة بارزة في تاريخ مصر الحديث، شملت مجالات مختلفة، نجح من خلالها في حشد الشعب المصري خلف الدولة، فضلاً عن إنشاء كيانات سياسية جديدة، كانت بعضها مصدر إلهام للرئيس عبد الفتاح السيسي، الذي سعى في استكمال بعض تلك المشروعات.

أنشأ عبد الناصر مشروع مديرية التحرير الذي يقوم على زراعة مساحات كبيرة من أشجار البرتقال، واليوسفي، والليمون تحت إشراف مباشر من مهندسي وخبراء وزارة الزراعة، وشق مجاري مائية لتوفير المياه لتلك الأراضي، وتسليمها بعد ذلك للمزارعين لاستكمال زراعتها، ونجحت التجربة في التوسع بالرقعة الزراعية، وإنشاء قرى جديدة، كما حقق المشروع أرباحًا كبيرة للدولة.

كان هذا مصدر إلهام للرئيس السيسي الذي أطلق مشروعًا مشابهًا، مدينة الفرافرة بمحافظة الوادي الجديد، ديسمبر 2015م، تحت مسمّى «المليون ونصف المليون فدان»، يستهدف توسيع الرقعة الزراعية، وزيادة المخزون الاستراتيجي لسلة الغذاء المصرية، وإنشاء مجتمعات جديدة متكاملة تشتمل على أراضٍ زراعية، ومدن صناعية تجذب القوى العاملة، وتخفّض معدلات البطالة، فضلاً عن إنشاء مدن سكنية جديدة مجاورة.

نموذج مجمّع التحرير الذي كان أحد تطلعات الدولة في عهد عبد الناصر شرع السيسي في تنفيذه على مستوى أكبر، من خلال العمل على إنشاء مشروع العاصمة الإدارية الجديدة، يضمّ كل الهيئات الحكومية بمدينة جديدة شرق القاهرة لتصبح العاصمة الإدارية والمالية الجديدة لمصر، ومقر الإدارات الحكومية، والوزارات الرئيسية، والمؤسسات، وكذلك السفارات الأجنبية، كما تشمل وحدات سكنية، مستهدفًا تخفيف الضغط على القاهرة.

إنشاء محطة لإنتاج الطاقة النووية كان حلمًا يراود الدولة المصريّة في ستينيات القرن

الماضي، واتخذ عبد الناصر خطوات إيجابية نحو تحقيق هذا الحلم، ولكـن المشـروع توقف بوفاته سبتمبر 1970م، في حين لم تتخذ خطوات جادة لتنفيـذ المشـروع النـووى المصري في عهد الرئيسين «السادات»، و«مبارك»، ليستكمل «السيسـي» الحلـم بتوقيـع عقد اتفاق مع روسيا لإنشاء محطة نووية بمنطقة الضبعة.

في عام 1963م قرر عبـد الناصـر إنشـاء منظمـة للشـباب تـرتبط تنظيميـا بالاتحـاد الاشتراكي، وأوكل مهام التأسيس لزكريا محيي الدين، وبلغ عدد الأعضاء نحـو نصـف المليون شاب، 40٪ منهم سيدات، أصبحوا فيما بعـد رمـوزا للدولـة المصـرية، فتقلـد بعضهم مناصب وزارية، ومواقـع تنفيذيـة، وانضـم الـبعض الآخـر لأحـزاب سياسـية، مشاركين في الحياة السياسية حتى ترقى بعضهم وتولوا رؤساء أحزاب.

ومع تولي السيسي مقاليد الحكم، منح الشباب عناية خاصة، واتجهـت الدولـة نحـو تأهيلهم، وإعادة تنظيمهم، بهدف إشراكهم في خطط التنمية والبنـاء، فأسسـت البرنـامج الرئاسي لتأهيل الشباب للقيادة، وأقرّ السيسي بروتوكولاً جديدًا بعقد مـؤتمرات وطنيـة دورية للشباب بدءٍ من شرم الشيخ وامتد لمحافظات أخرى، ومؤخرًا قرر إنشاء أكاديمية للشباب تعمل على تطوير مهاراتهم وتأهيلهم.

الكادر السياسي اليساري عبد الغفار شكر، الذي كان قطبًا أساسيا في منظمة الشـباب الاشتراكي في عهد عبد الناصـر، رأى تجربـة «منظمـة الشـباب» قـد ارتبطـت بظـروف سياسية وزمنية مختلفة، مبينا أن المنظمة حددت برنامجًا فكريـا متكـاملاً، كـان يـدرّس على ثلاث مراحل، ويتضمن 45 موضوعًا، وبعد ذلك يتحوّل الشاب عضو المنظمـة إلى جزء من التنظيم، الذي كان حاضرًا في كل جزء مـن المجتمـع، في الجامعـات، القـرى، المدن، المصانع، والأحياء الشعبية، وبعد إعداد الشاب المتدرب ثقافيا، وسياسـيا يبـدأ بممارسة نشاطه بتنوير المجتمع، محمّلاً بأفكار وقيم المشروع الوطني آنذاك.

كما اهتم عبد الناصر بترسيخ وسطية الدين الإسلامي في مواجهة الأفكـار المتطرفـة حينها، فتوسع في إنشاء المعاهد الدينية، وجعل الدين مادة إجبارية، وأنشأ إذاعـة القـرآن الكريم، ونحو 10 آلاف مسجد، ومدينة البعوث الإسلامية لتدريس الإسـلام للوافـدين إلى مصـر، ومنظمـة المـؤتمر الإسـلامى، ووضـع موسـوعة جمـال عبـد الناصـر للفقـه

الإسلامى، وعلى خطى عبد الناصر وجّه السيسي بتجديد الخطاب الديني عن طريق المؤسسات الدينية، ودعا إلى نبذ التطرّف بعد تغلغل الأفكار المتطرفة إلى المجتمع واستفحال ظاهرة الإرهاب، فوضع الأزهر الشريف خطة شاملة نحو نبذ التطرّف، وترسيخ الفكر الوسطي.

انحاز عبد الناصر للطبقات الفقيرة، فأقر الإصلاح الزراعي لتوزيع الأراضي على صغار المزارعين، ورفع الحد الأدنى للأجور مدافعًا عن حقوق العمال، وتطوير منظومة المعاشات، وسعى السيسي مؤخرًا إلى إقرار علاوات جديدة للعمال، وفعّل مشروعا تحت شعار «مصر بلا عوز»، يهدف لمحاصرة الفقر في مصر، بدأت وزارة التضامن الاجتماعي بالتعاون مع بعض الوزارات والجهات الأخرى في تنفيذ برنامجين للدعم النقدي، بهدف دعم الفئات الأكثر فقرًا في قرى صعيد مصر، وفى بعض المناطق بالقاهرة وبالجيزة، تحت مسمّى «تكافل وكرامة»، فضلاً عن إنشاء مدن سكنية جديدة متطوّرة لنقل سكّان العشوائيات وتأهيلهم وتطوير تلك المناطق.

أما قناة السويس التي أعلن عبد الناصر تأميمها في عام 1956م، ودخل بسبب ذلك القرار الذي وصف حينها بـ«الجريء» في صدام مع القوى الاستعمارية الكبرى، التي شنت حرب العدوان الثلاثي ضد مصر، أدرك السيسي أهميتها البالغة كأحد أهم مصادر الدخل القومي المصري، فأطلق الشرارة الأولى في مشروع تنمية محور قناة السويس الضخم، بحفر مجرى ملاحي جديد بالقناة في 2015م.

▪▪ عاش جمال عبد الناصر [1]



1918 - 1970

صور جمال عبد الناصر في ميدان التحرير 2011م، وأغاني هذه المرحلة تفرض نفسها، لم يكن كل من في ميدان التحرير من أنصار ناصر، وأغلب من كانوا في الميدان لم يعاصروا ناصر، وفي 30 يونيو، كانت أيضًا صور جمال عبد الناصر وأغانيه قادرة على إلهام الجماهير التي لم تكن أغلبها قد عاصرت عبد الناصر.

بعد 47 عاما على رحيله، لا يزال جمال عبد الناصر قادرا على البقاء عبر الكثير من حملات تجاوزت انتقاد التجربة إلى الانتقام والإلغاء، وظل بقاء الرجل في المخيلة الشعبية عميقا بصرف النظر عن التقييم، بل إنه في الكثير من الحملات التي تعرض لها ناصر بالباطل، كانت المواجهة تأتي من مواطنين عاديين وليس من بين الناصريين.

ثورة 23 يوليو قطعت 65 سنة، ولا تزال محل خلاف واختلاف، وكانت تحولا في التاريخ والجغرافيا، بصرف النظر عن موقف الشخص منها، وجمال عبد الناصر يفرض

(1) أكرم القصاص: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ملف خاص، العدد (2311)، بتاريخ 27 سبتمبر 2017م، ص5.

وجوده بقوة، ويبقى حاضرا مع أجيال لم تعاصره وولد بعضهم بعد رحيله بعقد وربما عقدين.

كان جمال عبد الناصر ابن عصره، تولى في عصر شديد التعقيد حربا عالمية كادت تنتهي، وحرب باردة وقوى عظمى تتصارع على النفوذ، وتسعى لاستقطاب الدول المستقلة وبقايا استعمار يحاول التمسك بنفوذه، ولهذا كانت فكرة عدم الانحياز إبداعا لزعماء العالم الثالث بعيدا عن صراعات كانت تهدد العالم، عربيا سعى لتوحيد أهداف وثروات دول توحدها اللغة والمصير، إفريقيا وطد علاقات ودعم حركات التحرر والتنمية، إسلاميا حرص على تقوية المحور الإسلامي.

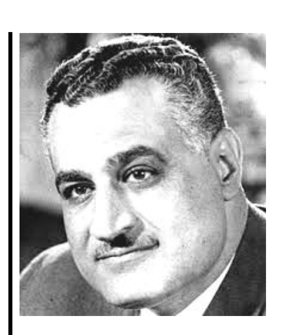
اقتصاديا واجتماعيا اجتهد جمال عبد الناصر للبحث عن طريق يضمن العدالة، ويضاعف من فرص الأغلبية في الصعود الاجتماعي والاقتصادي، كانت مصر منقسمة إلى طبقة شديدة الثراء وأغلبية شديدة الفقر، وطبقة وسطى تحاول البقاء، سعى لبناء تجربة اشتراكية تختلف عن تجارب الدول الشيوعية، وكانت الاشتراكية تفرض نفسها، بدأ في التصنيع والمشروعات الكبرى واستعان بخبرات وبعثات، وكانت معركة تأميم القناة والسد العالي نموذجًا لمحاولة الخروج من قيود الدول الكبرى والاعتماد على الذات، ولم تكن مجرد مشروعات صناعية أو زراعية، ولكن مشروعات ثقافية.

كانت الستينيات أكثر ميلا لتوسيع عائدات التنمية، اتسعت الطبقة الوسطى بانضمام الفلاحين والعمال الذين تغيرت حياتهم، وأصبح لدى أبناء الفقراء فرصة الصعود الاجتماعي بالتعليم والتقدم، ومن تفوق منهم حصل على مكانة اجتماعية نقلته اجتماعيا، الإصلاح الزراعي وتوسيع التعليم العام المجاني والعلاج ضاعفت من تأييد فئات واسعة من المصريين لجمال عبد الناصر.

لم يخترع جمال عبد الناصر الاشتراكية والتنمية المستقلة، وسعى إلى ترجمة الأفكار التي صاغتها نخبة سياسية وثقافية وفكرية واقتصادية للاستقلال والتنمية، كما كانت الاشتراكية طريقا تتبعه الكثير من دول العالم بحثا عن آفاق للتنمية بعد الاستقلال.

بالطبع كانت هناك الكثير من المميزات والانتقادات لعصر جمال عبد الناصر، مع اتفاق على شرفه وإخلاصه، اللذان استمرا حتى لحظاته الأخيرة، وبالرغم من مرور 47 عاما على رحيله لا يزال عبد الناصر يعيش لدى مؤيديه، وأغلبية شعبية في مصر والعالم العربي، وأيضا يعيش بين خصومه.

▪▪ كيف تحول جمال لأيقونة شعبية[1]



1918 - 1970

*** صلاح عيسى: لم يكن فاسدًا.. حرص على متابعة أسعار «الجبنة البيضا» والحلاوة الطحينية.**

*** مصطفى بكري: مات مديونا.. وقال لابنتيه: «أبوكم رجل فقير».**

*** كمال أحمد: أعظم إنجازاته «ابن الفلاح أصبح ضابطا وقاضيا وأستاذا في الجامعة».**

الخالدون عهدتهم أحياء.. أَو يرزقون..؟ أجل وهذا رزقهم أن يظلوا في وجدان شعوبهم وذاكراتهم أيقونة تحركهم، وكان هذا نصيب الزعيم جمال عبد الناصر، الذي مر على رحيله 47 عاما، إلا أن مبادئه وأفكاره وإنجازاته مازالت حية يدين بها الشعب، الشعب الذي قال عنه الزعيم: «القائد والمعلم والخالد أبدا»، فيرد الشعب: «يعيش جمال عبد الناصر.. يعيش بصوته وأحلامه في قلوب شعوب عبد الناصر».

(1) سمر سلامة: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ملف خاص، العدد (2311)، بتاريخ 27 سبتمبر 2017م، ص6.

لم يترك عبد الناصر لأبنائه ميراثا بالمعنى التقليدي، ولكنه ترك إرثا سياسيا ضخما، جعل منه زعيما، اختلف حوله المؤرخون ما بين مؤيد ومعارض، إلا أن الحقيقة أنه أصاب مرات وأخطأ مرات، ولكن بقى الشخص الوحيد الذي انتقل ببلاده من براثن الإقطاع إلى صفوف الدول الصناعية، حارب بإخلاص من أجل المصلحة العليا.

عبد الناصر لم يؤثر فقط في الشعب المصري، ولكنه أثر في شعوب العالم الثالث الذي عانى على مدار عقود من ويلات الاستعمار، فكان لهم مثالا للبطل الشعبي الذي يقف في وجه الطاغية، مدافعا عن حقوق الفقراء داعما لهم ولحقوقهم، ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب الرئيسي في المكانة التي حظى بها الزعيم في قلوب البسطاء والتى استمرت حتى الآن.

وفى هذا السياق، يقول الكاتب الصحفى صلاح عيسى: إن عبد الناصر حمل صفات واضحة لعموم المواطنين المصريين، كان من السهل عليهم أن يلمسونها، أهمها أنه لم يكن فاسدا، مؤكدا أن الشعب المصري حساس تجاه حكامه ولديه صكوك تاريخية في هذا الشأن.

ويضيف عيسى: ظل قريبا من الحس الشعبي، وكل إجراءاته وقراراته لصالح الكادحين والبسطاء من الشعب المصري، كان في أصعب ظروف مصر حريصا على متابعة أسعار «الجبنة البيضا» و«الحلاوة الطحينية»، باعتبارهما ضمن الأطعمة الشعبية، فكان حريصا على التأكد من توافرهما.

ويؤكد أن هذا الحس كان يصل إلى العامة، بالإضافة إلى وطنيته وحرصه الدائم على المصالح الوطنية العليا وتمسكه بالكرامة الشعبية، مشيرا إلى عبارات واضحة للزعيم أثرت في الشخصية المصرية حتى الآن منها: «اللى مش عاجبه يروح يشرب من البحر»، و«نموت من الجوع وما نفرطش في كرامتنا».

وتابع: عبد الناصر حكم مصر 18 عاما، كانت مليئة بالمواقف الصعبة انتصارات وانهزامات، كان أصعبها أثناء عدوان 1956م عندما وقف في الجامع الأزهر لما له من مكانة دينية ووطنية، ليعلن أن الشعب المصري سيقاوم وسيقاتل، ولن يخشى الإمبراطوريتين الأعظم وقتها بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى مشهد تأميم قناة السويس

وحجم الفرحة التي زرعها بنفوس المواطنين، والتي أشعرتهم بأن هناك أملا في الحياة، وأن هناك خطوات للأمام تتم برعاية زعيم حقيقي.

ويسرد الكاتب والنائب البرلماني مصطفى بكري مشاهد مؤثرة من حياة الزعيم، ساهمت في تحويله لأيقونة شعبية، عبد الناصر في إحدى المرات التي توجه فيها إلى أسوان لمتابعة مشروع السد العالي، وخلال مرور القطار الذي يستقله بمحافظة أسيوط، ألقى إحدى المواطنين بـ«صرة» على شباك الزعيم، الأمر الذي أربك الحرس الجمهوري، ظنا أن بها قنبلة أو هناك غرضا ما لاستهداف الزعيم، إلا أنه بعد فتحها وجد بها «منديل محلاوي به رغيف بتاو وبصلة»، فنظر عبد الناصر للأمر وطل من القطار ورفع يديه ونظر للرجل وسط الزحام وقال له: «رسالتك وصلتك يا أبويا».

ويشير إلى أن الزعيم فهم رسالة المواطن، وأن «الصرة» هي رمز لعمال التراحيل، فما كان منه إلا أن أعلن خلال خطابه بأسوان عن وجود تأمين صحي واجتماعي لعمال التراحيل، إضافة إلى رفع أجرهم من 12 إلى 25 قرشا، ووجه له رسالة قائلا: «رسالتك وصلت يا عم جابر».

ويواصل بكري حديثه قائلا: «في يوم عاد الرئيس إلى منزله متأخرا فوجد ابنتيه هدى ومنى في انتظاره، وعندما سألهما عن السبب ردت منى: رايحين بكره عيد ميلاد صاحبتنا، وعايزين نجيب فساتين جديدة، فكان رد الزعيم: أبوكم رجل فقير، وفي اليوم التالي اصطحب سكرتير الزعيم ابنتيه إلى حى الجمالية، دون أن يذكر لهما السبب، ووقف أمام إحدى البيوت وقال لهما: هنا كان يسكن جمال عبد الناصر».

ويؤكد بكري أن مشهد الملايين التي نزلت إلى الشوارع بعد إعلان خبر وفاة الزعيم، الذي وصل إلى انتحار البعض، يؤكد حجم الحب الذي حمله المصريون له، وأن الملايين شعرت بـ«اليتم» من بعده، وأن هذه الملايين هي من طالبته بالاستمرار بعد نكسة 67، وانتظرته في الخرطوم لتحمل سيارته وتهتف له في كل مكان.

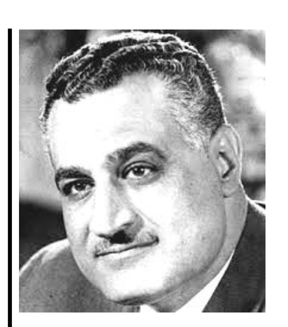
ويختتم بكري قائلا: «الرئيس لما مات وجدوا في خزنته 2400 جنيه، وكان مديونا للبنك بسبب سلفة حصل عليها لبناء منزلين لابنتيه حتى يتمكنا من الزواج، حاله حال الملايين من المصريين، فلماذا لا يحبه المصريون..».

«الشعب المصري التربة الخصبة تنبت فيه البذرة وتستمر ولا ينسى أبدا من ينحازون إليه»، هكذا بدأ النائب البرلماني كمال أحمد حديثه عن تحول الزعيم إلى أيقونة شعبية، قائلا: «الشعب المصري ذكاؤه حاد يستطيع أن يميز بين الصدق والزيف، على الجانب الآخر الزعيم زعيم مبادئ يستهدف المصلحة العامة بدوائرها الثلاث، الأولى: انحيازه للفقراء، والثانية: انحيازه لأمة عربية متماسكة موحدة يكون لها قدرها، والثالثة: امتداد مصر لريقيا واهتمامه بالحركات التحررية».

ويضيف: «عبد الناصر كان محبا للحرية كارها للاستعمار، دعم حركات التحرر في أمريكا اللاتينية مثل كوبا وغيرها، كان مثالا ورمزا إنسانيا أضاء الإنسانية في ذلك الوقت ومازال تأثيرها في النفوس حتى الآن، وقف ضد الاستعمار واعتلى الإمبراطوريات في العالم وانتصر».

وبنبرة يملؤها الحزن قال: «أصعب المواقف التي مر بها الزعيم هو انفصال مصر وسوريا في 28 سبتمبر، وللقدر صادفت تاريخ وفاته، ويشدد على أن حياة الزعيم كانت مليئة بالانتصارات والنقاط المضيئة، منها الاستقلال، وسيطرة الشعب المصري على مقدراته الاجتماعية والاقتصادية، ووقف سيطرة الاقطاعيين، ودعم حركات التحرر في إفريقيا، والخليج العربي، مختتما أعظم إنجازات الزعيم: «عندما أصبح ابن الفلاح ضابطا وقاضيا وأستاذا في الجامعة».

▪▪ كيف صنع عبد الناصر من الشباب المُدلل رجالاً [1]



1918 - 1970

الزعيم استفزته مسابقة «أبوعيـون جريئـة»، وتعامـل مـع المتســابقين بــروح الأب الصــعيدي، فأصــبحوا ضــباطا ومهندسين وخبراء في الطاقة الذرية.

في بداية الستينيات وفي إحدى الليالي الصيفية، كان الزعيم جمال عبد الناصر يستعد للنوم، بينما يمتلئ رأسه كالعادة بمـا يواجه الوطن من تحـديات وحـروب داخليـة وخارجيـة، في فترة من أهم وأصعب الفترات التي مرت بمصر.

وبينما يتصفح الزعيم إحدى الصحف قبل نومه، قرأ خبرا عــن تنظـيم مسـابقة للشـباب في الإسـكندرية عـلى شـاطئ المعمورة بعنوان «أبوعيون جريئة».

كان هؤلاء الشباب من ميسوري الحـال وأبنـاء الطبقـات الراقية، انشغلوا بالرقص واللهو، واهتم كـل مـنهم بوسـامته وجماله حتى يحقق الانتصار في المسابقة، ويصبح محط أنظار جميلات المصـيف الراقـي بحصـوله عـلى لقـب «أبـو عيـون جريئة»، استفز عبد الناصر تنظيم مثل هذه المسابقة في وقـت

(1) سمر سلامة: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ملف خاص، العدد (2311)، بتـاريخ 27 سـبتمبر 2017م، ص6.

تحيط بالوطن أخطار عديدة، ويواجه حروبا في عدة جبهات، وأن يكون الشغل الشاغل لهؤلاء الشباب، الذين يعول عليهم في النهوض بمصر ومواجهة أعدائها، تحقيق انتصارات في مسابقات من هذا النوع.

أراد عبد الناصر الأب الصعيدي والزعيم المهموم بالأمة العربية، وليس مصر فقط، أن يعطي هؤلاء الشباب وغيرهم درسا في الرجولة، وأن يقول لهم بشكل عملي أن هناك ما هو أهم بكثير من أحلامكم المرفهة، وأن هناك مهامًا خطيرة تنتظركم لا تعتمد على مقاييس الجمال والرقة والفوز بأكثر عدد من المعجبات.

أراد أن يرى هؤلاء الشباب حياة أخرى غير التي يعرفونها، ويضعون أهدافا وأحلاما أخرى غير التي تشغلهم، أراد أن يصنع منهم رجالا قادرين على حمل هموم الأمة العربية وليس مصر فقط، وأن يجعلهم صالحين لتحمل المسئولية في الجمهورية الوليدة التي تعتمد على الشباب، وقامت بأيدي شباب وعلى أكتافهم.

كان الدرس عمليا وسريعا وحازما، وفي السادسة صباحا، اتصل عبد الناصر بوزير الحربية، وقال له: «قبل الضهر العيال دي تكون اتجندت، ومن كان وحيدا يصدر له قرار جمهوري ويتحلق لهم زيرو، خلوهم رجالة».

وحتى البنات المشاركات في المسابقة ذهبن إلى الجيش في إدارة الخدمات الطبية، وتعلمن التمريض والخدمات المعاونة للجنود، واستمر معسكر التجنيد والتمريض ثلاثة أشهر، فغير كثيرا في حياة هؤلاء الفتيات.

انخرط الشباب «أبوعيون جريئة» في الجندية، ورأوا حياة أخرى غير التي يعرفونها، تبدلت أحلامهم وكبرت أهدافهم، واستطاعوا تحمل المسئولية، وأصبح منهم ضباط جيش وأطباء ومهندسون وخبراء في الطاقة الذرية، كتب أحدهم في بريد الأهرام ذات مرة، أنه كان أحد هؤلاء الشباب الذين جعلهم عبد الناصر رجالة، وأنه لولا ما فعله الزعيم ما وصل لما هو فيه، حيث أصبح مهندسا للطاقة الذرية بإحدى الجامعات الأمريكية.

هكذا صنع عبد الناصر من الشباب المدلع والمرفه رجالة، هكذا كسر المرآة التي لا يرون فيها إلا أنفسهم؛ ليجعلهم ينظرون نظرة واسعة تتسع للوطن، يرون فيها تفاصيل

كثيرة عميت عنها أبصارهم، ولم تصل إليها مداركهم، هكذا عالجهم من الأنانية والتفاهة وعلمهم درسا في الرجولة، استطاعوا بعده تحمل مسؤولية وطن تحاصره التحديات.

اليوم تشهد مصر نفس التحديات، وتواجه أنواعا أخرى من الحروب الداخلية والخارجية، تستغيث بشبابها وتحتاجهم وتعول عليهم، وفى الوقت نفسه يتعرض الشباب لحروب تستهدف تدميره وتغييبه حتى تضرب مصر في مقتل، سواء بتغييب الشباب بالمخدرات، أو بزرع الأفكار الناسفة في عقولهم لصالح التطرف والإرهاب، أو ادعاءات التحرر والحريات الزائفة التي تصل إلى حد التخلي عن كل العادات والتقاليد والشرائع والقوانين.

تحتاج مصر وشبابها الآن إلى صرخة عبد الناصر، ودعوته التي أطلقها في الستينيات غضبًا على حال مجموعة من الشباب، فبدل حالهم من حال إلى حال بجملته الشهيرة «خلوهم رجالة».

■■ زعماء الغرب ...

اعترفوا بإعجابهم به رغم الخلافات



1918 - 1970

*** الرئيس الفرنسي شارل ديجول: قدم لبلده وللعالم العربي كله خدمات لا تقارن.**

*** وزير الخارجية الأمريكي هنري كسينجر: كان قائدًا ثوريًا محبوبًا قادرًا على الرؤية داخل قلوب شعبه.**

*** ديفيد بن جوريون: ابن ساعي البريد الذي عرف كيف يزعزع الغرب وكيف يستقطب العرب.**

*** الرئيس الأمريكي نيكسون: رأيت الشباب والشيوخ الأغنياء والفقراء الجميع ينصتون له.**

عاش عبد الناصر حياته محاربًا للغرب الاستعماري، وخاض ضده حربان، مرة عام 1956م ضد فرنسا وإنجلترا وإسرائيل، ومرة أخرى عام 1967م ضد إسرائيل ومن خلفها الولايات المتحدة الأمريكية، لكنهم رغم هذا لم يستطيعوا إخفاء الإعجاب والتقدير له، بل واستحواذ عبد الناصر على كثير من اهتمامهم في حياته وبعد مماته.

سامي شرف مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وسكرتيره للمعلومات، يحكي أنه قضى فترة كبيرة من حياته يجمع ما كتبه الأمريكيون والغرب عن عبد الناصر، فوجد

حوالى 3 آلاف كتاب في مكتبة جامعة أوكسفورد تتناول عبد الناصر حتى عام 2000 فقط، «اليوم السابع» رصدت عددًا من أقوال مشاهير العالم عن الزعيم:

شارل ديجول

هذا الإعجاب لم ينتظر موت عبد الناصر للظهور، بل حتى إنه كان أثناء حياته، فشارل ديجول الرجل الذي كان عدوًا صريحًا لعبد الناصر بسبب موقف عبد الناصر المؤيد والداعم للثورة الجزائرية، كتب لعبد الناصر بعد حرب عام 1967م خطابا، نشرت أجزاء منه ابنته الدكتورة هدى عبد الناصر، يقول فيه مواسيا إياه بعد الهزيمة.

إلى الرئيس جمال عبد الناصر: «إن النصر والهزيمة في المعارك عوارض عابرة في تاريخ الأمم، وما يهم هو الإرادة، وفرنسا في وقت من الأوقات - كما تتذكر- كان نصفها تحت الاحتلال المباشر للنازي، ونصفها الآخر خاضعا لحكومة عميلة، ولكن فرنسا لم تفقد إرادتها، وظلت طوال الوقت تسير واثقة وراء قيادتها المعبرة عن إرادتها، إن الشجاعة الحقيقية في مواجهة المحن، وأما الأوقات السعيدة فإنها لا تستدعى هذه الشجاعة، إن سلام العالم العربي يقتضي جهودك، وأنا أول من يتفق معك على أن الأمر الواقع الذي قام عندكم الآن لا يعطي أساسا صحيحا لمثل هذا السلام».

وكتب ديجول ينعي عبد الناصر بعد وفاته قائلا: «الرئيس عبد الناصر بذكائه وإرادته وشجاعته غير العادية، قدم لبلده وللعالم العربي كله خدمات لا تقارن، وفي فترة من التاريخ أقسى وأكثر إثارة عن غيرها، لم يتوقف عن الكفاح من أجل الاستقلال العربي وشرفهم وعظمتهم، وقد كنا نحن الاثنين متفاهمين جدا ونقدر بعضنا، وكذلك استطعنا إقامة العلاقات الجيدة جدا بين الجمهورية العربية المتحدة وفرنسا، التي تحكمها الصداقة بينهما والرغبة المشتركة في العدالة والكرامة والسلام».

هنري كيسنجر

هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الشهير، وصاحب الجولات المكوكية، وجه يعرفه العرب جيدا، كعراب لعملية السلام المصرية الإسرائيلية، كتب يصف عبد الناصر في مذكراته التي حملت عنوان «سنوات في البيت الأبيض» قائلا: «عنيد يفاخر بعناده ويراه أساسيًا في سبيل توحيد العرب؛ ولأجل ذلك كان يرى نفسه مجبرًا دومًا على

معارضتنا، وفكرة الأمة العربية هي مجرد تفكير رمزي، ورؤية شبه نبوية، وحلم يستلهم من المؤمنين الحقيقيين أعمالاً بطولية».

ويستكمل كيسنجر في مذكراته قائلا: «كانت لقسوته ليونة لأنه كان قائدًا ثوريًا محبوبًا، كان قائدًا عاطفيًا قادرًا على الرؤية داخل قلوب شعبه، وقد سبب موته المفاجئ نار الأسى ومظاهر الحزن التي لم يشهد العالم لها مثيلاً».

هنري بايرود

كان سفير أمريكا في الخمسينيات، في كتابه «سنوات مع عبد الناصر» يحكي سامي شرف نقلا عن السفير هنرى بايرود، السفير الأمريكي في مصر خلال فترة الخمسينيات وصفه لعبد الناصر قائلاً: «إنه القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد، والذي يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة متزنة».

وفي موضع آخر يقول بايرود: «لو حدث انتخاب حقيقي في سوريا أو الأردن أو العراق لفاز ناصر بنسبة كاسحة، ويستكمل حاكيا عن العداوة بينه وبين الغرب قائلا: لقد أدركنا استحالة قيام انقلاب يجعل منه سوكارنو آخر، فناصر لن يسقط بتذمر أو شكوى، ولن يتقوّض نظامه وينهار».

هارولد ماكميلان

هارولد ماكميلان لم يكن خصما عاديا لعبد الناصر، فهو الرجل الذي تولى خارجية بريطانيا عام 1955م، ثم رئيسا لوزرائها بداية من عام 1957م، هو واحد من العناصر الفاعلة في مسألة شن الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي، وهو المنسق بين الأطراف الثلاثة: فرنسا، إنجلترا، إسرائيل لشن هذا الهجوم ومهندسه.

لذا فإنه يصف عبد الناصر قائلا: «إن نجاح عبد الناصر شجع فجأة الحركات القومية، وجعلها تتصور أنها قادرة على سحق بريطانيا، ولو أن جمال عبد الناصر استقل بمصر وحدها لما كان الخطر كبيرا على مصالحنا في العالم كله، وإنني أقول لكم صراحة إن جمال عبد الناصر كان أخطر على مصالحنا من الاتحاد السوفييتي، ولم تستطع كل جهود روسيا أن تهددنا كما استطاع أن يفعل عبد الناصر».

ديفيد بن جوريون

في البحث الذي أجراه الباحث اللبناني إليـاس سـليمان، تحـت عنـوان: «جمـال عبـد الناصر في مذكرات بن غوريون»، مؤسس دولة إسرائيل، يقتبس سليمان مـن مقولـة بـن غوريون عن عبد الناصر حيث يقول: «ابن موظف بريد، قائـد ثـورة الضـباط الأحـرار، الـذي يعتبـر البطـل الطبيعـي للعـالم العربـي، صـورته التـي رسـمت عـلى مئـات آلاف المطبوعـات والملصـقات في البيـوت والـدكاكين والأسـواق، وفي كـل أنحـاء الشـرق الأوسط.

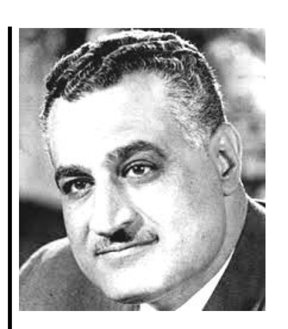
عرف عبد الناصر كيف يزعزع الغرب، وكيف يستقطب العـرب، كـونهم عـانوا مـن الاستعمار الأوروبي عشرات السنين، وعلم عبد الناصر متى يتوقف وأين، وعرف كيف تعالج الأمور مانعًا بذلك انقطاع محتمل بالعلاقات مع أوروبا ومع العالم العربي».

ومن الأقوال المنسوبة لـ«بن جوريون» أنه قال عند وفاة عبد الناصـر: «كـان لليهـود عدوان تاريخيان هما فرعون في القـديم، وهتلـر في الحـديث، ولكـن عبـد الناصـر فـاق الاثنين معا في عدائه لنا، لقد خضنا الحروب من أجل التخلص منـه حتـى أتـى المـوت وخلصنا منه».

الرئيس الأمريكي نيكسون

يروي سامي شرف في أحد المقالات المنشورة له، ملخص رؤية الـرئيس الأمريكـى نيكسون عن عبد الناصر، فيصفه في أحد كتبه بقوله: «سريع الغضـب والاشـتعال، نافـد الصبر، لكني رأيت الشباب والشيوخ، الأغنياء والفقراء، الجميـع ينصـتون لـه بنظـرات يعلوها الابتهاج الغامر، إن موته المفاجئ أشاع الأسـى ومظـاهر الحـزن التـي لم يشـهد العالم لها مثيلاً».

▪▪ عبد الناصر ... الرجل الإنسان [1]



1918 - 1970

الصديق الكبير الأستاذ سامي شرف دبجت براعته كتبًا كثيرة .. والعديد من المقالات عن جمال عبد الناصر تشهد على وفاء نادر لعبد الناصر وعلى ما يكمن في قلبه من حب وتقدير له ومنها ما كتبه في عام 1957م ظهرت بالقرب من «بنى مر» جزيرة مساحتها 140 فدانـًا من أراضي طرح النهر، فقام الأهالي ومن بينهم بعض أقارب الرئيس جمال عبد الناصر بزراعتها، وحدث خلاف بينهم وبين باقي أهالي القرية الذين سارعوا بتقديم شكاوى ضدهم، وتدخلت الشرطة للتوفيق بينهم لفض النزاع.

لكن الأهالي اتهموا الشرطة بالانحياز إلى صف أقارب الرئيس، وقاموا بإرسال شكاوى وتلغرافات إلى الرئيس، كما توجه بعض منهم إلى القاهرة حيث تقدموا بشكواهم إلى سكرتارية الرئيس، وما إن علم الرئيس بالأمر حتى أصدر قرارًا جمهوريًا بسحب كل أراضي هذه الجزيرة وما فيها من محاصيل زراعية وتوزيعها على المعدمين من أهالي القرية والمسرحين من الخدمة العسكرية في «بني مر» والقرى

(1) سامي شرف: جريدة الأهرام، تحت عنوان قضايا وآراء، العدد (47780)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص11.

المجاورة، وقام بتنفيذ هذا القرار المهندس كمال سري الدين مدير الإصلاح الزراعى في محافظة أسيوط في ذلك الوقت.

في نهاية المكالمة التلفونية الصباحية في أحد أيام شهر سبتمبر 1970م لعرض أهم وآخر صورة للموقف على جبهة القناة والصورة العامة لأهم المعلومات، قال لي الرئيس جمال عبد الناصر: «يا سامي حصلنى على الجنينة في طابور الصباح»، فدخلت من بوابة منشية البكري لأستمع إلى صوت المصحف المرتل ومشيت بجوار سور المكتبة حتى مدخل الحديقة، والذي كان قد وصل إليه من قبلي فقال لي باسمًا: «صباح الخير يا أستاذ»، فقلت: «صباح الخير يا افندم»، ثم سكت انتظارًا لما سيبادرني به هو.

كانت تلك عادته عندما يطلب مني مصاحبته في طابور الصباح، أن يبدأ هو بالحديث، فسألني الرئيس: «ما بتتكلمش ليه..؟» قلت: «مش عايز أقطع تفكير سيادتك انتظارًا لما ستأمر به»، فقال بعد أن وقف ناظرًا إلي ليرى رد فعل سؤاله علي: «إيه رأيك في خالد..؟ حانعمل فيه إيه بالنسبة للتجنيد..؟» فقلت دون تفكير: «طبعًا سيجند يا افندم»، فقال: «ما أنا عارف إنه حايتجند، إنما سؤالي لك هو حايتجند فين..؟».

وأكمل كلامه بقوله: «إنت عارف طبعًا لما حايتجند في أي وحدة ستتم مجاملات له أو لنا، وده شيء أنا مش عايزه يحصل لسببين: الأول يخص خالد؛ ليعرف ويعتاد على حياة جديدة خشنة تؤهله لمدخل حياته بالشكل الصحيح، والثاني: لازم الكل يعرف إن خالد مثله كمثل كل شباب البلد مجند عادى وغير مميز».

فقلت: «الحقيقة أنا فكرت في هذا الموضوع منذ أن أنهى خالد الامتحانات، ورأيي إنه يتجند في سلاح المشاة ويلتحق بالحرس الجمهوري، فنكون بذلك حققنا هدفين: الأول أن يصبح خالد جنديا عاديا مثله كالآخرين، والثاني: أن نتفادى المجاملات حيث سيكون تحت قيادة الليثي ناصف مع إشرافي عليه من ناحية أخرى، وننبه الليثى أن تكون المعاملة له معاملة عادية وطبيعية مثله كمثل باقي جنود الحرس الجمهورى، ومن خلال علاقتي بالحرس سأتأكد من تحقيق هذين الهدفين أي لا مجاملة ومعاملته كجندي عادي»، وافق الرئيس جمال عبد الناصر على هذا الرأي وقال لي: «ابق نسق مع الفريق فوزى والليثى ناصف».

سنة 1953م شعر جمال عبد الناصر بآلام الزائدة الدودية، واستدعى الدكتور مظهر عاشور كان كبير الجراحين في المستشفى العسكري العام بكوبري القبة، وذلك للكشف عليه في منزله بمنشية البكري، وبينما كان الدكتور مظهر عاشور يقوم بإجراء الكشف عليه قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»! فسأله الرئيس: «هي الحالة خطيرة للدرجة دي..؟»، فقال الدكتور: «أبدًا.. دي العلة البدنية هنا بسيطة ولا تحتاج إلا لعملية جراحية بسيطة لاستئصال الأعور، ولكنني أستغفر الله لعلة أخرى وهي أنني سمحت لأذني أن تسمع عنك فرية دنيئة»، فسأله الرئيس: «وإيه اللي سمعته يا دكتور مظهر..؟».

فقال: «كنت منذ أيام أزور بعض الأصدقاء في لقاء اجتماعي، فقال واحد من الحاضرين إنه زارك وشاف بيتك مفروش من قصر الملك من عابدين، وأنا داخل لك النهارده شفت حجرة الجلوس وحجرة النوم اللي إحنا فيها دلوقت، ولكني لم أجد شيئًا مما زعموه وافتروه عليك.. فسبحان الله..»!

وابتسم جمال عبد الناصر رغم آلامه وقال: إنني أتوقع الكثير من هذا الكلام، وإن مثل هذه الفريات وغيرها موش حاتعقدنا ولا تقعدنا عن تحقيق أهدافنا، يا دكتور مظهر أشهد بإن كل شيء حايكون لغيري ولو على حسابي.

عبد الناصر والصحافة

كانت رؤية عبد الناصر عن الصحافة هي نقل ملكيتها إلى الشعب لكي تكـون معبـرة عن مصالح الشعب، ومن هنا نراه في خطاب له ينتقـد الصـحافة التـي تهـتم بمشـكلات الطبقة الراقية وتهمل مشاكل الكادحين، فيقول: أنا عـاوز الاهتمـام بمشـكلات سـكان كفر البطيخ وليس بمشكلة تاتا زكـى، وكانـت تاتـا زكـى عارضـة أزيـاء جميلـة تناولـت الصحف مشكلاتها العاطفية بصورة واسعة.

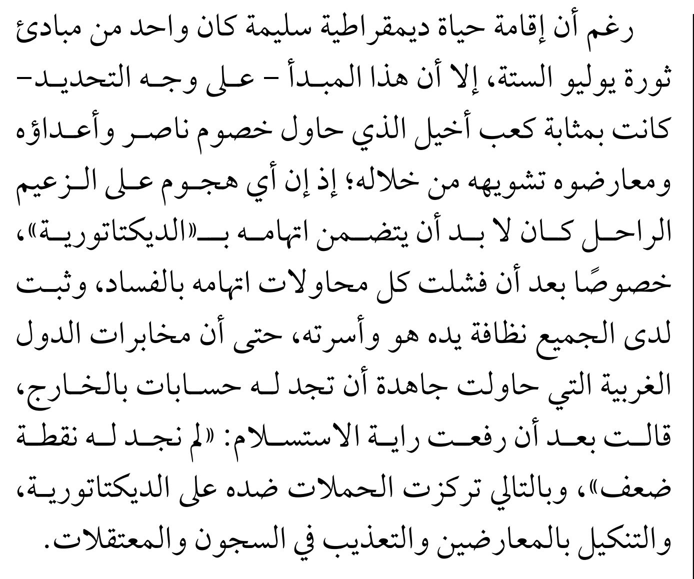
وفي ظل عهد ناصر أصبح الصحفي في أمان من الطـرد مـن قبـل المالـك، كـان قبـل الثورة شراء الصحف لصالح الإقطاعيين كما كـان يفعـل عبـود باشـا ليضـمن إسـكات الناقدين له من الصحفيين، وقد أسس ناصر جريدة الجمهورية وترخيصها باسـمه، كمـا طور أستاذ الصحافة العربية محمـد حسـنين هيكـل جريـدة الأهـرام؛ لتصـبح صـحيفة عالمية لها أكبـر مبنـى صـحفي في مصـر، وأدخـل أقسـام جديـدة بهـا مثـل الدراسـات الفلسطينية، والدراسات السياسية، وقسم الكمبيوتر، وغير هذا، كما أصـبح هنـاك عـدد الجمعة الممتاز.

كما اختفت في عهد عبد الناصر صـحافة التشـهير التـي عـادت مـرة أخـرى في عهـد الانفتاح، كجريدة صوت الأمة الغارقة في الجنس وكانت صحافة التشهير والجـنس قـد اختفت مع عهد الثورة، وقد استضـاف هيكـل كبـار المفكـرين في الأهـرام مثـل توفيـق الحكيم، وطه حسين، ويوسف إدريس، وكتب بعضهم ناقدا الثورة في حرية كاملة.

■■ لماذا أحب المصريين عبد الناصر رغم أخطائه



1918 - 1970



رغم أن إقامة حياة ديمقراطية سليمة كان واحد من مبادئ ثورة يوليو الستة، إلا أن هذا المبدأ - على وجه التحديد- كانت بمثابة كعب أخيل الذي حاول خصوم ناصر وأعداؤه ومعارضوه تشويهه من خلاله؛ إذ إن أي هجوم على الزعيم الراحل كان لا بد أن يتضمن اتهامه بـ«الديكتاتورية»، خصوصًا بعد أن فشلت كل محاولات اتهامه بالفساد، وثبت لدى الجميع نظافة يده هو وأسرته، حتى أن مخابرات الدول الغربية التي حاولت جاهدة أن تجد له حسابات بالخارج، قالت بعد أن رفعت راية الاستسلام: «لم نجد له نقطة ضعف»، وبالتالي تركزت الحملات ضده على الديكتاتورية، والتنكيل بالمعارضين والتعذيب في السجون والمعتقلات.

وبعيدًا عن المبالغات التي جاءت في الأفلام التي ظهرت بعد انتصار الرئيس الراحل أنور السادات على ما أسماه مراكز القوى، وكذلك في مقالات وروايات بعض الكتاب ومنهم قيادات في جماعة الإخوان المسلمين الذين أرادوا من خلال كتاباتهم التي تجاوزت في بعض الأحيان حدود اللامعقول من أجل كسب تعاطف المواطن البسيط، فإن الحقائق تقول[1]

(1) أسامة سلامة: مجلة روزاليوسف، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص51.

أن عبد الناصر لم يكن ديمقراطيًا، وكـان هنـاك تعـذيب للمعتقلـين، وزج بالمعارضـين ومنهم كتاب ومفكرين في السجون، وإلغاء تام لحرية الصحافة خاصة بعد تأميمها.

ولا خلاف على غياب الديمقراطية في العصر الناصري، وهو ما اعترف به عبد الناصر نفسـه في جلسـات اللجنـة العليـا للاتحـاد الاشـتراكي بعـد هزيمـة يونيـو 1967م وفي المحاضر التي نشرها عبد الحليم قنديل رئيس تحرير جريدة صوت الأمـة منـذ شـهور، كلمات وتعبيرات للرئيس الراحل تؤكد أنه أدرك خطأ تجاهـل الديمقراطيـة، وأنـه كـان يريد تصحيح هذا الخطأ والبدء في توسيع هامش الحرية، وإتاحـة الفرصـة للمعارضـين للتعبير عن آرائهم.

ولعل ما سبق يطرح سؤالاً: لماذا أحب المصريون عبد الناصر إذا كان قهـرهم وزرع الخوف في نفوسهم وجعلهم لا يشعرون بالأمان..؟! .. كما يتقول البعض .

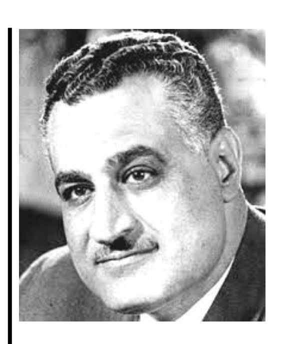
في اعتقادي أن المواطن البسيط أحب ناصر لأنه أعطاه الأمـان الاجتمـاعي، التعلـيم والعلاج والمسكن والعمل بجانب تكافؤ الفرص في الحصول على الوظائف مهمـا كـان تميزها، وهو ما جعل هذا المواطن يتغاضى عن أخطاء السياسـة، خاصـة أن عـددًا غيـر قليل من البسطاء لا تهمهم السياسة بقدر اهتمامهم بلقمة العيش، كمـا أن المشـروعات القومية وعلى رأسها السد العالي وحدت الشعب وراءها، واعتبر كل مواطن أنـه مشـارك في بنائها بشكل أو بآخر.

أيضًا إقامة الكثير من المصانع الكبيرة التي وفرت فرص عمل كبيرة وهو ما جعل لـه رصيدًا ضخمًا بين العمال، وهي المصانع التي كان لهـا دور كبيـر في الاقتصـاد الـوطني حتى تم بيعها في هوجة الخصخصة في التسعينيات من القرن الماضي، كذلك الإصـلاح الزراعي الذي حول عـددًا كبيـرًا مـن الفلاحـين مـن أجـراء إلى مـلاك، بجانـب شـعور المصري بالعزة والكرامة بعد أن أصبح اسم مصـر عاليًـا في المحافـل الدوليـة، ولم تعـد دولة محتلة أو تابعة، بالإضافة إلى مواقف عبد الناصر من القضية الفلسطينية التي كانـت في عهده قضية معظم المصريين.

وكذلك مناصرته لحركات التحرر في العديد من الدول العربية والإفريقية، ومشاركته في إنشاء حركة عدم الانحياز مما وضعه ووضع مصر في قيادة العـالم العربـي والإفريقـي

والآسيوي، ولا شك أن الظروف الدولية وقتها كانت تسمح بكل هـذه الفاعليـات التـي جعلت من ناصر زعيمًا عالميًا وليس مصـريًا فقـط، مـا سـبق مجـرد اجتهـاد ومحاولـة للإجابة على سـؤال صـعب يحتـاج إلى دراسـات عميقـة وحقيقيـة بعيـدًا عـن العاطفـة والنوستالوجيا أو الحنين إلى الماضي.

▪▪ الأستاذ يكتب عن الزعيم



1918 - 1970

هيكل يكتب عن الزعيم: ناصر لم يصنع مصر.. هي بعظمتها من صنعته ولو ولد في غيرها ما ظهر ولو ظهر في غيرها ما استطاع[1]:

الآن قد أستطيع أن أمسك مشاعري لأكتب عنه، فلقد قضيت أيامًا بعد الرحيل لا أستطيع أن أصدق، وأيامًا أخرى تلتها لا أستطيع أن أتصور، حتى استرجعت نفسي من أثر الصدمة، أتذكر ما كنت أقول دائمًا عندما كان بيننا: «إنه بكل عظمته لم يصنع مصر، ولكن مصر بكل عظمتها هي التي صنعته، ولو ولد في غير مصر لما ظهر ولو ظهر في غير مصر لما استطاع». دوره البطولي كله جزء من قدرها التاريخي. ولقد يقال إنه كانت في دور جمال عبد الناصر بقية، كنا نتمنى على الله أن يتركه بيننا، حتى يقود زحف التحرير ويشهد يومه.

كنا نتمنى ذلك لنا وله، على الأقل يرى النتيجة التي عمل من أجلها حتى آخر خفقة في القلب، ويعيش الفرحة التي قاسى من أجلها، وعانى، وتعذب، لكن مشيئة الله فوق كل الأمنيات، ثم نتذكر أن جمال عبد الناصر أدى في الحقيقة، كل دوره أو معظمه، وعندما نسأل أنفسنا: ما هو الدور الذي

(1) محمد حسنين هيكل: جريدة صوت الأمة، العدد (876)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص5.

حققه عبد الناصر..؟ فإننا يجب أن نستشرف أفقًا واسعًا، ذلك أن المعركة التي نخوضها الآن، أزمة سوف تمر، وحدتها في وجداننا تجيء من أننا ما زلنا فيها، لكنها سوف تمضي كما مضت قبلها الأزمات في تاريخ الأمم الحية.

ودور جمال عبد الناصر - عندما نستشرف الأفق الأوسع- بتجاوزها في الحقيقة، إن هناك إنجازين بارزين في دور عبد الناصر من وجهة نظر الحركة العامة للتاريخ: أولهما: أنه وصل مصر بأمتها العربية، وثانيهما: أنه وصل أمته العربية بالعالم وبالعصر، هذا بكل بساطة هو دوره، وتحته تندرج كل التفاصيل، وعجزي - بعد الرحيل- عن التصديق وعن التصور، لم يكن إلا شعور فرد عرفه عن قرب، ولم أستطع لفترة طويلة أن أعزي نفسي بأن ذلك لم يكن اختيارًا أراده هو، وإنما المقادير هي التي فرضته عليه وعلي.

لقد كنت أعرف ما به، وكنت شاهدًا على ملحمته الرائعة في الصراع مع الألم، وأظن أن صراعه مع الألم سوف يبقى أنبل معاركه؛ لأنه ذروة المأساة في قصة البطل، إن مرحلة صراعه مع الموت بدأت سنة 1958م، بعد حرب السويس، وبعد المؤامرة على سوريا، وبعد الوحدة، وبعد ثورة العراق وسقوط حلف بغداد - اكتشف الأطباء أن لديه مرض السكر، وكتب الأطباء له تقريرًا عن حالته، يقولون: إن المرض يمكن السيطرة عليه، ولا بد من السيطرة عليه، وذلك يقتضي ضبط ثلاثة عناصر رئيسية في طريقة حياته: ضبط الطعام، وضبط المجهود، وضبط الانفعالات.

وقرأ التقرير ووضع علامة الموافقة على البند الأول مما يطلبون ضبطه وهو الطعام، وترك البندين الباقيين بدون إشارة إلى رأيه فيهما، وطلب أطباؤه موعدًا معه لمناقشته، وجلس معهم كأنه يبحث أي مشكلة مما يواجهه كل يوم، يقرر فيها الممكن والمستحيل، ويحاول بإرادته التوفيق بينهما، وقال للأطباء وهو يمسك بالتقرير، يناقشهم فيما يطلبون: «بالنسبة لضبط الطعام ممكن بشرط واحد، هو ألا يمتد المنع إلى الجبن الأبيض..!»، وكانت الجبن الأبيض أكلته المفضلة، ولم يخرج من مصر إلى رحلة إلا وكانت في الطائرة صفيحة من الجبن الأبيض، وكانت مأدبة العشاء الفاخر تقام له في قصور الدولة حيث يذهب، وكان يتظاهر بأكل بعض ما هو ممدود أمامه، لكن العشاء الحقيقي كان حين يعود بعد الرسميات إلى جناحه ثم يطلب الجبن الأبيض والخبز الجاف.

ورضى حين قال له الأطباء إن الجبن الأبيض لن تكون ضـمن المحظـورات تحـت بند ضبط الطعام، وانتقلت المناقشة إلى البندين الآخـرين في التقريـر، ضـبط المجهـود، وضبط الانفعالات، وقال لهم ببساطة: كيف لي أن أسيطر على المجهـود والانفعـالات، هذه حياتي كلها..! ثم وعدهم في النهاية أن يحاول، لكنهم كانوا يرون بعيونهم كـل يـوم أنه لا يحاول.

وجاءت انتكاسة الثورة في العراق، ثم مشكلات الوحدة، ثـم ثـورة الاشـتراكية، ثـم ضربة الانفصال، والمذهل أنها وقعت أيضًـا يـوم 28 سـبتمبر قبـل يـوم الرحيـل بتسـع سنوات بالضبط، ثم مواجهة آثار ما بعد الانفصال في مصر وفي العالم العربي، ثم جـاءت مؤامرة العدوان سنة 1967م، خلال ذلك كله كانت مضاعفات السكر - بغيـر محاولـة لضبط المجهود أو ضبط الانفعالات- تزداد، وحين أُجـرى عليـه كشـف عـام يـوم 13 يوليو سنة 1967م، فإن الأطبـاء - وأولهـم طبيبـه الخـاص الصـاوي حبيـب- أحسـوا بالخطر.

كانت مضاعفات السكر قد أحدثت تأثيرًا في شـريان القـدم اليمنـى، وفي يوليـو سـنة 1968م كان على موعد للسفر إلى موسكو، واقترح عليه الأطبـاء أن تكـون تلـك فرصـة يدرس معهم أطباء السوفيت حالته، وفوجئت بحدة آلامه وأنا جـالس أمامـه في الطـائرة المسافرة إلى موسكو، كانت تطورات الحوادث في مصر في بداية سنة 1968م قد شغلتنا جميعًا عن حالته الصحية، لكنني روعت حين وجدته في الطائرة لا يسـتطيع الجلـوس في مقعده من شدة الألم، وفرش له الأطباء سريرًا في الجزء المخصص له من مقدمة الطائرة، وكنت أحاول أن أخفي الانزعاج ولكنه لمح آثاره، فقال برقة لم يستطعها غيـره: «سـوف أنام بعض الوقت وحين أستيقظ سوف يكون الألم أخف».

وجلسنا بجواره «أنور السادات وأنا» على كرسيين متواجهين في الطائرة وكنا سـاكتين لنعطيه فرصة للنوم، لكن نظرات عيوننا لم تكن ساكتة، واسـتيقظ والطـائرة فـوق بولنـدا وعاد إلى كرسيه معنا، لكننا لم نشعر أن آلامه قد خفت حدتها، وحاول هو تغيير الموضوع فقال لي: «اطلب ياسر عرفات ليجيء فيجلس معنا هنـا بعـض الوقـت، حتـى لا يشـعر بالغربة مع بقية أعضاء الوفد من ركاب الطائرة».

وكان ياسر عرفات معنا على الطائرة ذاهبًا لموسكو، ولم يكن يعرف بوجوده أحد، ولا كان أحد في العالم قد سمع باسمه بعد، ولكن جمال عبد الناصر أراد أن يأخذه معه إلى موسكو ليفتح للمقاومة الفلسطينية بابًا يكون لها مصدر سلاح، وحين جاء ياسر عرفات وجلس بجواره، كان هو قد سيطر تمامًا بإرادته القوية على آثار الألم ومظاهره على ملامحه، وشهدته في مراسم الاستقبال الرسمي في مطار فينوكوفو وأنا أعلم كم يكلفه الوقوف والمشي، وظلت سيطرته كاملة على آلامه حتى وصل إلى قصر الضيافة، وأجرى اجتماعًا تمهيديًا مع الزعماء السوفيت، وتمشى معهم في حديث ودي في حديقة قصر الضيافة الواقع على ربى تلال لينين، وبريجينيف يريه لأول مرة أشجار الكريز، ثم صعد إلى غرفة نومه وخلع ملابسه وتمدد على السرير رافعًا قبضة إرادته القوية عن آلامه الشديدة الصامتة.

وكنا معه في الغرفة ثلاثة: أنور السادات، والشهيد عبد المنعم رياض، وأنا، وجاء طبيبه الخاص وتركناه معه قليلاً وخرجنا إلى غرفة المكتب الملحقة بغرفة النوم في جناحه، وعبد المنعم رياض يقول لي: كيف تركناه حتى تصل به الآلام إلى هذه الدرجة، إنه واحد في الدنيا كلها لا أطيق أن أراه يتألم..!، وذهب إلى مستشفى بربيخا وأجرى له كشفا كاملا، وعاد من المستشفى ومعه أنور السادات الذي بادرني قائلاً: «المسألة بسيطة»، وقاطعه هو قائلاً: « أنور سوف نقول له الحقيقة، يجب أن يعرف هو الآخر».

ثم مضى يقول: «لقد وجدوا أن هناك تصلبًا في شرايين الساق، من أثر مضاعفات السكر»، ثم استطرد ضاحكًا يقول: ليس هذا أسوأ شيء، أسوأ شيء أنهم طلبوا مني الامتناع عن التدخين إلى الأبد، لقد أطفأت آخر سيجارة أمام الطبيب، ووعدته ألا أشعل غيرها بعد ذلك، وسألته عن العلاج فقال: طلبوا مني أن أعود في ظرف أسبوعين للعلاج بالمياه الطبيعية في بلد اسمه «تسخالطوبو» في جورجيا.

وعاد إلى القاهرة فحضر المؤتمر القومى الاشتراكي، ورتبت نتائج محادثاته في موسكو ثم ذهب إلى «تسخالطوبو» لثلاثة أسابيع من العلاج الطبيعي، ثم عاد إلى القاهرة لأسبوعين من النقاهة قضاهما في الإسكندرية ولم تكن الآلام قد زالت، بل إن بعضها قد اشتد، وكان ذلك ما توقعه الأطباء السوفيت، كرد فعل للعلاج بالمياه الطبيعية المشعة، وكمقدمة لا بد أن يجيء بعدها التحسن التدريجي.

وأذكر يومًا في تلك الفترة وكنت قد ذهبت إلى زيارته في الإسكندرية، سألته عن الألم، فقال: «لم يظهر التحسن بعد، ولكن الأطباء يقولون إنه سيحدث»، وسكت قليلاً ونظر على أمواج البحر المترامي أمام شرفة استراحة المعمورة التي كنا نجلس فيها وحدنا، ثم عادت نظراته إلي وهو يقول: «إنني أفكر جديًا في قرار أريد مناقشته معك»، وانتظرت ساكتًا ليكمل حديثه، واستطرد: «إذا لم تذهب هذه الآلام، فكيف أستطيع أن أواصل العمل..؟ في هذه الحالة سوف أعتزل، هل تجد أمامى سبيلاً آخر..؟، واستطرد: «شيء واحد يمنعني، أخشى أن يفسر ذلك هنا في العالم العربي، أو هناك في العالم الخارجي، بأنني يائس من احتمالات النصر وذلك عكس اعتقادي».

في بداية سنة 1969م كانت الآلام قد خفت كثيرًا عن ذي قبل كما كان يتوقع الأطباء، وكان الرأي السائد بينهم هو أن هذه الآلام سوف تختفي تمامًا إذا عاد مرة ثانية في صيف سنة 1969م، وكان هو مقتنعًا تمامًا بالذهاب في الموعد المحدد، أغسطس سنة 1969م، وفي ربيع وصيف سنة 1969م كانت معارك المدفعية قد بدأت، وبدأت عمليات العبور الجسور وكان يتابعها ليلة بليلة، ويعرف اسم كل قائد يدخل بمجموعته، ويسأل قبل أن ينام عن عودتهم، وعن الخسائر فيهم.

ثم أعلن بدء حرب الاستنزاف في يوليو سنة 1969م، واشتدت المعارك على الجبهة المصرية، ثم تأثر بطريقة لا يمكن أن يتصورها أحد لحريق المسجد الأقصى، وحين طرح أمامه في تلك الظروف موعد زيارته الثانية إلى «تسخالطوبو» لكي تنتهي كل الآلام، أشار بتأجيل الموعد إلى شهر سبتمبر حتى تكون الظروف قد تكشفت، ومع أن الآلام بدأت تعود إليه حادة مرة أخرى، بعد سنة من أثر العلاج الطبيعي، فإنه لم يتعجل الذهاب للمرة الثانية؛ لأنه قال - كما يقول للدكتور منصور فايز وللدكتور الصاوى حبيب- لا أستطيع أن أترك أولادنا هنا يموتون، وأذهب للعلاج في «تسخالطوبو».

وجاء يوم 11 سبتمبر سنة 1969م، كان قد حدد موعدًا لسفره إلى «تسخالطوبو» بعد أيام، وكان مقررًا أن يجري الدكتور الصاوي عليه كشفًا عامًا ليعد تقريرًا كاملاً قبل السفر، وصباح ذلك اليوم كان يشعر بإرهاق شديد، مصحوبًا بنوع من الدوار، ولذلك فإنه دعا الدكتور الصاوي ليكشف عليه قبل الموعد الذي كان محددًا للفحص الشامل

بعدة ساعات.

كان يقول للدكتور الصاوي دائمًا: «إنك لا تستطيع التحكم في ملامحك يا دكتور، وأنا أرى نتيجة الكشف عليها قبل أن تخبرني بها!»، ولأول مرة في ذلك اليوم فإن الدكتور الصاوي لم يرد؛ لأن المفاجأة كانت كبيرة بالنسبة له، لقد اكتشف فجأة والسماعة موجودة على صدر عبد الناصر أنه يسمع ما يسمونه في طب القلب «الصوت الثالث»، هناك إذن طارئ جديد ألم بالقلب، وتمالك الدكتور الصاوي نفسه وقال: «سيادة الرئيس أرى أن تقوم بعمل رسم للقلب، يكون معنا ونحن في موسكو».

وأجرى رسم القلب، وخرج الدكتور الصاوي بالجهاز يقرأ نتيجة الرسم خارج غرفة النوم، وذهل لما رأى..! لم يصدق عينيه لكن الدليل كان مرسومًا أمامه، هناك صورة جلطة انسداد في فرع من الشريان الأمامي للقلب، قلت: إن الأمر يجب أن يؤخذ جدًا، وقال بهدوء: ليكن ولكن المهم ألا يعرف أحد، حتى لا يقلق البلد.

ثم سألني: كيف يمكن أن نغطي غيابي ثلاثة أسابيع..؟ قلت: قد نقول إنها أنفلونزا، لا يهم ما نقوله ولكن المهم أن نستريح، والمذهل أنه ليلتها نفس الليلة لم يستطع أن يستريح، ليلتها كانت هناك أزمة بين حكومة الأردن والمقاومة، وبعث الملك حسين برئيس وزرائه السيد بهجت التلهونى إلى القاهرة، برسالة منه إلى عبد الناصر، وجاء بهجت التلهونى يطلب مقابلة الرئيس؛ لأن الموقف خطير، وقيل له إن الرئيس تعرض لنوبة أنفلونزا وهو راقد في فراشه.

وقال بهجت التلهونى إنه إذا عاد بغير مقابلة مع عبد الناصر، فسوف يقدم استقالة وزارته، وتم الوصول إلى حل وسط اقترحه الرئيس، يجيء التلهونى إليه في غرفة النوم، يراه ولكن لا يبحث معه شيئًا، بحيث يستطيع أن يقول للملك إنه اجتمع به، لكنه يبحث ما يريد مع السيد أنور السادات.

وجلسنا بعد ذلك مجموعة من أصدقائه ومعاونيه نتحدث، واتفق رأينا أن نستعين بخبرة عالمية، وكان تساؤلنا: لماذا لا نجيء بأكبر أطباء القلب السوفيت..؟ وطارت رسالة سرية عاجلة إلى موسكو، وجاء الدكتور شازوف وزير الصحة في الاتحاد السوفيتي – وهو نفسه من أكبر خبراء القلب– ومعه مجموعة من صفوة الأطباء وأجرى

الكشف، وكانت النتيجة نفس النتيجة، والعلاج نفس العلاج الذي اقترحه وطبقه الأطباء المصريون.

في تلك الأيام راودته مرة أخرى فكرة الاعتزال، ليس من أجل نفسه ولكن من أجل البلد، ولكن من أجل البلد أيضًا، ومن أجل كل بلد عربي كان لا يستطيع الوصول إلى القرار، وسمعته أكثر من مرة يقول لي خلال تلك الفترة سوف يفسر ذلك مهما قلت، بأنني يائس من نتيجة المعركة، وأن ذلك سوف يؤثر تأثيرًا كبيرًا على القوات المسلحة وعلى جماهير الأمة العربية.

ثم تلاحقت الحوادث وهو وسطها يقودها وتقوده، مؤتمر القمة في الرباط وكل ما جرى فيه، وزيارته الأولى لليبيا، ثم زيارته للسودان، وعاد إلى مصر بأنفلونزا حادة، وكان قد اقتنع بضرورة أن يستريح بعض الوقت، لكن التطورات لم تتركه يستريح فقد بدأت غارات العمق، ولا يمكن لأحد يصف شعوره عندما كانت تصله خسائر بين المدنيين، خصوصًا بين الأطفال الذين كانوا أحب شيء في الوجود إلى قلبه.

وقرر أن يسافر إلى موسكو، وحينما عرف الدكتور الصاوي قرار السفر، دخل عليه والجد كله على وجهه، يقول له: سيادة الرئيس، هل صحيح خبر السفر إلى موسكو..؟ وقال هو: نعم..!، وقال الدكتور الصاوي: إن هذا مستحيل لأن الأنفلونزا لم تتحسن، ودرجة الحرارة في موسكو كما عرفت ست وثلاثون تحت الصفر، وقال الرئيس وهو يضحك: نحن لسنا ذاهبين للتزحلق على الثلج، ولكن للعمل وقاعات الاجتماعات مدفأة، وقال الدكتور الصاوي: إنني أرى أن الإجازة الآن ضرورية قبل أى شيء.

وسكت عبد الناصر فترة، والدكتور الصاوي واقف أمامه صامتا ينتظر الرد، وجاءه الرد من عبد الناصر بسؤال مفاجئ: يا دكتور، من الذي يعطيني هذه الإجازة..؟ واحتار الدكتور الصاوي ثم وجد نفسه ينطلق ليقول: «الطب يا سيادة الرئيس»، وهز الرئيس رأسه وقال: «الطب لا يستطيع أمام الموت، هناك ناس يموتون كل يوم وبينهم أطفال، ليس هناك طب يستطيع أن يعطيني إجازة في مثل هذه الظروف».

وعاد عبد الناصر من موسكو إلى القاهرة، ثم إلى أسوان لموعد مع الرئيس تيتو، وحاول أن يقنع كل المحيطين به بأن: بعد أن يسافر تيتو سأبقى بضعة أيام في أسوان،

إجازة في الشمس»، وسافر تيتو وبدأ الرئيس يستعد لأسبوع إجازة، ولكن عمه خليل عبد الناصر توفي في اليوم التالي من الإجازة المرتقبة، وركب عبد الناصر قطارًا من أسوان إلى الإسكندرية لتشييع الجنازة وعاد بعد ذلك إلى القاهرة.

وكان تركيز إسرائيل قد بدأ على الجبهة المصرية بعنف حقود، وقال أحدهم: إنه علم من السيد سامي شرف، أن الرئيس يسأله عن قائمة الخسائر في الجبهة كل ليلة، وأن ذلك هو السؤال الأخير في عمل الليل والنهار، قبل أن ينطفئ النور في غرفة نومه..؟ وسافر إلى موسكو المغطاة بالثلوج وكان عمله فيها من أعظم ضرباته الاستراتيجية، وتوقفت غارات العمق، ولكن التفتت في الجبهة الشرقية بدأ يقلقه، وتحمس لفكرة عقد اجتماع في ليبيا، على أساس الطرح القومي للمعركة، استجابة لنداء معمر القذافي وكانت محبته له غلابة، وكان يراقب حركته السريعة واندفاعه القومي، ويسمعه أحيانا وهو يخطب، ويقول له بمحبة: «معمر القذافى أنت تذكرنى بشبابي!».

وسافر إلى موسكو بعد ذلك لزيارة رسمية، وجاءه الدكتور شازوف يرجوه فور الانتهاء من محادثاته أن يذهب إلى مصحة «بربيخا» لكشف طبى شامل جديد عليه، قال له شازوف: إننى أفزع عندما أتابع برنامج عملك وزياراتك، وتم الكشف الشامل عليه في «بربيخا»، وجاءني شازوف ومعه الدكتور فلاديمير في بهو مستشفى بربيخا يقولان لي: من الضروري أن يبقى الرئيس هنا شهرًا، ثم ذهب شازوف إلى بريجنيف يرجوه الإلحاح على الرئيس بالبقاء.

واقتنع عبد الناصر بعد أن رأى تقارير الفحص، أن يبقى أسبوعين وقال لشازوف: «إنني مضطر للعودة من أجل المؤتمر القومي، لا بد أن أكون في مصر قبل يوم 20 يوليو»، وعاد إلى مصر لمعركة من أعنف المعارك، وقف أمام المؤتمر القومي يتكلم، ويقبل مشروع روجرز لأسباب قدرها، وحسب حساباتها، ومضت الحوادث وجهده لا يتوقف، وانفعالاته تلاحق جهده، فقد كان يعمل بكل مشاعره، وبدأ يحس بالإرهاق يضغط عليه، وبآلام تشتد، وقرر أن يذهب إلى مرسى مطروح في إجازة لأسبوع كامل.

واتفقنا ألا يتصل به أحد مهما كانت الظروف، لكن الأزمة في الأردن انفجرت، وبقى الكل مترددًا في الاتصال به هناك أول أيام الأزمة، لكنه عند المساء كان قد سمع من الإذاعات بما يجري، واتصل هو يطلب موافاته أولاً بأول بالتفاصيل، وكان أطباؤه جميعًا

في حالة ثورة كاملة، وكانت كلمتهم له بالإجماع تقريبًا: «إن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو»، وحين نقل إليه الدكتور الصاوي رأيهم، وأنا واقف معه في غرفته بفندق هيلتون - الذي كان مقرًا للاجتماع الكبير- كان رده بغضب: ماذا تقولون..؟! في كل دقيقة يمكن أن يقتل عشرات الرجال والنساء والأطفال في عمان..؟ ألا ترون أننا في سباق مع الموت..!

ثم أذكره وهو يقول لي مرات عديدة أثناء مناقشات طويلة كانت تجري بيننا: «أنت تؤمن بالعقل أكثر مما ينبغي في بعض الأحيان، هناك أشياء لا بد أن نأخذها كما هي، ببساطة وبغير أن نعقدها، هناك أسئلة بغير جواب وستبقى دائمًا بغير جواب».

▪▪ رحلة قلم: عبد الناصر..
خبز الشعب وأحلامه [1]



1918 - 1970

في فبراير ١٩٢٣م كتب عباس العقاد بجريدة البلاغ يقول: «نشرت زميلتنا الأخبار في ١٤ يناير الماضى خبرًا جاء فيه أن مسجونًا يخدم في حديقة أحد الموظفين الإنجليز أكل (طماطمة) واحدة ملقاة، فما كان من السيدة زوجة الموظف الإنجليزي، وقد رأت المسجون إلا أن أمرت الأونباشى الحارس أن يظل يضرب المسجون بالكرباج حتى تكلفه أن يكف عن ضربه».

انقضى نحو ثلاثين عامًا على تلك الحادثة، ظل الشعب المصري خلالها يحلم بالتحرر من الاحتلال إلى أن قامت ثورة يوليو بقيادة عبد الناصر الذي أدرك أن الأحزاب الشرعية وغير الشرعية كانت منشغلة حينذاك بالمعارضة الديمقراطية، في إطار تحسين عمل البرلمان والحريات الصحفية وما شابه، لكنها ليست ثورية بما يكفي لتفكر في الاستيلاء على السلطة أو تتجرأ على تلك الخطوة.

مع أن الاستيلاء على السلطة هو القضية الحاسمة في الثورة، وكان الغضب والوعي والكفاح الوطني قبل ثورة

---

(1) د. أحمد الخميسي: جريدة الدستور، بتاريخ 2 أكتوبر 2017م، ص14.

يوليو قد راكمت مطالب التغيير ورسمت ملامحها: جلاء الإنجليز، الدستور، التصنيع، التنمية، عدالة اجتماعية، تحديد الملكية الزراعية، مجانية التعليم، وحتى مشروع السد العالي كان مطروحًا قبل ثورة يوليو، كل ما قام به عبد الناصر أنه احتضن تلك المطالب، وحققها بدءًا من تأميم القناة الذي حرك العدوان الثلاثي ضد مصر، ثم تشييد السد العالي، والتنمية، والتصنيع، وبناء الجيش والإصلاح الزراعي، ومجانية التعليم، وتمكين المرأة من حريتها، والنهضة الثقافية غير المسبوقة، مع دعم حركات التحرر في فلسطين والجزائر واليمن وغيرها.

وما زال البعض يكرر أن ثورة يوليو كانت انقلابًا وليس ثورة، مع أن الانقلاب هو تغيير في قمة السلطة لا يطول بناء المجتمع، تغيير الرأس الحاكم وبقاء النظام كما هو، أما الثورة فتقوم بتغيير البنية الاجتماعية والطبقية، وهو ما فعلته ثورة يوليو حين حولت مجتمع الخمسة بالمائة الذين امتلكوا ٩٥٪ من الأرض إلى مجتمع يقتسم الأرض مع الفلاحين، ويشارك فيه العمال في إدارة المصانع.

وفي ذكرى رحيل عبد الناصر السابعة والأربعين ينظر أعداؤه بدهشة إلى حقيقة أن عبد الناصر ما زال حيًا وباقيًا، وأن كل السهام التي وجهت إليه لم تنل من وجهه المنحوت من الصلابة والمرارة والأمل، وما زال الكثيرون لا يجدون سوى صورته يرفعونها في حركات الاحتجاج الشعبى، وقد حضرت جنازته في ميدان التحرير، وما زالت ماثلة أمام عيني؛ لأنني لم أرَ قبلها ولا بعدها مشهدًا تنخلع له القلوب مثل مشهد وداع ناصر.

كان الفلاحون يتدفقون إلى ميدان التحرير بلا توقف، كالموج المتلاحق، والفلاحات المتشحات بالسواد يهتفن بالدموع «يا عريس يا صغير»، ثم برز فجأة من بين الصفوف المقطع الذي لم يؤلفه أحد، ولم يلحنه أحد، وأصبح نشيدًا متصاعدًا يلخص علاقة الجماهير بعبد الناصر: «ثورتك ثورة جياع عشتها طول السنين.. الوداع يا حبيب الملايين». ورثاه محمود درويش، أكبر الشعراء، في قصيدته «الرجل ذو الظل الأخضر» يقول له: «نراك طويلاً.. كسنبلة في الصعيد، جميلاً.. كمصنع صهر الحديد، وحرًا كنافذة في قطار بعيد»، ولخسف ثورة يوليو وزعيمها يكرر البعض مقولة «حكم العسكر»، من غير أن يتعظوا بسنة حكم مدني لمحمد مرسي، ويدركوا أن القضية ليست

«عسكريًا أو مدنيًا».

فالحكم المدني أو العسكري قد يكون تعبيرًا عن مصالح الشعب أو تعبيرًا عن مصالح الطبقات الثرية وحدها، لكنهم يرددون تلك المقولة بهدف دمج كل عهود الثورة تحت شعار واحد «حكم العسكر»، لتشويه الثورة وتغيير صورتها من ثورة على الإقطاع والاستعمار إلى مجرد «حكم عسكر»، وفي الوقت ذاته تستهدف تلك المقولة الشطب على عهد عبد الناصر الثوري بوضعه على قدم المساواة مع السادات ومبارك على أساس أن كله «حكم عسكر»!

في الوقت ذاته فإن تلك المقولة تسدد طعنة للناس؛ لأنها تنقل لهم فكرة أن الثورة لا تؤدي إلى شيء، وأن التمرد بلا مستقبل، وأنه كان من الأفضل لهم الاستمرار فيما مضى، ومن أجل نزع فكرة الثورة من العقول والضمائر فإن جهات كثيرة لا تبخل لا بالمال ولا بالكتب ولا بالأفلام ولا الصحف.

وهم حينما يقولون «حكم العسكر» فإنهم يقصدون الحكم الذي تغيب فيه الديمقراطية، لكنهم لا يفهمون من الديمقراطية سوى يافطات الأحزاب الورقية ونصف الورقية والتمثيل البرلماني وغير ذلك، وإذا كان ذلك هو المقصود بالديمقراطية فإن عبد الناصر لم يكن ديمقراطيًا، أما إذا كان للديمقراطية جانب آخر لا تكتمل دونه، وهو الجانب الاجتماعي، فقد رأى عبد الناصر ذلك الجانب المتعلق بأهمية توفير التعليم للجميع والتصنيع والتنمية المستقلة، لقد رأى عبد الناصر تلك «الطماطمة» التي حين مد أحدهم يده إليها ظلوا يجلدونه إلى أن تأمر زوجة الموظف الإنجليزي بالكف عن ضربه.

لقد كسرت هزيمة ١٩٦٧م جمال عبد الناصر، وكانت الأماني أكبر وأثقل من جناحي النسر الذي ارتفع من بين أكواخ الفقراء والفلاحين وحلق بأحلامهم، لكنه كان نسرًا نعتز به وبطوافه في الأفق وأمانيه، التي باتساع السماء، في ذكرى رحيله أستعيد أبيات أحمد فؤاد: «عمل حاجات معجزة وحاجات كتير خابت، وعاش ومات وسطنا على طبعنا ثابت، وإن كان جرح قلبنا كل الجراح طابت، ولا يطولوه العدا مهما الأمور جابت»، ولا يطولوه العدا لأنه في قلب الشعب بقدر ما كان خبزًا وأحلامًا للشعب.

▪▪ هل كان عبد الناصر سعيد الحظ..؟ [1]



1918 - 1970

عندما وقعت كارثة الهزيمة منذ خمسين عاما (في 5 يونيو 1967م)، لم أكن ممن فسروا ذلك بخطأ ارتكبه نظام جمال عبد الناصر، بل كنت وما أزال أميل إلى الاعتقاد بأن ما حدث كان واقعا لا محالة، وأن الولايات المتحدة (ومعها إسرائيل) لم يكن من الممكن أن يقبلا أن ينمو نفوذ عبد الناصر وتأثيره في المنطقة العربية إلى أكثر مما بلغه بالفعل، كان ضرب مصر في ذلك الوقت إجراء حتميا، وبهذا كان عبد الناصر (ومعه مصر والعرب كلهم) يدفع ثمن تجرئه على تحدي قوى أكبر منه، عسكريا وسياسيا واقتصاديًا.

ولكن مع مرور الزمن، والتفكير من جديد في التجربة الناصرية، أميل أيضا إلى اعتبار جمال عبد الناصر رجلاً سعيد الحظ، كان للرجل السمات المطلوبة في زعيم شعبي؛ إذ كان يتمتع بجاذبية شخصيته وقوة الإرادة وثقة عالية بالنفس، ولكنه أيضا كان رئيسا في عصر متميز بدوره، عصر نهرو وسوكارنو وبن بلا ونيكروما، وهذا هو ما أقصده بالقول بأنه كان رجلا سعيد الحظ.

(1) د. جلال أمين: جريدة الأهرام، بتاريخ 2 أكتوبر 2017م، ص12.

لقد وصفت تلك الفترة من القرن العشرين (الخمسينيات وأوائل الستينيات) في مقال سابق بهذه الجريدة، بأنها اتسمت بما يمكن تسميته «بقوة الالتزام الخلقي»، أى بقوة الشعور بأن على الفرد مسئولية اجتماعية إلى جانب العمل لمصلحته الشخصية والعائلية، لا يمكن الزعم بأن هذا الشعور قد انتهى بانتهاء الستينيات، ولكني أزعم أنه منذ سبعينيات القرن العشرين اشتد الاهتمام بالصعود والترقي الفردي، في صورة زيادة دخل الفرد والارتفاع بمستوى معيشته، على حساب الانشغال بالصالح العام.

قرأت مؤخرا عن استطلاع للرأي جرى لطلبة مدارس في إنجلترا في سنة 1949م، تبين منه أن ارتفاع مستوى الذكاء يقترن بطموح التلاميذ إلى العمل في وظائف يحققون فيها شخصياتهم أكثر من طموحهم إلى وظائف ذات مكافأة مادية عالية، بالمقارنة بما يلاحظ الآن من تفضيلهم للمكافآت الأعلى بالمقارنة بنوع العمل الذي يقومون به.

كان عبد الناصر رئيسا في تلك الفترة التي ارتفع فيها سقف الالتزام الاجتماعي، وساد تقييم للناس والسياسيين على أساس قوة هذا الالتزام، ومدى نبل الأهداف التي يسعى المرء إلى تحقيقها، ثم جاءت هزيمة 1967م، فكانت ضربة لعبد الناصر ولمصر والعرب، ولكنها كانت أيضا علامة من علامات انتهاء عصر بأكمله، هل كان مجرد صدفة أن يشهد العام التالي (1968م) انكسار حركة تحرر نبيلة أيضا في تشيكوسلوفاكيا وهى التي قادها دوبشيك للتخلص من السيطرة السوفيتية، ثم اضطرار زعيم هذه الحركة إلى هجرة السياسة كلها والاشتغال بعمل يدوي؟

تلا ذلك حلول عصر «الانفتاح» في بلد عربي بعد آخر، وهو ما كان يقترن بحلول الطموحات الفردية إلى زيادة الاستهلاك محل المشروعات القومية التي تهدف إلى إحداث نهضة اجتماعية شاملة، لست من أنصار الفكرة التي تؤكد دور الرجل العظيم في التاريخ، أي أن صفات القائد أو الرئيس الشخصية هي التي تحدد نوع التطور في بلاده، وما إذا كانت أمته سوف تتقدم أو تتأخر.

الأرجح في رأيي أن الظروف الاجتماعية والدولية السائدة عامل مهم وأساسي في تحديد مدى قدرة أي قائد أو رئيس على النهوض ببلاده أو استمرارها فيما هي فيه، وقد كانت الخمسينيات والستينيات من نوع تلك الفترات الرائعة التي تشحذ الهمم، ويعم فيها التفاؤل بإمكانية تحقيق ما هو أفضل، فما هي يا ترى تلك الظروف التي ساعدت

على شيوع ذلك «المناخ الجميل»..؟

هناك أولا قرب عهد الدول التي كانت خاضعة للاستعمار بالتحرر والاستقلال، وقد احتل مركز الرئاسة في كثير من هذه الدول بعد الاستقلال رجال كانوا هم من قادوا حركة التحرر من الاستعمار، ولكن كانت هناك أيضا الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، مما شجع على قيام حركة عرفت باسم «الحياد الايجابي» تدعو إلى عدم الانحياز، لا للغرب ولا للشرق، وابتداع نموذج مستقل يسمح لكل بلد من بلاد العالم الثالث باحترام خصوصيته وثرائه الثقافي.

لقد تبين الآن أن هناك حدودا لما يمكن أن يتحقق من هذا الاستقلال، ولكن الفكرة نفسها كانت نبيلة وسمحت لتمتع كثير من هذه البلاد ببعض الحرية في اختيار سياساتها.

كان عبد الناصر ونهرو ونيكروما من أبرز ممثلي هذه الحركة، وقد استطاعوا بالفعل، بدرجات متفاوتة، أن يمارسوا نوعا من استقلال الإرادة، ولكن للأسف لم تستمر هذه الظروف الدولية المواتية. وقد كانت وفاة عبد الناصر 28 سبتمبر 1970م، مؤشرا إلى بداية انحسار هذه الظروف المواتية، لم يتجاوز عمر عبد الناصر عند وفاته 52 عاما، وكأنه كان يشعر بأن ما سيحدث في العالم في السنوات التالية لن يسمح له باستكمال مشروعه.

ظهر أيضا أن ما أصاب مصر والعالم العربي في بداية السبعينيات أصاب بلادا كثيرة غيرها، ضعفت همة السياسيين، وانخفضت بشدة درجة التفاؤل، وظهر أن قوى عاتية جديدة، ليست أقل عنفا من الاستعمار السياسي والعسكري، سوف تعطل السعي نحو النهضة في تلك البلاد.

لم يشهد عبد الناصر ما حدث في السبعينيات وما بعدها، ومن ثم لم يكن مسئولا عن هذه الأحداث، بعكس ما يعتقده كثيرون من أن ما حدث في السبعينيات من تدهور كان رد فعل لما فعله أمثال عبد الناصر في الخمسينيات والستينيات، إني لا أتفق مع هذا الرأي، وأعتقد أن فيه كثيرا من الظلم لعبد الناصر وأمثاله، ممن بدأ إرساء دعائم النهضة في بلادهم ثم جاءت السبعينيات وأوقفتها.

الدليل على ذلك كثرة الأمثلة على خيبة الآمال في بلاد كثيرة بعد انتهاء الستينيات، في

المشرق العربي وفي كثير من الدول الإفريقية والآسيوية، ربما لم تنج من هذا المصير إلا دولة بحجم الصين، ولكن حتى الصين يبدو أنها اضطرت إلى تعديل مشروعها النهضوي بما يسمح بنمو النزعة الاستهلاكية على حساب أهداف أخرى أشد ارتباطا بالمبادئ الأخلاقية.

ربما جاز إذن اعتبار جمال عبد الناصر رجلا سعيد الحظ، ولو لهذا السبب وحده، أي لأنه لم يشهد ما حدث بعد وفاته.

كان فكره أن يجمع الدول العربية تحت راية واحدة.. عبد الناصر الحرية[1]:

تحل هذه الأيام ذكرى وفاة الزعيم المصري جمال عبد الناصر، ولد عبد الناصر في يناير 1918م في منزل والده رقم 12 شارع قنوات - بحي باكوس بالإسكندرية قبل أحداث ثورة 1919م في مصر، وهو من أصول صعيدية، حيث ولد أباه في قرية بني مر في محافظة أسيوط، ونشأ في الإسكندرية، وعمل وكيلاً لمكتب بريد باكوس هناك، وقد تزوج السيدة فهيمة التي ولدت في ملوي بالمنيا، وكان جمال عبد الناصر أول أبناء والديه، وكان والداه تزوجا في سنة 1917م، وأنجبا من بعده ولدين وهما عز العرب والليثي.

وكانت أسرته تسكن في الإسكندرية بعد باكوس في شارع ابن بهرام رقم (13) بمحرم بك (راجع الوثيقة المثبتة بهذا الكتاب)، وكانت عائلته تسكن قريبًا من عائلتنا.

وعندما انتقل إلى القاهرة كان يقطن في شارع الجلالي رقم (21) المتفرع من شارع أحمد سعيد هو وعائلته.

حدثني المهندس الزراعي إبراهيم عثمان إبراهيم وذكر لي هذه الواقعة حيث أضاف أن عبد الناصر كان يبتاع بقالته من شركة الفتح التي تحولت فيما بعد إلى معرض أخشاب.

وأنه بعد أن توسد رئاسة الجمهورية وعندما يمر بموكبه في شارع رمسيس كان يحيي

(1) إيهاب مصطفى: جريدة الشارع، العدد (250)، الإصدار الثاني، بتاريخ 29 سبتمبر 2017م، ص5.

صاحب البقالة التي كان يتردد عليها.

وأضاف المهندس إبراهيم عثمان أنه كان يساعد آنذاك سيدة طاعنة في السن كانت تصنع القلل، كما أنه طالما نزل ميدان عبده باشا ويترك عربته هناك ويسير على قدميه إلى سوق الوايلية، وكان يعرف سكان هذه المنطقة ويساعدهم ماديًا، وكان يقطن بجواره حينذاك زكريا محيي الدين في شارع يُسمى نسيم عفيفي.

ويكمل المهندس أبو المجد فرج أن جمال عبد الناصر وكان إذاك برتبة بكباشي أركان حرب لا طالما نزل من غرفته يحمل الطعام على يديه للحارس الخاص به.

ويقول كُتاب سيرة عبد الناصر روبرت ستيفنس وسعيد أبو الريش أن عائلة عبد الناصر كان مؤمنة بفكرة «المجد العربي»، ويتضح ذلك في اسم شقيق عبد الناصر وهو عز العرب، وهذا اسم نادر في مصر بوجه عام.

سافرت الأسرة في كثير من الأحيان بسبب عمل والد جمال عبد الناصر، ففي سنة 1921م انتقلوا إلى أسيوط، ثم انتقلوا سنة 1923م إلى الخطاطبة، التحق عبد الناصر بروضة الأطفال بمحرم بك بالإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالخطاطبة في الفترة ما بين سنتي 1923م، و1924م، وفي سنة 1925م دخل جمال مدرسة النحاسين الابتدائية بالجمالية بالقاهرة، وأقام عند عمه خليل حسين لمدة ثلاث سنوات، وكان جمال يسافر لزيارة أسرته بالإسكندرية فقط أثناء العطلات الرسمية.

إيمان.. ووطنية

كلمات المجد في لغة العرب كثيرة، ولكن أمجدها جميعًا كلمة السؤدد، فهي تدل على السيادة والرياسة، وعلى بُعد النظر والكياسة، وعلى النهوض بعظائم الأمور في غير صلف أو غرور.

موعده مع القدر:

والمشهور في معنى السؤدد أنه راجع إلى سواد الناس وعامتهم، فصاحب السؤدد يوصف بذلك إذا سوده الناس وهتفوا به، بيد أن حكم العرب الأحنف بن قيس: «السؤدد م السواد..!» يريد أن السيد من أتته السيادة وهو في حادثة سنه، وسواد رأسه.

ومن الذين نالوا السؤدد في حداثة السن جمال عبد الناصر، الـذي قـاد ثـورة، ورأس دولة، وتزعم أمة ولم يتجاوز الأربعين من عمره، وهي السن التي يقـف فيهـا المـرء بـين مرحلتين، مرحلة الشباب، ومرحلة الرجولة، حيث يكون تفكيره قد نضـج، واسـتعداده قد ظهر، وروحه المعنوية في أرفع درجاتها.

وهي السن التي تقترب من سن النبوءة والرسالة، سـن الأربعـين التـي لم يخترهـا الله عبثًا، بل تقديرًا منه صائبًا، حتى يقوي صاحبها على مقابلـة التيـارات الدافقـة، والـريح العاصفة، بقلب ثابت، ونفس مطمئنة وعناد عجيب..! وكأنما كان هذا القائد الشاب مع موعد مع القدر، وعلى موعد مع التاريخ.

جمال والأحداث:

فهو عظيم في مولده، عظيم في نشأته، عظيم في تفكيره، وهو عظيم في قيادته، عظيم في زعامته، عظيم في رجولته..!

فقد كان مولده إبان ثـورة 1919م ولا هتـاف في مصـر مـن أقصـاها إلى أقصـاها إلا للحرية والاستقلال، ذلك الهتاف الـذي دوى في جنبـات الـوادي فـردد صـداه الشـرق بأسره.

فتفتحت عينا الطفل الصغير وكلمات التحرير تردد في آذانه، وتختلط بأفكاره فظلـت الأغنية العذبة، والأنشودة الجميلة التي مست شغاف قلبـه، فوعتهـا ذاكرتـه منـذ بـراءة الطفولة، وميعة الشباب.

ولم يكن من إنجلترا من صنيع حينذاك إلا بذل ما في وسعها لتثبيـت قـدمها، وتوطيـد سلطانها فوق الأرض التي ظنت أنها ورثتها منذ قديم الأزل والزمـان، وفي ذمـة الله دمـاء الضحايا وأرواح الشهداءن فالغاية تبرر الوسيلة وليكن بعد ذلك ما يكون..!

فسارت حياة الطفل الصغير في ظل حياة مصرية قلقة، أهم ما تمتـاز بـه هـو طابعهـا، طابع الثورة وطابع التفكيـر في مسـتقبل سـعيد هـو الحريـة الكاملـة، والعـزة الشـاملة، والسيادة التامة.

***

الوطنية المبكرة:

فلم يكن عجيبًا أن يتأثر الطفل بالجو المحيط به، والبيئة التي نشأ وترعرع فيها، فتؤثر فيه، وتبعث في قلبه حب الوطن وتقديسه إياه، والتعصب لمصريته عروبته، بحمية قومية، ونعرة وطنية، لا يتطرق إليها اللجاج.

لم يكن عجيبًا أن يجلس الطفل الصغير مع والديه على مائدة الطعام، وبدل أن يأكل أخذ يتململ في مقعده وكأن شيئًا يؤرقه، وشفتاه تهتزان وكأنه يريد أن يقول شيئًا، ثم تتحرك الشفتان بالسؤال الرهيب..!

أبي.. لماذا نأكل نحن اللحم، والفلاحون الذين يكدون ويكدحون، ويربون الماشية ويرعونها لا يأكلون منها..؟

وتتوقف اللقمة في حلق الأب، وينظر إلى ابنه الصغير مبهوتًا من السؤال الكبير الذي صدر منه، ثم يرد على الفيلسوف، وقد علت فمه شبه ابتسامة: «هكذا أرادوا لنا يا ولدي، هكذا أردوا».

وتشب ثورة في قلب الفتى الصغير، ويتردد على ذهنه سؤالان حائران: من هم الذين أرادوا..؟ وهل هناك من تعلو إرادتهم على إرادة الله..؟

وجاء الجواب..! ضبابًا قاتم اللون لم يرو ظمأه، ولم يشبع نهمه، وظل السؤالان حائرين مبهمين، يكتنفهما الغموض، حتى جاءه الرد المقنع، من جمال نفسه حين حقق للشعب «العدالة الاجتماعية».

ولم يكن عجيبًا أن يخرج والده ذات صباح فيجده يجلس القرفصاء أمام البيت، وهو يحفر الأرض التي يرطبها الندى، يحفر فيها بكلتا يديه بهمة وعنف، فينهاه أبوه عن ذلك، ثم يمضي لحاجته، وعندما يعود من عمله في الظهيرة يجد الحفرة الصغيرة قد اتسعت وازدادت عمقًا وأصبحت هوة عظيمة، فيسأله: «لقد قلت لك لا تحفر في الأرض، فلماذا مضيت في الحفر..؟

ويجيبه جمال الصغير: «أردت أن أعرف يا أبي ماذا تخبئ لنا هذه الأرض..؟ كيف تعطينا وإلى أين تأخذ منها..؟!

وهكذا تنفجر ينابيع الثورة والتأمل والتفكير الجاد العميق في قلب جمال وهو في تلك السن المبكرة من تاريخ حياته، فلا غرو أن وجدنا بعد ذلك ثائرًا متأملاً مفكرًا، ماضيًا في قوة وعم لا يعرف التردد ولا يؤمن بالهزيمة.

إيمان بالعروبة:

هذا طفل عجيب..! هذا طفل عظيم..!

فلا غرو إذن أن نرى الوعي العربي الصادق يتسلل إلى نفسه، فينفجر في عروقه ويختلط بدمائه، وهو بعد ما يزال شابًا طريًا، مرهف الحس، غض الإهاب.

انظر إليه وهو يقول: «وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي أن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية، أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر في كل سنة احتجاجًا على وعد «بلفور» الذي منحته بريطانيا لليهود، ومنحتهم به وطنًا قوميًا في فلسطين اغتصبته ظلمًا من أصحابه الشرعيين».

ولا غرو أن نجده في هذه المرحلة من عمره ودراسته ينكب على دراسة مشكلات بلاده ومآسيها، وما تحويه في طياتها من زغل ومن أوصاب، ويمضي في الوقت نفسه في تثقيف ذاته، وتربية حواسه، وإنضاج شخصيته بالقراءة الواعية، والاطلاع الدائم على كتب الأدب والعلم، التي رأى فيها ضالته المنشودة، وغذاءه الدسم، لاغتراف الخير العميم، وبناء النفس على أساس ثابت مكين.

وظل الحال على هذا المنوال، مجهود موزع بين النشاط السياسي، والنشاط الأدبي، حتى إذا ما أشرفت شمس عام 1935م ضرب جمال مثلاً آخرًا على بُعد نظره، وقوة فكره، ونضوج شخصيته.

نقطة البدء:

فلقد قامت المظاهرات الصاخبة الهادرة، وعم لهيبها أرجاء البلاد، ولم يكن من الطبيعي أن يتخلف الثائر الصغير الكبير عن بقية زملائه، فيشترك في صفوفهم، وينتظم في ركبهم، بل ويصبح زعيمًا من زعمائهم، ثم يصاب ويجرح، فيهدأ حتى يبرأ من جرحه، ويندفع إلى الميدان من جديد، ولكنه هذه المرة ميدان آخر غير ميدان السياسة،

ذلك هو ميدان العلم والدراسة، فقد عرف جمال أن الواجب يقتضيه بل يحتم عليه أن يتفرغ أولاً لدراسته، فهي نقطة البدء، وقاعدة الارتكاز..!

وينال الثائر الفيلسوف شهادة الدراسة الثانوية في يونيو عام 1936م، ويلتحق بالكلية الحربية، ويتخرج في يوليو 1938م، يتخرج في يوليو ويقود ثورته في يوليو، عجيبة حقـًا وفلتة من فلتات الزمن.

مبدأ القيادة:

ويمسك الثائر المفكر ورقة، ويكتب فيها إلى أحد أصدقائه سطورًا خالدة يحدد فيها مبدأ القيادة، ويبين فيها صفة الزعامة في نظره واعتقاده، ألا وهي الأخلاق، فالأخلاق عنده هي الأساس الذي يجب أن تؤسس عليه نفسية القائد وتُبنى عليه شخصيته.

كان حينذاك في منقباد، والمعروف عن الموظفين في ذلك الوقت أنهم على استعداد للتحلي بكل الصفات الحسنة، والشمائل الكريمة إلا صفة النفاق، فهي الخلة التي لا يستطيعون المعيشة بدونها، ولا تستقيم لهم سبل الحياة بغيرها، وهي أبعد ما تكون عن أخلاقهم وصفاتهم..! وكان الواحد منهم يندفع إلى تملق رؤسائه ويشتط في تمجيد قواده ووضعهم في هالة من التقديس والتمجيد، لا لشيء إلا لكسب مودتهم والفوز برضاهم، ومن هنا يأتي الترقي، ويكون الإنعام.

ويسطر جمال إلى صديقه السطور التالية: «يسرني أن تعلم أن أخلاقي مازالت متينة، فطبعًا جمال الحاضر أو الموجود في منقباد، هو جمال الذي تعرفه من زمن بعيد، الذي يبحث عن آماله في الخيال، ولكنها تفر منه كالأشباح..!».

وحينما يُنقل إلى السودان في ديسمبر 1939م يمسك ورقة ثانية يؤكد فيها عن عزمه المتين، وخُلقه القويم، يقول فيها لصديق آخر: «كل عيبي هنا في العمل، إني لا أعرف الملق، ولا الكلمات المنمقة، ولا أتمسح بالأذيال؛ إذ أن شخصًا هذه صفاته يحتم من الجميع، ولكن الرؤساء يسوؤهم ذلك الذي لا يتملقهم، وهم الذين اعتادوا الذي في كنف الاستعمار، أما أنا فقد صمدت ومازلت؛ ولذلك تجدني في عداء مستمر مع هؤلاء الكبراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

كانت الأخلاق السياسية كذبًا لكل مؤثر فيها، ولم يكن هناك سببًا يجعلها صدقًا أو يجعل الناس ينتظرون منها الصدق في علاقة سلم أو في علاقة كتاب.. كانت كذبًا وخداعًا لأنها كانت أدبًا من الآداب الحربية المصطلح عليها، وكانت كذبًا وخداعًا لأن الأخلاق الفردية - فضلاً عن أخلاق الجماعات والأمم - لم تكن ملتزمة في غير وطن واحد وأمة واحدة، وكانت كذبًا وخداعًا لأن السياسة بمعنى الحكم كانت من أسرار الكهان وحيل المشعوذين، وجاء زمن من الأزمان كان فيه العلم والحكمة - ودع عنك السياسة- سرًا يزاوله أصحابه في جماعاتهم الخفية.

وحدث أن الفيلسوف أفلاطون ظهر في زمن من أزمان الجماعات الفلسفية السرية، وكان على الأرجح واحدًا من الفيثاغورين المستترين بآرائهم في الحكمة والسياسة، وسرى هذا الأدب السري إلى مذهبه في الحكومة، واستباح الكذب «المقدس» لقيادة الجماهير المحكومة، وتربية الناشئة المتعلمة، وسمي هذا الكذب خيالاً في قالب الأقاصيص والمثل التي يصطنعها الساسة.

وقد ضرب المثل منذ القرون الوسطى بسياسة ميكيافيللي فأصبحت علمًا على السياسة التي تبالي بشيء في سبيل مصلحة الدولة أو مصلحة الأمير، واتخذ الأمراء من الشعار الروماني القديم القائل: بأن سلامة الدولة فوق كل قانون، عذرًا عامًا يجيز لهم - بل يوجب عليهم - سياسة العداء أو صداقة الختل التي لا فرق بينها وبين العداء بغير الأسماء، واشتهرت الميكافيللية وسارت علمًا على الخبث والغيلة؛ لأن الساسة أحبوا أن يداروا أنفسهم وراءها وأن يزعموا أن هناك آدابًا للسياسة غير الميكيافيللية المتهمة وهم منها براء، وبلغ من جرأتهم في هذا التمويه أن فردريك الكبير ملك بروسيا وتلميذ فولتير ألف كتابًا يرد به على كتاب مكيافيللي وقرر فيه أن سياسة الملوك والأمراء ينبغي أن لا تحيد عن نهج الصدق والاستقرار، فكانت الفردريكية أحق باسم المكيافيللية من صاحبها المظلوم[1].

(1) عباس محمود العقاد: السياسة والأخلاق، الكتاب، فبراير 1952م،

▪▪ ناصر والتنظيم السياسي المستقل[1]



1918 - 1970

لعل أحدا لا يجادل فيما يحيط بصورة ناصر من جماهيرية بعد مضي سنوات طوال على رحيله في مثل هذه الأيام، وقد اختلف الكثيرون حول تبرير تلك الجماهيرية إلى حد انزلاق البعض إلى اتهام الجماهير المحبة لعبد الناصر بالغفلة أوالسذاجة، وللحقيقة فإن تلك الجماهيرية لم تكن مثارا لتعجبي منذ رحيله المفاجئ؛ فليس مستغربا مثل ذلك الحنين الجارف إلى عصر يوزع أرض الأغنياء على فقراء الفلاحين، ويضمن عدالة توزيع الطلاب على الجامعات وفقا لمجموعهم، ويوفر لكل خريج وظيفة تكفل له حياة لائقة إلى آخر ملامح الصورة الناصرية.

ما استوقف نظري ومازلت أسعى لتفسيره هو تواضع الحجم الجماهيري للأحزاب والرموز الناصرية المعاصرة مقارنة بحجم الجماهير الناصرية، ترى لماذا لم تلتف تلك الجماهير حول رمز يمثلهم..؟ هل ثمة تناقض خفي بين جوهر الناصرية وفكرة الأحزاب..؟ لم يبدأ اهتمام ناصر بالشأن العام من حرب فلسطين، بل شارك وأصيب في مواجهات الطلبة مع الشرطة قبل ذلك بسنوات؛ ولم يكن بعد

(1) د. قدري حنفي: جريدة الأهرام، العدد (47785)، 5 أكتوبر 2017م، ص15.

ذلك بعيدًا عن التيارات السياسية الحزبية القائمة آنذاك، بـل اقتـرب مـن أنشـطة جماعـة الإخوان المسلمين، ومنظمة حدتو الشيوعية إلى حد أن حسبه كلا التيارين عضوا عـاملا ملتزما من أعضائه.

ونجح ناصر في عملية الاستيلاء على السلطة والإطاحة بالنظـام الملكـي مـن خـلال تشكيله وقيادته لجماعة سرية منظمة تعارض النظام القائم وتسعى لتغييره بالقوة، ولعـل ذلك النجاح قد رسخ لديه دروسا ثلاثة خلاصتها: أن عملية التغيير لا تتطلب بالضرورة استطلاع رأي الجماعة أولا، بل يكفي للقائد الاعتماد على حدسـه الـوطني في اسـتنتاج ميل الجماعة، وأنه يستحيل الإطاحة بالنظام دون قيام تنظـيم قـادر عـلى التنفيـذ، وكـان ثالث تلك الدروس ولعله أهمها أن التنظيمات المدنية السرية قد تنجح في إثارة القلاقل، ولكنها لن تتمكن رغم خطورتها من الإطاحة بالنظام إلا بتوافر قوة مسلحة تعادل القـوة المسلحة المتوافرة لدى النظام القائم.

وقد ظلت تلك الدروس الثلاثة ماثلة في وعي ناصر طيلة حياته، بل استمرت ضـاربة بجذورها العميقة في نظام يوليو، معتبرا أنه على رأس الأخطار الداخلية التي تهـدده قيـام جماعة منظمة ذات كيان مستقل بدرجة أو بأخرى، بصـرف النظـر عـن طبيعـة أفكارهـا، ويتزايد ذلك الخطر باقتراب تلك الجماعة من القوات المسلحة.

ومن ثم كانت البداية هي حل تنظيم الضباط الأحرار ذاته، رغم أنه يدين لعبد الناصر بالولاء، ولكن لم يعد منطقيا أن يظل هو التنظيم القائد للنظـام، فقـد تجـاوز عبدالناصـر دوره في تولي السلطة كزعيم يمثـل تنظـيم الضـباط الأحـرار، ليصـبح ممارسًـا للسـلطة كمجسد لإرادة لشعب المصري مباشرة، ولم يكن غريبًا أيضًـا والأمـر كـذلك أن تتخـذ الثورة قرارًا حاسمًا باجتثاث النظـام الحزبـي مـن جـذوره، ولـيس مجـرد حـل وإلغـاء الأحزاب القائمة، فالنظام الحزبي يقوم بداية على مشروعية قيام جماعات منظمة مسـتقلة عن النظام، فضلا عن أنه يقوم كذلك على التسليم نظريًا على الأقل بمبدأ تداول السـلطة، وهو ما لا يمكن إلا أن يكون دعوة صريحة لإمكانية تغيير القيادة الثورية القائمة.

وإذا كان اجتثاث النظام الحزبي العلني أمرًا ميسـورًا نسـبيًا، فـإن سـحق التنظيمـات الحزبية السرية كان أمرًا يتطلب آلية أشد قسوة وحسمًا، إنها جماعات منظمة متمرسة على السرية، خبيرة بفنيات تحريك الجماهير، وآليات التعامل مع أسـاليب القهـر السـلطوي

الذي تعرضت له طويلا في ظل النظام الملكي البائد، وهي إلى جانب ذلك تسعى للامتداد داخل تشكيلات الجيش، ولم يكن بد إذن من استحداث أساليب لسحقها تفوق تلك التي مارسها النظام الملكي البائد.

كان حتما بحكم ممارساته السياسية أن يصبح ناصر معاديا للجماعة المستقلة عن النظام بصرف النظر عن توجهها السياسي، دون أن يتعارض ذلك مع قبوله للفكر الفردي المعارض؛ فهناك من المثقفين أصحاب الفكر المعلن المعارض ممن لم تصبهم عصا ناصر الغليظة؛ ومن ناحية أخرى فثمة من انهالت عليهم تلك العصا، رغم أن فكرهم لا يحمل شبهة اختلاف عن فكر النظام.

لم يكن ناصر معاديا للرأي الآخر على إطلاقه، بل كان معاديا بالتحديد لذلك الرأي إذا ما توافر له شرط التنظيم الجماعي، أما إذا ما ظل رأيا فرديا مهما تكن درجة اختلافه مع النظام فلا بأس من سماعه، بل ولا بأس في أحيان كثيرة من السماح بإعلانه، ولعلنا لم ننس حوار عبد الناصر العلني مع خالد محمد خالد في اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في نوفمبر 1961م، ذلك الحوار الذي وصلتنا أصداؤه في معتقلات الواحات والقلعة وأوردي أبو زعبل والفيوم، وكان من بيننا من يؤيد عبد الناصر ربما بأكثر من تأييد خالد محمد خالد.

خلاصة القول أن عبد الناصر لم يكن ذلك الديكتاتور الكاريكاتيري الفج الذي يستشيط غضبًا إذا ما سمع رأيًا مخالفًا فيطيح برأس صاحبه، إن الفكر المخالف لم يكن يمثل لدى ناصر خطرا في حد ذاته، ولكن مكمن الخطر بالنسبة له إنما يتمثل في التنظيم، إنه الدرس الذي استخلصه ناصر، واستوعب مفرداته بعمق من واقع تاريخه السياسي قبل أن تعرفه الجماهير.

ترى هل لهذا السبب يرجع نفور الجماهير الناصرية من الانضواء تحت لواء حزب ناصري..؟ والسؤال الأهم ترى هل ابتعدنا عن جوهر النظام الناصري كثيرا فيما يتعلق بتلك الجزئية تحديدا..؟

▪▪ جمال عبد الناصر ..
كاريزما هزَمتْ مَنْ جسَّدها [1]



1918 - 1970

خطيبٌ مُفوه، وزعيمٌ تتجاوز كاريزمته كل الحدود، ذو نظرة حادة تعطى انطباعًا بالعزة والكرامة والكبرياء، إنه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الذي اكتسب احترام الجميع ومحبتهم؛ المؤيدين وحتى المعارضين، باعتباره تولى حكم مصر في فترة هي الأصعب في تاريخها، ونجح في نفض غبار الملكية، واتخذ قرارات سياسية مصيرية غيرت وجه مصر، أبرزها تأميم قناة السويس وبناء السد العالي، ومن ثم ظلت شخصية عبد الناصر فنيًا أكبر وأصعب من أن يقدمها ممثل، بل مهمة مستحيلة بقى أداء الممثلين لها محاصرًا بين الجمهور والنقاد وأسرة الزعيم الراحل، وقلما أُعجب الأطراف الثلاثة بأداء من جسد الشخصية، وكان دائمًا الممثل الذي يجسدها في اختبار صعب أمامه، بخلاف تقييمه لموهبته والهجوم عليه، فيما يشبه الحكم بالإعدام بالنسبة لأي ممثل يفشل فيها.

***

(1) سعيد خالد: جريدة المصري اليوم، تحت عنوان ملف خاص، العدد (4854)، بتاريخ 28 سبتمبر 2017م، ص9.

أحمد زكي: ابن ثورة يوليو وأكبر المعبرين عنه في ناصر 56:

على الشاشة استغرق تقديم شخصية عبد الناصر سنوات حتى تظهر للنور في تجارب معدودة رغم التاريخ الحافل لصاحبها وتأثيره محليًا وإقليميًا ودوليًا، وجاء في أعمال محفوفة بالمغامرة لمن يقدمها؛ فالمقارنة دائمًا لم تكن في صالح الممثلين الذين جسدوها، خاصة أن بعضهم اعتمد على الشكل الخارجي دون أن يجيد تفاصيل الشخصية ويتملك منها، فتملكت هي منه، ولم يستطع نقلها، وكان الأول في المغامرة الفنان الراحل أحمد زكي الذي مالت أغلب الآراء إلى اعتباره الأقرب إلى نقل روح الزعيم جمال عبد الناصر والأقدر على تجسيد شخصيته في فيلمه «ناصر 56».

عبد الناصر كان حلمًا لدى الراحل أحمد زكي ظل يراوده سنوات طويلة، لم يشغله وقتها تطابق الملامح أو لون البشرة بينهما، خاصة حين تقرر تقديم الشخصية في فيلم أبيض وأسود، وكان حريصًا على نقل تفاصيل وملامح من حياة وشخصية الزعيم لم يعرفها أحد عنه، بحسب تأكيده في أحد حواراته التليفزيونية السابقة. ووفقًا لما كشفه عنه الدكتور خالد عبد القادر، الطبيب المعالج لأحمد زكي، أكد أنه نجح في تقليد مشية ناصر بديناميكية رشحها له طبيبه، وحسبما قال: «أقوم على أربعة مفاصل، وأتحرك ببطء، وأطلع برجلي الأول، وأفرد ظهري، فأمنحك الإحساس بأنني أزيد في الطول، وبالتالي أعطيك الإحساس بأنني جمال عبد الناصر».

وكشف الراحل أحمد زكي أسباب رغبته في تجسيد عبد الناصر ورؤيته إياه خلال لقاء تليفزيوني له آنذاك، وقال: «أنا ابن ثورة 23 يوليو، وفي غمرة أحاسيسي بالمشاعر السياسية، والثورة عبرت عني، ولذلك كان يجب أن أعبر عنها وعن زعيمها، أصبحت في حيرة من أمري حين بدأت التجهيز لتصوير الفيلم، كان أمامي 3 أشهر فقط لتجسيده وتقديم كيفية تأميمه قناة السويس، وبنائه السد العالي، استفتيت آراء كثيرين ومستشارين، ووجدت القضية كبيرة، وقصة التأميم والخطاب السياسي الرهيب الذي لا يزال يدرس، وعرض مشكلة بلده في التنمية عالميًا وأسباب قراره، وتعاطف معه الكثيرون».

وتابع زكي في لقائه التليفزيوني: «وقعت في أزمة مفادها أن كل من رأى عبد الناصر أو سمع عنه أو أحبه عايز يشوف الفيلم، وأرادوا أن تكون خطبه بصوته هو في الفيلم وسماعه؛ لأن هناك أسرًا في صوته، وأنا تعبان وعايز أوريهم الشكل الخارجي في هذا الإحساس عامل إزاي،

هذا الخوف والقوة والضعف في آن واحد، وحدة نظراته، شكله وهيبته وخوفه في عينيه، والتغيرات الجسدية التي مر بها، فقد نقص وزنه مثلاً في عام 1958م، فقالوا إنني لم أستطع تجسيده، هنا سألتهم «إزاى هعمل هتلر من غير ما أنزل القُصة..؟».

المواصفات الخارجية والشكل الخارجي ليست قضيتي، مهمتي أن أوصل قضيته، لكن مع عبد الناصر وهو شخصية مألوفة ومعروفة، خاصة أنفه الطويل، رفضت أن أقلده في شكله، فالتقليد يثير السخرية، وأريد أن أصل لعبد الناصر بروحه، بالتشخيص وليس التقليد».

إتقان أحمد زكي شخصية عبد الناصر أغلق الباب أمام عشرات من الممثلين المصريين والعرب ممن قدموا الشخصية بعده، فحين يتذكر الجمهور مَن جسدوا الشخصية غالبًا لا يتذكرون سوى زكي وفيلمه «ناصر 56».

رياض الخولى: الدور الأقرب لي.. وتمنيت مساحة أكبر:

قال الفنان رياض الخولي إن دور الرئيس جمال عبد الناصر الذي أداه في مسلسل «أم كلثوم» هو الأقرب إلى قلبه، مشيرًا إلى أنه يعتبره أكثر الأدوار واقعية رغم صغره، حيث لم يتعد عدة مشاهد؛ لأنه كان يؤديه بتلقائية باعتباره ناصريًا حتى النخاع وعاشقًا لشخصيته، وأضاف الخولي في تصريحات لـ«المصرى اليوم»: أنه فوجئ في طور الإعداد للمسلسل عام 1999م باتصال من المخرجة إنعام محمد علي أخبرته فيه باختياره لتجسيد دور الزعيم الراحل، وقالت له إنها عادة ما ترشح عدة ممثلين للقيام بالدور في حال اعتذار أحدهم، إلا أنها اكتفت بترشيحه فقط، فوافق على الفور رغم أنها أخبرته أن الدور صغير وقال لها: موافق حتى لو الدور مشهد واحد.

وأشار إلى أنه أدى الدور بتلقائية شديدة، ولم تشغله مقارنته بأي ممن أدوه قبله، لافتًا إلى أنهم زملاء أعزاء ونجوم يمتلكون الموهبة، ولإيمانه بأن التنافس الشريف في أداء أي شخصية يثريها ويمتع الجمهور، وهو أمر يتعاظم مع أداء شخصية بحجم الرئيس الراحل.

وعن استعداداته لتجسيد الشخصية أكد أنه حرص على الالتزام بالبعد المادي للشخصية ممثلاً في حركات الرئيس الراحل ولفتاته وطريقة مشيه لتخرج الشخصية بالشكل المناسب للصورة الذهنية الراسخة في ذهن المشاهد، خاصة أن صورة عبد

الناصر ما زالت حاضرة، وهذا يتم العودة فيه للأصل، وهو الزعيم نفسه من خلال متابعة المشاهد التي يظهر فيها.

وتابع: حرصت على تقمص حالة الهدوء والسلام النفسي التي كان يظهر بها دون مبالغة، وهو تقمص روحي أكثر منه في الشكل والحركات، أما باقي الأشياء فأنا متشرب عبد الناصر، ولم أقلد أحدًا، ولم أخش المنافسة، خاصة أنني أقدم الشخصية في إطار إنساني من زاوية معينة، وليست هي محور الأحداث، وللعلم كنت قريبًا من كواليس أداء خالد الصاوي للدور في فيلم جمال عبد الناصر، وأديت دور كمال الدين حسين في نفس الفيلم، وأضاف الخولي: كنت أتمنى أن يكون دور عبد الناصر أكبر في المسلسل، لإتاحة الفرصة لإظهار الجوانب الإنسانية للرئيس الراحل بصورة أعمق وإبراز تذوقه للفن.

جمال سليمان: الواقع كان أكبر من حلمه القومي:

أحد الممثلين الذين جسدوا شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر من خلال مسلسل «صديق العمر» عام 2014م، وهو مأخوذ عن قصة للكاتب ممدوح الليثي، وكتب له السيناريو والحوار محمد ناير، وإخراج عثمان أبو لبن، لكنه واجه العديد من الانتقادات من أسرة عبد الناصر، لدرجة أن عبد الحكيم عبد الناصر قال إن أداء سليمان كان ضعيفًا ولم يتمكن من لمس شخصية والده، وكانت اللهجة الشامية وعدم إتقان اللهجة المصرية في تجسيده للدور محل هجوم من الجمهور والنقاد على حد سواء.

وعن شخصية جمال عبد الناصر تحدث الفنان جمال سليمان لـ«المصري اليوم»: عبد الناصر أهميته في زمنه وما شهده من أحداث كبرى، على المستوى المصري والقومي والعربي، وبدون شك كان إضافة للزمن الذي عاش فيه، وقتما كانت الأمة العربية تبحث عن زعيم يجسد أملها في الوحدة والتلاحم والقوة وتحدي المستعمر، وفي تحقيق العدالة الاجتماعية التي كانت منعدمة في العالم العربي، وكان ناصر بالنسبة للشعوب تجسيدًا لهذا الحلم.

وأضاف: البعض كان يفصل عبد الناصر عن زمن العصر، رغم أن هذا الزمن كان يضم عباس محمود العقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب والسنباطي، واعتبره عصر النضوج والتمرد على الواقع الصعب الذي كانت

تعيشه مصر والأمة العربية ككل، والبسطاء كانوا وقتها يبحثون عن زعيم سياسي يجسد أحلامهم، وكان عبد الناصر الشخص الذي اجتمعت فيه الكاريزما والإخلاص والوطنية والوفاء، والالتزام بالقضايا القومية، والحقيقة كان الواقع وقتها أكبر من الحلم، وآليات تنفيذ الحلم لم تكن متاحة، ولهذا السبب لم تكن النتائج كما تمناها عبد الناصر أو الشعب المصري والعربي.

وتابع: عبد الناصر إلى حد ما شخصية عاطفية، وكان مهمومًا طوال الوقت، يمتلك حدًا كبيرًا من الشجاعة، ويميل دائمًا إلى التحدي ويقبل ويصمد في المواجهة، كان زعيما يبحث دائمًا عن المجد، والأخير بالنسبة له مفهومه مختلف عن المجد بالنسبة لنا هذه الأيام، المجد وفق مفهومه كان في الإنجاز وإنصاف الآخرين والمشروع الوطني بشكل عام، والمشكلة تكمن في أن أحلامه أكبر من الإمكانيات والآليات، وكان يسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن كان الواقع الدولي والقوى العالمية أقوى في العصر الذي عاشه.

وأضاف: كان شخصية انفعالية، وبسبب تركيبته العاطفية كان يتصرف بردود فعل أحيانًا وليدة اللحظة أكثر من كونها قائمة على الدهاء السياسي، والسياسة في الحقيقة كانت تحتاج إلى الدهاء، وكثير من الملفات والتحديات التي كان يديرها مازالت مفتوحة حتى الآن، وكثير من الأهداف والأحلام التي كان يسعى لتحقيقها لم تتحقق حتى الآن.

زعيم بحجم جمال عبد الناصر، كان على المستوى الأسري زعيما أيضا، ووراءه امرأة عظيمة، توارت في الأعمال الفنية التي قدمت عنه، مثلما فضلت أن تقف وراءه في حياتهما الأسرية، إنها تحية كاظم التي قدمت شخصيتها على الشاشة عدة ممثلات، منهن فردوس عبد الحميد في فيلم «ناصر 56»، وعبلة كامل في فيلم «جمال عبد الناصر» بطولة خالد الصاوي، وأميرة نايف في مسلسل «العندليب»، «حكاية شعب» بطولة شادي شامل، ولقاء الخميسي في مسلسل «ناصر» بطولة مجدي كامل، ونهال عنبر في مسلسل «صديق العمر» بطولة جمال سليمان وباسم سمرة.

وقالت الفنانة فردوس عبد الحميد، في تصريحات لـ«المصري اليوم»، حول تجسيدها شخصية «تحية»: على الرغم من صغر حجم الدور، لكنني تعاملت معها من

الناحية العاطفية، ويكفي اشتراكي بأن أكون بطلة فيلم يجسد شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر.

وتابعت: شخصية «تحية» كانت صعبة، فلا توجد عنها معلومات كثيرة متاحة، وكانت على المستوى الاجتماعي لا يشاهدونها إلا في لحظات معينة، منها عند السفر معه، ولكن كان عليَّ البحث في بحور الشخصية، وبحثت في كافة الكتب عن الزعيم الراحل، حتى استطعت أن أحصل على بعض المعلومات القليلة.

وأضافت: «تحية» سيدة مصرية من طبقة متوسطة، ولا تشعر بأنها زوجة زعيم، فكانت تفصل الملابس لأولادها، وكانت مدبرة لأقصى درجة في بيتها، مثل أي أم مصرية بسيطة، وكانت بسيطة ووديعة ليس لديها تطلعات بأنها زوجة زعيم الأمة العربية، وتتصرف كما هو المفترض أن يكون بطريقة ملابس معينة وتتحدث بطريقة مختلفة، ولكنها سيدة بسيطة بكل ما فيها.

وجاهدت فردوس كما تقول، حتى تدخل للشخصية، مضيفة أنه يكفيها ما قالته لها ابنة الزعيم هدى عبد الناصر عندما حدثتها: «قوليلي عرفتي تجيبي نظرة أمي إزاي..؟» ما يعني أنها عثرت على الإحساس الداخلي للشخصية.

وأعربت فردوس عن سعادتها وفخرها باشتراكها ب««ناصر 56»، وخروجه بمستوى فني عالٍ، حيث سجل فترة من أعظم الفترات التي مرت بها مصر، وأعاد الذكرى والحقيقة والقيمة لعبد الناصر من جديد، حيث إنه تم تقديمه عام 1995م، بعد فترة السبعينيات بما يزيد عن عقدين، وكان هناك نوع من التجني والطمس لذكر عبد الناصر بشكل كبير، لكن الفيلم حقق نجاحا منقطع النظير في مصر والبلاد العربية، والجماهير شاهدت عبد الناصر من جديد من خلال الفيلم.

وتابعت: وقتها إسرائيل انزعجت من الفيلم عندما اتجه أحد المسؤولين السياسيين إلى المطار وشاهد الأفيش، فتخيل أنه شيء متعمد؛ لأن الزعيم كانت له كاريزما وجلال في نظرته حتى في الصور، وكان حنونـًا على الشعب، ولا ينكر أحد دور عبد الناصر في إحداث طفرة بهيئة المسرح، ومؤسسة السينما، وأكاديمية الفنون التي كانت تضم معهد السينما والمسرح والموسيقى والنقد الفني والكونسرفتوار، وأطلق الفرقة القومية

للرقص الشعبي التي كانت تجوب العالم وتقضي السنوات كلها حتى تعرف بالفن المصري، كذلك فرقة رضا عندما تبنتها الدولة قدمت الكثير لمصر، ولكن أراد بعض الناس طمس أعماله وسيرته.

وعن ذكرياتها مع الفنان أحمد زكي في «ناصر 56» قالت: موهبة عبقرية لن تتكرر، ولديه قدرة على تقمص الشخصيات بطريقة مذهلة، وعندما علمت من المخرج محمد فاضل بأن الفنان أحمد زكي هو من سيجسد شخصية الزعيم لم أكن أتخيل كيف سيكون التشابه بينهما، ولكنه جسدها ودخل إلى روح عبد الناصر، وانعكست على وجهه.

وعن كواليس التصوير: في مشهد كان بحديقة داخل فيلا وقمت بعمل المكياج، وجاء أحمد زكي من بعيد وراح بيسلم عليا بإيديه، وكأنه عبد الناصر بجد إتخضيت، وحسيت إنه قدامي وكان بيطلب من الكل في الكواليس إنهم يقولوله يا ريس ميقولوش يا أحمد.

وتابعت: كنت في بداية التصوير في الفيلم مشغولة بتمثيل أحمد زكي، وإتقانه الشخصية، وانشغلت بذلك عن دوري من عبقريته في التمثيل، وكان بييجي للمخرج محمد فاضل في الواحدة صباحًا بلبس الشخصية حتى يرى تأثير ورد فعل الآخر عليه حتى يقنع الجميع بالشخصية، واستطاع أن يصل لصوت عبد الناصر المميز.

العبور العظيم

وعن يوم العبور العظيم واسترداد كرامة الوطن، قال عبد الرازق: «في يوم 6 أكتوبر كنت في وحدتي لا أعرف ماذا يدور من حولي، الكل يؤكد أن الحرب على وشك، وأتذكر أنني كنت في الملجأ بمنطقة القصاصين، واتصل بي رئيس عمليات الصاعقة المقدم عبد الوهاب صادق، وأبلغني بوجود مؤتمر في الساعة الثامنة من نفس اليوم مع قائد المجموعة العقيد علي هيكل.

وفي المؤتمر قال لنا القائد: «أنا عاوزكم تجهزوا؛ لأن موعد الحرب قريب جدًا، وكان ذلك في منتصف سبتمبر، وخرجنا من المؤتمر ونحن كالعادة لا نسمع جديدًا، الكل يقول الحرب على الأبواب، ولكن حقيقة كانت الأمور حولنا غير طبيعية، ودائماً ما نلاحظ تغيرات كثيرة، وطلبوا منا إخلاء المكان».

وفي يوم 6 أكتوبر كان لدينا يقين أننا سنحارب في مساء اليوم، ولكن موعد ساعة الصفر كان بالنسبة لنا مفاجأة؛ لأننا لم نكن نتوقع أن نحارب في عز الظهر، وحسنًا ما فعلوا وعندما شاهدنا الطائرات المصرية تحلق فوق رؤوسنا، كأن الدماء تعود لعروقنا من جديد، ورميت القارب في القناة، ولم يكن في المنطقة سوى وحدتي، وقررت العبور وكنت أول من عبر القنال.

وعن رؤيتهم وقتها للعدو، قال عبد الرازق: «في كل معركة وموقعة كان العدو يصاب بالصدمة والرعب، أتذكر أن شارون وقواته حاولوا أن يدخلوا الإسماعيلية، ولكنهم فشلوا وخسروا في هذه المحاولة دبابتين و3 قتلى، ومصابًا في مواجهة الجيش الثاني أمام الفرقة 16، وكذلك في يوم العبور عندما تحطمت أسطورة الجيش الذي كان لا يقهر مثلما كانوا يزعمون، فكان الجندي الإسرائيلي يبكي أمام الجندي المصري، وإلى الآن لدينا معلومات تؤكد أن إسرائيل مرعوبة من الجيش المصري، وتعمل له ألف حساب، وما زاد الطين بلة بالنسبة لإسرائيل خروج الشعب في ٣٠ يونيو بهذه الكثافة وبروح الوطن الواحد والإرادة الواحدة».

وعن المواقف الإنسانية التي لا ينساها اللواء حسين عبد الرازق، قال: «أتذكر جيدًا أنني شاهدت جنديًا من اللواء 134 مشاة الفرقة 18 أصيب بعد عبوره القناة، ومسك هذا الجندي بيدي، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال لي بالنص: «أمانة لا تعودوا من الحرب إلا منتصرين»، ولم أنس أيضًا النقيب محمود عبد الرحمن عندما أصيب في ذراعه بطلق ناري، وأصر على الاستمرار في القتال فى معركة بالوظة متأثرًا بإصابته، وظل يقاتل بشراسة إلى أن تلقى رصاصة قاتله برأسه ليستشهد في الحال.

وعن المؤامرات التي تحاول النيل من مصر أكد الخبير المصري، أن مصر قادرة على مواجهة أي تحديات بقوة وإرادة شعبها وقواتها المسلحة، وأن من يقوم بإهانة الجيش المصري ليس مصريًا محبًا لوطنه، وهم لا يعرفون معنى وقيمة جيش مصر وما يتحمله الجيش المصري ورجاله من أجل الوطن، وبهذه المناسبة أدعو الجميع للعودة لتاريخ الجيش وبطولات الجيش وتفانيه من أجل الوطن وقتها فقط ستعرف نية من يهلل ويحاول النيل من جيش مصر، وأقول للشعب المصري لا تقلقوا على جيشكم فهو يعمل من أجل بناء الدولة بإرادة شعبه.

▪▪ الوجه الآخر لـ«الثائر»



1918 - 1970

ليلة الثورة أبلغ أشقاءه بأنه سينجح في مهمته إذا رأوا الدبابات في الشوارع[1]:

ارتبطت عائلتا ناصر وزوجته بصداقة قوية، حيث كان يزور شقيقها مع عمه وزوجته، وعندما أراد أن يتزوج أرسلهما لخطبتها وكان برتبة يوزباشي وكانت شقيقتها الكبرى لم تتزوج وأصر جمال على الزواج بعد زواج أختها التي تكبرها، وبعد حوالي سنة تزوجت شقيقتها، ووقتها كانت تقاليد العائلة أن لها الحق في الرفض لمن لا تريده وليس فيمن تريده، وعقب وفاة والدتها عاشت مع شقيقها عبد الحميد خريج كلية التجارة، وكان يعمل فى التجارة والبورصة، وكان محافظا لأقصى حد.

وعقب فترة رحب شقيقها بالزواج عندما زار ناصر وعائلته بيتهما وكانت الخطوبة يوم 14 يناير سنة 1944م، وأبلغه شقيقها بأن عقد القران يكون يوم الزفاف بعد إعداد المسكن، وكان يقابلها مرة واحدة في الأسبوع بحضور

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ذات يوم، العدد (2310)، بتاريخ 25 سبتمبر 2017م، ص15.

شقيقها أو شقيقتها التي تكبرها، وكان يفضل الخروج للسينما وأحيانا المسرح وكانت جميعا بالتاكسي، فيما كان تناول العشاء عقب العودة للمنزل، وبعد خمسة أشهر ونصف تم الزواج في يوم 29 يونيو سنة 1944م، ودائما ما كان يذكر ناصر أن شقيقها هو الوحيد الذي أملى شروطه عليه.

منزل الزوجية والدنجوان جمال:

لم تر زوجته المنزل الأول أو المفروشات قبل الزفاف وعند الاقتراب من المنزل، حيث كان يسكن في الطابق الثالث، وبمجرد الوصول للطابق الثاني حملها إلى الطابق الثالث وعندما دخلت المسكن وجدته مضيئا بأكمله، وهو عبارة عن 5 غرف وجميع تكاليف الأثاث من ورث أبيه.

الضيوف والرجل المحافظ:

إذا حضر أحد ومعه زوجته يقابله بمفرده ويصافحه ثم يصطحب الزوجة إلى الصالة ثم يبلغها بأن هناك سيدة في الصالة فتخرج لتسلم عليها حتى تنتهي زيارة زوجها، فيما لم تكن تسلم على الضيف.

أول حمل وفرحة الأولاد:

وعندما ابتدأت الشعور بأول حمل اصطحبها لطبيب مشهور لمباشرة الحمل وكانت تزوره كل شهر، وحدثت الولادة في 12 يناير سنة 1946م ولم يخبر شقيقتها إلا في الثامنة صباحًا هاتفيًا ثم ذهب لينام.

مع شقيقها رغم إصابته بالدرن:

قال أخوها عبد الحميد لإخوته إنه يحب جمال أكثر منهم، وذلك عقب إصابته بالدرن فى عام 1946م، وكان جمال لا يفارقه ولا يخشى الإصابة والعدوى منه، كما كان يشعر بالضيق من أشقائها لتركهم أخاهم منفردا.

قصة القميص الغارق في الدماء:

بعد 3 شهور ونصف من بدء حرب فلسطين عاد لمنزله في إجازة لمدة 3 أيام، وظهر جرح من رصاصة أثناء الحرب حيث كان هناك جرح حديث وخياطة فى صدره من

الناحية اليسرى، ووجدت في الشنطة قميصا وفانلة ومنديلا بها دماء غزيرة، وقال إنه أصيب وهو في عربة حربية من رصاصة خبطت أولا في حديد العربة الحربية الأمامي الذي لا يزيد عرضه على بضعة سنتيمترات، مما خفف الإصابة إذ انكسرت منها قطعة دخلت في صدره.

علمت عن حصار زوجها في الفالوجا من خلال جارة شقيقتها التي استوقفتها أثناء ذهابها لتسلم راتبه من البنك الأهلي، فسلمت عليها وقالت لها هل لا يزال زوجك في الأسر؟ فردت عليها أنه في مكان بعيد، ثم سألت ابنة عثمان باشا المهدي الذى كان يشغل رئيس هيئة الأركان، ثم عادت ممسكة بيدها مجلة المصور وقالت: ها هو زوجك الصاغ جمال عبد الناصر في صورة مع عدد من الضباط في الفالوجا.

في أحد الخطابات أثناء عمله أبلغته بأنها تشغل له بلوفر من التريكو ولونه رمادي فاتح، وعند وصوله عرف الجيران والناس في المحال القريبة من منزلنا، والكل كان يعرف الفالوجا والحصار وبعد أن استراح ارتدى البدلة العادية وسأل عن البلوفر ثم ارتداه.

وعند الذهاب إلى الطبيب الذي باشرها أثناء ولادة هدى، قال لهم هل علمتم بالأسعار الجديدة فسأله جمال: وهل هذا يسري أيضا على القدماء..؟ فرد الدكتور قائلا: المستشفى مبني على أحدث تصميم ومجهز بكل وسائل الراحة، والخدمة يقوم بها ممرضات أجنبيات، وقال ببساطة توجد الدرجة الثانية.

رد جمال على الفور قائلا: يعني هذا معناه أنت ترتفع ونحن ننزل..؟! وبعد خروجنا من عنده قال لي جمال: سوف لا أذهب لهذا الدكتور أبدا. ويوم ميلاد عبد الحميد في 29 أكتوبر سنة 1951م، قالت له أتمنى أن يكون ولدًا حتى لا يكون خالد مدللا، فقال لها: كوني مطمئنة أنا سوف لا أعطيه فرصة ليكون مدللا، مافيش حد يدلع.

أنور السادات:

وفي إحدى الزيارات زارنا شخص أبلغت ناصر بأنه ضابط شديد السمرة، فقال لها زوجته بيضاء جدا، وكان أغلب الزوار يأتون ويسلمون عسكري المراسلة أوراقا بتوقيتات الزيارة.

منشورات:

في يوم من الأيام وقبل رجوع جمال من الشغل حضر ضابط وطلب مقابلتها، وأعطاها دفتر دوسيهات كبيرا لونه بني ففتحته فوجدت أوراقا فوق بعضها قرأت واحدة والتي تليها، وجدت نفس الكلام المكتوب وفهمت أنها منشورات مهاجمة لنظام الحكم في البلد، وكانت تعرف جيدا عن خطورة المنشورات وكانت تخشى أن يتم إطلاق الرصاص عليه أو يطلقه على أحد.

ليلة الثورة:

في الثاني والعشرين من يوليو سنة 1952م وفي السابعة صباحا دخل جمال الحجرة وكان يلبس الملابس العادية، القميص والبنطلون ولم ينم طول الليل، وكان من عادته أن يغسل وجهه قبل النوم، فقالت لنفسها سينام مبكرا، لكنه فتح الدولاب وارتدى البدلة العسكرية، فسألته للمرة الأولى إنت رايح فين بالبدلة الرسمية دلوقتي..؟ فقال يجب أن ننتهي من تصحيح أوراق طلاب كلية الأركان، وفي الثانية عشرة مساء سمعت صوت طلقات رصاص كثيرة من ناحية قصر القبة، فخرجت لتبلغ أشقاءه الذين كانوا يجلسون في الصالة بأن الضرب من ناحية قصر الملك، ولابد أن يكون جمال من الذين يطلقون الرصاص ويهاجمون القصر.

وقبل الساعة الثانية صباحا رأت العربات المصفحة والدبابات، ثم رأت أشقاءه يقفزون من الفرح فأدركت أنه انقلاب عسكري، ثم قالوا لها إن جمال أبلغهم أنه ذاهب في مهمة خطيرة، وقال إذا رأيتم الجيش نازل والدبابات والعربات اعرفوا إني نجحت، وإذا لم تروا ذلك فاسألوا عني، وفي الصباح اتصل بها وقال لها إن الملك سيراه في الجرائد وسيرى صوره في عربة جيب، وقال إنه لف الشوارع الرئيسية في البلد مع اللواء محمد نجيب، وكانت أول مرة تسمع اسمه.

نظام المراسلة:

ألغى جمال في أول أسبوع بعد الثورة نظام المراسلة، لكن رفض المراسل أن يترك جمال وقال سأظل عندكم فأبي فقير وماذا سأعمل في قريتي..؟ ثم قام جمال بتعيينه في أمن الرئاسة، أما عسكري المراسلة الذي رافقه في حرب فلسطين فرآه جمال يلوح له في

إحدى رحلات الصعيد، فشكى له سوء أحواله فعينه الرئيس عسكري أمن في منشية البكري.

أم كلثوم:

من المفارقات كان جمال وزوجته حريصين على سماع أم كلثوم، وعقب قيام الثورة اتصلت أم كلثوم هاتفيا بزوجة ناصر، وقالت إنها قابلت البكباشي جمال عبد الناصر في القيادة العامة وسألته عنها فأخذت ميعادًا وتقابلا، لكن أثر المكالمة كان كبيرا.

المصران الأعور والطعام المسلوق:

في شهر مايو سنة 1953م شعر جمال بألم في بطنه وطلب طعاما خفيفا من الخضار المسلوق ولم يحضر على الغداء، لكنها فوجئت بعبد الحكيم عبد الناصر يقول لها جمال بخير وفاق من البنج بعد إجراء عملية المصران الأعور.

مؤامرة سلاح الفرسان:

في مايو سنة 1954م حضر جمال للبيت وقال لها جهزي نفسك والأولاد واذهبي لشقيقتك في الجيزة، وخذي معك ملابس للنوم وامضي الليلة عندها، ويجب أن تغادري البيت قبل الثامنة مساء لأن البيت ربما يهاجم، ويحتمل دخول بعض الضباط بالدبابات لنسفه، ولا ترجعي إلا بعد أن أكلمك بنفسي بالتليفون، وفي الصباح اتصل بها وقال لها أجهضنا المؤامرة.

قصة المصحفين وحادث المنشية:

وعندما كان مقررا أن يلقي خطابا في المنشية بالإسكندرية غادر البيت وقت الغروب، وقبل خروجه كان يضع دائما في جيبه مصحفا صغيرا في غلاف من المعدن الأبيض لم يجده وقت خروجه وكان متعجلا، فأحضرت له مصحفا آخر بغلاف من الكرتون فأخذه جمال ووضعه في جيبه، وعند خروجه وجدت المصحف ذا الغلاف المعدن الذي اعتاد أن يخرج به فجريت مسرعة وأعطته له، وكان بالقرب من الباب فأخذه ووضعه في جيبه وخرج بالمصحفين ومن وقتها ظل يخرج بالمصحفين.

التعليم:

كان الرئيس يهتم بتعليم أولاده، ورغم شغله المتواصل كان يرى الشهادات كل شهر ويقارنها بالشهر الذي سبقه، ويطلب أولاده ويتحدث معهم عن الدرجات فكانت تضعها على الترابيزة في حجرة النوم حتى يراها ويوقع عليها بإمضائه، وكانت هدى دائما الأولى بتفوق إذ تسبق الثانية بعدد كبير من الدرجات، وخالد إما الأول أو الثانى منافسة بينه وبين زميله، وقد لاحظ الرئيس وكان يضحك لهذه المنافسة، ولم يكن يعامل أطفاله بشدة ويقول إن الطفل الذي يُضرب يخاف، ولكي يحمي نفسه يكذب، وعندما يكبر يتعود على الكذب، وأهم شيء في تربية الطفل ألا يكذب أبدا وأنه عندما يغلط ينبّه للصواب.

الطعام:

وطعام الإفطار كوب لبن أو عصير فاكهة، وهو نفس الأمر في العشاء مع تناول الجبنة البيضاء والزبادي، وفي الغداء لحم إما طيور أو سمك مع خضار وأرز، وفي عام 1958م أصيب بمرض السكري وأصبحت تقلل كثيرا من الحلويات.

الهدايا:

كان يتقبل أن تكون الهدايا رمزية، عندما أهدى رؤساء وملوك وبالأخص العرب، طائرة ومركبا وفرسا من رؤساء الدول سلمها للدولة ولم يترك بعد رحيله إلا العربية الأوستن السوداء، وقد ظلت باسمه في قلم المرور، وعندما أهداه أحد رجال الأعمال الأغنياء العرب أصحاب الملايين هدية وكانت تقدر بمائة ألف جنيه، قال لم نقم بثورة لمثل هذا، وكلف صلاح الشاهد كبير الأمناء بإرجاعها وتقبل قلم «باركر».

زواج هدى ومنى:

عندما تخرجت هدى في الثانوية العامة بتفوق والتحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، كانت من ضمن الذين صافحهم الرئيس في عيد العلم سنة 1963م وأهداهم جائزة وشهادة تقدير، فيما قابلت هدى الطالب بالكلية حاتم صادق وكان في الفرقة الثالثة، وأبلغت والدتها أنه يريد خطبتها، فأبلغها أنه عندما يحين خطبتها سيسأل عنه، في

الوقت الذي اعتذر للكثيرين للتقدم لخطبتهما من أولاد الأغنياء والباشوات السابقين، واعتذر بأنهما يكملان دراستيهما، فيما قال إنه لن يستطيع السؤال عن حاتم إذا كانا متفقين، وقال إحنا صعايدة وعقد القران بعد أسبوعين، وتم زفافها في 5 أغسطس سنة 1965م قبل أن تتخرج في الجامعة، وبعد انتهاء حفل الزفاف، وعند مغادرة هدى البيت صافحها الرئيس وقبلها وبكى.

وفي سنة 1966م تخرجت في الكلية ونجحت بتفوق بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف، وعينت مع زوجها حاتم صادق في رئاسة الجمهورية، وعندما كانت رغبة منى الالتحاق بالاقتصاد والعلوم السياسية، لكن مجموعها لا يؤهلها فالتحقت بالجامعة الأمريكية، ثم تقدم لخطبتها أشرف مروان خريج كلية العلوم، وكان ضابطا في القوات المسلحة بقسم الكيمياء برتبة ملازم أول، ووالده ضابط بالقوات المسلحة برتبة عميد، وتم الزفاف في 7 يوليو سنة 1966م.

يوم الوداع:

وفي اللحظات الأخيرة دخلت الزوجة الحجرة ووجدته مضطجعا على السرير وتناول الزبادي، وظل الرئيس يتحدث في التليفون حتى الساعة الثانية عشرة ثم قال: «سأنام مبكرا، وغدا سأذهب في الصباح لتوديع الملك فيصل وأمير الكويت وأطفأ النور ونام».

وفي الصباح استيقظ قبل الثامنة، وحضر الطبيب الخاص ثم ذهب للمطار وتناول فاكهة فقط، وعقب العودة رأت الطبيب يجري له فحص رسم قلب، ورأى زوجته ونادى عليها فدخلت الحجرة، وأشار لها بيده وهو راقد على السرير بالجلوس، وظلت نحو عشر دقائق وهو راقد لم يتكلم، وعندما جاء الدكتور الصاوي حبيب طلب عصير برتقال وليمونا، فشرب عبد الناصر البرتقال، وبعد دقائق حضر دكتور منصور فايز فقالت له أنت جيت ليه يا دكتور دلوقتي..؟ أنا لما بشوفك بعرف إن الرئيس تعبان وبكون مشغولة.

ثم دخل طبيب تلو الآخر، وزاره حسين الشافعي، ومحمد حسنين هيكل، وكل

واحد يدخل الحجرة ولا يخرج منها وكانت تبكي، ثم رأت حسين الشافعي يخرج من الحجرة يبكي ويقول: مش معقول يا ريس، وحضر خالد وعبد الحكيم في هذه اللحظة ولم يكونا في البيت ولا يدريان شيئا، ودخلا مسرعين، وحضرت هدى وكانت لا تعلم بما جرى بعد ذهابها لبيتها، ثم دخلت زوجته غرفته بعدما ارتدت ثوب الحداد إعلانا برحيل الزعيم والزوج والأب، لتطلب طلبا أخيرا من رئاسة الجمهورية أن ترقد بجانبه بعد وفاته.

▪▪ الانقلاب على عبد الناصر [1]



1918 - 1970

مرت ذكرى رحيل الرئيس جمال عبد الناصر ولا زالت ذاكرة الأجيال تحتفظ بعويل شباب وشيوخ وأطفال ونساء الأمة العربية - في هذا التوقيت- وهو يشق عنان السماء أسفًا وحزنًا على غياب زعيم القومية العربية.

المؤلم أن ذكرى الرحيل تهبط علينا ثم تمر دون أن يدري بها إلا القليلون، وهو برهان قاطع على أن أمة العرب قد هرب من خصالها خصلة الوفاء، فالرجل الذي أفنى حياته من أجل أن يكون للأمة العربية من المحيط إلى الخليج سمعة دولية ترج لها - احترامًا- المحافل العالمية، لا يذكره إلا نفر هنا وآخر هناك.

بل الكارثة أن دولة في إفريقيا هي جنوب إفريقيا قد أقامت في هذه المناسبة احتفالاً مهيبًا، واستدعت ما وصفته بزعيم ثورات التحرر الوطني في العالم الثالث إلى ذاكرتها، بينما مرت الذكرى في المنطقة العربية في صمت أشبه بصمت القبور، وفي ظني أن هذا الصمت ليس سببه أن صاحب الذكرى

(1) سعيد اللاوندي: كتاب الانقلاب على عبد الناصر- قضايا وإشكاليات، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، الطبعة الأولى، 2016م، ص7-26.

«جمال عبد الناصر» غفل أو نكرة لا يعرفه أحد؛ ولكن لأن الجميع يعلم أن ما ناضل من أجل زواله عاد يحكم على الصدور ويكتم الأنفاس، وهو بهذا المعنى صمت أو إهمال متعمد حياءً من الرجل، وخجلاً من سيرته وكفاحه.

فلقد سعى الرجل عبر ثورته البيضاء إلى القضاء على الاستعمار وأعوانه، فإذا بالاستعمار يعود عودًا أحمدًا، وتنتشر قواعده العسكرية في الخليج وغير الخليج، ويملأ الأمريكان الأرض العربية من مشرقها إلى مغربها، وتعود التحالفات لتجعل الدول العربية في حالة حذر وتوجس وخوف من بعضها البعض، متوهمة أنه لا ملاذ لها سوى سماء الأمريكان والاستعمار الجديد.

ناضل عبد الناصر من أجل توسيع رقعة الطبقة الوسطى، وأخذ من الأغنياء والإقطاعيين ليعطي إلى الفقراء والمعدمين، واليوم ومع ذكرى رحيله الثانية والثلاثين تأكله الطبقة الوسطى، وانقسم المجتمع في مصر وغيرها إلى طبقتين:

طبقة الأغنياء غنى فاحش، والفقراء فقرًا مدقعًا، وتاهت ملامح مجتمع الكفاية والعدل التي رسمها جمال عبد الناصر لتحل محلها ملامح جديدة للمجتمع الانتهازية، والفساد، والحرائق التي تأكل قلوبنا مع تراثنا، وتتركنا رمادًا يبابًا، كفا في زمن عبد الناصر أن نثق أننا سيد في ظل الجمهورية، وأن يبدأ تكافؤ الفرص في أن يكون هو ضابط إيقاع الترقي وشغل الوظائف، وأن شعبنا جمع التآلف بين قوى الشعب العاملة.

أقول مؤكدًا أن الصمت عن ذكرى رحيل عبد الناصر هو أكبر دليل على شعور العرب بالجرم الذي ارتكبوه في حق الأمة العربية وليس في حق عبد الناصر فقط، ويبقى جمال ما بقيت الحياة في مصر.

ويبقى جمال ما بقيت الحياة في مصر:

تمر السنوات الواحدة تلو الأخرى، وتتغير الأشياء، والأسماء، والطباع، وتأفل أضواء وتلمع أخرى، ويبقى اسم جمال عبد الناصر راسخًا في ضمير الأجيال العربية مُحاطًا بأسمى آيات العرفان والامتنان، القائد تتضاءل بجواره القيادات والقامات، رغم محاولة بعض الأفراد بحجم الأقزام النيل منه أو محاولة التشويش على ذكراه.

غاب جمال عبد الناصر عن سمائنا فعشنا ظلمة يصعب فيها التمييز بين الخيط

الأبيض والخيط الأسود من الليـل، وتخـبط الكـل في الكـل بعـد أن اختلفـت الأوراق وتاهت معالم الأشياء، وتناسى الناس ما كان ينبغي ألا ينسوه اليوم أو غدًا أو بأي موعـد، تناسوا صرخات الابن البار جمال عبد الناصر الذي وزع الأراضي على الفلاحـين، وبنـى المستشفيات لعلاج الفقراء بالمجان، وأنشأ مدرسة ابتدائية كل ثلاثة أيام، وأصدر كتابًـا كل ست ساعات لكي يتعلم أبناء الفلاحين ويثقفون.

وقد حفظ جمال عبد الناصر للأفراد كرامتهم، وأخذ من الغني ليعطي الفقير، وأصـبح لمصر – في زمنه– وهج وتآلف جعلها تجلس في خيلاء في المحافل الدولية، وبرع جمـال في أن يصل ماضي مصر بحاضرها المتفائـل ومسـتقبلها الواعـد، وأصـبح للعلـم عيـد، وللفلاح عيد، وللسد العالي عيد، وتحولت أيام مصر كلها إلى أعيـاد، وحمـل كـل شـاب نفسه من المشروع القومي المصري، فرض قلب العروبة النابض، وبلاد العرب أوطاني، وأنى يسير يسمع لغته العربية، وترانيم أديانه السماوية، ويقرأ أمجاد العرب في صـفحات التاريخ والآمال والآلام، والعادات والتقاليد المشتركة.

لن يمحو الزمان اسم جمال عبد الناصر؛ لأنه سكن القلوب وأصـبحت محبتـه إرثـًا ينتقل من السلف إلى الخلف دون نقصـان، أمـا سـيرته الطيبـة فترويهـا أشـجار النخيـل والقطن في حقول مصر المحروسة، وترتفع بها عقيدة الفلاحين البسطاء الذين شربوا مع مياه النيل قيمة الوفاء لابن مصر البار جمال عبد الناصر.

وستظل سنوات حكمه نبراسًا يضيء النفوس ويقودها إلى الحرية، والمنطلقة إلى غـد يكون أفضل كثيرًا من حاضرها، والمتمسكة في ذات الوقت بأواصر أسرية قوية، وبنيـان اجتماعي مرصوص، وقيم مجتمعية لا يفنيها الحديـد، فلقـد كـان جمـال اسـمًا ومعنـى ومثالاً يُحتذى به، فلا شيء يعلو على الوطن، ولا شيء يضاهي ترابـه ريحًـا وطيبًـا لأنـه تراب طاهر، دمر محتليه، وهزم وأشعل شموعًا لشهدائه من الأبرار والأحرار.

وسيحفظ هذا الوطن اسم جمال عبد الناصر في أعماق القلوب، وحنايا النفوس، فهـو مفجر الثورة وطالب الرقي والرفعة لشعبه وشعوب العالم التي أذلها واستعمرها الغـزاة، ومن العجب أن محاولات الأقزام محوه من ذاكرة الناس قد باءت بالفشـل، بينمـا ازداد وهجًا في قلوب شعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

بالقطع سيبقى جمال عبد الناصر ما بقيت القلوب تنبض في مصر والأمة العربية جميعها.

متحف جمال عبد الناصر

الحديث عن تحويل بيت الزعيم جمال عبد الناصر إلى متحف جعلني - رغمًا عني- أن أستدعي من الذاكرة المواقف التالية:

كان ذلك في عاصمة النور باريس قبل أكثر من عشرين عامًا، عندما وجدتني في مواجهة غريبة مع مدير برامج إذاعة الشرق التي تبث إرسالها من باريس وتطلق على نفسها اسم راديو المهاجرين والمغتربين في أوروبا، والسبب هو أنني انتهزت من ذكرى رحيل جمال عبد الناصر التي تمر كل عام في 28 سبتمبر وأعددت ثلاث حلقات في برنامجي الذي كان يحمل اسم «كلام في الهواء» تتحدث عما حدث في هذا اليوم من عام 1970م وهو تاريخ وفاة الزعيم.

وأذكر أني لم أهتم بأن البعض قد لا يحب أن أتحدث بشكل مباشر عن ناصر، والناصرية والفكر القومي العروبي الذي نفتقده مع ارتفاع نعرات الذاتية والنرجسية والإقليمية.

ولذلك ركزت في هذه الحلقات على شعور العرب - كل العرب- في هذا المصاب، وكيف استقبلت الشعوب نبأ وفاة عبد الناصر، ثم صوَّرت - مجددًا- الزحام الذي ملأ أرض مصر وسمائها، وصعود المواطنين فوق أعمدة الإنارة، وسفر الفلاحين البسطاء إلى القاهرة سيرًا على الأقدام ودموعهم تسبق خطواتهم.

وأذكر أن مدير البرامج بالإذاعة أخذ يجادلني في كل ما كتبته، وانتهى إلى القول بأنه يُفضل ألا أتحدث في هذا الموضوع، وأضاف باستخفاف أو على الأقل ما ظننته استخفافًا، يقول: دع عبد الناصر في مرقده مرتاح البال، وابحث عن موضوع آخر.

وأقسم أني كدت أستشيط غضبًا عندما أصر على موقفه مشيرًا إلى أنه من سابع المستحيلات أن يتركني أتكلم عن عبد الناصر.

وشعرت بأنه طعنني بسكين في صدري عندما قال: يمكنك أن تتحدث عن الفنانة

شريهان أو عن المطرب الشعبي أحمد عدوية، وكانت شهرتها تطبق الآفاق في ذلك الزمان، وأن ترسل ما شئت في الحديث، أما عبد الناصر فلا مجال له في إذاعتنا، نسيت أن أذكر أن هذا الإذاعة أسسها رجل أعمال لبناني ثم اشتراها منه لاحقًا رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان؛ ولذلك كان إدارتها لبنانية بحتة.

وكدت أدخل في عراك بالأيدي مع مدير البرامج الذي بدالي كارهًا لعبد الناصر، وفارضًا حصارًا - لا معنى له- حول شخصيته ونظام حكمه.

وبعد أن أخذت أسدد كلمات كالرصاص إلى رأس الرجل متهمًا إياه بالجهالة، والتفاهة، وسوء الطوية، بينما كان واقفًا في مكتبه، مُكفهر الوجه، مُحتقن الأعصاب، يستمع إلى اتهامي دون أن ينطق ببنت شفاه، وفجأة وجدت الرجل يبكي مُستعطفًا وراجيًا أن أكف عن الكلام، وقال في حشرجة: «أرجوك لا تتهمني بما ليس فيَّ، مفيد التآمر في القلب، وتعلقنا به في المشرق العربي - وتحديدًا في بلاد الشام- أشبه بالإدمان الذي يسري في الدم سريان الماء في العود».

وهبط الرجل بجسده إلى أقرب مقعد، وأخذ يحدثني عن الزعيم والشغف به، والعروبة التي انطلقت في سماء العرب على يديه، وصوره التي كانت - ولا تزال- تملأ جدران البيوت، ثم خـُطبه التي يحتفظ بها في بيته في بيروت، وبدا لي الرجل وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح، وهو يردد مقاطع من بعض هذه الخطب.

ثم ازداد وجه الرجل احتقانًا وتغير صوته من شدة التأثر وهو يتحدث عن المصائب التي وقعت على العرب بعد رحيله، والحكومات التي باعت الغالي والرخيص من أجل البقاء في مقاعد السلطة، والقواعد العسكرية الأمريكية التي ملأت الأرجاء من حولنا وفي بلادنا، ثم التعليم المجاني الذي أصبح أثرًا بعد حين، والمصانع التي أصبحت هوءا، وكرامة العرب التي أصبحت في الطين تعلوها الأوحال.

ما وددت أن أذكره أن مدير برامج إذاعة الشرق توقف عن الحديث فجأة، والتفت نحوي، وأخذ يحدثني في صوت زاعق ناقم يريد الانتقام وقال: لست في حاجة أن تعلمني كيف أحب عبد الناصر، ففي حضن بلده طردوا السيدة الفاضلة زوجته «تحية كاظم» من بيتها، وكان الأولى أن يحولوه متحفًا للزعيم والزعامة.

واسترسل يقول: نحن الذين عشقنا عبد الناصر ورفعناه بسيارته فوق الأعناق في لحظة مشهودة تحتفظ بها الذاكرة العربية، أما أنتم - في مصر- فلقد تنكرتم له، وأوسعه نفر منكم نقدًا واتهامًا وتشكيكًا في وطنيته، وذمته المالية، وهو بريء من كل ذلك.

أقول: لقد تذكرت هذه الواقعة، بينما كانت عيناي تعدي على سطور تقول: إن الرئيس مبارك قرر تحويل بيت عبد الناصر إلى متحف، وحدثتني نفسي: ليت مدير برامج إذاعة الشرق في باريس أن يكون حيًّا ليعرف أن مصر قد تتأخر في اتخاذ القرار الصائب، لكنها تتخذه ولو بعد حين.

▪▪ عبد الناصر ... الزعيم الأسوأ حظًا (1)



1918 - 1970

لست أشك لحظة واحدة في أن الرئيس جمال عبد الناصر هو من أسوأ زعماء العالم حظًا، فكل الذين قام من أجلهم بالثورة، وحصل آباؤهم على حقوقهم المسلوبة يناصبونه - ويا للعجب- العداء ويتعمدون تشويه الفترة الناصرية، وإلصاق أقذع الصفات بها.

وأذكر أني في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي أعددت - في ذكرى رحيل عبد الناصر- برنامجًا للبث عبارة إذاعة الشرق في باريس، ودارت مناقشة حامية بيني وبين مسئول البث - وكان لبنانيًا- وبعد إصراره على حذف بعض العبارات انتهى بالقول: «لا يزايد علينا أ؛د في حب عبد الناصر، فنحن أهل الشام الكبير الذين حملناه بسيارته على أعناقنا في حدث مشهود، وهتفنا - ولا نزال- بعبد الناصر زعيم الأمة العربية.

وأشهد أني رأيت أساتذة وزملاء لي في الجامعة في أوائل السبعينيات كانوا يبكون حنينًا وهم يتحدثون عن عبد الناصر، ويدفعوننا دفعًا للكتابة في مجلات الحائط عن

(1) د. سعيد اللاوندي: الانقلاب على عبد الناصر - قضايا وإشكاليات، المرجع السابق.

عبد الناصر (الخالد الذي لا يموت)، ثم وبعد أن تبوءوا المقاعد وذاقوا طعم النفوذ والسلطة كانوا أول القاذفين بالطوب والحجارة لعبد الناصر والفترة الناصرية، وهذا لعمري قمة المأساة في سوء الحظ الذي لازم الرجل.

فمن نكد الدنيا على هذا الزعيم أن يجد الطبقة الوسطى التي انتصر لها طوال حياته، هي ذات الطبقة التي تهيل عليه التراب، وتتهمه بالصحيح والزائف، ومعلوم أن هذه الطبقة كانت تشكل 99.5٪ من مجموع الشعب المصري باعتبار أن مجتمع النصف في المائة هو الذي كان يحكم ويحتكر ويتسيد في كل المواقع.

وما أحسبه - بحق- من سوء الحظ أيضًا أنه لولا عبد الناصر لما تعلم أبناء هذه الطبقة، ولما تمكنوا من الصعود إلى أعلى المناصب، لكنهم - ويا للعجب- يتنكرون للرجل ويسومونه معنويًا صنوف العذاب، ولا يترددون في اغتيال الأخضر واليانع في فترة حكمه لتبدو وكأنها خراب في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهذا زيف لا يستقيم مع وقائع التاريخ الذي لا يكذب أو يتجمل.

ومن سوء الطالع أيضًا أن يعود إلى الواجهة من جديد الإقطاع القديم الذي دحره عبد الناصر، والرأسمالية المستقلة التي أممها عادت لتملك - في شراسة- أضعاف أضعاف ما أخذ منها، ثم هاهي لم تنس جراح الماضي، فعكفت على الانتقام ليس من عبد الناصر الذي أصبح في ذمة التاريخ، وإنما من الطبقة الوسطى التي تقلصت وتكومت على ذاتها حتى كادت تذوب وتندثر، والمثال الصارخ على ذلك: إن مجانية التعليم والعلاج التي كانت هذه الطبقة من أكثر المستفيدين منها أصبحت وهما وسرابًا.

وتولت العولمة المتوحشة ما تبقى من أمر هذه الطبقة، فدخلت بيوت العمال في حلوان والمحلة الكبرى وحولتها إلى صحراء جرداء.

ومن قبيل سوء الحظ كذلك أن المرحلة التي تلت حكم عبد الناصر وهي فترة الرئيس السادات، كانت من أكثر المراحل التي تعرض فيها عبد الناصر للهجوم ونكران الفضل، وتنافس الكتاب في تجريحه بدءًا بالكاتب موسى صبري، وانتهاءً بعبد العظيم رمضان مرورًا بكثيرين أشهرهم توفيق الحكيم، وثروت أباظة، وأنيس منصور، ورغم أن السادات في أكثر من مناسبة أنه كان شريكًا لعبد الناصر في كل القرارات، إلا أن

حملات التشويه لم تتوقف وأصبحت كالنغمة التي يعزفها كل طامع أو طامح أو متزلف.

وحتى تكتمل مأساة سوء الحظ فلقد قيض الله لعبد الناصر جملة من المدافعين الذين يفتقد معظمهم إلى المصداقية، فأساؤوا للرجل وسيرته من حيث أرادوا الخير له، وأصبح الانتساب إلى الناصرية بسبب عبث هؤلاء تهمة تنصل منها الناس كافة.

ومما زاد الطين بلة إن المسمون بالناصريين لا تنتهي الخلافات بينهم، ولا يكفون عن التلاسن والتراشق بالاتهامات، بالعمالة، والخيانة، والعمل لحساب أنظمة سياسية أخرى، والدليل على ذلك أن رصيدهم الشعبي فقير، وإنجازهم السياسي والاجتماعي حزبيًا هش رغم تمتعهم برياح تسمح بالكتابة وحرية التفكير، إلا أنهم - وهذا هو ديدنهم- فضلوا التمويهات والتضليل ولي عنق الحقائق، والكتابة بأسلوب الفبركات الصحفية، والأكاذيب فأضروا بصورة الناصرية التي أصبحت - ويا للأسف- مرادفًا للمهاترات والسباب والصوت الأجوف؛ لذلك كان الحصاد النهائي مرًا ولم يخلف في الحلقوم غير الغصص المؤلمة.

والغريب أن بعض النظم والقيادات السياسية التي رضعت لبن الناصرية «الطاهر العفيف» وادعت أنها أمينة على القومية العربية عادت وتنكرت لكل ذلك، وأصبحت من ألد أعداء فكرة القومية والعروبة معًا.

وهكذا خسر اسم عبد الناصر من رصيده الكبير دون أي ذنب، خصوصًا في ضوء الميديا التي لم تترك في خبث شاردة أو واردة تتعلق بتراث الرجل الفكري والسياسي إلا وألصقت به الاتهامات.

أقول أخيرًا إن قناعتي أن عبد الناصر رجل سيء الحظ، لكنه -يا للمفارقة- الأبقى أثرًا وذكرًا في النفوس، فمصر الحديثة يذكرها التاريخ برجالات، عبد الناصر هو أبرزهم.

وأمام حملات التشويه التي يتعرض لها هذا الرجل منذ رحيله وحتى اليوم تكفي زيارة إلى الريف المصري، فالمفاجأة أن عبد الناصر قابع هناك في صدور الآباء والأمهات، وهو إرث يأخذه الخلف عن السلف، ولعل في ذلك وحده العزاء والسلوى من لعنة سوء الحظ التي لازمت هذا الرجل العظيم كظله.

ثورة يوليو.. والجيل «المضحوك عليه»[1]

الدكتور مصطفى الفقي المفكر السياسي المرموق له مقولة يحفظها الجميع عن ظهر قلب، يشبه فيها أبناء جيله - ممن بلغو سن الستين أو يزيد قليلاً- بطابق «الميزانين» في العمارات والإنشاءات العالية والذي لا يتوقف فيه «الأسانسير» لا في الصعود ولا في الهبوط، ولقد حفظها الجميع لأنها مست شغاف قلوب الكثيرين، وباتت مثلاً ينطبق على جميع الأجيال مع اتساع قاعدة المحرومين من أبسط حقوقهم السياسية أو الإنسانية.

ولعلي هنا أعني حقهم بالمشاركة في صنع بلدهم، وعاشوا عمرهم كله يكتسبون الخبرات ويراكمونها «فوق بعضها البعض» انتظارًا للحظة يتمكنون فيها من توظيل كل هذا المهارات العلمية والأكاديمية وربما التطبيقية لخدمة الوطن، لكن حيل بينهم وبين هذه الأمنية المشروعة.

وعندما حلموا بذلك صغارًا، كما يقول مفكرنا الرائع الدكتور مصطفى الفقي هجم عليهم «أولو الأمر» باللوم والتقريع قائلين: أنتم مازلتم صغارًا والعمر أمامكم، وعندما حلموا ثانية بالمشاركة وتحمل المسئولية في مواقع القرار والتنفيذ قيل لهم: لقد بلغ الشيب مفرقكم، ويحسن التخلي عن هذه الأحلام لحساب الأجيال التي تأتي بعدكم..!

ولأن «أولي الأمر» في بلادنا يعطون أنفسهم الحق في أن يحددوا، فالدكتور مصطفى الفقي وبني جيله تم تهميشهم عن عمد، ولم يتركوا للقلة القليلة منهم إلا الفتات من قبيل ذر الرماد في العيون، أما جيلنا ممن لا يفصله عن جيل الدكتور مصطفى إلا عقد من الزمان فلقد خرج بخفي حنين، واليوم ومع ذكرى ثورة يوليو 1952م اكتشف جيلي أنه تم اختطافه لحساب آخرين، وانتهى به الحال إلى أن يكتشف أنه جيل مضحوك عليه..!

فلقد حُرم من كل شيء، أما الكارثة الكبرى أنه فتح عينيه بعد سن الرشد فالنضج، ليكتشف أن كل شعارات الثورة قد تم مسخها مع سبق الإصرار والترصد، فنادت الثورة بمبدأ تكافؤ الفرص، الذي أصبح فعل فاعل أثرًا بعد العين، وقالت «لا» للإقطاع

(1) د. سعيد اللاوندي: الانقلاب على عبد الناصر - قضايا وإشكاليات، المرجع السابق.

الفكري والزراعي والرأسمالية المستغلة، فعادت من أوسع الأبواب لتسيطر على المشهد المجتمعي بقضه وقضيضه ونادت بامتلاك الشعب والقوى العاملة وسائل الإنتاج، فتم طردهم من وظائفهم باسم الخصخصة، واكتظت طوابير البطالة بالعاطلين من كل الأعمال و«بالتبعية» طوابير العنف، والتسيب والفهلوة والإدمان وكل الموبقات المجتمعية.

نعم يا دكتور مصطفى، ضحكوا علينا، وقهرونا وامتطونا ووأدوا الأحلام في صدورنا، وملؤوا المواقع «بأهل الثقة» حتى لو كانوا أجهل من دابة، وذبحوا أهل الكفاءة قربانًا - حسب ما يدعون- لأمن الأمة واستقرار الشعب.

لم ننل سوى الحنظل، نشربه مرًّا «علقمًا» ونكتوي بشوكه وناره، وإذا ما تذمر أحد أبناء جيلي وذكر الثورة المصرية بمبادئها وشعاراتها ضحكوا منه ملء الإشراق، وهم يترجرجون بكروشهم المنتفخة على مقاعدهم الوثيرة.

وشعر جيلي - والأجيال التالية- بالخيبة تهبط عليهم كهروات جديدة تسحق الجماجم، والمؤلم أن من قام بتجريف وتحريف ثورة يوليو، هم من أكثر من استفادوا منها، لكنهم شاءوا أن تقف الاستفادة عند حدودهم وحدود أبنائهم وأحفادهم، أما أبناء الشعب فلهم الحرمان «بامتياز»، وإذا اعترض معترض تحق عليه اللعنة.

باختصار جيلكم يا دكتور مصطفى وجد عمارة و«أسانسير»، وقواعد ظالمة تحكم صعوده وهبوطه، أما جيلنا المضحوك عليه فلم يجد لا عمارة ولا «أسانسير» ولا قوانين، لم يجد يا دكتور سوى الخراب.

▪▪ لمصلحة من أجهضتا ثورة يوليو 1952م [1]



1918 - 1970

تحضرني دائمًا مقارنة ضاغطة بين ثورة 23 يوليو 1952م والثورة الفرنسية، ليس في الأثر الذي تركته الثورتان وإن كان ذلك لا يقلل من أهمية ثورة 23 يوليو في مصر وتأثيرها في العالم الثالث، باعتبار أن للثورة الفرنسية تأثيرًا عالميًا من خلال شعارها: حرية، إخاء، مساواة.

أريد أن أقول إن الثورتين متشابهتين، وإن لم يكن بنفس الدرجة، وربما بعض الاختلاف يأتي من أننا لو سألنا صفي في المدرسة الإعدادية، أو شاب في المدرسة الثانوية عن الثورة الفرنسية لوجدنا في صدره إجابة من نوع ما، أما - وهذا هو اللغز- إذا سألناه عن المبادئ الستة لثورة يوليو 1952م، لما عرف منها أي شيء.

وأعتقد أن هذا الأمر يُعد جريمة بكل المقاييس، شاركت فيها وزارات التعليم والشباب فضلاً عن الإعلام والميديا، فشخص الرئيس جمال عبد الناصر قد لا يعني شيئًا بالنسبة لطفل في المدرسة الابتدائية، وهذه الجريمة تقع مسئولياتها علينا جميعًا؛ لأننا - والحالة هذه- غشينا بتاريخ مصر، وشوهنا الحقائق بطمسها حينًا أو بالتزيد عليها حينًا آخر.

(1) د. سعيد اللاوندي: الانقلاب على عبد الناصر - قضايا وإشكاليات، المرجع السابق.

وهذا الحال - في دول كثيرة- تعتبر خطًا أحمر لا ينبغي الاقتراب منه أو تجاوزه.

تاريخ الوطن يظل تاجًا على الرؤوس لا يمسه إنس ولا جان، لكننا في بلادنا لا نرعى قاعدة أو مبدأ، وتترك كل المقدسات - الوطنية أو الدينية- في مهب الريح يعبث بها من يشاء وقتما يشاء، وليس هكذا الحال في بلاد الدنيا، وأذكر أني قبل نحو عقدين من الزمان شاركت في ندوة حول مستقبل حوض البحر المتوسط، وكان المحاضرون من جميع التيارات السياسية الفرنسية، ولفت انتباهي أن الندوة بدأت بإذاعة تسجيل للجنرال «ديجول» كان يتحدث فيها عن ثقافة حوض البحر المتوسط.

ثم توالت الكلمات، وكان أصحابها من الحزب الديجولي أو الاشتراكي أو اليمني المتشدد، ينطلق من الجنرال «ديجول» بوصفه رئيسًا للجميع رغم اختلاف التيارات والمذاهب السياسية، فكان أنصار اليمين المتطرف يتوقفون أمام ديجول بتعظيم وتفخيم لا يدانيه إلا شعور مماثل من الحزب الاشتراكي، أو أحزاب الوسط بمختلف أطيافها.

وظلت - طوال أيام الندوة- سيرة «ديجول» على كل لسان، ونضاله من أجل فرنسا الحرة، وسألت نفسي: لماذا لم نجعل من جمال عبد الناصر صورة أخرى من ديجول..؟ نشعر جميعًا إننا ننتمي إليه، وأنه - بالفعل- زعيم كل المصريين، وكنت بذلك ألفى اختلافـًا إلى حد الخصام والعراك حول عبد الناصر الذي يراه البعض أحد أبرز زعماء الأمة المصرية، والبعض الآخر يراه قد افترى على شعب مصر، ونال من مستقبلها وقضى على الرطب واليابس فيها.

أتذكر هذه الواقعة في الذكرى السادسة والخمسين لقيام هذه الثورة البيضاء، التي صدَّرت فعل التنوير إلى أرجاء القارات الثلاث: آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان اسم عبد الناصر عند قيام الثورة أشبه بالموتور الذي يملأ نفوس شعوب العالم الثالث بالعزة والكرامة والحرية.

كنت أتمنى أن يكون اسم الزعيم العربي فوق كافة التيارات والأحزاب، يملكه الجميع لنكون مثله جميعًا، ليس بالمعنى السياسي الضيِّق الذي فرضه البعض من خلال حزب أساء لعبد الناصر أكثر مما أفاده، ونال من سمعته كزعيم لا يُبارى.

وللإنصاف يجب أن أتذكر أن العقدين اللذين تعاقبا بعد اندلاع الثورة تنفس فيها المصريون مناخًا نفتقده كثيرًا في هذه الأيام.

فكانت المشاريع الكبرى في السياسة الناصرية شعارات.

إن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديمقراطية، وإقامة حياة نيابية سليمة، وإقامة جيش وطني قوي، أقول كانت مبادئ تملأ حيوات الشعب المصري بالحيوية والثقة، والإقبال على الحياة.

وفي الاقتصاد عبر شعار «كلنا سيد في ظل الجمهورية»، وكلنا شركاء في وسائل الإنتاج، وتكريس مبدأ الاشتراكية والحرية والوطنية، شعر المواطن بعدها بالعزة والكرامة بعد طول امتهان وإذلال.

وعاش الفلاحون أزهى عصورهم عندما أعلن قائد الثورة قانون الإصلاح الزراعي، وذلك بتوزيع الأراضي على الفقراء والمعدمين، وقال إن الأراضي لمن يزرعها، وكان العمال يشعرون بالفخر لأنهم أصبحوا شركاء في امتلاك رؤوس الأموال.

وملأت المستشفيات أرجاء مصر، وكان العلاج مجانًا، أما المدارس فكانت تظهر واحدة منها كل ثلاثة أيام، ويصدر كتاب كل ست ساعات وملأ التحدي الذي واجهته الثورة وقائدها بشأن السد العالي نفوس المواطنين بالكبرياء والعزة، كلها مشاريع ثورية جعلت المناخ العام جديدًا ومُحتملاً في ذات الوقت ويحمل الكثير من التفاؤل في غد أفضل.

وكانت رمانة الميزان في هذا المناخ الجديد تدور حول مبدأ تكافؤ الفرص، الذي جعل الناس - جميعًا- سواسية، لكل منهم نفس الفرصة في المأكل والمسكن والتوظيف.

واختفت ألقاب «بك»، و«باشا»، و«معالي السيادة»، وأصبحنا كلنا أسياد في مجتمع صحي يتنفس هواء الديمقراطية في طمأنينة.

أما اليوم فنشعر باليتم؛ لأن هذه الأجواء غادرتنا في مصر إلى غير رجعة، فلا مشاريع كبرى، ولا مبدأ تكافؤ الفرص، ولا اشتراكية، فالثروات هي المحل الأول والأخير في

السياسة والاقتصاد والاجتماع، واختفت الطبقة الوسطى، وعادت مصر إلى مجتمع النصف في المائة كما كانت قبل الثورة، وأصبح الكثيرون مُهددين بالموت جوعًا وعطشًا ومرضًا.

بكلمات أخرى اندثرت ملامح ثورة يوليو 1952م، ولم يعد يذكرها أحد، والعجيب أن أبناء الطبقة التي استفادت منها هم الذين يحاربونها في كل مكان، ويمسحون أكمل من ذاكرة الأجيال إنها واحدة من أعاجيب مصر في القرن الواحد والعشرين.

باختصار لديَّ قناعة بأن جيلاً بعينه من أجيال مصر تآمر على الثورة، ووضع الخطط لإجهاضها، فخسر وخسرنا، وحل علينا جميعًا الخراب.

▪▪ متى نبرأ من داء العسكرة ..؟! [1]



1918 - 1970

بمناسبة الحديث عن عبد الناصر، حيث تخرج الجرذان من الجحور تسب وتلعن زمنه ومرحلته، وتحمله الجزء الأكبر من الخيبات التي تملأ حياتنا في السياسة والاقتصاد والاجتماع.

أقول بعيدًا عن الخوض في مسائل أراد لها عبد الناصر أن تكون شيئًا فصارت شيئًا آخر، فالتعليم مثلاً جعله عبد الناصر كالماء والهواء، ولكنه أصبح كالذهب والأحجار الكريمة لا يحصل عليه إلا الأغنياء وأصحاب الثروات.

وأرد تحرير الاقتصاد المصري من الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، فأصبح في قبضة الانتهازيين والرأسماليين، وأراد لعبد الناصر لمصر والأمة العربية الاستقلال التام، فأصبح الحال غير الحال وملأت القواعد العسكرية الأمريكية والفرنسية الأرجاء من المشرق إلى المغرب ومن البحر إلى الخليج..!

وعلى أية حال هذا ما كان يريده الرجل فاتجهت به المقادير إلى إرادات أخرى، وأصبح عبد الناصر من وجهة

(1) د. سعيد اللاوندي: الانقلاب على عبد الناصر – قضايا وإشكاليات، المرجع السابق.

نظر الكثيرين معلونـًا، كما أصبحت أفكـاره حـول القوميـة العربيـة، وتكـافؤ الفـرص، ومبدأ «كلنا سيد في ظل الجمهورية» أفكارًا بالية تجاوزها الزمن.

وليكن ذلك مادامت قد ارتاحت قيادات اليوم لهذه الأحكام وتلك الصياغات، لكن ما يلفت الانتباه أن الناس في بلادي قد تعاملوا مع إرث عبد الناصر بطريقة لا تخلـو مـن خبث وعدم أمانة وانتهازية، والمثال عندي هو مسألة عسكرة الوظائف التنفيذيـة العليـا من رئاسة حي أو مدينة وانتهاءً بمنصب المحافظ أو الوزارة.

ففـي زمـن عبـد الناصر، واستنادًا إلى مبررات قد لا تكون مقنعة – ولكن مـا حـدث حدث– كان مبدأ أهل الثقة يجبُ كل المبادئ الأخرى ويكـاد يلغيهـا تمامًـا، وامـتلأت المناصب النافذة بالعسكر من كل صنف ومن كل لون.

وسؤالي الآن: إذا كانت أفكار عبد الناصر تثير القيء والغثيان في نفـوس أهـل الحـل والعقد اليوم، فلماذا إذن تتمسكون بهذا المبدأ الناصري المقيت..؟!

أم أن عبد الناصر – في هذه الحالة– كان رجـلاً سابقـًا لعصـره، ومفكـرًا مـن طـراز وطني رفيع..؟

غريب أمر الناس في بلادي..! فعبد الناصر لـيس إلا شيطانـًا مريـدًا، إذا كـان الأمـر يتعلق بإنصاف الفقراء، ومجانية التعليم، وتعزيز الكرامة، وتوزيع الثـروة عـلى الشـعب، وتكافؤ الفرص أمام القانون، السفير وابن الحقير دون فروق أو درجـات، ثـم هـو – أي عبـد الناصـر– يصـبح فجـأة مـلاذا إذا تعلـق الأمـر بمبـادئ يسـتفيد منهـا الطـامعون، والانتهازيون، والراغبون في تكويش الثروات على حساب الشعب.

لماذا هذه الانتقائية التي تمثل إدانة لعصور الزعيم عبد الناصر..؟ إنه سؤال لا يجـرؤ أحد من الكبار الإجابة عليه، فاللعاب يسيل دائمًا نحو التموقع والتبوأ واعـتلاء المكـان الصلب، وفي هذه الحالة فإن العسكرة تعلو ولا يعلو عليها، وهنـا يسـتحق عبـد الناصـر الدعاء والشهادة له بأنه كان «جنرالاً» صاحب رؤية استراتيجية صـالحة لكـل العصـور، إنه نفاق مقيت لكن هذا هو واقع الحال.

ثم هناك مبدأ آخر أخذ به عبد الناصر، وله في ذلك كل الحق، ويتعلق بنسبة الــ 50٪ عمال وفلاحين، والسؤال الآن لماذا تعدُّ هذه النسبة التي يبدو ظاهرها الديمقراطيـة أمـا

باطنها فهو أشر أنواع الاستبداد، وللإنصاف يجب أن نذكر أنها صيغة «همايونية» وغير محددة الملامح، خصوصًا إذا دخلنا في باب التعريفات أو التصنيفات، وما معنى العامل..؟ وما معنى الفلاح..؟... إلخ.

لكن يتمسك بها أهل الحل والعقد، ويحمدونها لعبد الناصر كثيرًا؛ لأنها تضمن تمرير ما يشاءون من قرارات؛ إذ يكفي أن يضرب الجالس على المنصة بالخشبة التي تلمع في يده ويقول «موافقة» ويطأطأ منهم الـ 50٪ عمالاً وفلاحين رؤوسهم في إشارة للطاقة والثقة وعدم التردد.

والتناقض الواضح هنا أن السنوات الأربعين الماضية شهد - بما تقول التقارير- طفرة في التعليم، وتقلصت نسبة الأمية، وأصبح الشعب المصري قارئًا بامتياز، وجامعات مصر العامة والخاصة تقذف - كما مصانع الزبادي- الطلاب وهم يحملون شهادات التخرج، وهي دلالة على أن مساحة الوعي أصبحت عريضة وممتدة، أقول إذا كان ذلك كذلك، فلماذا الإصرار على هذه النسبة المقيتة التي لا يوجود لها في أي دولة من دول العالم..؟

أما عساه يكون التبرك بعبد الناصر، الذي يكون في هذه الحالة أشبه بأولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب.

يا قوم إن تجربة عبد الناصر لها ما لها وعليها ما عليها، وإن كنتم صادقين مع أنفسكم وشعبكم فاكشفوا عن تجربتكم الخاصة، واتركوا ملف عبد الناصر في ذمة التاريخ.

كونوا شجعانًا وارحمونا من العسكرة التي سدت علينا كل المنافذ، وادفعوا بنسبة الـ50٪ عمالاً وفلاحين إلى المتحف(1).

(1) د. سعيد اللاوندي: الانقلاب على عبد الناصر - قضايا وإشكاليات، المرجع السابق.

▪▪ الطريق إلى الملك فيصل [1]



1918 - 1970

لم يكن اللقاء بالرئيس عبد الناصر مخططًا، كما لم أسع إليه لا في المرة الأولى ولا فيما بعد، وبالمثل فإنني لم أسع للقاء الرئيس السادات، أما الرئيس حسني مبارك فقد عرفته وهو ضابط وقائد بالقوات الجوية، وظلت العلاقة مستمرة بعد أن أصبح نائبًا لرئيس الجمهورية ولكنها تراجعت بعد أن صعد إلى مقعد الرئاسة.

وإذا ما عدت إلى الخلف وحاولت العثور على نقطة بداية لكل ما جرى وما عشته من أحداث يمكن تبين علامات على الطريق، لم يكن من الممكن قراءتها وقتذاك، والآن أجد أن الحياة سلسلة متصلة من الحلقات كل منها تفضي إلى الأخرى دون أن تبوح بالمجهول أو بما هو قادم، حتى الطموحات والأحلام والأماني لم تكن تشي بشيء، فالكل يملكون أحلامهم الخاصة والعامة، والكل يحاول الوصول إليها أو لا يحاول ويكتفي بامتلاك الأحلام أيًا كانت عظمتها أو تواضعها.

(1) عبده مباشر: أنا وعبد الناصر والسادات سطور من السيرة الذاتية، مكتبة دار المعارف، 2017م، ص7-14.

وعالم أحلامي منذ البداية ارتبط بقضية الوطن والتحرر من الاستعمار، في ذلك الوقت كان الطرح بسيطًا، إن مشروع النهضة والتقدم سيبدأ وينطلق بقوة بعد القضاء على الاستعمار، أي أن مقاومة المستعمر الإنجليزي هي الطريق للانعتاق والانطلاق.

وعاش جيلي يحمل ويعمل من أجل التحرر من الاستعمار، وكان المناخ آنذاك هو التظاهر.

وكتلميذ بالمرحلة الابتدائية كنت أكتفي بالمشاركة في المظاهرات التي تخرج من المدارس الثانوية لتسير في شوارع مدينة الزقازيق، وفي بداية المرحلة الثانوية التي عشتها بمدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية التي كان بها سنتان من مرحلة الدراسة الثانوية، السنة الأولى والسنة الثانية، مرت مظاهرة خرجت من مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية وعبرت بحر مويس حتى وصلت إلى أسوار مدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية والكل يهتف «يحيا اتحاد الطلبة».

كنا في الفصول والدراسة مستمرة والمدرسون ينصحوننا بالاستمرار في الدراسة، وعدم الالتفات إلى المظاهرة إلا إنني غادرت مقعد الدراسة وهتفت «يحيا اتحاد الطلبة» فخرج الفصل معي في مظاهرة، وتمكنا من إخراج باقي الفصول وانضممنا إلى مظاهرة الزقازيق الثانوية، وأفسح لي قادة المظاهرة الكبار مكانـًا للاشتراك في القيادة، وكانت المرة الأولى التي أقود فيها مظاهرة ولم تكن الأخيرة.

وعندما أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء في أكتوبر عام 1951م إلغاء معاهدة 1936م بدأت عمليات فدائية في منطقة القناة للضغط على قوات الاحتلال من أجل أن ترحل، كنت بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية، فتوجهت للتطوع بكتائب حزب الوفد التي رأيت أنها الأنسب بالنسبة لي.

ورغم صغر سني «14 عامًا» تم قبول تطوعي ورحبوا بي باعتباري زعيمًا صغيرًا؛ أي أنه لولا قيادتي لمظاهرة مدرسة الزقازيق ما قبلوا تطوعي.

حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشي بشيء مما هو قادم، وبعد مرحلة تدريبية قصيرة اشتركت في العمل الفدائي، في البداية شاركت في نقل الأسلحة والذخائر، ورأى القادة أنني يمكن أن أشارك في العمليات الفدائية بشكل مختلف، فانتقلت لمرحلة الاشتراك

في العمليات العسكرية ضمن القوة السائرة أو قوة الحماية، بعدها شاركت في عمليات الاقتحام وذاع صيتي باعتباري الأصغر سناً بين الفدائيين بمنطقة القناة، والأكثر جرأة وربما كان ذلك لأنني صغير السن لا أحسب العواقب جيدًا، وبعد معركة الإسماعيلية التي هاجمت فيها قوات الاحتلال الإنجليزي مبنى مديرية الإسماعيلية وقوات الشرطة والأمن في 25 يناير 1952م، واحتراق القاهرة في اليوم التالي توقفت الأعمال الفدائية بمنطقة القناة، وعاشت مصر مرحلة من المخاض اليوليوي.

وكان المحور الثاني في عالم اهتماماتي هو القراءة، وقبل أن أحصل على شهادة التوجيهية وإتمام الدراسة بالمرحلة الثانوية، كنت قد تمكنت من قراءة معظم الكتب الموجودة بمكتبة البلدية «المكتبة العامة» بالزقازيق، بالإضافة إلى مكتبة المدرسة، وقد أقام الأستاذ عطية السيد مدرس اللغة العربية والمشرف على المكتبة حفل تكريم لي حضرها النظر والمدرسون وممثلون من التلاميذ لمختلف السنوات الدراسية، وتم إهدائي مجموعة من الكتب، وأقر الجميع أنها المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك.

هذا الاستغراق في القراءة وهذه العوالم المبهرة للكلمة والسياحة عبر الصفحات التي لم تعرف التوقف في عالم المعرفة والأفكار شجعني على التردد على ندوات الكبار بالقاهرة، العقاد، مندور، نادي القصة، النادي الثقافي بجاردن سيتي، نجيب محفوظ، القباني كلما كانت الفرصة متاحة.

والأهم كانت بداية التساؤل، ولماذا لا أحاول الانضمام إلى عالم أهل الكلمة..؟ ولماذا لا أحاول أن أكون صحفيًا..؟ وكانت تلك نقطة البداية في حلم الالتحاق ببلاط صاحبة الجلالة، وعلى امتداد سنوات الأحلام لم تتوقف محاولاتي إلا بعد الانضمام لأسرة جريدة الأخبار، ولم يكن هناك من أبناء العائلة من فكر في اختيار الصحافة مهنة من قبلي، وهذا ما جعلني أول أفراد الأسرة في بلاط صاحبة الجلالة.

ليس ذلك فقط بل لم يكن هناك خال أو عم أو قريب أو صهر أو نسيب يمكن أن أستفيد من خبرته أو أن يقدم لي يد المساعدة؛ لذا لم يكن أمامي سوى الاعتماد على الله وعلى نفسي إذا ما أردت الاستمرار والنجاح، ولقد كنت راغبًا في النجاح بكل خلية وكل ذرة في كياني، كما كنت في الوقت نفسه أخشى الفشل جدًا، ولم يكن أمامي سوى العمل

بكل ما أملك من طاقة، بل وبما يجاوز حدود هذه الطاقة، كانت المنافسة شديدة الشراسة فالمهنة مهنة منافسة والسوق مفتوحة، ولم تكن قرارات تأميم الصحافة قد صدرت بعد.

وكان النجاح هو طريق الصعود، وكانت نماذج النجاح عديدة كلها سارت على الدرب بالعمل والكفاءة والذكاء والموهبة، وكان الجميع يقولون لنا إن الموهبة تشكل 1٪ فقط، أما المثابرة فتشكل 99٪ هذه إذن معادلة النجاح، المثابرة والموهبة وفي ظل هذه المنافسة المشروعة في مهنة لا تعرف الأقدمية والدرجات، كان الكل يعمل ويسعى للنجاح ووضعت نصب عيني أن أعمل أكثر من الآخرين، وأن أتجنب الوقوع في الأخطاء قدر الإمكان، وقد كان، كنت أعمل لأكثر من 16 ساعة يوميًا، فبعد جولة الصباح والظهيرة بحثًا عن الأخبار والمعلومات أنضم إلى الفريق الذي يساعد نائب رئيس التحرير المسئول عن إصدار الجريدة، ولا أغادر المبنى إلا بعد صدور الطبعة الأولى.

هذا الحرص الفائق على النجاح، والخوف الكبير من الفشل، ومتابعة الجميع للجهد الذي أبذله كان وراء ترشيح مجلس التحرير لي بالإجماع للسفر إلى المملكة العربية السعودية بعد توقيع كل من الرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل اتفاقية جدة في أغسطس 1965م لإنهاء الصراع العسكري في اليمن؛ لإعداد مجموعة من التقارير والتحقيقات عن الموقف والأوضاع عقب هذه الخطوة الرئيسية.

وهذا القرار فتح لي باب للقاء الملك، وبسبب الحوار الصحفي مع الملك، كان اللقاء مع الرئيس عبد الناصر لأول مرة، حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشي أو تبوح بأي شيء، خطوات على طريق الأقدار لا يمكن لبشر تقديرها أو التنبؤ بها.

أما المحور الثالث للاهتمامات فيرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمحور الثاني، فقد كشفت لي قراءة تاريخ مصر الارتباط بين الانتصارات العسكرية والازدهار، والعكس صحيح أي الارتباط بين الهزائم والانكسار، ودون الاستغراق في التفاصيل سنكتفي بالإشارة إلى أن سنوات الانتصارات العسكرية لجيش محمد علي باشا كانت هي السنوات المضيئة في عصره، وهي التي شهدت بناء قواعد النهضة المصرية الحديثة بكل جوانبها العلمية والتعليمية والثقافية والصناعية والزراعية والاجتماعية.

وعندما ذاقت مصر طعم الهزيمة بعد اشتراك القوى العسكرية الأوروبية في تدمير الأسطول المصري في نافارين عام 1827م وإرغام الجيش المصري على الانسحاب من الشام والتقوقع داخل حدود مصر، وفرض معاهدة لندن 1840م على والي مصر الشجاع بدأت سنوات التراجع والانكسار الداخلي.

وتكرر الأمر في عصر إسماعيل باشا، فقد تحركت قواته للاستيلاء على كل من زيلع ومصوع وسواكن على شاطئ البحر الأحمر الغربي، ووفرت الحماية لعمليات استكشاف منابع النيل فبدأت سنوات الازدهار من جديد وانطوت الصفحة في عصر ابنه الخديو توفيق باحتلال الإنجليز لمصر عام 1882م.

وعاد الجيش المصري إلى صدارة المشهد بالعمليات العسكرية في السودان، وواكب ذلك وأعقبه ثورتا مصطفى كامل وسعد زغلول وإصدار دستور 1923م، فعادت مصر لتواصل السير على طريق بناء مشروعها النهضوي الذي بدأه محمد علي باشا، وعندما بدأ الصراع العسكري المصري الإسرائيلي في إطار الصراع العربي الإسرائيلي، وواجهت مصر الهزيمة في معركة 1948م بدأت الشروخ في الجسد المصري.

وكان هذا المحور وراء اختياري العمل في القطاع العسكري بجريدة الأخبار دعمًا للقوات المسلحة وأحلام الانتصار الذي سيقود مصر للازدهار من جديد.

وهذا التخصص فتح الباب لعلاقات وطيدة مفتوحة بقادة وضباط القوات المسلحة، والمهم لقبول تطوعي بالصفة المدنية بقوات الكوماندوز والمجموعة (39) قتال بعد نكبة يونيو 1967م للعمل خلف خطوط العدو في سيناء المحتلة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن طلب التطوع كان السبب في الاقتراب للمرة الثانية من عالم الرئيس عبد الناصر، فبعد أن رفض الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية طلب تطوعي، قرر اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية عرض الأمر على الرئيس عبد الناصر الذي وافق عليه.

والانخراط في العمل الفدائي لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي هو الاستمرار المنطقي للاشتراك في مواجهة قوات الاحتلال الإنجليزي عام 1951م، وهذا التخصص هو الذي أتاح لي الاقتراب من المشير عبد الحكيم عامر وأنور السادات، وبناء علاقة

بحسني مبارك، بالإضافة إلى كل من الملك فيصل، والملك فهد، والمشير عبد الله السلال، ونائبه الفريق حسن العمري، والعقيد معمر القذافي، ونائبه جلود، وباقي قيادات الثورات الليبية، وياسر عرفات، وصدام حسين، والشيخ زايد، وأمير الكويت، وتيتو، وسوهارتو، وماوتسي تونج، وأولبريشت، وهيلموت كول، وغيرهم.

وبما أن لقاء الملك فيصل كان السبب في أول لقاء لي مع الرئيس عبد الناصر سأعود إلى أوراقي لأروي حكاية هذا اللقاء.

اجتمع مجلس تحرير الأخبار صباح اليوم التالي لتوقيع اتفاقية جدة، وكان من بين القرارات التي اتخذها بالإجماع سفري إلى السعودية لمتابعة الموقف السعودي من تنفيذ الاتفاقية التي استهدفت حل المشكلة اليمنية التي بدأت بانقلاب السلال على حكم أسرة حميد الدين يوم 26 سبتمبر 1962م، ثم تحولت إلى مستنقع لاستنزاف مصر ماديًا وبشريًا.

وهنا يجب أن نشير إلى أن مصر كانت تخسر يوميًا أكثر من خمسة ملايين دولار بجانب خسائرها من الأفراد والأسلحة والمعدات، وأدى التدخل العسكري المصري الذي بدأ في أعقاب نجاح الانقلاب العسكري إلى تدخل أطراف أخرى إقليمية مثل المملكة العربية السعودية، وإيران، والأردن، وإسرائيل، وعالمية مثل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وأصبح الهدف الرئيسي لكل هذه القوى هو حصار التدخل المصري واستنزاف عبد الناصر ونظامه.

وفي وقت قصير نسبيًا تسلمت من إدارة الأخبار تذكرة السفر «وفاوتشر» يسمح لي بالتنقل داخل المملكة على طائرات الخطوط السعودية، وبدل السفر، وبطاقة للاتصال التليفوني بالجريدة دون سداد نقود بالخارج **(Collect)**، وكان تقديري أنني سأحصل على التأشيرة دون إبطاء إلا أن السفارة السعودية احتاجت ما يقرب من ثلاثة أشهر لكي أحصل عليها.

وقبل الوصول إلى جدة سألت عن الفنادق الموجودة بها فأخبروني بوجود فندقين الأول «الكندرة»، والثاني «قصر البحر الأحمر»؛ ولأن الأخير كان يطل على البحر وقريب من السوق الرئيسي بالمدينة فقد اخترت الإقامة به، وبعد أن أقمت في جدة تبينت أنني

الصحفي المصري الوحيد الموجود بالسعودية والمكلف بمثل هـذه المهمـة، وبالتـالي كنت على بينة من أن السلطات ستفرض رقابة على تحركاتي واتصالاتي التليفونيـة بسـبب الحذر والشك في صحفي يعمل في صحافة عبد الناصر الذي عادى المملكـة، بـل وكـل نظم الحكم الملكية باعتبارها نظمًا رجعية تقف في معسكر الإمبريالية، ومع ذلـك كنـت في حاجـة إلى لقـاء كـل المسـئولين سـواء مـن داخـل الأسـرة السـعودية أو خارجهـا الموجودين في جدة قبل الانتقال للعاصـمة الريـاض للقـاء الملـك الـذي يعـد الهـدف الرئيسي لهذه المهمة الصحفية.

وفي جدة التقيت بـالأمير عبـد الله الفيصـل الابـن الأكبـر للملـك والشـاعر الكبيـر، والشيخ كمال أدهم شقيق زوجة الملك ومدير المخابرات السعودية، بالإضافة إلى عـدد من الوزراء الموجودين بجدة، ورجال الأعمال وفي مقدمتهم سالم بن محفـوظ المالـك الرئيسي للبنك الأهلي السعودي، والذي يعد في قائمة الرجال الأكثـر ثـراء في المملكـة، والذي يلعب دورًا رئيسيًا في المجال الاقتصادي.

كما التقيت بالمالك صاحب النسـبة الأكبـر مـن رأسـمال الفنـدق، رجـل الأعمـال المصري وعميد الجالية المصـرية بالمملكـة حسـن آدم، وعـرض عـلي التوسـط للقـاء الملك ولكنني أخبرته أنني أفضل أن أسلك الطريق إلى هذا اللقاء وحدي وعبر القنوات الرئيسية بالمملكة خاصة وزير الإعلام، ثم علمت فيما بعد أن آدم عديل الملـك فيصـل وصاحب مركز متميز داخـل الأسـرة الملكيـة، وفي مكتبـه التقيـت بالفنـان سـعد عبـد الوهاب الذي اختـار الإقامـة لفتـرات طويلـة بالمملكـة وبفنـدق قصـر البحـر الأحمـر، واصطحبني الفنان الكبير لسهرات في بيوت عـدد مـن الأمـراء السـعوديين، وكثيـرًا مـا تحولت هذه السهرات إلى ندوات ثقافية تمتد حتى ساعات الصباح الأولى.

واللافت للنظر أن أحدًا من الحاضرين لم يطرح قضية سياسية للنقـاش، بـالرغم مـن تعدد السهرات والمجاملات.

وكانت المجاملة والتحفظ طابع معظم هذه اللقاءات باستثناء اللقاء مع الأميـر عبـد الله الفيصل والشيخ كمال أدهم، وقد حرص الأمير والشاعر عبد الله طـوال اللقـاء عـلى اختيار كلماته وهو يعبر عن موقفه من عبد الناصر ونظامه، وعلى الفصل دائمًا بين مصـر

وحاكمها، وعلى تأكيد صداقته بعدد كبير من المثقفين والفنانين والكتاب والصحفيين المصريين.

وقد توقف الحوار بيننا عندما قال إنه مستعد للإنفاق حتى آخر هللة «مليم تقريبًا» من ماله حتى يركع عبد الناصر، وكانت إجابتي «أن عبد الناصر لن يركع»، والمثير للدهشة أن الحوار مع الشيخ كمال أدهم انتهى بنفس الصورة، فقد قال الجملة نفسها التي قالها عبد الله الفيصل ولم تختلف إجابتي.

كان الرجلان حادين في عدائهما للرئيس عبد الناصر، ولم يحاولا إخفاء هذا العداء ولم يناورا، وحمدت لهما شجاعتهما الأدبية ورأيت أن هذا الموقف هو أول القصيدة، وأن اتفاقية جدة أو عشر اتفاقيات من هذا النوع من الصعب أن تحقق أي نجاح على أرض الواقع، وكان تقديري خاصة بالنسبة لكمال أدهم أنه رجل يعلم حقيقة اتجاهات السياسة السعودية، وإن لم يكن يقبض بيديه على بعض خيوطها من خلال موقعه المتميز على رأس جهاز المخابرات العامة السعودية، وأيقنت أن وقت التوجه إلى الرياض قد حان.

وهناك بالعاصمة التقيت بالشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام وقتذاك، وحاول الرجل إقناعي بقبول استضافة المملكة لي، واعتذرت موضحًا إنني كصحفي مصري في صحافة مملوكة للحكومة أفضل أن أتحمل تكاليف إقامتي من باب الحذر والوقاية من شكوك أجهزة الأمن القوية.

كما أن المسئولين بالقاهرة قد يسيئون فهم قبولي هذه الضيافة، فتفهم الرجل وابتسم ثم حاول تقديم هدية لي كانت تحمل وقتذاك اسم «خلعة» عرفت فيما بعد أنها تضم سبحة وعباية فخمة ومبخرة وطاقم أقلام وسجادة للصلاة ولكنني اعتذرت برقة شديدة.

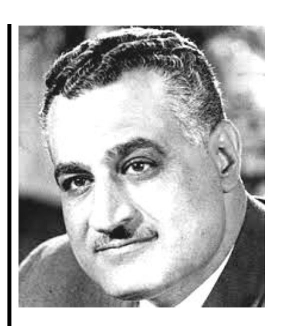
وبعد حوار حول اتفاقية جدة التزم فيه الرجل بالموقف الرسمي، ولم يحاول أن يخصني بمعلومات من تلك التي يطلب فيها المسئولون عادة عدم نشرها لأنها للعلم فقط **Offrecord**، وطلبت منه أن ألتقي بالملك، فقال ببساطة اذهب والتقي بالملك، ودق الجرس فحضر سكرتيره فطلب منه أن يصحبني المرافق لي الآن إلى القصر

الملكي، والتفت إليَّ مودعًا وداعيًا لي بالتوفيق.

وأمام القصر توقفت السيارة، وقال المرافق السعودي إنه يمكنني الدخول ولقاء الملك وتركني وانصرف.

وأمام هذه المفاجأة التي لم أتوقعها كان عليَّ أن أتخذ قرارًا إما الدخول الآن وإما العودة إلى وزارة الإعلام أو العودة إلى الفندق، وبما أنني أمام القصر، وبما أن الوزير والمرافق أوضحا لي أنه يمكنني لقاء الملك فقد قررت الدخول والتصرف وفقًا لما سوف أواجهه داخل القصر الملكي من مواقف.

▪▪ حوار مع الملك فيصل [1]



1918 - 1970

عندما طلبت من الشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام السعودي مقابلة الملك فيصل من أجل إجراء حوار صحفي للنشر بجريدة الأخبار المصرية، وافق الرجل فورًا وتصورت أنه سيجري اتصالاً بالقصر الملكي لتحديد موعد لهذا اللقاء، وقبل الموعد سيمر علي المرافق السعودي بالفندق بالفندق ليصحبني للقاء الملك، وسينتظر بمكتب رئيس الديوان الملكي إلى أن ينتهي اللقاء ليعود بي إلى الفندق أو للقاء الوزير أو للقاء الوزير، إلا أن كل ذلك لم يحدث وقال لي الوزير اذهب وقابل الملك، وطلب من المرافق أن يصبحني إلى القصر الملكي.

وهناك أمام بوابة القصر قال لي المرافق ادخل وقابل الملك وتركني وانصرف، ومن قلب الدهشة والحيرة والمفاجأة قررت أن أدخل القصر وليكن ما يكون، واجتزت البوابة الرئيسية والحديقة الصحراوية التي تضم عددًا من أشجار النخيل والنباتات الشوكية وبقايا مساحات خضراء طغت عليها الرمال، ثم دلفت من الباب الرئيسي وأنا أتعمد

(1) عبده مباشر: المرجع السابق، ص15-23.

عدم النظر إلى من ألتقي بهم، وكان اللافت للنظر عدم وجود حراسة أو أفراد أمن أو أسوار أمنية لمنع الدخلاء مثل تلك التي أعرفها في مصر.

وسرت قليلاً في الممرات فوق سجاد أحمر اللون، وقلت لنفسي سوف أعرف مكان مكتب الملك ومكاتب المديرين من خلال هذا السجاد، وحرصت على ألا أسأل أحدًا حتى لا أواجه بسؤال أو بأسئلة من أي نوع، ولكن كان واضحًا لكل من يمرون بجواري أنني لست سعوديًا لأنني الوحيد الذي يرتدي حلة وربطة عنق ويحمل جهاز تسجيل على كتفه، ومع ذلك لم أسأل أو أستفسر وواصلت السير في الممرات، وفي إحداها وجدت أن السجاد ازداد سمكه فاستنتجت أنني بالممر الذي يقود إلى مكتب الملك، وما أن سرت قليلاً حتى وجدت نفسي أمام مكتبين متقابلين أحدهما له باب جانبي؛ أي على ممر آخر وبابه مفتوح، أما الآخر فبابه مغلق.

فأدركت أنه مكتب الملك، أما الثاني المفتوح فمكتب مدير مكتبه، وكان اسم الرجل قد تردد كثيرًا في لقاءاتي السابقة باعتباره المسئول عن مكتب الملك، وقررت أن أدخل المكتب وسألت الجالس عليه عن الشيخ أحمد إبراهيم فقال إنه هو، فقدمت نفسي إليه فطلب مني الجلوس وأمر بالقهوة، وكلما انتهيت من شرب هذه الرشفات من القهوة العربية قدموا لي المزيد، وطال الوقت قليلاً فتوجهت إلى مكتب الرجل لأسأل متى سأقابل طويل العمر جلالة الملك، فطلب مني الانتظار مع وعد بأنني سأقابله.

وجلست مع الجالسين الذين تزايد عددهم، وبعد فترة فتح الشيخ الباب المطل على الممر الرئيسي والمواجه لمكتب الملك الذي كان مفتوحًا، وطلب من الجميع أن يتفضلوا إلى مكتب طويل العمر، ووجدت أن من دخلوا قد جلسوا على المقاعد الجانبية بالمكتب المتسع المساحة الذي يتصدره المكان الذي جلس فيه الملك.

وظل الرجل يستقبل الحاضرين فردًا فردًا، وبعد أن يستمع إليهم يصدر أوامره همسًا وبما يفيد استجابته لمطالبهم، وبعد قليل قال فليتفضل الصحفي المصري ويجلس بالقرب مني، واتجهت إلى حيث أشار ثم خاطبني قائلاً: إنه سينظر في مصالح الناس إلى أن أنتهي من شرب قهوتي، وحتى لحظة جلوسي بالقرب من الملك ثم بجواره لم يأمر بأي إجراءات أمنية، ولا حتى بمكتب للاستعلامات، ولم يسألني أحد إلى أين..؟ أو من أين..؟ أو من أنا..؟

وأخيرًا أشار الملك لكي أجلس بجواره، وسألني عن أحوالي وكيف أجد الإقامة في المملكة، ومن ثمَّ فتح الباب أمامي لأستأذنه في إجراء حوار معه فأشار إليَّ أن الشيخ جميل أخبره أنني رفضت هدية، فأجبت بسرعة إنني هديتي الحقيقية هي الحوار مع جلالته.

وقبل أن أطرح أسئلتي استأذنته في تسجيل الحوار، وأذن الملك وكانت البداية ما سمعته من الأمير عبد الله الفيصل والشيخ كمال أدهم، فاستنكر الملك ما قالا، ووصف الأول بأنه ولد، وقال عن الثاني أنه تركي لا علاقة له بسياسة المملكة، وكانت بداية غاية في السياسة والذكاء والبراعة والاقتدار، كان الاستهلال رائعًا وتوالت الأسئلة حول الأوضاع في اليمن، واتفاقية جدة، والموقف في العالم العربي وإسرائيل، والقضية الفلسطينية، والنفوذ الغربي في المنطقة، ومستقبل الصراع الإقليمي والدولي حول الشرق الأوسط في ظل الحرب الباردة، أو محاولات الاستقطاب الحادة التي يقودها المعسكران الشيوعي والرأسمالي.

كانت قائمة الأسئلة طويلة، وكنت قد استغرقت وقتاً طويلاً في إعدادها، وكان من الضروري أن أقرأ عشرات الملفات والكتب والدراسات والوثائق، فقد كانت المرة الأولى التي يلوح في الأفق احتمال لقاء وحوار مع الملك فيصل، ولم أكن أريد أن تكون الفرصة المتاحة هي الأخيرة، كنت أتمنى لنفسي النجاح وأن تتكرر المهام التي تقود إلى ما هو أفضل.

وبجانب الاستغراق في الملفات والأوراق، سعبت للتعرف بشكل أفضل إلى شخصية الملك فيصل، خاصة بعد أن تمكن من إزاحة الملك سعود والحلول محله، ولقد كانت هناك أسباب موضوعية من وجهة الأسرة السعودية تتطلب عزل الملك سعود وإسناد المسئولية إلى فيصل، فقد اتسم أداء سعود بالارتجالية والتخبط والتهور منذ أن تفجرت أحداث اليمن، كما كان عاشقاً للذة والنساء ومحبًا للحياة المنطلقة التي لا تعرف القيود، في حين عُرف عن فيصل الحكمة والتقشف والزهد والذكاء.

ولأن فيصل كان مريضًا خاصة بالقرحة المعدية، فقد فرض عليه الأطباء نظامًا غذائيًا خاصًا يخلو من الدهون والتوابل، ويعتمد بشكل أساسي على الأطعمة الخفيفة سهلة

الهضم، مع مراعاة تناول كميات محدودة في كل وجبة، وبجانب هذا النظام الغذائي كان عليه أن يلتزم بحياة معتدلة وبعيدة عن الإغراق في المتع الحسية.

وقد ناسبته هذه الحياة المتقشفة؛ لأنه بطبيعته هادئ ومحب للاستقامة والاعتدال، وكان قد تعلم من ماضيه وخبراته أن يكون كتومًا، وألا يثق في أحد وأن يعمل ويفكر وحده دائمًا، وإن تطلب الأمر كان يلجأ لاستشارة من هم أهل للاستشارة، ومن ميزاته أنه في قراراته لا يعرف الاندفاع أو التهور، وكان باستمرار رجل الأزمات في المملكة، كما كان موضع ثقة والده الملك عبد العزيز.

كل ذلك أسهم في تكوين صورة إيجابية عنه في أذهان الناس بجانب السمعة الطيبة، ومنذ البداية قرر أن يتحرك ويعمل على عدة محاور في الوقت نفسه، ولكن كان عليه أن يجمع كل خيوط السلطة في يده، وألا يسمح بوجود قوى مناوئة أو معارضة سواء داخل الأسرة السعودية أو بين صفوف المواطنين.

بدأ بالأمراء المعارضين أو المناوئين أو هؤلاء الذين سحرتهم دعاوى القومية العربية والأحلام الوحدوية، بجانب الذين أضيروا أو أضيرت مصالحهم من جراء عزل الملك سعود، وبالرغم من أن الرئيس المصري قد استغل الملك سعود وهو بالمنفى في معركته مع المملكة السعودية والملك فيصل بأن استقبل الملك سعود في مصر، واحتفى به حفاوة بالغة، ودفعه للقيام بزيارة اليمن للتدليل على انقسام الأسرة السعودية، وللتلويح لفيصل بقدرته على استخدام سعود للتآمر على العرش السعودي وحرمان فيصل من الإحساس بالاستقرار، فإن الملك السعودي واجه الموقف بكثير من الصمود.

وبذكاء استغل فيصل الخطأ الذي وقع فيه سعود لحصار وعزل ونفي عدد من الأمراء، خاصة من أبناء سعود وأنصاره، ولم يكن عسيرًا عليه تقليص نفوذ عدد آخر من الأمراء المشايعين للعروبة أو المعارضين، خاصة وهو يملك قدرات وإمكانات هائلة لممارسة الضغط عليهم، سواء بسياسة المنح أو المنع أو بتحريك قوى من داخل الأسرة السعودية للتأثير عليهم، مع التلويح بالمخاطر التي تهدد المملكة.

أما بالنسبة لكبرا الأمراء الذي يتحملون مسئوليات مباشرة في الدفاع عن المملكة،

وفي صياغة السياسات وصناعة القرارات، فقد عمد إلى تحقيق توازن في القوى بمنع انفراد أي منهم بالسيطرة على قوة عسكرية، وتوفر له القدرة على ممارسة أي ضغوط أو التلويح بها.

ويعتبر الملك فيصل المهندس الرئيسي لسياسة توازن القوى داخل الأسرة السعودية بل وداخل المملكة، ولما كان سلطان هو وزير الدفاع المسئول عن القوات المسلحة السعودية، فقد كان ذلك يعني أنه القائد الحقيقي وصاحب النفوذ القوي سواء داخل المملكة أو بين أبناء الملك عبد العزيز؛ ولأن فيصل كان في سبيله لعقد صفقات سلاح ضخمة لدعم قدرات القوات المسلحة، خاصة القوات الجوية والدفاع الجوي، وإنشاء قواعد عسكرية خاصة على الحدود الشمالية لليمن، فقد استغل الموقف وضاعف ميزانية وزارة الداخلية لكي تتوسع في مجال القوة البشرية والسلاح والخبرات الفنية والتكنولوجية.

وعلى ضوء هذه السياسة أصبحت القوى العسكرية التابعة لوزارة الداخلية قوة يعتد بها، وفعل مع قوات الحرس الوطني السعودي ما فعله مع وزارة الداخلية، وهكذا أصبحت هناك ثلاث قوى عسكرية في المملكة، على رأس كل منها أمير من أصحاب السطوة والنفوذ، وبهذه القوى المستقلة نسبيًا والموزعة والمنتشرة في أنحاء المملكة والقوية التسليح، وإن لم تكن متكافئة تمامًا تحقق التوازن بالمملكة وداخل الأسرة الحاكمة، وأصبحت كل قوة تنظر للقوة الأخرى بكثير من الاعتبار.

وبهذه السياسة حافظ فيصل على تماسك الأسرة وأمن مخاطر الانقسام أو بروز مركز قوة قادرة على ممارسة أي نوع من الضغوط، أما معركته الأخطر داخليًا فكانت مع جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القوية والمسيطرة استنادًا إلى دورها وتأثيرها الديني، والأهم إلى التحالف القائم بين الأسرة السعودية ومؤسس المذهب الوهابي، والذي شكل نقطة الانطلاق لإنشاء الدولة السعودية في منطقة شبه الجزيرة العربية.

وأهم ما في هذا التحالف تقاسم السلطة بين الطرفين، السلطة الزمنية أو السياسية للأسرة السعودية والسلطة الدينية للشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل الشيخ من بعده أي أسرته.

كان الملك يدرك أن الجماعة تقف عقبة أمام أية محاولة لتطوير وتحديث المملكـة، وأن أي إصلاحات ستواجه بمعارضة قوية وواسعة النطاق مـن جانـب هـذه الجماعـة، وكان قراره ضرورة المواجهة، وما أن اعترضت الجماعـة عـلى خطتـه الخاصـة بتعلـيم البنات حتى أمر بوقف مخصصاتها المالية، ومضى في طريقه وأمر بفتح أبواب المدارس أمام البنات، وبتوفير الحماية الكافية لهن ولأهاليهن، ومعاقبة كل من يحاول من أعضاء هذه الجماعة التعرض لهن أو الاعتداء عليهن بأية صورة من الصور.

وأدركت الجماعة أنها تخوض معركة وجود ضد الملك فيصل، ولم يكن مطروحًا أن تستسلم أمامه وأمام أفكاره التـي تـرى أنهـا تتعـارض مـع التقاليـد الراسـخة للمجتمـع السعودي بل ومع الدين من وجهة نظرها، ومع ذلك لم يكن أمام الجماعة سوى التراجع حرصًا على المخصصات المالية، وكسب فيصل هذه الجولة.

وسرعان ما دقت المعركـة الثانيـة الأبـواب، وكـان ميـدانها الإذاعـة، ومنـذ عرفـت السـعودية البـث الإذاعـي ظـل الأمـر مقصـورًا عـلى إذاعـة القـرآن الكـريم والتفاسـير والأحاديث النبوية والشروح الخاصة بالمذهب الوهابي، وبمثـل هـذه الإذاعـة لم تكـن ممكنـًا للسعودية أن تثبت في مواجهة أعاصير الإذاعة المصرية أو غيرها من الإذاعـات، خاصة بعد أن انتشرت أجهزة الراديو الرخيصة السعر.

ولم يكن الملك فيصل ليقبل أن يترك المـواطنين السـعوديين لقمـة سـائغة للإعـلام الناصري، فأمر بتطوير الإذاعة، وبدأ بإذاعة أغاني للمطربين الرجال خشية أن يثير صوت المطربات مشكلة يصعب مواجهتها في تلك المرحلة المبكرة من خطة التطوير.

كانت القضية مرتبطة بالأمن القومي السعودي، وبالصـراع مـع كـل القـوى العربيـة والإقليمية المناوئة صاحبة الخط الثوري الذي يستهدف القضاء على الممالك العربية لا المملكة السعودية فقط، باعتبارها قوى رجعية تخدم مصالح الاستعمار والإمبرياليـة، لم تكن القضية هنا قضية خلاف بين ملك مصلح وجماعة محافظة، بل بين الاستقرار وعدم الاستقرار، بين البقاء وعدم البقاء.

ومن أجل هذه الرؤية الصحيحة سياسيًا واستراتيجيًا وإعلاميًـا خـاض الملـك هـذه المعركة باعتبارها جزءًا من الصراع مع مصر وباقي القوى الثورية العربية.

ولم تبد الجماعة أي ردود أفعال في البداية، بعدها استخدمت الإذاعة مذيعات من الإناث، وكان من بينهن ابنة وزير الإعلام وقتذاك الشيخ جميل الحجيلان، ثم انتهى الأمر بإذاعة أغاني للمطربات ولم يجرؤ أي من أعضاء الجماعة على الاعتراض والصياح بأن صوت المرأة عورة، أو فسق، أو أن الأمر كله مخالف للدين والتقاليد، أو أن الأغاني من عمل الشيطان لأنها تلهي الناس عن الصلاة وعن الذكر خشية من قطع المخصصات المالية بشكل نهائي.

ولكن الجماعة لم تلتزم الصمت عندما بدأوا العمل في إنشاء محطة للإرسال التليفزيوني، فقد تحركت بسرعة وكسبت في صفها عددًا من الأمراء، وخططت للهجوم على المحطة وتدمير الهوائيات الخاصة بها، وكانت الأوامر الصادرة لقوة الحراسة تقضي بإطلاق نيران في الهواء للتحذير والإنذار إذا ما اقترب المهاجمون من مبنى المحطة، بعدها توجه النيران إلى المهاجمين إذا ما استمروا في التقدم.

وعلى مقربة من المبنى سقط أحد الأمراء قتيلاً، وانسحب المهاجمون، وفي النهاية تراجعت الجماعة عن خططها الخاصة بمعارضة الملك علنًا، وهكذا سيطر فيصل على الجماعة وأحكم قبضته عليها، ولجأ الملك إلى سياسة الإنفاق العام ليدعم مكانته وليكسب شعبية لمساندة موقفه وسياساته.

وفي هذا الإطار عمل على توفير الخدمات وبناء المدارس والمستشفيات وإنشاء الطرق، هذه السياسة وفرت آلافًا من فرص العمل، وفتحت الباب أمام شركات المقاولات للإثراء، وهكذا تدفقت أموال سائلة كثيرة إلى جيوب المواطنين، وبما شكل قوة شرائية هائلة أسهمت في إحداث رواج بالسوق.

أما بالنسبة للصحافة فقد خطط الملك للسيطرة عليها بتأميمها عبر قانون للصحافة، كان الملك ينهج نهجًا معاديًا للاشتراكية والفكر الاشتراكي، ومع ذلك لجأ إلى تميم الصحافة وقد قبل بهذا التناقض طالما يحقق له أهدافه المتمثلة في سيطرة تتيح انطلاق حملة قوية على الفكر القومي والتوجه الاشتراكي، ولم تخيب الصحافة ووسائل الإعلام ظن الملك، وشنت هجومًا شرسًا وشاملاً وقويًا على الفكر الاشتراكي، ومزجت بين الاشتراكية والإلحاد، وأوضحت بجلاء أن هذا الفكر ينكر وجود الله والأديان كلها.

وطوال هذه الحملة تجنب وسائل الإعلام الهجوم على القاهرة أو عبد الناصر بشكل مباشر، ولكي يبرز الملك فيصل إقليميًا وعالميًا كحاكم قوي وند لعبد الناصر ونظامه، كان من الضروري العمل على عدة جبهات: الأولى إعلامية عالمية، والثانية عربية، والثالثة إقليمية، والرابعة فكرية وعقائدية.

وعلى الجبهة الإعلامية أبرزت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية الملك فيصل كقائد حكيم يقود نظامًا مستقرًا ودولة رائدة، ويعمل من أجل الاستقرار في العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط التي تغلي بالاضطرابات بسبب تطرف النظم الثورية وحكامها المغامرين الذين يدورون في الفلك السوفيتي.

وبالنسبة للجبهة الغربية عمد الملك إلى دعم النظم الملكية، وإعادة بناء التحالف فيما بينها بشكل يجعل تحركها أكثر فاعلية وتأثيرًا، واستند التحالف إلى توثيق التعاون والعمل المشترك ضد النظم الثورية، وضد الوجود العسكري المصري في اليمن.

وفي الوقت نفسه حرص فيصل على الاحتفاظ بشعرة معاوية مع باقي دول المنطقة التي ليست ملكية والتي عرفت بأنها ثورية، وكان بذلك يحاول إقامة شرخ في العلاقات بينها وبين مصر مستغلاً في ذلك الجفوة بين النظامين السوري والعراقي ونظام عبد الناصر، ومواقف البعثيين في البلدين من الرجل خاصة بعد أحداث الانفصال السوري سنة 1961م، والشكوك العراقية المصرية المتبادلة، والتي ترسخت خلال فترة حكم عبد الكريم قاسم.

وانطلق الحاكم السعودي على المسرح الإقليمي بقبوله دعوة لزيارة إيران، حيث أعد له الشاه استقبالاً حافلاً أراد له أن يحمل الكثير من الدلالات، وأن تقرأ القاهرة أن كل من طهران وإيران يشكلان حلفًا قويًا يقف في وجه مخططاتها وأحلام حكامها الإمبراطورية التوسعية.

خلال الزيارة تقاسم الشاه وفيصل مناطق النفوذ في منطقة الخليج، ولم يقف العاهل السعودي في وجه أطماع الشاه في المنطقة، وفي الوقت نفسه وافق الشاه على دور ونفوذ السعودية.

وفي مجال المعركة الفكرية والعقيدية رفع الملك فيصل بقوة شعار العمل الإسلامي

والإسلام ليواجه الفكر القومي والعمل الوحدوي، وهذا الشعار سبق أن رفعه وتبناه الملك سعود اعتبارًا من عام 1957م.

وبما أن السعودية هي الأرض التي تضم الحرمين الشريفين، الكعبة بيت الله والمسجد النبوي، فقد توفرت لها قاعدة راسخة لرفع وتبني الشعار الإسلامي، وقد وجدت أنصارًا كثيرين بين دول العالم الإسلامي، وما منظمة المؤتمر الإسلامي إلا إحدى تجليات هذا النهج.

وفي هذا الإطار خطت المملكة خطوات واسعة لدعم وتمويل كل القوى والمجالات والمنظمات والأحزاب الإسلامية في دول العالم، ولم تكن مصر بعيدة عن هذا التوجه السعودي بل كانت في القلب منه، وبالوصول إلى هذه المرحلة توفرت الظروف الملائمة للمناورة ضد الرئيس عبد الناصر، واستغلال تورطه في اليمن للضغط عليه وكشف عورات نظامه.

وسرعان ما تبنت السعودية مجموعة من طروحات السلام كمرحلة من مراحل العمل التي تستهدف إحراج مصر وعبد الناصر، وعلى هذا الطريق جاءت اتفاقية جدة عام 1965م، ويمكن القول إن كلا الطرفين لم يكن راغبًا في التوصل إلى حل جذري للقضية، وكان كلاهما يناور لكسب الوقت على أمل أن تتاح له فرصة لتحقيق انتصار عسكري حاسم يجعله في موقع أفضل للمساومة، أو إنجاز على المسرح السياسي يضعه في موقف تفاوضي أفضل.

وخلال الحوار التي أعددت نفسي له طوال الفترة التي سبقت اللقاء، قال الملك فيصل كلامًا طيبًا في حق الرئيس جمال عبد الناصر، ووصفه بأنه يعمل من أجل التقدم العربي ولا يبخل بأي مجهود لإنجاز هذا الهدف، وقال إنه يدرك أن ما يقوله الرئيس جمال في خطبه العامة ليس أكثر من كلام للاستهلاك المحلي، ولا يقصد به أبدًا الإساءة لأي حاكم أو شخصية عربية.

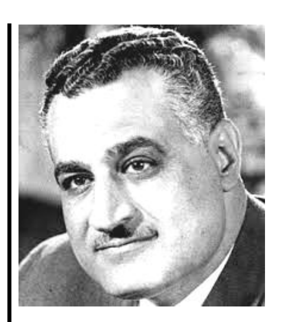
وطوال فترة الحوار ظل يذكر عبد الناصر بكل الخير، ويلتمس له الأعذار، وعن نتائج مؤتمر جدة قال بوضوح إنه حريص مثله في ذلك مثل الرئيس جمال على حل المشكلة اليمنية، التي وصفها بأنها تطورت وأصبحت أكثر تعقيدًا، وطوال الحديث لم

تتغير نبرة الملك وظل هادئـًا ووقورًا ورائعًا ونبيلاً وصبورًا.

وبعد أن طرحت أسئلتي الرئيسـية تبينـت أننـي قـد مكثـت طـويلاً، وأنـه آن الأوان للتوقف حتى وإن كانت هناك أسئلة لم أطرحها بعد، وشكرت الملك بحـرارة وغـادرت مجلسه وأنا أشعر بالامتنان، فالحوار مع الملك فيصل والذي يعد أول حوار مـع حـاكم عربي بالنسبة لي يمثل خطوة رئيسية ومهمة على طريقي المهني، وكنت في تلـك اللحظـة أراه إنجازاً كبيرًا.

ورأيت أن أعجل بالعودة إلى القاهرة، ولكن بعد أن أزور قبر الرسول المصطفى ﷺ، فقد كنت قد اعتمرت أكثر من مرة ولكن لم أقم بمثل هذه الزيارة، ومن الرياض توجهت إلى المدينة المنورة، ومن هناك عدت إلى جدة وعلى أول رحلة طيران، كانـت العـودة إلى القاهرة، كانت الطائرة تحلق فوق السحاب وكنت أحلق في سماء الأحلام والأماني.

▪▪ وجهًا لوجه للمرة الأولى [1]



1918 - 1970

بعد أن تمكنت من إجراء حديث مع الملك فيصل قررت التعجيل بالعودة إلى القاهرة سعيًا وراء نشره، وقطف ثمار هذا النجاح، فالحديث كان الأول للملك منذ اللقاء مع الرئيس لإنهاء المشكلة اليمنية التي استنزفت موارد مصر الاقتصادية، وتحولت إلى مستنقع كبير لمصر وقواتها المسلحة، وبالرغم من اللقاء مع مسئولين سعوديين آخرين، إلا أن التعجيل بنشر حديث الملك هو الأكثر جدوى.

وبتعجيلي العودة كنت أعرف أنني سأفتقد الصحبة الجميلة للفنان سعد عبد الوهاب جاري في الفندق، وكان قد قرر تجربة حظه في السعودية بعد نجاحه في مصر، وكنا نجتمع أحيانًا في المساء مع عدد من أصدقائه من البيت السعودي، وغيرهم من نجوم المجتمع في جدة المصريين والسعوديين، وبمثل هذه الصحبة تضاءلت مشاعر الغربة طوال فترة الزيارة.

***

(1) عبده مباشر: المرجع السابق، ص24-30.

وخلال هذه الفترة كان من الصعوبة بمكان إجراء اتصال تليفوني، وإملاء الحديث أو أي تقارير صحفية، كما أن إرسال المادة الصحفية بالفاكس لم يكن متاحًا لأنه لم يكن قد تم التوسع في استخدامه مثلما هو الحال الآن، ومع أنه كان في إمكاني اللجوء إلى السفارة المصرية لإرساله عبر شبكتها اللاسلكية إلى مقر الوزارة بالقاهرة، ومنها يتم إرساله إلى الجريدة إلا إنني لم أكن أريد للسفارة أن تعرف بما دار بيني وبين الملك السعودي؛ لذا كانت العودة هي الاختيار الأنسب.

وكنت أحمد الله سرًا وعلنًا على لقاء الملك السعودي والفوز بهذا الحديث؛ ولأنه وفقني إلى إنجاز يجعلني أشعر أنني لم أخذل هؤلاء الأساتذة والزملاء الذين رشحوني بالإجماع في مجلس التحرير للسفر في هذه المهمة، ووفقًا لما أجريته من حسابات رأيت أن الحديث صالح جدًا للنشر، بل يعد خبطة صحفية كبيرة خاصة أن ما ورد على لسان الملك فيصل من مديح وتقدير للرئيس جمال عبد الناصر يعد قوة مساندة لفكرة النشر، ومثل هذه الحسابات كانت تفتقد للخبرة الصحفية والفهم الجيد لمجريات الأمور، والأهم فهم شخصية الرئيس عبد الناصر بكل عمقها وأبعادها وجوانبها الظاهرة والخفية.

كان العود مازال أخضر وقد تغلب الطموح والحماس على ما أجريته من حسابات، أما حسابات مصطفى أمين فكانت أكثر عمقًا وأبعد إدراكًا، فقد توقع أن الرئيس سيكون له موقف آخر، والاحتمال الأرجح إن لم يكن المؤكد أنه سيرفض نشر مثل هذا الحديث، وكان مصطفى بك على بينة من أن ما جاء على لسان الملك سيضيء للرئيس أبعادًا كانت خافية عليه، وسيكشف له جوانب جديدة في شخصيته بالإضافة إلى إزاحة الستار عن صور من حنكة فيصل.

أما صورة الملك العف اللسان المتسامح الذي يتجاوز عن الإساءات التي نالت منه علنًا، والتي وردت في خطب الرئيس جمال عبد الناصر ومنها «ننتف ذقنه»، ويزجي المديح في الوقت نفسه لمن أساء إليه ويلتمس له الأعذار، فقد رأى مصطفى أمين بخبرته وفطنته وحصافته وذكائه أنها تدعم صورة الملك فيصل لدى المصريين والعرب، وتضيف إليها عددًا من الصفات الإيجابية، وأن ذلك سيكون خصمًا من رصيد جمال عبد الناصر ومن ثقة الجماهير فيه، كما أن النشر سيجعل من المقارنة، بين

من يشتم ومن يمدح ومن تجري على لسانه الألفاظ النابية والملك العف اللسان، ما لا يريده الرئيس المصري حرصًا منه على صورته الجماهيرية ومكانته، وأيضًا على سياسته وتوجهاته التي تتصادم مع سياسة الملك والمملكة.

لذا قرر إرسال الحديث كما كتبته لكي يطلع عليه عبد الناصر ويقرر ما يراه، كنت جالسًا على مقعد أمام مكتب مصطفى أمين، وأحاول أن أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ ما كتبت، في أحيان كنت أراه مندهشًا وأحيانًا أخرى ينظر إليَّ نظرة سريعة مشفقًا عليَّ، ومرة أخرى معجبًا بتلميذه.

وفي النهاية قال بعد أن أبدى إعجابه بما كتبت، إنه يجب أن يرسل الحديث للرئيس عبد الناصر، وطلب مني ألا أغادر المبنى دون أن أخبره، واستجبت لطلبه، وظللت أترقب نتائج إرسال الحديث للرئيس بقلق وتوتر وخوف وكنت أتساءل أين الخطأ..؟

تبخرت بسرعة أحلام النشر، وتبعثرت ثمار الإنجاز، ولم يبق سوى الوساوس والمخاوف، واستعدت ما كتبت مئات المرات ولم أجد سببًا لما أعانيه من مخاوف، ولكن القضية ليست ما أراه بل ما يراه عبد الناصر، وبعد فترة وجدت أصواتًا كثيرة تنادي، عبده مصطفى بيه عايزك، فصعدت إلى الدور التاسع حيث يوجد مكتبه، وما أن فتحت الباب حتى طلب مني التوجه بسرعة إلى مكتب الرئيس بمنشية البكري.

وطوال الطريق تناوشتني المخاوف وتعددت سيناريوهات هذا الموقف الذي لم أتوقعه، ولم أحسب له حسابًا وكنت بين الحين والحين أطمئن على وجود شريط التسجيل الخاص بالحوار في جيبي، ووجود فواتير الإقامة في كل الفنادق التي أقمت بها خلال هذه الزيارة، سواء في جدة أو الرياض أو المدينة.

وكنت أحمد الله على أنه ألهمني أن أشتري جهاز تسجيل قبل لقاء الملك، واستئذان الملك في تسجيل الحوار، فعملية التسجيل والاعتماد عليها في الكتابة وعدم الخروج عنها، والاعتماد الدائم على ما قاله الملك حرفيًا ستؤكد أنني قابلت الملك، وأن الحوار كما كتبته موجود ومسجل، كما أن الفواتير ستدحض أية ظنون أو شكوك حول الزيارة، وفي النهاية لم أجد أفضل من التسليم لله وقراءة القرآن.

وعندما وصلت منشية البكري، مررت بأسوار الأمن الذي كان لديها نبأ عن وصولي،

ومن صالة أو مكتب انتظار إلى مكتب آخـر إلى أن وصـلت إلى مكتـب سـكرتير الـرئيس الذي استقبلني بحفاوة واضحة، وبعد قليل أي بعد أن فـرغ مـن النظـر في أوراق أمامـه، والرد على عدة مكالمات تليفونية تحدث إليَّ مهاجمًا الحديث الـذي أجريتـه مـع الملـك فيصل بقسوة، ومتهمًا من يفعل ذلك بخدمة السياسة السعودية المعادية لمصر والرئيس جمال.

كان يتحدث وهو يضغط على الحروف والكلمات، ثـم تسـاءل عـن الأسـباب التـي دفعتني إلى ذلك..؟ ولماذا ذهبت أصلاً إلى هناك..؟ ووصل الموقـف إلى ذروتـه عنـدما قال إن السعودية على استعداد لدفع الكثير من المال لكل مـن يقـف موقـف العـداء مـن الرئيس جمال، وآثرت الصمت وإن تساءلت بيني وبين نفسي أهذا هـو أول القصـيدة..؟ وظللت أتقلب على جمر القلق والغضب مما قاله سكرتير الرئيس، وكثيـرًا مـا فكـرت في الرد على هجومه إلا أن الأمر لم يتجاوز حدود التفكير، وبعد فترة لم تطل طلب منـي هـذا السكرتير أن أتوجه إلى مكتب «سيادة الرئيس».

وبعد أن دلفت من الباب وجدت نفسي أمام الرئيس مباشرة، صافحني الرجـل وهـو ينظر بعينيه النافذتين في عيني وكأنه يحاول قراءة ما أفكر فيه، الرجل قوي الشخصية بـلا جدال ويمتلك قوة حضور طاغية، ولكنه آسر وقادر على السيطرة على أفكاره ومشـاعره، وبود شديد وضع يده اليمنى على كتفي الأيسر ومدها لتصل إلى الكتف اليمنى، وتبينـت أن طول قامته ساعده في السيطرة على قدرتي على الحركة، وبشكل يتيح له ضبط خطواتي، وبدأ في السير بخطى بطيئة داخل حجرة المكتب وطلب مني أن أحكـي لـه قصـة لقـائي بالملك منذ البداية.

وبـدأت أحكـي منـذ لحظـة قـرار مجلـس التحريـر، الـذي لم أحضـره، بسـفري إلى السعودية لمتابعة الموقف في أعقاب اتفاقية جدة، وقد حدث ذلك دون طلب منـي بـأي صورة من الصور، بل ولم يكن الأمر مطروحًا أمامي لكي أفكر فيـه أو أطلبـه، وقلـت لـه ربما شجعهم على ذلك ما حققته مـن نجـاح في عمـلي كمحـرر عسـكري، بالإضـافة إلى نشاطي خارج هذا المجال ومثابرتي ووجودي بالجريـدة طـوال سـاعات اليـوم تقريبًـا، ومساعدتي أو تطوعي لمساعدة نائب رئيس التحرير المسئول عن الطبعة الأولى، وتنفيـذ أي عمل يكلفني به إلى أن تدور آلات الطباعة.

ثم قصصت عليه قصة التأشيرة التي تأخرت من شهر أغسطس حتى شهر ديسمبر 1965م إلى أن وصلت، إلى اللحظة التي وجدت نفسي فيها واقفًا وحدي أمام مدخل القصر الملكي بالرياض، وسردت بالتفصيل كيف دخلت القصر، وسرت في ردهاته وممراته إلى أن وصلت إلى اللحظة التي دخلت فيها مكتب الملك وكيفية إجراء الحديث.

وظل الرئيس واضعًا يده على كتفي بمودة شديدة ونحن نقطع حجرة المكتب سيرًا على الأقدام في خط دائري، وبعد أن وصلت إلى النهاية طلب مني أن أعيد عليه ما حدث مرة أخرى، ثم طلب ذلك للمرة الثالثة، كان الرجل يستمع بتركيز شديد ونادرًا ما تدخل بسؤال استفساري.

وكان كلما طلب أن أروي له القصة أرويها بحماس، وإن خمنت أنه يبحث عن ثغرة أو تناقض أو تعارض فيما أرويه يمكنه منها أن يحطم روايتي ويكتشف كذبي لو كنت كاذبًا، بعدها توجه للجلوس إلى مكتبه وأشار إليَّ أن أجلس، ثم أمسك بالأوراق التي كتبت عليها حواري مع الملك وسألني عما قاله كل من الأمير عبد الله الفيصل والمستشار كمال أدهم، فذكرت له ما قالاه بالتفصيل وردي عليهما.

ثم سألني ولماذا رويت للملك ما قالاه، ولماذا سألته عن ذلك..؟ فقلت للرئيس لقد أردت ببساطة أن يعرف الملك أنني التقيت بشخصيتين هامتين في المملكة، وأنه لهما موقفًا سلبيًا وسيئًا تجاه النظام والرئيس المصري، وأنهما لم يتورعا عن إعلان ذلك أمامي كصحفي مصري كما أردت أن أسمع رده على ذلك، فسألني عما إذا كنت قد شعرت بالخوف في أي لحظة خاصة وأنني وحدي هناك، فأجبت بأنني كنت أؤدي عملي بكل ما يفرضه عليَّ من مسئوليات والتزامات، ولم أفكر في الخوف إطلاقًا ولو كنت قد خفت لما رددت عليهما فورًا ولما نقلت ما قالاه للملك.

ثم سألني عما إذا كنت وصلت إلى مكتب الملك دون أن يعترضني أحد فعلاً، أو حتى يسألني من أنا..؟ وإلى أين أنا ذاهب..؟ فأكدت له أن أحدًا لم يستوقفني ولم يسألني، وتذكرت أنه حتى مدير مكتب الملك لم يطلب أن يرى أي وثيقة تثبت من أنا أو أين أعمل..؟ وكان واضحًا أن الرجل يحاول أن يكتم دهشته من مثل هذا الأمر.

بعدها سألني عما إذا كنت قد سجلت الحديث، فأجبته بالإيجاب بسرعة من يبحث عن النجاة من الغرق، وواصلت قائلاً كما أن معي الفواتير التي تثبت أنني أقمت على حسابي طوال فترة الزيارة، وسلمته شريط التسجيل والفواتير، وبسرعة ألقى نظرة على الفواتير ثم أعادها لي، ثم قال سنسمع معًا الحوار، ووضع الشريط في جهاز تسجيل كان موجودًا بجواره.

وبدأ يستمع لنص الحوار، وبين الحين والحين كان يوقف الاستماع ويسألني عن رد فعل الملك وملامح وجهه، فأجيب بأمانة وبقدر ما تسعفني الذاكرة، ومرات أخرى أوقف شريط التسجيل ليستفسر عن فقرة أو جملة ما، وكنت أسترسل في الحديث حتى يدرك ويقتنع أنني لا أخفي شيئًا، وبدا أن الرئيس قد عرف كل ما كان يريد أن يعرفه، وأنه وجد إجابات لكل الشكوك التي دارت بخلده.

وخلال استماعه للفقرة التي أخبرت فيها الملك فيصل بأن ابنه وصهره سيعملان على أن يركع عبد الناصر، وأنني قلت لهما إنه لن يركع، ابتسم ابتسامة رضا، وكان واضحًا أنه يقدر جيدًا الموقف الذي كنت فيه، ومع ذلك لم أتردد في أن أعلن رأيي ولكنه لم يتوقف ليسألني، لقد سألني من قبل وسمع مني إجابة، وربما لو سأل مرة أخرى لقلت له أنني كنت أدافع عن رئيس مصر وعن رمزها في تلك اللحظة، ولم أكن أدافع عن شخص الرئيس بل عن مكانه ومكانته.

ووصل عبد الناصر إلى ما يريد فابتسم في النهاية وهو يشكرني على شجاعتي وأمانتي، ثم بدأ يسألني عن عملي وعن دراستي، فأدركت أنه طلب معلومات عني قبل أن يستقبلني، ثم قال إن الحديث عمل صحفي ممتاز، وخاصة لصحفي في سنواته الأولى واستطرد قائلاً: أنني تحدثت وحاورت الملك فيصل كصحفي «فاهم شغله»، وبالرغم من كل ما فعله الرئيس لبث الاطمئنان في قلبي منذ اللحظة التي دخلت فيها مكتبه للمرة الأولى في حياتي، فإنني لم أشعر بالاطمئنان حقيقة إلا وهو يوجه لي الشكر، ومع ذلك كان هذا الاطمئنان مشوبًا بالحذر.

ثم سألني عما إذا كنت سأحزن كثيرًا إذا لم يُنشر هذا الحديث، فأجبته قائلاً: إن مصالح مصر أهم من أي حديث صحفي، فقال: إنه يرى عدم نشره، ثم أخبرني إنه سيحتفظ بالشريط، وعندما وقف إيذانًا بانتهاء اللقاء ومد يده ليصافحني مودعًا سألته

وإلى أين سأذهب..؟ فابتسم وعلى وجهه ملامح حيرة وسألني ماذا أقصد..؟ فقلت له إن بعض الزملاء في الجريدة قد قالوا لي وأنا في الطريق إلى سيادتك إنهم سيشترون لي خبزا وحلاوة، فضحك الرجل وقال: هذه المرة ستعود على عملك ومنزلك وضحك من جديد.

ووجدت الفرصة سانحة لأخبره أن سكرتيره قد أوقع الرعب في قلبي ربما بصورة أكثر من زملائي في العمل قبل أن أنال شرف اللقاء، فاستوضح الأمر فرويت له ما قاله سكرتيره، فاتصل به طالبًا حضوره وسأله بغضب عما إذا كان قد قال ذلك..؟ فصمت الرجل فوبخه توبيخًا شديدًا ووجه له اللوم وقال له أن الأستاذ عبده أدى عمله بوطنية وبكفاءة وشجاعة، ولو أن الكل فعلوا مثله لتغيرت الصورة كثيرًا، ثم أمر بأن أعود إلى جريدة الأخبار في سيارة من سيارات الرئاسة، وأدركت في هذه اللحظة أنني كسبت عدوًا قويًا بمكتب الرئيس، وأن الرجل لن ينسى ولن يغفر ذلك أبدًا.

وبعد أن خرجت إلى شارع الخليفة المأمون، سألني السائق إلى أين..؟ وبسرعة طلبت منه التوجه إلى فندق شبرد، فلم أكن أريد العودة إلى الجريدة قبل أن أرتب أفكاري، ولقد كنت أتردد على صالة فندق شبرد القديمة لاحتساء الشاي وسماع عزف البيانو والكتابة أو القراءة، ولم يكن الأمر يكلف سوى أقل من 25 قرشًا وقتذاك، وبهذا القرار تجنبت أسئلة السائلين واستفساراتهم.

ورأيت بعد إعادة النظر في الأمر أنه ليس من حقي أن أبوح لأحد بما قاله الرئيس لي؛ لأنه أمر يخصه وليس من حقي إفشاؤه، ولكن كان من الضروري الاتصال بمصطفى أمين لإبلاغه بأن الرئيس قرر عد نشر الحديث وأنني سلمته شريط التسجيل، وطوال الأيام التالية تعمدت البقاء بعيدًا عن أخبار اليوم وعن منزلي تجنبًا لأي أسئلة من أي كان، واغتنمت الفرصة لتكثيف نشاطي في القوات المسلحة، وزيارة أكبر عدد ممكن من القادة خاصة خارج القاهرة.

وخلال الأيام التالية للقاء الرئيس عبد الناصر تذكرت علاقتي التي توثقت خلال النصف الأول من الستينيات بالمشير عبد الحكيم عامر، وإن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تغيب عن عبد الناصر، وستثير أمامه الكثير من علامات الاستفهام، وقلت ربما

أسهمت هذه العلاقة في مضاعفة شكوك عبد الناصر في الحديث الذي أجريته مع الملك فيصل، خاصة إذا اقتنع أنني من معسكر المشير عامر.

وكان الرجلان قد اختلفا بعد الانفصال السوري عام 1961م، وتحـول الخـلاف إلى صدام عندما قرر الرئيس عبد الناصر تشكيل مجلس للرئاسة عام 1962م، يضم بجانب المشير عددًا من أعضاء المجموعة اليوليوية والسياسيين المدنيين، وبمـا كـان يعنـي أن المشير لم يعد نائبًا أول لرئيس الجمهورية، ولجأ المشير إلى الاختفاء في مرسى مطـروح، وقرر قادة الأفرع الرئيسية من كبـار القـادة التوجـه إلى مرسـى مطـروح والبقـاء بجـوار المشير.

وكان يسيرًا أن يفهم عبد الناصر أن ما جرى هو انقلاب عسكري سـلمي عليـه، وأن القوات المسلحة قد انحازت إلى المشير في الصراع الـدائر بينهمـا، فقـرر التراجـع عـن موقفه وألغى مجلس الرئاسة، وعمل على استرضاء المشير وتقاسم معه النفوذ والسلطة، وتساوى كلاهما في المخصصات المالية التي يحصلان عليها، وبما يؤكد للجميـع أنهمـا في مستوى قيادي واحد.

وبما أن الرئيس كان يُحاط علمًا بعلاقات المشير عامر ويعرف كل من يتـردد عليـه، وبما أنه طلب معلومات عني قبل أن يسقبلني فقـد رأيـت أن ذلـك ربمـا يضـاعف مـن شكوكه قبل أن يراني ويسمع مني، وربما كانـت محاولتـه للعثـور عـلى ثغـرة في روايتـي انعكاسًا لهذه الشكوك، وربما لم يكن الأمر كذلك ولكنني فكرت فيها كمجرد احتمال.

المهم أن المحصلة النهائية أن الرئيس تأكد من حسـن نيتـي، وإلا مـا شـكرني بهـذه الحرارة، وكان الأمـر فرصـة سـنحت لكـي يعرفنـي الـرئيس شخصـيًا، هـذه المعرفـة وبالصورة التي تمت بها تركت بصماتها على كل ما جرى بعد ذلك من احتكاك مباشـر أو غير مباشر بيننا.

▪▪ أصابع البوليس السياسي في حريق القاهرة (1)



1918 - 1970

ضمت قضية مقتل أمين عثمان خمسة وثلاثين محاميًا، وكانوا نخبة مختارة ممتازة، كان منهم الأساتذة أحمد رشدي، علي أيوب، مكرم عبيد، علي الخشخاني، مصطفى الشوربجي، زكي عريبي، وهيب دوس، محمد هاشم، زهير جرانة، بسطا شكري، محمد شوكت التوني، والمرحومان توفيق دوس، وعبد الرحمن البيلي، وغيرهم.

ووقفت أمام المحكمة أؤدي الشهادة، وتلقيت سيلا جارفًا من أسئلة الدفاع والمتهمين، وكان من بين المحامين في هذه القضية صديق وزميل لي، ترك الصداقة والزمالة خارج قاعة المحكمة، وشارك زملاءه المحامين هجومهم، وأسئلتهم، ومناقشاتهم، وكان يجلس في الصف الأول من المقاعد المخصصة للمحامين، وكان إلى يساري مباشرة عندما وقفت أؤدي الشهادة ولمحته يرفع إصبعه يستأذن المحكمة في أن يلقي هو الآخر بدلوه في توجيه الأسئلة والمناقشة.

(1) محمد عبد العزيز: مذكرات ضابط في البوليس السياسي، مكتبة كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص179-187.

وأذنت له المحكمة، وهمْ أن يقف وأخذ ينصب قامته شيئـًا فشيئـًا ثـم أعـدَّ نفسـه وفتح فاه ليندفع، وينطلق، وفي هذه اللحظة همست في أذنه بصوت خفيض «حتى أنت يـا بروتس..!».

ولم يكن هو يتوقع مني شيئًا، فاندفع وانطلق، ولكن في قهقهة عالية حاول أن يكتمها، ولكنه لم يستطع، فنظ إليه رئيس المحكمة في دهشة وقال لـه: إيـه يـا أسـتاذ فيـه إيـه..؟ فأجاب: ما.. في.. ش..

واستمر لا يقوى على الكلام، وكنت أنا في أثناء ذلك أقف إلى جواره صامتـًا هادئـًا، ثم همست له مرة ثانية، «تكلم يا بروتس.. تكلم..!»، ولكن «بروتس» كـان قـد سخسـخ من الضحك، وعاد يثني قامته حتى جلس.

وقام محام آخر يسأل ويناقش، وانتهزها هـو فرصـة وانسـحب مـن القاعـة، يكمـل سخسخته وضحكه خارجها..!

وكان المتهمون قـد استشـهدوا بضـابط بـوليس قـد عهـد إليـه بالعمـل - كضـابط نوبتجي- بسجن الأجانب وقت أن كان المتهمون محبوسين به، وقرر هذا الضـابط أننـا سمحنا لاثنين من المتهمين بالاختلاء ببعضهما في غرفـة مـأمور السـجن، وقـال وكـان الجزار في أثناء هذه الخلوة يختفي تحت الكنبة.

وسألته المحكمة: كنبة إيه..؟!، قال: الكنبة الـلي في أوضـة مـأمور السـجن، وسُـئل: وعرفت إزاي..؟! قال: أيوه الأوضة كانت فاضية وأنا دخلت فيها، وخرجت وماكـانش فيها حد، وبعدين شفت الاثنين المتهمين جابوهم ودخلوهم الأوضة دي فقعـدوا فيهـا مع بعض، وماكانش فيها حد غيرهم، وبعد نصف سـاعة خرَّجـوهم وبعـد كـده بشـوية شفت الجزار خارج من الأوضة لوحده.

وسُئل: عرفت منين إن ماكنش فيه في الأوضـة غيـر الاتنـين المتهمـين..؟ قـال: أنـا دخلت أجيب مفتاح من «التابلوه» اللي على مكتب المأمور، فوجدت الاثنـين المتهمـين مع بعضهم، ومفيش حد تاني معاهم، وبعد ما خرجوا بشوية، شفت الجـزار خـارج مـن الأوضة.

سُئل: وهل يمكن للجزار أن يختفي تحت الكنبة..؟! قال: أيـوه دي كنبـة اسـتامبولي

كبيرة، وسُئل: والمتهمين كانوا فين ساعة ما دخلت الأوضة وشفتهم مع بعض..؟ قال: كانوا قاعدين على الكنبة، وسألني المحامون فقلت: محصلش..!!

ثم قالت المحكمة في حيثياتها ردًّا على ما أثاره المحامون عن هذه الواقعة، وعلى فرض صحة هذه الواقعة فليس ما يضير رجل البوليس أو يمتنع عليه أن يلجأ إليها، فهي لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل جمع الاستدلالات، وهذه هي مهمة البوليس الأولى.

وأما الآن لا أستطيع أن أقول ما إذا كانت هذه الواقعة صحيحة أو غير صحيحة، وأتمسك على كل حال بما قررته في حيثياتها.

وقد تناول المحامون أمين عثمان بالتحليل، والتشريح، ووصفوه بأنه القتيل القاتل، وأنه نشأ مصري الجنسية، بريطاني الحس، تلقى علومه في تلك المستعمرة البريطانية «كلية فيكتوريا» فاستكمل بذلك عنصره الأجنبي، فلما شب وتزوج من ربيبة مستر ريد ناظر الكلية، الذي حفظ له صنيعه واحتضنه كابن من أبناء الإمبراطورية ودفعه في وظائف الدولة.

واستشهدوا على عنصره الأجنبي بذلك الخطاب الذي كان قد ألقاه في مناسبة من المناسبات بـ«كلية فيكتوريا» وشبه فيه مصر بامرأة وشبه إنجلترا برجل تزوج منها زواجًا لا طلاق فيه، وثاروا على هذا الوصف، ثم قارنوا هذه الصورة التي رسمها أمين عثمان لمصر بالصورة التي رسمها أحد المتهمين - محمود يحيى مراد- حين كتب في مذكراته:

«أنا عاشق ولهان، قد عذبني الحب وتملكت الحبيبة على مشاعري، فأنا أراها في كل وقت وفي كل مكان، وأراها على الخصوص إذا سجى الليل ولكن ليلاي ليست ليلى العامرية، ولا ليلى الأخيلية، ولا ليلى المريضة بالعراق، بل ولا ليلى مراد، إنما هي ليلى المصرية، ليلى الهيفاء السمراء، ذات الشعر الفاحم، والعيون الصحاح المراض، إنها سعادتي وبلائي، شقوتي وهنائي، أحبها حبًّا يقرب من الجنون، وأغار عليها غيرة المفتون، وإن أشقى ما يشقيني أن أرى إلى جانبها أجنبيًا أشقر ذا عيون زرق يغازلها ويحاول أن يصل إلى قلبها، ويلٌ له مني، والله لأقتلنه أو يبتعد عن طريق ملاكي».

وقالوا: إن المتهمين كانوا يدافعون عن ليلاهم، والحق أن المحامين - في هذه

القضية- قد بذلوا جهدًا كبيرًا، ولم يتركوا وسيلة للدفاع عن المتهمين إلا لجأوا إليها، ولا بابًا لإخراجهم من قرار الاتهام إلا طرقوه، فهاجمونا نحن ضباط البوليس السياسي في عنف وفي تجنٍّ شديد.

ولم يكن هذا غريبًا منهم، فهو هو دأبهم دائمًا، ولم يكن هذا غريبًا عليَّ؛ فطالما التقيت بهم في كثير من القضايا وعرفتهم وعرفوني، ولقد قضيت مرة - في إحدى القضايا- خمسة أيام متوالية أؤدي الشهادة أمام محكمة الجنايات، وأرد على أسئلة أكثر من ثلاثين محاميًا حاولوا بكل الطرق استفزازي وإثارتي، وكانوا يعقدون جلسات ليلية في مكتب أحدهم لإعداد كشوف بالأسئلة التي سيوجهونها لي في صباح اليوم التالي.

وكان من بين هؤلاء المحامين المرحوم الأستاذ عزيز فهمي، واتخذوا من شخصي هدفًا وجهوا إليه كل سهامهم التي شاءوا أن يوجهوها إلى البوليس السياسي، وحمَّلوني مسئولية كل ما ادَّعوا به على البوليس السياسي، وقالوا عني إنني قطب من أقطابه، بل القطب الكبير بين أقطابه، وقد كنت أجد في قولهم هذا فخرًا لي، ومازلت أفخر به، وسأظل أفخر به، أفخر وأنا الذي لم ألتحق بالبوليس السياسي إلا عام 1947م أن أكون القطب الكبير بين أقطابه.

وكان الأستاذ أحمد رشدي المحامي هو دائمًا قطب الرحى في كل هذه القضايا، فهو رجل قانون عالم متمرس، وكان يطلق عليَّ اسم «صديق المحامين اللدود»، وكانت له طريقة لم يحد عنها أبدًا.

كان لا يسأل ولا يناقش الشاهد، وخاصة إذا كان من البوليس السياسي، وكان يرى في هذه الأسئلة سدًا لثغرات يستطيع أن ينفذ ويستفيد منها المحامي في الدفاع عن موكله، وقد حدث في إحدى القضايا، وكان الأستاذ أحمد رشدي وعبد المجيد عبد الحق من هيئة الدفاع فيها، أن سمعت - وأنا أقف أمام هيئة المحكمة- هذا الحديث يدور بينهما:

قال الأستاذ أحمد رشدي: سيبه خليه يقول الكلمتين بتوعه ويمشي، مفيش داعي تسأله ده، فرد عبد المجيد: لأ لازم أسأله، وقام وسأل وسأل وسأل ثم سأل: ألم يَدَّعِ عليك المتهمون في كل هذه القضايا بأنك كنت تتداخل في التحقيق، وتحصل على

الاعترافات تارة بالحيلة، وتارة بالإكراه، أو الوعد والوعيد..؟!

قلت: نعم حصل أن ادَّعى المتهمون بذلك، وبأكثر من ذلك، قال: أليس ذلك صحيحًا..؟ قلت: طبعًا غير صحيح، والمتهمون أنفسهم يعلمون أنه غير صحيح، ولكنه وسيلتهم في الدفاع عن أنفسهم، نعم في كل القضايا يحصل ذلك من المتهمين، حتى في أبسط القضايا العادية، مش بس القضايا السياسية، فإذا قام أي ضابط مباحث في أي قسم من أقسام البوليس بضبط شخص يتجر في المخدرات فإن أول كلمة يقولها المتهم دفاعًا عن نفسه هي: ماعرفش حاجة عن المخدرات دي، ده ضابط المباحث هو اللي جابها وحاطها لي.

ثم قلت: ومع كلٍّ فقد حققت المحكمة كل ما ادعى به علينا نحن ضباط البوليس السياسي، وردت على هذه الادعاءات في حيثيات حكمها، وقالت: «وغاية ما يوصف به تصرف رجال البوليس السياسي أنه تغالٍ في أداء الواجب، وتتبع خطوات التحري وتقصيها لبلوغ غاية وضعت في أعناقهم وأصبحت نصب أعينهم، وهي وضع أيديهم على الجاني، مدفوعين في ذلك بوجدانهم وضميرهم، غير متعنتين ولا باغيين».

وهنا سمعت الأستاذ أحمد رشدي يقول للأستاذ عبد المجيد عبد الحق: عاجبك كده أهو نيَّلها أكتر، ما قلت لك سيبه ده مفيش داعي تسأله..!

ووقفت بعد ذلك خمسة أيام متوالية أواجه الحملة العنيفة التي يقودها المرحوم عزيز فهمي، وكان ثائرًا عصبيًا بطبعه وطبيعته، ولكنه رحمه الله كان محاميًّا فذاً ضليعًا متمكنـًا، وقد حاول استثارتي واستفزازي بكل وسيلة، واستمر يهاجمني في عنف وسألني: تقول إنك اضطررت إلى استعمال العنف في ضبط المتهمين والتحفظ عليهم، تقدر تقول لي يعني إيه العنف ده..؟ وإزاي يكون..؟

فأجبت: أما أروح أؤدي واجبي وأضبط متهمين ارتكبوا جرائم قتل فيحاولون قتلي، ويطلقون عليَّ الرصاص، وأكاد أفقد حياتي أنا ومن معي من رجال البوليس، ثم أتمكن بعد ذلك من ضبطهم وضبط ما معهم من سلاح، ماذا تنتظر مني..؟ هل آخذهم بعد ذلك بالأحضان والقبلات وأحسس عليهم، أظن ده شيء غير طبيعي، ولكني أتحفظ عليهم بعنف، أقبض عليهم وأشل حركة مقاومتهم، حتى أحافظ على حياتي وحياة من

معي من الرجال.

فسأل: يعني إيه بعنف..؟ قلت: تحب تشوف..؟ قال: أيوه، قلت: أهو زي كده، ورفعت يدي وأطبقت بها بحركة فهم منها أنني سأمسك في خناقه، قال: الله.. الله.. إيه ده، أوعى إيدك، قلت: أهو زي كده، أعمل لك إيه هي المسألة تحامل وبس..؟!

ولقد كان لي معه موقف آخر بعد هذا الموقف الذي حصل في المحكمة، فقد قابلته في أحد المحال العامة الكائنة بميدان سليمان باشا، وكان في صحبته الأستاذ لطفي رضوان المحرر بدار الهلال، فوجدته رجلاً آخر غير الذي رأيته في قاعة المحكمة، فما وقع بصره عليَّ حتى أقبل يرحب ويحتفي بي.

ولقد سعدت – حقًا– بصحبته في تلك الليلة، ووجدت فيها عوضًا عما تحملته في قاعة الجلسة من هجوم عنيف، وهكذا استمر المحامون في الدفاع عن موكليهم، وأقفل باب المرافعة، وتحدد يوم 24 يوليو عام 1948م للنطق بالحكم.

وفي ذلك اليوم أحضر المتهمون وامتلأت القاعة بالأهل والأقارب، وشخصت الأبصار إلى باب غرفة المداولة، وطال الوقت حتى كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، حيث دوَّى صوت الحاجب: محكمة.

ودخلت هيئة المحكمة، وران على القاعة صمت عميق، ثم علا صوت رئيس المحكمة يتلو الحكم بإدانة حسين توفيق بالسجن عشر سنوات، وإدانة ثلاثة عشر آخرين بأحكام مختلفة، وبراءة الباقين.

وهكذا انتهى الفصل الأخير من هذه القضية، انتهى بالنسبة لوقائعها وبالنسبة لمن شملهم قرار الاتهام فيها، ولكنها كانت البداية.

كانت «فتحة في الجسر» تدفقت منها أمواج غمرت القاهرة، وتلتها عواصف وأعاصير عاتية، وتوالت الأحداث حتى كان يوم 26 يناير 1952م وحرقت القاهرة، وأصبحت مسرحًا للنهب والسلب وفلت الزمام، فكيف حدث ذلك..؟!! ومن الذي دبر كل هذا..؟!!

تضاربت الأقوال وكثرت التكهنات، كيف بدأت الشرارة.. وكيف سرت..؟!

قال بعض الناس يصفون الحريق: حوالي الساعة 12 ظهرًا كنا رايحين كازينو أوبـرا، فوجدنا الناس بتكسر فيه وبيحرقوا، وكان بعضهم من لابسي الجلاليب، وبعضـهم مـن العمال وبعضهم أفندية، وكان كل واحد فيهم ياخـد كرسـي أو أي حاجـة مـن المحـل يكسر بها.

وقال آخرون: وسمعنا ضرب رصاص جهة قسم عابدين، وضرب رصاص كمان من جهة شارع الساحة، ووجدنا شـوية عيـال يقتربـوا بعـض الأوقـات مـن قسـم عابـدين، ويضربوا عليه النار ويطلعوا العساكر ويردوهم ويطلقوا عليهم النار، وطلعنـا عـلى جهـة جامع الكخيا وشفنا النار والعة في بنك باركليز، والبوليس محيط بالبنك، ولكن العساكر كانت قليلة وساكتين.

وقال غيرهم: ولما وصلنا سينما ريفولي، بصينا لقينا النار اشتعلت فيها بسرعة لدرجة أننا لم نعرف كيفية اشتعالها، ولكن لاحظنا بعض الأفراد كانوا مندسين بين المتجمهرين عند السينما ويحرضونهم على إشعال النار فيها، وكنا نسمعهم يقولون: «يا الله اخلصوا يا الله»، فالجمهور يسمع كلامهم ويجيبوا قطع من الخشب ويحطوا عليها قماش ويرموها على النار في داخل السينما.

وهكذا أخذ الناس يروون ويحكون، وقبل أن تشتعل النار في القاهرة، قبلهـا بيـومين اتنين أذيع بيان، أذاعه حزب سياسي كان له نشاط خاص في ذلك الوقت، قال فيه:

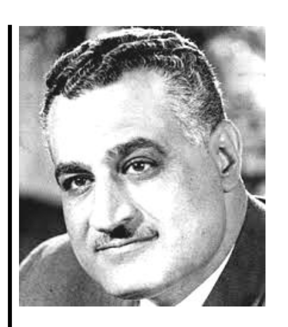
«وأصـبح الفـدائيون يحـاربون بأسـلحة قديمـة باليـة وذخيـرة فاسـدة، يـذهبون إلى المعـارك الطاحنـة ليواجهـوا الـدبابات، والمتفجـرات، وحصـون الإنجليـز ببنـادق لا تنطلق».

وبينما تقع كل هذه الكوارث على فريق كبير من الشعب وتنتهـك سـيادة مصـر هـذا الانتهاك، ويستشهد زهرة شباب مصر عشرات وعشـرات، تـأبى الحكومـة إلا أن يظـل الشعب في القاهرة والإسـكندرية غارقـًا في الملاهـي والسـهرات، فالكباريهـات تظـل مفتوحة لروادها من العابثين والعشاق، ودور السينما، حتى الإنجليز منهم تعج كل يـوم بروادها تحت حماية حراب البوليس، ومحطة الإذاعة مشغولة بإذاعة الأغاني اللاهية.

فهل لما جاء في هذا البيان علاقة بما وصفه الواصفون من اعتداء وتخريب على ملهى

كازينو أوبرا وسينما ريفولي وغيرهما..؟ وهل ما وقع على هذه الدور هو تفسير لما جاء في البيان..؟ وعساكر البوليس الذين قال الناس عنهم: إنهم كانوا ساكتين، لماذا وقفوا ساكتين..؟ ومن هم هؤلاء الأفراد الذين كانوا مندسين بين المتجمهرين ويحرضونهم على إشعال النار، والبوليس السياسي.. هل كان يعلم أو كان لا يعلم..؟!!

▪▪ لماذا بدأ الحريق من كازينو أوبرا بالذات..؟ (1)



1918 - 1970

إن حريق القاهرة حادث ضخم، لا أعني ولا أقصد من ذلك ما ترتب عليه من آثار ونتائج وتقلبات سياسية واقتصادية، وغيرها، ولكن أعني - من وجهة نظري كضابط بوليس- أنه جريمة كبيرة، جريمة وقعت في القاهرة يوم 26 يناير 1952م، وكان المجني عليه فيها مصر كلها، والمتهم تضاربت في شأنه الأقوال والأقاويل، واختلف الناس في أمره، واحتار من يكون: هل هو السراي..؟ هل هم الإنجليز وعملاؤهم..؟ هل هم بعض المصريين..؟ أم أن المتهم هو القضاء والقدر..؟ أم هؤلاء جميعًا..؟

إن حريق القاهرة جريمة كبيرة، ولقد كنت على كثب من مكان الجريمة، وعشت في ظروفها وملابساتها، ولمست وقائعها، ولكني - وأرجو ألا أكون مثقلاً- أود أن أشرك القراء في البحث والتحري، وسأضع أمامهم الظروف والملابسات والوقائع، لنعرف الإجابة على هذا السؤال الذي احتار الناس فيه.

(1) محمد عبد العزيز: المرجع السابق، 2015م، ص191-199.

إن البحث في أي حادث - أعني أي جريمة- يستوجب أولاً معرفة كل ما يحيط بها من ظروف وملابسات، ويستوجب بعد ذلك ترتيب هذه الوقائع ثم استقراءها لكي تنطق بالنتائج، بحاصل الضرب، أو الطرح، أو الجمع.

ما الذي دفع المتهم إلى ارتكاب هذه الجريمة..؟

من صاحب المصلحة في وقوع هذه الجريمة..؟

إن اللص عندما يسرق، يدفعه إلى ذلك أنه يريد أن يمتلك ما ليس ليه، والقاتل عندما يرتكب جريمته قد يرتكبها بالثأر، أو دفاعًا عن النفس، أو المال، أو العرض، أو لأنه يحترف القتل ويُستأجر عليه، والذي يضع النار عمدًا في مزروعات أو في متجر، أو في منزل مسكون، قد يدفعه إلى ذلك رغبته في الإضرار بالمجني عليه إضرارًا ماليًّا، وقد يرمي إلى قتله حرقًا لإزاحته من طريقه مثلاً.

وقد يكون واضع النار هو صاحب الشيء نفسه، صاحب المزروعات أو المتجر أو المنزل، يدفعه إلى ذلك رغبته في الحصول على المبلغ الذي أمَّن به لدى شركة التأمين، أو لإخفاء إفلاس وإعدام دفاتر توشك أن تُفتضح وتفضحه.

فلا بد لكل جريمة من دافع، أو سبب يدعو مقترفها إلى اقترافها وإلا كان مجنونًا، وهذا له حكم آخر، ولا شأن لنا بالحديث عن المجانين.

وكل جريمة تقع لا بد أن تمر - قبل أن تقع- بمراحل أو بخطوات، فهي تبدأ أولاً بفكرة تعتمل في النفس تروح وتجيء، ثم تطفو إلى العقل وتتبلور وتتجسم فيه، ثم تدخل في دور آخر وهو التصميم على ارتكاب هذه الجريمة، عندئذٍ يأخذ الفاعل في إعداد وسائله، فإن كان قاتلاً أعد السكين وشحذ نصله، أو أعد الطلقات الكافية لسلاحه، إن كان مسدسًا أو بندقية.

وإن كان قد انتوى وصمم على الحريق أعد المواد الحارقة، وقد تكون خِرقًا مبللة بالغاز أو البنزين ومعها الثقاب، وقد تكون مواد أخرى سريعة الاحتراق والإحراق، والتخريب والتدمير أيضًا، ثم يذهب إلى المكان الذي كان قد عينه، في الزمان الذي قد حدده، فقد تسنح الفرصة وتكون خيرًا من كل ترصد أو تربص، ويكون فيها مجال واسع للتنفيذ وللهرب أيضًا.

والفاعل قد يفكر في ارتكاب الجريمة وحده، أو يفكر فيها مع غيره فيتبادلون الرأي ويتفقون ويضعون خطة التنفيذ، وقد ينفذونها جميعًا معًا، وقد يعهد إلى بعضهم فقط بالتنفيذ، ويبقى الآخرون بمنأى عن مسرح الجريمة ينتظرون، وقد يكونون في انتظارهم وترقبهم هادئين أو قلقين.

والفكرة ذاتها فكرة ارتكاب جريمة، قد تكون بنت صاحبها تنبت في نفسه وترويها وتنميها عوامل فيه، وقد تكون غريبة عنه بعيدة عن نفسه وعقله، ولكن يوحي له بها إيحاءً هينًا لينًا.

والإيحاء ألوان وصور، فهو يصول ويجول في الإشادة بالبطولة والفداء، وهو يلبس ثوبًا براقًا جميلاً منسوجًا من خيوط الوطنية الغالية، مصحوبًا بدوي مستمر على الآذان باسم الوطن واسم الله أيضًا، ويصبح ويمسي الموحي له كالمسحور، أو المأخوذ يفقد نفسه وتتلاشى إرادته، ولكنه يسير ويسير كما يسير النائم في أحلام اليقظة، حتى يسقط من شرفة أو نافذة، فيستيقظ ولكن بعد أن يكون قد تحطم.

وهنا يقوم الذي أوحى يستعيذ بالله من هذا الشيطان الرجيم الذي عاث في الأرض فسادًا، ولقد قابلت واحد من هؤلاء.

كنت في مكتبي في المحافظة عندما أرسل إلى سجن مصر شاب للإفراج عنه بعد أن أوفى مدة العقوبة التي حكم عليه بها في قضية شروع في قتل سياسي، وكنت قد عرفت هذا الشاب ورأيته عقب القبض عليه في هذه القضية، وكنت آن ذاك ضابطًا برتبة ملازم ثاني بقسم الخليفة، واشتركت في إجراء بعض التفتيشات والضبط التي استدعاها التحقيق، ولكن لم يتعدَّ دوري في هذه القضية غير ذلك.

وبعد نحو ثماني سنوات، خرج هذا الشاب من السجن بعد أن أوفى مدة العقوبة، وأرسل إليَّ وكنت قد أصبحت ضابطًا في البوليس السياسي، أجلسته إلى جواري، وطلبت له القهوة، ولاحظت أنه زائغ البصر، يزفر زفرات طويلة من أعماقه، كأنه يزيح بها ما أثقل كاهله طوال المدة التي قضاها وراء القضبان، ثم قال: منه لله، قلت: مين..؟ قال: هذا الرجل الـ«...» الذي دفعني إلى هذا الطريق، قلت: إزاي..؟

قال: أنا شاب شبيت على حب بلدي والتقيت بهذا الرجل فآمنت به، وسرت وراءه

كالأعمى، وكان هو يقربني إليه ويخصني بإعزازه، وكان يجلس معي الساعات الطوال يحدثني عن الوطن، ويحدثني في التاريخ، وتطورات الأمم والشعوب، ويحدثني عن البلد وما صار إليه، وأن الوطن منكوب في حاجة إلى البذل والجهد والفداء، وأنه لو كان ربنا ياخد باليد، لو كان فلان ده ربنا يريحه ويريحنا منه.

ثم يعود فيحدثني عن الصبر وطولة البال، كان يملأ سمعي وكل حواسي بهذا الكلام، وكان لا يمل الحديث عنه، حتى وجدت رأسي مشحونة بفكرة لم تكن في بالي أبدًا، وأصبحت شغلي الشاغل واعتقدت أن فيها خلاص البلد، فرحت أعرضها عليه أن «....» فلم يرد عليَّ، كنت أعتقد أنه سيهلل ويكبر، ولكنه لم يرد وانصرف عني.

ومرت أيام كان يحييني في حرارة، ولكنه كان يبدو أمامي مشغولاً ببعض الأمور، كأنه متجه إليها منصرف عني بسببها، ثم لم يلبث أن عاد سيرته الأولى، فقربني إليه وعاد يحدثني في حديثه الأول، فعدت أتحمس للفكرة وبحت له بها، فسكت كأنه لم يسمعني، وانشغل في الحديث بالتليفون، ثم قام منصرفًا لأنه مدعو في أمر مهم من أمور الوطن، الذي يُفتدى بالنفس والمال.

وتركني وحدي، وتجسمت الفكرة بل اختمرت في كل وجداني، وعولت على تنفيذها، وأعددت عدتي وارتكبت الحادث، وقبض عليَّ، وحصل اللي حصل بعد كده، وأديني خارج من السجن بعد المدة الطويلة دي، ومش عارف إيه اللي حايكون بعد كده.

ثم يأخذ يزفر من أعماقه مرة أخرى في ألم وفي غيظ، ولكن هل ينفع..؟ لقد تمنيت له التوفيق في حياته الجديدة، وأتممت إجراءات الإفراج وخرج.

هذا النوع من الإيحاء الذي يوحي بالفكرة، فكرة ارتكاب الجريمة وهو غير التحريض الذي يعرفه القانون، وإن كان أشد منه مفعولاً، وأصعب إثباتًا.

شيء آخر أود أن أشير إليه، عن الفرصة السانحة التي تكون خيرًا من كل ترصد أو تربص، ويكون فيها المجال واسعًا سهلاً للتنفيذ وللهرب معًا، حكاية العاطفة، والعواطف الجياشة التي كانت تنتاب البلاد في بعض الأوقات تحت تأثير بعض الظروف والحوادث، عندما تعلو هذه العواطف وتطفو على كل شيء، وتجرف أمامها كل شيء، ويضيع فيها صوت العقل وصوت الحق، ويندفع الناس وراء هذه العواطف

وتسيطر على تصرفاتهم وأعمالهم وأعصابهم.

وكان بعض المشتغلين بالسياسة يدفع هذه العواطف دفعًا ويذكيها، وبعض آخر يندفع معها ولا يبصر بها أو يتصدى لها، ويضيع بين هؤلاء وهؤلاء صوت العقل والحق، ولم تكن هذه العواطف دائمًا صادقة، فهناك أطماع وأهداف تتبع هذه الأطماع، وكانت التيارات الخفية كثيرة والأساليب متعددة.

وفي غمرة هذه العواطف التي تسيطر على كل شيء، كانت هذه الفرصة التي أشرت إليها، والتي هي خير من كل ترصد أو تربص، وكنا في البوليس السياسي نعلم ذلك، وكنا نبصِّر الحكومات بحقيقة ما يجري، ولكن كانت بعض الحكومات لا تصغي إلينا، وكانت تسير مع التيار ومع العواطف، وكان ذلك هو ما يرقبه المتربصون، ويجدون فيه الفرصة للتنفيذ والهرب..!

وبعد هذا الذي ذكرته، والذي كان لا بد من ذكره، أعرض وأسرد الظروف والملابسات والوقائع، حتى نستطيع أن نبحث ونتحرى وأن ندرس لنتبين الحقيقة في هذه الجريمة الكبيرة، جريمة حريق القاهرة يوم 26 يناير سنة 1952م، التي بدأت في الثانية عشرة إلا خمس عشرة دقيقة ظهرًا في كازينو الأوبرا ثم سرت وانتشرت.

ولكن لماذا هذا الوقت بالذات..؟

ولماذا بدأت في هذا الكازينو دون غيره..؟!

نرجع أولاً إلى الظروف، الظروف السابقة على وقوع الجريمة، ولنكتفِ بالرجوع إلى تاريخ قريب، إلى بضعة شهور فقط تعد على أصابع اليد الواحدة.

إلى أكتوبر سنة 1951م يوم أن ألغت الحكومة القائمة يومئذٍ معاهدة سنة 1936م، وما ألحق بها من اتفاقيات، يوم أن التهب الشعور القومي وسرت الحماسة في النفوس، يوم أن غادر عمال القنال معسكرات الإنجليز، وجاءوا إلى القاهرة وفتحت لهم أبواب العمل في الوزارات والمصالح.

يوم أن امتنع المتعهدون ومنعوا عن توريد ما اعتادوا توريده من مؤن وغيرها لمعسكرات الإنجليز بالقنال، يوم أن اعتبر الإقدام على مثل ذلك خيانة وطنية كبرى، يوم

أن شلت هذه الحركة الدائبة التي كانت تدب في معسكرات الإنجليز، يوم أن فقد الإنجليز عقولهم وبرودهم وراحوا يهددون ويتوعدون.

يوم أن نادى المنادون بضرورة توحيد الصفوف ولم الشمل، ومواجهة العدو المشترك، ويوم أن أعلن بعض رؤساء الأحزاب أنهم إزاء هذا الإجراء الذي اتخذته الحكومة، وإن كانت لم تُحطهم علمًا بما أعدته من إعدادات لمواجهة ما قد يطرأ ويحصل، فإنهم ينسون خلافاتهم ويؤيدونها، ولكنهم يرجون أن تكون الحكومة قد اتخذت للأمر أهبته، وأعدت له عدته، وألا يكون الأمر قد تقرر ارتجالاً أو اندفاعًا وراء كسب وقتي، أو تأييد شعبي.

ويوم قام آخرون يقولون: السلاح.. السلاح..

الجلاء.. الجلاء.. الدماء.. الدماء.. إلى القنال.. إلى القنال..

تطوعوا في الكتائب.. تبرعوا للكتائب.. لا تبخلوا على الكتائب.. وقاموا يجمعون التبرعات، وقاموا يجمعون السلاح.

وقالت الحكومة أنها أعدت للأمر عدته، وأنها تحتفظ بما قررت اتخاذه من إجراءات سرًا؛ لأن مصلحة الوطن تدعو إلى إبقائه سرًّا، وإن على الزعماء أن يثقوا بالحكومة، وقالت لهؤلاء الذين نادوا «السلاح.. السلاح.. الكتائب.. الكتائب» إنها تبارك جهادهم، وتؤيد دعوتهم، ولكنها تريد أن تكون الكتائب تحت إشرافها؛ لتوحيد الخطط وتوحيد القيادة، وإنها قد اختارت نخبة من كبار القواد السابقين للإشراف والتوجيه والعمل.

وعقدت الحكومة لهذا الغرض اجتماعًا مهمًا حضره بعض الوزراء ورؤساء هذه الهيئات التي نادت بالكتائب والسلاح، وفي هذا الاجتماع قال أحد هؤلاء الرؤساء ونرمز له بالرمز (10) إن لديه الألوف الشباب وإنهم طوع البنان، وإنهم في حاجة إلى السلاح والثياب والمال، ولما نوقش في الأمر وطولب بتقديم كشف بأسمائهم لتقوم الحكومة بإعدادهم، أخذ هذا الرقم يتناقص ويتضاءل من خانة الألوف إلى خانة المئات، ووقف عند بضع عشرات.

وقال رئيس لهيئة أخرى ولنرمز له بالرمز (11) أنه لا يقبل أن يناقش فيما لديه من وسائل وإمكانيات، وإنه يرفض أن يعطي كشفًا بما لديه من رجال، وأنه لا يقبل أن

يعمل تحت إشراف الحكومة.

كل هذا كان يجري، ولكن عواطف الشعب كانت قد استيقظت واندفعت بريئة طاهرة خالصة تعمل للوطن وحده، ولم تكن تلقي بالاً، أو تشعر بما يجري حولها من تيارات خفية، لم تكن طاهرة ولا خالصة.

واندفع بعض الشباب الوطنيين المخلصين إلى منطقة القنال، وجاهدوا جهاد الأبطال، وكان يساندهم رجال لم يكن يعرف عنهم شيء، وكان إلى جوارهم زملاؤنا ضباط وعساكر البوليس.

ودارت المعارك، ولقد أحس الناس في هذه الفترة أن البوليس منهم، واختفت أو كادت تلك الروح الخبيثة القديمة التي كانت تصور البوليس عدوًّا للشعب، وأخذ الناس يهتفون لعساكر البوليس وضباطه، ووجدوا فيهم حاميًا، لا جلادًا كما تشاء بعض الناس أن يصوروه.

وفي غمرة هذه الروح العالية، وفي ميدان النضال اختلط بعض الذين كانوا ينادون إلى القنال.. إلى القنال.. نريد السلاح.. نريد السلاح، اختلطوا بعساكر البوليس، وقد ألهب الشعور وأثار الخواطر تلك الضحايا التي كانت تسقط في الميدان من الشباب المتحفز البريء الذي اندفع بضميره ليؤدي واجبه، وقد سقط منهم في يوم واحد سبعة، شيعت جنازة خمسة منهم في الزقازيق واثنين في القاهرة، وقد أحس الناس بالمرارة.

وصمم زملاء الضحايا على الثأر لهم، ولم يكن هؤلاء الزملاء وحدهم هم الذين صمموا على الثأر، فقد كانت البلد كلها تتوق إلى ذلك، كانت البلد تريد أن تشفي ما في نفسها من مرارة وألم، كانت تريد أن تنتقم، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا يذهب الدم الطاهر المسفوك هدرًا.

ففي ليلة مظلمة باردة، وكانت الأنوار التي نصبها الإنجليز حول المعسكرات تقتحم حجب الظلام، ورصاصهم الذي يطلقونه في كل مكان وفي كل اتجاه يتطاير ببطء في الفضاء، أخذ هؤلاء الزملاء يزحفون على بطونهم صوب الأسلاك الشائكة، يزحفون ببطء قوي، وأعصاب لا تلين، غير هيابين ولا وجلين.

واستمروا يزحفون ويزحفون، والرصاص يتطاير فوق رؤوسهم، حتى اقتربوا

واقتربوا ثم كمنوا هادئين، وأعدوا عدتهم ثم ضربوا ضربتهم، وكانت ضربة قوية أردت اثنى عشر إنجليزيًا، سقطوا وتلوثت الأرض الطيبة بدمائهم الزرقاء، وعاد الأبطال فرحين جزلين، وفرحت معهم البلد كلها، وكان نصرًا مبينًا.

ولكن أحس الإنجليز في هذه المرة أنهم بكل ما لديهم من أسلحة، وبكل ما في جعبتهم من خبرة عسكرية، وخطط استراتيجية وتكتيكية، قد انهاروا أمام هؤلاء الفتية الأبطال، وكبر الأمر في نفوسهم، فأعادوا تنظيم خططهم، وترتيب صفوفهم، وأعدوا مدفعيتهم الثقيلة والخفيفة والمضادة، ونفخوا في النفير وأعلنوا الحرب، وتقدموا بكل جحافلهم وفتحوا النيران، ولم تكن أمامهم جيوش، ولم تكن تقابلهم مدافع ثقيلة أو خفيفة، لا شيء من ذلك أبدًا.

ولكنهم فتحوا النيران على بلدة صغيرة آمنة عزلاء، على بلدة التل الكبير ودكوها دكًا، وفزع أهل البلدة يدافعون بما ملكت أيمانهم، ولم يكونوا يملكون غير البنادق القديمة والعصي، وقاوموا ما استطاعوا أن يقاوموا، وخرجت النساء والأطفال من البيوت هائمين حيارى.

وتصدى رجال البوليس لهذه الجحافل يدافعون عن وطنهم، وعن إخوانهم ويحمون النساء والأطفال، وكانت المعركة رهيبة، القوى فيها غير متكافئة، فهناك مدافع ثقيلة، وبيد البوليس بنادق قديمة أو جديدة، وكان لا بد أن يحصل هذا الذي حصل.

فقد وقع 300 عسكري بوليس مع ضباطهم أسرى، وكان هذا هو بدء النكبة، وهاجت ثائرة الشعب مرة أخرى، واتجهت عواطفه بصفة خاصة نحو هؤلاء الرجال، رجال البوليس، وأحس رجال البوليس أن عواطف الشعب معهم ومن أجلهم، وفي هذا الجو الوطني العالي الذي يحس بالألم ارتفعت بعض الأصوات، كما ترتفع أصوات النائحات في المآتم يسردن مآثر الفقيد في لوعة، وفي حسرة ويعددن مناقبه، وأنه لو كان حصل كده ما كانش جرى كده.

ومع ذلك فإنهن يهيجن بصواتهن الشجن، ويفقع الناس وراءهن بالصوت، ومن هنا - كما سبق أن ذكرت- كان بدء النكبة، ومن هنا أرجو من القراء أن يتتبعوا الظروف والوقائع لكي نبحث ونتحرى.

القتل الحقيقي للممرضة الأمريكية [1]



1918 - 1970

وفي هذا الجو الوطني العالي الذي يحس بـالألم، ارتفعـت بعض الأصوات كما يرتفع صوت النائحات في المآتم يهيجن الشجن، ويفقع الناس وراءهـن بالصـوت، وقالـت: مـافيش فايـدة خـلاص، مفـيش فايـدة، ده انتحـار، ده إجـرام مـن الحكومـة، الحكومـة لا تمـد الفـدائيين بالأسـلحة، وتضـن عليهم بمعدات القتال..!

الحكومـة متعمـدة ، إن الفـدائيين لا يجـدون طعامًـا، ويأكلون الحشائش، وينامون في العـراء، إن الحكومـة ترمـي برجال البوليس إلى خوض معركة كبيرة، لا قِبَل لهم بها، إنها لا تدفع لهم مرتباتهم، مرتبـات الطـوارئ، إن القـاهرة تسـهر وتسكر وتعربد وتلهو، فالكباريهات مفتوحـة، ودور السـينما ملأى بالعاشقين المترفين.

فهل هذا هو طريق الجهاد..؟! وإلى أين نحن ذاهبون..؟!

مفـيش فايـدة.. مفـيش فايـدة.. خـلاص.. هكـذا وبهـذا وبمثله علت وارتفعت الأصوات وكانت تجد صـدى، وبـدأ

(1) محمد عبد العزيز: مذكرات ضابط في البوليس السياسي، مكتبة كنـوز للنشـر والتوزيـع، القـاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص203-211.

هؤلاء الناس يعيبون على الحكومة جمودها، وسوء تصرفها، وسارت بعض المظاهرات في الشوارع تهتف هتافات جديدة، لم تكن مألوفة من قبل، فقد كانت المظاهرات تهتف ضد الملك، وتنادي بسقوطه.

وكانت تهتف أيضًا ضد الحكومة، وضد وزير الداخلية بالذات الأستاذ فؤاد سراج الدين، وكان هذا شيئًا جديدًا أيضًا، فالمظاهرات التي شهادتها طوال خدمتي في البوليس السياسي لا تخرج عن أن تكون إما معادية للحكومة القائمة في الحكم، أو مناصرة لها، أو أن تكون مظاهرات قومية يشترك فيها الجميع للوطن فقط، أو لنصرة العروبة، ولا يهتف فيها إلا بسقوط الاستعمار وألاعيب الاستعمار.

فما سر هذه المظاهرات الجديدة.. وما دوافعها..؟!

ومن الذي كان يدفعها..؟!

إن المظاهرات - كما قلت- قد تكون مظاهرات تأييد للحكومة، أو تكون مظاهرات استنكار وسخط عليها، ولم تكن هذه المظاهرات من هذا النوع أيضًا، فإنها كانت منصبة بصفة خاصة على وزير واحد فقط، هو فؤاد سراج الدين وزير الداخلية، فما سر ذلك كله..؟!

السر هو في تلك التيارات الخفية التي كانت لها أساليب متعددة، والتي كانت تدفع عواطف الناس دفعًا وتذكيها، كانت هذه التيارات تهدف إلى زيادة شقة الخلاف بين الملك والحكومة، وبصفة خاصة بينه وبين وزير الداخلية المسئول عن الأمن، الذي سمح بقيام مظاهرات تهتف ضد الملك لأول مرة منذ توليه العرش.

وأن وزير الداخلية وهو من هو في وزارة الوفد، قادر على كبح جماح هذه المظاهرات، ولكنه يتركها لأنه يريد أن ينتقم من السراي، ويبهدل في السراي، كان هذا هو «تكتيك» هذه التيارات الخفية، وكنا نحن البوليس السياسي نعلمه ونبصر به.

وهكذا علت وارتفعت بعض الأصوات، وهكذا كان صداها بين الناس، ولكن هل ما صرخت به هذه الأصوات صحيحًا؟ وهل كان حقًا..؟

هل كان الفدائيون - حقيقة- على هذا الحال الذي صرخ به الصارخون، لا يجدون

سلاحًا ولا طعامًا، ويـأكلون الحشـائش، ويـنـامون في العـراء، هـل كـان مـن العقـل أو الحكمة أو الوطنية أن يعلن على العالم أن الأمة المصرية قـد أفلسـت..؟! وأنـه خـلاص مافيش فايدة..؟!

وهل تستفيد الأمة المصرية من هذا الإعلان شيئـًا..؟! هل كان في ذلك بعـث لهـا أم موات..؟ لا أظن أن في ذلك بعثـًا أو أملاً، أو رجاءً فلمصـلحة مـن كـان هـذا الصـراخ، والعويل والندب إذن..؟!

إن الفدائيين لم يكونوا على هذا الحال الذي صوره النائحون، فقد كـان يتـولى أمـرهم بالشرقية لجنة مشكلة من كبار أهل المديرية، وأصحاب الشـأن فيهـا، وكـان كـل شـيء متوافرًا لديهم، وكان يشترك مع الفدائيين بعـض الرجـال الـذين أبقـى اشـتراكهم سـرًّا، وكان معهم ضباط من البوليس.

كانت هناك كتائب طلبة الجامعات التي كان يشرف عليهـا إداريًـا وعسـكريًا وماليًـا الدكتور عبد الوهاب مورو، وضباط البوليس بهـا، فـإذا اتفقنـا عـلى أنـه لم يكـن في هـذا الصراخ والإعلان بعث أمل، أو رجاء للأمة المصرية، وإذا تبينا أن حال الفدائيين لم يكن بالصورة التي صورها النائحون.

فلماذا قالوا ذلك..؟!! ولماذا أعلنوه وكرروه..؟! وما دافعهـم..؟ ومـن دافعهـم..؟ ومن صاحب المصلحة والمستفيد من كل ذلك..؟!

شيء آخر غير ذلك، كـان هنـاك همـس خبيـث، وكـان المتهامسـون يتسـاءلون، مـا سمعتش حاجة عن حكاية السـويس..؟! لأ.. فيـه إيـه في السـويس..؟! مـش الفـدائيين حرقوا كنيسة الأقباط في السويس، وناس كتير اتحرقوا فيها، تصور الخيانة، واحد قبطـي كان يتجسس على الفدائيين في السويس، ولما اكتشفوا أمره هرب وجري عـلى الكنيسـة، فجروا وراءه، وحرقوا الكنيسة باللي فيها، كده مافيش فايدة.. مافيش فايدة يا بك.

كان هذا الهمس، أو هذا السم يجـري ويسـري عـلى ألسـنة النـاس، كـانوا يتناقلونـه بعضهم يردد ما يسمع دون وعـي، أو غـرض أو هـدف، اللهـم إلا أنـه يحـب الدردشـة والحديث، والظهور بمظهر الرجل الخطير العالم ببواطن الأمور، وبعض آخـر كـان هـو الأفعى التي تنفث السم فيسري ويجري في الآخرين.

ولقد كان هذا الأمر خطيرًا كل الخطورة، فلقد أوشكت فتنة عارمة أن تشتعل وتندلع في عنصري الأمة، ولم يكن الحادث الذي تهامس به الناس بمثل هذه الصورة، وبأنه خيانة وأنهم مغرورون، وما كان يجب أبدًا أن يصور بمثل هذه الصورة الخبيثة.

لقد وقع حادث في السويس حقيقة، اعتديَ فيه على كنيسة إخواننا الأقباط بالسويس، وكان الاعتداء كريهًا ثقيلاً، ووقع ضحايا أعزاء، ووقع الحادث مدبرًا، وكان من التدبير فيه استغلال العواطف، العواطف الجياشة التي تندفع ويضيع فيها صوت العقل والحق، ولذلك وقع الحادث الكريه، وكان عنيفًا.

وقيل إن أحد إخواننا الأقباط كان يتجسس على الفدائيين، وسرى هذا القول، وأشير إلى الرجل بأنه جاسوس، وجرى هذا الرجل يحتمي بالكنسية، وجرى ما جرى وحرقت الكنيسة، ولقد تنبه المسئولون إلى جسامة هذا الحادث وخبث دوافعه، وانتقل أحد الوزراء إلى السويس، واجتمع المجلس الملي في القاهرة، ووضحت الأمور، وتكشفت الدوافع ثم هدأت الخواطر، وقضيَ على الفتنة التي أريد إشعالها بين عنصري الأمة، في هذه الظروف بهذا الادعاء السخيف.

ادعاء أن واحدًا من إخواننا الأقباط كان يتجسس على الفدائيين، وكان هذا الادعاء كاذبًا مفتعلاً، فقد كان في صفوف الفدائيين أقباط وأبلوا أحسن البلاء، ولم يكن أحد يذكر هذه النعرة الخبيثة، مسلم وقبطي.

ومرت الأيام، وعاد الإنجليز يستأنفون خططهم ومؤامراتهم، وقالوا: إنه إذا لم تتوقف أعمال الفدائيين في القنال فإن الإنجليز سيمنعون عن القاهرة البترول والبنزين والكيروسين، ويشلون حركتها ويوقفون مصانعها، وأوشك الإنجليز أن ينفذوا تهديدهم هذا لولا تدخل السفير الأمريكي، فنكصوا على أعقابهم.

واستمر الفدائيون ورجال البوليس يجاهدون ويقاتلون، وعادت الأصوات تعلو وترتفع مرة أخرى بأن القاهرة تسهر وتسخر وتسكر، والإسكندرية كذلك، ومنطقة القنال تلتهب والفدائيون يستشهدون، وأن هذا لا ينفع وأنه مافيش فايدة.

وأثناء ذلك وقع حادث آخر، ولم يكن في السويس هذه المرة بل كان في الإسماعيلية، الإسماعيلية التي كان الإنجليز قد عادوا إلى احتلالها، وجعلوا منها مستعمرة بريطانية،

ومنعوا الدخول فيها إلا بتصريح من السفارة البريطانية.

فقد قتلت ممرضة أمريكية في خسة ونذالة، ونشرت الصحف الإنجليزية في لندن أخبار هذه الجريمة الوحشية، وأقام الإنجليز من أنفسهم محققين ومحلفين وقضاة، وقالوا إن الفدائيين المصريين المتوحشين هم الذين قتلوا الممرضة الأمريكية البريئة، وإن على أمريكا أن تتحمل نتيجة سياستها في الشرق الأوسط، وفي مصر التي قتلت إحدى رعايا أمريكا.

والتقطنا نحن البوليس السياسي القفاز، وقمنا نبحث في هذا الحادث بحثًا عميقًا دقيقًا في صبر وفي أناة، واستطعنا أن نكشف النقاب، وأن نعرف القتلة المتوحشين، وجمعنا الأدلة الدامغة، ولطمنا الإنجليز لطمة قوية، فقد كان القتلة هم الإنجليز، وكان القتل من تدبيرهم.

وأثبتنا أن الفدائيين المصريين أبرياء شرفاء، وأنهم لا يحاربون النساء حتى لو كن إنجليزيات أو أمريكيات، وفهم الأمريكان اللعبة، ووقع الإنجليز فيما أرادوا أن يوقعوا مصر فيه.

كل ذلك والهمس المسموم لم يكف عن السريان، وهؤلاء الذين يحبون الظهور بمظهر العالمين ببواطن الأمور لا يكفون عن الثرثرة، والكلام والهمس..!

إلى أن كان يوم 25 يناير 1952م، وكان يوم جمعة نفذت حيل الإنجليز وألاعيبهم ومؤامراتهم، فركبوا رؤوسهم وتحركوا بقواتهم ودباباتهم إلى مبنى محافظة الإسماعيلية، وضربوا حصارهم ووجهوا فوهات مدافعهم إلى عساكر وضباط البوليس الذين كانوا يعسكرون هناك، وطلبوا منهم أن يستسلموا ويسلموا أسلحتهم، وهددوهم بالفناء إن لم ينفذوا بعد ساعة واحدة، فرفض الأبطال ورد الضباط بأنهم لن يسلموا ولن يستسلموا إلا جثثًا هامدة.

وفتح الإنجليز النيران، وقاوم ضباط وعساكر البوليس، حتى دكت عليهم المحافظة دكًا، وحصدوا وقتلوا، ووقع منهم ألف عسكري وضابط أسرى، وهكذا وقعت هذه النكبة الكبرى، وخيمت على مدينة الإسماعيلية سحب الكآبة والحزن والألم، وسرت إلى القاهرة وإلى أنحاء البلاد، وأذيعت تفاصيل المأساة، وباتت البلد في غليان شديد.

واجتمع مجلس الوزراء اجتماعًا عاجلاً لمواجهة هذه الحال، وكان اجتماعًا أحيط بسرية كبيرة، واستمر مجتمعًا وقتًا طويلاً، وسهر الإنجليز ليعرفوا ما يتمخض عنه هذا الاجتماع، وكانوا تواقين ليعرفوا ما سيصدره من قرارات.

وقد استطاعوا أن يعرفوا - بوسائلهم الخاصة- هذه القرارات، رغم إحاطة الاجتماع بالسرية في ليلة صدورها، ولو أن هذا القرارات لم تنفذ؛ لأن الحوادث جرت بعد ذلك وجرفت كل شيء، وتفادى الانجليز تنفيذ هذه القرارات، ولم يضيع سهرهم لمعرفتها عبثًا، وكانت القرارات تتضمن:

1- إبعاد كل من «كين بويد»، و«اسفنكس» ورجل ثالث كان يعمل بالسفارة البريطانية من البلاد.

2- بحث المجلس قطع العلاقات السياسية بين مصر وإنجلترا، ولم يستكمل بحثه، وأرجأ استئناف البحث إلى جلسة أخرى تعقد يوم الأحد 27 يناير 1952م.

وانفض المجلس على ذلك، ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد..؟!

إن النكبة التي وقعت بالإسماعيلية قد فاقت كل النكبات، وأصابت كل مصري كأنه كان مع هؤلاء الأبطال الذين حصدوا وأسروا بمبنى المحافظة، فبات الناس في هم، وفي ثورة، وفي غليان، وقبل أن يشرق فجر يوم جديد وقع حادث جديد في القاهرة.

في مطار القاهرة الدولي، كانت هناك ثلاث طائرات إنجليزية وصلت إلى المطار وبها ركاب من جنسيات مختلفة، وامتنع العمال المصريون عن تزويدها بالوقود، وحاول بعضهم الاعتداء عليها، وعلى من فيها من الركاب من الجنسيات المختلفة، ولكن استطاع البوليس في المطار أن يقنع العمال بأن ذلك ضررًا وإضرارًا، واقتنع العمال وانتهى الأمر بسلام، ولكنه كان الشرارة الأولى.

الشرارة الأولى التي انبلج صبح يوم جديد عليها، وبدأ اليوم مشحونًا، كانت التفصيلات قد أذيعت في الراديو وفي الجرائد، وكان الناس يتجمعون في الطرقات أمام المقاهي يستمعون إلى الإذاعة، وكانوا يقرأون لبعضهم ما نشرته الجرائد، وبدا على وجوه الناس السخط والحيرة، ما العمل في ذلك..؟!

كان هذا يجري في الشوارع والمقاهي والترام والأوتوبيس، وهناك في مكـان آخـر في الجيزة كان يجري شيء آخر، شيء جديد أيضًا، كل شيء كان جديدًا في هذه الأيام، ففي الجيزة سار نحو ألف عسكري مـن بلوكـات نظـام الأقـاليم، ومعهـم بعـض ضـباطهم وتوجهوا إلى الجامعة.

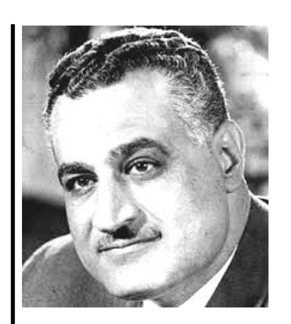
وفتحت أبواب الحرم الجامعي، وأقبل الطلاب من كل صـوب، طلبـة جامعـة فـؤاد وإبراهيم، والأزهر، والمدارس الثانوية، وعقد الطلبة وعساكر البوليس مؤتمرًا، وخطب بعض ضباط البوليس وقالوا كلامًا جديدًا، فقد وقف بعضهم يلعن الحكومة والسـراي، ويدعو الشعب للعمل.

ووقف الطلبـة والطالبـات يتبـادلون الخطابـة، ويحملـون العسـاكر عـلى الأكتـاف، ويحمل العساكر الخطباء والخطيبات على الأكتاف أيضًا، وكـان مـؤتمر جديـدًا أيضًـا، وقرروا أن يتوجه المؤتمرون «البوليس وشـبان الجامعـة» إلى رئاسـة مجلـس الـوزراء؛ ليطلبوا طلباتهم واقتراحاتهم.

وخرجوا من حرم الجامعة، عساكر البوليس والطلبة وكانوا ألوفـًا، ومشوا من الجيزة إلى قصر النيل، واخترقوا شوارع المدينة يهتفون وينادون، والتفـت النـاس الـذين كـانوا يتجمعون أمام المقاهي وفي الطرقات وفي الترام وفي الأوتوبيس.

هؤلاء الذين كانوا في حيرة، والذين كانوا يقولون ما العمل في ذلك، فساروا معهم إلى رئاسة مجلس الوزراء.

■■ من وراء حريق القاهرة..؟! (1)



1918 - 1970

وخرج عساكر البوليس والطلبة من الجامعة، ومشوا واخترقوا شوارع المدينة يهتفون وينادون، والتفت الناس الذين كانوا يتجمعون أمام المقاهي، وفي الطرقات، وفي الترام، وفي الأوتوبيس، هؤلاء الذين كانوا في حيرة وساروا معهم إلى رئاسة مجلس الوزراء.

وهكذا سار الناس مع عساكر البوليس في مظاهرة ضخمة جارفة ساخطة، وكان بعض العساكر محمولاً على الأعناق، يهتفون وينادون ويصرخون «أين السلاح يا نحاس..؟! أين السلاح يا سراج الدين..؟! نريد السلاح.. نريد السلاح..».

ويردد المتظاهرون النداء، والهتاف يتردد صداه بين هذه الجموع التي انتظمت في موكب المظاهرة، والتي لم تكن تعرف إلى أين المسير، وكان شيئًا جديدًا أيضًا، جديدًا في الضبط والربط والنظام العسكري، وجديدًا على الناس الذين اعتادوا أن يروا البوليس يشتت المظاهرات ويجري وراء المتظاهرين، أو بالقليل يراقب سير هذه المظاهرات – إن

(1) محمد عبد العزيز: المرجع السابق، 2015م، ص215–226.

كانت الحكومة قد صرحت بها أو أباحتها- ليقمع في الوقت المناسب كل ما قد يقع فيها مخلاً بالأمن، أو مخالفـاً للقانون.

كان جديدًا على الناس أن يروا البوليس نفسه يتظاهر ويقود المظـاهرات، ويهتـف في المظاهرات ويعرِّض بالحكومة وبرئيس الحكومة، وبوزير الداخليـة، الـذي هـو رئـيس البوليس، والبوليس هو الذي ينفذ القانون ويمنع الإخلال به، ويقبض على من يخل بـه، ويحمي الحكومة.

والتظاهر والهتاف ضد الحكومة جريمة نص عليها قانون العقوبات، ولكن البوليس اليوم، يوم 26 ينـاير 1952م لا يمنـع، ولا يقـبض، ولا يقمـع، ولكنـه يتظـاهر، ويقـود المظاهرات، ويهتف ويسخط، فماذا جرى..؟ وكيف انقلبت الآيـة هكـذا..؟ هـل هـي عواطف جياشة غمرت نفوسهم ودفعتهم وأخرجتهم من الطابور..؟

أم أن هذه العواطف قد جاءتهم من طريق آخر، عن طريق الوحي أو الإيحاء الذي هو التحريض الذي يعرفه القانون، والذي هو أشد منه مفعولاً، وأن الفرصـة كانـت مواتيـة وهي – كما سبق أن ذكرت- قد تكون خيرًا من كل تربص أو ترصد، أم أنـه كـان هنـاك شيء آخر غير ذلك كله.

على أي حال، أيًّا كان مبعث هذه العواطف نبتـًا أو إيحاءً أو غير ذلك، فما الذي كـان يهدف إليه العساكر من حركتهم ومن تظاهرهم، أو بتعبير آخر أعم: ما الهدف..؟

فمثلاً من باب التمثيل فقط، في بعض حوادث سرقة المحال التجارية – خاصة محال بيع المجوهرات- التي بحثت فيها إبان عملي بـإدارة المباحـث الجنائيـة مـع المرحـوم الأميرالاي أحمد عبد الرحمن، تبينت أن العصابات التـي كانـت ترتكـب هـذا النـوع مـن السرقات كانت تلجأ إلى طريقة معينة لارتكاب السرقة في اطمئنان وأمان.

فكان أفراد العصابة يتفقون على أن يتولى بعضهم أمر عسـكري الدوريـة الـذي يقـف قريبًا من المحل المراد سرقته، ويتربص الباقون في مكان قريب، وفجأة تحدث مشـاجرة ويعلو الصخب والجلبة، فيسرع العسكري ليستطلع الخبر، ويفض المشاجرة ولكنها لا تنفض بل تزداد، ويصر المتشاجرون على الذهاب إلى القسم، ويتشـادون مـع العسـكري نفسه ويثيرونه، فيصر هو الآخر على أنه لازم يوديهم القسم، ويترك الدورية فيخلو الجـو

للشركاء المتربصين، فيكسرون المحل ويسرقون في أمان واطمئنان.

فهذه المشاجرة المصطنعة لها هدف معين هو إبعاد العسكري الحارس، وإخلاء الطريق لبقية الشركاء، فما الهدف الذي من أجله خرج هؤلاء العساكر من ثكناتهم في غير ضبط ولا ربط ولا نظام..؟

ما الهدف الذي من أجله عقدوا أو اشتركوا في المؤتمر الذي عقد في الجامعة..؟! ما الهدف الذي من أجله ساروا في المظاهرات يخطبون ويصخبون..؟! وهل يختلف الهدف باختلاف الإجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة الثلاثة..؟!

هناك حقيقة ثابتة، هي أنه لم يشترك في هذه المظاهرة إلا عساكر بلوكات نظام الأقاليم، فلم يشترك فيها عساكر بلوكات نظام مصر، ولم يشترك فيها عساكر بوليس الأقسام، العساكر المتطوعون القدماء المتمرنون، هؤلاء الذين لا يتركون دركاتهم لفض مشاجرة مصطنعة.

وهناك حقيقة أخرى، أنه لم يشارك كل عساكر بلوكات نظام الأقاليم، ولكن الذي اشترك وخرج في غير نظام، ولا ضبط، ولا ربط، هم عدد معين منهم فرقة معينة فقط، أما الباقون، باقي عساكر بلوكات نظام الأقاليم، فقد كانوا منتظمين، فهل هناك سر في ذلك..؟

شيء بسيط من الشرح، إن عساكر بلوكات النظام يُختارون من بين أنفار القرعة المطلوبين للتجنيد العام بعد فرزهم، وبدلاً من أن يُلحقوا بوحدات الجيش، - كما هو الغرض الأول والأصلي من التجنيد- فإنه يُلحقون بقوات البوليس للعمل به كقوات احتياطية للطوارئ.

وتتولى وزارة الداخلية أمرهم، وتقوم «بتفنيطهم» على المحافظات والمديريات، وتسمى القوات التي تخصص للخدمة بالمحافظات، مصر أو الإسكندرية مثلاً باسم «بلوكات نظام بوليس مصر»، أو «قوات بلوكات نظام بوليس الإسكندرية»، ويكون مقر هذه القوات وثكناتها بالمحافظة التي ألحقت بها، وتكون تابعة لحكمدارية بوليس المحافظة.

أما القوات التي تخصص للخدمة بالمديريات فتسمى باسم «بلوكات نظام الأقاليم» وهي تتبع إدارة البوليس بوزارة الداخلية، ولكن لها قيادتها وضباطها المختصون بها، ومقرها وثكناتها بالقاهرة بجوار ثكنات بلوكات نظام بوليس مصر.

وعندما تحتاج إحدى المديريات إلى قوات زيادة على القوات الموجودة بها بسبب ظروف طارئة، أو حالة ما تستدعي قوات البوليس بها، فإن هذه القوات ترسل إليها من ثكنات قوات بلوكات نظام الأقاليم بالعباسية بالقاهرة.

وبناءً على ذلك كانت القوات التي تحتاجها مديرية الجيزة ترسل إليها من القاهرة، وكانت هناك حالة تستدعي إرسال قوات من بلوكات نظام الأقاليم إلى مديرية الجيزة، فإن الجامعة تقع في دائرة مديرية الجيزة، وكانت هناك ظروف استدعت أن يرسل إلى مديرية الجيزة 800 عسكري يوميًا.

فما الذي حدث يوم 26 يناير سنة 1952م يوم حريق القاهرة..؟ الذي حدث في هذا اليوم، هو نفس ما كان يحدث كل يوم، فالقوات المقرر إرسالها يوميًا من بلوكات نظام الأقاليم إلى مديرية الجيزة خرجت فعلاً في الصباح الباكر من ثكناتها بالعباسية ووصلت إلى مديرية الجيزة في هدوء ونظام، وأخذت أماكنها لأداء الخدمة المناط بها.

وبعد ذلك خرجت قوات أخرى من نفس الثكنات، ثكنات بلوكات نظام الأقاليم بالعباسية، خرجت بدون أمر رسمي، وخرجت مخالفة لأمر رسمي، كان قد صدر خصيصًا لهذه القوات، وكان هذا الأمر يقضي بأن تلزم هذه القوات ثكناتها، لا تكلف بعمل ولا تؤدي خدمة، وكان لهذا الأمر سر، وكان له حكمة فهؤلاء العساكر - بالذات- كانوا من أسبوعين اثنين سابقين على يوم 26 يناير سنة 1952م بالسويس، وكانوا يشتركون في قتال الإنجليز.

وفجأة توقفوا عن القتال، ورددوا ما كانت قد علت وارتفعت به بعض الأصوات، أصوات النائمين بأنه مفيش فايدة، مفيش سلاح، عاوزين سلاح، وقال هؤلاء العساكر: «عاوزين نرجع مصر، إحنا بقى لنا مدة طويلة في السويس، هاتوا عساكر غيرنا من عساكر البلوك اللي في مصر».

وقد كان وأعيدوا إلى القاهرة إلى ثكنات البلوك بالعباسية، وأرسل غيرهم من نفس

الثكنات إلى السويس، وصدر هذا الأمر الرسمي، بأن تلزم هذه القوات العائدة ثكناتها، وبقيت هكذا.

وفي صباح يوم 26 يناير سنة 1952م خرجت على هذه الصورة التي خرجت بها، ولكنها لم تسر في شوارع القاهرة ولم تتظاهر، ولم تهتف بشيء مما كان - أو المفروض أنه كان- يعتمل في نفوس أفرادها، ولكنها قصدت إلى الجيزة مباشرة ودخلت الحرم الجامعي.

فما سر ذلك..؟ لماذا لم تقصد هذه القوات وزارة الداخلية مثلاً، وتطالب بالسلاح الذي تنادي بالمطالبة به عندما سارت مع الناس، في مظاهرة في شوارع القاهرة..؟

هل كانوا على موعد في الجيزة..؟ هل كان هناك ترتيب بأن يتوجهوا إلى الجيزة وإلى الجامعة..؟

لقد خرجوا - على كل حال- وأخذوا طريقهم إلى هناك، وصدر الأمر لبعض ضباطهم أن يلحقوا بهم، وأن يعيدوهم إلى ثكناتهم، وأسرع أحد أو بعض هؤلاء الضباط للحاق بهم.

وانتقل مدير عام البوليس الذي تتبعه قوات بلوكات نظام الأقاليم وقتئذٍ اللواء أحمد عبد الهادي إلى الجيزة، وطلب من المسئولين في وزارة الداخلية اتخاذ أمر معين، لو كان تم هذا الإجراء، لو كان تم تنفيذه لما حصل شيء مما حصل، أو على الأقل لما حصل على هذه الصورة التي وقع بها.

ولكن المسئولين - أو بعض المسئولين- في وزارة الداخلية وقتئذٍ لم ينفذوا ما اقترحه مدير عام البوليس وما طالب به، ولست أدري الحكمة في ذلك، إن كان في ذلك حكمة..؟

فقد طالب مدير عام البوليس بأن تفتح الكباري الموصلة بين الجيزة والقاهرة ليمنع العساكر المتمردين من السير في القاهرة، فقد كانت الأهداف التي دعت هؤلاء العساكر إلى الخروج بهذه الصورة التي خرجوا بها قد بدأت تتضح، أو تبين بعض معالمها.

ولهذا عندما تنبه بعض المسئولين في محافظة القاهرة، اتصلوا بحكمدار الجيزة

الذي أسرع فنقل قوات البلوك التي قد وصلت إلى المديرية - قبل خروج القوة المتمردة- وأخذت أماكنها لأداء الخدمة المناطة بها، أسرع فنقلها إلى أماكن بعيدة متفرقة، ولذلك عندما وصل العساكر المتمردون لم يجدوا زملاءهم الذين أرادوا أن يضموهم إليهم في حركتهم.

واحتاروا ولكن حيرتهم لم تطل، فقد فتحت لهم أبواب الجامعة، ودخلوا الحرم الجامعي، واشتد حماس الطلبة والطالبات لرؤية العساكر وعلا الهتاف، وكثر الخطباء، وكان أحد أو بعض الضباط الذين كلفوا باللحاق بالعساكر وإعادتهم إلى ثكناتهم قد لحقوا بهم، وعقد المؤتمر، وخطب الطلبة، كما خطب بعض هؤلاء الضباط، ثم خرج الطلبة والعساكر متظاهرين يهتفون.

وهناك حقيقة ثابتة هي أن بعض العساكر المتمردين قد انسحبوا من المظاهرة التي خرجت من الجامعة وانسلوا عائدين وحدهم إلى ثكناتهم قبل أن تصل المظاهرة إلى رئاسة مجلس الوزراء، فما تفسير ذلك..؟

هل أفاق هؤلاء العساكر مما كان واقعًا عليهم من تأثير أو إيحاء..؟ أم تذكروا فجأة أنهم عساكر لا يليق بهم التظاهر والهتاف..؟ أم أنهم ندموا عما صدر منهم فعدلوا عما كان يعتمل في نفوسهم..؟

وغير ذلك فإن هؤلاء العساكر المتمردين، حقق معهم في تحقيقات طويلة، وسئلوا لماذا خرجتم من الثكنات بهذه الصورة التي خرجتم بها، ولماذا تظاهرتم..؟

وكانت الإجابة عجيبة، فقد أجابوا بأنهم خرجوا وتظاهروا لأنه لم تصرف لهم مرتبات الطوارئ، ففيم إذن هتافهم وصراخهم: نريد السلاح.. نريد السلاح..؟ وقرر هؤلاء العساكر أن بعضهم فقط هو الذي كان ينادي ويهتف وأنهم كانوا يرددون النداء، وأنهم انسحبوا بعد ذلك، وكان هذا حقـًا فعلاً.

فإن المظاهرة الصاخبة الكبيرة التي خرجت من الجامعة ووصلت رئاسة مجلس الوزراء كان عدد العساكر فيها عندما وصلت إلى هناك قد أصبح قليلاً، ولكنهم - قلوا أو كثروا- كانوا قد ساروا فعلاً في الشوارع متظاهرين، ورآهم الناس وساروا معهم ولم يعترضهم أحد.

وفهم الناس أن كل شيء أصبح مباحًا، وسرت هذه الروح فعلاً، ووقف رجال البوليس فعلاً، وتركوا المظاهرات تسير وتصخب وتسخط، وكان التيار قويًا جارفًا، وعندما وصلت التظاهرة إلى رئاسة مجلس الوزراء، فتحت لهم الأبواب ودخل المتظاهرون إلى ردهات وغرب دار الرئاسة، ووقف الخطباء طلبة وضباطًا، وأسرع أحد الوزراء المسئولين إلى الحضور إلى دار رئاسة مجلس الوزراء.

***

إلى هنا تتوقف المذكرات كما أسلفنا القول في مقدمة الكتاب، بسبب تقليص عدد صفحات مجلة «روز اليوسف» التي كانت تنشر هذه المذكرات، وللأسف توقفت عند نقطة هامة لا تزال لغزا في تاريخ مصر الحديث، صحيح أن الجزار كشف عن بعض الحقائق الخفية التي لا يمكن أن تعد دلائل في كشف غموض حريق القاهرة، إلا أنها توقفت دون تفاصيل، ربما كانت قد كشفت عن الفاعل الحقيقي في القضية، وهو الأمر الذي جعلنا نعود لملفات القضية حيث وجدنا مجموعة من التقارير والوثائق التي كتبها الجزار بخط يده، وثبت في هذه التقارير والوثائق أن المحرض الأول والمتسبب في حريق القاهرة هو أحمد حسين وأنصاره من حزب مصر الاشتراكي، وأيًّا ما كانت صحة هذا الادعاء فهذا ما كان يرمي إليه الجزار من خلال مذكراته، وبالتدقيق في الحلقات الأخيرة سنجد أنه أشار إلى هذا المحرض الخفي الذي كان يوحي للشباب الوطني بأعمال دون تصريح حقيقي، ويبدو أن هذا المحرض لم يكن سوى الزعيم أحمد حسين في رأي البوليس السياسي بالطبع، وهذا نموذج من هذه التقارير.

وثائق عن هذه الحقبة الزمنية

الوثيقة الأولى:

وزارة الداخلية

حكمدارية بوليس مصر - القسم السياسي - بتاريخ 12 فبراير 1952م، وقد جاء فيه:

«بمعرفتنا نحن الصاغ محمد الجزار بالقسم السياسي بمحافظة مصر، أثبت أنه

باستمرار البحث عن مرتكبي حوادث 26 يناير 1952م علمنا من التحريات أنه في صبيحة هذا اليوم كان موجودًا بدار حزب مصر الاشتراكي كل من:

1- زكريا مصطفى حنفي سكرتير دار الحزب

2- إبراهيم نصحي عضو الحزب

وأنه حضر لدار الحزب الأستاذ إبراهيم الزيادي المحامي وسكرتيره العام وبعض الطلاب، وأنه حدثت اتصالات تليفونية بين المذكورين وبين الأستاذ أحمد حسين رئيس الحزب، وأنهم تلقوا تعليمات وأوامر من الأستاذ أحمد حسين، كان من نتيجتها ارتكاب الحوادث التي وقعت في هذا اليوم، وعلمنا أنه حضر إلى دار الحزب وقت حصول هذه الاتصالات محمد أفندي الحلو الذي كان يعمل سكرتيرًا خاصًا للأستاذ أحمد حسين، الذي يشتغل الآن بمكتب قيادة كتائب سعادة عزيز المصري باشا بشارع محمد سعيد نمرة (12)، وأن محمد الحلو أفندي لديه معلومات عن هذه الاتصالات التليفونية، وعن الأشخاص الذين كانوا موجودين بدار الحزب في ذلك الوقت، وقد تحرينا من محمد أفندي عن ذلك فعلمنا منه أن لديه معلومات تفيد التحقيق، وقد أحضرناه لتقديمه إلى النيابة لإبداء معلوماته».

الوثيقة الثانية:

وزارة الداخلية

حكمدارية بوليس مصر - القسم السياسي - بتاريخ 15 مارس 1952م، وقد جاء فيه:

«باستمرار البحث عن مدبري ومرتكبي حوادث 26 يناير 1952م قد علمنا من التحريات التي أجريناها أن من بين الطلبة الذين توجهوا إلى دار الحزب الاشتراكي ذلك اليوم، واتصلوا تليفونيًا بالأستاذ أحمد حسين الطالب إبراهيم السيد علي بكلية الحقوق، وأن هذا الطالب هو الذي اتصل بالأستاذ أحمد حسين وبعد اتصل به الأستاذ إبراهيم الزيادي سكرتير عام الحزب.

وإبراهيم السيد علي المذكور من أعضاء الحزب الاشتراكي العاملين، وأحد أفراد

كتائب الحزب البارزين، وهو معتقل الآن وقد سبق أن ضبط المذكور ومعه كل من عادل محمود حسين - شقيق أحمد حسين- وهو طالب بكلية العلوم، وعبد العزيز إبراهيم عطا الله بكلية العلوم أيضًا، والطالب مصطفى حجازي الطالب بكلية الهندسة، سبق أن ضبطوا بجهة المعادي ومعهم أسلحة، وقد حررت وقاعة قيدت برقم (112) جنح المعادي».

وعلى الجانب الآخر ومن نفس أوراق القضية نجد اتهامات أخرى تتهم صراحة رجال البوليس السياسي أنفسهم بالتخطيط والتحريض على حريق القاهرة، وأبرز من اتهم البوليس السياسي هذا الاتهام كان فؤاد سراج الدين باشا (وزير الداخلية وقت حريق القاهرة)، وجاء في شهادته أمام المحكمة:

«أما بالنسبة للواء محلي إبراهيم إمام بك وكيل الحكمدار ورئيس القلم السياسي، فالأمر أخطر لأنه كما علمت أصدر أمرًا إلى مساعدي الحكمدار ومفتشي البوليس في صباح يوم الحوادث بعدم تفريق المظاهرات، مخالفـًا بذلك التعليمات الصريحة الواضحة التي أشرت إليها، فقد علمت أن الحكمدار مرد بك الخولي كان قادمًا حوالي الساعة 11 صباحًا من شارع إبراهيم باشا، فرأى مظاهرة تسير والبوليس لا يفرقها، فدهش للأمر حيث إن التعليمات تقضي بالتفريق، فسأل الحكمدار مساعده صادق لمعي بك عن سبب عدم تفريق المظاهرة، فقال المساعد إن إمام بك أمر بعدم تفريق المظاهرات في ذلك اليوم، كما علمت من المحافظ بالنيابة بعد الحوادث أن عبد العزيز بك علي مفتش فرقة «ب» أخبره أنه رأى ميدان عابدين ممتلئـًا بالمتظاهرين، ولما أراد تفريقهم قيل له إن إمام بك أمر بعدم تفريق المظاهرات.

كما قدمت إليَّ مذكرة من زكريا أفندي راشد عما شاهده، من أن حوادث ذلك اليوم تنطبق بوضوح بالموقف المزري المريب الذي اتخذه إمام بك في ذلك اليوم، وإني أقدم هذه المذكرة لسعادتكم.

يضاف إلى ذلك أنه يعلم تمامًا وشخصيًا بأنه كان دائم الاتصال بي مباشرة ليلاً ونهارًا، بتعليماتي المشددة بمنع المظاهرات وبتفريقها بالقوة، ولو استدعى الأمر إطلاق النار في المليان، وقد تنفذ ذلك فعلاً في مظاهرات الطلبة بالعباسية والحسينية منذ أيام

قليلة سابقة ، وأطلق البوليس النار تنفيذاً لهذه التعليمات الصريحة، وتوفي اثنان من الطلبة وشتان بين تلك المظاهرات وحوادث يوم 26 يناير ومظاهراتها.

كما أنه يعرف أني قبل مظاهرات تلك المدارس استدعيته هو شخصيًا والحكمدار إلى مكتبي بالوزارة ذات مساء، ولمتهما بشدة متناهية لتهاونهما في تفريق مظاهرات سابقة كانت خطورتها وخطورت الظروف التي وقعت فيها لا تقارن بمظاهرات يوم 26 يناير من حيث الخطورة أو الظروف، وقد حضر بالصدفة معالي حيدر باشا هذه المقابلة التي تمت بمكتبي، ووجه إليهما النصح بضرورة تنفيذ تعليماتي بفض المظاهرات.

كما أنه يعرف أيضًا أني بعد هذه المقابلة التي حضرها حيدر باشا استدعيتهما هو والحكمدار، وكنت قد هممت بإصدار أمر بإيقافهما عن العمل لسماحهما ببعض المظاهرات، ولولا تدخل بدوي خليفة باشا، وحسين بك صبحي مدير الأمن العام ورجاؤهما لأصدرت أمر الإيقاف، وقد ترتب على غضبي منهما في ذلك اليوم أن عقد الحكمدار اجتماع يوم 17 يناير 1952م وحضره إمام بك، وصدرت فيه هذه التعليمات المشددة التي تقضي بتفريق المظاهرات على اختلاف أنواعها بالقوة دون تفريق بين المظاهرات العدائية وغيرها من المظاهرات.

فمن الغريب أنه رغم هذا كله، بعد أن يعرف بتمرد جنود البلوكات وضباطهم، وبعد أن يراهم بعينيه مشتركين في ميدان عابدين، وأمام كازينو أوبرا في المظاهرات، ومن الغريب أنه على الأقل بعد أن اتضحت له هذه الظروف الخطيرة لا يعدل عن الأمر الذي أصدره في الصباح، فيأمر بفض المظاهرات وإطلاق النار في المليان، وليس له أن يدعي بإصدار هذا الأمر، أو أن البوليس أطلق نارًا في المليان بدليل عدم وجود إصابات تذكر بالقتل.

يضاف إلى هذا أن الحالة كانت معلنة حالة طوارئ منذ فجر اليوم، وهو كوكيل للحكمدار اشترك في إصدار هذا القرار، وفي إعلان الحالة «ج» في ذاته نذيرٍ كافٍ لكل ضابط بوليس باحتمال وقوع خطر، ولا يمكن الجمع بين السماح للمظاهرات أيًّا كان نوعها وبين إعلان حالة الطوارئ في المدينة، ولو جاز له في أي يوم من الأيام أن يصدر مثل هذا الأمر لما جاز له إصداره في هذا اليوم بالذات عقب حوادث 25 يناير التي جرت في الإسماعيلية، وفي يوم يعرف هو أن أكثر من خمسين ضابطًا من كبار ضباط

البوليس بالقاهرة مدعوون للغداء على المائدة الملكية، ومنهم الحكمدار وجميع وكلائه ومساعديه ومفتشي الطرق وجميع مأموري الأقسام.

يُضاف إلى ذلك أيضًا أنه لم يستأذن الحكمدار رئيسه في إصدار هذا الأمر الذي أصدره، وفي مخالفة التعليمات التي أصدرها الحكمدار من قبل بتفريق كل مظاهرة، كما لم يرجع في هذا الشأن إلى مدير الأمن العام، أو إلى وكيل الوزارة المختص، ولم يتصل بي طوال اليوم على جسامة ما وقع من أحداث، برغم من أنه كان دائم الاتصال بي ليلاً ونهارًا في أتفه الأمور.

وبالطبع إن صح هذا الاتهام سيكون البكباشي محمد الجزار على رأس المتهمين، خاصة أنه كان أحد الأطراف الفاعلة أثناء التحقيقات في القضية، ويكون البوليس السياسي في هذه الحالة - طبقًا لأصحاب الاتجاه لإدانته- المكمل للمؤامرة التي خطط لها الإنجليز بالتعاون مع القصر الملكي.

وكما أسلفنا القول تبقى الكلمة الأخيرة في حريق القاهرة بعيدة المنال، حتى نكتشف وثائق جديدة ربما تكشف عن الحقيقة في صراحة بعيدًا عن الإيحاءات والإشارات والمؤامرات.

وثائق الأحزاب(1):

هذه أيضًا وثائق تدل على عمل البوليس السياسي خلال فترة الحرب العالمية الثانية ومراقبة الأحزاب.

الوثيقة الأولى:

وزارة الداخلية

حكمدارية بوليس مصر - القسم السياسي - رقم (91) بتاريخ 19 أكتوبر 1943م، وقد جاء فيها:

(1) محمد عبد العزيز: مذكرات ضابط في البوليس السياسي، مكتبة كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص232-234.

«اجتمع حزب الأحرار الدستوريين أمس بهيئته البرلمانية تحت رئاسة الدكتور هيكل وحضور خمسة وثلاثين عضوًا، وبسط رئيس الحزب الحالة الحاضرة وقال أنها أصبحت لا تدعو مطلقـًا لقيام الأحكام العرفية، وإن الهيئات المعارضة اتفقت على طلب إلغاء الأحكام خصوصًا ما يتعلق منها بالرقابة على الصحف، فوافق المجتمعون على ذلك، ثم تناقشوا في مسلك بعض أعضاء الحزب وقرروا:

أولاً: فصل كل من محمد توفيق خليل بك، والدكتور محمد صالح بك، وشفيق سيدهم بك.

ثانيًا: إمهال محمود بك محسب مدة أسبوع يقدم فيه خطابًا للحزب يفسر فيه موقفه ويعتذر عما صدر منه، فإن لم يفعل ذلك اعتبر مفصولاً.

وتناقشوا بعد ذلك في النشاط الحزبي فكونوا لجنة من الأعضاء النشطين للقيام بالنشاط الحزبي ووضع برنامج لذلك يعرض على الحزب».

الوثيقة الثانية:

وزارة الداخلية

حكمدارية بوليس مصر - القسم السياسي - رقم (218) بتاريخ 21 أكتوبر 1943م، وقد جاء فيها:

«اجتمع في نادي سعد زغلول مساء يوم 20 أكتوبر 1943م فريق كبير، وكان يرأس الاجتماع سعادة النقراشي باشا، وكان من بين الحاضرين سعادة إبراهيم عبد الهادي باشا، وحامد محمود بك، وسامح بك موسى، وبعد الرحيم الخطيب بك، وعدلي الخشخاني بك، وإبراهيم بك جلال، وأحمد الدربي بك، ومحمد شاهين حمزة، ورشدي بك حمزة، وتوفيق خليل بك وغيرهم.

وكان الحديث يدور حول طلب رفع الأحكام العرفية، والأسباب التي دعت إلى طلب رفعها بأن الحرب قد بعدت عن مصر، وأن أحزاب المعارضة لا تعارض في إبقاء الأحكام العرفية فيما يختص بشئون التموين والأنباء الحربية.

وقد قال سعادة النقراشي باشا: إن النحاس باشا وهو كما يقول زعيم وطني وزعيم

الأكثرية، عليه ألا يعارض في طلب رفع الأحكام العرفية، وإن كان عمله صالحًا فالأمة لا بد أن تقدر للمصلحين إصلاحهم، وإن كان غير ذلك فيجب أن تعرف البلاد ذلك، ثم قال: أؤكد لحضراتكم أن بعض الإنجليز قد طلبوا من النحاس باشا أن يستريح وأن يعتزل الحكم؛ لأجل صحته وطلبوا منه أن يرشح من يكون خلفه، وقيل إن السفارة البريطانية ترغب في وجود أمين عثمان باشا رئيسًا للوزارة، فقال إن أمين باشا لم يطلب ذلك.

وقد أصبح الآن لمعالي أمين عثمان باشا أنصاره من الإنجليز والمصريين، ينشرون أنه لا بد أن يأتي رئيسًا للوزارة المصرية قريبًا وهو لا يذيع ذلك، وأن النحاس باشا كلما سمع هذه الأخبار تثور أعصابه، وأن أمين باشا معه من الوزراء الحاليين من يؤيده في وجوده في رئاسة الوزارة عند اعتزال النحاس باشا الحكم، وأن 70٪ من النواب يؤيدونه، وهذا ما يقوله أمين باشا لأخصائه ويذيعه أنصاره.

ثم تحدث سعادته - أي النقراشي باشا- عن الوحدة العربية فقال: أنا سمعت أن نوري السعيد لا يتفق مع النحاس باشا في آرائه؛ لأنه يريد أن يكون زعيمًا للوحدة العربية، ومن الغريب أن النحاس باشا قد طلب من نوري السعيد باشا أن يبعد من العراق الأستاذ السنهوري بك؛ لأنه موجود هناك لتعديل مواد القانون المدني العراقي، فرفضت الحكومة العراقية ذلك فاستعان النحاس باشا أيضًا بالإنجليز لإخراج السنهوري بك فرفض الإنجليز طلبه هذا، ومن المؤلم جدًا أن الإنجليز الذين جاءوا بالنحاس باشا إلى كراسي حكم، هم الآن الذين يطلبون منه أن يعتزل الحكم؛ لأنه أصبح في نظرهم غير جدير بالوجود في الرئاسة».

الوثيقة الثالثة:

وزارة الداخلية

حكمدارية بوليس مصر - القسم السياسي - رقم (2250) بتاريخ 21 أكتوبر 1943م، وقد جاء فيها:

«اجتمع أعضاء الكتلة المكرمية - نسبة إلى مكرم عبيد باشا- بمكتب سعادة مكرم عبيد ظهر اليوم.

وفي الساعة 12 ظهرًا حضر سعادة مكرم عبيد باشا وترأس اجتماع الكتلة، وبدأ حديثه فقال: إننا في عهد أسود ولو أنكر النحاس باشا ذلك، وكل يوم يزداد يه هذا العهد سوادًا على سواد، والمهمة الملقاة علينا تتطلب منا أن نعطي أكثر مما نأخذ، فالوزارة تتعقبنا في كل صغيرة وكبيرة، فهي لا تدع لنا مجالاً للكلام أو الخطابة أو النشر في الصحف، في حين أنها تخطب وتنشر وتتكلم دون أن تبيح لنا شيئًا من ذلك، وقد استغلت فرصة الأحكام العرفية وتمادت في الجور والظلم وإغداق المحسوبيات دون حسيب أو رقيب، ثم ذكر - معالي مكرم باشا- بأن الحالة الآن في مصر لا تستدعي وجود الأحكام العرفية لابتعاد خطر الحرب عنها، وبأن موقفها الحالي أحسن بكثير من موقف مالطة التي ألغيت فيها الأحكام العرفية، فأصبحت الحياة هناك حرة.

ثم استطرد مكرم باشا قائلاً: لقد أصبح النحاس باشا يعمل المستحيل في سبيل بقائه في الحكم، حتى إنه عندما كان المستر إيدن هنا في مصر وقابله رفعة النحاس باشا، لم يجد رفعته شيئًا يتحدث عنه إلا عن وزارته وإخلاصها للإنجليز، وتقديمها كل المساعدات التي يطلبها منها الإنجليز».

وثائق نشاط الطلاب[1]:

وفي هذه الوثيقة مجموعة من تقارير البوليس السياسي عن النشاط الطلابي، وقد اخترنا أحداث فبراير 1946م لأنها أهم حدث طلابي في هذه الفترة.

- مذكرة -

عن الأحداث التي دبرت للقيام بمظاهرات

9 فبراير 1946م

ازداد نشاط حزب الوفد والإخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة عقب نشر الرد البريطاني، وبدأوا يرتبون الاجتماعات العامة والخاصة لمقاومة فكرة قبول الرد المذكور، كما بدأت بعض الصحف بتوجيه الطلاب إلى الإضراب والاحتجاجات

(1) محمد عبد العزيز: مذكرات ضابط في البوليس السياسي، مكتبة كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015م، ص238-249.

السياسية.

ومنذ أوائل فبراير الحالي والأنباء تتوالى على إدارة الأمن العام بأن تدبيرًا من وراء ستار يرتب لأحداث شغب واضطراب في البلاد، يكون وقوده طلبة الكليات والمدارس وغيرها من معاهد التعليم، وحدد يوم 9 الجاري وهو يوم استئناف الدراسة بعد عطلة نصف السنة لبدء القيام بحركات الإخلال بالنظام والأمن العام، يكشف عن ذلك ما يلي:

1- بتاريخ 29 يناير 1946م أقام الإخوان المسلمين اجتماعًا من حوالي 500 شخص أكثرهم من طلبة المدارس والمعاهد أبان فيه مصطفى مؤمن الطالب بكلية الهندسة ومندوب المركز العام للإخوان المسلمين أن الإنجليز كشفوا عن نياتهم بالتسويف في مطالب المصريين العادلة وضيقوا الخناق عليها، وطلب في نهاية كلمته عدم التعاون معهم ومقاطعتهم (وقد قام البوليس حينذاك بفض الاجتماع).

2- وفي أول فبراير اجتمع كل من الدكتور محمد بلال وكمال عبد المطلب بمدرسة الصناعات الزخرفية، ومحمد شحاتة مصطفى سكرتير لجنة الشبان الوفديين بباب الشعرية مع رفعة النحاس باشا في منزله، وقد عرض محمد شحاتة مصطفى اقتراحًا بوجوب قيام الطلبة بثورة، فقال النحاس باشا بأن الذي يريد أن يثور لا يتكلم، وقال الدكتور بلال إنه يجب على الطلبة الإضراب والهتاف بالجلاء وبسقوط الإنجليز، والاشتراك في توزيع منشورات تتضمن قرارًا للوفد المصري ربما طبع بمعرفة الدكتور أمين المغربي طبيب العيون بالزقازيق.

3- وما حل يوم 3 فبراير حتى كاد الدكتور بلال أن ينتهي بمساعدة كل من أحمد أنور مرزوق وحسن العشماوي من طلبة جامعة فؤاد من إعداد التنظيم الداخلي لرابطة الشباب واللجان المركزية للشبان الوفديين لإمكان بدء نشاطهم في كليات الجامعة ابتداءً من 9 الجاري، وذلك بالإضراب احتجاجًا على المذكرة المصرية والرد البريطاني، وتنظيم مظاهرات تهتف بالمطالب القومية وسقوط الإنجليز.

4- وفي اليوم نفسه علم بوليس مصر أن طلبة الجامعة والمدارس الثانوية المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة، يستعدون للقيام في 9 فبراير بتنظيم إضراب عام احتجاجًا على المذكرة المصرية والرد البريطاني.

5- وفي 5 منه عملت إدارة الأمن العام أن مصطفى موسى الطالب الوفدي المفصول من الجامعة، ومصطفى مرزوق وأنور مرزوق، والأستاذ حافظ شيحة المحامي، وعدلي المولد وآخرين من طلبة كليات الحقوق والمدارس الثانوية اجتمعوا في جريدة الوفد المصري في اليوم السابق، وقرروا الخروج في مساء الجمعة من حديقة الأزبكية بمظاهرة.

6- كذلك علمت إدارة الأمن العام في نفس اليوم بأن بعض طلبة الاتحاد الأزهري المفصولين من الكليات الأزهرية قد اجتمعوا مع عبد الرحمن حمودة وبهجت سليم من كلية الشريعة في منزل الشيخ محمد الحفناوي رئيس اتحاد الأزهر، وذلك في 4 فبراير لبث حركة الإضراب بين طلبة الكلية المذكورة.

7- وفي 6 منه علم بوليس مصر أن المجلس العام للإخوان المسلمين قرر اعتبار الأسبوع الذي يبدأ من 9 فبراير «أسبوع الجهاد»، وأطلق عليه «أسبوع الوطن»، وقرر تنظيم المظاهرات والإضرابات خلال أيامه احتجاجًا على الرد البريطاني.

8- وفي نفس اليوم علم بوليس مصر أن محمد إبراهيم الحفناوي رئيس اتحاد الأزهر ومعه بعض الطلبة زاروا دار رفعة النحاس باشا، وعاهدوه على قيام حركة الأزهر ابتداءً من 9 فبراير خالصة للوطن، ووعدوا بنشر بيانهم عن هذا في جريدة «البلاغ» تشبهًا بمصطفى موسى الذي نشر بيان طلبة الجامعة والمدارس الثانوية في جريدة «المصري».

9- وفي يوم 6 المذكور علم بوليس مصر أن بعضًا من أعضاء اللجنة العامة للجان الوفد المركزية بالقاهرة قد اجتمعوا بالنادي السعدي في 5 منه، حيث اتفقوا على تنظيم إضراب عام في 9 منه لمدة معينة احتجاجًا على الرد البريطاني، مع دعوة التجار إلى إغلاق محالهم، والقيام بتنظيم مظاهرات تهتف بالجلاء ووحدة وادي النيل.

10- وفي اليوم ذاته علم بوليس مصر أن الوفد يؤيد حركة الطلبة في الجامعة وكل المدارس، وأن طلبة المدارس الثانوية والخصوصية سينظمون مظاهرات تهتف بالجلاء والسودان ويكون مقصدها الجامعة للاشتراك مع طلبتها في الإضراب والتظاهر والاصطدام بالبوليس.

11- وكان من واجب وزارة الداخلية إزاء تلك الحركات التي اصطفت للإخلال

بالأمن والنظام أن تمنع المظاهرات، سندها في ذلك ما سبق وقوعه في نوفمبر الماضـي، خاصة في وقت كثرت فيه الدعايات الخطيرة، وروجت فيه الشائعات الكاذبة دون إيمان بالمصلحة العليا للـبلاد، مـن أجـل ذلـك اتخـذت وزارة الداخليـة مـا في وسـعها مـن إجراءات كفيلة بإفساد تلك التدابير:

أولاً: بأن أصدرت كتابًا دوريًا بتاريخ 4 فبراير 1946م إلى المديريات والمحافظـات لحفظ النظام في معاهـد التعلـيم والعنايـة بـالأمن العـام مسترشـدين في ذلـك بالكتـاب الدوري المؤرخ في 30 سبتمبر الماضي.

ثانيًا: وبأن خابرت وزارة المعـارف للقيـام عـن طريـق حضـرات عمـداء الكليـات وأساتذتها ونظار المدارس ومدرسيها بإسداء النصح للطلبة عمومًا، ولمـن لهـم نشـاط غير مرغوب فيه ممن سبق أن خوبرت الوزارة بأسمائهم في حينه، وتبصيرهم بخطورة ما قد يدفعون للانزلاق فيه.

ثالثـًا: وبأن اتصلت بسعادة النائـب العمـومي لاسـتدعاء رؤسـاء تحريـر الصـحف وتوجيه أنظارهم إلى أحكام المرسوم بقانون رقم (101) لسنة 1945م الخـاص بحفـظ الأمن في معاهد التعليم، ومنع إذاعة أي أخبار صحيحة أو كاذبة للطلبة حتـى إن جريـدة الوفد المصري نفسـها أشـارت بعـددها الصـادر في 6 فبرايـر إلى ذلـك الاسـتدعاء وإلى احتجاجها عـلى منـع الصـحافة مـن رفـع صـوت طوائـف وهيئـات تضـم الآلاف مـن المواطنين تضرروا من عدم الاستجابة لمطالب الوطن.

12- كذلك قـام حضـرة صـاحب الدولـة وزيـر الداخليـة بعقـد اجتمـاع في مكتبـه بالرئاسة، حضره وكيلا حكمدار بوليس مصر ومساعدوهم، حيث وضـعت التعليمـات الخاصة بصون النظام وحفظ الأمن العام.

13- وفضلاً عن هذا فإن وزارة الداخلية قد قامت بإعداد مذكرة بشأن ما يتبع لحفظ الأمن، وقد عرضت هذه المذكرة لحضرة صاحب الدولة الوزير فوافق عليها، وأبلغـت لبوليس مصر والإسكندرية ومعالي وزير المعارف وفضيلة الإمام الأكبـر شـيخ الجـامع الأزهر وموجزها فيما يأتي:

أولاً: يقـوم البـوليس في القـاهرة والإسـكندرية بعمـل دوريـات مسـتمرة بواسـطة

السيارات.

ثانيًا: يمنع التظاهر والتجمهر.

ثالثًا: يكون البوليس في حل من فض الاحتجاجات والمظاهرات بالقوة وبالقدر الذي يسلتزمه القانون.

14- وبتاريخ 8 فبراير قام أحمد محمد الحصري المحامي الشرعي، وهو من جماعة مصر الفتاة مع آخرين من طلبة معهد القاهرة المنتمي بعضهم لمصر الفتاة وبعضهم للإخوان المسلمين بإلقاء كلمات في المصلين صلاة الجمعة بالجامع الأزهر كلها حض على الثورة، الأمر الذي أخطرت به النيابة في حينه والذي كان سببًا في القبض عليهم.

15- وفي نفس اليوم اجتمع بالمطرية بمصر عدد كبير من جماعة مصر الفتاة برئاسة أحمد حسين فقرروا أن واجب الشباب استرداد الحقوق الوطنية المغتصبة، وذلك بالكفاح المستمر وإحياء روح المقاومة.

16- وبتاريخ 8 فبراير أخطر بوليس الإسكندرية بأن الوفد ومصر الفتاة والحزب الوطني والإخوان المسلمين ينظمون حركة احتجاج على رد الإنجليز على المذكرة المصرية عن طريق إضراب سياسي عام والخروج بمظاهرات.

17- وبتاريخ 9 فبراير 1946م وزع محمود فتحي من الإخوان المسلمين الملتحقين بكلية الحقوق بجامعة فاروق منشورًا أصدره الإخوان بعنوان «نداء القلب» فقبض عليه البوليس.

18- تلك كانت الخطط التي نظمت لأحداث الشغب في 9 فبراير، وفيما يلي بيان بكيفية بدء الشغب في الجهات المختلفة:

أولاً: في القاهرة أضربت بعض المدارس وانصرف طلبة البعض في هدوء عدا طلبة مدرسة فؤاد الأول الثانوية فإنهم بدأوا إضرابهم في الساعة التاسعة صباحًا ثم خرجوا من المدرسة في عدد يقرب من مائتين للتوجه إلى جامعة فؤاد الأول بعد أن قذفوا رجال القوة بالطوب، كما ألقى بعض طلبة مدرسة مصر الثانوية الطوب على رجال البوليس.

ثانيًا: في الجيزة اجتمع حول النصب التذكاري عدد كبير من الطلبة في التاسعة صباحًا

تزعمهم كل من:

أبو شادي الكيلاني	حقوق (وفدي)
عز الدين إبراهيم	آداب (إخوان)
إبراهيم زيدان	حقوق (إخوان)
عبد المحسن حمودة	هندسة (وفدي)
ماهر محمد علي	حقوق (وطني)
عبد الرازق سرحان	حقوق (وفدي)
صبري أبو المجد	حقوق (وفدي)
إبراهيم رشدي	حقوق (جهاد وطني)
زكريا لطفي جمعة	حقوق (كتلة)
مصطفى مؤمن	هندسة (إخوان)

وألقوا خطبًا عن الجلاء والاستقلال التام أو الموت الزؤام وهتفوا (الجلاء بالدماء - تسقط بريطانيا - يسقط الإنجليز - يسقط الاستعمار - يسقط بدوي الخائن - يسقط بيفن الخائن - يسقط كليرن- لا مفاوضة إلا بعد الجلاء)، وحضر أثناء الخطابة بعض طلبة كلية الزراعة بقيادة عبد الرؤوف أبو علم وبعض طلبة المدرسة التطبيقة العليا، كما حضر محمد مختار السيد من كلية الهندسة (إخوان مسلمين) ومعه مذياع ببطارية.

وقد طالب إبراهيم زيدان باقتلاع جذور الذين يدافعون عن المحتل ويؤيدون سياسته.

وحرض إبراهيم رشدي على طرد الوزارة الأثمة، وطلب العمل لتحرير البلاد من ربقة الاستعمار.

وأشار مصطفى مؤمن إلى وجوب إيقاظ الأمة وتحريكها، ولن يمكن هذا إلا خارج

الجامعة لإسماع الرأي العام، ثم نظم مظاهرة خرجت من الجامعة إلى ميدان الجيزة أخذت تحطم في طريقها اللافتات الإنجليزية الموضوعة في الميدان لإرشاد قائدي السيارات البريطانية، وكان المتظاهرون يهتفون بالثورة وبحياة مصر وحضرة صاحب الجلالة حتى وصلوا على مقربة من كوبري عباس، وهناك أطل عليهم حضرة الأستاذ عبد الحميد عبد الحق هاتفًا بينهم (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء - المذكرة لا تصلح أساسًا).

وبعد ذلك استمر المتظاهرون في سيرهم حتى كوبري عباس فوجدوه مغلقًا، فخلع بعض الطلبة كلية الهندسة ملابسهم وأرغموا المهندس على فتحه عنوة للمرور بين شاطئ الجيزة وشاطئ الروضة، ولما أراد المتظاهرون اجتياز الكوبري للوصول إلى القاهرة أمرهم ضباط بوليس مصر الذين كانوا مرابطين في نهايته من جهة المنيل بالتفرق فلم يذعنوا، فذهب إليهم وكيلا حكمدار بوليس مصر ونصحاهم بالتفرق فلم ينتصحوا.

ثم قام الطلبة بقذف رجال البوليس بالطوب، ففرقت القوة المتظاهرين وألقت القبض على من استمر في التظاهر، وقد أصيب بعض من أفراد القوة بإصابات من الطوب والعصي، ولم تستعمل الأسلحة النارية، ولم يصب أحد بشيء فيها، وكانت إصابات الطلبة والأهالي (36)، ومن أصيب من رجال البوليس (15).

وقد عرف شفهيًا من سعادة مدير الجيزة، - حيث لم يرسل تقريرًا كتابيًا عن الحادث بعد- بأن المتظاهرين عندما ارتدوا من ناحية مصر إلى ناحية الجيزة كانوا يقذفون رجال بوليس الجيزة بالأحجار، فانجلت الحادثة عن إصابة (31) من رجال البوليس، و(89) من الطلبة والأهالي.

وقد انتهزت فلول المظاهرة التي ارتدت إلى الجيزة الفرصة وأتلفت عمدًا زجاج عدد من قطر الترام أثناء سيرها بين حديقة الحيوان وميدان الجيزة، كما قلبت أحدها وأشعلت النار في سيارة ثورينكروفت، ورجم أحد المتظاهرين الأومباشي الإنجليزي «هولمان» بحجر في جبهته فأصابه، وضبط المتعدي المذكور على الأثر، كما ضبط الطالب وبجيبه بعض قطع من الزلط.

ثالثًا: في الإسكندرية تجمع طلبة المعهد الديني الثانوي وهتفوا بالجلاء وبسقوط

الإنجليز وخرجوا متفرقين إلى كلية حقوق.

وفي مدرسة محمد علي الصناعية وزع الطالب محمد جمال الدين عضو جماعة الإخوان المسلمين شارة من الورق على شكل قلب في زواياته اليمنى كلمة «الجلاء»، وفي اليسرى عبارة «وحدة وادي النيل»، وفي أسفل «الإخوان المسلمين»، ثم هتف عبد الفتاح القطان من الإخوان بحياة الإضراب فردد الطلبة هتافه، ثم خرجوا متفرقين إلى كليتي الحقوق والعلوم حيث تجمع هناك ألف منهم وخرجوا في مظاهرة، ولم يمتثلوا لأمر القوة بالتفرق ورجموا رجالها بالطوب والأحجار.

رابعًا: في المنصورة خرج طلبة المدرسة الثانوية في مظاهرة إلى مدرسة الصنايع، ولم يمتثلوا لأمر البوليس الصادر بالتفرق، وقذف طلبة مدرسة الصنايع رجال القوة الذين كانوا في خارجها بالطوب فأصابوا ثلاثة عساكر، كما أصيب عشرة من الطلبة وقبض على عشرة أشخاص.

وفي يوم 10 فبراير 1946م

أولاً: في القاهرة:

تجمع طلبة إعدادي كلية الهندسة مع طلبة مدرسة الهندسة التطبيقية بفناء المدرسة، وكانوا يرشقون القوات بالطوب من الداخل، فأصيب بعض رجال القوة وأضرب بعض طلبة المدارس وانصرفوا متفرقين.

ثانيًا: في الجيزة:

اجتمع فريق من الطلبة من مختلف الكليات والمدارس الصناعية والثانوية بفناء الجامعة تحت زعامة:

محمد مختار السيد	هندسة (إخوان مسلمين)
عبد المحسن حمودة	هندسة (إخوان مسلمين)
جمال الشافعي	هندسة (إخوان مسلمين)

محمد سعيد رمضان حقوق (إخوان مسلمين)

أبو شادي الكيلاني حقوق (وفدي)

وكانوا يهتفون «تحيا الثورة.. الثورة الثـورة.. الجـلاء أو الثـورة»، ثـم خـرج بعـض الطلبة وأخذ يستولي على سيارات نقل محملة بالزلط، ثم أدخلوهـا إلى الحـرم الجـامعي وأفرغوا ما فيها حول النصـب التـذكاري؛ لاسـتعمالها في مهاجمـة البـوليس، وبـدأوا في إتلاف الزينات المقامة بمناسبة عيد الميلاد الملكي حول الجامعة، كمـا أتلفـوا الشـعلة التي كانت موجودة عند الباب الملكي، وأخرجوها إلى ميدان الجامعة وهم يهتفـون «لا نريد الشعلة».

ثم أخذوا يستولون عـلى كـل سـيارة تمـر في شـارع المـدارس ويـدخلونها إلى حـرم الجامعة، وحدث أن اعتدى بعـض الطلبـة عـلى سـيارة نقـل رقـم (265772- مصـر) يقودها شفيق حسب الله، وأراد أحدهم أن يدير مقدمتها ناحيـة بـاب الجامعـة، غيـر أن قائدها اتجه إلى الجهة المضادة حيث تعسكر قوات البـوليس وسـار بهـا مسـرعًا فسـقط ذلك الطالب ويدعى محمد علي محمد من كلية التجارة تحت العجلات وتوفي على أثـر ذلك، ولما ذهب حضرة الأستاذ فؤاد الرشيدي وكيل النيابة إلى هناك لضبط الواقعة منعه الطلبة، وحاولوا الاعتداء عليه ورجموه بالطوب فعاد أدراجه إلى النيابة.

وقد نقل الطلبة جثة زميلهم إلى مستشفى قصر العيني وأخذوا في حراستها، وتحصنوا في مبنى المستشفى ليمنعوا تسليم الجثة قبل الاحتفال بها، وأخذوا يلقون قطعًـا مشـتعلة بالنيران من مكان وجودهم فعطلوا سير قطر الترام، وأخيرًا أخفى بعض الطلبة الجثـة في حجرات المعامل فوق سطح مبنـى المستشـفى إلى أن عثـر البـوليس مـع النيابـة عليهـا وسلمت لأهل المتوفي.

ثالثًـا: في الإسكندرية:

اجتمع كمال سعد الطالب بكلية الحقوق - رئيس جماعة مصر الفتاة بالإسكندرية مع محمد عيد الطالب الوفدي بكلية الحقوق وأفهمه أن الحركـة في القـاهرة أشـد منهـا في

الإسكندرية، وكان من نتيجة هذا التحريض أن تجمهر طلبة كليتي الحقوق والعلوم، وكذلك طلبة كلية الهندسة وقذفوا من انتظم في الدراسة من طلبة كلية الحقوق بالأحجار وأخرجوهم بالقوة.

وهتف عبد الجندي من كلية الحقوق (وفدي) بالثورة فتحركت جموع الطلبة في مظاهرة إلى الخارج وملأوا عرفة نقل كانت تسير مصادفة بقرب الجامعة بالأحجار وساروا بها في وسط المظاهرة، وكانوا قد تسلحوا إلى جانب هذا بالعصي وفروع الأشجار التي انتزعوها من الحديقة العامة، كما تسلحوا ببعض من قوائم حديدية نزعوها من سورها، وقذفوا قوات البوليس بالأحجار وانضم إليهم بعض العمال.

ثم احتموا بالتل المقام عليه مبنى الحقوق والعلوم وأخذوا يرجمون البوليس بالأحجار وبأوانٍ زجاجية بها مواد مفرقعة من معمل كلية العلوم، كما قذفوا رجال البوليس بنيران مشتعلة فاضطر البوليس إلى إطلاق أعيرة نارية في الهواء على سبيل الإرهاب، واستولى بعض الطلبة على بنادق التدريب العسكري وأطلقوا طلقات نارية من سطح الجامعة ومن داخلها.

رابعًا: في المنصورة:

خرج طلبة المدرسة الملكية والمعلمين والصنايع إلى المدرسة الثانوية، ولما أراد البوليس - وكانوا عزلاً من السلاح- أن يمنعهم بادره المتظاهرون بقذف الطوب والزلط، فاختفت القوة في المنازل المجاورة واستنجدت بقوات أخرى قوامها 15 عسكريًا في لوري، ما إن وصل على مقربة من المتظاهرين حتى ألقى عليهم أحدهم حجرًا هشم زجاجه، وأصاب قائده إصابة خطرة وانقض المتظاهرون على اللوري فقلبوه وأشعلوا النيران فيه، وتمكنوا من السير في مظاهرة كبيرة اعتدت على بنك «بيل»، والبنك الأهلي، وشركة التأمين، ومحل لندن هاوس، فأطلق البوليس حوالي (79) عيارًا في الهواء إرهابًا، ولكن المتظاهرين فهموا أن الضرب للإرهاب فشددوا في قذف الحجارة على رجال القوة، وحاولوا اقتحام البندر لإخراج من قبض عليهم، فأمر الحكمدار بإطلاق الرصاص فأصيب ثمانية من المتظاهرين، توفي منهم اثنان وكانت

إصابات رجال البوليس (35).

خامسًا: في دمنهور:

أضرب طلبة مدرسة الصنايع والمدرسة الثانوية، وكانوا يهتفون بالاتحاد والجلاء فقبض البوليس على زعمائهم، فقذفوا رجال البوليس بالطوب.

سادسًا: في شبين الكوم:

قامت مظاهرة واجهتها قوات البوليس في شارع سعد زغلول، فألقى المتظاهرون الطوب والحجارة على رجال القوة على صورة عنيفة اضطرت القوة إلى تفريقهم بالعصي.

ثم تجمع طلبة المعهد الزراعي العالي بعد أن تسلحوا بالعصي وفروع الأشجار التي قطعوها من مشتل المعهد، ونظموا مظاهرة انضم إليها طلبة المعهد الديني، وألقوا الطوب على رجال البوليس وقد سمعت في تلك الأثناء عيارات نارية صدرت من بين المتظاهرين ، فأطلق رجال البوليس النار في الهواء ولكنهم لم يتمكنوا من ضبط الأسلحة التي سمعوا طلقاتها بين المتظاهرين.

وفي يوم 11 فبراير 1946م

أولاً: في القاهرة:

أضربت بعض المدارس وانصرف طلبتها متفرقين، وفي المساء قامت مظاهرتان ألقى من فيها الطوب على قوات البوليس التي خفت لتفريقهم فأصيب بعض رجال القوة بإصابات وقبض على بعض المتظاهرين.

وفي يوم 12 فبراير 1946م

أولاً: في القاهرة:

تجمع بعض طلبة المدارس وأخذوا يهتفون، وأضرب طلبة كلية الطب وتجمعوا بسطح الكلية وأخذوا يلقون الطوب على رجال البوليس، وحطموا بعض مصابيح النور

وأشعلوها من أعلى وهم يهتفون هتافات عدائية، وقد قُبض على بعضهم وأحيل إلى النيابة.

ثانيًا: في الجيزة:

اجتمع بعض طلبة الكليات حول النصب التذكاري وهتفوا ضد الوحشية، ثم ألقيت منشوات بعنوان: «تسقط الرجعية الإرهابية» وهي محررة بهلجة شيوعية وموجهة إلى العمال والطلبة، وقد ورد فيها «لا إلى عابدين تتوجهون، ولا في الوزارة تحتجون، إنما إلى الشعب يجب أن نلجأ إلى الطبقة الكادحة».

وقد ظهر أن الذي ألقاها هو إبراهيم سعد عطا الطالب بكلية الحقوق، وكان قد استلمها من سعد زغلول فؤاد الطالب المفصول من كلية الحقوق، ومن جماعة مصر الفتاة، وقد أخطرت النيابة عن هذا المنشور.

ثم استولى بعض الطلبة على سيارة نقل بها طوب أحمر، وركبوا قطر الترام وسيارة أوتوبيس واتجهوا ناحية مديرية الجيزة، وأخذوا يقذفون القوة المرابطة هناك، ثم عادوا متفرقين إلى الجامعة وأغلقوا الأبواب وسلطوا خراطيم المياه إلى خارج الجامعة.

ثالثًا: في الإسكندرية:

تجمع طلبة كثيرون بكلية الحقوق، وتسلحوا بفروع الأشجار وقطع الطوب والأحجار وبعض أعمدة حديدية انتزعوها من سور الجامعة، وساروا إلى شارع مسجد الحضري قاصدين الوصول إلى شركة الغزل الأهلية بكرموز بقصد إخراج عمالها، ولما نصحهم البوليس بالتفرق لم يمتثلوا، وأخذوا يهتفون كي يخرج العمال إليهم، وقاوموا البوليس مقاومة عنيفة بما يحملون من فروع الشجر وقضبان الحديد والأحجار، وعاونهم الأهالي على ذلك فاضطر البوليس إلى إطلاق النار للإرهاب.

رابعًا: في الزقازيق:

أضرب طلبة المدرسة الثانوية وأخرجوا طلبة مدرسة الصنايع، ونظموا مظاهرة

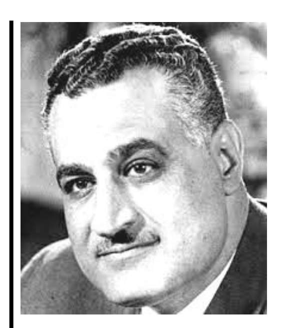
وكانوا يحملون العصي وأغصان الأشجار والزلط والطوب، ورفضوا نصيحة البوليس بالتفرق بل قذفوه بما كان معهم، فاضطر رجال البوليس إلى إطلاق النار فأصيب أربعة بأعيرة نارية توفي ثلاثة منهم والرابع بحالة خطرة، وأصيب طالبان برضوض، كما أصيب عدد من رجال البوليس.

ملحوظة:

لم يرد في تقارير المديريات تفاصيل دقيقة عن أسماء الطلبة والأشخاص الذين نظموا الاضطرابات والمظاهرات، ولا الأحزاب ولا الجماعات التي وجهت إلى ذلك التوجيه، وقد خوبرت المديريات في ذلك، إلى هنا انتهى التقرير[1].

(1) د. هدى شامل أباظة: نقلاً عن كتاب النقراشي، دار الشروق للنشر، الطبعة الثانية، 2009م.

▪▪ بيـان إطـلاق «اللجنـة القوميـة لتنظيم مئويـة جمال عبد النـاصر» [1]



1918 - 1970

لا نبكي على قبر، ولا نغرق في ماض، بـل نسـعى لاسـترداد المستقبل، فلم يكن جمال عبد الناصر تاريخـًا منتهيًا ولا تجربـة عبرت، بل عنوانـًا لمشروع نهـوض جـامع، تكونـت عناصـره تباعًا وفي اطـراد، مـع يقظـة مصـر وأمتهـا العربيـة عـلى هـوان أوضاعها في العالم الحديث، واستيلاء الزحف الاستعماري على أراضيها ومقدراتها وهويتها، وانقطاعها الطويل عن سبل الحياة والتنمية والعلم، واحتجازها المزمن في نفق التخلـف والغفلـة، وهو ما تنبهت إليه مواكب التحديث المبكرة، وجهدت أجيالها المتوالية في تخطيه، وجوبهت بضـراوة الـتحكم الاسـتعماري، وحروبه المتصلة لاستنزاف الطاقة، وإفشاله لتجارب النهـوض الأولى، وقمعـه لثـورات الوطنيـة المصـرية والقوميـة العربيـة، وزرعه لكيان الاغتصاب الصهيوني بين ظهرانينا.

وإلى أن قامـت ثـورة 23 يوليـو 1952م وبطلائـع شـابة، نضج وعيهـا في قلـب محنـة فلسـطين، وتحولـت بـالثورة - مصرية المنشأ- إلى فوران عربي عارم، وصنعت للأمة فجـرًا جديدًا سـاطعًا، تـدفق بشـلالات نـوره طـوال الخمسـينيات والستينيات وإلى أواسط السبعينيات من القرن العشرين.

(1) عبد الحميد قنديل: في مجلة صوت الأمة، العدد 787، بتاريخ 14/ 10/ 2017م، ص3.

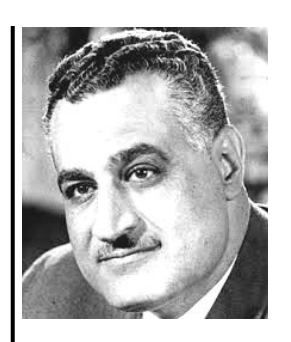
ولم يكن الانقلاب الذي جرى على ثورة عبد الناصر خاتمة ولا نهاية، بل مولدًا لحلم لا يهزمه الزمن، زاد تألقه مع توالي المحن، وتعاظمت قوته مع تراخي الأيام، ومع الإخفاق المريع للنظم التي أعقبت رحيل الرجل وحاربته، وقادت الحملات العاتية لمحو اسمه والتكفير بتجربته، وقد سقطت كلها وتحول جمال عبد الناصر من اسم إلى معنى، ومن تجربة إلى مخزن أحلام سكن صدور الشعب العامل وصناع الحياة.

والحلم الذي يسكن شعبًا لا يموت؛ لأن الشعوب لا تفنى ولا تزول، وهو ما يفسر الظهور الكثيف لصور عبد الناصر وحدها في ثورة 25 يناير 2011م وموجتها الأعظم في 30 يونيو 2013م، وكأن ملايين الميادين أرادت أن تصل ما انقطع مع الثورة المغدورة، فالثورات في حياة الأمم ليست حوادث سير عابرة، بل جوهر مستكن يطفو إلى سطح الوعي في لحظات التحرك واليقظة.

وقد كانت ثورة عبد الناصر متصلة بالطبائع مع جوهر ثورات عظيمة سبقتها، وعتها بعمق وأعطتها نضجًا واكتمالاً، ومقدرة عبقرية على التصحيح الذاتي للأخطاء والعثرات، وبصورة دمجت عناصر النهوض في سبيكة مشروع جامع، كان الاستقلال الوطني والتحرير القومي حجر الزاوية فيه، وأضاف إليه عناصر التنمية بالاعتماد على الذات، والتصنيع الشامل والكفاية الإنتاجية مع عدالة التوزيع الاجتماعي، وأولوية العلم والتكنولوجيا، والتجديد الحضاري، والتوحيد العربي، والالتحام الواعي مع حركة وأشواق شعوب الشرق والجنوب، وصياغة نظام عالمي عادل متوازن، مع إدراك مضاف مستعاد لقيمة الديمقراطية وإطلاق الحريات العامة، فلا يكفي أن تكون الثورة لصالح الناس، بل يجب أن تكون الثورة بالناس وبتنظيم الناس حتى لا تهزم وتداس.

وليست مهمة «اللجنة القومية لتنظيم مئوية جمال عبد الناصر» أن تدافع عن تجربة مضت تظل مضيئة بإلهامها، بل أن تؤكد على الحلم الباقي، وعلى مشروع النهوض الذي تستحقه الأمة المهانة المنكوبة المستباحة، وعلى حرج اللحظة التي نعيش فيها، وعلى حاجة الأمة إلى الثقة بمقدرتها على الخروج مجددًا إلى النور، وعلى كسب معركة العقول والقلوب في مفترق طرق، وفي إطار وطني وقومي جامع، لا يستثني أحدًا من المؤمنين بالحلم، ولا يحصر نفسه في تيارات حزبية منغلقة، ولا في حروب طواحين هواء تشغل وتلهي عن أولوية استرداد المستقبل.

▪▪ العظمة[1]



1918 - 1970

إن رأيت شاعرًا مـن الشـعراء، أو عالمًـا مـن العلمـاء، أو نبيلاً في قومه، أو داعيًا في أمته، قد انقسم الناس في النظـر إليـه وتقدير منزلته انقسامًا عظيمًا، وانفرجت مسافة الحلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبـة الملـك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى درجة الشـيطان، فـاعلم أنـه رجل عظيم.

العظمة أمر وراء العلم والشعر والإمارة والوزارة والثـروة والجاه، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون والعظمـاء مـنهم قليلون، وإنما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفـس صاحبها شعورًا بأنـه رجـل غريـب في هـذه الحيـاة في نفسـه ومزاج عقله ومنازع أفكاره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على أمثالهم، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة، فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شيء مـن الأشياء بعين غير عينه، ولا يمشي في طريق غير التـي مهـدها بيده لنفسه، ولا يجعل لعقل مـن العقـول مهمـا عظـم شـأنه وشأن صاحبه سلطانـًا عليـه في رأي أو فكـر، أو في مشـايعة لمذهب، أو في مناصبة لطريقة.

(1) مصطفى لطفي المنفلوطي: العظمة، في مجلة الهلال، 1918م، ص12.

بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه ضعف ثقة الناس بنفوسهم، أن حقًا على الناس أن يستفيدوا له، وينزلوا على حكمه، ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه، فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم تبهر العيون، وتختطف الأنظار، تملأ القلوب دهشة وروعة، فإن كان الشاعر مبتكرًا في معانيه أو طريقته، أو كاتبًا ملك على النفوس مشاعرها وأهواءها، أو فقيهًا هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه.

فتلك هي العظمة، وهذا هو الرجل العظيم، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعترك أنظارهم وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناء أمره وتقدير منزلته، فيعجب به الذين يعجبون بكل غريب، ويستهدون بكل جديد، ويدينون للشجاعة في جميع مظاهرها ومرائيها، حتى يبلغ بهم الإعجاب به الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، والإغراق في حبه فيقع ذلك من نفوس مناظريه حاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعًا غير جميل.

فلا يجدون لهم بدًا من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة، وهنالك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وأعدائه فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده، هو الواقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئًا مغتبطًا لا يحزن ولا يبتئس؛ لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة المختلطة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول أن الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل وما ينتهج لنفسه وللناس من سبل الحياة، فربما كان من هو أضعف منه قوة وأخمل ذكرًا أسد منه رأيًا وأصدق نظرًا، وإنما أريد أن أقول أن أحدًا من الناس لا يستطيع أن شغل أقلام الكتاب وعقول المفكرين وألسنة الناطقين وقلوب المحبين والمبغضين إلا الرجل العظيم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل على رأسه أحجار هياكلها هادموها وبناتها، لا يعجبك أن يتفق الناس جميعًا على حبك لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل يضربونه فيصطبر لهم.

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك لأنهم لا يتفقـون إلا عـلى بغـض الخبثـاء الأشـرار الذي لا يحبون أحدًا من الناس، وليعجبك أن يختلفوا في شـأنك، وينقسـموا في أمـرك، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم.

▪▪ الشعر وثورة 23 يوليو 1952م



1918 - 1970

كان قمينـًا بالشعر أن يرحـب بثـورة 23 يوليـو، وجـادت قريحة الشعراء في تمجيد هذه الثورة التي كان لها دورهـا بـل رسالتها الإنسانية بين أرجاء المعمورة.



فقد قال عملاق الفكر الأستاذ عباس محمود العقاد:

أهـــــلاً بنيـــــروز وليـــــد

أهـــــلاً بمـــــيلاد ســـــعيد

يـــــوم جديـــــد قلـــــت: بـــــل

عهـــــد عـــــلى مصـــــر جديـــــد

عهـــــد تصـــــان كرامـــــة

فيـــــه وتتبعهـــــا جهـــــود

لا تســـــتذل ولا تســـــا

م عـــــلى الهـــــوى ســـــوم العبيـــــد

***

وقال شاعر كبير آخر[1]:

مـــرت عـــلى تحريـــرك الأيـــام / وغـــدًا تمـــر بـــذكرك الأعـــوام

يأيهـا الـوطن العزيـز، تحـررت / بـالجيش فيـك مواكـب وزحـام

كـانوا عـلى ظلـم الطريـق جماعـة / قـد هـدها الإعيـاء[2] والإظـلام

يتخبطـون عـلى ظـلام دامـس / لم تتضـــح في ليلـــه أعـــلام[3]

مشـت المظـالم فيـه، وهـي كثيفـة / وسرى الفسادُ إليه، وهو قتـام[4]

واندك من صرح الفضـائل حـائط / وانهـــد مـــن أركـــانهن دعـــام[5]

وجـرت أمـور بـالبلاد عظيمـة / ومشـت خطـوب بـالبلاد جسـام

ضاقت بـأحرار الـبلاد صـدورهم / وتحطمـــت بمـــدادها الأقـــلام

فـالهجس[6] حتـى في الضـمير، / والهمـس، حتـى بالشـفاه، حـرام

***

وبدا الصباح على البطاح مضوئـًا / فانجاب[7] منه عن الـبلاد ظـلام

هـــي آيـــة لله، وهـــي رعايـــة / قدســـية، قـــد حفهـــا الإكـــرام

هـــي ثـــورة بيضـــاء لم يهـــرق دم / فيهـــا، ولم تســـكب بـــه آثـــام

(1) محمد عبد الغني حسن.

(2) الإعياء: التعب والكلال.

(3) ظلام دامس: شديد السواد، والأعلام: جمع علم وهو شيء ينصب فيهتدى به.

(4) القتام: الغبار الأسود، والظلام، والسواد.

(5) الدعام: عماد البيت.

(6) هجس الشيء في صدره: خطر بباله.

(7) انجاب: انكشف.

تركت بناء البغي، وهو مصدع ... دُكت قواعده، فليس يُقام

دهمته، وهو يظن أن مناله ... فوق الظنون، فماله استسلام

أرخت له الأيام في طغيانه ... يا ويل من أرخت له الأيام

ظن الحوادث عنه نائمة، ولم ... يعلم بأن الله ليس ينام

وبنى على الإفساد حائط مُلكه ... هل للبناء على الفساد دوام..؟!

بوركت من جيش تقدس خطوه ... وتحركت برجاله أعلام

قاموا على أعقاب ليل هادئ ... والحاكمون الظالمون نيام

غضبوا فضج الكون من غضب ... واهتزت الأفلاك والأجرام

وتهدمت للظالمين منازل ... وتقوضت للمفسدين خيام.

عرش الهوى[1]

تكلم أيها القدر المتاح[2] ... وللأقدار ألسنة فصاح

وحدث عن نهاية كل باغ ... فإن حديثك الحق الصراح

بربك عظ جبابرة إذا ما ... تراءى الواعظون لهم أشاحوا[3]

ففي أحداثك الجلى عظات ... لو اعتبر الطغاة بها استراحوا

***

أحقًا بات «رأس التين» حلاً ... تطوقه الكتائب والسلاح..؟!

---

(1) محمود غنيم، والنص من جريدة الأهرام الصادرة في 7 من أغسطس سنة 1952م.

(2) المتاح: من أتاحه: هيأه، قدره.

(3) أشاح عنه بوجهه: أعرض مكرهًا.

ومـن دون الوصـول إليـه كانـت ... رؤوس في الهـــواء بهــا يُطـــاح

أحقـــًا أنكـــر الفـــاروق شـــعب ... عــراه مـن الهتـاف لـه بحـاح..؟!

مغـاني الملـك بـات عـلى ذراهـا ... يـــرف لكـــل ناعبـــة جنـــاح..!

وهـــام المـــالكون بكـــل أرضٍ ... وتلـك قصـورهم بقيـت وراحـوا

قصـور أوحشـت مـن بعـد أنـس ... فمـــا لســـنا بســـاحتها ليـــاح[1]

نهاية ملك[2]

للأستاذ محمد الأسمر

تعجبـت، حتـى كـدت لا أتعجـب ... وكـــدت لمـــا جربتـــه لا أجـــرب

وعلمنـــي كـــر الليـــالي شـــئونها ... فسـيان بـادي أمرهـا والمحجـب

وفي دوران الأرض أكبـــر شـــاهد ... على أن هـذا الـدهر بالنـاس قلـب

وحســبك لونـــا صـــبحه ومســـائه ... كذلك حالاه: مضيء وغيهـب[3]

وما ائتلقت[4] شمس لـه في سـمائها ... وليس لهـا مـن بعـد ذلـك مغـرب

***

خبا[5] نجم فاروق وقد كان سـاطعا ... يرجـــى إذا الخطـــب أدلهـــم[6]

---

(1) السنا: الضوء، ولياح: ظهور.

(2) محمد الأسمر، والنص من جريدة الأهرام الصادرة في 13 من أغسطس سنة 1952م.

(3) الغيهب: الشديد السواد.

(4) ائتلق: لمع.

(5) خبا: خمد، وطفئ.

(6) الخطب: المكروه، وأدلهم الليل: اشتد سواده.

وكـان عـلى الـوادي يلـوح «مـذنبا» وأذياله من يصـطفيهم، ويصـحب
فغـادره فـردًا يـذاد[1] عـن الحمـى يعيش غريـب الـدار أيـان يـذهب
مفاجـأة أودت[2] بعـرش، وثـورة تزعمها ليـث مـن الجيش أغلـب
مضى القائد الأعلى وللجيش غضبة عليه، ومن للجيش ساعة يغضب
وكنـا لـه درعًـا يقيـه مـن الـردى وكنـا لـه سيفـًا إذا راح يضـرب
نسـمى بـه أولادنـا، وإذا مشـت مواكبـه قمنـا إليـه نرحـب
وصـغنا لـه الأشـعار وحـي نفوسـنا فـلا نبتغـي جاهًـا، ولا نتكسـب
نمجـد في شـخص الملـوك بلادنـا فهم رمزها، نثني عليهم، ونطنب
ونـذكرهم بـالخير: كـي يولعـوا بـه نهـذبهم، والشـعر نعـم المهـذب
مـدحناه، والـوادي يغـرد باسـمه وكـل زعـيم نحـوه يتحبـب
وللصـحف إطـراء لـه كـل آنـة وهـذا وهـذا نحـوه يتقـرب
فلما غفا عن واجب الملك، والتوى هـوى مثـل مـا يهـوى مـن الأفـق

أنا الشعب[3]

أنـا الشـعب أعلنهـا ثـائرة أنـا صـاحب الأرض والممتلـك
أنـا الشـعب أعلنـت في القـاهرة بثـورة جيشـي عـزل الملـك

(1) يذاد: يدفع ويطرد.

(2) أودى به: ذهب به.

(3) كامل أمين، والنص من مجلة التحرير الصادرة في أول أكتوبر سنة 1952م.

أجل، ثورة الجيش، كـوني معـي لمصـــر المحـــررة الســـائدة
عـلى السـيف والحقـل والمصـنع حلفنـــا ونحـــن يـــد واحـــدة
إلهـــي أعنـــا عـــلى الخـــائنين وســـدد بمصـــر خطـــى الثـــائرين
وبارك جهادي لخير الوطن

حصـــاد الحقـــول لفلاحهـــا وخيـــر المصـــانع للعامـــل
وحكـــم الـــبلاد لإصـــلاحها ولا حكـــم للـــص والجاهـــل
ســـواء بفأســـك أو مـــدفعي سننشـــئ أمجادنـــا الخالـــدة
على السيف والحقل والمصنع

فزعــت لــدمع أخــي المســتجير وأناتـــه تحـــت ســـوط الطغـــاة
يمـــص الغنـــي دمـــاءِ الفقيـــر ويحرمـــه مـــن كفـــاف الحيـــاة
وســـم فوضـــوا نائبًـــا لم تـــعِ حقـــوقي حكوماتـــه الفاســـدة
على السيف

الفلاح وثورة الإصلاح[1]

مـــا عليـــه إذا انتشـــى مـــن جنـــاح وهـــو يرنـــو لثـــورة الإصـــلاح
ثـــــورة للبنـــــاء أيـــــدها اللـــــــه يجنـــد مـــن عنـــده وســـلاح
صرحت بالقصور أن أنصفي الأكـ واخ، تظفـر بحقهـن الصـراح[2]

(1) أحمد عبد المجيد الغزالي، والنص من مجلة الإذاعة.

(2) الصراح: الخالص من كل شيء.

شــظف العــيش هــدها، فتهــاوت ... لعنــات عــلى النفــوس الشــحاح

أيهــا الســادرون في ظلمــة الكــو ... خ، أفيقوا على ائتلاق الصبــاح[1]

طــال فينــا انتظــاره، ثــم وافى ... بغــدٍ مشــرقٍ عــلى مصــر ضــاح

صــبر الكــادح المكــافح، حتــى ... ضــاق بالصــبر ذرعــه والكفــاح

ذات في أرضـــه، وفـــوق ثراهــا ... عرقــًا ســال في الربــى والبطــاح

فزهــت روضــة، ورفــت ظــلالا ... تتهــادى بــين الشــذا الفــواح[2]

لم يعــد شــوكها لـــه، وســـواه ... نــاعم بــين وردهــا والأقــاحي

عــز في أرضــه الــذي عــاش دهــرًا ... دامــي القيــد، مســتذل الجنــاح

مـــزق العبـــد قيـــده، ورمـــاه ... ومضى في الحمى طليـق السـراح

صوت الوطن[3]

مصــر التــي في خــاطري وفي فمــي ... أحبهــا مــن كــل روحــي ودمــي

***

يــا ليــت كــل مــؤمن بعزهــا ... يحبهـــا حبـــي لهـــا

بنـــي الحمـــى والـــوطن ... مــن مــنكم يحبهــا مــثلي أنــا..؟

***

(1) السادرون: المتحيرون، وائتلاق: لمع.

(2) الشذى: قوة ذكاء الرائحة، والفواح: المنتشر الرائحة.

(3) أحمد رامي، والنص من مجلة الإذاعة الصادرة في 11 أكتوبر سنة 1952م.

نحبهـــــا مــــــن روحنـــــا … ونفتـــديها بـــالعزيز الأكـــرم

من عمرنا وجهدنا

عيشــوا كرامًـا تحـت ظـل العلـم … تحنـــا لنـــا عزيـــزة في الأمـــم

***

أحبهـــــا لظلهـــــا الظليــــل … بين المروج الخضر[1] والنخيـل

نباتهـــــا مــــا أينعـــــه[2] … مفضضًـــــــا، مــــــذهبا

ونيلهـــــا مـــــا أبدعــــه … يختـــال مــــا بــــين الربـــى

بنـــــي الحمــــى والــــوطن … مــن مــنكم يحبهــا مــثلي أنــا..؟

***

محبتهـــــا مــــــن روحنـــــا … ونفتـــديها بـــالعزيز الأكـــرم

من قوتنا ورزقنا

***

لا تبخلــو بمائهــا عــلى ظمــى … وأطعمــوا مــن خيرهــا كــل فــم

***

أحبهـــــا للموقــــف الجليـــــل … مـــن شـــعبها وجيشـــها النبيـــل

دعــــا إلى حـــــق الحيـــــاة … لكــــل مــــن في أرضـــــها

وثـــــار في وجـــــه الطغـــــاة … مناديًــــــا بحقهـــــــا

(1) المروج: جمع مرج، وهو الأرض الواسعة فبها نبت كثير ترعاه الدواب.

(2) أينع الثمر، وينع: أدرك، وطاب وحان قطافه.

وقـــال في تاريخـــه المجيـــد: يـا دولـة الظلـم انمحـى وبيـدي

***

بنــــي الحمـــــى والـــــوطن مــن مــنكم يحبهــا مــثلي أنــا..؟

***

نحبهــــا مــــن روحنــــا ونفتـــديها بـــالعزيز الأكـــرم

من صبرنا وعزمنا

صونوا حماها وانصروا من يحتمي ودافعـــوا عنهـــا تعـــش وتســـلم

يـــا مصـــر، يـــا مهـــد الرخـــاء يـــا منـــزل الـــروح الأمـــين

إنـــا عـــلى عهـــد الوفـــاء في نصـــرة الحـــق المبـــين

مصر والشعوب العربية(1)

أذن الله يـــا شـــعوب الكفـــاح أن تســـيري إلى مراقـــي الفـــلاح

مـــنهج واضـــح المحجـــة(2) داع للعـــلا والوفـــاق والإصـــلاح

طـــاف ميثاقـــه بشـــيرًا بعهـــدٍ باســـمٍ، مـــؤذن بنـــور الصـــباح

أمـــم العـــرب، لا عـــدمت وفـــاء ووفاقـــًا يضـــيء منـــك النـــواحي

ألهمـــى مركـــب الرجـــاء ســـدادًا وجنـــــودًا تصـــيح للمـــــلاح

مـــا رأينـــا عـــلى الزمـــان نـــداء كنـــــداءِ الهـــداة والصـــلاح

(1) عبد الغني سلامة، والنص من مجلة الإذاعة الصادرة في 13 ديسمبر سنة 1952م.

(2) المحجة: وسط الطريق.

هــالهم مــن شــعوبنا أن يروهــا ... في انحــلال وفرقــة، والتيــاح[1]

فــانبروا يرســمون للــود عهــدًا ... كــوكبي الألــوان والأوضــاح[2]

قــد كســا رايــة العروبــة في الشــر ... ق مضــاء يفــل[3] عــزم الســلاح

إنمــا الشــام، والعــراق، ومصــر ... وبنو الضاد شـعلة مـن طمـاح[4]

فــاض تــاريخهم بمجــد الأوالي ... واســتطاروا[5] الحــروب مــلء

[6]

إرادة شعب[7]

دوي النفير على الفضاء يزمجر[8] ... ويهــز آمــال الطمــاح[9] ويــزأر

والرعــب منتصــب ينقــل طرفــه ... بين القصــور الشـامخات ويسـخر

الجــيش أوقــدها وأضــرم نارهــا ... ومضى بها لهبًـا يثـور ويزفـر[10]

الجــيش أعلنهــا، فحقــق نصــرها ... رب يؤيــد مــن يشــاء وينصــر

ماذا رأى الجيش الكريم؟ لقد رأى ... شــعبًا تقاذفــه الشــقاء المعســر

---

(1) الالتياح: العطش.

(2) الأوضاح: جمع وضح، وهو الضوء.

(3) فل السيف: ثلمه، والقوم: هزمهم.

(4) الطماح: الطموح.

(5) استطار الطير: طيره.

(6) البطاح: جمع بطيحة، وهي مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.

(7) هارون هاشم رشيد، والنص من مجلة الإذاعة الصادرة في 17 يناير سنة 1953م.

(8) يزمجر: يكثر الصياح والصخب.

(9) الطماح: الطموح.

(10) زفرت النار: سمع صوت توقدها.

ورأى لجلاديـــه صـــولة عـــزة ... ورآهـم عبثـوا بـه، واستهتروا[1]

وتزعمـــوه برغمـــه، وتحكمـــوا ... في حقـــه، وتســـلطوا، وتجبـــروا

قالوا له: ليست لـك الأرض التـي ... تسقي، ولا الريف الجميـل الخيـر

كـــلا، ولا النيـــل الحبيـــب، فإنـــه ... ملـــك لإقطـــاع يســـود، ويـــأمر

حرموه من غرس الشباب وجهـده ... حرمـوه مـن عـرق ينـز، ويقطـر

حرمـوه مـن خيراتـه، وهـي التـي ... مـن كفـه تعطـي الحيـاة وتثمـر

في الذكرى[2]

عـادت وذكـرى الخالـدين تعـود ... أيكـون في الـذكرى دمٌ وتبيـد[3]

ذكرى يطل بها الفداء على الـورى ... ويســـوقها للعـــالمين شـــهيد

ذكرى يطل بها الفداء على الـورى ... دهـــر عليـــه دم الشـــباب جديـــد

ودم الشباب إذا استبيح على الثرى ... هـــزت لـــه دنيـــا وضـــج وجـــود

***

مـــا راح منـــا في النضـــال مجاهـــد ... بـــل إنـــه في قلبنـــا موجـــود

فنـــراه في أمـــل يهـــز كياننـــا ... ويســـوقنا نحـــو العـــلا، ويقـــود

ونـــراه حـــين نحـــس أنـــا أمـــة ... تحيا، وتسعد في الـورى، وتسـود

(1) استهتر الرجل: كان كثير الأباطيل.

(2) محمد التهامي، النص من مجلة الإذاعة الصادرة في 31 يناير سنة 1953م.

(3) تبيد: تهلك.

ونراه حين نصيح في سمع الـورى: لم يبـق في الـوطن الأبـي عبيـد
ونـراه حـين نفـاخر الـدنيا بـه ونعـده، والعـالمون شـهود

نشيد النصر[1]

إلى النصـر يـا مصـرنا، واحكمـي وهيـا إلى المجـد، فالمجـد لاح
فهـذا سـلاحي، وهـذا دمـي لنصـرك يـا مصـر يـوم الكفـاح
أعـيش لمصـر، وأفنـى لمصـر وألقـى المنيـة شـاكي السـلاح[2]
ففـي البـر دحـر، وفي البحـر فخـر وفي الجـو نسـر عزيـز الجنـاح[3]

***

إذا مصـر نـادت: إلى الحـرب، هيـا دمـائي تلبـي، وروحـي تجيـب
أخوض الحروب وأغزو الخطـوب بنصـر عزيـز، وفـتح قريـب
أنـا ابـن الأبـاة، سـليل الغـزاة وشـبل الكمـاة، ودرع الـزمن
أنـا ابـن الحمـاة، وهبـت حيـاتي لـرد العـداة، ونصـر الـوطن
يـوم يـدعو النـداء للـوغى، يـا جنـود
أبرقـي يـا سـماء واقصـفي يـا رعـود
وارخصـي يـا دمـاء حـان يـوم الخلـود

(1) عبد الحميد البطريق، والنص من مجلة الإذاعة الصادرة في 31 يناير سنة 1953م.
(2) رجل شاكي السلاح: ذو حدة وشوكة في سلاحه.
(3) الذخر: ما يخبأ لوقت الحاجة، وعزيز الجناح: قوية.

والشاعر السعودي عبد الله بن إدريس[1] يبتهج بانتصار الشعب المصري على خصومه في بورسعيد، ويتهكم بالمعتدين، ويسخر بإيدن ومو ليه سخرية لاذعة، من ذاك قوله:

يا أيها المستعمرون أخلتم ... أن الكنانة لعبة وقمار..؟

فسلوا القناة تجبكم أعماقها ... أن الغزاة بقعرها قد صاروا

وسلوا مدينة بورسعيد فعندها ... ركع الطغاة لهامهم وانهاروا

هب الأباة رجالها ونساؤها ... لمهابط المستعمرين وساروا

لم يرهبوا قصف المدافع داويًا ... بل أقدموا ما استسلموا أو حاروا

فلتبق يا شعب العروبة ظافرًا ... يحمي كيانك جيشك المغوار

وليبق للنيل الحبيب (جماله) ... ترنو له الأسماع والأبصار

ومن ذلك قول الشاعر المصري محمود غنيم[2] في قصيدته (عرش الهوى):

تكلم أيها القدر المتاح ... وللأقدار ألسنة فصاح

ففي أحداثك الجلي عظات ... لو اعتبر الطغاة بها استراحوا

حماة النيل أحرزتم لمصر ... نجاحًا لا يضارعه نجاح

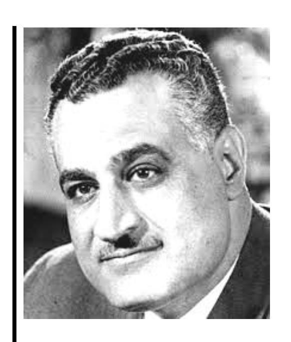
قد اجتحتم بنوركم شرورًا ... وما للشر إلا الاجتياح

تهللت العروبة يوم ثرتم ... كأن العرب أدركهم صلاح

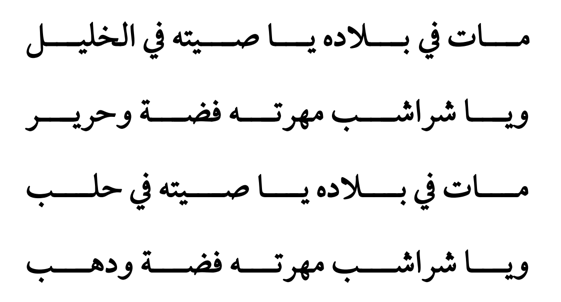
(1) عبد الله بن إدريس: شعراء نجد المعاصرون، ص299.

(2) محمود غنيم، الأهرام 7 أغسطس سنة 1952م.

▪▪ جمال عبد الناصر في الذاكرة الشعبية[1]



1918 - 1970



مات في بلاده يا صيته في الخليل

ويا شراشب مهرته فضة وحرير

مات في بلاده يا صيته في حلب

ويا شراشب مهرته فضة ودهب

بهذه العدودة، ودعت الشعوب العربية الرئيس السابق جمال عبد الناصر ذائع الصيت، في الخليل وحلب وسائر الأقطار العربية، بجانب الكثير من أغاني العديد التي راحت تتغنى به وببطولاته وبأمجاده، ولعل اللافت للنظر أن هذه الأغاني لا يزال الناس يحفظونها ويرددونها، ليس في مصر فحسب، بل في معظم أنحاء العالم العربي.

ولعل التساؤل الذي يطرح نفسه بعد مرور سبعة وأربعين عاما على وفاة عبد الناصر: لماذا تختزن الذاكرة الشعبية المصرية هذه الصورة الملحمية لعبد الناصر..؟ إن عبد الناصر يتبدى في الموروث الشعبي المصري في صورة

(1) د. خالد أبو الليل: جريدة الأهرام، بتاريخ 29 سبتمبر 2017م.

الأبطال الشعبيين، الذين كثيرا ما تغنى بهم الوجدان الشعبي العربي، من أمثال عنترة بن شداد، وأبى زيد الهلالي، وسيف بن ذى يزن.

فالصورة التي تختزنها الذاكرة الشعبية لعبد الناصر لا تقتصر على ما تتواتره في أغاني العديد من المطربين في الوطن العربي، وإنما تتجاوز ذلك لنرى تجليات هذا الاختزان والتمسك بشخصية عبد الناصر في معظم أنواع الأدب الشعبي المصري والعربي، على نحو ما نجد في الحكايات الشعبية الكثيرة التي تتخذ من عبد الناصر بطلا شعبيا لها، وكذلك في الشعر البدوي.

ومن بين الحكايات الشعبية، تلك الحكاية التي يتناقلها بعض الرواة الشعبيين في صعيد مصر وتقول: إنه كانت هناك محاولة إسرائيلية للتخلص من جمال عبد الناصر بالاتفاق مع بعض كبار رجال الدولة الخونة، على أن يوهموا عبد الناصر بأن هناك مؤتمرًا في إحدى الدول الأوربية، والذى وافق عبد الناصر على المشاركة فيه؛ لأنه كان يدور حول استقلال إحدى الدول، تلك القضية التي انشغل بها عبد الناصر.

واتفق الموساد الإسرائيلى مع طاقم الطائرة التي ستقل الرئيس، بأن يتوجه به إلى إسرائيل، وتم تنفيذ المؤامرة بدقة، وكادت تنجح لولا أن الشيخ أحمد رضوان - وهو صاحب إحدى الطرق الصوفية في محافظة قنا وهي «الطريقة الرضوانية»- رأى في منامه تفاصيل المؤامرة السرية، وقبل تنفيذها بساعات حاول إفشالها، رغم وجوده في قريته النائية.

وكانت محاولات الإفشال من خلال الاتصال من السنترال بمكتب الرئيس، ورغم تردد العامل - في البداية- فإن القلق بدأ ينتابه عندما حذره الشيخ رضوان قائلًا: «أنت ستتحمل مسئولية ما سيحدث للرئيس إذا لم تجرِ هذا الاتصال»، وبالفعل تمكن من مكالمة مدير مكتب الرئيس - الذي حوَّله بعد إلحاح وتردد- إلى السيد الرئيس، واستجاب عبد الناصر لهذا التحذير من قبل الشيخ، بعدما أدرك أن الشيخ يعلم بتفاصيل هذه الزيارة، رغم سريتها التامة، وباستدعاء قائد الطائرة ومواجهته، اعترف وأكد صدق منام الشيخ، فما كان من عبد الناصر إلا أن أرسل من يبحث عن الشيخ، حتى اهتدى إليه، وراح يغدق عليه ويقربه منه، وأصبح في حكم مستشاره الخاص، حتى إن هذا الشيخ حسب ما يروى الراوى مات في منزل عبد الناصر، وحزن عليه الرئيس حزنًا

كبيرًا، وأعد له مأتمًا يليق بمكانة الشيخ عنده.

بعيدا عن مدى تاريخية هـذه الحكايـة، سـواء كانـت حقيقيـة أو خياليـة، فـإن كثـرة الروايات الشعبية لهذه الحكاية في أكثر من مكان داخل مصر، يفرض علينا ضرورة تأمل أهم دلالاتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والدينية، والتى يمكن رصدها على النحو التالي:

1- أنها تشير إلى طبيعة العلاقة بين الحاكم والشعب في فترة تاريخية معينة، هي فتـرة الحكم الناصري، على النحو الذي يتصوره - أو يأمله- الشعب لهذه العلاقة.

2- أن هذه العلاقة طرفها الأول والفاعل هو «الشعب»، فالرئيس وحاشيته في خدمـة الشعب؛ ومن ثم فطبيعي أن يصبح في إمكان عامل التليفون البسيط أن يحصل على رقـم هاتف مدير مكتب الرئيس، بل يصبح في إمكانه الاتصال به في أي وقت، ويصبح كـذلك في إمكان واحد من الرعية - هو الشيخ أحمد رضوان المغمور في ذلك الوقت- أن يتصل بالرئيس، ويطلب من مدير مكتبه محادثة الرئيس شخصـيًا - دون معرفـة سـبب ذلـك، سوى أنه لأمر ضروري وخطير-.

3- أن الشعب يقف خلف رئيسه، عندما يراعي هذا الرئيس مصالح شعبه، فالشـعب - على نحو ما تمثل ذلك في إحدى فئاته وهي الفئة الدينية- هو الذي يدافع عـن رئيسـه، واقفًا في مواجهة الخونة من كبار رجال الدولة، ممن وضعوا أيديهم في أيـدي إسـرائيل، والذين يسعون إلى تدمير العلاقة بين عبد الناصـر والشـعب، كمـا تعكـس كـذلك وفـاء الرئيس تجاه من أسدى إليه معروفًـا.

4- تصور الوجـدان الشـعبي لمـا يحـدث في كـواليس السياسـة عـلى نحـو عفـوي وتلقائي.

5- أن هذه الحكاية مجموعة مـن الحكايـات التـي يتناقلهـا الشـعب شـفاهًة، وقـد تمكنت من جمع الكثير منها، وتصور كيف أن عبد الناصر خُدع في حاشيته، الذين أذاقـوا الشعب كئوسًا من الظلم لفسادهم، وهي كئوس لم يشـرب منهـا الشـعب فحسـب، بـل شرب منها الرئيس نفسه، وهو ما يعني أن الصورة الحقيقية للفساد لم تصل إليه.

إنها مجموعة حكايات تبرر ارتباط الشعب - ولا يزال- بعبد الناصر، وتبرر نظـرتهم له على أنه «القائد والزعيم».

ومن بين الحكايات الشعبية التي يتناقلها الوجدان الشعبي المصري عن عبد الناصـر تلك الحكاية التي تنتصـر لعبـد الناصـر في مواجهـة رئـيس أمريكـا؛ دفاعـا عـن كرامـة المصريين وذكائهم، وفحواها أن الرئيس جمال عبد الناصر كـان مـدعوًا لزيـارة رئـيس أمريكا، واستقبله الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض، وكان يجلـس عـلى كرسـي، وتـم تصميم الباب بشكل يجعل الشخص الداخل عليه في وضع المنحني أمامه، وهي كانـت خديعة من هذا الرئيس لينحني أمامه عبد الناصر، وبمجرد أن وصل عبد الناصـر البيـت الأبيض تفهم - لشدة ذكائه- الخديعة، فدخل مقدمًا رجله قبل رأسه، فكأنه وضع قدمـه في وجه الرئيس الأمريكي، وهو ما زاد من غيظه.

إن الحكاية السابقة سـبق أن تناقلتهـا كتـب الأدب والتـاريخ القديمـة، ولعـل أقـدم شخصية اقترنت بها الحكاية، حسب قراءاتي هـو الشـاعر الأندلسـي «يحيـى بـن حكـم الغزال»، عندما أرسله حاكم الأندلس على رأس وفد لزيـارة امبراطـور الرومـان، الـذي فعل الخديعة السابقة، والتـي تفهمهـا الشـاعر الغـزال، فـدخل مقـدمًا رجلـه في وجـه الامبراطور، الذي أعجب - هو وزوجته- بذكاء الغزال وسرعة بديهته، فقربه إليه دونـًا عن بقية الأعضاء.

والمقارن بين الحكايتين، سيجد أنه باستثناء أسماء الشخصيات والأمـاكن لا يوجـد تغيير سوى في رد فعل كل من الرئيس الأمريكي والإمبراطـور الرومـاني، بـل إن أسـماء الشخصيات والأماكن لـيس بينهـا اخـتلاف تـام، فهنـاك وفـد إسـلامي/ عربـى يـزور امبراطورية غربية (رومانية - أمريكا).

واختلاف رد الفعل لاختلاف الظروف السياسية والدينية والاجتماعيـة والتاريخيـة، فوفد الغزال كان في فترة ازدهار الدولة الإسلامية (شرقـًا وغربًا)؛ ومـن ثـم فإنـه حظـى بكل تقدير واحترام؛ رغم إهانة الغزال للإمبراطور، فما كان منه إلا أن يعجب بـه ويزيـد في إكرامه، دون أن يسيء إليه، رغم أنه مجرد شاعر، ولكن قوة الدولة - وقتئذ- فرضت عليه ذلك، بـل إن احتـرامهم لإنجـازات الحضـارة الإسـلامية جعلـتهم تقـدر رد فعـل الغزال، وتؤمن بأحقية المسلمين لما وصلوا إليه.

أما وفد عبد الناصر فيأتي في فترة ضعف للدور العربي على جميع المستويات؛ ومن ثم كان رد الفعل غاضبًا لقوة الطرف الأجنبي، وضعف الطرف العربي.

لقد اختار الوجدان الشعبي شخصية عبد الناصر فأسقط عليها أهم القيم الواردة في الحكاية القديمة؛ نظرًا لما يمثله عبد الناصر بالنسبة للشعب، فهو نموذج للحاكم القومي والزعيم الوطني؛ إذ يمتلك من العزة والكرامة ما يجعله يقف مثل هذا الموقف أمام الاستعمار (ممثلاً في الرئيس الأمريكي وفي البيت الأبيض)، وساعد عبد الناصر - للوصول إلى الدور القيادي حسن اختياره لبعض الجمل في خطبه، التي صارت شعارات براقة، ثم أغاني يتغنى بها الشعب.

أيضًا فهو أول رئيس مصري بعد محمد نجيب الذي تناساه الشعب - من أبناء مصر-، كل هذا جعل عبد الناصر نموذجًا للبطل والعزة والكرامة، ومدافعًا عن قضايا قومه، وهو الأمر الذي جعل الشعب يكن له إلى الآن كل تقدير واحترام.

وإلى جانب ما تختزنه الذاكرة المصرية من حكايات عن عبد الناصر، فإن هناك العديد من الأشعار والأغانى البدوية لا تزال تُروي عنه، منها هذه القصيدة/ الأغنية البدوية التالية، التي تستعرض بطولة عبد الناصر في حرب 1956م:

مرحبتين أهلاً يا غالي

وقتًا ما صبيت قبالي

حسيت إنَّ يزهيا بالي

ننسى موال التفكير

ثم يقول:

مرحبتين أهلاً يا غالي

يا للى عيونك شبه السودا

ضرب مدافع روسيين

ضـــرب مدافـــع جـــا متعـــادل

عـــادل لا بـــارودي مـــاد

الهنـــد وحـــبش عـــلى إفـــريقين

هنـــد وحـــبش عـــلى إفريقيـــة

طيـــارات بنـــار قويـــة

دبـــابـــات بمدفعيـــة

تهلـــك في عـــدوان الـديـــن

تهلـــك في عـــدوان المواليـــي

يـــا مولانـــا عـــاطهم هـولـــة

جـــاعوا مـــن قلـــة تمويـــن

جـــاعوا والمونـــة خسَّتهـــم

زاد الهـــم الطـــارق اتنيـــن

زاد الهـــم وزاد نـكـــاده

عبـــد الناصـــر خـدهـــا عـــاده

ملـــك برديهـــا والحربـــي

ملـــك بـرديهـــا والحربـــي

وأنـــا مصـــري مـــا بيـــدي شـــي

العـركـــة دلال المسكيـــن

إن هذه الموروثات الشعبية التي يرددها المصريون ليست مجرد كلمات، وإنما هـي بمثابة رسائل صادقة يرسلها المصريون إلى من يتولون أمورهم، ليخلصوا العمل لهـم في حياتهم، حتى تخلص ذاكرة المصريين لهم بعد رحيلهم.

▪▪ جمال عبد الناصر .. حلم أمة [1]



1918 - 1970

تمر الأيام والسنون، تسرق عمر البشر، تتغير الملامح وتتبدل الأحوال، تتواتر الأحداث، وتتزاحم تداعياتها، وتتشابك كخيوط عنكبوت، تترك آثارها نقوشاً في وجداننا قبل أبداننا، يعبر شريط الذكريات وكأنه ومضة برق في عمر الزمان، نستعرض فيها ما مضى وما كان، تستوقفنا لحظات عصية على النسيان.

وفور أن بدأ الحديث عن الاحتفال بمئوية الرئيس جمال عبد الناصر، تداعى أمامي ذلك اليوم العصيب، حيث الثامن والعشرين من سبتمبر 1970م حين رحل الرئيس جمال عبد الناصر عن دنيانا، كانت الصدمة فوق كل احتمال، اعتصرت قلب مصر، هزت كيانها، زلزلت أرجاء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وتخطت ذلك النطاق الجغرافي لتمتد إلى أحرار العالم.

لا أعرف لماذا لاحت تلك اللحظة القاسية - تحديدا- في خاطري في تلك المناسبة، لعله جلل هذا اليوم، وتداعياته الكبيرة على مصر والمنطقة وربما العالم، وربما الحنين لمعلم

(1) سامي شرف: مقالة منشورة جريدة الأهرام، بتاريخ 14 نوفمبر 2017م.

وقائد تعلمت منه مبادئ الوطنية، والإخلاص في العمل من أجل هذا الشعب، إلا أن كلمة مئوية في حد ذاتها استنفرت شيئا داخلي، وعلى الفورت وجدت نفسي أردد الأسئلة التالية: هل مرت مائة عام على قدوم ناصر لدنيانا تلك..؟ ماذا لو كان هذا الزعيم الكبير مازال بيننا الآن..؟ كيف كان سيكون حال مصر والمنطقة..؟ بالقطع.. أمور كثيرة جدًا كانت ستتغير، ويقيني أننا كنا سنصير في وضع أفضل بكثير مما نحن والعرب فيه.

بمقاييس الزمن عاش جمال عبد الناصر حسين حياة قصيرة (15 يناير 1918م- 28 سبتمبر 1970م)؛ فقد رحل عن 52 عاما و8 أشهر و13 يومًا، ظهر فيها على مسرح التاريخ لمدة 18 عاما، مثلت فصلا استثنائيا في التاريخ العربي كله، تاركًا للأجيال المتعاقبة مجدًا وإرثًا فكريًا وسياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا يشبهنا ويشبه طموحنا، ترك لنا مشروعًا عظيمًا خرج من رحم الأمة المصرية، يقوم على مبادئ الكفاية والعدل، وقيم الحرية والمساواة لجميع الشعوب وكل الأوطان.

وكانت مشيئة الله – عز وجل- أن يرحل عبد الناصر قبل أن يحصد ثمار عمله، ويرى تحرير الأرض، رحل الرجل ولم يكتمل مشروعه، ولم تكتمل رسالته، وبعد وفاته تم بتر تجربته والانقضاض عليها بترويج شعارات وحجج عبثية لا طائل من ورائها سوى محاولة تشويه التجربة لوأدها في عقول وقلوب المصريين، حيث أطلقت حملات جاهلة ممولة تملأ الفضاء عويلا عليت غياب تطبيق الديمقراطية في عهد جمال عبد الناصر.

وبالمناسبة يواجه النظام المصري الحالي ذات الحملات المشبوهة في الداخل والخارج من قبل من لا يريد لهذا الوطن أن يملك قراره، وأن يظل منشغلاً بقضايا وموضوعات تصرفه عن مسيرة البناء والتنمية، وإلا ما هو تفسيرنا لكل الحملات المسعورة التي يوجهها عدد ممن يطلقون على أنفسهم منظمات مجتمع مدني، ومنظمات حقوق إنسان، معظمها – أقول معظمها وليس كلها- ذات تمويل خارجي مشبوه، تهدف لتشويه صورة النظام المصري في الخارج وأمام شعبه في الخارج، ويركزون على حادثة يرتكبها أحد أفراد الشرطة أو أحد مسئولي الدولة هنا أو هناك، ويملأون الفضائيات والإعلام صراخًا وعويلاً، وكأن النظام المصري يتفرد دون نظم العالم بأنه ينصب المشانق والمجازر لشعبه..!

هذا في الوقت الذي تتغافل هذه المنظمات عن انتهاكات لحقوق الإنسان أبشع وأفظع ترتكب في الدول التي تمولها، وغيرها من الدول التي ينتهك فيها جميع حقوق الإنسان، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا... إلخ، من جميع صنوف الانتهاكات الواضحة والصريحة، ولكن ليس لدى هذه المنظمات التعليمات من مموليها بتوجيه سهامها المسمومة والمشبوهة تجاه تلك الدول.

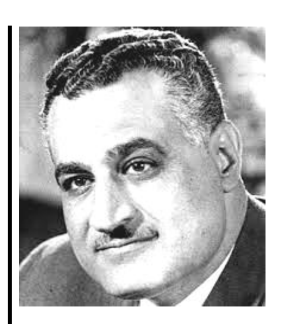
هاهو عبد الناصر - يا من تنصبون أنفسكم سدنة حقوق الإنسان وحماتها- رحل عن دنيانا منذ 47 عاما، ووصل لسدة الحكم في وطننا العربي الكثيرون ممن كانوا ومازالوا يتبجحون بهذه العبارات الرنانة دون أي إنجاز يذكر، علمًا بأن هذه العبارات والمفاهيم باتت في يومنا هذا مألوفة ومعروفة من القاصي والداني..!

ما رأيكم فيمن تدعونهم النخبة الذين باتوا سلعًا في سوق التهريج السياسي والمجتمعي والفضائي وموضع سخرية العالم المتحضر القوي..؟

لماذا..؟ وماذا..؟ وكيف..؟ ومتى..؟ وأين..؟ ... إلخ، بجميع أدوات الاستفهام أوجه أسئلتي لهؤلاء ممن حاولوا عبثًا أن يشوهوا حلم جمال عبد الناصر ومشروعه لنهضة هذه الأمة.

▪▪ رداً على عمرو موسى ..

عبد الناصر الذي لا تعرفه ...!![1]



1918 - 1970

أثارت المذكرات الشخصية التي أصدرها السيد عمرو موسى بعنوان: «كتابيه»، حالة من الجدل الشديد، بسبب ما تضمنته من وقائع غير موضوعية تخص المرحلة التاريخية التي حكم فيها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مصر.

وبالرغم من أن الأمين العام السابق للجامعة العربية تعرض للعديد من الوقائع، وأصدر أحكامًا مطلقة تخص هذه الفترة، إلا أننى أتوقف هنا أمام ادعائه المثير للسخرية، والذى زعم فيه أن الزعيم الراحل كان يستورد طعامه من سويسرا.

لم يكن لدى السيد عمرو موسى من دليل على ادعاءاته سوى الاستشهاد بالرجل ضخم الجثة الذي كان يمضي مجيئًا وذهابًا إلى سويسرا للإتيان بطعام النظام الغذائي الذي وصفه الأطباء للرئيس جمال عبد الناصر..

إن من يقرأ القصة «الوهمية» التي رواها عمرو موسى في مذكراته، لا يستطيع إلا أن يبدي دهشته من هذا الافتراء على

(1) مصطفى بكري: جريدة الأسبوع، تحت عنوان بالعقل، العدد (1040)، بتاريخ 18 سبتمبر 2017م، ص3.

وقائع التاريخ، ومحاولة الإساءة لرجل أعطى هذه الأمة كل حياته، وكان نموذجًا يقتدى في سلوكه ووطنيته وبساطته..

ويدرك السيد عمرو موسى قبل غيره، أن عبد الناصر لم يكن من هؤلاء القادة الذين يظهرون للشارع مرتدين «الماسكات» التي لا تكشف هويتهم وممارساتهم وسلوكهم الحقيقي، ذلك أنه وبشهادة الجميع كان عبد الناصر صاحب وجه واحد، وسلوك واحد، تميز بالصدق في ممارسته الحياتية في السر والعلانية.

لم يكن هذا كلامًا يتردد دون سند أو دليل، بل هو تعبير عن واقع، جسده رد السيد سامي شرف على ادعاءات عمرو موسى، وهو الذي كان أكثر الناس قربًا من عبد الناصر، وكان كما قال في رده، هو الذي كان مشرفًا على كل مشتريات وحاجيات عبد الناصر طيلة فترة عمله معه.

وإذا كان السيد سامي شرف قد نفى رواية عمرو موسى نفيًا مطلقًا، فإن رد السيد عمرو موسى على سامي شرف كما أوضحه هو في اتصال هاتفي مع إحدى القنوات الفضائية، لم يكن فيه ما يؤكد روايته، فقد قال: «اتصل بي سامي شرف وأوضح لي، وما ذكرته كان سطرين فقط في الكتاب، وأنا أرى أن هناك ما هو أهم مثل هزيمة 67 المؤلمة والمؤسفة والتى لا تزال تداعياتها قائمة».

هكذا أوضح السيد عمرو موسى أنه لم يمتلك دليلاً على ادعاءاته فراح يهرب إلى الأمام ويقول: «إن ما ذكره مجرد سطرين في كتاب، ولكن هناك ما هو أهم»، هكذا تعامل مع الاتهام الكاذب ببساطة، دون أن يقدم دليلاً على ادعاءاته، أو سندًا يعضد روايته، ويحاول أن يقنعنا بمنطق «إكفي على الخبر ماجور، وخلونا في الأهم».

قد يكون هذا مقبولاً من كاتب مغامر، أو رجل يسعى إلى الإثارة والترويج، أما أن يصدر ذلك من رجل بوزن السيد عمرو موسى فهذا أمر يشككنا في مصداقية الكثير من الروايات السياسية التي تضمنها الكتاب، إنني لن أتناول هنا الرد على أحكامه المطلقة بأن عبد الناصر فقد صولجانه بعد 67، وأن تداعيات الهزيمة ظلت مستمرة حتى ثورة 25 يناير 2011م، فهو أمر ليس مجاله هنا، خاصة أنه بذلك يتجاهل حرب الاستنزاف وانتصار أكتوبر، التي كانت هى الرد الطبيعى على نكسة يونيو 1967م.

وعندما يتم تناول هذا الأمر من خلال المستندات الدامغة، ومحاضر اللقاءات التي أجراها عبد الناصر في هذه الفترة، سوف يكتشف السيد عمرو موسى أن كثيرًا من الحقائق غابت عنه، وأنه تعامل مع حدث بهذه الخطورة بنفس تعامل الذين لا يقرأون الأحداث بعمق، ولا يجهدون أنفسهم في الاطلاع على الصورة من كافة زواياها.

لقد ظل عبد الناصر يقاوم حتى اللحظة الأخيرة، واجه الجميع، وتصدى للمؤامرة، وأعاد بناء القوات المسلحة، وجيش الشعب المصري وحشد كل طاقاته من أجل الاستعداد ليوم حرب التحرير، التي تحققت في وقت لاحق وانتصرت فيها إرادة الشعب المصري.

لقد تخيلت لو كان عبد الناصر أمينًا عامًا للجامعة العربية في ذات الفترة التي تولى فيها السيد عمرو موسى، أتراه كان يمنح «حلف الناتو» مشروعية التدخل لتدمير بلد عربى شقيق هو ليبيا، وقتل قيادته وتدمير جيشه وبنيته وتشريد شعبه، دون أن ينطق بكلمة واحدة، أو يصدر إدانة، أو يمتلك شجاعة تحمل المسئولية كما فعل عبد الناصر في عام 1967م.

من السهل على السيد عمرو موسى أن يهيل الثرى على حكم عبد الناصر، فهذا شأنه، يتحمل هو وحده مسئوليته أمام الرأي العام وأمام التاريخ، ولكن أن يصل به التجاوز إلى اختلاق وقائع غير صحيحة بغرض تشويه سمعة الزعيم الراحل، وتكرار مسلسل الأكاذيب الذي روج ضده على مدى عقود من الزمن وثبت عدم صحته، فهذا هو الأمر الذي لا يمكن السكوت عليه.

لم يكن عبد الناصر برجوازيًا، بل كان ينتقد كثيرًا سلوك الطبقات التي كانت تحكم مصر قبل الثورة، وكثيرًا ما تحدث عن مجتمع الـ50٪، وعن اعتزازه بأنه ابن رجل فقير، ليس لديه أي تطلعات في هذه الحياة سوى مصلحة الشعب والطبقات المقهورة.

كان طعام عبد الناصر بسيطًا، الخبز والفول المدمس والجبن والخيار، وكان غذاؤه هو الخضراوات والسلطة الخضراء، وكانت لمسة الترف لديه عندما يجلس للعمل في مكتبه أن يستمع إلى تسجيل لأغنية من أغاني أم كلثوم، أو يذهب إلى قاعة السينما في منزله لمشاهدة أحد الأفلام قبل أن يأوى إلى فراشه.

كان دائمًا يرفض الدعوات الاجتماعية، وعندما سأله الأستاذ هيكل في يوم ما مندهشًا، رد عليه عبد الناصر بالقول: «إلى أين أذهب ومع من أختلط، إن الذين يستطيعون دعوة رئيس الجمهورية هم القادرون، وهم يعرفون وأنا أعرف أن أفكاري تختلف عن أفكارهم، فلماذا أعذبهم وأعذب نفسي؟!».

وعندما رحل عبد الناصر كان كل ما تركه من إرث لأبنائه قرابة الأربعة آلاف جنيه فقط، منها ألف وخمسمائة جنيه قيمة بوليصة تأمين على الحياة، عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين في الأربعينيات، وكان رصيده في بنك مصر فقط حوالى ألفين وأربعمائة جنيه، وفي مقابل ذلك كان مديناً بحوالي ستة وعشرين ألف جنيه بقيت عليه ديناً من تكاليف بناء بيتين لابنتيه هدى ومنى للزواج فيهما.

إن التاريخ يتحدث عن الكثير من الوقائع التي لا يزال شهودها أحياء، وهي وقائع تكشف المعدن الأصيل للرئيس عبد الناصر، وصدق مواقفه وشعاراته التي كان يرفعها ويدافع عنها.

ففى عام 1956م، اقترح عدد من المسئولين إنشاء قرية نموذجية مدخل موطن أسرته في قرية «بنى مر» بمحافظة أسيوط، تضم (108) فيلا، تتوسطها فيلا على أحدث الطرز المعمارية تخصص كاستراحة لرئيس الجمهورية (ابن البلدة)، أما باقي الفيلات فتخصص لأقارب الرئيس وأهله.

عندما عرض هذا الاقتراح على جمال عبد الناصر رفض الفكرة بكل حسم وقوة، وقال: «لو لم أكن رئيسًا للجمهورية، ما كان ليحدث هذا؛ ولذلك لا أقبل شيئاً يرتبط بمنصبي، أنا فخور بأني واحد من أبناء بني مر، وأفخر أكثر بأنني واحد من عائلة فقيرة تعيش في هذه البلدة، وأفخر بأن عائلتى لا تزال في بني مر مثلكم، وأعاهدكم بأن جمال عبد الناصر سيستمر حتى يموت فقيرًا في هذا الوطن».

وقد صدق عبد الناصر، لقد رحل فقيرًا، لا يملك في خزينته شيئًا، لم يسمح باكتناز ملايين الدولارات، وكان بإمكانه ذلك، لم يفرط في ثوابته وظل مدافعًا عن الوطن وعن الأمة العربية، التي عمل على تحرير العديد من بلدانها من الاستعمار.

لم يكن عبد الناصر معزولاً عن الجماهير، بل كان متفاعلاً معها، يشعر بآلامها

وآمالها، وهل هناك رواية أكثر صدقًا من تلك التي ضمنها السيد سامي شرف في مذكراته عن انحياز عبد الناصر للفقراء.

لقد قال سامي شرف: «إنه أثناء إحدى زيارات عبد الناصر للصعيد، وعندما توقف القطار في إحدى المحطات فوجئنا برجل بسيط، يلقى بصرة وقعت بين أرجلنا، فتملك الحضور شيء من الارتباك والمفاجأة، فسارع أحد ضباط الحراسة الخاصة بالتقاط الصرة بحذر، وبدأ يفتحها داخل إحدى كبائن القطار، وكانت المفاجأة أن «الصرة» لا تحوي إلا رغيف بتاو وبصلة في منديل محلاوي، ولم يفهم أحد من الحضور.. لماذا ألقى هذا الرجل تلك «الصرة»، إلا أن عبد الناصر كان الوحيد الذي فهم معنى الرسالة، وأخذ يرفع صوته باتجاه الرجل، قائلاً: الرسالة وصلت يابويا.. الرسالة وصلت»..!!

وفي خطابه في مساء نفس اليوم إلى جماهير أسوان، وجه عبد الناصر كلامه إلى صاحب الصرة قائلاً: «يا عم جابر، أحب أقول لك إن الرسالة وصلت، وأننا قررنا زيادة أجر عامل التراحيل إلى 25 قرشًا، بدلاً من 12 قرشًا فقط، كما تقرر تطبيق نظام التأمين الاجتماعي والصحي على عمال التراحيل لأول مرة في تاريخ مصر».

لقد كان عبد الناصر يعرف أن المنديل المحلاوي هو رمز عمال التراحيل الذين يتغربون في البلاد بحثًا عن لقمة العيش، فلا يجدون سوى عيش البتاو والبصل، كان ذلك هو جمال عبد الناصر الذي راح السيد عمرو موسى يتجنى عليه عامدًا متعمدًا، ويقول: «إنه كان يأتي بطعامه من سويسرا، وكأن كل ما يردده عبد الناصر من شعارات كانت مجرد أكاذيب».

إنني في نهاية هذا المقال أود أن أطلعك على ما قاله «يوجين جوستين» رجل المخابرات المركزية الأمريكية الذي قال في كتابه «التقدم نحو القوة»: «إن مشكلتنا مع ناصر أنه رجل بلا رذيلة، مما يجعله من الناحية العملية غير قابل للتجريح، فلا نساء، ولا خمر، ولا مخدرات، ولا يمكن شراؤه أو رشوته أو حتى تهويشه، ولذلك فنحن نكرهه ككل، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا تجاهه؛ لأنه بلا رذيلة وغير قابل للفساد، ولذلك فهو خصم محترم بشكل غير عادي».

هذا هو كلام أعدائه، فماذا تملك يا سيد عمرو..؟!

▪▪ أوفياء وخونة في حياة جمال عبد الناصر [1]



1918 - 1970

في 29 يوليو عام 1954م، وقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أمام حشد كبير من المواطنين في حي الجمالية يقول: «إن في كل بلد خونة، وفي مصر يضاف إلى الخونة محترفو السياسة وتجار الوطنية، لقد حاولوا مرارًا تضليل الأمة لكي تنصرف أو تنفض من حول مبادئ الثورة، ولكنهم لم ينجحوا.. هذه الفئة لن تيأس في محاولاتها وستعود من جديد إلى تسديد الضربات إلى الوطن، لقد تاجروا بالوطنية في الماضي وسيتاجرون بها غدا وفي المستقبل، ولا يقصدون بهذه التجارة الخاسرة سوى استغلالكم».

كانت هذه كلمات ناصر في السنوات الأولى من عمر الثورة، وكأنه كان يقرأ ذلك في وجوه من حوله، الذين تحولوا عن أفكاره وآرائه بمجرد أن وارى الثرى جثمانه، أو يستشرف المستقبل حول أشخاص استغلوا اسمه ومبادئه من أجل تحقيق مكاسب شخصية، أشخاص رفعوا شعارات ناصر ونادوا بها من أجل حفنة دولارات، وكوبونات النفط وهدايا القذافى ليست بالأمر البعيد.

(1) ياسر ناصر: مجلة روزاليوسف، العدد (4658)، بتاريخ 23 سبتمبر 2017م، ص60-63.

هل من قبيل الصدفة أن يصدر كتاب عمرو موسى في هذا التوقيت، والذي يسبق الذكرى الـ47 لرحيل جمال عبد الناصر بأيام، وهو الكتاب الذي أهال التراب على الحقبة التي أعقبت الثورة، وهو ما اعتبره البعض محاولة من جانب المرشح السابق لرئاسة الجمهورية لأن يروج لتجارته الجديدة وكتابه الذي يصل سعر نسخته إلى 300 جنيه بمحاولة النيل من عبد الناصر وفترته، والتي شهدت بداية بزوغ نجم عمرو موسى في العمل الدبلوماسي.

عمرو موسى الذي خصص جزءًا كبيرًا من مذكراته التي صدرت تحت عنوان «كتابيه» للهجوم على ناصر وفترة حكمه، يعترف شخصيا أنه لم يلتق الرئيس الراحل سوى مرتين فقط، الأولى في 21 أكتوبر 1966م في نيودلهي، عندما ذهب وفد ترأسه عبد الناصر للقاء أنديرا غاندي، بعد وفاة نهرو وتوليها رئاسة وزراء الهند، وتقرر عقد قمة ثلاثية لأنديرا مع عبد الناصر والرئيس اليوغوسلافي جوزيف تيتو، وجلس عمرو موسى وعبدالرءوف الريدي خلف الرئيس ليكتبا محضر اجتماعه مع أنديرا.

والثانية كانت أثناء عمل عمرو بمكتب وزير الخارجية، قبل هزيمة يونيو 1967م، عندما استقبل تليفونـًا من سامي شرف مدير مكتب عبد الناصر يطلب منه مع وزير الخارجية أن يستقبلا رئيس الوزراء السوري يوسف زعين، ومعه رئيس الأركان السوري، والذهاب بهما على بيت الرئيس.

يقول عمرو موسى عن اللقاء الثاني: «جاءنى ضابط اسمه على ما أذكر مصطفي، وبينما كان يتحدث إليّ، ويسألني عن الوفد الذي بالداخل، إذا بي أراه ينحني انحناءة خفيفة أخذت تتزايد، للوهلة الأولى لم أفهم ما جرى، وسريعًا أدركت أن ورائي شخصًا يتم له هذا الانحناء، التفت فوجدت الرئيس عبد الناصر أمامي، نهضت واقفًا، لم أصدق أنني أمام هذا الزعيم التاريخي، الرجل الذي يهدد إسرائيل وأمريكا، والذي يملأ الدنيا كلها صخبًا، حيث كان في أعظم مراحل حياته، وآخر لحظات مجده قبل أن تدهمه وتدهمنا جميعًا 5 يونيو 1967م».

موقف عمرو موسى الذي لم يلتق ناصر سوى مرتين فقط، وأقام محاكمة لنظامه في كتابه الجديد، لم يختلف كثيرا عن موقف الرئيس الأسبق محمد أنور السادات، والذي كان من المقربين من ناصر منذ ثورة يوليو إلى يوم وفاته، وهو اليوم الذي شهد بداية

تحول السادات، الذي كان خلال فترة ناصر لا يكل ولا يمل في تمجيده والثناء على القرارات التي يتخدها، حيث تجده في كتاب «يا ولدي هذا عمك جمال» والذى صدر في عام 1957م، يصف ناصر بأنه تفوق على أحمد عرابي في الوطنية والشجاعة.

يقول السادات في كتابه: «وعمك جمال يا ولدي هو المصري العربي الذي امتلأت عروقه بالدماء الحارة من نيل مصر، وجمال عبد الناصر عمك يا بني الذي سميتك على اسمه، عمك يمتاز بالإقدام والإيمان بمصر واستقلالها وكرامتها إيمانا صلبا عنيدا»، وهو الكتاب الذي اختفى بعد وفاة ناصر وتم سحبه من الأسواق، وهو ما فسر وقتها بسبب كره السادات لجمال عبد الناصر.

وهو ما رواه الدكتور محمود جامع أحد المقربين من السادات، والذى يروى أن: «السادات كان يكره ناصر؛ لأنه اعتاد تهميشه ولم يعطه حقه في تولي المناصب القيادية، حيث لم يدخله في التشكيلات الوزارية المتعاقبة واكتفى له بمناصب ثانوية».

كره السادات لناصر والانقلاب على أفكاره ومبادئه ظهرا واضحين في كتابه «البحث عن الذات»، والذي عظم فيه نفسه ودوره في الثورة والأحداث التي أعقبتها، مهيلا بالتراب على فترة سابقه، فنجده يقول عن حكم ناصر: «على عكس الحقد الذي ساد في الثمانية عشر عاما الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما في طريقه هدما ما زلنا نعانى من آثاره إلى اليوم».

ويضيف واصفا عبد الناصر قائلا: «لم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة، مع أى إنسان وهو المتشكك دائما - الحذر- المليء بالمرارة، العصبى المزاج، كان عبد الناصر تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة؛ وخاصة لأنه كان يتأثر بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصح له، فقد كان كل همهم إن يضخموا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم».

وبحسب كتاب «جمهورية الفوضى» فقد وظف السادات موهبته في التمثيل في خدمة دهائه في السياسة، ووظف الاثنين في خدمة طموحاته، حيث وقف في 7 أكتوبر أمام أعضاء مجلس الأمة يتعهد بأن يلتزم بالناصرية عقيدة وسلوكا قائلا: «لقد جئت إليكم على طريق عبد الناصر، وأعتبر ترشيحكم لي توجيهًا بالسير على طريق عبد الناصر»، كما

استغل السادات وفاة عبد الناصر وقدم نفسه في صورة الوريث المخلص لقائده، حيث قبل يد وجبهة عبد الناصر، وانخرط في بكاء متواصل، فسره البعض برد الجميل، كما انحنى أمام تمثال عبد الناصر في مجلس الأمة.

ربما هى المصلحة التي جمعت السادات ومحمد حسنين هيكل حول ناصر، فالأول ناصره ثم انقلب عليه، والثاني بزغ نجوميته وعلا اسمه بفضل ناصر، وظل طوال مسيرته المتحدث الرسمى والمؤرخ الوحيد للحقبة الناصرية، وهو الرجل الذي يصفه البعض بأنه رجل كل العصور، فقد كتب ممجدا في الملك فاروق «في يوم عيدك يا مولاي»، وعقب ثورة يوليو، أصبح الصحفي المقرب من جمال عبد الناصر، بل إن الرئيس الراحل كان يزوره في مكتبه بالأهرام.

توطدت العلاقة بين هيكل وعبد الناصر حتى أصبح اللسان البليغ في التعبير عن أفكار الزعيم، وأصبحت مقالاته مقروءة ومؤثرة، وأدى مهمته على خير وجه، وعبر عن أفكار الرئيس بصورة كان يقول عنها عبد الناصر: «هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله».

وعندما أصبح السادات رئيسا، شارك هيكل في صناعة شرعيته في أكتوبر سنة 1970م، وكتب في نوفمبر من نفس العام مقالا تحت عنوان «عبد الناصر ليس أسطورة»، وصاغ أساس الشرعية الجديدة في أكتوبر سنة 1973م، بعدما أطلق على السادات: «صاحب قرار أكتوبر العظيم»، وخلال السنوات الأولى استطاع السادات أن ينجح بمعاونة هيكل في كسب معركة الصراع الحاد مع مراكز القوى.

وعلى النقيض من هيكل يقف أنيس منصور، والذى كان أول صدام بينه وبين ناصر بعد مقاله «حمار الشيخ عبدالسلام» والذي يرى أنيس أنه كان سببا في فصله من أخبار اليوم، إلا أن الناصريين يردون على ذلك بأن نجم أنيس بزغ واشتهر في عهد عبد الناصر، ونال كتابه «حول العالم في 200 يوم» جائزة رئيس الجمهورية من عبد الناصر، كما عمل في الإذاعة وفي التلفزيون في عهد عبد الناصر.

أنيس منصور الذي يتهمه الناصريون بأنه عراب مرحلة «الساداتية» والترويج للتطبيع مع إسرائيل خصص جزءا كبيرا من كتاباته خلال فترة حكم الرئيس السادات للهجوم على عبد الناصر، وهو ما رأى فيه الناصريون انتهازية من الكاتب الصحفي الذي كان

يمجد في الرئيس الراحل خلال فترة حكمه، ولخص حكاياته مع ناصر في مجموعة مقالات جمعها في كتاب «عبد الناصر المفترى عليه والمفتري علينا»، كان أكثر ما فيه من هجوم عندما كتب يقول إنه كان مع عبد الناصر في رحلة إلى السعودية، وحين كانوا يؤدون مناسك العمرة توقف عبد الناصر أثناء الطواف متسائلا: أهذه هى العمرة أن نطوف حول هذا البناء؟ أهذا الذي تطلبون منا أن نفعله؟ ولم يكمل عبد الناصر الطواف استهزاء بمناسكها.

وفي الجهة الأخرى من المتحولين الذين كانوا بالقرب من ناصر، فإن هناك عدة أشخاص نالهم من ناصر الغضب ومنهم من زج به في سجون يوليو، وكانوا في صدارة المدافعين عنه والراثين له بعد وفاته وفي مقدمة هؤلاء الشاعر الكبير نزار قباني، والذى منع من دخول مصر بسبب قصيدته «هوامش على دفتر النكسة»، والتى يقول فيها:

أنعي لكم يا أصدقائي.. اللغة القديمة والكتب القديمة.. أنعي لكم.. كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة.. ومفردات العهر، والهجاء، والشتيمة.. أنعي لكم.. أنعى لكم.. نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة.

القصيدة تسببت في منع نزار من دخول مصر وتوقفت الإذاعة عن بث أشعاره وأغانيه، فما كان من الشاعر إلا أن بعث برسالة للرئيس جمال عبد الناصر قال فيها: «أوجعني يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتى من دخول مصر، وأن يفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها، لا أطالب يا سيادة الرئيس إلا بحرية الحوار، فأنا أشتم في مصر ولا أحد يعرف لماذا أشتم، وأنا أطعن بوطنيتي وكرامتي لأننى كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفا من هذه القصيدة.. يا سيدي الرئيس لا أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزفه.. لا أصدق أن يحدث هذا في عصرك.

وبناء عليه قام عبد الناصر بفض الحصار الذي كان مفروضا على نزار قباني وقصائده، وغنت له أم كلثوم قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية» عام 1969م، والتي كتبها نزار في عام 1968م لصالح القضية الفلسطينية، ورغم قرار ناصر إلا أن نزار قباني كان يعرف أن الحاشية كانت متربصة به، وأن القرار لم يغير من موقفها شيئا، وأن حالة العداء تجاهه ما

زالت على حالها.

ورغم ذلك خرج نزار قباني بقصيدة بعد وفاته يرثى فيها الزعيم الراحل كما لم يرثه أحد من محبيه، واصفًا إياه بـ«الهرم الرابع»، يقول فيها: «السيّد نام.. السيّد نام.. السيّد نامَ كنومِ السيفِ العائدِ من إحدى الغزوات.. السيّد يرقد مثلَ الطفلِ الغافي.. في حضنِ الغاباتِ.. السيّد نامَ.. وكيفَ أصدِّق أنَّ الهرمَ الرابعَ مات؟.. القائد لَم يذهب أبدًا.. بل دخلَ الغرفةَ كى يرتاح.. وسيصحو حينَ تطلّ الشمس.. كما يصحو عطر التفاح.

ويتشابه موقف نزار قباني مع موقف الشاعر عبد الرحمن الأبنودي الذي أودعه نظام عبد الناصر السجن عام 1966م، وأودع في سجن انفرادي بالقلعة لمدة 6 أشهر، حتى أطلق سراحه استجابةً للمفكر الفرنسى جان بول سارتر؛ إذ كان شرطه الوحيد للحضور إلى مصر هو الإفراج عن سجيني الرأى والفكر، ومع ذلك ظل وفيا للحقبة الناصرية ومدافعا عنها إلى أخر حياته.

ويصف الخال هذه الفترة في حديث الذكريات قائلا: «فترة السجن من المنح التي نلتها في عهد عبد الناصر، بمعنى أن المبدع لا يكتب إبداعا حقيقيا عن موضوع ما أو شأن ما إلا إذا خاض تجربة خاصة به تمامًا مثل تجربتي على خط النار في حرب الاستنزاف».

الأبنودي كان يرد بقصائده على الهجوم، ويبرز نجاح ناصر في الأغانى التي كتبها لكبار الفنانين كعبد الحليم حافظ وغيرهم، وكان آخرها رده على هجوم الإخوان على فترة عبد الناصر، وعلى خطاب المعزول محمد مرسي، الذي تهجم فيه على جمال عبد الناصر من خلال قوله: «الستينيات وما أدراك ما الستينيات»، وفي القصيدة يتحدث الأبنودى متأسفاً على عهد الناصرية قائلاً:

«يعيش جمال عبد الناصر.. يعيش بصوته وأحلامه.. في قلوب شعوب عبد الناصر.. مش ناصري ولا كنت ف يوم.. بالذات في زمنه وف حينه.. لكن العفن وفساد القوم.. نسّاني حتى زنازينه.. إزاي ينسّينا الحاضر.. طعم الأصالة اللي في صوته؟.. يعيش جمال عبد الناصر.. يعيش جمال حتى ف موته.. ما هو مات وعاش عبد الناصر».

ولاء نزار قباني والأبنودي يقابله ما يمكن توصيفه «ندالة» الإخوان، والتي كانت

تسعى من خلال جمال عبد الناصر وتوثيق علاقتها بالضباط الأحرار إلى مكاسبها الشخصية وتحقيق حلمها بحكم البلاد، وما إن كشف ناصر مخططاتهم، تحولوا إلى معاداته.

مذكرات كثير من الضباط الأحرار - ومنهم خالد محيي الدين، وزكريا محيي الدين، وعبد اللطيف البغدادي، وسامي شرف، وأنور السادات، وجمال عبد الناصر- تكشف أن العلاقة التي كانت كانت تربط الضباط الأحرار وعلى رأسهم جمال عبد الناصر بجماعة الإخوان قبل حرب 48، لم تتطور ولم تصل إلى مرحلة الانضمام الرسمي للجماعة.

فقد أكد كثير منهم أنهم تلقوا عددًا من التدريبات العسكرية وطرق صنع المفرقعات في تلك المرحلة على يد عبد الرحمن السندي، المسئول عن التنظيم الخاص للجماعة، لكنهم جميعًا أكدوا أن تعاملهم مع الجماعة كان من منطلق التقرب من فصيل سياسي يسعى إلى تحسين أوضاع البلاد، ولكن سرعان ما اكتشفوا عكس ذلك تمامًا.

خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة وأحد الضباط الأحرار كشف عن هذه التفاصيل في كتابه «الآن أتكلم»، حينما أكد أن بداية معرفته بجمال عبد الناصر كانت عن طريق الضابط الإخواني عبد المنعم عبدالرءوف، الذي كان يحاول دائمًا التأكيد أن عبد الناصر أحد ضباط الإخوان، الأمر الذي اكتشف خالد محيي الدين بعد ذلك عدم صحته، لافتًا إلى أنه اكتشف أن انضمام جمال عبد الناصر للجماعة عقب حرب 48 كان شكليًّا فقط.

المستشار الدمرداش العقالي، الذي كان أحد أبرز أعضاء الجهاز السرى في تنظيم الإخوان يقول في مذكراته أن حسن البنا كتب عند صدور قرار بحل جماعة الإخوان في 1948م، موصيا بأن يكون المسئول عن جماعة الإخوان في حالة اغتياله أو غيابه هو عبد الرحمن السندي رئيس الجهاز الخاص أو التنظيم السرى للإخوان، وإذا لم يكن السندي موجودًا يصبح جمال عبد الناصر حسين هو المرشد العام لجماعة الإخوان، وهو الأمر الذي أكده محمد المأمون الهضيبى الأسبق السابق للإخوان في 2002م، قائلا: «إن جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو حلف على المصحف والسيف لمبايعة الإخوان».

الدكتور عاصم الدسوقى أستاذ التاريخ الحديث يقول إن الرئيس الراحل محمد أنور السادات والكاتبين موسى صبرى وأنيس منصور هما أول من خان عبد الناصر، ومبادئه وأفكاره التي كانت ترفع شعار الكرامة الوطنية واستقلال مصر، بعيدا عن تأثيرات القوى الأجنبية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة والتي كانت تسعى بجميع الطرق إلى إزاحته من سدة الحكم في مصر.

ويضيف الدسوقى أن هيكل رغم أنه يعد المصدر الأقرب لتاريخ الفترة الناصرية، هاجم عبد الناصر في بداية حكم السادات، ليحجز لنفسه مكانا مع الرئيس الجديد، وكتب في نوفمبر 1970م مقالا تحت عنوان «عبد الناصر ليس أسطورة»، وما إن انقلب عليه السادات عاد ليصب جام غضبه عليه في «خريف الغضب».

أما سيد عبد الغني رئيس الحزب الناصرى، فيرى أن الشعوب العربية ما زالت وفية لفكر عبد الناصر، فثورات الربيع العربي رفعت صورة ناصر، فضلاً عن وجود صور الزعيم تزين المنازل في مصر وسوريا وليبيا وغيرها من الأقطار العربية.

عبد الغني ينفي اتهام الناصريين بالمتاجرة بعبد الناصر، مؤكدًا أن التيار الناصري مخلص لأفكار قائد ثورة يوليو، وهو تيار فعال في الشارع المصري والعربي، وله رصيد شعبي إلا أنه في نفس الوقت هناك بعض الأشخاص الذين استغلوا اسم ناصر ودعوته لتحقيق مصالحهم الشخصية.

▪▪ CIA- : 7 عقود من العمليات القذرة[1]



1918 - 1970

على مدار سبعة عقود كاملة مضت على تأسيسها في سبتمبر عام 1947م، نفذت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية **CIA** مئات العمليات القذرة **Dirty Work** في عشرات من الدول حول العالم من الأرجنتين إلى الكونغو، تضمنت عمليات اغتيال للشخصيات المؤثرة، واختطاف وتعذيب للمواطنين، لتحقيق أغراض سياسية واقتصادية.

كما دبرت الوكالة عددًا لا بأس به من الانقلابات العسكرية وحركات التمرد في دول العالم الثالث، وتورطت في التحريض على العنف والانتفاضات وتسببت في إشاعة حالة من الفوضى الاقتصادية والبؤس للشعوب من خلال تسليح التنظيمات الإرهابية والميليشيات، فضلاً عن التجسس على أقرب حلفاء أمريكا بحجة مساعدتهم.

رغم شعارات تأييد الحرية ونشر الديمقراطية فإن المصلحة الأمريكية دائمًا هي الهدف الحقيقي في العمليات، وسواء كان النفط في إيران أو الموز في جواتيمالا، فإن الولايات المتحدة لديها مصالح اقتصادية وسياسية في كل

(1) آية الجندي: مجلة روزاليوسف، تحت عنوان سري للغاية، العدد (4659)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص10-12.

بلد تدخلت في شئونه، ومن أجل تحقيق أهدافها فإن وكالة المخابرات المركزية تجند الشخصيات المؤثرة.

دور المخابرات الأمريكية في ليبيا يعززه القرار غير المعلن الذي أصدره الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما عام 2011م والذي يجيز تقديم الدعم الحكومي الأمريكي إلى قوات الليبيين الذين كانوا يسعون للإطاحة بالرئيس السابق معمر القذافي، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية قد أرسلت فريقًا سريًا في عام 2011م إلى شرق ليبيا، في الوقت الذي كان البيت الأبيض يناقش ما إذا كان سيسلح المعارضة أم لا..؟!

حيث عمل النشطاء في ليبيا على جمع المعلومات الاستخبارية للمساعدة في توجيه ضربات جوية من الناتو، وقامت العناصر الاستخباراتية الأمريكية بالمساعدة في تدريب مقاتلي ليبيا عديمي الخبرة، وانضم هذا الفريق إلى فريق من الضباط العسكريين الليبيين السابقين الذين دربوا حوالي 30 ألف شاب ليبي على أعمال القتال.

وثائق سرية يرجع تاريخها بين عامي 2002م - 2004م وجدت في مقر مكتب الاستخبارات الخارجية في طرابلس كشفت كيف أعادت **CIA** الإسلامي الليبي عبد الحكيم بلحاج إلى ليبيا في عام 2004م، وهو حاليًا رئيس قوات المتمردين في مجلس طرابلس العسكري.

في العراق كان دور وكالة الاستخبارات المركزية جليًا في تسهيل عملية الغزو الأمريكي، ففي 2 أكتوبر 2002م قبل 9 أشهر من الغزو لخصت **CIA** وثيقة سرية تفيد بامتلاك الرئيس العراقي صدام حسين لبرامج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، هذا بالرغم من أنها كانت تفتقر إلى معلومات محددة حول هذه الأسلحة، وقد استخدم التقرير الاستخباراتي - الذي كشفت الأيام كذبه- لدعم قضية إدارة بوش بأن صدام يمتلك أسلحة دمار شامل، مما يمثل تهديدًا وشيكًا وقد تكون مبررًا رئيسيًا للحرب التي قادتها الولايات المتحدة داخل العراق، ولكن كان هدفها الرئيسي هو النفط.

وفيما يتعلق بسوريا فقد قدمت الولايات المتحدة في 23 إبريل عام 2014م المزيد من الأسلحة والتدريب للجماعات المسلحة في سوريا، وذلك في إطار برنامج سري أجري في الأردن على يد **CIA**، وفي 2 أكتوبر 2015م قدمت **CIA** إلى الآلاف من

المقاتلين معدات اتصالات ودعمًا استخباراتيًا وعكسريًا بالإضافة إلى صواريخ مضادة للطائرات، وحتى اليوم لا تزال الاستخبارات الأمريكية تدعم داعش في سوريا والعراق، وذلك وفقـًا لعدد من الوثائق كانت روزاليوسف قد نشرتها في عدديها السابقين.

هذا بالرغم من إعلان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مؤخرًا عن وقف برنامج تيمبر سيكامور التابع لوكالة الاستخبارات المركزية والذي كان يدعم داعش بالمال والسلاح بقرار من الرئيس السابق باراك أوباما، وهو ما يشير إلى أن سياسات الوكالة في دعم الإرهاب ونشر الفوضى في الشرق الأوسط لا تتغير بتغيير الرؤساء الأمريكيين.

وفي الذكرى الـ (60) للانقلاب الذي وقع في إيران في عام 1953م اعترفت المخابرات الأمريكية لأول مرة بأنها كانت وراء الانقلاب ضد محمد مصدق رئيس الوزراء آنذاك، حيث نشر أرشيف الأمن القومي في جامعة جورج واشطنون سلسلة من وثائق المخابرات السرية، وقبل الانقلاب وفقـًا لوثائق المخابرات الأمريكية ساعدت **CIA** المخابرات السرية البريطانية على إثارة الحماس المعارض لـ«مصدق»، وبذل الجهود المتزايدة من خلال الصحافة والمنشورات ورجال الدين في طهران من خلال حملة تهدف إلى إضعاف حكومة «مصدق» بأي شكل من الأشكال، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الوكالة عام 1975م في وصول آية الله الخميني مؤسس الثورة الإيرانية إلى الحكم بقرار من الرئيس الأمريكي الأسبق «كارتر».

لم ينته تدخل الولايات المتحدة في إفريقيا بانتهاء الحرب الباردة، ولكن مازال مستمرًا حتى الآن ويتمثل في وجود **CIA** في عدة دول إفريقية، فمثلاً في السودان أقامت وكالة الاستخبارات المركزية علاقة مع مدير المخابرات السوداني السابق «صلاح قوش»، المتهم بارتكاب جرائم حرب في دارفور لكنه حصل على عفو رئاسي من الرئيس عمر البشير، وكجزء من تعاون «قوش» مع **CIA** تم الإفراج عن عدد من السجناء السودانيين المحتجزين في معتقل جوانتانامو مقابل حصول **CIA** على معلومات استخباراتية حول تنظيم القاعدة، كما أن الولايات المتحدة لديها مصلحة خاصة في الحفاظ على السلام بين شمال وجنوب السودان بسبب احتياطي النفط هناك.

أما في بوركينا فاسو فقد قامت وكالة الاستخبارات الأمريكية بتشغيل برنامج تجسس

ومراقبة سري **Creek Sand** وأنشأت شبكة من القواعد الجوية المستخدمة لنقل الطائرات الأمريكية إلى مالي وموريتانيا والصحراء الكبرى، وذلك للتجسس على مقاتلي تنظيم القاعدة الذين يشكلون جزءًا من جماعة المغرب الإسلامي، وهي جماعة جهادية مقرها الجزائر.

وكانت الاستخبارات الأمريكية بالتعاون مع الجيش الأمريكي قد وسعا عملياتهما الاستخباراتية في إفريقيا، ويمكن العثور على المركز الرئيسي لشبكة التجسس الأمريكية في واجادوجو عاصمة بوركينا فاسو، وهي واحدة من أكثر البلدان فقرًا في إفريقيا، وفي إطار برنامج المراقبة **Creek Sand** وصل عشرات من الأمريكيين للعاصمة البوركينية في السنوات الأخيرة لإقامة قاعدة جوية صغيرة على الجانب العسكري للمطار الدولي.

وفيما يتعلق بالكونجو، فقد تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في الكونغو، وذلك عندما أصبح «باتريس لومومبا» أول رئيس منتخب لجمهورية الكونغو عام 1960م، واستمر في منصبه لمدة امتدت لبضعة أشهر فقط ثم اغتيل في 17 يناير 1961م، وقد كانت هذه الجريمة تتويجًا لمخطط مترابط بين حكومتي الولايات المتحدة وبلجيكا اللذين استخدمتا شركاء كونغوليين وفريق تنفيذ بلجيكيًا.

الوثائق الخاصة بالمخابرات المركزية تضمنت أدلة على أن الرئيس الأمريكي «دوايت أيزنهاور» خلال اجتماعه مع مستشاري مجلس الأمن القومي في صيف عام 1960م قد أمر بشكل مباشر **CIA** بالقضاء على رئيس الوزراء الكونغولي، إلا أن الدليل على إن إيزنهاور أمر وكالة الاستخبارات المركزية بقتل أحد أكبر السياسيين الأفارقة يؤكد أن الغرب لا يمكن أن يتسامح مع دولة إفريقية يحتمل أن يقودها رجل يميل إلى السوفييت.

وفي غانا تم الإطاحة بنظام الرئيس الغاني الأول «كوامي نيكروما» على يد انقلاب عسكري في عام 1966م، بينما كان «نيكروما» خارج البلاد، وفي وقت لاحق، اشتبه أنه كان للولايات المتحدة دور في سقوط نظام «نيكروما»، وقد دعم «جون ستوكوبل» ضابط سابق في الاستخبارات المركزية هذه النظرية في كتابه «البحث عن الأعداء» أو **«In Search of Enemies»**.

وبالنظر إلى أمريكا اللاتينية فقد أطاحت الثورة الشعبية في عام 1944م بالحاكم «خورجي أوبيكو» المدعومة من قبل الولايات المتحدة في جواتيمالا، وكان «أوبيكو» بمثابة الدمية في يد شركة «يونايتد فروتس» الأمريكية، التي جردت السكان الأصليين والمزارعين المستأجرين من أراضيهم وأجبرتهم على العمل، وكانت تدفع لهم في المقابل مبالغ زهيدة بينما من كان يجرؤ على عصيان الأوامر يعاقب بوحشية من قبل قوات شرطة تعمل لصالح شركة زراعية أمريكية.

قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بعد منح الرئيس «أيزنهاور» الضوء الأخضر لعملية سرية سميت باسم بـ«الانقلاب الجواتيمالي» أو **«Operation Pbsuccess»** عام 1953م، وقد كانت الخطة عبارة عن حرب نفسية وحركة سياسية بتمويل وتدريب جماعة شبه عسكرية بقيادة كارلوس كاستلو أرماس في محاولة للإطاحة بأبينز باستخدام العنف، وقصفت الطائرات الأمريكية عاصمة البلاد مدينة جواتيمالا، وأطاحت بالرئيس «خاكوبو» ونصبت «كارلوس كاستو أرماس» خلفًا له، وأقام 3 عقود من الحكم الاستبدادي الذي أهلك سكان مايا في جواتيمالات بسبب الحرب الأهلية الدموية والشبه مستمرة، وقتل ما يقرب من 200 ألف شخص، معظمهم كانوا من المزارعين المستأجرين.

وفي هايتي عام 1959م وبعد عامين من وصول «فرانسوا دوفالييه» للسلطة بمساعدة **CIA** عزز الرئيس الموالي للولايات المتحدة من سلطته بمساعدة عصابة مكونة من 10 آلاف عضو تعرف باسم **«Tonton Macoute»**، والتي عدد أعضائها عام 1961م ضعف حجم الجيش الهاييتي، ولكن لم تتطور قوتها العسكرية الحقيقية بل كانت مجرد شرطة سرية تعمل على إرهاب المعارضة، وبعد 4 سنوات انقلبت وكالة الاستخبارات المركزية على «فراسنوا دوفالييه» وقامت بعملية سرية للإطاحة به من خلال تسليح المعارضة التي كانت تخطط لانقلاب ولكن الانقلاب فشل.

وفي أوائل الستينيات، عاشت البرازيل سنوات من التغيير الجذري حيث نفذ الرئيس البرازيلي آنذاك «جواو جولار» خطة إصلاحات كانت تهدف إلى محو أمية الكبار، والتحكم في تحويل الأرباح من قبل الشركات متعددة الجنسيات التي لها مقار رئيسية في

الخارج عن طريق إصلاح قوانين الضرائب، ومصادرة الأراضي وإعادة توزيعها على السكان، لكن لم يستمر هذا التغيير طويلاً، ففي عام 1964م حدث انقلاب عسكري أطاح بالرئيس البرازيلي.

وهنا تدخل الـ **CIA** لدعم المعارضة حتى إن «لينكولن جوردو» السفير الأمريكي لدى البرازيل كتب إشارة إستخباراتية سرية لحكومة بلاده يحثها على دعم الانقلاب الذي كان يقوده «همبرتو دي لينكار كاستيلو برانكو» الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للبرازيل.

▪▪ أبي الذي في السماء ..؟ [1]



1918 - 1970

«التقيت بالدكتورة هدى عبد الناصر ذات مساء في فندق ونتر بالاس بالأقصر في السبعينيات من القرن المنصرم.. إذ أبصرتها وهي تجلس القرفصاء في ردهة من ردهات الفندق فتوجهت إليها وقمت بتحيتها ورأيت منها أدبًا في استقبالها لي .. والحفاوة بي».

كتبت الدكتورة هدى جمال عبد الناصر تقول عن أبيها:

جمال عبد الناصر، ذلك الرجل الذي حرر مصر من الطغيان ومن الاحتلال، والذي قاد العرب وأشعل القومية العربية، وهز عروش وأنظمة حكم، والذي بهر العالم عندما أمم قناة السويس، وقاوم عدوانًا ثلاثيًا غاشمًا، من هو..؟ وما هي خلفياته الاجتماعية والثقافية..؟ وما هي مبادؤه التي ثبت عليها حتى النهاية..؟ وما هي جذور سياساته التي خاض بها المعركة تلو الأخرى..؟

ولد ناصر في 15 يناير 1918م في حي باكوس الشعبي بالإسكندرية، في عائلة فقيرة، وكان الابن الأكبر لعبد الناصر

(1) هدى جمال عبد الناصر: جريدة اليوم السابع، إصدار المؤسسة المصرية للصحافة، العدد 773، بتاريخ 3 أكتوبر 2015م، ص8، 9.

حسين، الذي ولد في عام 1888م في قرية بني مر في صعيد مصر في أسرة من الفلاحين، ولكنه حصل على قدر من التعليم سمح له بأن يلتحق بوظيفة في مصلحة البريد بالإسكندرية، وكان راتبه يكفي بصعوبة لسداد ضرورات الحياة.

وفي المرحلة الابتدائية التحق جمال عبد الناصر بروضة الأطفال بالإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالخطاطبة بالدلتا في عامي 1923م، 1924م، وفي عام 1925م دخل جمال مدرسة النحاسين الابتدائية بالجمالية بالقاهرة، وأقام عند عمه خليل حسين في هذا الحي الشعبي لمدة ثلاث سنوات.

وكان جمال يسافر لزيارة أسرته بالخطاطبة في العطلات المدرسية، وحين وصل في الإجازة الصيفية في العام التالي (1926م) علم أن والدته قد توفيت قبل ذلك بأسابيع، ولم يجد أحد الشجاعة لإبلاغه بموتها، ولكنه اكتشف ذلك بنفسه بطريقة هزت كيانه، كما ذكر لديفيد مورجان مندوب صحيفة «الصنداي تايمز» ثم أضاف: «لقد كان فقد أمي في حد ذاته أمرًا محزنـًا للغاية، أما فقدها بهذه الطريقة فقد كانت صدمة تركت في شعورًا لا يمحوه الزمن، وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجد مضضًا بالغـًا في إنزال الآلام والأحزان بالغير في مستقبل السنين».

وبعد أن أتم جمال السنة الثالثة في مدرسة النحاسين بالقاهرة، أرسله والده في صيف 1928م عند جده لوالدته فقضى السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة العطارين بالإسكندرية.

▪▪ هكذا تحدثت تحية عبد الناصر



1918 - 1970

يوم الوفاة

توقفت الحياة يوم وفاة جمال عبد الناصر، انقلب ليلها إلى نهار فلم تنطفئ الثريات الكهربائية في شتى ربوعها، أصيب الناس بصدمة هائلة فقد رحل عنهم أبوهم، وفارقهم إلى الأبد، وظلت الأنوار ساطعة طوال الليل حيث تجمع الملايين داخل بيوتهم وحولها في المدن والقرى والدساكر والنجوع.

كنت آنذاك مع والدي ومع إخوتي في قريتي منية المرشد، حيث كان فلاحوها يتجاذبون أطراف الحديث حول هذا الحدث الضخم المفاجئ في حياتهم، بعد أن علموا بوفاة جمال عبد الناصر.

وذكرني هذا بما قرأته عما كان الشأن مع مصر برمتها بعد وفاة زعيمهم سعد زغلول في 23 أغسطس 1927م.

وأمسى نهارهم ليلاً كئيبًا، اتشحت النساء بالسواد، وانهمرت الدموع من العيون، وأصبح ليلهم نهارًا على أضواء المصابيح الكهربائية، وأطفأت مواقد الكيروسين في جميع القرى والمراكز والنجوع، بعد أن عرفوا أن أمر الله قد نفذ في الوالد والأخ والابن والصديق والقائد والزعيم، ونصير الضعفاء والمعدمين والعمال والفلاحين.

واهتزت جميع أرجاء مصر، رجالها ونساؤها وأطفالها لرحيله، وتبارى الأدباء والشعراء في رثائه والإشادة بمآثره، ونذكر واحد منهم هو الشاعر نزار قباني الذي جادت قريحته بقصائد أربع رثاءً له وحزنـًا وكمدًا عليه:

يقول نزار قباني:

زمانك بستان وعصر أخضر

وذكراك عصفور من القلب ينقر

ملأنا لك الأقداح.. يا من بحبه

سكرنا كما الصوفي بالله يسكر

دخلت على تاريخنا ذات ليلة

فرائحة التاريخ مسك وعنبر

ليلة رحيل الزعيم

في أول سبتمبر سافر الرئيس إلى ليبيا لحضور احتفالات الثورة، وكان أول عيد لثورة ليبيا، وبقى هناك أيامًا قليلة، وحضرت للقاهرة والأولاد لنكون في استقباله ثم رجعنا للإسكندرية.

وفي اليوم التالي خرج الرئيس في المساء وذهب للقيادة كالعادة ورجع في ساعة متأخرة، وفي يوم الثلاثاء كان الرئيس سيغادر القاهرة في المساء بالقطار إلى الإسكندرية ويبيت فيها، ثم يذهب بالقطار أيضًا إلى مرسى مطروح في اليوم التالي، وقال إنه سيزور القوات المسلحة هناك وسيرافقه وزير الحربية وحسين الشافعي، وسيحضر الرئيس الليبي معمر القذافي في زيارة ليوم واحد، أثناء تناولنا الغذاء قال لي: هل تحضرين معي..؟ قلت: إنه يسرني أن أذهب معك لمرسى مطروح، وكنت لم أذهب إليها منذ عام 1953م، وقت أن رافقته مدة النقاهة بعد أن أجريت له عملية الزائدة.

غادرنا القاهرة ومعنا عبد الحكيم، ونحن في القطار قال الرئيس: لم أر عبد الحميد منذ حوالي شهرين، وقت الإجازة كنت في موسكو، وعندما رجعت كان عبد الحميد في

رحلة مع الكلية في البحر، وغدًا إن شاء الله سأغادر إسكندرية وضحك، وكان وزير الحربية جالسًا معنا في الصالون بعد وصولنا للمعمورة، في حوالي الساعة التاسعة مساء طلبني عبد الحميد بالتليفون وقال: لقد قالوا لي أن أخرج وأحضر للبيت، يا ماما أنا لا أريد أن أخرج بمفردي في غير وقت الخروج، إني أشعر بإحراج ولا أريد الحضور للبيت الآن، وسألني: هل طلبتم خروجي..؟ وكان متضايقًا وهو يتحدث.

ودخل الرئيس أثناء الحديث فقلت له: عبد الحميد يتحدث، فأخذ السماعة وحياه بحرارة وقال له: وحشتني جدًا يا ميدو، كما تريد، افعل ما يريحك، فقلت: فليحضر لنراه، فقال لي الرئيس: إنه جدع حساس وضحك، وقال: وزير الحربية طلب خروجه بعد الحديث في القطار ثم دخل حجرته، بعد وقت قصير وكان يتحدث في التليفون وكنت في الصالة ورأيت عبد الحميد أمامي، استقبلته بحرارة ودخله معه للرئيس في الحجرة فصافحه وقبله ثم قال له وهو يضحك: إنك تدخن، وسأله عن عدد السجائر التي يدخنها، وقال له: لا تدخن كثيرًا حتى لا تضر بك، وبعدين لما تكبر يقول لك الأطباء لا تدخن، ثم استمر في الحديث بالتليفون، وكان الذي يتحدث معه هيكل، وحكى له وهو يضحك عن عبد الحميد، وكيف أنه شم رائحة السجائر وهو يقبله، وكان الرئيس لا يدخن ولو سيجارة واحدة منذ أن كان في الاتحاد السوفيتي في شهر يوليو 1968م، وطلب منه الأطباء عدم التدخين.

جلسنا نتناول العشاء وقال عبد الحميد: لقد رفضت الخروج، وبعد شوية قال لي الضابط النوبتجي: إنك يجب أن تخرج الآن فلدينا أمر بخروجك، فسأل الرئيس ومتى سترجع الكلية..؟ قال: إنهم قالوا لي أرجع الكلية الساعة العاشرة صباح الغد، لكن يا بابا أريد أن أرجع الليلة حتى أكون مع الطلبة في الصباح، فقال له الرئيس: اذهب يا بني كما تريد، وصافحه ودخل حجرته.

وغادر عبد الحميد البيت للكلية بعد تناوله العشاء معنا، وكانت آخر مرة رأى فيها الرئيس ابنه الطالب في الكلية البحرية في السنة الثالثة، وفي اليوم التالي وكان يوم الأربعاء قبل الظهر، غادرنا الإسكندرية بالقطار لمرسى مطروح وكان وزير الحربية وحسين الشافعي في القطار معنا، قال وزير الحربية للرئيس: لقط طلبت خروج عبد الحميد من

الكلية وذهابه للبيت لتراه، وبعد وقت سألت عنه إذا كان غادر الكلية، فقالوا لي إنه رفض الخروج، فقلت: فليخرج بالأمر، وشكر وأثنى على عبد الحميد وقال: إنه طالب مثالي في تهذيبه وأخلاقه، إنه غير معقول ويمدحه المدرسون في الكلية ويحافظ على واجباته، فشكره الرئيس.

وصلنا مرسى مطروح في المساء، في اليوم التالي حضر الرئيس الليبي معمر القذافي ومعه عدد من أعضاء مجلس الثورة، ومكثوا يومًا واحدًا تناولوا فيه الغداء مع الرئيس في البيت في الدور الأول، وتناولت الغداء في الدور الثاني مع عبد الحكيم، وقبل خروج الرئيس الليبي ومرافقيه طلبني الرئيس لمصافحتهم، مكثنا ثلاثة أيام زار فيها الرئيس القوات المسلحة في مرسى مطروح، ويوم السبت غادرنا بالقطار للإسكندرية.

بقينا في الإسكندرية حتى يوم الاثنين 21 سبتمبر، لم أره يستريح، وكل وقته كان مشغولاً بمتابعة أخبار الاعتداء على الفلسطينيين في الأردن، وأمضى يومي الأحد والاثنين يمهد لمؤتمر قمة عربي، ويطلب الرؤساء والملوك العرب بالتليفون ويتحدث معهم، وقال لي: سنغادر الإسكندرية في المساء، وكان في الصباح – وهو يوم الاثنين– قد علم بوفاة زوجة خاله فقال: سأذهب لتعزية أولاد خالي ونحن في طريقنا للقاهرة؛ إذ يقيمون في الإسكندرية، مكثنا ساعة وفي الساعة السابعة مساءً غادرنا إسكندرية للقاهرة.

اليوم التالي الثلاثاء، خرج في الصباح ورجع قبل تناول الغداء، وفي المساء خرج ورجع بعد تناول العشاء مع الضيوف في قصر القبة، يوم الأربعاء خرج في الصباح وتناول الغداء مع الضيوف وظل خارج البيت، وفي المساء خرجت لزيارة إحدى قريباتي وتسكن في الدقي، دعوتها أن تحضر معي للبيت لتشاهد فيلمًا في السينما، عندما رجعت إلى البيت وجدت الرئيس في حجرته، دخلت له فوجدته يستعد للخروج، تبادلنا التحية وقلت له: لقد كنت عند قريبتي وأحضرتها معي لنشاهد فيلمًا فقال: أحسن فلتتسلي معها، ثم أضاف: سأذهب وأبقى في الهيلتون مع الضيوف حتى ينتهي المؤتمر.

اللحظات الأخيرة:

لبث الرئيس في الهيلتون، وكنت أتتبع الأخبار في الجرائد والإذاعة والتليفزيون، وفي يوم الأحد وكنت جالسة أمام التليفزيون وكانت نشرة الأخبار الساعة التاسعة مساءً

تقرأها المذيعة سميرة الكيلاني وقالت: لقد تم الوفاق واختتم المؤتمر أعماله، وغادر الضيوف من الملوك والرؤساء القاهرة.

ظل الرئيس يتحدث في التليفون حتى الساعة الثانية عشرة ثم قال: سأنام مبكرًا، وغدًا سأذهب في الصباح لتوديع الملك فيصل وأمير الكويت، وأطفأ النور ونام، في الصباح استيقظ الرئيس قبل الثامنة، وحضر الطبيب الخاص، وكنت قد قمت وخرجت من الحجرة ودخلت حجرتي، استعدادًا للدخول للرئيس في حجرته لأتناول معه الإفطار، فدخل إليَّ الحجرة لتحيتي قبل خروجه وقال: سأذهب إلى المطار، ووجدت الإفطار قد جُهز في حجرته ولم يتناول شيئًا، وعلمت أنه تناول فاكهة فقط.

رجع الرئيس في الساعة الثانية عشرة وحضر الطبيب الخاص، وكنت سأدخل للرئيس، ووجدت الدكتور يُجري له فحص رسم قلب، فرجعت ولم أدخل الحجرة، ثم بعد ذلك خرج الرئيس مرة ثانية لتوديع أمير الكويت، رجع الرئيس من المطار في الساعة الثالثة بعد الظهر، وحضر الدكتور الصاوي حبيب فقال له الرئيس: ادخل يا صاوي فدخل، وقمت كعادتي عند دخول الأطباء إلى الحجرة وخرجت إلى المكتب، فقال الدكتور: نريد عصيرًا، فذهبت وأحضرت عصير برتقال وليمون وجهزته بنفسي بسرعة وحملته ودخلت الحجرة، وقلت: هذا برتقال محفوظ وليمون طازج، فقال: آخذ برتقال، وشرب والكوب وأنا واقفة وقال لي: متشكر.

خرجت من الحجرة وجلست في حجرة المكتب، وبعد دقائق حضر طبيب اختصاصي منصور فايز فقلت له بالحرف: إنت جيت ليه يا دكتور دلوقتي..؟ أنا لما بشوفك بعرف إن الرئيس تعبان وبكون مشغولة، فرد: أنا معتاد أن أحضر كل أسبوع في يوم الاثنين، واليوم هو الاثنين، ودخل وبقيت جالسة في حجرة المكتب، وسمعت الرئيس يتحدث، وسمعت الراديو، نشرت الأخبار في إذاعة لندن، قالت لي منى ابنتي: بابا بخير والحمد لله، تعالي نخرج من هنا، وخرجت معاها وجلسنا على الترابيزة في حجرة السفرة.

وبعد دقائق جاء إليَّ الطبيب الاختصاصي وقال: الرئيس الآن تحسن وإذا أردت الدخول له فلتدخلي، وأخذ يدخن سيجارة فقلت له: لا داعي حتى لا يشعر بأني قلقة،

بعد لحظات جاء الدكتور الصاوي يجري مسرعًا قائلاً: تعالى يا دكتور، ودخل الدكتور يجري، ودخلت لحجرة المكتب ومنعتني منى من الدخول لوالدها وقالت: إن بابا بخير لا تخافي يا ماما، وأجسلتني في حجرة المكتب وجلست معي، وبعد فترة حضر دكتور آخر ثم ثالث، فدخلت عنده ووجدت الأطباء بجانبه يحاولون علاجه، وكنت أبكي وخرجت حتى لا يراني الرئيس وأنا أبكي.

ثم دخلت له مرة ثانية وازداد بكائي وخرجت وجلست في حجرة المكتب، ودخل عدد من السكرتارية، ثم حضر حسين الشافعي ومحمد حسنين هيكل، وكل واحد يدخل الحجرة ولا يخرج منها، وكنت أبكي، وأصرت منى على أن أخرج إلى الصالة فكنت أمشي وأقول: جمال جمال، ووجدت الكل يخرج وينزل السلالم فدخلت مسرعة، رأيت حسين الشافعي يخرج من الحجرة يبكي ويقول: مش معقول يا ريس، وحضر خالد وعبد الحكيم في هذه اللحظة، ولم يكونا في البيت ولا يعرفان شيئًا ودخلا مسرعين، وحضرت هدى وكانت لا تعلم بما جرى بعد ذهابها لبيتها، ودخلت للرئيس ووقفت بجواره أقبله وأبكيه، ثم خرجت من الحجرة لأستبدل ملابسي وألبس ملابس الحداد، ونزلت مسرعة إلى الدور الأول ووجدت الكل، الأطباء والسكرتارية وهيكل وحسين الشافعي وأنور السادات حضر، والكل واقف في الصالون، قلت: لقد عشت ثمانية عشر عامًا لم تهزني رئاسة الجمهورية ولا زوجة رئيس الجمهورية، وسوف لا أطل منكم أي شيء أبدًا، أريد أن يجهز لي مكان بجوار الرئيس لأكون بجانبه، وكل ما أرجوه أن أرقد بجواره.

▪▪ تحية عبد الناصر .. وأيامه الأخيرة في حياة[1]



1918 - 1970

في صيف 1970م.. نجح في الامتحان عبدالحكيم أصغر أبنائنا من السنة ثانية ثانوى إلى الثالثة، قبل الامتحان قال له الرئيس: إذا كانت النتيجة أكثر من 80٪ تطلب أى شيء تريده.

نجح عبدالحكيم بمجموع 84٪ ودخل لوالده يخبره، وكان حكيم كل يوم ينتظر فرصة ليدخل لوالده في حجرته فيصافحه ويقبله، وإذا كان الرئيس أحضر كاميرا أو راديو أو جهاز تسجيل صغيرا، يلفت نظره ويقول له: هل أعجبت..؟ وعند خروج عبد الحكيم من الحجرة يقول له: خذها معك، ثم يقول لي: إنه جدع ولطيف.

هنأ الرئيس ابنه عبد الحكيم وقبله وسأله: ماذا تطلب..؟ فرد عبد الحكيم قائلاً: يا بابا أنا لا أريد شيئًا السنة دي، أريد أن أذهب إلي لندن بالطائرة، فقال له الرئيس: إن لك أخوات في الجبهة الآن وأنت تذهب إلى لندن؟ إن شاء الله بعد ما نطلع اليهود أرسلك تسافر كما تشاء.

***

(1) تحية عبد الناصر: جريدة صوت الأمة، العدد (876)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص6.

كنت أجلس مع الرئيس في حجرته وتحدث معي عن أنـور السـادات نائـب الـرئيس وقال: إنه أطيب واحد ويحبنا، ولا ينسي أبدًا، ودائما يقول لي أنا لا أنسى فضلك، لم أكن في الثورة وأنت بعت لي وجبتني، وقال لي الرئيس: أنت عارفة أنه مكانش في الثـورة وأنـا بعت جبته..؟ فقلت: نعم أعرف ذلك، ولم يكـن أنـور السـادات في القـاهرة وقـت قيـام الثورة وارسل الرئيس في طلبه من رفح.

سافر الرئيس للاتحاد السوفيتى وذهبت إلى إسكندرية مع خالد وعبد الحكيم، وكان بعد انتهاء امتحان آخر السنة، بعد انتهاء زيارة الرئيس لموسـكو وقبـل عودتـه عمـل لـه فحص طبي، وأشار عليه الأطباء هناك أن يذهب إلى مكان قريب من موسكو.

وقالوا له: إنك لم تستكمل العلاج وقت النوبة القلبيـة وكـان يلزمـك وقـت للراحـة، وكان ضمن المرافقين هيكل ورجع بعد انتهاء الزيـارة في موسـكو، طلبنـي في التليفـون وقال لي: إن الرئيس يهديك سلامه وهو بخير، وسيبقى في الاتحـاد السـوفيتى أسـبوعين للاستجمام.

بقيت في إسكندرية حتى قبل رجوع الرئيس بيـوم، ثـم رجعـت للقـاهرة مـع الأولاد لنكون في استقباله، وكان قبل عيد ثورة 23 يوليو بأيام قليلة.

حكى لي الرئيس عن بقائه في الاتحاد السوفيتى، وأنهم قالوا له إنها الطريقة التي يمكن أن يستريح بها أن يبقى هناك، وقال: لقد قلت لهيكل أن يتصل بك عند حضوره مباشـرة حتى لا تقلقي، فقلت: نعم لقد كلمني هيكل وطمأنني.

كان يوم 23 يوليو 1970م في المساء وجلست كالعادة أمام التليفزيـون مـع أولادي نستمع لخطاب الرئيس الذي أعلن فيه الانتهاء من بناء السد العـالي وهنـأ الشـعب ببنـاء السد، وكان آخر خطاب له في عيد الثورة.

مكثنا في القاهرة بضعة أيام وقال لي الـرئيس: لا داعـي للبقـاء هنـا في الحـر، اذهبـي والأولاد لإسكندرية، وإن شاء الله سأحضر بعد أيام قليلة، أمضى الـرئيس في إسـكندرية 11 يوما قضاها في شغل كالعادة ورجع للقاهرة، ثم سافر للخرطوم لحضور مؤتمر.

في أول سبتمبر سافر الرئيس إلى ليبيا لحضور احتفالات الثورة، وكان أول عيد لثـورة ليبيا، وبقى هناك أيام قليلة، وفي يوم 12 سبتمبر رجعت للقاهرة مع خالد وعبـدالحكيم،

وكان اليوم السبت إذا أراد حكيم أن يقضي في إسكندرية يوم الجمعة، هل تـأتي معـي إلى مرسى مطروح..؟ في اليوم التالي خرج الرئيس في المساء وذهب للقيادة كالعـادة ورجـع في ساعة متأخرة.

في يوم الثلاثاء وكان الرئيس سيغادر القاهرة في المساء بالقطـار للإسـكندرية ويبيـت فيها، ثم يذهب بالقطار أيضا لمرسى مطروح في اليوم التـالي، قـال إنـه سـيزور القـوات المسلحة هناك وسيرافقه وزير الحربية وحسين الشافعي، وسيحضر الرئيس الليبي معمر القذافي في زيارة ليوم واحد، أثناء تناولنا الغداء قال لي: هل تحضرين معي..؟

قلت: إنه يسرني أن أذهب معك لمرسى مطروح، غادرنا القاهرة ومعنا عبد الحكـيم، ونحن في القطار قال الرئيس: لم أر عبد الحميد منذ حوالي شهرين، وقـت الإجـازة كنـت في موسكو، وعندما رجعت كان عبد الحميد في رحلة مع الكلية في البحر، وغدًا إن شـاء الله سأغادر إسكندرية وضحك، وكان وزير الحربية جالسا معنا.

في الصالون بعد وصولنا للمعمورة.. حوالي الساعة التاسعة مساء طلبني عبد الحميـد بالتليفون وقال: لقد قالوا لي أن أخـرج وأحضـر للبيـت، يـا مامـا أنـا لا أريـد أن أخـرج بمفـردي في غيـر وقـت الخـروج، إني أشـعر بـإحراج ولا أريـد الحضـور للبيـت الآن، وسألني: هل طلبتم خروجي..؟ وكـان متضـايقا وهـو يتحـدث، ودخـل الـرئيس أثنـاء الحديث فقلت له: عبـد الحميـد يتحـدث، فأخـذ السـماعة وحيـاه بحـرارة وقـال لـه: وحشتني جدا يا ميدو.

كما تريد افعل ما يريحك، فقلت: فليحضر لنراه، فقال لي الرئيس: إنه جـدع حسـاس وضحك وقال: إنه وزير الحربية الذي طلب خروجه بعد الحديث في القطار، ثـم دخـل حجرته، بعد وقت قصير وكان يتحدث بالتليفون وكنت في الصالة ورأيت عبـد الحميـد أمامي، استقبلته بحرارة ودخلت معه للرئيس في الحجرة فصافحه وقبله ثم قال لـه وهـو يضحك: إنك تدخن، وسأله عن عدد السجائر التي يدخنها، وقـال لـه: لا تـدخن كثيـرا حتى لا تضر بك.

بعدين جلسنا نتناول العشاء وقال عبد الحميد: لقد رفضت الخروج، وبعد شوية قال لي الضابط النوبتشي: إنك يجب أن تخرج الآن فلـدينا أمـر بخروجـك، فسـأله الـرئيس

ومتى سترجع الكلية..؟ قال: إنهم قالوا لي أرجع الكلية الساعة العاشرة صباحا غدا، لكن يا بابا أريد أرجع الليلة حتى أكون مع الطلبة في الصباح، فقال له الرئيس: اذهب يا ابني كما تريد، وصافحه ودخل حجرته.

وصلنا مرسى مطروح في المساء، وكان الاستقبال من الجماهير كالعادة حارًا، وذهبنا لنقيم في بيت المحافظ وكان خاليًا، كان الرئيس يخرج في مرسى مطروح، وفي مرة كان سيمشي على البحر فقال لي: تعالي معي، وذهبنا لبيت قريب من البيت الذي نقيم فيه وقال: إنها استراحة يقيم فيها حسين الشافعي، وكان حضر بعد أن أخذ حمامًا في البحر، مكثنا وقتا قصيرا معه ورجعنا البيت.

في اليوم التالي حضر الرئيس الليبي معمر القذافي ومعه عدد من أعضاء مجلس الثورة، ومكثوا يوما واحدا، وفي يوم السبت غادرنا بالقطار للإسكندرية، وفي الطريق أثناء سير القطار وفي المحطات كان الأهالي ومعهم أولادهم يقفون لتحية الرئيس، فنظر لي وقال: إننى اشتغل من أجل هؤلاء، فقلت: إنهم في مظهر أحسن من قبل، فرد وقال: أريد أن ينال هؤلاء الأطفال فرصة التعليم والعلاج والمظهر كخالد ابننا، لم يحن الوقت بعد.

وكان الرئيس يتأثر عند رؤيته لطفل يشتغل عند أسرة كخادم، وكان يقول لي: إنها مشكلة لا تحل إلا بالتدريج، ويستطرد: ليس في وسعي عمل شيئا إلا العمل باستمرار على رفع مستوى الفلاح في القرية والكادحين ونشر التعليم.

بقينا في إسكندرية حتى يوم الإثنين 21 سبتمبر، لم أره يستريح، وكل وقته كان مشغولا بمتابعة أخبار الاعتداء على الفلسطينيين في الأردن، وأمضى يومى الأحد والإثنين يمهد لمؤتمر قمة عربي، ويطلب الرؤساء والملوك العرب بالتليفون، ويتحدث معهم، وقال لي: سنغادر الإسكندرية، أثناء الطريق تحدث بالتليفون وهو في العربية وعلم أن الرئيس الليبي معمر القذافي يصل في نفس الليلة، فقال لي بعد وصولنا: سأخرج لأجتمع مع الرؤساء الذين وصلوا ورجعنا البيت بمنشية البكري، وكانت الساعة حوالي العاشرة مساء، إستبدل الرئيس ملابسه وخرج، ورجع في الساعة الثالثة صباحًا.

اليوم التالي الثلاثاء خرج في الصباح ورجع قبل تناول الغداء، يوم الأربعاء خرج في

الصباح وتناول الغداء مع الضيوف وظل خارج البيت، وفي المساء خرجت لزيارة إحدى قريباتي، دعوتها أن تحضر معي للبيت لتشاهد فيلما في السينما، عندما رجعت إلى البيت وجدت الرئيس في حجرته، دخلت له فوجدته يستعد للخروج.. تبادلنا التحية وقلت له: لقد كنت عند قريبتى وأحضرتها معى لنشاهد فيلمًا، فقال: أحسن فلتتسل معها، ثم أضاف: سأذهب وأبقى في الهيلتون مع الضيوف حتى ينتهى المؤتمر.

وحياني وخرج حتى المدخل بجوار السلم، وخرجت معه ووقف حوالى دقيقتين يقرأ في نوته صغيرة ثم حياني ونزل السلالم، وبقيت واقفة فنظر لي مرة ثانية وهو ينزل السلالم.

ظَل الرئيس في الهيلتون، وكنت أتتبع الأخبار في الجرائد والإذاعة والتليفزيون، وفي يوم الأحد وكنت جالسة أمام التليفزيون وكانت نشرة الأخبار الساعة التاسعة مساء تقرأها المذيعة سميرة الكيلاني وقالت: لقد تم الوفاق واختتم المؤتمر أعماله، وغادر الضيوف من الملوك والرؤساء القاهرة، وكان في توديعهم الرئيس وسيغادر الباقى غدا.. فهللت من الفرحة وصفقت بيدي، وكانت ابنتي منى حضرت في هذه اللحظة، وبعد انتهاء نشرة الأخبار قالت لي: نشاهد يا ماما فيلم في السينما..؟ ونزلنا للدور الأول.

وفي الساعة العاشرة والنصف جاء لي السفرجى يقول: لقد حضر سيادة الرئيس، فقلت لمنى: فلتكملي أنت الفيلم وسأصعد وتركتها، دخلت الحجرة وجدت الرئيس راقدا على السرير، صافحته بحرارة وقلت له: الحمد لله لقد سمعت نشرة الأخبار وفرحت جدا وهللت، فقال: الحمد لله.. وكان قد طلب العشاء وسألني: هل تناولت عشاءك..؟ فقلت: نعم، وجلست معه ولم يأكل إلا اللبن الزبادي ورجع إلى السرير.

لم تستكمل منى مشاهدة الفيلم وطلعت ودخلت حجرة والدها وصافحته وجلست معه على طرف السرير، وحضر خالد أيضا وصافحه وجلسا في الحجرة قليلا يتحدثان مع والدهما.

ظل الرئيس يتحدث في التليفون حتى الساعة الثانية عشرة ثم قال: سأنام مبكرًا، وغدا سأذهب في الصباح لتوديع الملك فيصل وأمير الكويت، وأطفأ النور ونام.

في الصباح استيقظ الرئيس قبل الثامنة، وحضر الدكتور الخاص وكنت قمت وخرجت من الحجرة ودخلت حجرتي، وكنت أستعد للدخول للرئيس في حجرته

لأتناول معه الافطار فدخل لي في الحجرة لتحيتي قبل خروجه وقال: سأذهب للمطار، ووجدت الإفطار قد جهز في حجرته ولم يتناول شيئا، وعلمت أنه تناول فاكهة فقط.

رجع الرئيس في الساعة الثانية عشرة وحضر الدكتور الخاص ودخل له، وكنت سأدخل للرئيس ووجدت الدكتور يجري له فحص رسم قلب فرجعت ولم أدخل له في الحجرة، ثم بعد ذلك خرج الرئيس مرة ثانية لتوديع أمير الكويت.

رجع الرئيس من المطار في الساعة الثالثة بعد الظهر، وعند خروجي من حجرتي وجدت ابنتي هدى تستعد لتذهب إلى بيتها بعد أن انتهت من الشغل، وكانت تجلس في مكتب والدها في الدور الثاني تعمل سكرتيرة له منذ عام، وكان الرئيس بعد مضي بضعة شهور من شغلها معه قال لي: إن هدى الآن تدربت على العمل معى وتعلمت وبتريحني، وكان سعيدا بها.

قالت لي هدى بصوت خافت.. وكنت مشيت حتى باب حجرة النوم: إن بابا تعبان وسينام، فرآني وقال: تعالي يا تحية، فدخلت الحجرة وأشار لي بيده وهو راقد على السرير أن أجلس، فجلست على طرف السرير فسألني: هل تناولت الغداء يا تحية..؟ قلت: نعم تناولته مع الأولاد، فقال لي: أنا مش هاتغدى.. وأشار لي بيده أن أبقى كما أنا جالسة، فبقيت حوالي عشر دقائق وهو راقد لم يتكلم.

وحضر الدكتور الصاوى حبيب فقال له الرئيس: ادخل يا صاوي فدخل، وقمت كعادتي عند دخول الأطباء له في الحجرة وخرجت إلى المكتب، فقال الدكتور: نريد عصير.. فذهبت وأحضرت عصير برتقال وليمون جهزته بنفسي بسرعة، وحملتهما ودخلت له في الحجرة، وقلت: هذا برتقال محفوظ وليمون طازج، فقال: آخذ برتقال، وشرب الكوب وأنا واقفة وقال لي: متشكر.

خرجت من الحجرة وجلست في حجرة المكتب، وبعد دقائق حضر دكتور اختصاصي منصور فايز، فقلت له بالحرف: إنت جيت ليه يا دكتور دلوقتي..؟ أنا لما بأشوفك بأعرف إن الرئيس تعبان وبأكون مشغولة، فرد وقال: أنا معتاد أن أحضر كل أسبوع في يوم الاثنين واليوم الاثنين، ودخل للرئيس.

بقيت جالسة في حجرة المكتب وسمعت الرئيس يتحدث، وسمعت الراديو، نشرة

الأخبار في اذاعة لندن، قالت لي منى ابنتي: بابا بخير والحمد لله، تعالي نخرج من هنا، وخرجت معها وجلسنا على الترابيزة في حجرة السفرة، وبعد دقائق جاء لي الدكتور الاختصاصي وقال: الرئيس الآن تحسن وإذا أردت الدخول له فلتدخلي، وأخذ يدخن سيجارة، فقلت له: لا داعي حتى لا يشعر إني قلقة.

بعد لحظات جاء الدكتور الصاوي يجري مسرعا وقال: تعالى يا دكتور، ودخل الدكتور يجري، ودخلت لحجرة المكتب ومنعتني منى من الدخول لوالدها وقالت: إن بابا بخير لا تخافي يا ماما، وأجلستني في حجرة المكتب وجلست معي، وبعد فترة حضر دكتور آخر ثم دكتور ثالث، فدخلت عنده ووجدت الأطباء بجانبه يحاولون علاجه، وكنت أبكي وخرجت حتى لا يراني الرئيس وأنا أبكي، ثم دخلت له مرة ثانية وازداد بكائي وخرجت وجلست في حجرة المكتب، ودخل عدد من السكرتارية، ثم حضر حسين الشافعي ومحمد حسنين هيكل.

وكل واحد يدخل الحجرة ولا يخرج منها وكنت أبكي، أصرت منى أن أخرج إلى الصالة فكنت أمشي وأقول: جمال جمال، ووجدت الكل يخرج وينزل السلالم فدخلت مسرعة، رأيت حسين الشافعي يخرج من الحجرة يبكي ويقول: مش معقول يا ريس.

وحضر خالد وعبد الحكيم في هذه اللحظة ولم يكونا في البيت ولا يدريان شيئا، ودخلا مسرعين، وحضرت هدى وكانت لا تعلم بما جرى بعد ذهابها لبيتها.

دخلت للرئيس ووقفت بجواره أقبله وأبكيه، ثم خرجت من الحجرة لأستبدل ملابسي وألبس ملابس الحداد، ونزلت مسرعة إلى الدور الأول ووجدت الكل، الأطباء والسكرتارية وهيكل وحسين الشافعي وأنور السادات حضر، والكل واقف في الصالون.

قلت لقد عشت ثمانية عشر عاما لم تهزني رئاسة الجمهورية ولا زوجة رئيس الجمهورية، وسوف لا أطلب منكم أي شيء أبدًا، أريد أن يجهز لي مكان بجوار الرئيس لأكون بجانبه، وكل ما أرجوه أن أرقد بجواره في القبر، والآن أعيش المرحلة الثالثة من حياتي حزينة أبكيه، وقد زاد حزني حسرة، وسأظل أبكيه حتى أرقد بجانبه في القبر.

◈ الأب والابن وعاشق الحسين، عبد الناصر الذي ظن أنه ملاق «حسابيه»(1):

قبل أن ينتهي الأجل بأسابيع، كان خالد على وشك التخرج من كلية الهندسة- جامعة القاهرة، فحاولت السيدة تحية أن تفاتح الزعيم في مسألة تجنيد خالد، فاقتربت منه وقلب الأم يعتصر خوفا على حياة ابنها البكري، وقالت: أنت حاتبعت خالد للجبهة الأمامية، مش كده..؟ ثم نظرت إليه وفي عينيها تمني أن يقول لا، لكنه ابتسم ووضع يده فوق كتفها، وقال: «أيوه يا تحية».

لم يدم الحوار أكثر من هذه الكلمات، أو هكذا كتبه الكاتب الكبير عبد الله السناوي في مقال له بصحيفة الشروق، لكن أهم ما حدث في هذا الحوار، نهايته التي تمت بعد سنوات، عندما قصت لابنها ما جرى، ثم أضافت «أنا عارفاه»، وتعني أنه ما كان يقبل على الإطلاق إلا أن يكون ابنه مثل بقية المجندين يدفع ضريبة الدم، لكنه قلب تحية التي أحسن اختيارها، فأحسنت صونا لجبهته الداخلية.

لم يكن الفارق كبيرا بين كونه رئيس جمهورية وقائد ثورة، وبين حياة والده في نفس الفترة من العمر، كان والد عبد الناصر يتقاضى 20 جنيها، كانت تكفيه بالكاد للإنفاق على أسرته، فكانت أسرة «مستورة»، أقرب للفقر منها للدعة والراحة، فانعكس الستر في تنشئته على تربية أولاده، حتى بعد أن أصبح رئيسا لأقوى دولة في المنطقة.

وبحسب رواية شقيقه عادل عبد الناصر، التي جاءت على لسانه في موقع «رصيف 22»، فإن والدهما عندما خرج على المعاش، لم يكن يقدر على التنقل في المواصلات، فطلب من عبد الناصر أن يخصص له سيارة من الرئاسة لتنقلاته، فحدث صراع داخل عبد الناصر، بين الرئيس الأمين على أموال الناس، وبين الابن المكلف بطاعة والده، فجمع الرجل بين الأمرين، على حساب مصاريفه الشخصية.

اشترى عبد الناصر سيارة بالتقسيط لوالده كي يرضى عنه، وكان يدفع أقساط السيارة من راتبه الخاص، لكن بعد فترة اشتكى والده من أنه لا يملك ثمن بنزين السيارة.

اقترح الأب أن يصدر الزعيم قرارا بتعيينه في أي وظيفة حكومية، يحصل منها على

---

(1) عبد الفتاح علي: جريدة صوت الأمة، العدد (876)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص7.

راتب، يدفع منه القسط والبنزين، لكن عبد الناصر اعتذر له؛ لأن الأمر مخالف للقانون، فقال له مازحا: «إنت كأنك إديتني بقرة من غير برسيم».

ومثلما فعل في المرات السابقة فعل في المرة اللاحقة، قرر عبد الناصر زيادة المخصص الشهري المستقطع من راتبه، كي يكفي بنزين السيارة إضافة لثمن الأدوية الدورية التي كانت ضرورية لعلاج والده.

لم يترك عبد الناصر مناسبة إلا وكان حريصا على شراء هدية لوالده، خاصة في عيد ميلاده، فكانت الهدية مرة رابطة عنق، ومرة قطعة من القماش، ومرة راديو، ومرة تليفزيون.

بعد توليه الرئاسة وصلته رسالة من سيدة تدعى «أم جودة»، كانت تعمل في بيت والده، ولما طعنت في السن توقفت عن الخدمة في البيوت، فلم تجد ما تقوت به يومها من أكل وشرب، فقررت أن تراسل رئيس الجمهورية، التي كانت في يوم من الأيام جزءًا من حياة أسرته، وما أن انتهى عبد الناصر من قراءة الرسالة، حتى أمر سكرتيره الخاص بأن يصرف لـ«أم جودة» معاشا استثنائيا قدره 15 جنيهًا.

ظل عبد الناصر يشتري قماش ملابسه من المحلة، مثل أغلب المصريين ثم يحمله إلى الترزي ليصنع منه القميص والبنطلون والبدلة والبيجامة.

في فترة سفره ألح نجله خالد على والدته أن تشتري له حقيبة مدرسية مرتفعة الثمن، وكانت تعلم أن والده يرفض الاستجابة لمثل هذه الطلبات، التي يراها استفزازية في ذلك الوقت، لكن تحية وافقت على شراء الحقيبة، بعد أن غلبها حنان الأم، في اليوم التالي، هم خالد بالذهاب لمدرسته حاملا الحقيبة الجديدة سعيدا ومنتشيا، وما أن فتح باب البيت حتى وجد والده قادما من السفر، فنظر عبد الناصر للحقيبة وسأله عن ثمنها، فتداركت تحية الأمر، وقالت له: «جبتها من نفسه»، فابتسم عبد الناصر، وقال له: «مبروك عليك» لكن لن تذهب بها إلى المدرسة استخدم القديمة.

في تلك اللحظة أدرك خالد أن سعادته بالحقيبة، قد تثير الغيرة والحقد في نفوس زملائه في المدرسة، وأن كونه ابن رئيس الجمهورية، عليه أن يصبح قدوة في التواضع، لا مثالا للتنافس على التباهي، أثناء مباراة لكرة القدم بملعب المدرسة، حدث احتكاك

بين خالد وأحد زملائه اللاعبين، نتج عنه ثلاث غرز لمعالجة الجـرح، وعـلى الغـداء في اليوم التالي لاحظ الزعيم الجرح، فسأل خالد عن السبب، فقال له ما حدث، عـلى الفـور طلب مـن سـكرتيره الخـاص الاتصـال بنـاظر المدرسـة، والتنبيـه عليـه باسـم رئـيس الجمهورية، عدم اتخاذ أى إجراءات ضد التلميذ، الذي اصطدم بابنه أثناء اللعب.

نفس الواقعة تكررت في نفس المدرسة، لكن هـذه المـرة مـع عبـد الحميـد الشـقي فكسرت ذراعه أثناء هزار ثقيل بين الأصدقاء، فوضع الذراع المكسورة في جبيـرة لمـدة ثلاثة أسابيع، وفي اللحظة الأولى التي شاهده فيها عبد الناصر اطمأن عليه، ثم طلب مـن سكرتيره الخاص، التنبيه على ناظر المدرسة بعدم لوم أو تأنيب الطالب الـذي تسـبب في كسر ذراع ابنه.

حكت مرة الدكتور هدى أنها وأخواتها كانوا لا يترددون بعد العودة مـن المدرسـة في سرد ما حدث مع الأصدقاء خلال اليوم الدراسي على والدهم، وكانوا إذا ما حصلوا على درجات مرتفعة، كانوا يحرصون على أن يـذهبوا بهـا إليـه ليوقعهـا أمـامهم، ويفتخـرون بنظرة الإعجاب في عينيه. أما إذا كانت الدرجات ليست عـلى مسـتوى توقعاتـه، فكـانوا يكتفون بوضع الشـهادة بجـوار سـريره، حتـى يوقعهـا في الصـباح، فيتجنبـون كلمـات التأنيب، ونظرات عينيه المعاتبة.

نظرات العينين كانت العقاب الشديد الذي ينزل بالمخطئ، فلم يعلو صوته ذات يوم في البيت، رغم كونه الزعيم الثوري، الذي كانت خطاباته تدوي في أرجاء العالم، وترعب خصومه، وتبث الأمل في قلوب المؤمنين بالعروبة.

وتقول الدكتورة هدى في مقالها «أبي جمال عبد الناصر»، الذي نشر في مجلة الهـلال، عدد يوليو 2002م، إنه كان حريصا أن يعلمنـا أن الصـداقات يجـب أن تختـار بعنايـة، ليكون أساسها الصدق وليس النفاق، خاصة أن كل أولاده كـانوا في مـدارس حكوميـة، كانت تعليماته واضحة وحاسـمة في الوقـت نفسـه لأولاده، إذا قـررتم الاحتفـال بعيـد ميلادكم مع أصدقائكم، فاحذروا أن يجلب لكـم أى صـديق أو زميـل هديـة، فالهديـة ممنوعة خارج نطاق الأسرة، وكانت التعليمـات ذاتهـا لحـرس المنـزل ممنـوع دخـول الهدايا مهما قل ثمنها.

كان الأب عبد الناصر يشعر بالسعادة وهـو يجـالس أبنـاءه، يرشـدهم، يجيـب عـن أسئلتهم، مثلما كان يشعر بالفرح وهو يعلمهم الشطرنج والدومينو وكرة الطاولة (البينج بونج)، حتى أن خالد كان أكثرهم حرصا على انتظاره مجهزا رقعة الشـطرنج، ليبـدأ مـع أبيه الدور الذي دائما ما ينتهى بتعليمه قاعدة جديدة من قواعد اللعبة.

كانت هدى ومنى ترغبان في تعلم قيادة السيارة، فانتظرتا فتـرة طويلـة كـي يجـد مـن وقته فسحة يخصصها لهما، فطال الانتظار حتى ظنتا أنه قد نسـى مـا وعـدهما بـه، لكنـه فاجأهما ذات يوم واصطحبهما بمفردهما دونا عن بقية أخواتهما ليعلمهما القيادة.

وفقًا للدكتورة هدى عبد الناصر، كان مـزاج الأب مرتبطـا بحياتـه العمليـة، يتحـول البيت إلى كتلة من القلق المتجمد المنقوش على الجـدران، خاصـة عنـدما تكـون هنـاك عملية للجيش أو للمخابرات، فإذا لم يصبهم التوفيـق يتحـول البيـت إلى مـأتم، ويسـود الحزن والكآبة، أما إذا تكللت بالنجاح، يصبح البيت مسـرحا للفـرح، مثلمـا حـدث في معركة رأس العش وإغراق المدمرة إيلات.

في مقالات عبد الله السناوي الكثير والكثير من القصص، التي ترسم ببساطة شخصية الزعيم في أبسط صورة، نقلها بحرفية شديدة من على لسان خالد عبد الناصر، الذي قـدر له أن يعيش مغتربا عن وطنه فترة طويلة من الزمن.

فحكى خالد للسناوي ذات مرة عن علاقة الزعيم بسيدنا الحسين، الذي كـان يـزوره من حين لآخر كلما سنحت الظروف، في الأغلب يصطحب معه سكرتيره الشخصـي في سيارة الرئاسة وخلفه سيارة حراسة واحدة.

كان عبد الناصر يتبرك بسيدنا الحسين، يقرأ الفاتحـة عـلى روحـه الطـاهرة، ويصـلى ركعتين لله، ويزور المقام وحجرة المخلفات، وفي بعض الأحيان تـذهب السـيدة تحيـة وحدها للحسين، وكانت تدخل من باب جانبي مخصص للسيدات.

أثناء حرب الاستنزاف كان عبد الحميد طالبًا بالكلية البحرية في الإسـكندرية، غـاب فترة طويلة دون أن تراه أمه، فطلبت مـن الـزعيم زيـارة ابنهـا بالكليـة في أوقـات زيـارة الأهالي، فاشترط عبد الناصر أن تعامل مثل كل الأمهات لكن باسـتثناء وحيـد فقـط، ألا تغادر السيارة وأن ترى ابنها فيها، حتى لا تحدث أى معاملة خاصة.

أبلغوا عبد الحميد أن والدته في انتظاره، وعليه أن يـذهب للسـيارة المنتظـرة خـارج قاعة الزيارة، فرفض في البداية خشية أن يعلم والده أنه اخترق قواعد الزيـارة في الكليـة، فما كان من قائد الكلية إلا أن أجبره على الخروج، فجلس بجوارها يأكـل السندوتشـات التي أعدتها بنفسها وأحضرتها معها من القاهرة.

في عام 1970م وقبل أشهر قليلة من وفاة الزعيم، كان عبد الحميد في الكلية البحرية، التي نقلت إلى سوسة في تونس، فطلبت السيدة تحية السـفر بالطـائرة لرؤيتـه، فقـال لهـا الزعيم: انتظري حتى نجهز طائرة خاصة تنقل كل أمهات الطلبة، فلم تستطع رؤيته؛ لأنه تعذر وقتها أن تجهز طائرة تتسع لكل الأهالي، ولم تسافر تحية لرؤية ابنها الغائب.

رغم أن الثورة الليبية، كان أهم داعم لها الرئيس عبد الناصر، فإن الملك الليبي عبـد الله السنوسي، الذي جاء إلى مصر ليعيش فيها أيامه الأخيرة، طلـب مـن عبـد الناصـر أن يجمعه بابنته المتبناة، لتعيش معه في القاهرة، وشكاه من سوء معاملة الحكومة الجديـدة في طرابلس لها، فاتصل عبد الناصر بالعقيد القذافي وقتها، وطلب منه بشـكل حاسـم أن تلتحق الابنة بأبيها على الفور.

كان في بيت الزعيم في منشية البكري مربية أطفال اسمها مبروكة، وذات يوم خطبـت مبروكة، وحتى تكتمل فرحتها، طلبت من الزعيم أن تخـرج زفتهـا مـن بيتـه (المنشـية) لبيت زوجها، فوافق الرئيس وحضر بنفسه زفافها، وأعطى مبروكة مائـة جنيـه مـن مالـه الخاص كـنقطة زواج.

في البيت الذي اختارت مبروكة أن تزف منه إلى بيت زوجها، وهو بيت رئـيس أقـوى دولة في المنطقة، هناك يوم يسمى يوم البصارة، وهو يوم الأربعاء، ففى هذا اليـوم يمنـع اللحـوم بأنواعهـا، فقـد كانـت تبـاع لثلاثـة أيـام فقـط في الأسـبوع بمحـلات الجـزارة والجمعيات الاستهلاكية بسبب ظروف الحرب.

كان الطعام المعتاد عـلى مائـدة الـرئيس، أرز وخضـار خاصـة الملوخيـة التـي كـان يعشقها، يصاحبها في بعض الأيام على المائدة لحم أو دجاج، وقد يفاجئ الزعيم الجميع بفول حراتي أخضر من حين لآخر، بينما كانت البقلاوة الحلويات المفضلة عنـده، التـي كانت تجيد صناعتها السيدة تحية، حتى منعه منها الأطباء بعد إصابته بالسكر.

كان في بيت منشية البكري مطبخان، مطبخ بالـدور الأرضـي، مصـاريفه مـن رئاسـة الجمهورية، لإعداد موائد الغـداء أو العشـاء لضـيوف الـرئيس مـن الرؤسـاء والملـوك ورؤساء الوزارات، وكبار المسئولين العرب والأجانب، ومطبخ بالـدور الثـاني لإعـداد طعام الأسرة، مصاريفه من جيب الرئيس فقط، وكان الزعيم يقول لأولاده مداعبا الدور الأول قطاع عام، والدور الثانى قطاع خاص.

الساعة الثالثة تمامًا من ظهر كل يوم، موعد الغداء في بيت الرئيس الموعـد مقـدس، والرئيس لا يتناول طعامه مع أسرته إلا على الغداء، فلهـذا كـان الغـداء بالنسـبة للسـيدة تحية شديد الأهمية؛ لذا كانت حريصة على أن تجعل منه اجتماعـا مبهجًـا، يسـتحق كـل تعب وكل جهد، ومن أجل أن ينعم أولادها بوجبات شهية قامـت ببنـاء عشـة طيـور في الحديقة الخلفية للمنزل، كأغلب البيوت المصرية، تربـي فيهـا دجـاج وأرانـب وديـك رومي، وعقب كل وجبة غداء كان الزعيم يقول لأولاده أكل أمكم مفيش زيه.

في صباح يوم 10 يونيو بعد النكسة بأيام جلس الزعيم عـلى مائـدة الإفطـار ببيجامـة كستور مقلمة، ولم تكن عادته طوال سنوات الرئاسة أن يتناول وجبة الإفطار مع أسـرته، كان الحزن يخيم أرجاء الوطن العربى كله، بعد خطاب التنحي الشهير، فما بالك ببيـت الزعيم نفسه، ظلت الجماهير التي حاصرت البيت تنادي على الرئيس، وتطالبه بالتراجع عن قرار التنحي، فذهب إليه خالد وقال له: بابا الناس عاوزاك، فنظر إليه الـزعيم وقـال بلهجة حازمة: مالكش دعوة.

كان عبد الناصر في الأربعين من عمره في نهاية عام 1958م، عندما اكتشـف الـدكتور أحمد ثروت، الطبيب المرافق للرئيس عبد الناصر إصابته بمرض السـكري، بعـد إجـراء تحليل روتيني للبول، فرشح ثروت الدكتور أنور المفتي، أستاذ الأمراض الباطنية بقصر العيني، لمتابعة وضبط نسبة السكر في دم الزعيم.

لم تنجح الأقراص المنشطة لغدة البنكرياس في ضبط نسبة السكر في الـدم، فمـا كـان من الدكتور أنور المفتي إلا أن قام باستخدام حقن الأنسولين في محاولـة للسـيطرة عـلى ارتفاع نسبة السكر.

كان الدكتور أحمد ثروت يقوم بإعطاء الرئيس عبد الناصر حقنة الأنسولين صباح كـل

يوم قبل الإفطار، ونجح الدكتور المفتي في ضبط نسبة السكر، وكان من أهم الملاحظات التي لاحظها على الزعيم أنه كان ملتزمًا بتعليمات العلاج، ولم يحتاج إلى ضبط نظامه الغذائي، أو عمل ريجيم؛ لأن الزعيم لم يكن بطبيعته نهمًا أو شرهًا للطعام.

ووفقا لشهادة الطبيب «المفتي»، كان إفطار الرئيس عبارة عن فول مدمس وخبز وجبن أبيض، والغداء مكونا من خضراوات وقطعة صغيرة من اللحم إلى جانب الخبز، والعشاء من الجبن الأبيض والفاكهة.

استمر الوضع منتظما على مدار سنتين حتى الانفصال السوري عن مصر في 28 سبتمبر عام 1961م، وترك ذلك آثارًا نفسية سيئة لدى عبد الناصر، ساعدت على تذبذب منحنى السكر، بعد 3 أشهر استدعى الدكتور أحمد ثروت الدكتور منصور فايز، أستاذ الأمراض الباطنية والسكر بقصر العيني؛ لمتابعة علاج الرئيس وحالته الصحية، والسيطرة على تذبذب مرض السكر.

كان الدكتور منصور يزور الرئيس مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، ما لم يتم استدعاؤه، وبالفعل حدث تنظيم وتطوير في متابعة المرض، وظل الدكتور أحمد ثروت مرافقًا للرئيس بصفة يومية، ويقوم بإعطائه حقنة الأنسولين قبل الإفطار اليومي، ويقوم الدكتور صلاح جبر، أخصائي التحاليل الطبية، بعمل تحليل يومى للرئيس لمتابعة تطورات المرض ومضاعفاته.

ثم اتفق الدكتور منصور مع الزعيم أن يزور الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية المعروف، الرئيس عبد الناصر مرة في الأسبوع، ليقوم بعمل تحليل شامل لوظائف أجهزة الجسم المختلفة، وبذلك تم استقرار الحالة الصحية للرئيس عبد الناصر، وأصبح المرض تحت السيطرة الطبية الكامل.

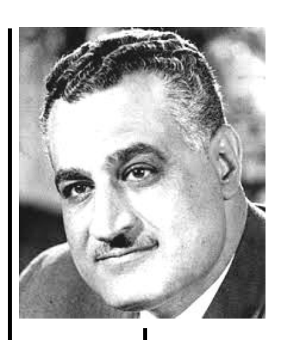
اقترب الأجل ودنت الساعة، فكانت الدقيقة الأخيرة في حياة الزعيم، كما رواها الدكتور الصاوي حبيب، طبيب الزعيم الراحل، بكل تفاصيلها الصغيرة قبل الكبيرة.

يقول حبيب: في الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم 28 سبتمبر، وصلتني رسالة تليفونية من سكرتيره الخاص المرافق له، بأن الرئيس يطلب مني التوجه إلى منزله في منشية البكري لمقابلته، وتوجهت على الفور، وكان الرئيس مستلقيا على السرير، ورأسه

مرتفع كثيرا وقال لي إنه شعر بتعب في أثناء توديعه أمير الكويت في المطار.

قمت بعمل رسم قلب، وبدأت في العلاج، وحضر دكتور منصور الفايز، والدكتور زكى الرملي، وأكدا خطورة الحالة نتيجة وجود (جلطة) انسداد جديد في الشريان التاجي، الجلطة الأولى في الشريان التاجي حدثت في يوم 11 سبتمبر 1969م، وطلبت منه ألا يتحرك وأن يستريح، فرد قائلا: «أنا استريحت يا صاوي»، وفوجئت برأسه يميل إلى الجانب الأيمن فجأة، وفي الحال تحسست النبض، وفوجئت بتوقفه.

▪▪ الأسبوع الأخير في حياة الزعيم [1]



1918 - 1970

شاءت المقادير أن يكون الأسبوع الأخير في حياة جمال عبد الناصر هو أسبوع الآلام، فقد اجتمع بالزعماء العرب في فندق هلتون القاهرة لبحث فك الاشتباك الذي دار بين الأردنيين والفلسطينيين ، مما أجهده بشكل غير مسبوق.

فقد قطع إجازته المرضية التي أجبره الأطباء عليها وعاد من مرسى مطروح إلى القاهرة، ودعا لقمة عربية طارئة لوقف مذابح أيلول الأسود.

وقائع الأسبوع الأخير من حياة جمال عبد الناصر، كانت نموذجًا لعطاء نادر من رجل لم يتأخر في تلبية نداء الواجب من أجل أمته العربية، فرغم آلام المرض وتعليمات الأطباء المشددة له بإجازة إجبارية لمدة عشرة أيام وسفره إلى مرسى مطروح، فإنه قطع الإجازة، وعاد لوقف القتال بين الجيش الأردني وقوات منظمة التحرير الفلسطينية، والمعروفة تاريخيا بـ«أيلول الأسود»، وطوال أسبوع كامل قضاه في مؤتمر القمة العربية الطارئ الذي دعا إليه، لم ينم إلا ساعات قليلة حتى توقف القتال، لكن بعده بساعات انتقل

(1) سعيد الشحات: جريدة اليوم السابع، تحت عنوان ملف خاص، العدد (2311)، بتاريخ 27 سبتمبر 2017م، ص6.

عبد الناصر إلى رحمة الله، وإلى وقائع هذا الأسبوع.

*** 21 سبتمبر:**

توافد الرؤساء والملوك العرب إلى القاهرة في المساء، استجابة لدعوات عبد الناصر لوقف نزيف الدم في القتال الدائر في شوارع الأردن، بين الجيش الأردني ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية.

وصل الرئيس الليبي معمر القذافي، ثم الرئيس السورى نور الدين الأتاسي، والباهي أدغم رئيس وزراء تونس نيابة عن الرئيس الحبيب بورقيبة، ثم الرئيس السوداني جعفر نميري، وفي اليوم التالي وصل الأمير صباح السالم الصباح أمير دولة الكويت، والرئيس اللبناني شارل حلو، ورئيس اليمن الجنوبية سالم ربيع، والقاضي الإيريانى ممثلا عن اليمن الشمالية، والعاهل السعودي الملك فيصل، وبدأ عبد الناصر مشاوراته معهم حتى الساعات الأولى من الصباح وسط توتر بالغ بسبب تلاحق الأحداث في الأردن، حسبما يؤكد محمود رياض وزير الخارجية وقتئذٍ في مذكراته.

كانت الاشتباكات تتواصل منذ 17 سبتمبر 1970م، وحسب رياض: «كان الرئيس عبد الناصر قد توجه إلى مرسى مطروح لقضاء إجازة لمدة عشرة أيام، بعد أن ألح عليه الأطباء بأن تكون الإجازة شهرًا كاملاً، نظرا لحالته الصحية، ولكن ما كاد يقضي يومه الأول حتى أدرك الأبعاد الخطيرة التي تتجه إليها الأزمة، وهكذا قطع إجازته على الفور، مطالبا بأن تبرق إليه السفارة المصرية في الأردن بتطورات الموقف أولا بأول».

تدهور الموقف بسرعة، وأرسل عبد الناصر الفريق محمد أحمد صادق رئيس أركان الجيش المصري إلى الأردن، حاملاً طلب إلى الملك حسين لوقف القتال لكن مهمته فشلت، ثم أرسل برقية إلى حسين في 19 سبتمبر، ورد عليه الملك في اليوم التالي باستجابته، لكن القتال استمر، فأرسل برقيتين جديدتين في 20 سبتمبر، لكن الملك رد بأن الفلسطينيين لا يلتزمون، فكانت الدعوة للقمة العربية الطارئة، وأسفرت مشاوراتها على إرسال وفدها للقاء حسين وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

*** 22، و23 سبتمبر:**

أجرى عبد الناصر اتصالا بحسين يوم 22 سبتمبر يبلغه فيه بقرار القمة بإرسال وفد

برئاسة النميري وعضوية الباهي أدغم، والشيخ سعد العبد الله الصباح، والفريق صادق، واجتمع الوفد مع حسين يوم 23 سبتمبر، وتعذر الاجتماع مع عرفات، لكن تم الاجتماع بعدد من قادة منظمة التحرير وهم صلاح خلف «أبو إياد»، وفاروق قدومي «أبو اللطف»، إبراهيم بكر، بهجت أبو غريبة، والعقيد سمير الخطيب، وتم إحضارهم من السجن، حيث كانوا تحت الأسر لدى الجيش الأردني.

ويؤكد أبو إياد في مذكراته «فلسطيني بلا هوية»، أنه تم دعوتهم إلى قصر الحمر، وبعد المباحثات قرر الوفد العربي أن يعود في المساء إلى القاهرة، ويؤكد أبو إياد: «وافق حسين على أن يطلق سراح صحابتي الثلاثة، ولكنه أصر على الاحتفاظ بي في عمان، حيث يمكن أن أكون وفق ما قال أكثر فائدة، إلا أنه اضطر أن يرضخ للفريق صادق، الذي كررها أمامه بحزم، بأن عبد الناصر أعطاه الأمر بألا يغادر عمان إلا برفقتي».

غادر الوفد العربي عمان ومعه أبو إياد وأصحابه، وفى القاهرة وحسب أبوإياد: «احتضنا عبد الناصر بحرارة وهو بادي السعادة لدى رؤيتنا سالمين معافين جميعا، وأخذنا في سيارته إلى قصر القبة، حيث كان رؤساء الدول مجتمعين، وقدمت لهم عرضا عن الوضع في الأردن، واصفا وحشية القوات الملكية».

وترك هذا الكلام أثره على بعض القادة العرب لدرجة أن البعض طالب بإرسال قوات مسلحة عربية من ليبيا والعراق وسوريا للدفاع عن المقاومة الفلسطينية، ويؤكد رياض: «كان يمثل هذا الاتجاه الرئيس القذافي، واعترض عبد الناصر قائلا: إن مهمتنا هي وقف القتال وليس توسيعه، وواجب الدول العربية في هذه اللحظة هو إنقاذ المقاومة الفلسطينية، وتحدث الملك فيصل مؤيدًا هذا الرأي».

يواصل أبو إياد: «أوصلنا عبد الناصر- القدومي وأنا- بسيارته إلى فندق هيلتون بالقاهرة، حيث كان يقيم طيلة اجتماع القمة، وفي الجناح الرئاسي طرح علينا سؤالا: ماذا تريدون أن أفعل لمساعدتكم..؟ يؤكد أبو إياد أنه رد بأن حسين لن يوقف المعركة، مادام قد بقى ياسر عرفات في عمان، واقترح عودة النميري لتخليصه، ويقول: المحادثات مع عبد الناصر استمرت طوال الليل، وانتهت بموافقة عبد الناصر على مشروعي».

يؤكد رياض: «أقنع عبد الناصر المجتمعين بضرورة استمرار الحوار مع الملك وليس مقاطعته، ومن هنا وافق المجتمعون على إرسال وفد باسمهم مرة أخرى»، ويكشف أبوإياد: «رفض النميري وقال إنه لا يريد أن يضع قدميه في عمان، لكنه رضخ بناء لإلحاح عبد الناصر الذي كان يجله كثيرا»، يتذكر صادق في مذكراته: «موقع البديل الإلكتروني- 28 مارس 2015م» أنه بعد هذا القرار من القمة اتجهت للقاء منفرد مع الرئيس عبد الناصر الذي بادرني قائلا: «أهم شيء عندى الآن هو أن تحضر لي ياسر عرفات حيا إلى القاهرة، فعرفات يمثل الرمز الفلسطيني، ولا بد من إنقاذ هذا الرمز، عليك أن تتصرف بسرية كاملة، ولك كل الصلاحيات، بقية المهام يقوم بها وفد القمة مجتمعا، وضع خططك ونفذ التعليمات فنحن في سباق مع الزمن».

*** 24 سبتمبر:**

يقول صادق إن النميري وجه في الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق مساء 24 سبتمبر نداء بصوته: «الأخ المناضل ياسر عرفات، باسمي شخصيا ونيابة عن الوفد الذي وصل إلى عمان هذه الليلة، نرجو منكم أن تقترحوا علينا كيف يمكن الاتصال بكم، ومكان وموعد الاجتماع وبأي وسيلة متاحة»، وبعد أكثر من ساعة على نداء نميري، وفى الساعة الثانية عشرة و 45 دقيقة، رد عرفات ببيان أذيع من راديو اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية في دمشق، موجها إلى النميري قائلا: «نقترح أن تصلوا عبر الطريق الموصل من فندق الكرمان إلى مدرسة عالية إلى مقر سفارة الجمهورية العربية المتحدة «مصر» في جبل اللويبدة، ويصلكم مندوب من طرفنا ليرافقكم إلى مقر الاجتماع».

التقى الوفد بعرفات، وفيما كان النقاش يدور حول وقف إطلاق النار، كان صادق يخطط وينفذ في سرية تامة عملية نقل عرفات إلى القاهرة، كانت هذه المهمة معقدة؛ لأنها ستتم من وراء ظهر المسئولين الأردنيين، وحسب الراوية الفلسطينية ويذكرها اللواء محمود الناطور «أبو الطيب» في مجلده الأول: «حركة فتح بين المقاومة والاغتيالات -1965 -1982»: خلال وجود الفريق صادق في مقر الاستخبارات العسكرية بجبل اللويبدة، حيث لم يجد عرفات هناك.

جاءت برقية أخرى مستعجلة إليه من الرئيس عبد الناصر بالتأكيد على ضرورة

إحضار أبوعمار للقاهرة، فسلم صادق البرقية إلى اللواء إبراهيم الدخاخني؛ لأنه كان يعلم اتصاله الدائم مع خليل الوزير «أبو جهاد» بواسطة جهاز اللاسلكي، وكان اسم الدخاخني الحركي هو «أبو اليسر»، وقام الدخاخني بالتنسيق مع أبو جهاد بترتيب الأمور لانتقال أبو عمار إلى السفارة المصرية، حيث يوجد الوفد العربي.

يضيف الناطور: «طلب أبوعمار من قائد حرسه أبو حسن سلامة دراسة خطة الوصول للسفارة المصرية، ونجحت الخطة، ومن السفارة تم تنفيذ الجزء الباقي منها، وهو خروج عرفات إلى المطار ثم إلى القاهرة، وذلك بارتداء عرفات لدشداشة وحطة وعقال كويتيين يرتديهم الشيخ سعد الصباح، وتم التغلب على مشكلة أن الشيخ سعد طويل القامة وجسده ضخم، بينما عرفات رفيع متوسط القامة، وذلك بضبط الدشداشة بحيث تبدو مناسبة.

وارتدى عرفات الزي الكويتي، ويؤكد الفريق صادق ووفقا لما نشره الكاتب الصحفي محمد أمين بعنوان «حلقات من سيرة الفريق محمد أحمد صادق» مجلة أكتوبر- القاهرة- 6 نوفمبر 2011م، خرج عرفات من السفارة المصرية إلى المطار، وكان معه سيدة مصرية عائدة إلى القاهرة وابنتها، وذلك دون أن يشعر أحد من المخابرات الأردنية.

وحسب صادق: «ولما وصلنا إلى مطار عمان طلبت من سائق سيارة عرفات أن يتجه مباشرة إلى الطائرة، ونزل عرفات ومعه السيدة المصرية التي لم تكن تعرفه وصعد إلى الطائرة، وجلس في مقعده دون أن يحس به أحد، بينما كنت أنا منهمكا في حديث ضاحك مع أحد ضباط الجيش الأردنى الكبار، كما صافحت حرس الطائرة لأشغلهم عن متابعة الصعود إلى داخلها، وانطلقت الطائرة، ويؤكد أنه طلب من عرفات حلاقة ذقنه، لكنه عارض بشدة ثم وافق، كما طالبه بتسجيل بيان بصوته يهاجم فيه الأردن، ويعلن استمرار القتال كنوع من التمويه لاستكمال مخطط خروجه، وأقلعت الطائرة».

✱ 25 سبتمبر:

يؤكد صادق أنه في يوم 25 سبتمبر اتصل بالرئيس عبد الناصر الذي بادره بالسؤال: ماذا فعلت..؟ أجاب صادق: أبو عمار معي في المكتب، فرد عبد الناصر مندهشا: معك

في القاهرة، أجاب صادق: نعم يا فندم هو بجواري الآن يرتدي بدلة الياور المرافق لي، فقال عبد الناصر: حالا تكون عندي فورًا، يؤكد صادق: بعد دقائق كنا في منزل الرئيس عبد الناصر، وكان اللقاء مؤثرا وتعانق مع عرفات مرددا عدة مرات: الحمد لله، وأعلنت الإذاعة المصرية عن خبر وصول عرفات، ومشاركته في القمة العربية.

*** 26 سبتمبر:**

قدم نميري تقريرا إلى القمة يوم 26 سبتمبر، مؤكدا أن السلطات الأردنية لم تلتزم بوقف إطلاق النار، وأن الوفد رأى وسمع ذلك بنفسه، فارتفعت حرارة المناقشات، وبعث عبد الناصر إلى حسين رسالة شديدة اللهجة، قال فيها: «هناك مخطط لتصفية المقاومة الفلسطينية برغم كل ادعاء بغير ذلك، وإزاء ذلك كله سيعقد الرئيس نميري مؤتمرا صحفيا يذيع فيه باسمه وباسم كامل أعضاء اللجنة التي شاركته في مهمته تفاصيل تقريره إلينا، وإننا نشعر بحزن شديد لأن تصل الأمور بيننا إلى هذا الحد، ولكن ما يجري الآن لا يترك لنا مجالا لغيره، فالحق أحق أن يقال، ستبقى أمتنا دائما أكبر من كل شر وأقوى من كل تدبير».

رد حسين مبديا استعداده للحضور إلى القاهرة، حسب تأكيد رياض، نقل عبد الناصر هذه الرغبة إلى القمة، وكان هناك تيار يرفضها، واستمرت المناقشات أربع ساعات تبنى فيها عبد الناصر حضور حسين، وأثناء المناقشات أشار إلى ساعته قائلا: «يجب أن نتذكر أنه في كل دقيقة تمر هناك عشرات من الفلسطينيين يسقطون قتلى، وهدفنا الآن قبل أي شيء آخر هو إيقاف تلك المذبحة»، وبعد منتصف الليل أقنع عبد الناصر المجتمعين ووجه الدعوة إلى حسين.

*** 27 سبتمبر:**

وصل حسين في الساعة الحادية عشر من صباح يوم 27 سبتمبر، وحسب سامي شرف، مدير مكتب عبد الناصر في مذكراته «سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر»، فإن مناقشات القمة توصلت إلى اتفاق من 14 بندًا أهمها وقف إطلاق النار في جميع الساحات، ودعم الثورة الفلسطينية حتى تتحقق أهدافها في التحرير الكامل ودحر العدو الإسرائيلي الغاصب.

كان الحديث بين عبد الناصر وعرفات، هو أكثر ما يلفت النظر في المناقشات الأخيرة، وحسب سامي شرف فإنها بدأت بقول عرفات: «سيادة الرئيس، كيف نستطيع أن نأتمن هؤلاء الناس، وهم هناك مصرون على التصفية، بينما نحن هنا نتباحث، لا فائدة، وليس أمامنا إلا أن نهد الدنيا على رؤوسهم ورؤوسنا، ولتكن النتيجة ما تكون».

فرد عبد الناصر على ذلك ردا متتابعا: «ياسر، لا يجب لأي شيء الآن أن يفقدنا أعصابنا، لا بد أن نسأل أنفسنا طول الوقت: ما هو الهدف..؟ الهدف كما اتفقنا هو وقف إطلاق النار بأسرع ما يمكن، إنني تحركت من أجل هذا الهدف، بناء على تقديري للظروف، وبناء على طلبك أنت لى من أول لحظة، موقفكم في عمان مرهق، ورجالكم في «أربد» عرضة للحصار، وقلت لك من أول دقيقة: إننا لا نستطيع مساعدتكم بتدخل عسكري مباشر من جانبنا؛ لأن ذلك خطأ؛ لأن معناه أنني سأترك إسرائيل لأحارب في الأردن.

كما أن ذلك إذا حدث سوف يفتح الباب لتدخلات أجنبية تنتظر هذه اللحظة، إنني خلال الأيام الأخيرة فتحت لكم أبواب كل ما أردتموه من سلاح وذخيرة، كما أنني أرسلت لكم بالطائرات رجال الكتائب الفلسطينية الثلاث من جيش التحرير التي كانت موجودة على الجبهة المصرية لكي تعزز موقفكم، وأنت تعرف أنني بعثت إلى بريجنيف «سكرتير الحزب الشيوعى السوفيتى» لكى يضغط الاتحاد السوفييتي بكل قوته على أمريكا حتى لا تتدخل، وبعثت أنت تطلب منى أن أفعل ذلك وقد فعلته، كل ذلك في سبيل أن نكسب وقتا نحول فيه دون ضربة قاسمة توجه للمقاومة، وتعوق كذلك وحدة قوى النضال العربى.

إنني حرقت دمي خلال الأيام الأخيرة لكى أحافظ عليكم، وكان أسهل الأشياء بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا قويا أعلن فيه تأييدي لكم، ثم أعطيكم محطة إذاعة تقولون منها ما تشاءون ضد الملك، ثم أريح نفسي، لكن بضميري وبالمسئولية لم أقبل ذلك، إننى أستطيع أن أنهي المؤتمر هذه اللحظة، وهو من وجهة النظر السياسية حقق كثيرًا».

أضاف عبد الناصر: «ذهب الأخ نميري وعاد بأربعة من زعماء المقاومة استخلصهم

بالضغط من السجن، ثم صدر عنا تقرير نميري والبعثة التي رافقته، تقرير أوضح الحقيقة كلها وشكل قوة ضدها سياسية هائلة، أستطيع أن أترك الأمور على هذا الحد وأستريح، ولكني أسأل نفسي وأسألك: ما هو الهدف..؟ هذا هو السؤال الذي يجب ألا ننساه، هدفنا مازال هو وقف إطلاق النار لإعطائكم الفرصة لإعادة تقدير موقفكم، وإعادة تجميع قواكم، ونحن الآن أمام فرصة للاتفاق، لك القرار، لأن موقفى من اللحظة الأولى كان من أجلكم، من أجل حمايتكم وحماية الناس الذين لا ذنب لهم، والذين هم الآن قتلى لا يجدون من يدفنهم، وجرحى لا يجدون من يعالجهم، وشاردون بين الأنقاض أطفالا ونساء يبحثون في يأس عن أبسط حقوق للإنسان، وهو حق الأمن العام على حياته».

رد عرفات: «سيادة الرئيس لك الله.. كتب عليك أن تحمل هموم العرب كلهم وخطاياهم أيضًا».

*** 28 سبتمبر:**

انتهى المؤتمر وقام الرئيس بتوديع القادة والملوك، وفي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وبعد توديعه أمير الكويت الشيخ سالم الصباح تلقى الدكتور الصاوي حبيب طبيبه الخاص اتصالا عاجلا: «توجه إلى منزل الرئيس في منشية البكري»، يتذكر حبيب في مذكراته الخاصة أنه توجه إلى منزل الرئيس من وسط القاهرة في نحو ثلث ساعة، ودخل إلى حجرة نومه، فوجده مستلقيا على السرير مرتديا بيجامته ورأسه مرتفع قليلا، وقال الرئيس له: إنه شعر بتعب أثناء توديعه أمير الكويت وأحس أن قدميه تكاد ألا تقويان على حمله.

فحصه وحسب قوله: «لاحظت وجود عرق بارد على جبهته، كما كان وجهه شاحبًا بعض الشيء، والنبض سريعا خيطيا يكاد ألا يكون محسوسا، وضغط الدم بالغ الانخفاض، وكانت أطرافه باردة، وأحسست في الحال بخطورة الموقف، وتوجهت إلى حجرة مكتبه الملحقة بغرفة النوم أطلب من السكرتارية استدعاء الدكتور منصور فايز، والدكتور زكى الرملي فورا».

ويؤكد الصاوي: «شعرت بشيء من الخوف الغامض، ووجدت نفسي أدعو له

بالشفاء، وقمت بعمل رسم القلب، وبدأت العلاج وحضر الطبيبان منصور فايز، وزكـى الرملي بعد نصف الساعة، واستمر العلاج لفترة دون تغيير في رسم القلـب، إلا أن بعـض التحسن ظهر في الكشف الإكلينيكي».

اعتدل الرئيس قليلا ليفتح الراديو الموجود على الكومودينو بجوار السرير، وحسب الصاوي حبيب: «قال إنه يرغب في سماع خبر في نشرة أخبار الخامسة التـي بـدأت منـذ قليل، ولم يذكر هذا الخبر، وظل يصغي إلى نشرة الأخبار حتـى انتهـت، وأغلـق الراديـو قائلا: «أنا استريحت يا صاوي»، وفوجئت برأسه يميـل إلى الجانـب فجـأة، وفي الحـال تحسست النبض فوجدته قد توقف».

يعلق حبيب: «استراح جمال عبد الناصر، كما جاء في آخر عبارة قالهـا، اسـتراح كمـا جاء في دعاء «اللهم اجعل الموت راحة لنا من كل أمر»، ومضيت إلى آخر الحجـرة، وفي داخلي شعور بالحزن والمرارة، وعـلى السـلم الـداخلي في المنـزل وجـدتني أقـول لمـن وجدته في الخارج من أهل المنزل: «خلاص مفيش فايدة».

يذكر الصاوي حبيب نمط الحياة التي عاشها عبد الناصر في عامه الأخير وحتى وفاته وعمره 52 عاما: «بانتهاء مؤتمر القمة كان قد مر عام على الأزمة القلبية الأولى التي كـان يتعين عليه أن يغير نمط حياته بعدها، ولكنه بذل في هذا العام مجهودا فوق الطاقة، كـان يعمل أكثر من 18 ساعة يوميا، وسافر بعد ثلاثة أشـهر مـن الأزمـة إلى المغـرب وليبيـا، وسافر إلى موسكو مرتين والسودان وليبيا مرتين، وتنقل في الداخل من القاهرة إلى أسوان إلى الإسكندرية ومرسى مطروح، ورأس كثيـرا مـن المـؤتمرات في الـداخل والخـارج، وألقى كثيرا من الأحاديث والخطب، وقابل كثيرا من المسؤولين العرب والأجانب.

وقاد حرب الاستنزاف وزار الجنود في الجبهة، وواجه غـارات العمـق ونقـل حـائط الصواريخ، وقبل مبادرة روجرز، وأخيرا ها هو يبذل جهـدا خارقـا ليوقـف القتـال بـين الفرقاء العرب في الأردن وفلسطين، وفى المقابـل وفى العـام نفسـه زاد انسـداد الشـريان التاجي، فأدى ظهور بوادر ضعف في عضلة القلب، كما زادت نسبة الكولسترول وارتفع ضغط الدم أحيانا، ومع زيادة الوزن وقلة المشـي تعتبـر هـذه علامـات منـذرة بـالخطر أضعاف مضاعفة في مريض السكر عن غيره من المرضى».

▪▪ الأربع وعشرون ساعة الأخيرة في حياة جمال عبد الناصر (1)



1918 - 1970

كان البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ- يستعد يومها لحدث كبير كبير، كان مأساة عنيفة - مما روى تاريخ الإغريق- كانت تحوم حول آفاقه، وتوشك أن تنزل على شواطئه كالزلزال، ترجه رجا من الأعماق السحيقة، إلى قمم الموج العالية.

في شرق البحر الأبيض في عمان، كان القتال مازال محتدما بشدة وقسوة، وكانت دبابات الجيش الأردني من طراز باتون، تركز هجماتها على منطقة الأشرفية، تريد أن تخلع منها بقايا جيوب المقاومة الفلسطينية في عمان، وكان مستشفى الأشرفية بالذات، هدف تركيز شديد، فقد كان معروفا أن قيادة المقاومة اتخذت منه - في وقت من أوقات الصراع- مقرا لها، توجه منه عملياتها.

وكان الدمار في أبشع صوره قد حل بكل شوارع العاصمة الأردنية القائمة على سبعة تلال، وكان القتلى تحت الأنقاض بالمئات، وكان الجرحى بالآلاف، تتعالى أناتهم وصرخاتهم تطلب النجدة أو تطلب الرحمة، وكان الجوع والعطش

(1) محمد حسنين هيكل: جريدة الأهرام، تحت عنوان في الموضوع، العدد (47779)، بتاريخ 29 سبتمبر 2017م، ص3.

يمسكان المدينة بقبضة عذاب أليم، لا عاصم منه ولا مغيث، الأخ يسفك دم أخيه، ورفاق السلاح لا يقاتلون عدوهم ولكن يقتتلون فيما بينهم..!

في شرق البحر الأبيض أيضًا في القدس المحتلة، كان التدبير الأمريكي الإسرائيلي قد أعد مخططاته كاملة للتدخل في أزمة الأردن، ولم يكن باقيا إلا صدور الأمر في اللحظة التي تقتضي التدخل، من وجهة نظر المديرين المتواطئين.

كانت خطة التدخل كما يقول «بنجامين ويلز»، الصحفي العليم بدخائل الأمور في واشنطن، قد تم وضعها يوم 21 سبتمبر، بعد مشاورات متصلة بين واشنطن وتل أبيب، وهي مشاورات جرت في البيت الأبيض نفسه.

وقد اشترك في هذه المشاورات مع الرئيس ريتشارد نيكسون كل من: «ويليام روجرز» وزير الخارجية، و«جوزيف يسكو» مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، و«هنرى كيسنجر» مستشار نيكسون لشئون الأمن القومي، و«ريتشارد هيلز» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، و«الأدميرال توماس مور»، رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية، و«الجنرال إيزاك رابين» سفير إسرائيل في واشنطن ورئيس هيئة أركان حربها السابق، ومساعده السياسى في السفارة الإسرائيلية «شلومو أرجوف».

كانت اجتماعاتهم تعقد في غرفة العمليات في البيت الأبيض وكانت خرائط المنطقة من حولهم، وكانت المعلومات التفصيلية تتدفق على غرفة العمليات من مصدرين يحددهما بنجامين ويلز بأنهما: المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية.

وتقرر بينهم أن تكون ساعة الصفر في التدخل، هي اللحظة التي يزيد فيها عدد الدبابات السورية التي تدخل الأردن - كما يقولون- على مجموعة اللواءين التي قالوا إنها دخلت وحين دخلت، كان أول ما قيل لي: «إن الرئيس اتصل بنفسه وسأل عنك، ولما عرف أنك لم تحضر بعد، قال إنه لا داعي لأن تطلبه؛ لأنه خارج إلى المطار الآن، وسوف يتصل بك هو عند الظهر».

ولم أذهب إلى وزارة الإرشاد، كما عادة في الحادية عشرة صباحا، وإنما بقيت في الأهرام قريبا من التليفون الذي يطلبنى عليه عادة، كان تليفونه قبل الثامنة والنصف أول

اتصال اجراه ذلك اليوم.

ثم قام - كما علمت فيما بعد- إلى حمام الصباح، ثم جلس إلى إفطاره وأكل تفاحة واحدة من صندوق تفاح جاءه به الوفد اللبناني إلى مؤتمر القاهرة ثم فنجان قهوة مع السيدة الجليلة قرينته، وقالت له هي قبل أن ينزل إلى أول وداع رسمى ذلك اليوم في مطار القاهرة:

«إن الأولاد سيكونون جميعا على الغداء اليوم، وسألها عن أحفاده قائلا: وهالة وجمال، وقالت هي: أن جمال هنا منذ الصباح الباكر، جاءت به منى، وهي في طريقها إلى عملها، وتركته في البيت لكي يراه جده في الصباح كما طلب قبل أن ينام، وأما هالة فهى في الطريق الآن، وقال لها: إنه سوف يراهم جميعا على الغداء، وخرج من البيت قبل الساعة التاسعة بدقيقتين.

وفي الساعة الواحدة دق جرس التليفون في مكتبي، وجاءني صوته وأحسست به متعبًا، متعبا إلى أقصى حد، وأعدت عليه حديث الإجازة، وقال إنه سوف يستريح بعد وداع أمير الكويت.

وسألته عما يشعر به، وقال: «أجد نفسي غير قادر على الوقوف»، وسألته: هل رأيت الطبيب..؟ وقال: كان عندي الدكتور الصاوي، وأجرى رسما جديدا للقلب، وقال لي إن كل شيء كما هو.

وقلت: وآلام الساق، أما من دواء لها..؟ وقال: سوف أضع قدمي في ماء دافيء به ملح، وأظن أن الألم سوف يتحسن، هو طول الوقوف فيما أعتقد..! وعدت ألح في حديث الإجازة، وأقترح أن يذهب إلى الإسكندرية وقال: لا أستطيع الذهاب متعبًا بهذا الشكل وسوف أنام هنا يوما كاملاً وبعدها أفكر في الذهاب إلى الإسكندرية.

ثم تطرق الحديث إلى السياسة كالعادة، وسألني عن رد الفعل في إسرائيل لاتفاق حكومة الأردن مع المقاومة، وأجبته بملخص البرقيات التي وردت ذلك الصباح، ثم قال: هل تعرف أن بيرجيس - يقصد دونالد برجيس- القائم على شئون الرعايا الأمريكيين في القاهرة سوف يسافر إلى إيطاليا، وهناك سوف يجتمع بنيكسون.

أنه اتصل بالخارجية أمس، وسأل إذا كان هناك ما يستطيع أن ينقله إلى نيكسون، أريدك أن تطلبه الآن، وأن تبلغه رسالة مني إلى نيكسون، أطلب منه أن ينقل له أننى مازلت أسعى إلى حل على أساس قرار مجلس الأمن، وإن موقفي لم يتغير.

إن الضجة التي يثيرونها عن الصواريخ زادت عن حدودها، وهي بلا منطق، إذا كانت إسرائيل تنوي الانسحاب من كل الأراضي المحتلة، فما هو خوفها من الصواريخ، على فرض أننا قمنا بتركيبها..؟

وإذا كانت إسرائيل لا تنوي الانسحاب، إذن فإن الواجب يقتضينا إذا لم نكن قد ركبنا الصواريخ أن نبادر فعلا إلى تركيبها..؟

قلت له: إننى سأطلب بيرجيس، قال: أطلبه الآن، ورفعت سماعة التليفون الآخر وطلبت إلى مكتبي إيصالي بدونالد بيرجيس، وقلت له: إن لدي رسالة كلفت بإبلاغها إليك لكي تنقلها إلى نيكسون، وقال بيرجيس: متى تريدني أن أجيء..؟ قلت له: الساعة السابعة مساء، وأقفلت التليفون معه، والرئيس على الخط الآخر يواصل الحديث، ولا يخطر ببالى أنني سأؤجل موعدي مع بيرجيس؛ لأن عبد الناصر سوف يكون قد رحل قبل الموعد المحدد.

ثم تشاء المقادير أن أسلم الرسالة إلى ريتشارد سون الذي رأس وفد العزاء في عبد الناصر، وكان قد جاء ليتحدث معي، وقلت له: ليس لدي ما أقوله لك غير رسالة كلفني هو بإبلاغها إلى بيرجيس لنقلها لنيكسون، وهذه الرسالة الآن لك..!

واستطرد الرئيس يقول: لا أظنهم سوف يفهمون شيئا، ومع ذلك فلابد أن يكون موقفنا واضحًا، ولو أمام أنفسنا، وليتصرفوا هم كما يشاءون، ثم مضى الرئيس يقول: قد لا أتصل بك في المساء لأنني سوف أنام.

ووجدتنى أقول له بطريقة تلقائية: تصبح على خير، وقال ضاحكًا: «ليس بعد.. نحن مازلنا الآن في عز النهار»، وكانت تلك آخر مرة أسمع فيها صوته.

واستراح قليلا في غرفته، ثم قام يرتدي ملابسه، مستعدا للتوجه إلى المطار لمراسم الوداع الأخير مع أمير الكويت، واتصال بالسيد سامي شرف يسأله عما إذا كان هناك جديد..؟ وقال له سامي شرف: إنه ليس هناك جديد، ولكنه يلح على الرئيس في ضرورة

أن يريح نفسه؛ لأن الجهد الذي يبذله عنيف.

وقال الرئيس: «سوف أنام بعد أن أعود.. سوف أنام نومًا طـويلاً»، ثـم اسـتطرد: وفي الغد نتكلم عن الإجازة، وخرج من غرفته متوجهًا إلى السلم، وتردد لحظة أمام المصعد، ثم ضغط على الزر يطلبه، وكانت أول مرة منـذ تركيـب المصـعد في بيتـه يسـتعمله فيهـا للنزول، كان دائمًا يستعمله في الصعود، وعند النزول كان يفضل السلم.

وفي وداع أمير الكويت، أحس في الدقائق الأخيرة، أنه متعب بأكثر مما يحتمل، لكنـه تماسك بجهد لا يصدق، وقبل أمير الكويت وهو يتصبب عرقا، والدوار يعتريه، وصـعد أمير الكويت إلى طائرته، والتفت الرئيس يطلب سيارته، وكان ذلك على غير المعتاد، فقد كانت العادة أن يذهب هو ماشيًا إلى حيث تقف سيارته وأن يحيي جماهير المودعين.

وجاءت السيارة ودخل إليها وهو يقول للسيد محمد أحمد: «أطلب الدكتور الصاوي يقابلنى الآن في البيت، واستقل المصعد من الدور الأول في بيته إلى الدور الثاني، وكانـت الأسرة كلها في انتظاره، وأحسوا جميعا أنه متعب، ولكنه وقـف وسـطهم دقيقـة يتحـدث فيها مع حفيديه هالة وجمال، ثم يتوجه بعد ذلك إلى غرفة نومه، وتلحق به السيدة الجليلة قرينته، تسأله متى يريد الغداء، ويقول لها وهو يخلع ملابسه: «لا أستطيع أن أضـع شـيئا في فمي».

ويرتدي بيجامة بيضاء مخططة بخطوط زرقاء ويـدخل إلى سـريره ويجـيء الـدكتور الصاوي، وتستأذن السيدة الجليلة قرينته في الخروج؛ لأنها - كما عودها دائما- لا تقف في الحجرة وهناك فيها غيره، حتى ولو كان الطبيب، لكن قلبها لا يطاوعها على الخـروج بغير سؤال لمحه الرئيس في عينيها قبل أن تنطق به.

وقال لها مطمئنـًا: لا تخـافي، أظنـه نقصـا في السـكر، وقالـت بسـرعة: هـل أجيئـك بشيء..؟ وقال الدكتور الصاوي: أى عصير، وذهبت هي تعصـر كـوب ليمـون وكـوب برتقال، بينما الدكتور الصاوي يشعر من أول لحظة أن هناك طارئا خطيرًا، ويخـرج مـن الغرفة ليتصل بالسيد محمد أحمد على التليفون، ويطلب منـه اسـتدعاء الـدكتور منصـور فايز، والدكتور زكي الرملي.

ويعود إلى الغرفة والسيدة الجليلة قرينـة الـرئيس تـدخل إليهـا حاملـة كـوب عصـير

برتقال وكوب عصير ليمون، ويختار الرئيس كوب البرتقال ويشربه، وتخرج هي من الغرفة، ويبدأ الدكتور الصاوي محاولاته لوقف الطاريء الخطر، كان تشخيصه على الفور أن هناك جلطة في الشريان الأمامي للقلب، ولما كانت الجلطة السابقة في سبتمبر من العام الماضي قد أثرت في الشريان الخلفي، إذن فإن الموقف دقيق وحرج.

ويصل الدكتور منصور فايز، وعند وصوله تحس السيدة الجليلة قرينة الرئيس أن هناك شيئا غير عادي، كانت طوال الوقت واقفة تنتظر في قاعة الجلوس التي تجتمع فيها الأسرة، وهي على مدخل البهو المؤدي إلى غرفة مكتب الرئيس، ثم غرفة نومه في الدور الثاني من البيت.

آخر وداع

وحين وجدت الدكتور منصور فايز أمامها، اقتربت منه والقلق يشد ملامحها لتقول له: «لا تؤاخذني يا دكتور لا أقصد إساءة، ولكن مجيئك يقلقني، أنت تجيء عندما يكون هناك شيء غير عادي»، وقال لها الدكتور منصور فايز: «أرجوك أن تطمئني، كل شيء بخير إن شاء الله».

ودخل وبعد قليل لحق به الدكتور زكى الرملي، كان التشخيص واحدًا، وكانت الإسعافات التي بدأها الدكتور الصاوي قبل مجيئهما مستمرة، وكان الرئيس متنبهًا إلى كل ما يجري، وحوالي الساعة الخامسة، بدا أن الأمل يقوى، كان النبض قد بدأ ينتظم، وضربات القلب تعود إلى قرب ما هو طبيعي.

واستراح الأطباء، والتقطوا أنفاسهم وهم بجواره، وهو يراقبهم بابتسامة هادئة على شفتيه. ثم بدأ يتحدث معهم كانت الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط، وقال له الدكتور منصور فايز: «إن الرئيس في حاجة إلى إجازة طويلة»، وقال الرئيس: «كنت أريد أن أذهب إلى الجبهة قبل الأجازة، هل أستطيع أن أذهب وأرى أولادنا هناك قبل أي إجازة».

وقال الدكتور منصور فايز: «أن ذلك سوف يكون صعبا، ولا يجب أن تسبق الأجازة أي نشاط آخر»، وقال الرئيس: «أن كل الوزراء اليوم في الجبهة، لقد طلبت أن يذهبوا إلى هناك، وأن يعيشوا يومين مع الضباط والجنود، يجب أن يعرفوا ويعرف كل مسئول

حقيقة ما يقوم به الجيش في الجبهة».

وهم الرئيس من فراشه ومد يده إلى جهاز راديو بجانبه وفتحه، يريد أن يسمع نشرة أخبار الساعة الخامسة من إذاعة القاهرة، وبينما اللحن المميز لنشرة الأخبار من إذاعة القاهرة ينساب في الغرفة، ويبدد بعض الشيء جوها المشحون بالطارئ الخطر أحس الدكتور منصور فايز أنه يريد أن يدخن سيجارة، وتصور أن خروجه من الغرفة ليدخن سيجارته قد يكون فرصة يطمئن فيها السيدة الجليلة قرينة الرئيس على صحته.

وخرج فعلاً إلى غرفة المكتب ثم إلى البهو المؤدي إلى غرفة الجلوس ووجدها أمامه ويداها تعصران وجهها من القلق ومشقة الانتظار، وقال لها باسمًا: «إنه بخير والحمد لله»، وسألته بلهفة: صحيح..؟ وقال لها: «إنني كطبيب أسمح لك بأن تذهبي وتريه بنفسك»، وقالت له: «أخشى إذا دخلت أن يشعر بقلقي ويتضايق، إنه لم يتعود أن أدخل وهناك أطباء، وإذا دخلت فقد يتصور أن هناك شيئا غير عادي».

في غرفة النوم كان المشهد يتغير بسرعة لم تكن متوقعة، استمع الرئيس إلى مقدمة نشرة الأخبار ثم قال: «لم أجد فيها الخبر الذي كنت أتوقع أن أسمعه»، ولم يقل شيئا عن الخبر الذي كان ينتظر سماعه، وتقدم منه الدكتور الصاوي وقال: ألا تستريح سيادتك..؟ إنك فتحت جهاز الراديو ثم قفلته ولا داعي لأي مجهود الآن..؟

وعاد الرئيس يتمدد تماما على فراشه، ويقول بالحرف: «لا يا صاوي، الحمد لله دلوقت أنا استريحت»، ولم يفرغ الدكتور الصاوي من عبارة يقول فيها: الحمد لله يا فندم، لم يفرغ ونظره مركز على الرئيس، حتى وجده يغمض عينيه ثم وجد يده تنزل من فوق صدره، حيث كان وضعها، وتستقر بجواره.

بعدها لم يشعر عبد الناصر بشيء، لم يقل كلمة، وكانت ملامح وجهه تعكس نوعا غريبا من الراحة المضيئة، وجرى الدكتور الصاوي هالعًا ينادي الدكتور منصور فايز، ووقف كل الأطباء حول الفراش، وبأيديهم وعقولهم كل ما يستطيعه العلم.

ووصلت إلى البيت وصعدت السلم قفزا، وكانت السيدة الجليلة قرينة الرئيس أول من لقيت، وكانت إحدى يديها تضغط على خدها، واليد الأخرى تمسك برأسها، وليس على لسانها وقد ملكها الخوف والخطر، إلا نداء واحد: «جمال.. جمال»، وكانت تكتم

نداءها حتى لا ينفذ إلى حيث يرقد هو.

وعبرت غرفة مكتبه بسرعة إلى غرفة نومه وإلى فراشه، وكان الأطباء ما زالوا من حوله، وكان ممددًا على الفراش وسطهم بالبيجامة البيضاء وخطوطها الزرقاء، وفوجئت بما رأيت، عندما دعيت إلى البيت لم يخطر ببالى ما قدر لي أن أراه، أقصى ما خطر ببالي عندما دعيت إلى بيته «لأنه متعب»، هو أن شيئا ما ألم به في العام الماضي قد عاوده، لكنني لم أكن مهيأ لما رأيت.

ولأول نظرة على الفراش، فإننى أحسست بما لا أستطيع اليوم، ولا غدًا أن أصفه من مشاعري، كان هناك على الفراش هدوء غريب، صمت كامل، كان هناك شيء واحد يلمع بشدة، وهو دبلة الزواج في يده، ينعكس عليها ضوء النور المدلى من السقف.

ولم أحاول أن أقترب من أي واحد من الأطباء، فلم يكن من حق أحد أن يشغلهم، والتفت حولي إلى بقية من في الغرفة: شعراوي جمعة، وسامي شرف، ومحمد أحمد، وكانوا جميعا مثلي معلقين بين السماء والأرض، ووجدتنى أدور في الغرفة وأبتهل، أردد والدموع تنزل صامتة: «يارب.. يارب»، ثم أرقب محاولات الطب الأخيرة، وأناديه في علاه: «يارب غير ممكن.. يارب غير معقول».

وتستمر محاولات التدليك الصناعي للقلب، وتتكرر تجربة الصدمة الكهربائية، والجسد الطاهر المسجى يختلج، ولكن الهدوء يعود بعد كل اختلاجة، بلا حس ولا نبض، وأحسست أن الأطباء قد فقدوا الأمل، وأنهم لا يحاولون بالعلم، ولكن يحاولون ضد العلم.

وجاء علي صبري ووقف مبهوتا أمام ما يجري، وجاء حسين الشافعي، واستدار إلى القبلة يصلى لله، وجاء أنور السادات ووقف أمام الفراش رافعًا وجهه إلى السماء يتمتم بآيات من القرآن، ودخل الفريق أول محمد فوزى والذهول يملأ وجهه، في نفس اللحظة التي قال فيها أحد الأطباء: «إن كل شيء قد انتهى».

وقال الفريق أول فوزى بحدة ملتاعة: «لا.. لا يمكن.. واصلوا عملكم»، وانفجر الدكتور منصور فايز باكيا، وانفجر معه كل الأطباء باكين، وانهمرت الدموع، طوفان من الدموع، ودخلت السيدة الجليلة قرينته إلى الغرفة المشحونة بالجلال والحزن، لا يمكن

لأحد أن يصف أحزانها المتوهجة كالجمر المشتعل، أمسكت يده تقبلها وتناديه.

وسمعت أحد الباكين يقول: «الرئيس.. الرئيس..»، والتفتت تقول: «لا تقولوا الرئيس، قولوا أنه جمال عبد الناصر وكفى، سيبقى بالنسبة لي وللناس كلهم جمال عبد الناصر»، ثم انحنت عليه تقبل يده مرة أخرى وهي تقول: «لم يكن لي في الدنيا سواه، ولا أريد في الدنيا غيره، ولا أطلب شيئا إلا أن أذهب إلى جواره حيث يكون».

ثم التفتت إلى السيدة الجليلة في حزنها الذي يفتت الصخر تسألني: «قل لي أنت، رد علي، ألن أسمع صوته بعد الآن..؟»، وأقبل أحد الأطباء يغطي وجهه، ونظرت إليه متوسلة بالدموع والنشيج: «اتركوه لي، أنظر إليه، أملأ عيني به»، واستدار كل من في الغرفة خارجين، تاركين لها اللحظة الأخيرة، وحدها معه.

وعندما جاءت السيارة التي تنقل جثمانه الطاهر إلى قصر القبة، كانت في وداعه حتى الباب، وكانت كلمتها المشبوبة باللهب الحزين والسيارة تمضى به: «حتى بعد أن مات أخذوه مني، لم يتركوه لي..»، وانطلقت به السيارة في جوف الليل الحزين.

وسرى النبأ كعاصفة برق ورعد، وزلزال يهز البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ- من أعماق الأعماق إلى ذرى الأمواج العالية، وفي شرق البحر الأبيض - في عمان- تسمرت الدبابات في أماكنها، وخرج رجال المقاومة من خنادقهم يصرخون وينادون عليه.

وأجهش حافظ أسد وزير الدفاع السورى بالبكاء وهو يقول: «كنا نتصرف كالأطفال، وكنا نخطىء، وكنا نعرف أنه هناك يصحح ما نفعل ويرد عنا آثاره».

وفي شرق البحر الأبيض - في تل أبيب- كان النبأ أخطر من أن يصدق للوهلة الأولى، وقالت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل: «من الذي أطلق هذه النكتة السخيفة..؟»، ثم تأكد النبأ، وخرجت جولدا مائير تشارك شعب إسرائيل فرحته بالخلاص من أعدى أعداء إسرائيل، وأصدر ديان أمره إلى القوات المعدة للتدخل الإسرائيلي الأمريكي أن تتفرق.

وفي شمال البحر الأبيض، كان الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون قد صعد لتوه إلى

ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا، ثم توجه إلى كابينة القيادة التي سيحل بها أثناء مناورات الأسطول الأمريكي السادس، التي كان الهدف منها أن يسمع جمال عبد الناصر في القاهرة صوت مدافعه.

ودخل عليه مساعده هالدمان بالنبأ، وذهل نيكسون، ثم كان قوله بعد قليل: «لا داعي الآن لهذه المناورة كلها»، وصمتت قعقعة السلاح على قطع الأسطول الأمريكي السادس، وطأطأت المدافع رؤوسها للحدث الخطير الذي يتعدى بآثاره كل الحدود.

وران على البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ- سكوت كسيف، وهدأت العواصف وارتمت الأمواج على الشواطىء وقد استنفدت كل قواها، وكان جمال عبد الناصر في حياته أكبر من الحياة، وكان جمال عبد الناصر بعد رحيله أكبر من الموت..

الساحر العظيم.. في عصر غير العصر(1)

إن مصير الشعوب لا تقرر كبوة عارضة، وإنما يقرره حجم الإرادة الوطنية والقومية واستعدادها لتقبل الخطر وتحمل الصعاب، وليس يخفينا أن يكون هناك بقاع غالية من أراضينا تحت احتلال العدو، ولكن يخيفنا أكثر أن تعيش أوطننا كلها غير متنبهة للخطر المحيط بها، راضية بالاستسلام، تخلط بينه وبين السلام، بينما العدو يمضي في تنفيذ مخططاته العدوانية بغير قتال، ويحقق ما يريد بغير مواجهة وينتصر عليها وهي في غيبوبة، لا تميز فيها بين العدو والصديق، بين التسلل المنظم والأمن الخداع..

جمال عبد الناصر ... 23 يوليو 1969م

هل هي محض مصادفة أن تظل ذكرى الزعيم الراحل «جمال عبد الناصر» حية في الضمير العربي بعد ما يقرب من نصف قرن من الزمان على رحيله الفاجع..؟

هل هي محض مصادفة أن يتبنى شباب حديثو السن أفكار ومبادئ عبد الناصر على الرغم من أنهم لم يكونوا قد ولدوا حين غاب هو عن دنيانا..؟

---

(1) د. صفوت حاتم: مجلة المصور، العدد 4815، 18 يناير 2017م، ص44 وما بعدها.

▪▪ عبد الناصر الراحل إلينا [1]



1918 - 1970

عبد الناصر لم يكن أسطورة، بل حقيقة لرجل عظيم الاستثنائية، أعطته مصر من روحها العبقرية المتفردة، وأعطاها من عقله وقلبه وإخلاصه وكفاحه، عاش ومات، انتصر وانهزم وصمد، واستراح في قبره الشهير بكوبري القبة، لكن سيرته لم تمت أبدا، فقد عبر موته إلينا، وواصل الرحيل فينا، وتجدد إلهامه لمصر وأمتها العربية الحزينة، وهي تحلم بصباح جديد، تحمل شمسه تقاطيع وجه عبد الناصر.

لم يمت عبد الناصر مهزوما ولا منتصرا، بل مات على الجبهة مقاتلا باسلا، ولم يكن أبدا من أبطال القصص المنتهية، الذين عاشوا وماتوا وأنجزوا بين قوسين، وأغلقت على سيرهم أقواس التاريخ، وعدوا من أبطال السياسة أو قادة السلاح، لكن عبد الناصر كان سيرة أخرى تماما، فهو بطل الأقواس المفتوحة، بطل الدراما التي لم تكتمل، عاش وأنجز بأكثر من أي بطل آخر في تاريخنا، لكنه مات دون حلمه، وتركنا بدون أن نحصن أحلامنا، وبات لكل منا أن يكمل حلم عبد الناصر بطريقته.

(1) عبد الحليم قنديل: جريدة صوت الأمة، العدد (876)، بتاريخ 30 سبتمبر 2017م، ص3.

كان حلمه عفيا فلم يمت معه، كان شخصه الاستثنائي قد اندمج بشعبه وأمتـه، تـرك جيشه على الجبهة يحارب، ولم يخذله الجيش الذي أعاد تأسيسـه مـن نقطـة العـدم بعـد هزيمة 1967م.

كانت التعبئة جارفة من حول الحلم، كانت مصر كلها على جبهة السلاح، كانت تريد الثأر لهزيمة لحقت وسبقت، وعبرت خطوط النار في حرب أكتـوبر، وحققـت مـا يعلـو على معنى المعجزة، وفي غمرة النصر الفريد، كانـت مصـائر الـذل في انتظارنـا، وكانـت نبوءة الشعب التلقائية تتحقق سريعا، فقد خرجت مصر كما لم تخرج أبدا في وداع رجل، وكما لم تخرج أي أمة في وداع زعمـاء ولا أنبيـاء، وصـنعت الجنـازة الأعظـم في مطلـق التاريخ الإنساني من قبل ومن بعد، وكان هتاف النـاس الـوداعي المصـدوم لافتـا، كـان النشيد النشيج يشق القلوب المجروحة صاعدا إلى عنان السماء، كانت أمة بكاملها تنعى حلمها، وتخاطب عبد الناصر الذي لم تتصور أنه سيرحل مبكـرا، وتخبـره في جـزع عـن هول مصائر تنتظرها، ويسيل دمعها وهي تغنـى، «يـا ناصـر يـا عـود الفـل- مـن بعـدك هنشوف الذل».

وقد كان وإن تدحرج الزمن قليلا إلى ما بعد وقـف إطـلاق النـار عـلى جبهـة حـرب أكتوبر 1973م، وخذلان السياسة لانتصار السـلاح، وخيانـة الحلـم الـذي تركـه عبـد الناصر وديعة لدى شعبه وأمته، وتوالى الذل والانحطاط عصورا، إلى أن خرجـت مصـر من جديد، وكأنها مقبلة لتوها من صفوف جنازة عبـد الناصـر، ترفـع صـوره وحـدها في ميادين ثورة وغضب كاسح، تلاحقت موجاته من ثـورة 25 ينـاير 2011م إلى ثـورة 30 يونيـو 2013م، لا تخـدعها وجـوه الثـورة المضـادة التـي سـبقت إلى غنـائم الحكـم والتحكم، وهي نفسها التي خانت نصرا حققه جيش جمال عبد الناصـر، وداسـت حلمـه بأقدام الغزاة الأمريكيين والإسرائيليين، وتتصور أنها ملكـت الحاضـر والمسـتقبل، ولا يفزعها سوى حلم عبد الناصر المستكن في الصـدور، وصـور عبـد الناصـر التـي تبـدو كرايات حرب لا تنتهي، ترفعها أجيال لم تره، ولم تعشه، بل عاشت أزمان الحملة العاتيـة ضده، والتكفير بحلمه.

تصوروا أنهم ضللوها فـأنكرت ضـلالهم، واعتصـمت بصـور عبـد الناصـر، كأنهـا التميمة ضد الذل، وكأنها سند الحصانة ضد بؤس الزمن، وكأنها الجبـل الـذي لا تهزمـه

ريح، مهما عصفت وزمجرت وأرعدت واستبدت بلون السماء.

وليست القصة في عصمة لا يدعيها أحد لعبد الناصر، فهو لم يكـن معصـوما ولا نبيـا منزلا، بل قيمته الكبرى أنه كـان مـن مـن طينتنـا ومـن أشـواقنا، بـلا رتـوش ولا ريـاء، وبشخص استثنائي اختصر أفضل ما فينا، فلم تندمج روح الأمة في شخص، كمـا حـدث مع عبد الناصر، كان انحيازه قاطعا نهائيا بلا ذرة تردد، انحاز للفقراء والوطنية المصـرية والقومية العربية، وصدق فيه قول جمال حمدان عن الناصرية التي هي الوطنية المصرية في أكمل معانيها، وطنيـة الاسـتقلال الكامـل سياسـيا واقتصـاديا وثقافيـا، وطنيـة العدالـة والانصاف الاجتماعي، وطنية التصـنيع الشـامل المـدني والحربـي، وطنيـة الكفايـة في الإنتاج والعدالة في التوزيع، وطنية الأولويـة الحاسـمة للعلـم والبحـث والتكنولوجيـا، وطنية خلق مجتمع جديد من قلب المجتمع القديم، وطنية العداء لإسرائيل جـيلا وراء جيل، وطنية الوحدة العربية لأمة ممزقة مستباحة، وطنية النهوض والتجديد الحضاري، وطنية الانتصار لدين العدالـة والمسـاواة والتوحيـد، وطنيـة التصـحيح للنظـام الـدولي لمصلحة أمـم وحضـارات الشـرق والجنـوب، وطنيـة التحريـر المفجـر لطاقـات أمـة وشعب.

حبسوه طويلا في قماقم التاريخ، وعزلوه عن أنبل ما فيه وعن روح عصره، واعتـادوا التدليس عليه والتحكم باسمه، وسرقة موارده وثرواته وحاضره ومستقبله، وهم أنفسهم الذين يواصلون الحرب ضد عبد الناصر إلى اليوم، وهم لا يحـاربون قبـرا ولا ميتـا، بـل يحاربون حلما يراود أجيالا جديدة عفية، رأت بعينها ما فعله المعادون بالخلقـة لمعنـى جمال عبد الناصر، وشهدت مخازي اليمين الثوري واليمين الديني، وكلهم مـن الماركـة ذاتها ومن البضاعة نفسها، وتشاركوا في سيرة العداء الثأري من حلم عبد الناصر، ووجدا ضالتهم معا في النعي على حكم عبد الناصر، وترديد الـدعوى السـقيمة ذاتهـا، وهـي أن عبد الناصر لم يكن ديمقراطيا، وأنه كان ديكتاتورا.

وبدون أن يلفت أحد إلى معنى الديكتاتورية المدعاة، فقد كان عبد الناصر ديكتـاتورا لشعبه لا عليه، ولم يكن محايدا حتى يرضى عنه الكل أو يغفل، بل كان منحـازا للشـعب العامل وصناع الحيـاة إلى الحـد الأقصـى، وكـان يشـق الطريـق إلى الحلـم عـن معرفـة

وتجربة، وكانت عبقريته الكبرى في المقدرة على التصحيح الذاتي، ولم يدع أبـدا أن نظـام دولته كان ديمقراطيا بما يكفي، ولا أنه يوفر القدر المطلوب من حريات السياسة، وكان نقده هو الأعنف لنظامه خاصة بعد هزيمة 1967م، فلـم يخـل مسـؤوليته عمـا جـرى، وأعلن سقوط دولة الانتهاكات والتجاوزات، وأعاد بناء الجيش من نقطة الصفر، وصنع لمصر جيشها العصري، وحارب على جبهة السلاح وجبهة المجتمع.

وانحاز إلى مغزى مظاهرات الطـلاب في 1968م، وأعلـن أن الشـعب يريـد التغييـر و«أنا معه»، وفي الوثائق السرية لاجتماعات الدوائر العليا، كان انحيازه قاطعا صريحا إلى الديمقراطية والتحول لنظام التعدد الحزبي، وكان نقده جارفا للقبضـة الأمنيـة والترهـل البيروقراطي، وكان يؤكد أن التنظيم السياسي الواحد صنع من ورق، كان يخطط لما هو أبعد من نصر على جبهة السلاح، ويحلم بالتقدم إلى إكمال تجربته الثورية مع إزالـة آثـار العدوان.

كانت مصر قد حققت حركة تصنيع غير مسـبوقة ولا ملحوقـة، وقفـزت بمعـدلات التنمية الحقيقية إلى أعلى ذروة في تاريخها، وفي تجـارب الأمـم الناهضـة وقتهـا في آسـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان نفوذ ووزن الطبقات العاملة والوسـطى يتسـع بـاطراد، وكانت مصر الحية قادرة على تجاوز المحن، وأطلق عبد الناصر سراح أغلب المعتقلين والمسجونين السياسيين، ولم يبق في السـجون السياسـية يـوم رحـل مسـاء 28 سـبتمبر 1970م سوى 273 شخصا، كان بينهم عدد لا بأس به من جواسيس العدو الإسرائيلي.

فلم تنته تجربة عبد الناصر أبدا مع هزيمة 1967م، بل كانـت تـدخل أرقـى مراحـل نضجها واكتمالها، وكان عزم عبد الناصر أكيدا على التقدم من الديمقراطيـة الاجتماعيـة المتحققة إلى الديمقراطية السياسية المأمولـة، وبقـوة مجتمـع عظـيم الحيويـة، صـنعته الإنجازات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الكبرى.

كانت مصر العفية تولد من جديـد، وتحـول المحنـة إلى منحـة، وكـان عبـد الناصـر يصوب الأخطاء الكبرى التي وقعـت فيهـا تجربتـه، وبثقـة هائلـة مـن شـعبه في القـدوة والمثال، وفي لحظة اختمار ونضج الحلم مات صاحبه، وترك الحلم وديعة لدى شـعبه، الذي لم تضلله الدعايات المضادة أبدا عن حقيقة عبد الناصر، فقد شهد بأم عينيه مصارع الذين عاندوا الحلم وداسوه، وظل حلم عبد الناصر هو البوصلة المرشدة لمصر وأمتها

العربية، والمسطرة المستقيمة التي يقاس عليها كل انحراف، وهو ما يفسر الحيوية الفائقة الخالدة لاسم جمال عبد الناصر في حياتنا، واشتعال المعارك من حوله، وكأنه مات بالأمس توا، أو كأنه لم يمت بعد.

فالذين يكرهونه ينفثون أحقادهم في غل لا تنطفئ ناره، والذين يحبونه يواصلون الحلم، ويكملون سيرة «بطل الأقواس المفتوحة»، ويرسمون في خيالهم ووجدانهم وعقلهم صورة «مصر الجديدة» التي حلم بها عبد الناصر، وكاد يحققها واقعا حيا، لولا أن قدر الموت سبق أقدار الحلم.

وإن كان الشعب الذي صنع عبد الناصر، ظل أمينا على الحلم، وأشعل ثورتين عظيمتين، لم تبلغا الغاية إلى الآن، وظلتا على حال «ايزيس» في الأسطورة المصرية القديمة، تجمع أشلاء «أوزوريس»، وتصنع من نثار الحلم القديم حلما جديدًا.

نعم، مات عبد الناصر كإنسان قبل قرابة الخمسة عقود، لكن معنى عبد الناصر لا يموت أبدا، ووحي حلمه لا ينقطع، فقد رحلنا من الحلم إلى الظلم بعد نصر 1973م، وكانت تلك مفارقة كبرى أن ننتصر في السلاح ونهزم في التاريخ، لكن المفارقة المذلة صنعت بدورها مفارقة مجيدة، فلم يرحل حلم عبد الناصر عنا، بل رحل إلينا، وسكن أفئدة شعب بغالبه الساحق، وتناسل فينا جيلا فجيل، والحلم الذي يسكن شعبا لا يهزمه الزمن، فالشعوب لا تموت.

▪▪ 45 عامًا على رحيل أغلى الرجال [1]



1918 - 1970

لم يحب المصريون عبر تاريخهم الطويل أحدًا مثلما أحبوا جمال عبد الناصر، الذي يمر على رحيله عن دنيانا اليوم 45 عامًا بالتمام والكمال، فعلاقتهم عبر التاريخ بأي حاكم كانت ملتبسة، يصعد الحاكم فيجددون به الأمل في العدل والكفاية، ثم لا يلبثون أن يخرجوه من قلوبهم لأنه خيب رجاءهم، إلا هو.. فقد كان حبه يستقر في أعماقهم كل يوم مع كل مشروع يبنيه، وكل أرض يستصلحها، وكل رغيف وحبة دواء يقدمهما لفقير، وعمل يوفره لأبناء السبيل إلى أن رحل جسده الفاني عن حياتهم، لكنه ظل متشبثًا بموقعه الفريد في قلوبهم حتى بعد مرور عشرات السنين على ذلك الرحيل الرمزي.

ونقول الرمزي لأنه حاضر بشكل ما: في السد العالي، في المدارس والمعاهد والجامعات، في القلاع الصناعية، حتى وإن بيع منها الكثير في الدولة الحديثة التي بناها، وأدخل بها مصر للقرن العشرين، في صوته عبر شرائط خطاباته التي لا تستطيع الأجيال نسيانها، أو لقطات الفيديو في الميديا الحديثة، أو الأغاني الوطنية عبقرية الكلمات والألحان،

(1) أحمد مرتضى عبده: مجلة البوابة، سبتمبر 2015م، القاهرة.

والأصوات المتجذرة في وجدان الجماهير التي عاشت معه ومعها مرحلة الحلم، وسنوات التحدي والكبرياء، قبل أن تشد من أزره في ظلام الانكسار.

وحين نجحت المؤامرة الأمريكية الصهيونية في إلحاق الهزيمة المريرة بمشروعه الوطني العملاق في 5 يونيو 1967م، كانت الجماهير - وبوعي مذهل- تدرك تمامًا أن الأعداء يريدون تدميره قبل أن يدمروهم باعتباره رأس الحربة ومشهر السيف فرفضت أن يقودها غيره، وكان خروج «المليونيات» المبكرة في 9، 10 يونيو أعظم استفتاء لبطل مهزوم، أعاد بناء القوات المسلحة وخاض حرب الاستنزاف التي كانت تدريبات عملية على العبور الذي لم يعش ليراه، وأزال آثار العدوان وبذل جهدًا لا يتحمله قلب بشر وانتقل إلى الرفيق الأعلى، فودعته الجماهير المليونية كما لم ولن تودع أحدًا قبله ولا بعده.

لم يكن يومًا عاديًا بل كان تاريخيًا؛ لأن ما قبله كان حالاً مختلفة عما بعده، في ذلك اليوم الحزين أفاق المصريون على صوت الناعي وهو يلقي بيان الوداع: «فقدت الجمهورية العربية المتحدة، وفقدت الأمة العربية، وفقد الإنسانية كلها رجلاً من أغلى الرجال، وأشجع الرجال، وأخلص الرجال، هو الرئيس جمال عبد الناصر، الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء يوم 27 رجب 1390هـ الموافق 28 سبتمبر 1970م، بينما هو واقف في ساحة القتال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية، ومن أجل يوم انتصارها».

في مثل هذا اليوم 28 سبتمبر قبل 45 عامًا مصر والعرب والإنسانية يفتقدون «ناصر» الشعب:

لقد تعرض البطل الذي سيبقى ذكره خالدًا إلى الأبد في وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر، وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من مراسم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي انتهى في اليوم السابق في القاهرة، والذي كرس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه، ليحول دون مأساة مروعة داهمت الأمة العربية، إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ومجلس الوزراء عقدا جلسة مشتركة طارئة على أثر نفاذ قضاء الله وقدره، لا يجدان الكلمات التي يمكن بها تصوير الحزن العميق الذي ألمَّ بالجمهورية العربية المتحدة

وبالوطن العربي والإنساني إزاء ما أراد الله امتحانها به في وقت من أخطر الأوقات.

كان يوم الثامن والعشرين من سبتمبر الحزين فارقـًا بين زمنين: زمن العزة والكرامة، وزمن الذل والمهانة... كان يومًا مختلفـًا بحـق تركـزت فيـه بـؤرة الأحـداث في منشـية البكري، حيث المنزل الحكومي الذي كان يقطنه الرجل وأسرته، وكـان الرجـال الـذين أحاطوا به في نزعه الأخير أبطال أحداث ذلك اليوم العصيب، خاصة الفريق الطبي الذي حاول فعل المعجزات لإنقاذه وهو يجـود بأنفاسـه الأخيـرة، ومـنهم مـن سـجل هـذه اللحظات، ومنهم من أغلق عليها خزائن ذاكرته ليجتر حزنه وحيدًا، ولم ينس من سجلوا شهادتهم أن يذكروا كيف عرفوه عن قرب، وكيف تعامل معهم، ولماذا بكوه طويلاً بعـد ذلك..؟ ففي شهادته الخاصة عن مريضه عبد الناصر كتب الـدكتور الصـاوي حبيـب الذي لازمه يوميًا من يوم 12 يوليو 1967م إلى يوم وفاته في 28 سبتمبر 1970م:

كانت البساطة هي السمة المميزة لطعامه وشرابه، فبعد إعداد كتيـب خـاص للنظـام الغذائي الواجب اتباعه بالنسـبة لـه كمـريض سـكر، اتضـح أن أكلـه أبسـط وأقـل ممـا أعددناه، وكان يفضل الجبنة البيضاء، وعمومًا فقد كان يأكل مـا هـو ضـروري ليعـيش، وكان يفضل عصير الليمون وعصير البرتقال كشراب، كما كان يحتفظ بترموس ماء عـلى الكومودينو في حجرة النوم.

وعن عصر يوم الثامن والعشرين مـن سـبتمبر 1970م قـال سـامي شـرف سـكرتير الرئيس للمعلومات: في الساعة الخامسة إلا عشر دقـائق تقريبًـا اتصـل بـي عـلى الخـط الساخن فؤاد عبد الحي السكرتير الخاص المناوب في هـذا اليـوم لغيـاب محمـد أحمـد الذي أعطاه الرئيس الإذن بالتغيب لحضور حالة وضع لزوجتـه قـائلاً لـه: «عـلى الله يـا محمد يجيلك المرة دي الولد الذي تنتظره»؛ لأن محمـد أحمـد كانـت كـل خلفتـه مـن البنات... كان فؤاد عبد الحي يبكي وقال لي ما نصه: «إلحقني يا افنـدم.. سـيادة الـريس تعبان.. تعالى حالاً..!».

في تلك اللحظة أصابني إحساس غامض انقبض لـه قلبـي، ونزلـت بسـرعة بعـد مـا بلغت شعراوي جمعة وزير الداخلية تليفونيًا بـأني سـأمر عليـه، فتسـاءل بانـدهاش عمـا حدث، فقلت له موش وقته.. إلبس هدومك ولما آجي لـك سـأحكي لـك مـا حـدث،

ومررت على شعراوي في منزله المجاول لمنزلي ووجدته منتظرًا على بابه واصطحبته في السيارة التي كنت أقودها بنفسي، وكرر سؤاله، فقلت له: إن الريس عاوزنا دلوقت، فقال: هل هو طلبنا..؟ فقلت له: لأ هو تعبان شوية كما أبلغني فؤاد عبد الحي.

وكنا قد وصلنا إلى منشية البكري في تلك اللحظة، حيث تركت السيارة أمام الباب الرئيسي ثم صعدنا مباشرة إلى الدور الثاني وإلى غرفة نوم عبد الناصر، وكان نائمًا على سريره مغمض العينين ويديه إلى جانبيه ومرتديًا بنطلون بيجامة رمادي فاتح بخط أزرق عليه فانلة سبور وبدون جاكتة، وحوله الأطباء زكي الرملي ومنصور فايز والصاوي حبيب يمارسون عملهم في سكون مطبق، وبعد قليل وصل الدكتور طه عبد العزيز من الحرس الجمهوري، وكانت الأجهزة وأنابيب الأكسجين منصوبة إلى جوار السرير، والأسلاك ممدودة إلى أجزاء مختلفة من الجسم الساكن للزعيم الثائر، وبعد وصولنا مباشرة بدأ الأطباء في إجراء صدمات كهربائية للقلب، علاوة على محاولات التدليك اليدوي للصدر، والتي كانوا يقومون بها طوال الوقت.

ووصل بعد ذلك بقليل حوالي الساعة 17،25 الفريق فوزي، وعلي صبري الذي وصل حوالي الساعة 17،40 وهما اللذان كلفت مكتبي بالاتصال بهما مع آخرين من المسئولين، ووصل السيد أنور السادات حوالي الساعة 18:45 تصحبه السيدة جيهان، وحسين الشافعي الذي وصل حوالي الساعة 17:45، وحافظ إسماعيل، وأمين هويدي، ومحمود رياض الذين وصلوا ما بين الساعة 18:50 و19:00، ومحمد حسنين هيكل الذي وصل حوالي الساعة 17:50، ومحمد أحمد الذي وصل حوالي الساعة 18:00، ثم توالي حضور الباقين تباعًا كمحمد أحمد صادق، وحسن التهامي وآخرين إلى منشية البكري، ولم يستطع كل من أمين هويدي ومحمود رياض الوصول مبكرين لوجودهما في أماكن بعيدة في ذلك الوقت، وكان آخر من وصل حوالي الساعة السابعة إلا ربع مساءً السيد أنور السادات والسيدة جيهان السادات، والتي كانت ترتدي فستانًا أخضر اللون وكان وصولهما بعد أن تأكد وفاة عبد الناصر، ولم يلحق السادات بنا في الدور العلوي لأننا كنا قد نزلنا للدور الأرضي لتقوم العائلة بإلقاء نظرة أخيرة على الفقيد الغالي، وقد صعد بمفرده إلى الدور العلوي، حيث ألقى نظرة أخيرة على الجثمان المسجى، ثم نزل ليلحق بنا في الصالون الرئيسي في الدور الأرضي.

وكان الفريق فوزي أثناء وجودنا إلى جوار سرير عبد الناصر غير متقبل فكرة أو احتمال رحيل الرجل، فلم يتقبل التصرف العادي للأطباء فما كان منه إلا أن شخط فيهم قائلاً: «إعملوا حاجة!!»، وأمام هذه الرغبة أعاد الأطباء استخدام جهاز الصدمات الكهربائية التي كان ينتفض من تأثيرها الجسم الساكن الساكت، مما دعا الفريق فوزي لتناول التليفون ليطلب الفريق طبيب رفاعي محمد كامل كبير أطباء القوات المسلحة ليحضر إلى منشية البكري، وهو بالمناسبة لم يكن في يوم من الأيام من الأطباء المعالجين للرئيس جمال عبد الناصر.

وقد حضر رفاعي فعلاً إلى منشية البكري، ولكن بعد أن قرر جميع الأطباء الحاضرين أن أمر الله قد نفذ، وقال الدكتور منصور فايز إن الرئيس جمال عبد الناصر قد أسلم الروح في حوالي الخامسة أو قبلها بدقائق قليلة، وأنه استسلم لقضاء الله الذي لا راد لقضائه، كما كان حسين الشافعي وشعراوي جمعة وأنا نصلي لله من حول سرير عبد الناصر طوال عمل الأطباء الصامت حول الجسد الساكن.

الرئيس الأمريكي نيكسون قال عندما علم بالوفاة «الآن انتهت قضية الشرق الأوسط»:

في 13 مارس 1969م كان فايفر عميد معهد السكر في أولم بألمانيا يحاضر في كلية الطب جامعة القاهرة بدعوة من الدكتور علي البدري، وكانت مناسبة ليزور الرئيس عبد الناصر، وبالفعل أخذ عينات من دمه إلى معامل ألمانيا، وأرسل تقريرًا يؤكد أن السكر من النوع العادي، وكتب له نظامًا غذائيًا لم يلتزم به عبد الناصر لسبب بسيط وهو أنه كان يأكل أقل بكثير مما يكتبه الأطباء، فلم يكن رجلاً يحب الأكل، وإنما يكتفي باليسير منه والبسيط؛ فبذلك كان مريضًا مثاليًا لا يرهق طبيبه في هذا المجال، ويقول د. عبيد: يدعم ما أقوله أن سكر عبد الناصر كان من النوع العادي البسيط «النوع الثاني»، هو أن أسنانه ظلت في حالة معقولة جدًا حتى وفاته فلم يسقط منها شيء ولم يقم بخلع أحدها.

رويدًا.. رويدًا يدخل بنا الدكتور الصاوي حبيب إلى حيث خبيئته وموطن أسرار وفاة عبد الناصر قائلاً: ينبغي أن نقرأ أولاً ملفه السياسي في عامه الأخير، ثم ملفه الصحي وسنصل إلى نتيجة حتمية يعرفها الجميع، وهي أن الجهد الرهيب الذي كان يبذله وقلبه

مريض كان كافيًا لإحداث الوفاة، فبينما كان يخوض حربه الخارجية في كل الميادين كان جسده يخوض حربًا داخلية في الشريان التاجي الذي تشقق غشاؤه المبطن بسبب ضغط الدم واندفاع الكوليسترول داخل جداره ليضيق مجراه، وساهم السكر في زيادة قابلية الدم للتجلط وتراكمت الصفائح الدموية على الشقوق لتسد مجراه وتسبب وفاته.

وكان نصيب عبد الناصر من عوامل الخطورة التدخين والسكر وارتفاع ضغط الدم والكوليسترول والمجهود العضلي الكبير، وجميع هذه العوامل يمكن تعديلها ما عدا التاريخ العائلي الذي لا يمكن علاجه لوجود موروث جيني لا يمكن تغييره، وذلك كان غير معروف عن عبد الناصر؛ لأنه كان الأخ الأكبر لأشقائه الأربعة وأول من مات منهم.

في اعتقادي أنه ما من تجربة سياسية عربية لاقت من الخلافات حول تقييمها مثلما حدث مع تجربة عبد الناصر، الذي ظل يحكم مصر طوال 18 عامًا، شاءت المقادير أن أرى عبد الناصر رؤى العين مرتين: الأولى في مطلع شهر مايو سنة 1967م، والثانية في الأول من مايو أيضًا ولكن في سنة 1970م، لم تزد المسافة بيني وبينه على ثلاثة أمتار فقط.

في المرة الأولى كنت قد تجاوزت أعوامي الستة بنحو شهرين، وفي الثانية بلغ عمري تسعة أعوام وحفنة أسابيع، لكن صورة الرجل آنذاك - بقامته الممدودة وملامحه الاستثنائية وحشود الجموع حوله- مازالت تطفو على خيالي كلما انقصم ظهر مصر، أو تعرض شعبها إلى الكيد والعدوان، وها هي الصورة العتيدة لأشهر وأهم زعيم مصري وعربي على مر العصور، تعاود الظهور بقوة حاليًا بالتوافق مع الذكرى الثانية والستين لثورة 23 يونيو، لماذا..؟ سأشرح ذلك في السطور التالية.

في السادس عشر من يناير - وليس الخامس عشر كما هو شائع - من عام 1918م ولد جمال عبد الناصر، وفي 23 يوليو 1952م ينقض هو والذين معه على السلطة فيطيحون بالحكم الملكي، ويزيحون أسرة محمد علي من عرين الحكم، بعد أن ظلت هذه الأسرة تتلذذ بالسلطة والجاه والنفوذ طوال 147 عامًا..!

في اعتقادي أنه ما من تجربة سياسية عربية لاقت من الخلافات حول تقييمها مثلما حدث مع تجربة عبد الناصر، الذي ظل يحكم مصر طوال 18 عامًا، صحيح أن اللواء

محمد نجيب ظل يحتل الموقع الأول في المشهد بعد نجاح الثورة حتى نوفمبر 1954م، إلا أنه كان مجرد واجهة احتمى بها شباب الضباط الأحرار لا أكثر؛ إذ كان جمال عبد الناصر هو القائد الفعلي لتنظيم الضباط الأحرار ومفجر الثورة، وقد تمت الإطاحة باللواء نجيب بسهولة عندما احتدم الخلاف بينه وبين الضباط الثائرين، ولكن قبل أن نطرح تقييمنا لهذه التجربة الفريدة لثورة يوليو علينا أن نوضح بعض النقاط المهمة لتيسر علينا عملية التقييم:

عدد سكان مصر عندما تولى عبد الناصر السلطة في 1952م كان 18 مليون نسمة تقريبًا، أكثر من 80٪ من هؤلاء كانوا يعيشون في الريف تحت خط الفقر؛ لدرجة أن الأثرياء الطيبين من «باشوات» ذلك الزمان قرروا أن يؤسسوا مشروع «مكافحة الحفاء» عام 1945م، داعين الموسرين إلى التبرع ولو بقرش صاغ واحد، حتى يوفروا الأحذية لأكثر من 7 ملايين مصري، وأكرر 7 ملايين، لا يملكون ثمن شراء حذاء أو حتى نعل عادي «شبشب» باللهجة المصرية، نسبة أمية مخيفة تصل إلى أكثر من 90٪ في وقت كان أبناء الطبقة الأرستقراطية المصرية يتلقون تعليمهم في جامعات باريس ولندن.

كانت مصر رازحة قبل عبد الناصر تحت وطأة تحالف متين ومشبوه يجمع الثلاثي الشرير: الاحتلال الإنجليزي، كبار رجال الإقطاع والرأسماليين المصريين، والملك فاروق وحاشيته، هذا التحالف قام بعملية نهب منظمة لخيرات مصر تاركًا الغالبية العظمى من الناس أسرى الثلاثي البائس: الفقر والجهل والمرض، رجاء راجع كتاب «فاروق من الميلاد إلى الرحيل» للدكتورة لطيفة محمد سالم، وكتابنا: «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» لتعرف كيف كانت الحياة بائسة للغالبية العظمى من المصريين في عهد فاروق، وقد كانت أبرز إنجازات عبد الناصر تتمثل في إشعال قناديل العزة الوطنية في صدور المصريين عندما قام بطرد الملك فاروق وإجلاء الإنجليز عن بلادنا بعد احتلال دام نحو 72 عامًا.

بقي بعد ذلك محاولاته المستميتة لتأسيس دولة عصرية، فأنشأ آلاف المدارس في زمن قياسي جاعلاً التعليم بالمجان في كل المراحل، محققـًا بذلك حلم طه حسين، كما أنشأ عبد الناصر قاعدة صناعية كبرى لا بأس بها، مراعيًا حقوق العمال ومكاسبهم في

القوانين التي أقرت، بعد أن كابد العمال شتى أصناف القهر والمذلة أيام الملكية، أما الخطوات الكبرى التي أكسبته شرعية عظيمة - لا في مصر فحسب، بل في العالم العربي كله- تمثلت في قراره التاريخي بتأميم شركة قناة السويس لصالح مصر عام 1956م، وقد كانت القناة قبل القرار بمثابة دويلة داخل الدولة، يديرها ويتحكم فيها الفرنسيون والإنجليز، علاوة على دعمه اللامحدود لحركات التحرر العربي «الجزائر أقرب الأمثلة».

كان جهد عبد الناصر ورعايته وتشجيعه للحركة الثقافية ضخمًا ولمدى بعيد، فقد أنشأ وزارة للثقافة وجعل الكتب متاحة للجميع بأسعار رمزية، كما أطلق العديد من الجوائز الأدبية المهمة، وفي عهده تم تأسيس أكاديمية للفنون ومسرح العرائس والباليه وغير ذلك، وقد شهدت الحركة المسرحية في الخمسينيات والستينيات ازدهارًا لا سابق له، والأمر نفسه ينطبق على دعمه الكبير للحركة الفنية، تم إنتاج نحو ألف فيلم في فترة حكمه - 18 سنة فقط- من مجمل 3000 فيلم مصري أنجزوا في القرن العشرين بأكلمه، بالإضافة إلى آلاف الأغنيات العاطفية والوطنية البديعة التي شدت بها كوكبة نادرة من أصحاب الأصوات المدهشة، والتي تُشكل الآن تراثًا فنيًا باذخًا، أذكرك بأغنيات: عبد الحليم وشادية ونجاة وفايزة أحمد ووردة ومحمد رشدي ومحمد قنديل وماهر العطار وعبد اللطيف التلباني وغيرهم، لاحظ أنني لم أذكر أم كلثوم وعبد الوهاب وتلاميذهما لأنهما ظهرا قبل وصول عبد الناصر للسلطة.

▪▪ 47 عامًا على رحيل عبد الناصر ..[1]



1918 - 1970

*** رفض أن يعيش في قصر الطاهرة حتى لا يعتاد أولاده حياة القصور.**

*** حصل على نيشان النجمة العسكرية من الملك فاروق.**

*** السودانيون حطموا الحواجز أثناء زيارته للخرطوم عقب النكسة.**

كل شيء في حياة الطفل جمال عبد الناصر كان قاسيا، فالأب عبد الناصر حسين كان يعمل في مصلحة البريد بالإسكندرية، وكان مرتبه يكفي بصعوبة سداد ضرورات الحياة.

والطفل الصغير الذي ولد في قرية بني مر بصعيد مصر عام 1918م، وجد نفسه لا يستقر بمكان تبعًا لتنقل والده، فقد التحق بروضة الأطفال بمحرم بك في الإسكندرية، ثم وجد نفسه بالمدرسة الابتدائية بالخطاطبة في البحيرة عام 1923م- 1924م.

***

(1) محسن عبد العزيز: جريدة الأهرام، بتاريخ 29 سبتمبر 2017م.

وفي عام 1925م دخل مدرسة النحاسين الابتدائية بالجمالية، وأقام عند عمه خليل حسين لمدة ثلاث سنوات، شعر خلالها بالوحدة والعزلة وكانت كل رسالة تصل إليه من أمه تنعش قلبه وتعيد إليه شجاعته، كما يروي الكاتب السويسرى جورج فوجيه في كتابه «جمال عبد الناصر وصحبه».

وفي أواخر إبريل 1926م انقطعت رسائل الأم فجأة، وكتب الأب يقول لولده أن أمه لم تتمكن من الرد عليه بسبب انشغالها، ولكنه عندما عاد للخطاطبة وجد أمه ماتت وأبوه تزوج، فأي قسوة وأي ضربة هذه لطفل عمره ثماني سنوات..؟

عاش عبد الناصر يتيمًا يطل الحزن من عينيه دائما، وقال بعد ذلك لمندوب «الصنداي تايمز»: فقد أمي بهذه الطريقة كان صدمة تركت شعورا لا يمحوه الزمن، وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة أجد صعوبة بالغة في إنزال الآلام بالآخرين.

وقد علمه اليتم الصلابة والنظام مع القوة والاعتماد على النفس والجدية، ووصفه أنور السادات قائلا: «كنا جميعا خريجي دفعة واحدة، وكان جمال دائم التفكير، حزينا، رصينا متحفظا، ولم نكن نطلق نكتة حتى يقاطعنا ويعود بنا إلى عبارات الجد، كان الألم على فقد أمه قبل الأوان متملكا من فؤاده».

يحكي جمال عبد الناصر في أوراقه الخاصة عن أول مظاهرة اشترك فيها، وكانت في مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية: كنت أعبر ميدان المنشية في الإسكندرية حين وجددت مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات البوليس، وانضممت على الفور إلى المتظاهرين دون أن أعرف أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون من أجله، لقد رأيت أفرادا من الجماهير في صدام مع السلطة، واتخذت موقفي دون تردد في الجانب المعادي للسلطة، وهوت على رأسي عصا من البوليس تلتها ضربة حتى سقطت على الأرض ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسي مع عدد من الطلبة، وقد دخلت السجن تلميذا متحمسًا، وخرجت منه مشحونا بطاقة من الغضب.

وضاق المسئولون في المدرسة بنشاطه وأبلغوا والده فأرسله إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة النهضة الثانوية بحى الظاهر، ولم يتوقف نشاطه السياسي وإنما أضاف إليه شغفا بالقراءة، فقرأ عن الثورة الفرنسية وعن روسو وفولتير ونابليون والإسكندر وكمال

أتاتورك، ويوليوس قيصر، وغاندي، كما قرأ عن أبطال الإسلام، وأعجب كثيرا بكتاب عودة الروح لتوفيق الحكيم، وطبائع الاستبداد للكواكبي، وكتب مقالا عن فولتير رجل الحرية، وقام بتمثيل دور قيصر في مسرحية «يوليوس قيصر».

وعندما صرح صمويل هور وزير خارجية بريطانيا عام 1935م برفض بلاده عودة الحياة الدستورية لمصر اندلعت مظاهرات الطلبة، وأصيب جمال خلالها بجروح في جبينه سببتها رصاصة لم تنفذ إلى الرأس ونشر اسمه في اليوم التالي في جريدة الجهاد ضمن الجرحى.

وبسبب نشاطه السياسي كان ناظر المدرسة يرفض أداءه الامتحان، جاءت درجاته في البكالوريا ضعيفة مثلا (22 من 40) في العربى و(21.5 من 40) في التاريخ و(8.5 من 20) في العلوم وكان ترتيبه 889 في قائمة الناجحين على مستوى القطر، وكان عدد الطلاب حوالى ألف طالب.

تقدم جمال للالتحاق بالكلية الحربية ودار بينه وبين رئيس لجنة كشف الهيئة الحوار التالي:

- اسمك إيه..؟ جمال عبد الناصر حسين.
- أبوك بيشتغل إيه..؟ موظف بمصلحة البريد.
- موظف كبير..؟ لا.. موظف بسيط.
- بلدكم إيه..؟ بني مر.. أسيوط.
- يعني فلاحين..؟ أيوه.
- فيه حد من عيلتكم كان ضابط جيش..؟ لا.
- أمال أنت ليه عايز تبقى ضابط..؟ علشان أبذل دمي فداء الوطن.
- عندكم أملاك..؟ إحنا ناس كادحين.
- فيه حد اتكلم علشانك..؟ واسطة يعني..؟ أنا واسطتى ربنا.

- إنت اشتركت في مظاهرات سنة 1935م..؟ أيوه.

- كده.. طيب اتفضل.

وخرج جمال وسرعان ما علم أنه سقط في كشف الهيئة، لأنه - كما يقول الكاتب فوشيه- فلاح من بني مر، وابن موظف بسيط لا يملك أملاكا، كما أنهم لا يريدو ن ثائرًا.

والتحق عبد الناصر بكلية الحقوق جامعة القاهرة لمدة 6 شهور وكان من الممكن أن يستسلم لهذه الضربة، ولكن عندما أعلنت وزارة الحربية عن حاجتها لدفعة ثانية لتقوية الجيش المصري حليف بريطانيا بعد معاهدة 1936م، استجمع عبد الناصر شجاعته وذهب لمقابلة اللواء إبراهيم خيري باشا وكيل وزارة الحربية، وسأله هل تقبل الكلية الطلاب طبقا لقواعد عامة تسري على الجميع..؟ أم أنها لا تقبل إلا أصحاب الواسطة..؟

فسأله الباشا: لماذا هذا السؤال..؟ أجاب: نجحت في الكشف الطبي ولكن كشف الهيئة في حاجة إلى واسطة وليس أمامي إلا العودة لكلية الحقوق، فقال الباشا بعد أن رمقه بدهشة وإعجاب: تقدم للكلية، وتقدم عبد الناصر وكان إبراهيم خيري باشا رئيس اللجنة فأمر بقبوله.

لكن السؤال هل يستطيع أي شخص في ظروف عبد الناصر الآن الالتحاق بكلية الشرطة مثلا..؟ وهل يستطيع أن يلتقي وكيل وزارة الحربية يلتمس منه الواسطة..؟ إذا كانت الإجابة على السؤالين لا، فلماذا قامت الثورة إذن..؟

ولماذا تقوم الثورات عندنا من أجل إصلاح الأوضاع، فتزيدها سوءا، وقد تصبح البلاد أكثر تخلفا وتطرفا واستبدادا ورجعية..؟

منذ صغره كان جمال عبد الناصر شخصية دقيقة منظمة يظهر ذلك في الخطابات التي كان يرسلها لوالده، فالخطابات واضحة المعاني قليلة العبارة، بالغة العزوبة وتفيض بمشاعر الود والإنسانية والأدب، فهو لا يبدأ أي خطاب لوالده إلا ويقول: بعد تقبيل أياديكم الكريمة، يرسل لأبيه وهو في الكلية الحربية قائلاً: والدي العزيز: بعد تقبيل أياديكم الكريمة أرجو أن تكون متمتعا بالصحة والعافية، أعرفك أني لن أخرج هذا

الأسبوع وأرجو إرسال المصاريف غدا لأن آخر ميعاد كان أمس، وأرجو إرسال فلوس الغسيل، وتكلف عمي بالذهاب إلى البشاري أفندي ويسأله ميعاد التخرج لأني علمت أنه أول مايو.. ولابد من إرسال المصاريف غدًا.

وبعد أن أصبح ضابطا يكتب لأبيه من منقباد والدي العزيز: بعد تقبيل أياديكم الكريمة، أعرفك أنى وصلت أمس منقباد، وقلبي يلهج بالشكر لكم، وقد بقينا أمس بدون شغل.

وقد استلفت سريرا من أحد أصدقائي ومستريح جدا، العفش وصل أمس، وقد أرسلنا اليوم لاستلامه؛ لأن المحطة تبعد عن القشلاق حوالى 3 كيلو، وقد ذهبت أمس لأسيوط لشراء ملابس ألعاب، وأعرفك أن البلد مش كويسة قوي فهي أقل من طنطا، أرجو عند استلام الأشياء المرسلة من المحلة أن ترسل «البقجة» فقط ولا ترسل الكرسي لأني لست في حاجة إليه، أعرفك أن الفلوس التي معي كفاية جدا فلا تكون مشغولا من هذه الجهة، وختامًا أرجو أن تتقبل تحياتي وأشواقي.. ابنكم جمال عبد الناصر.

وفي إحدى الفترات حدثت جفوة بين أسرته وبين عمه خليل، وقام عبد الناصر بزيارة عمه واكتشف سوء حالته وكتب لأبيه: والدي العزيز: أهديك سلامي وأشواقي وأقبل أياديك الكريمة، وأرجو أن تكون بخير، عدت من دمنهور وقد صفيت كل شيء من جهة العم، والحقيقة تألمت جدا فهو لا يقوم الآن بأي عمل بعد ترك العزبة الأخيرة، وقد ظهر لي أن الأحوال خلاف ما كنت أعتقد من الناحية المالية، فالحالة مختلفة جدا عن الأيام الماضية، والعم يكافح في كل مكان حتى يحصل على أي مبلغ مهما كان بسيطا حتى يساعدهم على المعيشة، وقد تأثر جدا لذهابي لزيارته فجأة وكان سروره عظيما، وكان يقول إنه انزوى لما وجدنا جميعا انفضينا من حوله عند العسر.

في حرب فلسطين كان عبد الناصر يسجل يومياته، يكتب كل شيء حتى حديثه مع الوالد تليفونيا أو مع زوجته تحية، وميعاد الاتصال وما دار في المكالمة مثلا، تحية تكرر السؤال دائما عن ميعاد العودة الذي لا يعلمه إلا الله.

ويوم الخميس 28 أكتوبر 1948م يكتب حلقت طائرات وألقت منشورات تطلب

منا التسليم، وتشرح موقفنا جيدا بأسماء الوحدات قابلناه بالسخرية رغم أننا محاصرين من يوم 16 أكتوبر، وبالرغم من طلبنا تعيينات وذخيرة بواسطة الطيران، وبالرغم أن طلباتنا لم تجاب، ولم يلتفت إليها فسنقاوم إلى آخر رجل.

لقد فقدنا الإيمان في قيادة الجيش وقيادة البلد، هؤلاء المضللون المحتلون ماذا عملوا بعد ان دخلنا الحرب لا شيء، لم تصل أي إمدادات، الأسلحة التي دخلنا بها هي هي، إن اليهود لأفضل آلاف المرات، بعد أن كانوا يدافعون عن أنفسهم ببنادق الرش، أصبحوا قوة كبرى بها طيران ودبابات ومشاة، مجهزة بالهاون ومعها مدفعية ثقيلة.

عندما كان اليهود محاصرون قبل يوم 16 الجاري، كانت طائراتهم في الجو باستمرار لتموينهم.. أين سلاحنا الجوي..؟ لقد اختفى، وكان صمود عبد الناصر ورجاله لمدة شهرين في حصار الفالوجا آية من آيات البطولة استحقوا عليها أنواط الشجاعة بعد عودتهم لمصر.

وحصل عبد الناصر على نيشان النجمة العسكرية من الملك فاروق الذي لم ينس أن يضع جمال وزملاءه تحت المراقبة، بعد توقيع الهدنة مع إسرائيل في فبراير 1949م، وحدث أن التقى الصاغ كمال الدين حسين بصديقه جمال عبد الناصر في معسكر العريش، وروى له الكلمات الأخيرة التي تكلم بها البطل أحمد عبدالعزيز، اسمع يا كمال، ميدان الجهاد الحقيقي ليس هنا، إنما هو في مصر فهناك ميدان الجهاد الأكبر.

بدأ عبد الناصر في تشكيل تنظيم الضباط الأحرار وفي الجلسة الأولى يقول خالد محيي الدين في مذكراته (الآن أتكلم): ومنذ أن احتوتنا غرفة الصالون في بيت عبد الناصر في كوبرى القبة، تولى جمال القيادة دون عناء ودون قرار منه أو منا.. كنا خمسة موزعين على أسلحة مختلفة عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرءوف مشاة، وكمال الدين حسين مدفعية، ومحسن إبراهيم طيران، وخالد محيى الدين فرسان، وأكد عبد الناصر أن عبد الحكيم عامر معنا وإن لم يحضر وقال إنه لا يخفى عنه شيئاً.

وفي الأوراق الخاصة يقول عبد الناصر إنه وضع خطة التنظيم السري للضباط الأحرار في صورة هرم متسلسل من الخلايا، لا أحد في خلية يعرف أحدا في خلية أخرى، ضمانا وأمنا، وتوالت منشورات الضباط الأحرار، التي كانت تطبع على مكنة «زويتو»

قديمة في بيت البكباشي حمدي عبيد الذي كان بعيدا تماما عن السياسة، حتى جاءت ليلة الثورة ووضع زكريا محيي الدين خطتها وعرضها على عبد الناصر الذي عدل فيها ووافق عليها.

وتكشف الأوراق الخاصة التي أعدتها دكتورة هدى عبد الناصر أن ضابطا من المخابرات وكان عضوا بتنظيم الضباط الأحرار، جاء إلى بيت عبد الناصر ليلة ثورة 23 يوليو حوالي الساعة العاشرة مساء وحذره بأن القصر تسرب إليه نبأ الثورة، وأنه قد تم الاتصال برئيس أركان حرب الجيش الذي دعا إلى عقد اجتماع عاجل في مقر قيادة الجيش الساعة الحادية عشرة مساء، لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإجهاض الثورة، وأضاف الضابط: لابد أن يلغى كل شيء، فرد عليه عبد الناصر لن نستطيع ذلك أبدا، إن العجلة دارت ولن يستطيع أي إنسان أن يوقفها..!

وإن الأمر الذي أصدره قائد الجيش بجمع كبار القادة في مبنى القيادة يعطينا فرصة ذهبية لاعتقالهم كلهم مرة واحدة، وتحركت مع عبد الحكيم عامر لنجمع بعض القوات من ثكنات العباسية، لكن البوليس الحربي أغلق الثكنات وفي سلاح الفرسان نفس الشيء، وبدا للحظات أن خطتنا في خطر، وقلنا لنتجه إلى ثكنات ألماظة كحل أخير، وفي الطريق التقينا طابورا من الجنود قادمين من تحت الظلام وألقوا القبض علينا..!

ويقول عبد الناصر طبقا لفوشيه: كانت هذه أحرج لحظة في حياتي، اعتقدت أن الخطة أخفقت تماما، لكنني سرعان ما سمعت البكباشي يوسف صديق يقول إنه تحرك قبل الميعاد بساعة فانقذ الثورة، و تقدم وهاجم رئاسة الأركان وألقى القبض على كل من بداخله بعد معركة استمرت 40 دقيقة.

كان عبد الناصر مخططا عظيما وداهية، يختار الرجل المناسب للدور المناسب، فإذا تجاوز هذا الدور أزاحه من الطريق، وكان أول صدام مع علي ماهر رئيس الوزراء الذي رفض قانون الإصلاح الزراعي، فتمت إقالته لينفذ قانون الإصلاح الزراعي بعد 47 يوما فقط من إقامة الثورة.

وبعدها لم يحتمل شعبية الرئيس نجيب الطاغية وربما أحس بأنها ستجرف كل آماله وطموحه في القيادة، فدبر له مؤامرة، واعتقله في فيلا زينب الوكيل بالمرج، وأصبح

الرئيس نجيب عن حق الرجل الذي تحالفت عليه فضائله وعيوبه، على قول الراحل فتحي رضوان.

بعدها انفتح الطريق أمام عبد الناصر ليكون الرجل الأول ونجح في أن يقود مفاوضات جلاء الإنجليز عن مصر، وأن يرفع العلم المصري وينزل العلم الإنجليزي عن بورسعيد، لتصبح مصر حرة بعد 72 عاما من الاحتلال الإنجليزي في 18 يونيو 1956م.

كان عبد الناصر عن حق أبًا للفقراء يعيش حياة بسيطة في المأكل والمسكن والحياة وظل هكذا حتى آخر يوم في حياته، يقول الدكتور عبدالمنعم القيسوني أصغر وزير مالية في تاريخ مصر، حدث أن انتقل جمال بعائلته إلى قصر الطاهرة لإجراء الإصلاحات في بيته القديم، ولكن عبد الناصر لم يطق أن يبقى في القصر أسابيع قليلة حتى تنتهي الإصلاحات، وقال لنا في اجتماع مجلس الوزراء ذات مساء: لقد قررت أن أعود إلى بيتي القديم قبل انتهاء الإصلاحات..!

إن ابنائي عندما يكبرون سوف يعملون في وظائف الدولة، ويمارسون العمل المعتاد للموظف بالأجر المعتاد، فلا جاه ينتظرهم، غير الذي يصنعونه بأيديهم وكفاحهم، إنني عائد بهم إلى بيتهم قبل أن يألفوا حياة القصور، وعاد للبيت القديم وعلى اعتابه مازالت آثار الحصى والطوب وبقايا الأسمنت والجير.

تزوج عبد الناصر من تحية كاظم بعد فترة خطوبة خمسة شهور ونصف الشهر، كان خلالها يصطحبها إلى السينما أو المسرح وتكون معهما شقيقتها وزوجها، وكانت شقة الزواج من خمس حجرات وصالة، هذا ما ترويه السيدة تحية عبد الناصر في كتابها «ذكريات معه» تقول: كان عبد الناصر منظما في كل شيء لا يحب أن يساعده أحد في لبسه، وعند رجوعه للمنزل يخلع البدلة ويعلقها بنفسه على الشماعة، لم يكن في بيتنا تليفون.

وكل شيء في البيت كان محظورا ولا يبعث على الاطمئنان، وكنت أعرف ذلك ولكني لم أفهم الغاية ولم أجد إلا الحرص والكتمان، لم ينقطع وجود الأسلحة في البيت، يوم أو يومان وتختفي وأستريح ثم يصلنا غيرها، ليلتين قبل الثورة لم ينم، وظل بملابسه

العادية جالسا في حجرة السفرة على الترابيزة يشتغل.

ويوم الثورة قال لشقيقه الليثي: إنه ذاهب إلى مهمة خطيرة، فإذا رأيتم الجيش نازلا والعربات فاعرفوا أني نجحت، وإذا لم تروا شيئا اسألوا عني غدا، واعرفوا أنا فين، في الساعة السادسة والنصف، جاء ثروت عكاشة وهنأني قائلا: نجح الانقلاب هكذا تقول تحية، فقلت: أين جمال..؟ فقال في القيادة العامة، واسمعي بيان الساعة السابعة، وسمعنا البيان من السادات، وبعد أسبوع من قيام الثورة دخل التليفون بيتنا.

في أحداث 1954م ومؤامرة سلاح الفرسان، طلب مني أن أذهب وأبيت عند شقيقتي في الجيزة خوفا من تفجير المنزل، وحضرت خطابه في تأميم قناة السويس وقال لي: لم يكن يعلم بالقرار إلا اثنان من الوزراء، وكنت بجانبه عندما جاء تليفون يخبره بانفصال الوحدة مع سوريا.

أول سفر لي معه كان إلى يوغوسلافيا بدعوة من الرئيس تيتو، وكان معنا محمود فوزي وهيكل وزوجتاهما.

بينما كنا نحتفل بعيد ميلاد أخي عبد الحميد الخامس، تحكي هدى عبد الناصر، فوجئنا بمن يدعونا لدخول المنزل، والبعد عن إحداث أي صوت، بسبب أن والدي لديه ضيوف، وأنه يعمل في مكتبه، لم أكن أدري وأنا طفلة أن القوات الإسرائيلية بدأت هجوما شاملا ضد مصر على خطوط الهدنة يوم الإثنين 29 أكتوبر 1956م.

والغريب أن سبب هذه الحرب لم يكن له علاقة بإسرائيل التي أشعلتها، كان عبد الناصر قبل الحرب بشهور يبحث عن تمويل بـ 200 مليون جنيه لبناء السد العالي، ووجد تشجيعا من الولايات المتحدة والبنك الدولي وبريطانيا التي عرضت أن تسهم بـ 16 مليون دولار (5 ملايين جنيه مصرى في ذلك الوقت)، لكنه فوجئ بثلاثتهم ينسحبون من تمويل المشروع.

كان عبد الناصر عائدا من مؤتمر في يوجوسلافيا حضره تيتو ونهرو الذي كان مصاحبا له في رحلة العودة لمصر، وعرف في المطار بقرار أمريكا سحب التمويل وتبعه قرار بريطانيا ثم البنك الدولي.

يقول عبد الناصر في أوراقه الخاصة: قدرنا أننا نستطيع أن نأخذ من قناة السويس 60 مليون جنيه - دخل قناة السويس في ذلك الوقت- كنا نأخذ منهم مليون جنيه فقط ويذهب 59 مليون جنيه للشركة الإنجليزية والفرنسية، وعلى هذا الأساس قررنا أن يكون ردنا على سحب تمويل السد العالي، تأميم قناة السويس.

وفي خطاب يوم 26 يوليو 1956م فجر عبد الناصر المفاجأة بكلمته الشهيرة «تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، شركة مساهمة مصرية وينقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات...».

وقامت الدنيا ولم تقعد حتى وصلت للعدوان الثلاثي الظالم ضد مصر من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وقد بدأت إسرائيل العدوان ثم جاء أغرب إنذار من بريطانيا وفرنسا يطالب مصر بتسليم مدن القناة الإسماعيلية وبورسعيد والسويس خلال 12 ساعة وإلا سيتم احتلالها بالقوة..!

ورفض عبد الناصر الإنذار بقوة وصلابة كعادته وسافر سرا إلى بورسعيد ليكون على خط النار ويرفع معنويات جنوده، وأدار المعركة سياسيا باقتدار، ساعده أن اللحظة كانت تؤذن بغروب إمبراطوريتين (بريطانيا وفرنسا) وشروق إمبراطوريتين مكانهما (أمريكا والاتحاد السوفيتي)، وفي إطار السباق على النفوذ في المنطقة اضطرت أمريكا إلى أن تقدم الوجه الطيب والوقوف بجانب مصر.

وكانت الحرب مأزقا للجميع بمن فيهم الرئيس الأمريكى أيزنهاور الذي وجد نفسه ضد حليفيه - بريطانيا وفرنسا- وقريبا من عدوه السوفيتي، فرفض الحرب ودعا لانسحاب القوات المعتدية.

كانت الحرب عدوانا سافرا على مصر وسيادتها، ولعل ما قاله أنتوني ناتنج وزير الخارجية البريطانية في الندوة التي عقدت بالقاهرة بمناسبة مرور 30 عاما على حرب السويس ما يكشف الصورة بحق.

يقول: منذ أول لقاء بين عبد الناصر وأنتوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا لم تكن العلاقة جيدة، أحس عبد الناصر بأن إيدن عامله بعجرفة، وينظر إليه كضابط صغير جعلت منه الصدفة قائدا لمصر، كان إيدن شديد الخيلاء والتيه بنفسه، وغضب من عبد الناصر

بسبب صفقة الأسلحة التشيكية وهجومه على حلف بغداد، لكنه رغم ذلك واصل على مضض تأييده فكرة تمويل السد العالي ليحول دون قيام الروس بمساعدة مصر في بناء السد.

ويضيف ناتنج صاحب كتاب حرب السويس لا نهاية للدرس..! وعندما تم طرد الجنرال الإنجليزي جلوب من رئاسة أركان الجيش الأردني غضب غضبا شديدا، رفض كل التفسيرات العقلانية لطرد هذا الجنرال العجوز ولم يكن في ذهنه إلا أن عبد الناصر هو الذي فعل هذا..! ومنذ تلك اللحظة لم تعد الدنيا تسع الاثنين معا: عبد الناصر وأيدن..!

وأعلن حربه على عبد الناصر، لكنه ظل عاجزا مدة 5 شهور حتى حل شهر يوليو 1956م، وقام دالاس وزير خارجية أمريكا بإعلان سحب عرض تمويل السد العالي، فأيده على الفور، وبعد سبعة أيام أعلن عبد الناصر تأميم القناة فظن إيدن أن الفرصة التي كان يبحث عنها جاءته..!

وأعد خطة عسكرية مع فرنسا لمهاجمة مصر وكان جى موليه رئيس وزراء فرنسا مقتنعا تماما مثل أيدن بأن كل متاعبه في العالم العربي سببها عبد الناصر الذي أشعل ثورة الجزائر منذ عامين.

ويضيف ناتنج الذي استقال اعتراضا على هذه الحرب: تم الاتفاق مع إسرائيل على أن تبدأ الحرب، ولكن بن جوريون أصر على أن تمثيل دور الذريعة لتبرير التدخل البريطاني الفرنسي لابد أن يكون مقابل تجريد عبد الناصر من قوته الجوية، وأن يتم ذلك بمجرد أن تجتاز القوات الإسرائيلية حدود مصر، وبعد مفاوضات تم الاتفاق على أن يتم ذلك بعد 48 ساعة من الحرب، وهكذا وفي مساء 31 أكتوبر قامت قاذفات القنابل البريطانية بضرب القواعد الجوية الأربع الرئيسية في مصر، ولما كنت فشلت دون حدوث هذه المأساة كان عليّ أن أستقيل.

وبعد الإنذار السوفيتى وضغط التهديدات الأمريكية، أجبرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب، وأيدن الذي كان يخطط لمجد زاهر ونصر عسكري ساحق، اضطر للاستقالة بعد شهرين، وانزوى محطما يواجه نهاية مأساوية لرجل حاول أن

يلعب دورا لا يناسبه.

وخرج عبد الناصر من حرب السويس بطلا وزعيما للعالم الثالث بعد أن أنهى العصر الإمبراطوري لكل من إنجلترا وفرنسا وتحولت كلتاهما إلى دولة صناعية وتجارية، على قول هيكل في الندوة الدولية نفسها عن حرب السويس، كما غيرت هذه المعركة من وسائل السيطرة على اقتصادات الدول الغنية، فأصبح احتلال الموارد والثروات أهم من احتلال المواقع عن طريق الشركات العابرة للقارات والبنوك.

بعد انسحاب بريطانيا وفرنسا عادت أمريكا إلى موقفها القديم ضد عبد الناصر، وراحت تنفذ خطتها ضده بالضغط الاقتصادي والتجويع، فرفضت أن تبيع القمح لمصر بعد أن اتفقت عليه مسبقا بالنقد المصري، فاضطرت القاهرة كما روى لي علي نجم محافظ البنك المركزى الأسبق إلى أن تبيع 15 طنا من أرصدتها الذهبية لتمويل شراء القمح، وقام وعمره 34 عاما فقط ببيع هذا الكم الضخم من الذهب إلى أحد بنوك سويسرا.

كما عملت أمريكا على أخذه من العالم العربي فأوقعت بينه وبين السعودية، ثم أخذت منه سوريا، وعزلته لتضربه بعد ذلك وحده في 1967م، وكانت النكسة التي لا يمكن إرجاعها إلى وجود مؤامرة خارجية فقط، فالمؤامرة موجودة دائما، ولكن لابد أن يكون النظام في الداخل من الضعف والخلل ليسمح بالهزيمة أن تمر والمؤامرة أن تنجح.

يتشابه عبد الناصر ومحمد علي في أشياء كثيرة، ولكن الخلاف الجوهري بينهما أن محمد علي بنى مصر أولا جيشا واقتصادا وتعليما، ثم خرج يقول للعالم إن مصر دولة قوية تغزو هنا وتحارب هناك، بينما عبد الناصر خرج يغزو هنا ويحارب هناك قبل أن تكتمل مشروعاته الصناعية وخططه لنهوض الدولة، وكان ضعف جيشه تحت قيادة المشير عامر شيئا لا يخفى على أحد، ودفعت مصر كلها ثمن سكوت عبد الناصر على القيادة غير الكفء للمشير عامر، وتلك سقطة كبرى لرجل مثل عبد الناصر لا يغفرها اعترافه الأدبي بالمسئولية عن الهزيمة، فقد كانت كل الدلائل تشير إلى وقوعها.

يوم 3 يونيو اجتمع الرئيس عبد الناصر مع قادة القوات المسلحة وقال لهم

بالتحديد: إن يوم 5 أو 6 يونيو هو موعد الهجوم الإسرائيلي علينا، وقال الفريق عزت سليمان قائد القوات البحرية: لا أستطيع تنفيذ كل المهام لأن قواتى ليست قادرة بدرجة كافية، وجزء كبير منها يتم إصلاحه، وقال الفريق صدقي محمود قائد القوات الجوية: أوافق على الحرب بشرط أن نبدأ الضربة الجوية الأولى، فقال له عبد الناصر: يا صدقي هل تفضل أن نبدأ الضربة الأولى ونحارب إسرائيل وأمريكا أم نتلقى الضربة الأولى ونحارب إسرائيل فقط، فرد عليه صدقي: لكن هذا سوف يدمرنا.

هذا ما رواه لي اللواء مصطفى الحناوي قائد القوات الجوية الأسبق وأحد ثلاثة كلفهم الرئيس عبد الناصر بلجنة تقصي حقائق أسباب هزيمة 67، والاطلاع على جميع المحاضر بين الرئيس عبد الناصر وقادة القوات المسلحة.

وأضاف أنه من المفارقات الغريبة أن يقوم المشير عامر مصطحبا قائد القوات الجوية يوم 5 يونيو في جولة لتفقد القوات المسلحة، وفي أثناء طيرانهما في الجو بدأت الحرب، وشاهدا حرائقها، وكانت دفاعاتنا الجوية في حالة سكون حتى تعود طائرة المشير.

فأحداث 1967م يصعب على أي مخرج سينمائي أن يتخيلها، على حد قول اللواء الحناوي، لكنه اكتشف أن عبد الناصر لم تكن له سلطة على القوات المسلحة، ولم يكن في مقدوره أن يقوم بنقل عسكري دون موافقة عامر.

كانت الهزيمة أكبر من أي كلام أو تبريرات، وكان عبد الناصر ذكيا شجاعا عندما خرج يعلن مسئوليته الكاملة عما حدث، وزلزلت المفاجأة الشعب المصري، فلأول مرة يرى قائدا أو رئيسا في لحظة ضعف وانكسار وهو يعتذر ويكاد يبكي تأثرا، فما بالك لو كان هذا الزعيم شامخا قويا جبارا كعبد الناصر، لابد أن يكون رد فعل الشعب أشد مما يتخيل أحد، وبالفعل خرجت الجماهير إلى الشوارع في مصر والعالم العربي تطالب عبد الناصر بالبقاء.

وحتى عندما ذهب عبد الناصر لقمة الخرطوم في أغسطس 1967م استقبله السودانيون بشكل أسطوري، وبمجرد أن هبطت طائرته المطار اقتحم السودانيون كل الحواجز، وتخطوا رجال الأمن وهم يهتفون بحياة عبد الناصر والثأر من إسرائيل، كما

يذكر محمود رياض وزير الخارجية الأسبق في مذكراته، كان رياض يستقل سيارته خلف الرئيس عبد الناصر عندما همس في أذنه أحد الوزراء السودانيين: إن الخرطوم لم تشهد في تاريخها مثل هذا الطوفان من الناس حول زعيم لم ينحن للهزيمة.

الاستقبال غير المسبوق جعل مجلة النيوزويك الأمريكية تضع صورة عبد الناصر على الغلاف وتقول: أول مرة يتم استقبال قائد مهزوم استقبال المنتصرين، فعبد الناصر وتلك أسطورته التي تتحقق دائما، فقد خرج من الهزيمة أقوى حتى لو بدا كل شيء غير ذلك.

كانت الأزمة بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية، أو ما عرف بأيلول الأسود، من أكبر الأزمات التي واجهت عبد الناصر بعد النكسة، فبذل مجهودا كبيرا حتى اجتمعت القمة العربية في القاهرة للخروج بحل لهذه الكارثة، وبالفعل كان سعيدا بالوصول إلى اتفاق تم التوقيع عليه مساء 27 سبتمبر 1970م، ولكنه بعد وداع الرؤساء والملوك العرب شعر بتعب شديد، خاصة وهو يودع أمير الكويت آخر المغادرين.

عندما وصل عبد الناصر المنزل حضر بسرعة طبيبه الخاص الدكتور الصاوي حبيب الذي لاحظ تزايدا شديدا في سرعة ضربات القلب وانخفاضا في ضغط الدم، فقام بعمل رسم للقلب واكتشف وجود جلطة جديدة في الشريان التاجي.

كان عبد الناصر قد فتح الراديو ليستمع لنشرة الخامسة ثم أغلقه، فقال له الدكتور الصاوي: يجب أن تستريح، لا داعي لأي مجهود الآن، فرد عبد الناصر في هدوء: لا يا صاوي.. الحمد لله.. أنا دلوقت استريحت..! ومال برأسه للجانب الأيمن فجأة.

وتحسس الدكتور الصاوي النبض فوجده توقف، فقام بعمل تنفس صناعي وتدليك خارجي للقلب لمدة ثلث ساعة، لكن دون جدوى، فقد مات عبد الناصر، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع يوم 28 سبتمبر 1970م.

وجاءت جنازته التي شيعت بعد ثلاثة أيام من الوفاة شيئا أسطوريا، احتشد لها ما يزيد على أربعة ملايين لإلقاء نظرة الوداع، وبلغ من شدة الزحام في الشوارع أن أعمدة إنارة تحطمت جراء التدافع، وبالموت «صحت» أسطورته مرة أخرى.

كان موت عبد الناصر وعمره 52 عاما فقط صدمة في مصر والعالم جعلت شوان لاي

الزعيم الصيني يقول لأول وفد مصرى يزور بكين بعد الوفاة: لماذا تركتم عبد الناصر يموت..؟ وفوجئ أعضاء الوفد بالسؤال، وبعد فترة حيرة قالوا: هذه مشيئة الله..! فقال لهم يجب ألا نحمل الله مسئولية ما نفعل، لابد من سبب، لقد مات شابا..! إنني الآن في الثانية والسبعين ولا أزال أعمل وفي صحة جيدة.. إنني لا أستطيع أن أتصور كيف مات، كيف سمحتم له بأن يموت..؟

وأصدرت مجلة التايم الأمريكية عددا خاصا «ناصر: الأمل والتغيير» قالت فيه: ظل العالم العربي ألف عام يبحث عن بطل يعيد مجد خليفة بغداد وأيام صلاح الدين، وجاء جمال ليلعب هذا الدور فأطاح بالملكية الفاسدة والإقطاع وحقق الرفاهية لشعبه، وتعلقت الآمال بابن موظف البريد الصغير الذي قضى على الباشوات بعد أن عاشوا يمتصون دماء الفلاحين، بدأ معركة التصنيع وخاض كفاحا مريرا من أجل ذلك، وخلق في مصر والعالم العربى كله نوعا من الكرامة وتأكيد الذات؛ لذا ترك بعد رحيله مائة مليون عربى يتامى.

أما توفيق الحكيم الذي كتب «في عودة الوعي» أنه ظل 18 عاما - فترة حكم عبد الناصر- غائبا عن الوعي، فقد طالب بعمل تمثال لعبد الناصر في ميدان التحرير وتبرع بخمسين جنيها لعمل هذا التمثال وكتب في الأهرام اعذرني يا جمال، فالقلم يرتعش في يدي، ليس من عادتي الكتابة والألم يلجم العقل ويذهل الفكر، لن أستطيع الإطالة، لقد دخل الحزن كل بيت تفجعا عليك؛ لأن كل بيت فيه قطعة منك؛ لأن كل فرد قد وضع من قلبه لبنة في صرح بنائك، فأنت لم تكن بالزعيم المصنوع سلفا في مصنع السياسة تربصا للفرق، بل كنت بضعة من جوهر شعبك النفيس، صاغها بيده من دأب وحرب بعد طول معاناة وانتظار على مدى أحقاب، فإن يفقدك اليوم يفقد فيك نفسه وثمرة أمله.

كذلك كان هذا الرشد الذي طاش من الرءوس ساعة سماع نعيك، إنه ليس مجرد حب لشخصك، إنما هو الحرص على معنى يعيش في بلدك، لقد جسد الشعب فيك صورة حريته، لقد جعل منك حيا تمثال الحرية لنا، فاسمح لنا وقد فارقتنا أن نقيم لك تمثالا عاليا في ميدان التحرير، ليشرف على الأجيال ويكون دائما رمز الآمال، وما ينبغى أن يقيم هذا التمثال سلطة أو دولة، لكنه الشعب نفسه، من ماله القليل يقيمه، وأنا من

بين هذا الشعب أتقدم اليوم بما أستطيع تقديمه، هذه الخمسون جنيها أسهم بها افتتاحا لقائمة الاكتتاب، وما أرخص المال إلى جانب فضلك يا جمال، وخاصة في أعياد العلم على الأدباء والعلماء والمفكرين والفنانين، ستبقى دائما في ذاكرتنا وأنت في عليين.

الفجيعة جعلت نزار قبانى يصرخ:

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك وليس غريبا علينا

قتل الصحابة والأنبياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى العشاء

وأما صلاح جاهين فقال:

حتى الرسول مات وأمر الله لابد يكون

بس الفراق صعب واحنا شعب حنون

وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال

والحزم والعزم فيها وحبها المكنون

بعد حرب أكتوبر بدأت ماكينة السادات الإعلامية تهاجم عبد الناصر بشراسة، وفوجئ السادات خلال زيارته الكويت، كما يقول أحمد بهاء الدين في «محاوراتى مع السادات»، إن أحد كبار الكويتيين يتقدم إلى السادات ويقول له على مسمع من الجميع خلال مأدبة العشاء التي كان يحضرها بهاء: يا سيادة الرئيس، نحن لا نقبل أن يقال في مصر إن جمال عبد الناصر اختلس، وأنا شخصيا ويشهد كل الواقفين كنت ضد جمال عبد الناصر، لكن أن يقال أن جمال عبد الناصر اختلس، فهذا عار على الأمة العربية كلها التي كان جمال عبد الناصر شئنا أم أبينا رمزا لها في العالم كله، إننى أطلب من سيادتك أن تقول لنا أي مبلغ ترون أنه في ذمة جمال عبد الناصر للخزانة المصرية، وسوف ندعو الشعب

الكويتي للتبرع به وتسديده عنه، وسيجمع الشعب الكويتي أي مبلغ في أقل من 24 ساعة، وأسقط في يد السادات..!

ولكن البراءة جاءت من المخابرات الأمريكية، التي قالت على لسان رجلها يوجين جوستين: «إن مشكلتنا مع ناصر أنه رجل بلا رذيلة، مما يجعله من الناحية العملية غير قابل للتجريح، فلا نساء ولا خمر ولا مخدرات، ولا يمكن شراؤه أو رشوته أو حتى تهويشه، نحن نكرهه لكننا لا نستطيع أن نفعل تجاهه شيئا لأنه بلا رذيلة».

إن مشكلة عبد الناصر الحقيقية أنهم كلما ظنوا أنه مات يبعث من جديد أشد وأقوى، وليس أدل على ذلك من أن كل ثورة أو مظاهرة للفقراء تكون صورة عبد الناصر فيها كافية جدا للتعبير عن مطالب الجماهير، خاصة في العيش والكرامة.

وهو ما جعل لأسطورته معنى لا يغيب مهما غاب صاحب الأسطورة.

■■ سر بقاء عبد الناصر [1]

(1)



1918 - 1970

- فضّل البامية على الـ«شاتوبريان» والـ«بان كيك» الذي جهزه طباخ هيكل.

- قدمت تحية لزوجها بطاقة تعارف أرسلها أشرف مروان قبل التقدم للزواج من منى فألقى بها عبد الناصر على الأرض.

- هدى عبد الناصر لم تعرف الشيكولاتة المستوردة إلا في بيت عمها الليثى بالإسكندرية.

- عبد الحميد تعجب من تقديم الكيك والجاتوه مع الشاى في بيت السادات قائلا: عندهم عيد ميلاد كل يوم الساعة خامسة.

- مروان لم يجرؤ على الذهاب إلى الموساد إلا بعد رحيل عبد الناصر بثلاثة شهور وإسرائيل تنتج فيلما عن تجسسه تعرضه في يناير القادم لتشويه الاحتفال بمئوية الزعيم الخالد.

في الفصل الثانى من كتابه «عبد الناصر والعالم» يثبت محمد حسنين هيكل أن عبد الناصر الحاكم لم يتناقض مع عبد الناصر المواطن، لم يقل ما لم يفعل، لم يتحدث عن

(1) أستاذ عادل حمودة: جريدة الفجر، بتاريخ 7 سبتمبر 2017م، ص3.

التقشف علنا ويغرق في الترف سرا، لم يرتد قطنا أمام الناس وحريرا بعيدا عنهم، تجانس مع ذاته، وتوحد مع البسطاء، وعاش مثلهم، ولم ينفصل عنهم.

كان عبد الناصر يرى «الغنى الفاحش وسط الفقر المدقع جريمة لا تغتفر»، وكانت الفرصة متاحة أمامه ليندمج في «مجتمع النصف في المائة» الذي امتلك مصر ومن عليها قبل ثورة يوليو حسب ما سمعنا منه مباشرة: «أنا قبل الثورة كنت ضابط كبير في الجيش وعندي عربية وعندي عيلتى وعايش كويس ولا ينقصني شيء».

كان من السهل علينا أن نعيش في مجتمع النصف في المائة ولا نعذب أنفسنا ولا نقول استثمار أو ادخار.

الواحد لو كان عايز يريح نفسه كان انضم لهم وأصبح واحدا منهم ويقول: ماليش دعوة لكن لو كنا كده مكناش عملنا ثورة.

كانوا رحبوا بيا، مجتمع طرى ومريح وسهر ورقص مش، شقى وعذاب.

لكنه أعطى ظهره لذلك المجتمع المنفصل عن غيره، «فلو وجد نفسه وسط الأغنياء أو أوجدته مطامعه بينهم لاختلفت تصرفاته»، وما كان قد سبح في النهر مع التيار العريض للشعب المصري ملزما نفسه بمعايير صارمة لم يحد عنها أو يخرج عليها.

لم يمتلك أرضا أو عقارا فقد آمن بأن: «الملكية هي التجسيد العملى للامتياز الطبقى» لا يجوز للحاكم التمتع به.

يضيف هيكل: «ولم يخطر بباله أن يزيد ثروته ليؤمن حياة أولاده من بعده»، وعندما رحل كان كل ما يملك من حطام الدنيا قرابة أربعة آلاف جنيه، ألف وخمسمائة منها بوليصة تأمين على حياته عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين، ثم حساب في بنك مصر باسمه شخصيا كان رصيده حوالى ألفين وأربعمائة جنيه، وفي المقابل كان مدينا بحوالى ستة وعشرين ألف جنيه بقيت من تكاليف بيتين، بيت لكل واحدة من بناته، تسكن فيه عند زواجها.

بل إن السرير الذي نام عليه كان عهدة أعيدت بعد رحيله إلى الأشغال العسكرية.

وذات يوم حدثه هيكل عن الثورة التي حدثت في الطعام فجعلت منه متعة تتجاوز الفائدة منه، وجاءت بأطباق غير تقليدية غيرت من شهية البشر وضاعفت من قدرتهم

على التذوق، وتعجب عبد الناصر مما سمع قائلا: «إن أفخر الطعام عنده لحم وأرز وخضار»، وماذا يأكل الناس غير ذلك..؟

لكن هيكل أراد أن يثبت له ما يقول فأرسل إليه طباخا من طاقم عنده، يجيد تقديم «فيليه بصوص المشروم» ولحم «شاتوبريان»، والبان كيك المحشو بقطع من سمك السلمون المدخن «سيمون فيميه»، وضعها الطاهى منتشيًا على مائدة الرئيس، لكنه لم يلمس منها قطعة واحدة هو وعائلته، وفضلوا عليها «دقية البامية باللحم الضأن» التي برعت فيها زوجته، ودهش الطباخ مما حدث، وعاد إلى هيكل في اليوم نفسه بمزيد من الابتكار.

وذات يوم عاد عبد الحميد عبد الناصر وهو صبي من بيت صديقه جمال السادات قائلا: «إن عندهم هناك عيد ميلاد كل يوم»، لقد وجد عبد الحميد بجانب الشاى الذي يقدمونه قطع الكيك والبيتي فور والجاتو وسندوتشات لحم بارد وجبن رومي، وهو ما لم يكن أولاد عبد الناصر يعرفونه إلا في أعياد ميلادهم، فهم لم يسمعوا من قبل عن «شاي الساعة الخامسة» الذي يقدم «كومبليت» على الطريقة الإنجليزية.

وكان تعجب هدى عبد الناصر أشد، فعندما كانت تزور عمها الليثي عبد الناصر في الإسكندرية لم تكن لتعرف أنواع «الشيكولاتة» المستوردة التي تجدها هناك وتختلف عن شيكولاتة «كورونا» المصرية التي كانت تشتريها من «كانتين» المدرسة.

ويستطرد هيكل: «وكانت لمسة الترف في نهار عبد الناصر حينما يجلس إلى العمل في مكتبه تسجيلا خافتا لأغنية من أغاني أم كلثوم وكانت لمسة الترف في الليل ذهابه إلى قاعة السينما في بيته يشاهد فيلما أو فيلمين قبل أن يأوى إلى فراشه.

ويوم رحل عبد الناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل في سكرتارية رئاسة الجمهورية «في مكتب جانبي صغير» بمرتب ثلاثين جنيها، وكان زوجها حاتم صادق يعمل في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بمرتب قدره مائة جنيه، وكان قبل ذلك في سكرتارية رئاسة الجمهورية، وقد تخرجا معا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قبل أن تحصل هدى على الدكتوراه في الحياة السياسية قبل ثورة يوليو؛ لتعين في الكلية نفسها بينما قدم حاتم استقالته وانضم إلى عالم البنوك ليصبح رئيسا لمجلس إدارة أكثر من واحد منها في مصر.

ودخل أشرف مروان الرئاسة بينما عينت زوجته منى عبد الناصر في دار المعارف وكانت تتبع مؤسسة الأهرام في ذلك الوقت.

رفض عبد الناصر أن يكلم وزيرا أو رئيس مؤسسة ليوظف إحدى بناته خشية أن يتسابق الكثيرون عليهما وهذه مفسدة لهما في هذه السن.

وفي ذلك الوقت أيضًا كان أبناؤه الثلاثة خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم في سلك الدراسة: أولهم في كلية الهندسة، والثانى في الكلية البحرية والثالث في المدرسة الثانوية.

وعندما سعى أشرف مروان لطلب يد منى عبد الناصر أرسل بطاقة شخصية باسمه ووظيفته البسيطة في معامل القوات المسلحة، لكن ما أن قرأ عبد الناصر الاسم حتى ألقى بالبطاقة على الأرض، وعندما راجعته زوجته فيما فعل أبدى من الأسباب ما برر تصرفه، على إن ضعف الأب تجاه الابنة جعله يستسلم في النهاية، وإن سعى في كثير من الأحيان لتطليقها، وفيما بعد ثبتت صحة بصيرته.

فما أن رحل عبد الناصر عن الدنيا حتى سعى أشرف مروان في ديسمبر 1970م إلى سفارة إسرائيل في لندن عارضًا على أجهزتها الاستخباراتية خدماته، محققا لها معجزة ما كانت تحلم بها.

لم يكن أشرف مروان ليجرؤ على أن يفعل ما فعل وعبد الناصر على قيد الحياة وإلا ضربه بالرصاص على حد تعبير سامي شرف.

لكن إسرائيل خلطت الأوراق بتعمد لتشويه صورة عبد الناصر وفتح ثغرة للنيل منه ميتا بعد أن عجزت عن ذلك حيًا.

كشفت عن تجنيد أشرف مروان عميلاً مميزا في الموساد لم تكن لتتصور أنها يمكن أن تحظى به، وبعد أن استفادت من معلوماته بوصفه «الملاك» الذي أنقذها من ثمن مرتفع كانت ستدفعه في حرب أكتوبر قررت إنتاج فيلم عنه تعمدت أن يعرض في منتصف يناير المقبل للتشويش على الاحتفال بمئوية عبد الناصر.

على إن الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عن الأذهان هي أن أشرف مروان ذهب إلى الموساد بعد رحيل عبد الناصر بثلاثة شهور، في ديسمبر 1970م، وفي اللقاء الأول مع

مسئول مكتب الموساد في لندن قدم إليه محضرًا سريًا لمباحثات عبد الناصر مع القادة السوفييت جرت في ديسمبر 1968م، ومن هنا جاء الخلط أو تعمد الخلط.

والمؤكد أن هناك أخطاء صادمة في تجربة عبد الناصر وصلت إلى ذروتها بهزيمة يونيو 1967م، ولكنه اعترف بها وسعى إلى تصحيحها وإن لم يمهله القدر سنوات إضافية من العمر لتحقيقها.

ولنناقش بحرية تلك الأخطاء في ندوة مفتوحة وصريحة للاستفادة منها، لكن دون أن ننسى انحياز عبد الناصر إلى الغالبية العظمى من المصريين، متجاوزا مجتمع «النصف في المائة» الذي عاد للظهور من جديد وثبت أركانه منذ سنوات وسنوات وتلاعب بمقدرات البلاد تحت شعارات وطنية ودينية زائفة.

لقد وصف الغرب ما حدث في 23 يوليو 1952م بأنه انقلاب عسكري، ولكن عندما وزع عبد الناصر أراضي الملك 1200 فدان من أجود الأراضي الزراعية على الفلاحين، أرسل سفير الولايات المتحدة وبريطانيا إلى حكوماتيهما برقيات سرية تؤكد إن ما جرى في مصر تجاوز مرحلة الانقلاب ليصل إلى نقطة الثورة، فالثورة ليست مجرد حركة بدنية لتغيير السلطة وإنما حركة بدنية لتغيير المجتمع.

ووصف السفير الأمريكى جيفرسون كافري لحظة توزيع الأراضي على المعدمين بأنها لحظة مثيرة ليست للكبار فقط وإنما للفلاحين قبلهم، فالفلاحون الذين أمسكوا بأيديهم عقود الملكية كانوا مذهولين غير مصدقين، ومن شدة دهشتهم عجزوا عن النطق أو التعبير عن مشاعرهم ولو بكلمة واحدة.

وعندما نتأمل ما يجري في الساحة الإقليمية سيكون من السهل علينا إدراك أن المخططات التي تنفذ فيها تشطب ما سعى إليه عبد الناصر من جهد في الاستقلال الوطني بكل أبعاده السياسية والاقتصادية.

إن المجانين والدراويش هم الذين يطالبون بإعادة تجربة عبد الناصر من جديد رغم تغير الظروف على مدى السنوات التي تلت رحيله، لكن العقلاء والوطنيين سيسعون إلى الاستفادة من المبادئ العامة، الانحياز إلى البسطاء وتنمية قدراتهم والارتقاء بهم، واختصار المسافة التي تضاعفت بين الحاكم والمواطن، فهما وجهان لعملة واحدة اسمها الوطن.

▪▪ سر بقاء عبد الناصر [1]

(2)



1918 - 1970

- رفض عبد الناصر رفع سعر السكر والزيت والأرز 3 ملليمات «عشان الناس غلابة».

- جعل مجانية التعليم الباب الرسمى للحراك الاجتماعي للطبقة المتوسطة والفقيرة.

- كان يرتدي البيجامة الكستور وبدلاً من غزل المحلة، ويفصل أحذيته بوسط البلد.

- لم يجد مالاً لشراء حلق ألماظ لابنته منى.

كل رئيس وكل زعيم يحلم بنصر عسكرى، نصر يرفعه إلى عنان السماء ويدفع مواطنيه وشعبه لرفعه على الأعناق حيا أو ميتا، هذا الحلم لم ينته منذ آلاف السنين، فحتى الآن يحلم ويسعى كل رئيس أمريكى بانتصار عسكرى في حرب خارج بلاده، فلا كرامة لرئيس مهزوم والزعيم الذي يخسر حربا عسكريا يخسر حب واحترام شعبه.

إلا هو إلا الزعيم والريس والأب، يظل عبد الناصر هو الاستثناء الذي دخل التاريخ، مات مهزوما عسكريا محبوبا

(1) منال لاشين: جريدة الفجر، العدد (631)، بتاريخ 7 سبتمبر 2017م، ص5.

شعبيا، جنازته دخلت التاريخ بوصفها الأكبر عالميا، صعق خصومه من حجم الجنازة أو بالأحرى حجم الحب والعشق والحزن والضياع الذي شعر به المصريون، لم يفهم خصومه في الغرب أنه انهزم عسكريا.

ولكن بعد أن حقق انتصارا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، كانت هزيمة يونيو 1967م لحظة حزينة مؤلمة، ولكنها كانت مجرد لحظة في عمر شهد بل دشن انتصارات عديدة، عصر أعلى قيمة المواطن الغلبان والطبقة المتوسطة، زعيم حفر اسمه بالنزاهة والبساطة والانحياز المطلق للعدالة والفقراء والطبقة المتوسطة، عصره كان عصرا ذهبيا لهم فقد حصلوا على حقوقهم دون حتى أن يطالبوا بها، وبالطبع دون أن يعايرهم هو أو حكوماته بهذه الحقوق.

هذا رجل لم تعلق بتاريخه أو سيرته العطرة شائعات عن استغلال نفوذ أو فساد، رئيس وزعيم أكبر دولة في المنطقة بنى بيته بقرض من بنك مصر، بعد رحيله حاول خصومه تشويه صورته فلم يجدوا سوى هذه القصة، فحين مات الزعيم قاموا بتحليل المواد الموجودة في معدته فوجدوا بقايا تفاح، أكرر تفاح، قال الخصوم إن التفاح أمريكانى وأن الرئيس ترك شعبه يأكل البرتقال والموز وكان يأكل التفاح، سرعان ما رد المسئولون بالرئاسة ردا رسميا لتوضيح القصة، فالتفاح ليس أمريكانيا ولكنه لبنانى، وقد وصل لمعدة الزعيم لأن الرئيس اللبنانى كان في زيارة لمصر، وأحضر معه هدية للرئيس صندوق تفاح لبنانى، تصوروا أن يكون محور الشائعات عن الزعيم تناوله التفاح.

رغم كل الهجوم والانتقادات والاكاذيب لم يجرؤ أحد على اتهامه في نزاهته وسمعته المالية، فقديس الغلابة بدأ بنفسه وأسرته وحياته ثم عائلته الكبرى مصر، هذا رجل أبى أن يرفع سعر السكر والزيت (3) مليمات.

(1) ميزانية الزعيم

كان عبد الناصر يراجع موازنة الدولة قبل إصدارها بقانون، مثله مثل أى رئيس ولكنه أبدا لن ولم يتصرف مثل أى رئيس، كانت عيناه وقلبه وعقله على الفقراء والطبقة المتوسطة الفقيرة، ويرفض رفضا تاما علاج عجز الموازنة على حساب هذه الطبقات باختصار كان يرفض أن يدفع هؤلاء المواطنين فاتورة الإصلاح الاقتصادي، لم يشعر أو

يتعامل الزعيم مع شعبه على أنهم عبء أو مجرد أرقام عليها أن تحمد ربنا أن الحكومة تساعدهم، أو بالأحرى تعايرهم ليل نهار باللقمة والمياه والكهرباء، بل تعامل عبد الناصر مع كل الخدمات التي تقدمها الحكومة باعتبارها حقا أصيلا للمواطن وليس منحة أو هبة من الحاكم يتخلى عن تقديمها وقتما يشاء.

في إحدى سنوات حكم عبد الناصر اجتمع الريس مع وزير الخزانة «المالية» ورئيس الحكومة لبحث عجز الموازنة، وكان وزير الخزانة قد قام بزيادة سعر الزيت كام مليم لسد عجز الموازنة، ولكن عبد الناصر رفض، وقال له: إلا الزيت الست لما تتزنق بتجيب بطاطس أو باذنجان وتقليهم لأولادها، وأنهى حواره بحسم: ابحثوا عن حاجة تانية إلا الزيت.

ووجدوا حلا آخر وذهبوا به لجمال عبد الناصر، والحل كان زيادة سعر الأرز، ورفض عبد الناصر قائلا: الأرز، لما الناس تتزنق معندهاش غير الارز عشان تأكل، وفي هذا الاجتماع اقترح وزير المالية أن تقوم الحكومة بزيادة سعر السكر، فصاح عبد الناصر: السكر لأ، وأضاف: الفلاح يأكل مش وبصل تحرق قلبه ثم يحبس بكوب شاى بكام ملعقة سكر.

لم يردد عبد الناصر الكلام الفارغ الذي سمعناه كثيرا بعد وفاته، كلام من نوع أن الناس الغلابة تستهلك سكر كثيرًا، أو تضع في الشاى خمس ملاعق سكر، كلام من مسئولين يتجاهلون أن الفقراء لا يعرفون الحلوى والجاتوه أو الفاكهة؛ لذلك يحصلون على احتياجاتهم من السكر عبر الشاى فقط.

الفوارق بين هؤلاء المسئولين وبين الزعيم عبد الناصر كثيرة أهمها أنه لم ولن ينفصل عن الناس العادية، لم ينس أصله، لم يعرف يوما الترف والبذخ، ظل لآخر يوم في حياته يأكل مثل كل الناس، بامية وأرز ولحم، لم يتذوق أو يعشق الأكل الغربى، ولم يكن أكولا، وكانت الجبن القريش وجبته المفضلة.

في متحفه الذي افتتح أخيرا يوجد ملابسه، بيجامات كستور وشبشب عادى وأحذية كان يفصلها، وبدل من مصانع المحلة، كل ما استخدمه عبد الناصر كان من صنع مصر، ومما كانت الأغلبية العظمى من الطبقة المتوسطة تستخدمه في ذلك الزمان، رئيس بدرجة موظف، رفض حياة الأثرياء لم يعقد صدقات معهم، ولذلك خلا عصره من زواج السلطة بالثروة.

(2) أبناء الزعيم

خلافًا لرؤساء ومسئولين جاءوا بعده لم يسع عبد الناصر أن يزوج بناته من أبناء الأثرياء والأسر الغنية، ابنته الكبرى هدى أحبت زميلا لها في الكلية ابن موظف، فزوجها الزعيم لمن أحبت بعد أن اطمأن لأصلة وأخلاقه، ابنته الثانية منى تزوجت أيضًا من ابن أحد الموظفين.

في زواج منى أو الترتيب له حدثت هذه المشكلة، منى تريد من والدها حلق ألماس، وهو يرفض فهو لا يملك المال الكافي لشراء الألماس، ويريد أن يشتري لها حلق ذهب، والبنت مصرة على الماس، وهنا يتدخل الصديق المشير عبد الحكيم عامر لحل الازمة الأسرية، ويشتري لمنى هدية الزواج حلق الماس، رئيس وزعيم أمة ليس لديه المال لشراء حلق مجرد حلق من الماس الحر.

كان عبد الناصر يقضي مع أبنائه وقتا قليلا، وفي أحد الأيام سمع أصغر أبنائه يسخر من الفقراء اللي بيركبوا الأتوبيس، فطلب من أحد الموظفين بالرئاسة أن يصطحب الابن في جولة طويلة بالاتوبيس، أراد الزعيم أن يعلم ابنه أنه مجرد طفل مصري وليس على رأسه ريشة لمجرد أنه ابن رئيس الجمهورية.

هدى أول فرحته كانت طالبة متفوقة، ولكنها لم تحصل على ترتيب يؤهلها لاختيارها معيدة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وعرضوا على عبد الناصر حلا لهذه المشكلة، حلا تصوروا أنه لا يؤذي أحدًا، وكان هذا الحل هو أن تقوم الكلية بتعيين عدد أكبر من المعيدين حتى يتم تعيينها، وبذلك لا يحرم أحدًا ممن سبقوها في الترتيب من فرصة التعيين، ولكن عبد الناصر رفض هذا الحل، وطالب وزير التعليم بمعاملة ابنته مثل كل الطلاب.

وبالفعل لم تعمل هدى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية إلا بعد حصولها على الدكتوراه وكان عبد الناصر قد توفى وترك السلطة والدنيا كلها، وبالمثل فإن ابنه خالد عين معيدا في كلية الهندسة لتفوقه وبعد وفاة أبيه بسنوات.

لم يكن التحاق ابنته منى بالجامعة الأمريكية مجرد اختيار، ولكن منى لم تحصل على مجموع بالثانوية يؤهلها لدخول الجامعات الحكومية، وكان الحل إلحاقها بالجامعة الأمريكية التي لم تكن في ذلك الوقت تشترط مجموعًا كبيرًا.

وحتى الثروة التي أصابت بعض ابنائه بعد ذلك جاءتهم بعد وفاته بسنوات طويلة، منى من خلال عمل زوجها أشرف مروان بالبيزنس، وعبد الحكيم وعبد الحميد عندما كبرا وعملا بالبيزنس أيضًا.

(3) دولة العدل

كان عبد الناصر يواجهه العشرات من المؤامرات، ولكنه لم يتخذ من هذه المؤامرات مبررًا لحرمان المواطنين من حقوقهم سواء في التعليم أو العلاج أو المعاش أو العيش عيشة كريمة، بعد الثورة بنحو شهرين أصدر قانون الإصلاح الزراعي، ووزع على الفلاحين المعدمين الأراضى، وجعل التعليم الجامعي مجانيًا لكل الناس، ولكنه لم يكتف بذلك بل اتاح التعليم للجميع من خلال بناء المدارس والجامعات في كل ربوع مصر.

والمجانية ليست سببا لتدهور التعليم كما يشيع أو يكذب البعض، ولكن السبب في تدهور التعليم هو تجاهل الدولة بعد عبد الناصر لإصلاح التعليم وملاحقة التطورات العالمية ونشر المدارس والجامعات لتقليل الكثافة، وأصدر قانون المعاشات والتأمينات الاجتماعية وقانون العمل، وقد صنفت منظمة العمل الدولي القوانين بوصفها افضل القوانين في العالم لصالح الموظفين والعمال وأصحاب المعاشات، وهي قوانين تم العصف بها واحدًا بعد الآخر بعد رحيله.

لم ينظر عبد الناصر إلى الكهرباء بوصفها نعمة لا يستحق الشعب الفقير أن يتمتع بها، بل حق لكل مواطن فكان قراره ببناء السد العالي لتوفير الكهرباء للمواطنين والمشروعات، وبالمثل صارت المياه النقية حقا للمواطنين، وليست منحة تعايرهم بها الحكومة أو تضن بها عليهم.

وضع عبد الناصر قوانين وقواعد تضمن للمواطنين العلاج في مستشفيات الدولة بكرامة وبمقابل ضئيل، فالعلاج حق لا ينتظر الظروف الموائمة أو الوقت المناسب، لو أراد عبد الناصر أن يحرم الناس من حقوقهم لوجد ألف مبرر ومبرر، الصراعات الخارجية وضرورة بناء الدولة وإقامة المشروعات الاستراتيجية والقومية، ولكنه ومنذ الربع ساعة الأولى من عمر الثورة حزم أمره، وقرر أن يمنح الناس حقوقا حرموا منها لأزمنة طويلة.

(4) عقدة المشروع القومي

على الرغم من إنجازات عبد الناصر الاجتماعية فإنـه لم ينشـغل بـذلك، أو بـالأحرى يكتفي بذلك عن بناء الدولة؛ لأن عبد الناصر أدرك بثقافته وفهمه للتاريخ حقيقـة مهمـة بل حاسمة، فلا يوجد تعارض بين الاهتمـام بالبشـر والاهتمـام بالمشـروعات القوميـة والصناعية التي خلقت ملايين الوظائف للمصريين، فالتشغيل كان من أهـم شـواغل أو أهداف عبد الناصر، ومع ذلك ظل عبد الناصر عقدة لكل من جاءوا بعده.

كان بناء السد العالي مشروعه القومى، من أجلـه واجـه العـالم والقـوى الاسـتعمارية الكبرى بتأميم قناة السويس، وبعد هذه الخطوة التي ثبتت أركانه كزعيم دولي أصبح كل رئيس يبحث عن مشروعه القومي، كل رئيس يحلم بالمجد الـذي نالـه عبـد الناصـر، لم يكن السد العالي أو تأميم القناة سوى درة التاج، فلم يكتف عبد الناصر بتـأميم المصـانع الموجودة بل أضاف إليها أكثر من 300 مشروع صناعي وزراعـي وعمـراني، كـل هـذه المشروعات تصـب في مصـلحة المـواطن مباشـرة سـكنه وطعامـه وتعليمـه وعلاجـه ووظيفة له ولأبنائه.

لم تكن المشـروعات في عصـره اقتصـادية أو اجتماعيـة فقـط، هـو مـن أطلـق أكبـر المشروعات الثقافية معاهد الأوبرا والباليـه والفـن الحـديث، ورعـى الفنـون الشـعبية والسينما، هذا الزعيم لم ينس الفن والثقافة والكتاب وتعاملهم معهـم كرغيـف العـيش، حق لكل مواطن، هذا الزعيم بدأ الحلم النووي، في الحقيقة من الظلم الكتابة في سـطور عن مشروعات عبد الناصر.

ويكفي أن أقول إنه لم ولن يترك مجـالاً لم يطرقـه بمشـروعاته ولا انجازاتـه، ولـذلك أتعب الزعيم جمال عبد الناصر كل من جاءوا بعده، فلا يوجد أرض لم يطرقها ولا مجـال لم يعمل عليه ولا طبقة لم يرعها، صارت عقدة المشروع القومي تطـارد كـل مـن جـاءوا بعده حتى بليت بمصر برئيس خلعه الشعب، رئيس اعتبر أن المترو مشروعًا قوميـا كـان – كما ألمعت سابقًا – رجلاً في أمة وأمة في رجل.

▪▪ الـCIA في سطور



1918 - 1970

قمين بنا أن نسطر هذه السطور العجلى عن وكالة المخابرات الأميركية التي لعبت وما تزل تؤدي دورها المشبوه في إبان فترة حكم جمال عبد الناصر لمصر.. وغيرها من بلدان العالم برمته .

* **CIA** أكبر منتج للمعلومات الاستخباراتية الأمنية من جميع المصادر لتقديمها لصناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.

* تحليلات الـ **CIA** في الخارج تغذي القرارات المدروسة التي يتخذها صناع القرار في مجالي الأمن والدفاع الوطنيين.

* **CIA** لا تشرع السياسات الخارجية ويخدم مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية **DCIA** كرئيس لوكالة الاستخبارات ويقدم تقاريره إلى مدير الاستخبارات الوطنية.

* من مهام مدير وكالة المخابرات جمع المعلومات من خلال المصادر البشرية وغيرها من الوسائل المناسبة، إلا أنه ليس له الحق في استدعاء الآخرين، وتنفيذ القانون من وظائف الأمن الداخلي.

* أنشأت وكالة الاستخبارات الأمريكية بموجب توقيع الرئيس الأمريكي «ترومان» قانون الأمن الوطني في عام 1947م.

* على مدار 70 عامًا، تعاقب على إدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية العديد من المدراء، وجاء على رأس القائمة «سيدني وليام سورز» من 23 ينـاير 1946م إلى 10 يونيو 1947م الذي عينه الرئيس «هاري ترومان».

* قائمة مديري الـ **CIA** ألين دالاس ويلز من 1953م إلى 1961م، وجـورج بـوش الأب من 1976م إلى 1977م، وروبرت جيتس من 1961م إلى 1963م، وليـون بانيتـا 2009م إلى 2011م، وحاليًا مايك بومبيو منذ 23 يناير 2017م.

وتتكون المخابرات المركزية الأمريكية من أربع إدارات هي:

1- الاستخبارات **DI** تعمل على تحليل جميع مصادر الاستخبارات وتصدر التقارير.

2- إدارة الخدمة السرية الوطنية **NCS** وتعتبر الذراع السـرية لوكالـة الاسـتخبارات المركزية وتعمـل عـلى تقيـيم العمليـات السـرية عبـر أجهـزة الاسـتخبارات المركزيـة ومسئولة عن الحصول على المعلومات السرية التي لا يمكن الوصول إليهـا عـن طريـق وسائل أخرى.

3- إدارة الدعم **DS** توفر جميـع أنـواع الـدعم بمـا في ذلـك الاتصـالات وخـدمات المرافـق والإدارة الماليـة وتكنولوجيـا المعلومـات والخـدمات الطبيـة واللوجسـتية والخدمات التكنولوجية والخدمات الطبية.

4- إدارة العلـوم والتكنولوجيـا **T&DS** مهمتهـا الوصـول إلى المعلومـات وجمعهـا واستغلالها لتسهيل تنفيذ مهمة وكالة المخـابرات المركزيـة مـن خـلال تطبيـق حلـول عملية مبتكرة وهندسية وتقنية.

نبذة عن المؤلف

تخرج المستشار محمد مرشدي بركات في كلية الحقوق – جامعة القاهرة – وعين وكيلاً لنيابة قوص، ونيابة نقاده، ثم وكيلاً لنيابة إسنا، فوكيلاً لنيابة مركز الأقصر فمديرًا لنيابتها ونيابة أرمنت.

وعين قاضيًا ثم رئيسًا لمحكمة الأقصر الوطنية، فرئيسًا لمحاكم الغردقة، وسفاجا، والقصير، والزقازيق، وبنها، وطنطا، وشبين الكوم، ومحكمة جنوب القاهرة، فرئيسًا لمحكمة مصر الجديدة عام 1980.

انتدب إبان عمله كرئيس لمحكمة جنوب القاهرة مستشارًا للأمانة العامة لمجلس الوزراء لمراجعة قضايا المفصولين من غير الطريق التأديبي.

ومفتشًا قضائيًا بوزارة العدل.. بيد أنه اعتذر عن هذا المنصب مفضلاً عليه قضاء المنصة.

ومستشارًا بمحكمة الاستئناف العالي ببني سويف، ثم المنيا، فسوهاج، فالسويس، والإسماعيلية، وبورسعيد.

فنائبًا لرئيس محكمة استئناف القاهرة، فرئيسًا للمحكمة بها.

ورحل إلى قطر للعمل في القضاء هناك، ثم عاد منها حيث أسند إليه رئاسة مركز التحكيم الدولي الأفريقي.

***

حاز على جائزة الدولة في التفوق الاجتماعي وهو ينتظم في الصف الثالث الثانوي بمدرسة الفيوم الثانوية، وكانت هذه الجائزة تتيح له الالتحاق بالجامعة دون التقيد

بدرجات المجموع، وكذلك الإعفاء من المصاريف المدرسية مع زميليه المرحوم الدكتور محمود أدهم والأستاذ محمود عارف نائبًا رئيس تحرير جريدة الأخبار.

حصل على العديد من الجوائز الأدبية: أولاها الجائزة الأولى في أول عيد للعلم عام 1959-1960 عن بحث في تحليل شخصية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وطبع بحثه على نفقة الدولة مع الفائزين الأربعة الأُخر، وكرمه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة وسلمه شهادة امتياز ميدالية تقدير وشيك بمبلغ من المال في هذا الاحتفال الذي كان على رأس المحتفى بهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

***

في السنة التالية فاز أيضًا في عيد العلم الذي كان يحضره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في نفس المكان السالف ذكره وسلمه الجوائز الخاصة به عن بحثه في مشكلة تنظيم الأسرة وكان على رأس المحتفى بهم في هذا العيد الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد الذي فاز بجائزة الدولة التقديرية في الأدب.

***

فاز بالجائزة الأولى في بحثه عن (احتكار العلم) وكذلك الجائزة الأولى عن بحثه (23 يوليو ثورة عربية). وسلمه جوائزه الأستاذ الدكتور حسين سعيد وزير التعليم العالي.

***

وكذلك سلمه المرحوم صلاح دسوقي محافظ القاهرة جوائزه في بحثه الذي فاز فيه بالجائزة الأولى عن : (البترول العربي) سلاح ضد الاستعمار الصهيونية.

فاز بالجائزة الأولى من جامعة القاهرة عن بحثه في (مشكلة السكان في مصر) وسلمه الجائزة الأستاذ الدكتور حسين فوزي وكيل جامعة القاهرة وأمر بطبع البحث على نفقة الجامعة.

***

كما نال الجائزة الأولى في القراءة من وزارة التعليم العالي وسلمه جائزته عن هذا البحث الدكتور وزير التعليم العالي.

***

إثر الإعلان عن الراغب في الالتحاق في قسم الدراسات العليا ، كلية الإعلام، وكان مسموحًا لحملة الليسانس والبكالوريوس، ناهيك عن الحاصلين على درجة الماجستير والدكتوراة في الالتحاق بهذه الكلية شريطة اجتياز الاختبارات التحريرية والشفاهية المقررة، قدم أوراقه إليها واجتاز الاختبارات المقررة وجاء ترتيبه متقدمًا على جميع المتقدمين، ورشحه المرحوم الدكتور جمال العطيفي وزير الإعلام الأسبق والكاتب بالأهرام لإتمام دراسته بباريس.. بيد أنه بعد أن التحق بالدراسة عامًا كاملاً، عين بالنيابة العامة فترك الدراسة بكلية الإعلام آسفًا.

***

والأستاذ الكبير حافظ محمود نقيب الصحفيين الذي أرسل إليه خطابًا يشيد فيه بما كتبه عن الدكتور محمد بهي الدين بركات باشا الوصي السابق على عرش مصر ورئيس مجلس النواب المصري من قبل بخصوص كتابه صفحات من التاريخ.

كتب في جميع صحف مصر والمجلات المختلفة، وكانت أولى مقالاته في المنبر الحر بجريدة الأهرام ومن قبلها بجريدة الأخبار.

***

نشر له المرحوم الأستاذ الكبير أحمد الصاوي محمد مقالات مختلفة له في بابه ما قل ودل .

***

وله مقالات عديدة في صحف الأخبار والأهرام والجمهورية والشعب والقاهرة قبل

احتجابها والحرس الوطني والتحرير (قبل احتجابها) وروزاليوسف والمصور وآخر ساعة وجريدة المساء.

***

شارك في العديد من البرامج التليفزيزونية منها قناة دريم – والتليفزيون المصري – وقناة الغد – وقنا تي في – وقناة سي بي سي CBC – وقناة Nil family، وكذلك في الإذاعة المصرية في البرنامج العام .

***

صادق العديد من كتاب مصر على رأسهم عملاق الفكر الأستاذ عباس محمود العقاد الذي أرسل له برقية في إحدى المناسبات قال له فيها:

نرجو للمرشدي ذروة المجد والخلود الأبدي كما أرسل برقية أخرى قال له فيها : أهنئكم نرجو لكم مئات التهنئات بأسعد الأعياد، ونشر له العديد من المراسلات في يومياته بجريدة الأخبار المصرية.

والأساتذة توفيق الحكيم ومحمد ذكي عبد القادر وأحمد بهاء الدين وأحمد الصاوي محمد ويوسف جوهر والشاعر صالح جودت وغيرهم.

متزوج وله ابنان خالد محمد مرشدي بركات وقد حصل على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس – قسم اللغة الإنجليزية – بدرجة جيد جدًا – ثم تحصل على الماجستير من ذات الجامعة ، ثم دبلوم في Arbiration، وكذلك دبلوم من الجامعة الأمريكية، ودبلوم العلوم الإدارية، ويعمل قاضيًا بمجلس الدولة.

وسارة محمد مرشدي بركات وقد حصلت على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس – قسم اللغة الإنجليزية – بتقدير جيد جدًا، ثم تحصلت على الماجستير من ذات الجامعة، وكذلك على دبلومة من الجامعة الأمريكية، وتعمل وكيلاً للنيابة الإدارية.

***

مؤلفات المستشار:

1- بحث عن الرئيس جمال عبد الناصر طبع في كتاب مع آخرين عام 1959 على نفقة وزارة التربية والتعليم في طبعتين (نفذتا) .

2- خواطر قاضٍ دار المعارف – القاهرة .

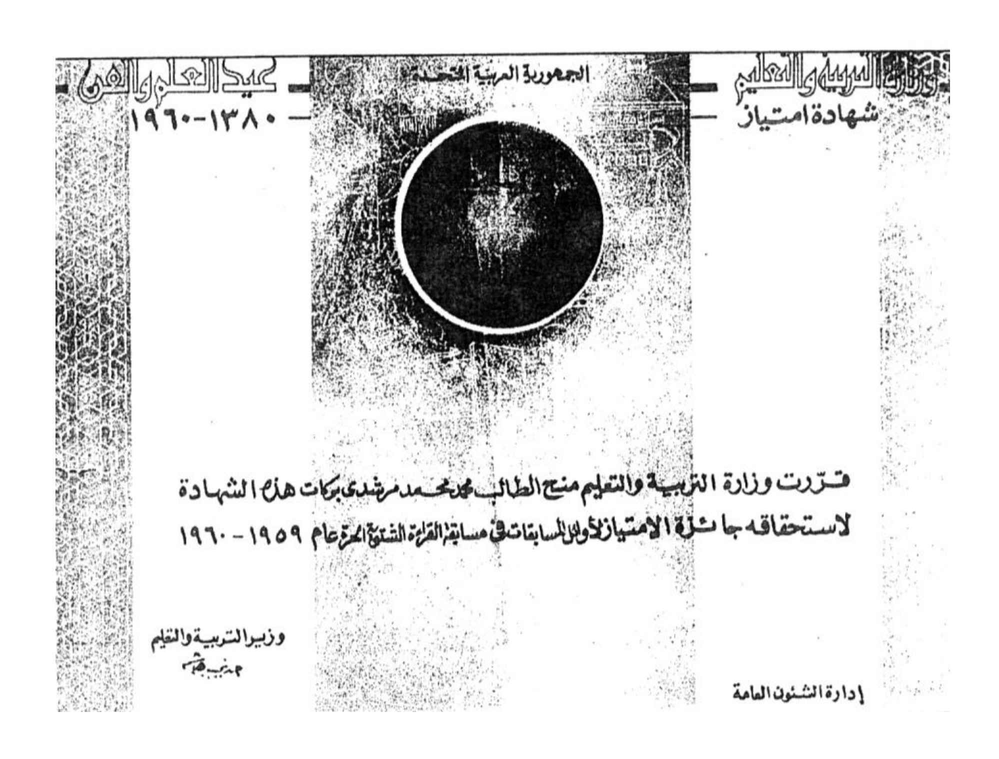
3- هموم مصرية دار المعارف – القاهرة .

4- أنور السادات – سيرة ومسيرة دار المعارف – القاهرة .

5- عبقرية العقاد جزيرة الورد – القاهرة .

6- الواحات المصرية جزيرة الورد – القاهرة.

جوائز الامتياز



وزارة التربية والتعليم — الجمهورية العربية المتحدة — عيد العلم والفن

شهادة امتياز — ١٣٨٠-١٩٦٠

قررت وزارة التربية والتعليم منح الطالب محمد محمد مرشدى بركات هذه الشهادة لاستحقاقه جائزة الامتياز لأوائل المسابقات فى مسابقة القراءة الشتوية الحرة عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠

وزير التربية والتعليم

إدارة الشئون العامة

الدعوات

يتشرف كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

بدعوة السيد محمد محمد مرشدى بركات

لحضور حفل عيد العلم الخامس الذى يقام فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة

يوم الخميس ١٩ نوفمبر ١٩٥٩ وذلك فى تمام الساعة الخامسة مساء.

الدعوة شخصية

الرجا الحضور قبل الموعد بنصف ساعة.

١٢٧٦	W

الرجا التفضل بالرد عند الاعتذار

تليفون ٧٥٤٨٠ ، ٢٠٧٥٢



وزارة التربية والتعليم

شهادة امتياز

عيد العلم والفن

١٣٧٨ ١٩٥٩

قررت وزارة التربية والتعليم منح الطالب محمد محمد مرشدى بركات هذه الشهادة

لاستحقاقه جائزة الامتياز لأول المسابقات فى مسابقة قائد الثورة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩

وزير التربية والتعليم

إدارة الشئون العامة - ١٩٥٩

الجمهورية العربية المتحدة
محافظة القاهرة

يتشرف صلاح دسوقي محافظ القاهرة

بدعوة السيد محمد محمد مرشدي بك

لحضور حفل عيد العلم لمحافظة القاهرة الذى سيقام فى كلية المعلمين

بمنشية البكرى الساعة الخامسة من مساء الأحد الموافق ٢٢ يناير ١٩٦١

تعوق فى ساعة الحضور الى القيادة

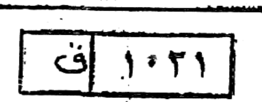
السيد الرئيس

يتشرف كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

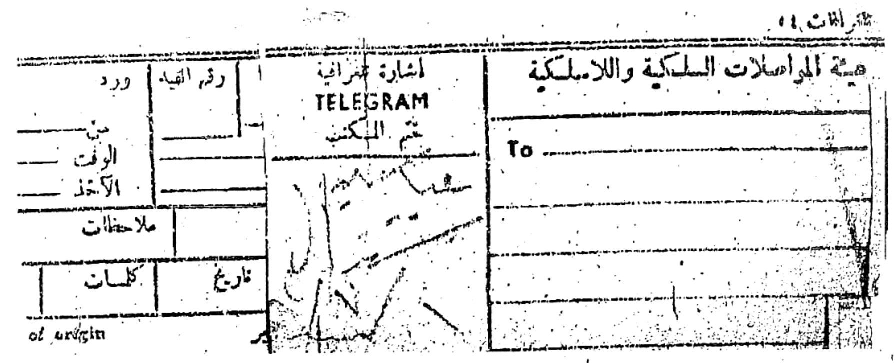
بدعوة السيد محمد محمد مرشدي بركات

لحضور حفل عيد العلم السادس الذي يقام في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة يوم الخميس ١٥ ديسمبر ١٩٦٠ وذلك في تمام الساعة الخامسة مساء

الدعوة شخصية
الرجا الحضور قبل الموعد بنصف ساعة



الرجا التفضل بالرد عند الاعتذار
تليفون ٢١٥٩١ - ٢٠٧٥٢



هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

اشارة تغرافية
TELEGRAM
ختم المكتب

To

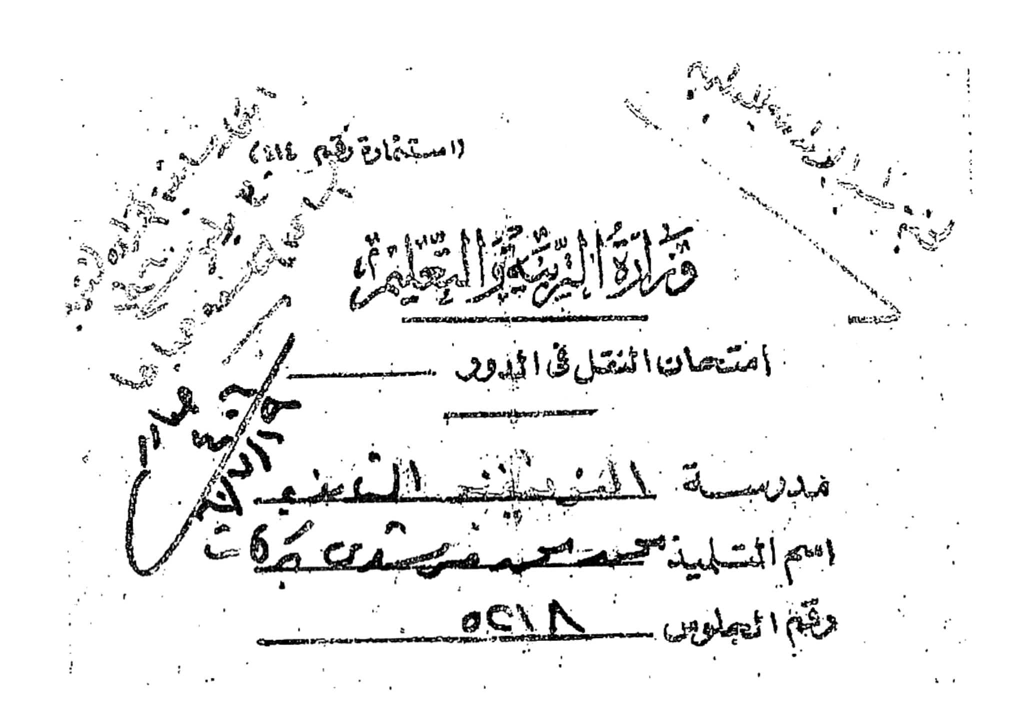
ورد | رقم القياد
من
الوقت
الآخذ
ملاحظات
كلمات | تاريخ

of origin

م ٢٥ صلاح الدين مصر الجديده ١٦ ٧/١ ٢٨

السيد محمد محمد رشدي مرشدي مركا ش ٩ العروبي عباسيه مصر

نرجو للمرشدي ليرده المجد الادبي والخلود الابدي... العقاد ...


(استمارة رقم ٤١٤)

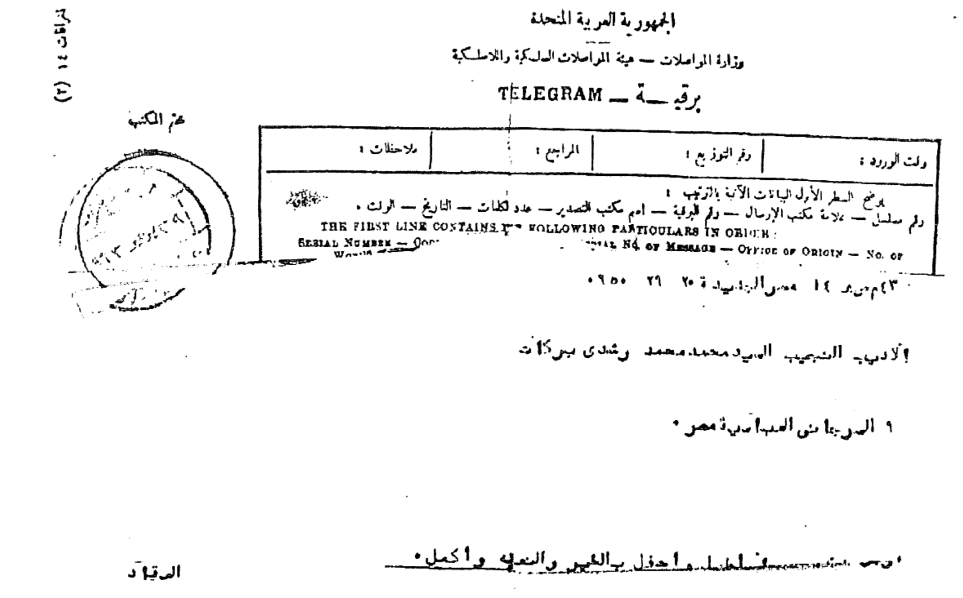
وزارة التربية والتعليم

امتحان النقل في الدور ________

مدرسة النهضة المصرية

اسم التلميذ جمال عبد الناصر حسين

رقم الجلوس ٥٢١٨



تلغرافات ١٤ (٢)

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة المواصلات — هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

برقيـــة — TELEGRAM

ختم المكتب

وقت الورود :	رقم التوزيع :	المراجع :	ملاحظات :

يوضع السطر الأول البيانات الآتية بالترتيب :
رقم مسلسل — علامة مكتب الإرسال — رقم البرقية — اسم مكتب التصدير — عدد الكلمات — التاريخ — الوقت .

THE FIRST LINE CONTAINS THE FOLLOWING PARTICULARS IN ORDER :
SERIAL NUMBER — ... NO. OF MESSAGE — OFFICE OF ORIGIN — NO. OF WORDS ...

٤٣ م ص ر ١٤ مصر الجديدة ٢٠ ٢٩ ٠٩٥٠

الأديب النجيب السيد محمد محمد رشدي بركات

٩ الدوبا ني العباسية مصر .

... واحتفل بالخير والنعمة وأكمل .

الرقاد

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التربية والتعليم
المنطقة الوسطى

مجلس الآباء

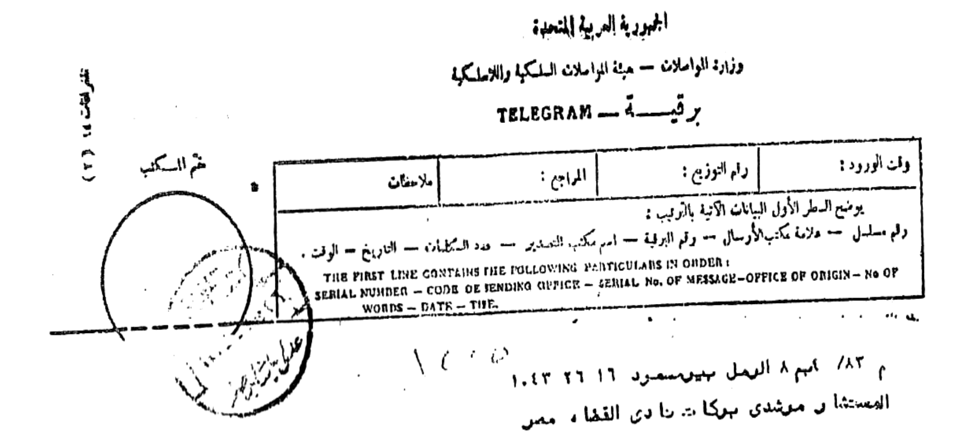
السيد الطالب/ محمد محمد مرشدي بركات

يتشرف مجلس الآباء بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا بدعوة سيادتكم لحضور الحفل الذي يقام بالمدرسة في تمام الساعة السادسة مساء يوم الخميس الموافق ٢٦ / ٥ / ١٩٦٠ بمناسبة انتهاء العام الدراسي وتكريم المتفوقين في أوجه النشاط المختلفة وتوزيع الجوائز عليهم

ناظر المدرسة ورئيس مجلس الآباء

محمد رشاد عبد المجيد

الدخول بالتذكرة والدعوة شخصية



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة المواصلات — هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

برقيـــة — TELEGRAM

ختم المكتب

وقت الورود :	رقم التوزيع :	المراجع :	ملاحظات

يوضح السطر الأول البيانات الآتية بالترتيب :

رقم مسلسل — علامة مكتب الإرسال — رقم البرقية — اسم مكتب التصدير — عدد الكلمات — التاريخ — الوقت .

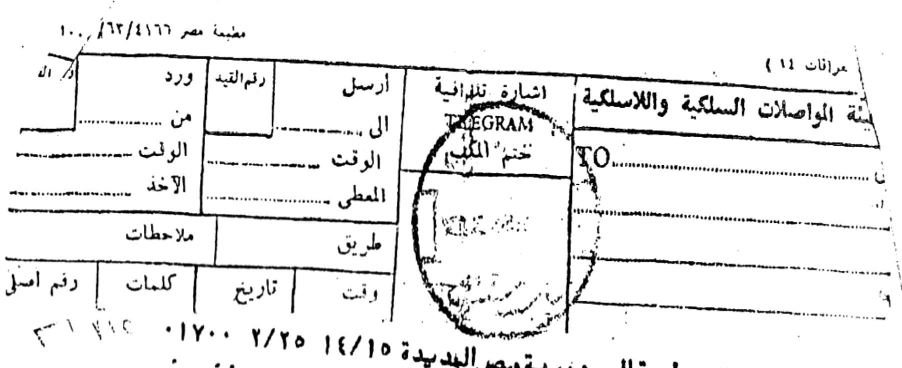
THE FIRST LINE CONTAINS THE FOLLOWING PARTICULARS IN ORDER : SERIAL NUMBER — CODE OF SENDING OFFICE — SERIAL No. OF MESSAGE — OFFICE OF ORIGIN — No OF WORDS — DATE — TIME.

م ٨٣/ امبم ٨ الرمل بيبسعود ١٦ ٢٦ ١٠٤٣

المستشار مرشدى بركات نادى القضاء مصر

اختياركم لتمثيل المستشارين دل على تقدم الوعى فأهنئكم

عبدالحميد الشرقاوى



مطبعة مصر ٦٣/٤١٦٦/ ١٠٠

هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

اشارة تلغرافية
TELEGRAM
ختم المكتب

ورد	رقم القيد	أرسل
من		الى
الوقت		الوقت
الآخذ		المعطى

ملاحظات — طريق

رقم أصلى	كلمات	تاريخ	وقت

TO

١٤/١٥ ٢/٢٥ ٠١٧٠٠

٨٦ ام ٢١٨٣ رئاسة الجمهورية مصر الجديدة ١٤/١٥
١/١/١٥ الاوبرا سنترال
السيد محمد محمد مرشدى بركات راسل
٩ شارع السرجانى المباسية الشرقية القاهرة

مـــــلاحق
























زيارة عبد الناصر للجنود والضباط فى خط الجبهة الأمامى


باق في قلوب الملايين






www.anwarsadat.org 2006©








صدام وعبد الناصر والأقزام


الزعيم الراحل
جمال عبد الناصر
البوابة نيوز












منتديات ورد للفنون
ward2u.com






http://albaath.online.fr/


جمال عبد الناصر




نحو حركة عربية واحدة
حرية .. إشتراكية .. وحدة
المؤتمر الناصري العام


kingsaud.org


n4hr.com


n4hr.com

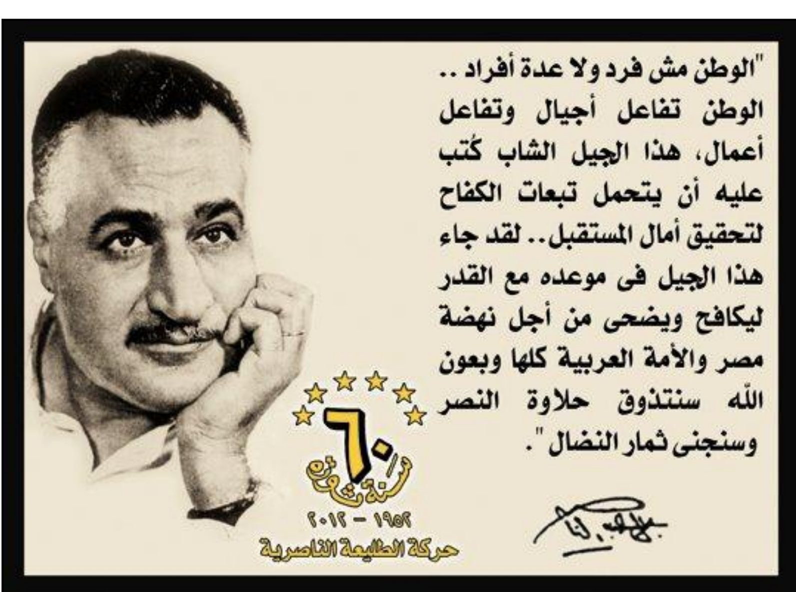

n4hr.com


n4hr.com
TEC




www.anwarsadat.org 2006©




"الوطن مش فرد ولا عدة أفراد ..
الوطن تفاعل أجيال وتفاعل
أعمال، هذا الجيل الشاب كُتب
عليه أن يتحمل تبعات الكفاح
لتحقيق أمال المستقبل.. لقد جاء
هذا الجيل فى موعده مع القدر
ليكافح ويضحى من أجل نهضة
مصر والأمة العربية كلها وبعون
الله سنتذوق حلاوة النصر
وسنجنى ثمار النضال".
٦٠ سنة ثورة
١٩٥٢ - ٢٠١٢
حركة الطليعة الناصرية